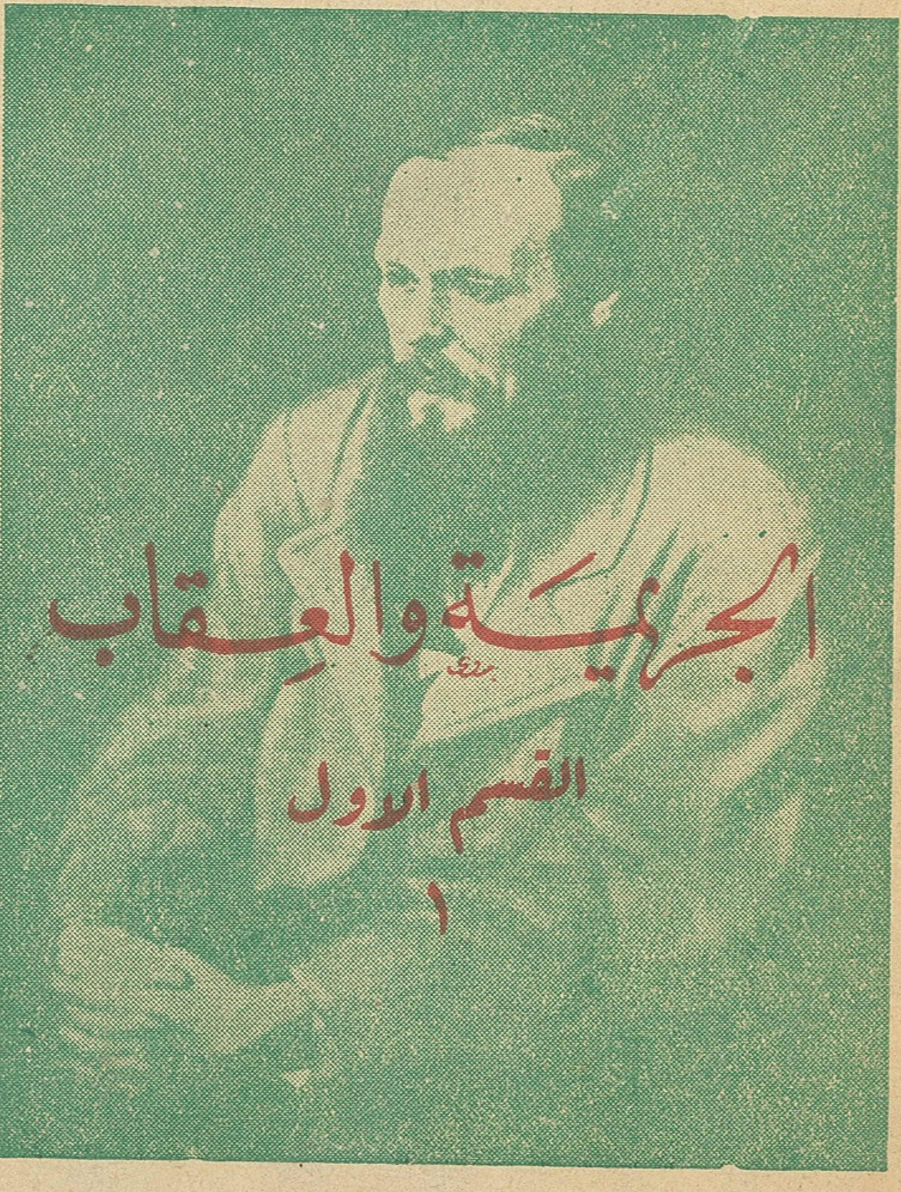
دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

دوستويفسكي



الجريمة والعقاب

القسم الاول

١

سلسلة عيون الأدب العالمي

١٤

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

القسم الاول

نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية نخبة من اسرة

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

استناداً الى التراجم الفرنسية والانكليزية ثم روجع
النص الاخير على الاصل الروسي

سلسلة عيون الأدب العالمي

١٤

« الجريمة والعقاب » أشهر مؤلفات الكاتب الروائي الكبير « فيودور دوستويفسكي » وقد لمع اسمها كقطعة رائعة من الانتاج العالمي الراقي ونالت من الشهرة ما جعلها تنقل إلى اللغات العالمية الحية ، وكان للدار اليقظة العربية بسورية شرف نقلها إلى اللغة العربية فسدت بذلك فراغاً كبيراً في المكتبة العربية .

بين يدي الكتاب

ان من أشق ما عاناه الفكر ، منذ أن جنح الى نقل آثار الأمم الآخري الى لغة أمته ، أن يستعير القلم الأصيل من صاحبه ثم يلبس عمامته وجبته — ان كان له عمامة وجبة — ثم يقبع في مكانه يتلو الأوردة والرقي ويتمتم التعاويذ حتى ينضح جبينه عرقا وتتقلص شفتاه شيئا فشيئا اذا هو واقع في غيبوبة عميقة مايلبث بعدها أن يستفيق عنها انسانا آخر لعله صاحب الأثر الاصيل .

ومن هنا كان على الناقل أن يتقمص شخصية المنقول عنه وينصهر في بوتقتها انصهاراً كلياً ويفكر بغير عقله وينقل بغير قلمه ليأتي الأثر صورة حية أو «نسخة ثانية » عن النص الاصيل ولكن بلغة أخرى .

ولو اقتصر الامر على هذا لكان هيناً على صعوبته يسيراً على مشقته، اذ أن على الناقل أن يعيش فكر المنقول عنه ، حتى اذا اطمأن الى أنه استطاع المضي في الطريق واستطاع بالتالي أن يعيش في أجواء ذاك الأثر كان عليه أن يتعرى من الثياب التي استعارها وينطلق من الاجواء التي أوجد نفسه فيها ليتمثل شيئاً فشيئاً ما عاشه ويعود سيرته الأولى رويداً رويداً ويعمل بكل أمانة وإخلاص على كتابة أفكار غيره بأسلوبه هو ، ويقرِّب ما وسعه الأمر ، بين واقعين أو بيئتين

هما واقع أصيل وواقع دخيل ... فاذا فرغ من ذلك سلخ على اللفظ حيـاة وأدرج فيه روحاً ونفخ فيه من وحيه لتأتي التعبيرات حية متحركة لا جمود فيهـــا ولا انقطاع ولا تبعثر فيها ولا تفكك .

ولا مندوحة من الاعتراف بأن الذين يقوون على أن يعيشوا حيـاة المؤلفين أنفسهم قلة ، وهم — مع كونهم قلة موجودون فعلا ألا أن الجمع بين أن يعيش الناقل حياة المؤلف ثم العمد الى الابداع في التعبير في اللغة المنقول اليهـا ونفخ الروح في ثني كلّ سطر وخلال كلّ فكرة أمر لم يقو عليه إلا قلة القلة وبضعة أنفار حباهم الله قدرة على أن يكونوا بقلبين اثنين واحد شرقي والآخر غربي .

على أن نقل الأثر من لغـة الى لغـة ومن جو الى جو يخضع لكثير من الشرائط المعقدة المقيدة كما يخضع لأساليب مختلفة كل الاختلاف بحسب الغـاية والوسيلة .

ولا يمكن لنا بوجه من الوجوه الأدعاء بان أثراً من الآثـار المنقولة قـد سلم من بعض الزيغ ومن بعض الزيف ، ذلك أن النـاقد الحصيف هو من ينظر الى الأثر كأثر أدنى ما يكون اقترابـاً من الاصل وأصدق ما يكون تعبيراً عن الجوهر دون أن يعنى بتتبع السقطات التافهة وتحرى الهفوات التي تند عن كل قلم وتصدر عن كل من تصدى للكتـابة ، وقصارانا — ونحن على ما نحن عليه من ضعف في الأداة والوسيلة — أن نقنـع بالأمانـة والصدق في النقل ، وأن يقوى الناقل على نقلنا من جونـا الخـاص الى جو المؤلف الذي أراده من وضع أثره .

وما نظرت في أثر من الآثار المنقولة — منذ مطلع النهضة إلى الآن — إلا وجدت القدح فيه أكثر من المدح ، وكل من تحرى العيوب وجدها ،فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عـــين السخط تبدي المساويا — كما يقول الشاعر — .

وإلى هنا أستطيع أن أقول بكل تجرد ووضوح لقد استطاعت هـذه الفئة المباركة من الناقلين والمترجمين السوريين أن تحافظ على الأمانة في النقل وأن تنقل الينا الأثر كما وعته وعاشته . وليس لنا أن نعتب على الناقل كونه عاش على هـذه الشاكلة ولم يعش على شاكلة سواها إذ أن العصمة لله وحده ولكن علينا أن نحاول ، جاهدين مخلصين ، أن نعيش حياة الأثر بصورة أكثر صدقاً اذا استطعنا الى ذلك سبيلا . فما زال المترجمون مغرزمين — كما يقولون في الشعر — ومازال أمامنا من الفسحة ما يسمح لنا أن نصل يوما الى مرتبة نقول فيهـا بحق وصدق لقد ملكنا أعنة النقل واستطعنا أن نعيش فكر المؤلف وأن نريق في كل لفظة حياة وفي كل خاطرة روحاً .

وإنه لمن باب الاعتزاز الاعتراف بأن دار اليقظة العربيـــة كانت وما تزال السباقة في مضمار تشجيع النقل ، فهي بذلك رائدة من رواد الترجمة ، فلم تدخر وسعاً ولا مالاً لتكوّن نواة مكتبه ناضجة فكرها غربي ولفظها عربي ،وهي بذلك ولا فخر تقدم للقارئ العربي خير زاد يلقح به فكره ويغني به جوه .

وقد استعانت الدار لهذا الهدف الأسمى بلفيف من الشباب المثقف النـاضج جعلت منه أسرة دار اليقظة العربية ، تمتنح ثقافته وتستغلها أشرف استغلال فتوعز اليه أن ينقل أمهات الكتب العالمية المعروفة الى اللغة العربية ليتمكن القـارئ العربي من السير في ركاب الحضارة الفكرية التي ازدهرت في العالم .

وإنه لمن المخزي حقاً أن يظل القارئ العربي متخلفاً من جهة ومحدوداً من جهة ثانية ، وقد أدركت الدار هذا العثار الذي يصاب به القارئ العربي فاقامت من نفسها وسيطاً بين الشرق والغرب ، تنقل الآثـــار الاجنبية الراقية الى اللغة العربية ، وليس ببعيد ذاك الوقت الذي ستنتقل فيه مرحلة النهضة من منفعلة الى فاعلة ، إذ تعمد الدار الى تكليف خيرة الشباب المثقف الناضج من أسرة الدار

الى نقل آثار اللغة العربية إلى اللغة الاجنبية فتحقق بذلك هدفا من أسمى الاهداف ويكون لها شرف فضل تعريف القارىء العالمي على الكاتب السوري خاصة والعربي عامة .

فاذا كانت مقتضيات النهضة توجب علينا في هذه الفترة أن نعمد الى ترجمة الآثار الأجنبية إلى العربية فتلك مرحلة لا يمكن إلا أن يمر بها كل من يحاول الوصول إلى الشاطىء الآخر من العالم .

عام ١٩٥٣

شـ د نـ

المقدمة

فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي

كانت أسرة دوستويفسكي لتوانية الأصل كاثوليكية المذهب وإن يكن جدها الأول كاهناً أورثوذكسياً يونانياً . درجت الاسرة في احضان الفقر ، فهم أبداً جياع إلى كلمة الله كما هم جياع إلى مايقيم الأود ويسد الرمق ، واستبدت بهم الحال حتى هاجروا عن لتوانيا الى أوكرانيا ليستبدلوا حياة غير حياتهم ومذهباً غير مذهبهم ، فعادوا الى الأورثوذكسية يعتنقونها كما عادوا إلى الارض ينقبون فيها عن اللقمة الخالدة . وكانوا أشبه بقبيلة من الرحالة المثقفين الذين تؤهلهم امكانياتهم لأن يرتادوا المكان الذي تطيب اليه نفوسهم ، لافرق في ذلك بين النعيم والجحيم ، شريطة ألا يكون ذلك المرتاد ظلمات بعضها

* * *

في الثلاثين من تشرين الأول سنة ١٨٢١ م ، وفي هذا الوسط الذي ذكرته لك ولد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي يوم كان أبوه رئيساً للاطباء في مستشفى من مستشفيات موسكو للفقراء ، وكان البيت يقع إلى جانب المستشفى

الذي يغص بالمرض في كل فصل من فصول السنة ، والذي ألحقت به حديقة غناء كانت ملعباً للأطفال ومرتاداً للشيوخ ومنتجعاً لكل فان يمشي إلى قبره بخطى واسعة .. تلك هي حديقة المرض التي تشكل إحدى ذكريات فيودور المبكرة الاولى . وأن وجدانه ليعي تناقض الحياة الغريب في هذا المكان الذي استوعب البؤس والفقر والمرض جميعاً . كما كان من دواعي استغرابه أن يتألم الانسان في جو مفعم برائحة الطبيعة ومتشرع بجمالها وحيويتها ، وكلما أغرق في التفكير كلما ازداد إيماناً بتناقض الحياة في كل مظهر من مظاهرها مما هز مشاعره هزاً ولمس أعماقه منذ الوهلة الأولى فرجها رجاً وخلف هناك دوياً مستديماً ستبقى أصداؤه تتجاوب في حنايا صدره طوال حياته الطويلة الشاقة .

* * *

يفصل بين الدار وحديقة المرضى جدار ضعيف ، وما كاد فيودور ينفض عن قدميه غبار الحبو على أربع ويستقيم ماشياً على قدميه في ضجيج وصخب وسقطات تلو سقطات حتى اجتاز ذلك الجدار الواهي المنخفض ليصل الى الحديقة الغناء .. غير أن أباه اكتشف هذا التطفل منه فعنفه بشدة وزجره بقسوة ومنع عليه دخول الحديقة أبداً مهدداً بقصاصه إن فعل ذلك . ولكن الصبي الغريب لم يحفل بما صدر عن أبيه من تهديد ووعيد وإنما جعل سبيله الى الحديقة ثلاث مرات يومياً يريد من ذلك أن يكون إلى جانب المرض رغبة منه في أن يقاسي مثلما يقاسون ويتعذب شبيه مايتعذبون ، لأنه كان على مثل اليقين أن أباه سيجلده اذا ماعرف باجتيازه الجدار الى الحديقة ، وهو في هذا الجلد سيتعذب ، ولا بدّ لمن يسير في الحديقة أن يتعذب وبذلك يحقق ماجاش في نفسه الطفلة من أنه سيكون معذباً بين المعذبين في أحضان الطبيعة الجميلة ...

تلك كانت أولى الذكريات العميقة التي استوطنت أعماقه ووضعت أولى

لبنات انسانيته التي لاتجاريها السانية .

وما كاد يلقي قدمه إلى السادسة عشرة من عمره حتى انتسب إلى مدرسة المهندسين في « بطرسبورج » نافضاً عن كاهليه حياة سجن رهيبة قضاها في دار أبيه ، إلا أن المدرسة لم تكن أرحم من تلك الدار التي ضمته ، ذلك أن الأساتذة والطـــلاب جميعاً طفقوا يعتبرونه أبلهاً فانقطع عنهم جميعاً وشعر بلون من ألوان الوحدة التي غرزت بنفسه الشعور بأنه لا رفيق له في الحياة إلا أحلامه « إني لأحلم بما هـو عظيم وجميل ، وإني لأعيش في عالم من الأحلام وأكتب مأساة وجـــدانية عميقة » فكان عليه بالتالي أن يعيش في « المحسوس » ، ومن أين له أن يعرف شيئاً عن المأساة الوجدانية العميقة بعد أن أمر الوالد ذريته بألا تأتي على ذكر النساء أصلاً إلا إذا ورد ذلك في رثاء أو بكاء .

غير أن شياطين مدرسة المهندسين كانوا يعرفون في السادسة عشرة كل شيء عن النساء فيتخذون من ذلك الشويعر الصغير الأبيض البشرة أضحوكة لهم وأهزوءة يهزأون فيها حيناً بعد حين فلا يكون من ذلك بالنسبة اليه إلا مجال جديد للانطواء على الذات والتنفيس عما به بالمطالعة ، فتراه يلتهم كتب الكتّاب الروس والاجانب على حـــد سواء ، فهـــو يطالع لـ « جوجول » و « بلزاك » و « هوفمان » و « شيللر » وأضرابهم دون أن يفضل كاتباً على كاتب ...

وما يكاد ينقضي وقت قصير حتى يتعرّف الى نفر ممن حباهم الله صفـــات تنسجم مع صفاته ، فهم فتيــــة حالمون ، يقرأون مادبجته يراع « بوشكين » ويقرضون بين الفينة والفينة أبياتاً من الشعر تعبر عن أحلامهم المحدودة وأهوائهم المحدودة ، لاهمّ لهم إلا الجري في أعقاب النساء يسرقون من هـذه نظرة ويلصون منها بسمة ترضي أفئدتهم الساذجة البريئة .

وتعلق الفتى بأذيال هذا اللفيف من الفتية وأغرم بهم إغراماً شـديداً فلبس

لبوسهم وجرى في حلبة مجونهم إذا هو بعد حين مطبوع بطابعهم ومرسوم بوسمهم ، غير أن أباه ماينفك بين الحين والحين يكتب اليه زاجراً ومؤنباً وناصحاً « أقم جداراً حول نفسك ونزّهها عن أن تندس فيما عليه زملاؤك .. »

ويبعث الفتى بالرسائل تلو الرسائل لأبيه طالباً منه عوناً مالياً علّه يشتري ثوباً جديداً أو يرّفه عن نفسه ترفيهاً جميلاً أو « يخطىء » في مجالات الحياة قليلاً ...

غير أن الأب لم يعد في ذلك المستشفى الذي عهدناه فيه وإنما يكون قد تركه ليبتاع أرضاً صغيرة في مقاطعة «تولا» تمتص منه جملة ثروته وجملة تفكيره أيضاً ، لذا نراه لايقوي على تزويد فتاه بما يبغيه من مال لمتعة أو ثوب ، ويغدق عليه بديل ذلك ألواناً من التعنيف والتوبيخ برسائل صادرة عن نفس قلقة وفكر حائر ويد مرتجفة .. وكان ذلك صنيع « الفودكا » في الأب دوستويفسكي ...

الا أن الرسالة الأخيرة التي وردته لم تكن مضطربة الخط ولا قلقة الخاطر والفكرة وانما كان فيها وضوح واختصار ، والتي يطالعها ليقرأ فيها أن أباه انطلق في رحلة الى ملكية مجاورة ولم يعد منها ... اذ وجدوه ميتا ، مدهوسا بعجلات العربة التي سافر فيها والتي اختفت مع سائقها اختفاء مريبا .. وأكبر الظن — فيما يتداوله الناس همسا — أن فلاحي دوستويفسكي الأرقاء قد أراقوا دمه ثأراً ، لأن أحداً منهم لم يعد يقوى على تحمّل ما يلقاه من عنته وتعسّفه وقسوته، فأجمعوا أمرهم مع عدد من أهل القرية ونفّذوا فيه قضاء الله وأوسعوه قتلاً انتقاماً وتشفّيا ...

ومنذ ذاك الحين لم يرد اسم أبيه على شفتيه ، وبقي مصرعه جرحا عميقا في أعماقه يغرقه بين الحين والحين في ظلمات ليل بهيم مرهق ...

* * *

كان الليل يعج بالرؤى التي تكيد له وتبعث الهلع في قلبه فلا يقوى الا على تسجيل تلك الرؤى والخلجات على القرطاس حيث تستحيل حديثا عن مغامرات نفسية عميقة مترعة بالأسى والعذاب ، أو بالأصح الأدق تستحيل حديثاً عن مآس تجري أحداثها ليس « خارج » أبطالها وشخوصها وانما في « داخلهم » في صميمهم لتتجمع أخيراً على شكل مجرد في صورة شيطان لا يحيد بأنظاره عنه انه الشعب الروسي ، هذا الشعب الكبير ... وسيحاول الفتى أن يفصح عن خلجات هـــذا الشعب وأهوائه وسيعمل جاهداً لعلائه ورفعته وسيصبح له عبداً ورقاً .. ولسوف يعبر عن خفايا هذا الجبل الوطيد من قمته الى سفحه .

ولقد سبق له أن شاهد القمة في بطرسبورج يوم اتصل برجال الفكر فيها ، أما السفح ، ومن يعيش على السفح ، فانه لما يتعرف عليه بعد ، فليتوجه اليه ولينطلق منقبا عن ملايين المخلوقات التي تعمره ، معذبة ، متفسخة ، موزعة في حانات قذرة لاهم لها الا احتساء « الفودكا » — شرابها الأصيل — وليستمع هناك وهنا الى أحاديث « أبناء أمنا الأرض » وليشرب معهم ما شربوا وليطرب ما طربوا وليلعب القمار كما لعبوا وليحن رأسه فوق أوراق لعبه حتى لا يلمّص أحـــد بريق عينيه الوقادتين وهما تتلألآن في وجه كئيب تمس بينا يرهف أذنيه ليحيط بكل شيء علمـا ويلتقط كل لفظة تصاعدت كلمـا ...

أما وقد ارتضى أن ينخرط في المجتمع وفي جماهير السفح ، وارتضى بالتـالي أن يلعب الورق فقد توجب علية أن يتوقع حظا سيئاً ، وقد أصابه هـــذا الحظ السيء فخسر ماله ولكنه أفاد حكمة وعقلا ، وقد كان سعيداً غاية السعادة فيما وصل اليه فـــلا تثريب عليه أن يفقد المـال ليصيب الحكمة ولا أن ينفق القرش ليستفيد المعرفـة ...

وتدرج الأيام ويدرج الطفل في ضميرها مفرزما وكوينبا .. حتي يقع مخطوط

له بين يدي الناقد الادبي الكبير « بيلنسكي » الذي عقّب على ذلك بكتاب أرسله اليه يقول فيه أيها الفتى . أو مدرك أنت ما كتبت في هذا المخطوط ؟ كلا ... انك أبعد ما تكون عن معرفة ذلك بل انك لاتستطيع أن تفهم بعد ...

ولم يكن ذلك المخطوط الذي سوّد صفحات دوستويفسكي الا ّ قصة أولئك البشر الذين ولدوا قبل أن يتم خلقهم ويصبح سويا اذا هم أكوام بائسة تمسة من الطين جبلتها أصابع ملائكة كلهم أخرق أحمق ، فجاءت المخلوقات هزيلة في نفوسها مشلولة في أعضائها ، عرجاء شوهاء في حركاتها وسكناتها ، يهيمن عليها لون من الوان الجنون ويؤطرها ضرب من الخرق ... لها العيون جميلة « فاتنة » ولها الأطراف ملتويةً عاجزةً ... تلك هي صور أبطال مخطوطة « المساكين » وقد نظر دوستويفسكي الى حياة هؤلاء المساكين نظراً طويلاً ممعنا ولكنه لم يستطع أن يجد منطقا أو يعثر على تناسق واتفاق .

وتلقى رسالة الناقد الكبير بكثير من الصبر والجلد وتلفّت من جديد ينقّب عن المفكرين ، حتى اذا وجدهم استدار اليهم يسألهم ، فهم القادرين على مدّ يد المساعدة اليه ليجد نظاماً يسلك الخليقة في سلكه وليعثر على معنى يسلك الحياة في اطاره .

ـ هؤلاء المفكرون هم القادة الذين سيبدلون وجه المجتمع ويجعلون عالي القيصرية سافلها ويبدعون جمهورية « الانسان الحر » وعلى هذا فالمنقذ ، أي منقذ الانسان ، لن يكون الآله وانما سيكون الانسان نفسه والعقل وحده ، أي عقل الانسان ، هو الذي سيعمل جاهداً ليضرم قلب الانسان ويؤرث فيه لهيب الاشراق ليحل محلّ ظلمات العذاب والألم المتراكم بعضها فوق بعض ...

ومن خلال هذه النظرة ،وخلال هذه الفكرة ، كتب دوستويفسكي قصته الثانية « الثاني » التي ما كادت ترى النور حتى طمسّها الظلمة ففشلت فشلا ذريعا بعد أن نفض يده منها ذاك الناقد الأدبي الكبير « بيلنسكي » وكانت حماسته لها دون حماسته للقصة الأولى .

والناظر في موضوع قصة « الثاني » يجدها على نقيض قصة الأولى «المساكين» فهي لا تميل الى « المذيين والمهانين » وانما تتمركز على وصف مشاعر غير واعية ولكنها ثائرة متمردة .

ويخرج دوستويفسكي من هذه الهزيمة ليشرع بكتابة قصته الجديدة «نيتوتشكا » بعد أن انضم الى صفوف أولئك المثقفين المفكرين الذين يريدون أن يقلبوا الأوضاع الأجتماعية رأساً على عقب ويحلّوا الانسان محلّه اللائق تحت الشمس . وجمع صوته الى صوتهم ضد ظلم الظالين من السلطات والحكام والطلق يجتمع الى الاشتراكيين تحت راية الاشتراكي الفرنسي « فوريه » ويقضى عليه أن يعتقل في أحد الاجتماعات ويساق الى قلعة « بطرس وبولس » بعد محاكمة وهمية ، ويقبع في معتقله ينتظر حكم القضاء فيه .

وفي ذاك المعتقل كتب قصة قصيرة بعنوان « بطل صغير » يصف فيها يقظة عاطفة الحب عند صبي صغير .

لقد حبسوا جسده وما قدروا على حبس فكره إلا إذا قدروا على حبس « اللانهاية » بين جدران الزنزانة الأربعة ...

وجاء حكم القضاء عاجلا خاطفاً ، ولم يكن سوى نقله في مثل لمح البصر من معتقله في « بطرس وبولس » الى ساحة الاعدام ، حيث تتوافد عربات المجرمين السياسيين من كل حدب وصوب .

وكان الجو بارداً رطباً والميدان ، ميدان الاعدام ، يعج بكتائب الجنود الموكول اليهم أمر تنفيذ حكم الاعدام ، ويرافق هذه الكتائب كاهن صامت يحمل بين يديه صليباً صغيراً ، وكانت مهمته هي سوق المحكومين بثيابهم البيضاء الناصعة الى منصة الاعدام المجللة بالسواد الفاحم . .

وتلامح وجه فيودور دوستويفسكي وهو ينتظر الموت في القافلة الثانية تبرق

عيناه ويتوثب فكره مشرقا نيراً ، فما هي إلا دقائق معدودات ثم يساق كما يساق رفاقه ليقضوا نحبهم على تلك الشاكلة البشعة .

وما تكاد تلك اللحظة الحاسمة تدنو حتى يتراءى على البعد فارس شاكي السلاح يعدو بأقصى سرعته متجهاً إلى منصة الاعدام وحاملا بيده رسالة ... إنها من القيصر ، ذاك « الأب » الصغير الذي أخذته الشفقة على أولئك المحكومين والرأفة بهم فبدل حكم الموت بالنفي الى سيبريا .. .

وما أن تلي كتاب القيصر حتى جنّ أحد المحكومين وطفق آخر يبكي بكاء مراً ذلك أن أحداً لم يكن ليرتضي هذه الرحمة وتلك الرأفة ، وإنه لمن الخير لكل محكوم أن تزهق روحه وتخمد أنفاسه هنا على منصة الاعدام من أن يعيش في سيبريا وله في كل يوم ميتة وفي كل ساعة احتضار .

وفي عشية الميلاد شرع دوستويفسكي يسير على الدرب المؤدية الى سيبريا ... وتتالت عليه المحطات بطيئة ثقيلة ، وما كاد يصل المحطة الأولى حتى اقتربت منه امرأة ودفعت اليه كتاباً ، إنه الكتاب المقدس ، الدليل العملي الوحيد لكل مسافر إلى تلك الأصقاع النائية ... وأخذ فيودور يقلب صفحات الانجيل فوجد في ثني أوراقه ورقة من فئة الخمسة والعشرين روبلا ... وأيقن بالتالي أنه قد أصبح لديه ما يكفيه لشراء التبغ والثياب والصابون والخبز الأبيض أيضاً ، إلا أن ذلك لن يكفيه لشراء بعض راحة فكره واطمئنان قلبه إذ كانت تعتاده خاطرات رهيبة تأخذ بخناقه وتسد عليه منافذ الأمل ... كيف سيقوى على الحياة ويداه وقدماه مشدودة جميعاً إلى السلاسل الثقيلة ؟

كيف يقوى على الحياة ويداه اللتان لم تحملا سوى الريشة إلى الآن مشغولتان بالأشغال الشاقة ؟

ومن هم رفاقه اليوم ؟ إنهم أبرز لصوص روسيا ومجرميها وقتلتها وسفاحيها فهم قساة برابرة ، لن تعرف التوبة سبيلا إلى قلوبهم الغليظة .

إذن فالجريمة ليست في سوقه إلى أصقاع سيبريا النائية ولكنها في التآمر على فكرة الحي المتوقد يرقد بين هؤلاء اللصوص والقتلة وسفاكي الدماء ...

ولكن فكره يأبى أن يذبح ، فهو في عمل دائب مجد ، تشغله مشكلة المصير الانساني مرة أخرى ، فتراه يكمل في سيبريا وفي معسكر الاعتقال مابدأه في خانات بطرسبورج منذ سنوات قريبة .

« إن التأمل الأبدي المديد والهرب إلى نفسي من الواقع المرير قد أعطيا ثمرتها المرجوة ، وإن لي اليوم من الحاجات والآمال ما لم أحلم به قط في الأيام الخالية ... »

وما انفك فيودور يعمل فكره دون هوادة أو لين حتى أشرق عليه نور جديد وانطلقت أمام باصرتيه اشعاعات جديدة تومئ الى أن « افتداء مالا يفتدى لن يتم بوساطة الانسان وحده بل بوساطة قوة خارجة عن الانسان » ، وانه ليلتفت متطلعاً نهماً الى الكتاب المقدس ليرى من خلال الخمسة والعشرين روبلا التي وجدها في ثني أوراقه شيئاً آخر غير هذه الروبلات المحدودة التي قدر أنها تدفع عنه غائلة الجوع وتمكنه من تناول الخبز الابيض ... لقد أدرك الآن أن في رسالته الى العالم نوعاً جديداً من الخبز ، يراه أكثر ضرورة من ذاك الذي حسب أنه سيجوع اليه ... لقد اكتشف خبز النفس الأبيض ... وعلى هذا فلا مندوحة عن أن ينقذ الانسان ، وسيكون انقاذه على يدي الله الذي سيخلص هذا المخلوق الخاطئ والقديس معاً .

على أنه اذا كان الله هو الذي سينقذ الانسان الخاطئ و « يخلصه » فأي خطر يكمن وراء الخطيئة اذن ؟

والناظر في الخطيئة يجدها تجربة موضوعية يستدينها الانسان على حساب رحمة الله ، وهي بالتالي اختبار ضمني لصلاحه وفضيلته واستكناه لقلبه الطيب الكبير .

ترى ، هل يعلم أولئك المثقفون القابعون في « بطرسبورج » منقبين عن عالم أفضل خلقاً وأكمل خلقاً أن صلب يسوع كان يفقد كل معنى من معانيه السامية لو لم يسمر قاتل الى جانبه على الصليب ؟.. « ذلك أن الله قد خلق الخاطيء وأن الخاطيء قد خلق الله »؟..

إن عالم الكمال المنطقي الذي ينشده مثقفو بطرسبورج سوف يقضي على غاية الله المبدعة الخلاقة بل « سوف يقضي على الله نفسه » كما يرى دوستويفسكي وان من واجبنا الحتمي أن نفتش تحت سطح الأشياء لنجد منطق الاشياء الحقيقي .

وينتفض دوستويفسكي هذه الانتفاضات التي تخرجه الى حد بعيد من ذلك الجو المنكود المحدود الذي أراد له القيصر أن ينفق فيه شبابه وينحر فيه أيامه . .

على أن كل شدة الى رخاء وكل عسر الى يسر فما تكاد تنصرم أربع سنوات على انطلاقه الى سيبريا ليعمل في الاشغال الشاقة هناك حتى يأتيه الفرج على شاكلة إعفائه من الاشغال الشاقة شريطة أن يكون جنديا في سيبريا وحدها ويظل يتنقل في المرتبات العسكرية حتى يصل الى رتبة ضابط وعندها وحدها يحق له أن يسترد حريته السليب كاملة غير منقوصة ...

ومن هنا أطل عليه أمل الخلاص مما كان يعانيه من بؤس وعذاب ليس لوصفها حد ... فمها امتد أجل الجندية فهو صائر في الخاتمة الى ضابط ... أما لو أنه استمر معتقلا ، منفياً ، يعمل في سيبريا ، محكوما بالاشغال الشاقة ، فهذا

وحده معناه أنه لا خلاص مما هو فيه إلا بما لا بد منه من انتحار ارادي أو موت غير ارادي .

وتنصرم خمس سنوات وفيودور في كتيبة عسكرية متمركزة في قرية « سيميبالايتسنك » الصغيرة ، وهناك رعش فؤاده الرعشة الاولى ليخفق بحب ماريا ديمتر يفنا زوجة رئيس كتيبته ...

كانت « شقراء تسمو الى مرتبة الجمال ، ربعة في الطول ، أمضها الهزال فهي نضر ، ملتهبة العواطف حتى لتحسبها عاطفة متأججة » في حين كان زوجها يعاني سكرات الموت ، فشتان ما هما من شباب وعاطفة ومن مخلوق يتلقفه شدق الموت فيلوكه دون أن يتمكن من ابتلاعه أو بصقه ...

وكانت تعتاد فيودور أفكار يرى خلالها أن عليه ألا يتزوج أبداً ، ذلك أن مرض الصرع الخطير كان قد تظاهر عنده أثناء سجنه ، وكان يعاوده في فواصل منتظمة . وقد حدثه الاطباء أن المصابين بمثل هذا المرض الخطير يقضون غالباً بصورة غير طبيعية ، وها هو ذا الآن ، وما يزال في الثلاثين ربيعاً من عمره ، يسقط في شباك الحب فتلتهب عاطفته التهاباً مخيفاً ويجتاحه الحب اجتياحاً جارفاً .

ويقضي رئيس الكتيبة ، زوج حبيبته ماريا ديمتريفنا ، فيتزوجها فيودور ضارباً بنصيحة أطبائه عرض الحائط بعد أن استقر في يقينه أنه برئ من مرضه وعاد سليما معافى .

وما كاد يضمها الى ذراعيه حتى تناثرت الشائعات هنا وهناك تومئ الى أن الأرملة أنفقت عشية عرسها مع عاشق آخر دون زوجها الجديد في السن ، وسنرى أن هذا العاشق الجديد سيلحق بحبيبته ماريا عندما ينال دوستويفسكي اجازته بالعودة الى روسيا نهائياً .

وأخيراً هبط الشتاء يحمل الرطوبة من جانب والحمرة القرمزية الى وجنتي ماريا من جانب آخر ... وتراءى في الأفق ما يشير الي أنها لن تلبث أن تلحق بزوجها الأول الراحل بين حين وحين ، فنفقت سوقها عند حبيبها الصغير والصرم من شبابها الغض وصباها الناضر ما كان يغرى بالخيانة ويدفع الى الاثم ...

* * *

في هذه الايام كان فيودور ينضج فكره في مشكلة الشر ، فهي شاغله الذي مافتيء يأخذ عليه كل جانب من جوانب حياته .

وأنشأ خلال هذه الفترة من عمره قصتين لا تتصلان باقامته الطويلة في سيبريا بسبب من قريب أو بعيد ، أما أولى القصتين فهي « القرية ستيبانشيكوفو » وأما القصة الثانية فهي « حلم العم » وقد أنتجها سنة ١٨٥٩ ومن ثم كتب « ذكريات بيت الموتى » سنة ١٨٦١ ، ويمكن اعتبارها وثيقة نفسانية رائعة أبدع فيها وصف حياته طوال الفترة التي قضاها في المنفى ، ويغلب عليها طابع الهدوء والرزانة وينتشر في ثنيها ذاك الرثاء العميق لأولئك الرفاق المحكومين ولا تبخل بكلمات لطيفة على فريق من السجانين إذ أنــــه تكشف لدية أن في هؤلاء المجرمين « نفسيات عميقة » تحمل القوة والجمال ، وقد ضلت نفوسهم بجريرة لم يكونوا بمسؤولين عنها أبداً ...

وقد حفلت هذه السنة (١٨٦١) بانتاج ضخم بالنسبة اليه ، إذ أصدر في بطرسبورج مجلة دورية « فريميا » ـ الزمان ـ وذلك بالاشتراك مع أخيه ميخائيل وقد ضمت تلك المجلة كتابه « المعذبون والمهانون » .

* * *

ما من مرة عاد بذكرياته القهقري إلا تبدت أمام ناظريه حديقة المرضى التي طالما ألهبت عواطفها وأججتها ، وإنه ما يزال يذكر أن المريض يظل أبداً بجانب



فیدور دوستویفسکی

من الجدار والسليم بجانب آخر ، وقد علقت بذهنه نظرة إلى ذلك ترى أن المريض لا بد أن يموت ، أما السليم فيجب أن يعيش حقاً وصدقاً .

ونشطت أهواؤه من عقالها بعد أن طال أسارها حتى وجدت لها مادة في شخص « أبوليناريا بانكراتيينا سوسلوف » وهي طالبة في ريعان الصبا وميعة الشباب ، كانت تسير في المظاهرات الاشتراكية حاملة راية حمراء وفي فمها الاناشيد الحماسية و « المارسيليز » بصورة خاصة ، وقد استمعت الطالبة النجيبة الى فيودور يوما وهو يحاضر فكتبت اليه في الغداة تخبره أنها تحبه ...

« كانت شهوانية في غير عنف ، جلدة حتى في الحب ، وكانت تقسوى على ارتكاب جريمة بكثير من عدم المبالاة .. فهي باردة كجليد الشتاء ، تنظر الى الجميع دون اكتراث كأنها راهبة من راهبات القرون الوسطى ، على أنها رغم ذلك لم يكن في الوجود امرأة تعدلها في شهوانيتها ... »

أما عاشقها فيودور فقد كان يتنازعه انسانان فانسان منها يعمل جاهداً ليجد حلاً لمشكلة الجريمة والعقاب ، ذلك أن دوستويفسكي كان قد افتتح أيام وجوده في سيبريا أنه لا يمكن أن يقوم هناك تعادل بين الجريمة التي يرتكبها الانسان والشر الذي تقترفه يداه وبالتالي بين العقاب الذي يناله . وكان هذا التفكير مدعاة لأن يسوّد دوستويفسكي بضع صفحات يجمع فيها ملاحظاته ويرسم أشخاصه ويناضل لينحت في كلمات معدودات قصة « راسكولنيكوف » .

ألم يعاهد فيودور نفسه أن يسبر دائماً أغوار العالم الباطني وأن يعيش ويموت في صومعة فنه ؟

وإنسان من ذينك الانسانين يطير أبداً على أجنحة حلمه ، عابراً أوروبا باسرها مع « أبوليناريا » التي تصده وتعذبه وترهقه صدوداً وعذاباً وتحمله على أن يحبها ويبغضها في آن واحد وأن يجثو على ركبتيه أمامها والعبرات ملء عينيه

متوسلاً اليها ليلة بعد ليلة ألا تغلق باب مخدعها دونه ... إذ وجد في ذلك وسيلة جديده يذلّ بها نفسه وينمّي حبه وحسّه .

ولا تلبث أن تصل إلى مسامعه أخبار امرأته ، فهي وشيكة الانطفاء ، فتراه يسارع اليها يرعاها أبداً ويرقبها وهي تذوي جذوة جذوة وتنطفىء ومضة ومضة وتبصق في كل قطعة دم من رئتيها جزءاً من حياتها وقبساً من ضيائها حتى خبا المصباح وانطفأ نور السراج وعادت الظلمات فوق بعضها تتراكب .

يطلّ عليه خلال هذه الفترة أمران. فأما الأول فهو أنه حين رجع الى بطرسبورج من رحلته في أوروبا ، نشر مجلته ــ الزمان ــ « ملاحظات الشتاء عن انطباعات الصيف » (١٨٦٣) ، وهي وثائق عما شاهده في الغرب من مراءاة لاعلاج لها تسم الغرب بميسمة سيء ، إذ كان يرى في الغرب جثة لا حياة فيها ! وقد تعلم عن الغرب أن يقامر بذاك الهوى العاتي التي وضعه في قصته « المقامر » وأما الأمر الثاني فهو هجره « أبوليناريا » بعد أن اكتشف أن لها علاقة بعشيق آخر في باريز ، ومن ثم ساءت العلاقات بينهما باستمرار حتى انتهت الى درجة الحقد والكراهية .

وبينما كان فيودور دوستويفسكي يعيش هذا الواقع المضطرب أرسل له أحد أصدقائه « آنا غريغوريفنا سنيتكينا » ليملي عليها كتابه الاخير !

وتنظر « آنّا » في خشية وذهول في محيا هذا الرجل الذي يكتب « الجريمة والعقاب » إلى جانب سرير زوجته التي تلفظ أنفاسها الأخيرة .

ولما شارف الكتاب على نهايته ودبّ الاضطراب في كيان دوستويفسكي قالت له « أ نّا » : « فيودور ! إنه من المتعذر أن يجتمع جيلان ، أمّا كائنان بشريان فيستطيعان ذلك... » ، وكان هذا الحديث الخاطف سبيلاً لزواجها منه..

ونجده خلال هذه الفترة تتوالى عليه الأحداث ، إذ كان في حالة يرثى لها

مادياً بعد أن خسر آخر فلس معـه على مائدة القمار في أوروبا ، واضطر أن يستدين من « أبوليناريا » ثمن بطاقة العودة الى وطنه، ومن جانب آخر فقدمنعت السلطات مجلته من الصدور فاضطر إلى اصدار مجلة جـــديدة باسم « أبوخا » ـ العصر ـ » ولكن سرعان ماُمني بالفشل الذريع ُبعيد صدور الأعـــداد الاولى ، فتكدست عليه الديون من كل حدب وصوب وأخذت بخناقه فعاش حياة كلها قلق واضطراب ؛ ولعله لم يتزوج من « آنا » بدافع الحب ، إذ نجـده على صلة مستمرة مع « أبوليناريا » فهو يراسلها حتى بعد زواجه الجـديد ؛ ولكنّ « آنا » كانت روحاً طيباً حقاً ، إذ أحبته بملء قواها واستطاعت باخلاصها أن تكسبه أخيراً فكانت له زوجاً ورفيقاً وسكرتيرة وممرضة .

وعندما انتهى من كتابة قصته تساءل بينه وبين نفسه : «حـدثني ، هل الله موجود ؟ .. » .. وما يكاد يطرح هـذا السؤال الرهيب حتى يصل الى مسامعه صوت رهيب أيضاً ، يخترق الحجب والأستار ويأخـذ بيده ليقوده (مثل دانتي) الى مستقرّ الملعونين : « إن الانسان إنما يخلص لأن الشيطان موجود فحسب ، ولأنه بالتالي لايكتسب الوعي الا ّ بوساطة هذا الشيطان !! » .

وبعد أن صدرت روايته الكبيرة « الجريمـة والعقاب » أصبح من المتعارف عليه أن ّ فتياناً وفتيات يقصدونه في داره متحدثين عن مصير الانسان الاجتماعي فاذا ذكروا أمامه أحلامهم عن إسقاط القيصر وتأسيس جمهورية على غرار الجمهوريتين الفرنسية والامريكية ، رجعت به الذكرى الى أيام منفاه ، يوم كان يعيش بين القتلة والسفاكين ، وتراه بين الفينة والفينة يهز رأسه يمنة ً ويسرة في حزن عميق هاتفاً : « لا .. إن ما نحتاج اليه لنجدد العالم لم يكن العنف مطلقاً ، بل كان فعلاً ً عظيما ... انه ثورة عظيمة منبثقة من الداخل » ...

غير أن ّ هؤلاء الذين كان يخاطبهم دوستويفسكي بهذا الكلام كانوا يعترضون

عليه وبريق النار يكاد يتحدّر من محاجرهم قطعاً من نار : « ولكن . . . كيف تقوى على حمل هذه الفئات من البشر على أن تنبثق هذه الثورة العظيمة ، بل هذا العمل الجبار ، من الداخل كما تقول ؟ . . » ولكنه لايلبث أن يردّ عليهم قائـلاً : « وما الحاجه الى دعوة « هذه الفئات من البشر » ؟ . . . أفلستم تدركون القوة الجبارة التي يمكن أن يبدعها إنسان صالح واحد ؟ ألا فليظهر رجلٌ صالح واحد، ولسوف يتبعه الناس أجمعين !!! »

وما أسرع ما جرت ريشته ليمثّل إنساناً نبيلاً وكاملاً حقاً ، ليمثل صورة عن الجمال المطلق ، فجاءت الصورة لابسةً « الأمير ميشكين » في روايته « العبيط » ؛ ولكنه سرعان ما كتب بالمقابل « الأبالسة» ليرفض بعنف عات تلك المدنية الغربية المزيفة والتقدم الغربي الزائف : ولم يكن ذاك الرفض نتيجة كراهيته المـدنية — كما فعل تولستوي — وإنما لأنه على النقيض من ذلك يحبها اشدّ الحب ؛ ولأنه يحبها فهو يرفض بعنف أسسها المادية التي النفس وتقضي على الروح !

ولقد سبق له ان شاهد في الغرب تلك الرأسمالية الفقيدة الروح ، ورأى الى جانب ذلك تلك التفاهة الصارخة التي ترين عليه والتي تدعو للسأم والضجر ،ولذا فهو لن يستطيع أن يتصور مستقبل الانسانية إلاّ عن طريق تنظيم جديد شامل يبدل كلّ شيء ويقلبه رأساً على عقب !! ..٠

* * *

وتنقلب صفحة من صفحات الزمن ، إذا بنا نجد دستويفسكي وقـــد أصبح مظهرُه غريباً في سنوات حياته الأخيرة ، ونره من جانب آخر وهـــو يخترق الحجب الواحد تلو الآخر شاقاً دربه الى أغوار نفسه العميقة ؛ وإنه لينطلق في حديقته ، مطرق الرأس تحت وطأة أفكاره المرهقة ! فأي إنسان هو هذا المخلوق المركب من سقط المتاع كما هو مركب من اللهيب ، هذا الملك الشيطان العظيم ؟..

الحكمة في جنونه ، وجنون العظمة في حكمته ؟..وإنك لتراه يخلق أبطال قصصه مجانين وحكماء ، قديسين ومجرمين ،ومجرمين،وتراه بالتالي يستنطق كلاً منهم الجواب على لغز الحياة ! ...(١)

وإنه ليسير في الطرقات يرهف السمع الى ما يقوله أولئك الناس الذين يمر بهم ، فتراه يصغي لكل كلمة ، ويلتقط كل شاردة وواردة ، ويتصيّد كل ابتسامة أو لفتة ، منتظراً ان يكون في احدى هذه المظاهر ذاك الجواب الذي يترقبه !

ونراه من جانب آخر يرتفع بأفكاره الى مستوى يسمو على وجدان النـاس قاطبة، ويخفق بأجنحته الجبارة عبر الزمان والمكان ليرى شمساً جديدة وارضاً جديدة أيضاً.

« إن البحر الزمرّدي الضاحك وهو يلعن الشطران يُقبلها في محبة بيّنة تكاد تنطق عن تلك العاطفة الواعية ؛ وإن الاشجار الطويلة الرائعة المنتصبة بعظمـة وقوة تحييني أوراقها التي لا تحصى بصدىً عذب الجرس ناعم الايقاع ... »

« ... وكان الغسق ملتهباً بألوانٍ براقة ، كما كانت تدّوم في الجو شراذم من الطير وتحط دون خوف على كتفي ويدي ، تداعبني في كثير من المرح باجنحتهـا الصغيرة المرتعشة ... لقد كانت الأرض كأنها لم يدنسها العدوان بعـد ، يعيش عليها بشر لم يعرفوا الخطيئة حتى الآن ... لقـد أروني أشجـارهم ، ولكنني لم أستطع فهم الحب العميق الذي يتطلعون به اليها ... وإني لمقتنع أن هؤلاء البشر كانوا على اتصال بكواكب السماء بطريقة ما ... ولم يك لهم دين ، ولكني على مثل اليقين من أن لهم المعرفـة الاكيدة بأنهم إذا ما استنفدوا مرحهم الارضي فلسوف يبدأ بالنسبة إليهم آنذاك اتساع عظيم ليحتكوا بالكون جميعاً... لقد كانوا مغرمين ببعضهم إغراماً شاملاً عميقاً ... ونظروا إلي بأعينهم الغـالية ،

---

(١) كتب في هذه الأثناء روايتيه الكبيرتين (المراهق - ١٨٧٥) و (الاخـوة كرامازوف ١٨٨٠) كما أصدر (مذكرات كاتب ١٨٨٠) .

المفعمة حباً ... ولكنني أفسدتهم جميعـــاً !.. أما كيف أمكن أن يتم ذاك الافساد فهذا ما لست أدريه ... وكل ما أعرفه هو أنني المسبب لذاك السقوط ! ولقـد تعلموا أن يكذبوا ، وأن يحبوا الكذب ، وعرفوا بالتـالي جمـــال الأكذوبة !!!...

وشرعوا يتكلمون لغات مختلفة ، وتوصلوا إلى معرفة « الحزن » ، وبالتـالي إلى محبته ، وأصبحوا وبهم حنين الى العـذاب ، وأضحوا يقولون : إن الحقيقة لا يمكن أن تنبثق إلا من الألم !!! وعنـد ما كانوا يغضبون كان يأخـذ بزمامهم الحديثُ عن الأخوة والانسانية ..! وكذلك عند ما ارتكبوا الجريمة أجدوا لها العدالة وكتبوا لأنفسهم هذه المدونات من القوانين ليحافظوا على تلك العـدالة ، ثم أقاموا المقصلة ليحفظوا تلك المدونات من القوانين ..

وسرعان ما ظهر رجال يتساءلون كيف يمكنهم أن يتحدوا بحيث لا يعترض أحد منهم سبيل الآخر ، في الوقت الذي يحب فيه نفسه كأكثر ما يحب أي شيء في الوجود ... ومن هنا اندلعت نيران حرب عظيمة في سبيل هذه الفكرة ... ولقد بكيت من أجلهم كثيراً ، وأشفقت عليهم إشفاقاً بعيداً ، ومـددت ذراعي اليهم ، متهماً نفسي ، وأخبرتهم أن ذلك جميعاً لم يكن من صنعي وحــــدي ... ورجوتهم أن يسمروني على الصليب ، وعلمتهم بالتــــالي كيف يصنعون صليباً ، ولكنهم لم يفعلوا ، وقابلوا ذلك جميعاً بالضحك مني ، وطفقوا يحسبونني مجنوناً ... حتى إذا أدركت ذلك أيقنت أنه لا بد من الاستيقاظ من هذه الغفوة ، فاستيقظت ، ورفعت يدي الى العلاء وناديت الحقيقة الأبدية !! . »

وأخيراً ، وبعد طول عناء ، ترامى إلى مسامعي الجواب ، عبر ظلمات الضلال الانساني الممتزج بالعذاب والجنون معاً : « لسوف يأتي ... أجل سيـــأتي اليه الانسان الذي سخر العالم منه وسماه مجنوناً عبيطـاً ... ولسوف يتعلمون كيف

يتأثرون خطاه عند ما يلقنهم المعنى الحقيقي العميق للخير والشر ! وإن الذي يوقع الألم ، وبالتالي الذي يقع عبء الألم عليه ليسا مخلوقين مختلفين بل هما الجسد الواحد نفسه ، والروح الواحدة نفسها ..! وإن كل انسان مسؤول عن أفعال الجنس البشري بأسره مسؤول عن أفعال كل انسان !.. ولسوف يأتي هذا الذي يسمونه « مجنوناً عبيطاً » ويحل في هذه الارض حيث يلوح الانسان حقيقياً ، وهو ليس إلا مجرد شبح ، كما يتراءى اليه أيضاً على أنه نور وهو في واقع الأمر حقيقة خالدة ؛ وعند ما يحل هذا المخلوق السامي ويعلمنا الحقيقة الواحده وهي أن سائر البشر ، من أرفع قديس إلى أوضع قاتل ، إنما يتلمسون طريقهم بدروب مختلفة نحو ينبوع النور الوحيد ، نور الذاتية الشاملة ، نور المحبة العميقة العامة » .

* * *

وإنه يفكر ، ويغرق في التفكير عند ما يحس شيئاً غريباً على يديه ، فينظر ، ويحدق ، ويلحف في التحديق ليجد دم رئتيه قد انصب فيها ... « والحياة غير جديرة بان يلعنها اللاعنون ، كما أن الموت غير جدير بأن يرهب جانبه ... »

وتبكي امرأته وأبناؤه حول الجثمان الذي أحاطوه بالدموع ...

ويرسل حكماء روسيا قاطبةً رسائل التعزية الحارة ، بينما تتصاعد من جوف الليل أصوات الرهبان وطلابهم وهي ترتل الصلوات الاخيرة ...

« يا أبنائي ..! لا نحننَّ الى حياة أبدية مقبلة ، يا أبنائي ..! ما لم نتوصل للخلود على هذه الارض فاننا لن نبلغ اليه إذن أبداً ..! إن الخلود هنا ، وفي هذا الوقت بالذات ... وإن هناك لحظات يجب أن نصل اليها ، إنها لحظات من الوجود الاكثر رفعة والأبعد سموّاً ، وذلك عند ما يقف الزمن جامداً لا حراك به ، وتذوب كل حياة بشرية في حياتكم الخاصة ، فتلك هي لحظات الخلود ... »

« إن الجنس البشري بكامله لم يتحرك بعدُ نحو هذه اللحظات الكاملة ،

هذه اللحظات الخارجة عن نطاق الزمان » ، ذلك أن معنى الحيـــاة ليس في « استمرار » الانسان من جيل الى جيل بل استحالة الانسان من وحش الى ملك سام ، من خاطئ الى قديس !

إن الحياة هي صعود مستمر من المستويات المنخفضة الى المستويات العالية في الوعي ، حتى تصبح لحظه القديس الاسمى ، حقيقة الخاطئ الابدية ، « وعندها تنتقل الخليقة باسرها من الدياجير الى الانوار » ..

* * *

وحملوه ، بين الالحان التي لا تنتهي ، وبين الدموع التي ما تنفـــك سجاما ليواروه رمسه الخالد الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٨١ !

الجناح الثقافي

الكِتَابُ الأول

الفَصلُ الأوّل

في مساء يوم من أيام تموز ، والحرارة فيه على أشدهـــا ، خرج شاب من غرفته المؤثثة المتواضعة ، الكائنة في الطابق الخامس من البناء القائم في شارع « س » وهبط السلالم ثم اتجه ببطء نحو جسر « ك » بعد أن نجح في تجنب لقاء صاحبة البيت التي كانت تقيم في جناح خاص في الطابق الادنى وترقب من يهبط من الاعلى خلال باب المطبخ الذي يطل على السلم والذي كانت تتركه مفتوحاً أبداً . وكان يخشى لقاءها لانه كان مديناً لهـا بمبلغ كبير لقـاء سكناه في تلك الغرفة التي تشبه الزنزانة ولقاء الطعام الذي كانت تقدمه اليه ؛ فكان يهاب ذلك اللقاء ويشعر بارتباك واضطراب كلما اراد التسلل من الدار .

وليس مرد ذلك خوفه وانكساره ، انما كان بسبب الانقباض والتطير اللذين لازماه منذ حين . فقد عاش منطوياً على نفسه في عزلة تامة يوقره العوز وتسحقه الفاقة حتى بات يتهيب المقابلات على اختلاف ألوانها ...

وبلغ به الحال أن ارتضى بما أحاطه من شظف وجوع بعد أن كان يشعر انه بمرارة وألم . فأهمل الموارد التي كانت تكسبه خبزه اليومي وعزف عن البحث عن سواها ...

لم تكن صاحبة الدار لتخيفه حقاً مهما بلغت نواياهـا المبيتة ضده ؛ لكنه ما كان يطيق الوقوف معها على « بسطة » السلم والاصغاء الى ذلك السيل المتدفق من الكلمات التي تنطلق من فمها حول موضوعات لا تهمه في قليل أو كثير ، والتي يعقبها دائماً إلحـاح متكرر بلزوم دفـع ما عليه من ديون ، إلحاح توشيه

التهديدات والشكايات وتضطره من جانبه الى اختلاق الحجج والاعتذارات والكذب... فكان يفضل أن يتسلل على السلم كالقط الحذر وأن يختفي دون ان يراه احد؛ حتى اذا ما بلغ الطريق، تخلى عن مخاوفه أو تخلت عنه لتعود اليه في محاولته التالية عندما تدعوه الحاجة الى الخروج من جديد !

ولم يكد يبلغ الشارع في تلك الليلة حتى تبخر الخوف الذي يلازمه من دائنيه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة وراح يحدث نفسه قائلا :

« كيف يثير هذا الامر التافه في نفسي كل هذا القلق وانا أتدبر موضوعاً خطيراً كالذي انا بصدده ؟ . . . صحيح ان كل شيء في متناول يد الانسان ، ولكنه يفلت كل شيء بنذالته وجبنه . انني متلهف لمناقشة هذا الامر كمبدأ لأعرف ما يخيف الرجال اكثر من سواه ... لا شك أن ما يخيفهم لا يتعدى مجرد اجتيازهم خطوة في سبيل تنفيذ فكرتهم ، أو تلفظهم بكلمة دون تدبر ... بيد انني اثرثر كثيراً . . . ولأنني اكثر الكلام لا اعمل شيئاً .. او على الاصح انني اثرثر لافتقاري الى العمل ... ولقد تعلمت ذلك خلال هذا الشهر بسبب بقائي اياماً كثيرة منطوياً في ذلك الجحر افكر في كل شيء وفي لاشيء . . .

ولكن لم اذهب الآن الى هناك ؟ هل استطيع تنفيذ ما اعتزمته ؟ هل يعقل ان اكون جاداً في ذلك ؟ لا أعتقد أنني جاد في عزمي . .. انني اخدع نفسي بوهم يداعب مخيلتي . ولكنه لا يتجاوز حد الدعابة . نعم الدعابة . »

كان الجو خانقاً والحرارة لا تحتمل ، والشارع مزدحماً بالناس وقد تناثرت على جنباته « السقالات » المنصوبة وقطع القرميد واحجار الكلس ، وعبق الجو بالغبار والعفن التي يتفرد بها الصيف والتي ألفها فقراء بيترسبورج الذين اقعدهم سوء حالهم عن ارتياد امكنة الاصطياف .

لم تكن أعصاب الشاب المتعبـــة لتحتمل مثل تلك المناظر المجبولة بالاحاسيس المؤلمة التي ترهق الاعصاب . أضف الى ذلك روائح المشارب المتوافرة في ذلك الجزء من المدينة والسكارى الذين يلاقيهم السائر أينما اتجه . . . كل ذلك كان يضفي على هذا الخليط من المشاهد لونا قاتماً تتقزز منه النفس .

بدا الامتعاض واضحاً على قسمات وجه الشاب الدقيقة ... ولكنه كان انطباعاً خاطفاً سرعان ما تلاشى . ولم يلبث أن استغرق في تفكير عميق واستولى عليه نوع من الذهول ، فراح يتقدم في طريقه دون ان يرى شيئاً مما حوله أو ان يحاول رؤية ما يحيط به .

لم يكن قبيح المنظر هزيل التكوين ، بل كان مليحاً يلفت النظر ، ذا شعر أشقر فاتح وعينين داكنتين وقامة فوق الوسط ، رشيقاً متين البنيان . كان يسترسل احيانا في مخاطبة نفسه على جري عادته التي ألفها في ايامـه الاخيرة واعترف بهـا ، ثم لا يلبث ان يضبط نفسه ليعترف بان افكاره مضطربة متوترة وأنه كان خائر القوى منذ أن امضى اليومين السابقين دون أن يتنـاول طعاماً يذكر .

كان يرتدي ثيابا بالية لم يكن ليخرج بمثلها الى الشارع لولا اعتياده عليها وإن سكان ذلك الحي لايلقون بالاً الى مثل هذه الامور .

اقترب من « سوق العلف » حيث تقوم متاجر من طراز خاص ، ويقطن عدد من الصناع والعمال تزدحم بهم شوارع هذه المنطقة من بيترسبورج وأزقتها ، وبدت لعينيه صورة نشيطة حافلة بالحركة ، لا تدعو مجالاً للخوف من التعرض لنقد المارة اذا ما وقعت ابصارهم على مظهره الشاذ الزري . لكن نفسه كانت طافحة بشعور من الاحتقار الاهوج حتى انه رغم سرعة التأثر المعروفة فيه والتي كانت تبلغ لديه احياناً مبلغ السذاجة ، كان يعرف ان خجله من عرض اطماره في

الشارع لن يكون اكثر منه في عرضها في أي مكان آخر. بيد انه كان يخشى ان يقابل بعض معارفه واصدقائه القدماء الذين كان عازفا عن لقيام والاحتكاك بهم.

وحدث ان مر سكير كان محمولا لغير ما سبب على عربة كبيرة فارغة. فلما حاذاه هتف به قائلا: «اسمع يا هذا ... يا صانع «البرانيط» الالماني!» فتوقف الشاب فجأة وامتدت يده بحركة عصبية الى قبعته المائلة على جانب رأسه على أبشع شكل! لقد كانت قبعة مستديرة عاليه كان اشتراها من محلات «زيمرمن» لكنها خلقت لكثرة الاستعمال وحال لونها وامتلأت بالثقوب واللطخات وتمزقت حوافيها، وخامره شعور لا يمت بصلة الى الارتباك بل بالفزع...

تمتم قائلا: — لقد كنت اتوقع ذلك. وانها لهفوة عظيمة هذه التي اكاد اتورط فيها. إن اتفه الاشياء تكفي لتعريض القضية كلها للخطر ... نعم إن هذه القبعة تلفت إلي الانظار. لانها مضحكة وهذا هو السبب الذي يجعلها محط الانظار؛ فلو استبدلتها بقبعة من ذات الطرف الواحد «كاسكيت» لانسجمت تماما مع أسمالي. إن أي كساء للرأس مهما كان قديما افضل من هذه التي لم يعد يمكن تسميتها والتي لا يقبل احد أن يضع مثلها على رأسه فهي ترى عن بعد ويبقى شكلها عالقاً في الاذهان. نعم ... لسوف يذكرونها ... وستصبح عندئذ دليلا على إدانتي.. بينما ينبغي ان امر في هذا الظرف دون أن ألفت الي الانظار. نعم.. شيء تافه بل شديد التفاهة ولكنه يكفي لافساد كل التدابير. وعلى الغالب تفسد أتفه الاشياء جلائل الامور!

لم يكن يقصد مكانا قصياً، بل كان يعرف عدد الخطى اللازمة لبلوغ هدفه ابتداء من باب مسكنه.. نعم.. لقد كان عليه ان يقطع سبعمائة وثلاثين خطوة تماما. فلقد عدها لما كان مشروعه كامناً في نطاق التصور.. ولم يكن ايؤمن في

ذلك الحين بمثل تلك الاحلام وبامكانية تحقيقها ، بل كان يكنها في اعماقه ليدخل البهجة والرضى على نفسه متسأثراً بجرأة تلك الاحلام المخيفة الحافلة بالمغريات .
ولكن ها قد مضى على ذلك شهر كامل . وبدأ ينظر الى الامور ويتخيلها من زاوية مختلفة. وعلى الرغم من انه كان يعيب على نفسه خلال مناجاته لها قلة نشاطه وتردده وعدم ثقته ، الا انه اعتاد برغمه على اعتبار « ذلك الحلم الكريه » امراً جديراً بالعناية وها هو الآن في طريقه للقيام « بتجربة » لمشروعه ، فلا عجب اذا تعاظم اضطرابه مع كل خطوة .

اقترب من بناء كبير يشرف احد جانبيه على القناة والآخر على شارع « ع » وقد اجتاحته هزة عصبية عنيفة ، كان هذا البناء المقسم الى مساكن صغيرة ، مأهولا بعدد من الصناع من مهن مختلفة بين صانعي اقفال وخياطين وطاهيات وكان فيه ألمانيون من فئات مختلفة ، وفتيات من بائعات الجسد وموظفين صغار مما جعل حركة الدخول والخروج دائمة خلال البوابتين الكبيرتين والناس يخترقون الساحتين الملحقتين بذلك البناء الضخم في طريقهم الى السلالم. وكان امر العناية بالبناء موكولا الى ثلاثة أو اربعة من الخدم . فكان سروره عظيما حينما لم يصادف منهم احداً وهو يجتاز البوابة ويتسلل الى الداخل صاعداً سلماً الى اليمين . كان الظلام شديداً في ذلك السلم الضيق المعد للخدم . ولكنه كان قد اعتاد صعوده حتى اصبح ملماً بكل دقائقه ؛ وشعر انه في تلك الظلمة بمنجاة عن كل عين باحثة .

ولما بلغ الدور الرابع ، راح يناجي نفسه قائلا : « ماذا يكون حالي من الخوف اذا حدث وجئت لتنفيذ « الخطة » وانا الذي ارتعد فرقاً من مجرد التجربة ؟

التقى هناك بجنود قدماء ـ اصبحوا حمالين بعد تركهم الخدمة ـ كانوا يسدون

عليه الطريق وهم ينقلون اثاث مسكن اخلاه مؤخراً موظف الماني كان يشغله مع اسرته، وكان يعرف هذا سلفاً ، فراح يحدث نفسه على عادته قائلا : «ان هـــذا الالماني يرتحل اذن ، ولن يبقى في هـــذا الجزء من البناء الا تلك العجوز ، لا بأس .. انها معلومات مفيدة على اية حال .. » ، ثم قرع باب العجوز .

ند عن الجرس صوت صدئ وكأنه لم يصنع من النحاس بل من الحـديد (التنك) الابيض شأن كل الاجراس التي في المساكن الصغيرة المشابهـة لهـذا المسكن ، ولقد ذكره صوت الجرس الذي كان قد نسيه ، بواقعة لم يلبث أن تمثلها في خاطره .. فارتجف فجأة وشعر بان أعصابه لن تستطيع الاحتمال اكثر مما احتملت .

انفرج الباب قليلا ، ومن خلال الفتحة الضيقة ، راحت صاحبة المسكن تعاين هذا الدخيل بحذر واضح . كانت عيناها تلتمعان في الظلام ، فلما شاهدت الحمالين يعج بهم المشى ، اطمأنت بعض الشيء وفتحت الباب على مصراعـــه ، فاجتاز الشاب العتبة ليدخل الى حجرة امامية صغيرة غارقة في الظلام تؤدي الى مطبخ يفصله عنهـــا حاجز من الخشب ، ووقفت العجوز امامه تتفحصه بنظرها بسكون .

راح بدوره ينظر اليها : لقد كانت عجوزاً عجفاء قصيرة القـامة تحمل على كاهلها عبء اعوامها الستين ، ذات عينين مستديرتين ثاقبتين وأنف صغير مدبب ووجه اقرب الى الشراسة . كانت عارية الرأس يلتمع شعرها الاشهب من الزيت الذي ضمخ به ، وكانت تحيط عنقها الطويل الدقيق الشبيه بساق الدجاجة ،بخرقـة من النسيج القطني وقد ألقت على كتفيها فراء رثاً متآكلا ، وهي لا تنفك تسعل سعالا عميقاً . ولعلها لمست في نظرته شيئاً غريبا اذ سرعان ما ارتد اليها حذرهـا وعادت الى عينيها نظرات الشك التي استقبلته بها .

تذكر الفتى انه يجب ان يتقرب اليها وأن يكون لطيفاً مستملحاً ، لذلك انحنى امامها باحترام وهو يتمتم قائلا :

ــ اسمي راسكو لنيكوف ، وانا طالب علم . ولقد جئت اليك منذ شهر تقريبا . . .

فاجابت العجوز وهي تضغط على كل كلمة من كلماتها دون ان تزايلها النظرة المتشككة :

ــ اذكر يا صديقي انك زرتني من قبل .. نعم انني اذكر ذلك تماما .

فاردف راسكو لنيكوف وقد اقلقه حذر العجوز كما ادهشه :

ــ حسناً . . لقد عدت في سبيل امر من نوع ذلك الذي سبق ان عرفته . .

ثم سكت وراح يحدث نفسه قائلا : « لعلها حذرة هكذا دائما .. غير انني لم الاحظ ذلك في المرة السابقة .. » وتملكه شعور كريه .

صمتت العجوز كأنما تفكر فيما قاله الشاب ، ثم اشارت اليه بيدها نحو باب الغرفة وقالت وهي تفسح له الطريق :

ــ فلتدخل ياصديقي ..

كانت الغرفة صغيرة يكسو جدرانها ورق اصفر وتزين النوافذ ستائر من « الموصلين » تضفي عليها الشمس الغاربة في تلك الساعة ضياء قويا . وبنظرة سريعة ، شملت الغرفة ومحتوياتها ، حاول راسكو لنيكوف ان يطبع في مخيلته معالمها . اتضح لديه من نظرته الاولى ، انه ليس فيها ما يلفت النظر ، كان اثاثها القديم البالي يتألف من اريكة ذات مسند عريض من الخشب المليء بالعقد ، وطاولة بيضوية الشكل موضوعة بالقرب منها ، يضاف الى ذلك منضدة زينة ذات مرآة في حاجزها وعدد من الكراسي المرصوفة بحذاء الجدران ، وكانت لوحات غير ذات

قيمة تحيط بها اطارات متداعية مهشمة ، تمثل فتيات المانيات يحملن في ايديهن العصافير ، معلقة على الجدران ، وفي احد الاركان اضيء قنديل امام تميمة دينية « ايقونة » صغيرة .

لكن جو الغرفة كان يوحي بنظافة دقيقة . فقد كانت قطع الاثاث ملمسة مصقولة والارضية الخشبية مطلية بالشمع ولامعة حتى ليتعذر اكتشاف ذرة من الغبار في المسكن كله .

لم يمر الشاب بهذه البادرة دون ابداء ملاحظته لنفسه على عادته إذ قال :

— « لا يمكن لغير هؤلاء العجائز المترملات الخبيثات ان يحطن انفسهن بمثل هذه النظافة » .

وراح يتطلع بزاوية عينه بفضول الى ستار من قماش هندي يخفي وراءه بابا يؤدي الى غرفة ثانية — لم يدخل اليها قط من قبل — تحوي على سرير العجوز وخزانتها .

تبعته العجوز الى الغرفة وانتصبت واقفة امامه لتعود الى تفحصه والتدقيق في قسماته عن قرب ، ثم سألته بلهجة جافة :

— ماذا تريد ؟

فاخرج الشاب من جيبه ساعة دقيقة قديمة من الفضة وقد نقشت على غلافها الكرة الارضية وتدلت منها سلسلة من الفولاذ وقال :

— لقد جئتك بشيء ترهنينه !

— ولكن الرهن السابق قد حل اجله منذ ثلاثة ايام ..

— لا تبتئسي .. سوف ادفع لك فائدة شهر آخر ، فصبراً . .

— سأصبر اذا شئت يا بني وانا في حل من بيع المرهون منذ الآن !

— وهل تعطيني كثيراً لقاء هذه الساعة يا آليونا ايفانوفنا ؟

— آه .. انك تأتيني باشياء تافهة عديمة القيمة . انت تدري يا صديقي أنني في المرة السابقة رهنت لك ذلك الخاتم لقاء روبلين رغم انه يمكن شراء مثله من اي صائغ بروبل ونصف !

— حسناً ، اقرضيني اربع روبلات ولسوف اعيدها اليك واسترجع ساعتي لانني ورثتها عن ابي ، انني ساحصل على مال في فرصة قريبة .

— روبل ونصف اذا اردت ، وعلي ان احسم منها الفوائد سلفاً .

فصاح الشاب مستنكراً : — روبل ونصف ؟ ..

— لك الخيار في اخذها او رفضها .

وارفقت قولها باشارة من يدها التي تحمل الساعة فقدمتها اليه . . . اطبقت اصابع الشاب عليها ، لقد بلغ من ثورة غضبه ان كاد ان ينسحب . . بيد انه تمالك نفسه بسرعة حينما فكر في انه لا يملك شروى نقير ، وطمأن نفسه بانه ما جاء لهذا الغرض وحده ، لذلك فقد قال لها بصوت خشن قاس :

— حسناً .. هات المبلغ . .

نبشت العجوز في جيبها بحثاً عن مفاتيحها ، ثم مضت الى الغرفة التي يحجب بابها الستار . ولما انفرد بنفسه ، راح يرهف السمع بفضول وقد استغرق في الحدس والتخمين . تناهى الى اذنه صوت الخزانة وهو يفتح فناجى نفسه قائلا : « لعل المال في الدرج الاعلى » . حسناً . . انها اذن تحمل مفاتيحها في جيبها الايمن وهي جميعها في حزمة واحدة تجمعها حلقة من الفولاذ وبينها مفتاح اكبر من الاخرين بثلاث مرات لا شك انه ليس لباب الخزانة . وعلى هذا فان لديها ولا شك صندوق حديدي وهذا مما يثير الفضول . . فالصناديق الحديدية كلها تفتح بمفاتيح من هذا الطراز .. ولكن كم امقت هذا ..

رجعت العجوز بعد برهة وابتدرته قائلة :

— باعتبار فائـدة الروبل الواحد عشرة « كوبيكات » في الشهر ، فان مجموع الفائدة التي يجب ان اتقاضاها سلفاً عن روبل ونصف هي خمسة عشر كوبيكا ، يضاف اليها فائدة الروبلين اللذين اقرضتها لك في الشهر الفائت ولم تردهما ، وهي على هـذا الاساس عشرون كوبيكا ، فيصبح مجموع الفـائدة خمسة وثلاثين كوبيكا ، ويبقى لك على ساعتك هذه روبل واحـد وخمسة عشر كوبيكا ها كها . .

— كيـف ذلك ؟ الن يبقى لي اذن الا روبل واحـــد وخمسة عشر كوبيكا ؟

— تماما . .

لم يعقب الشاب بكلمة، ومد يده فاخذ المال وراح ينظر الى العجوز كما لو كان لديه ما يفعله او ما يقوله لها دون ان يستطيع تحديد ذلك القول وذلك الفعل على وجه الدقة ، واخيراً قال :

— علني آتيك في الايام القريبة المقبلة بشيء آخر ، قطعة فضية على شكل علبة سجاير فاخرة انتظر ان يردها إلي قريبا احد الاصدقاء .

ثم صمت مرتبكا ، فقالت آليونا ايفانوفنا:

— سنتحدث عن ذلك في حينه يا عزيزي .

اتجه نحو الردهة وهو يقول بلهجة اجتهد ان تكون بريئة بسيطة :

— الوداع .. وعلى فكرة ، هل انت دائما وحيدة في البيت ؟ هل لا تمكث اختك لديك احيانا ؟ .

— ماذا يهمك من شأن اختي ؟

— لا شيء البته .. لا تتصوري شيئا .. الوداع يا آليونا ايفانوفنا.

خرج « اسكولينكوف » وهو فريسة اضطراب متزايد . وراح وهو يهبط

السلم ، يتوقف احيانا وكأنه اقتنع بامر ما فجأة . ولما بلغ الشارع هتف :

ـ آه يا ربي ! كم هو مقيت كل هذا .. هل من المعقول .. هل من المعقول . . ان أ ... ثم اضاف مؤكداً : « لا ، انها حماقة ، انه محـال . . هل حقيقة مرت برأسي فكرة مريعة كهذه ! يا للحمأة التي يستطيع قلبي ان يضمها في اعماقه . . انه شر الضرر ، بل القـذارة ، الخزي الملطخ بكل ذلك . . كلما افكر انني هدهدت هذا الامل .. »

كان يفتقر الى التعابير والكلمات القـادرة على التعبير عن الشعور الذي كان يهزه . فالاشمئزاز العميق الذي كان يعذبه ويقلقه حينما كان في طريقه الى مسكن هذه العجوز ، بلغ من شدته وامتداده في نفسه درجة جعلته عاجزاً عن الافلات من ضيقه وتبرمه الحاليين . مضى في سبيله يذرع الرصيف مترنحاً كالرجل الثمل دون ان يلقي بالاً الى المـارة الذين كان يصطدم بهم . ولم يتجلد ويتماسك الا عند ما ابتعد عن الدار المشؤومـة بشارع كامل . اجال بصره فيما حوله . فاذا به امام حانة تطل على الطريق يهبط النازل اليها على سلم يقوده الي طبقـة سفلى ، واذا باثنين من السكارى يخرجان منها وهما يتساندان ويتشاتمان . ودون ان يفكر في الامر هبط « راسكو لنيكوف » الدرجات الى الحانة .

لم يكن قد دخل حانة من قبل ولكنه كان يشعر بدوار في رأسه وبعطش حاد في جوفه ، كان يشتهي ان يشرب كأساً من « البيرة » المنعشة وكان يعزو ضعفه الى الجوع . انتحى ركناً معتماً قذراً وطلب لنفسه الشراب ، وعب كأسه الاولى بشراهة ؛ فشعر براحة وعادت افكاره اكثر وضوحاً وتركيزاً ؛ راح يخاطب نفسه يحفزه امل جديد :

ـــ حماقات هي كل هذه الافكار .. ليس في الامر ما يزعج . ان هـــذا

التشوش مرجعه مادي ؛ ولسوف استعيد قوة التفكير بعد ان اعب قدحاً آخر واتناول قطعة من (البسكويت) ؛ سيعود الي صفاء افكاري ورباطة جأشي .. نعم لا شك ان هذا كان عديم الاهمية . .)

شع في عينيه بريق خلفته الوداعة التي اعقبت الراحة النفسية التي شعر بها ، وبدا كأنه قد تخلص منذ حين من حمل كان يبهظ كاهله وراح يلقي على الموجودين نظرات مفعمة بالود والصداقة . غير ان شعوراً غامضاً كان يؤكد له ان هذا التفاؤل الذي غمر نفسه يرجع كذلك الى حالة مرضية .

لم يكن في الحانة الا نفر قليل من الرواد في مثل تلك الساعة .. فقد غادرها في اعقاب الثملين — اللذين رآهما يخرجان منها عند دخوله — خمسة اشخاص يجذبون معهم فتاة ترقص على انغام (اكورديون). فلما خرجوا ، عم السكون في المكان وران الهدوء . ولم يبق في الحانة الا رجل - يبدو انه من الباعة - يعاقر كأساً امامه وقد سيطر عليه الشراب . . بينما كان زميله - وهو رجل طويل القامة ضخم الجثة - يرزح تحت وطأة المسكر . كان يترنح على مقعده يميناً وشمالا ؛ ومن حين الى آخر ، كان يستفيق من غفوته فيباعد بين ذراعيه مقلداً الراقصات ؛ فيتلوى جسمه الممتلئ الضخم بفعل تلك الحركات الوتيرة التي كان يزاولها وهو جالس في مقعده ، كان يدمدم بصوت نشاز(لازمة) ويحاول تذكر الابيات التابعة لها فتخرج من فمه متفككة متعثرة :

خلال عام داعبت زوجتي .

خلا ،. ل عام دا .. عب . . ت زوجتي . .

ثم يصمت ويغفو حتى اذا استفاق من جديد راح يغني :

كنت امر بالباديا لشيسكايا

عند ما وجدت صديقي الطيبة . . . .

وغني عن القول انه كان وحده يطرب لغنـــائه بينما كان صديقه يقـابله بمظـاهر التقزز والاستنكار كلما انفجر في غنـــائه بعـد اغفـاء طويل !
كان هناك ايضاً رجل آخر يلوح عليه انـــه موظف متقـاعد . . . كان يجلس منفرداً وهو يتنـاول من كأســـه جرعـات صغيرة بـين الحين والآخر ويسرح طرفه حوله . . . كان يبدو انه فريسة اضطراب معين . . .

الفَصْلُ الثّانِي

لم يكن « راسكو لنيكوف » ميالاً الى المجتمعات بل كان كما أسلفنا ، يتحاشى كل احتكاك مع الناس وخصوصاً في الآونة الاخيرة . غير انه في تلك اللحظة ، كان يشعر بدافع يجتذبه الى اقرانه من الناس وكأن ثورة قامت في كيانه جملته يتنكر لعزلته ويندفع ساعياً وراء اقامة علاقات مع الآخرين ! كان ذلك الشهر المؤلم الحافل بالعزلة والاحاسيس المختلفة قد نال منه لدرجة راح بعدها يحس برغبة قوية في التعرف الى جو جديد وعالم جديد حتى ولو كان مرذولا موبوءاً . وهكذا شعر بسرور دفعه الى المكوث في مكانه اطول مدة ممكنة .

كان صاحب الحانة منزويا في حجرة مجاورة للبهو العام لكنه كان لا يفتأ يتردد على « الصالة » الرئيسية حيث زبائنه يشربون ويسمرون فيهبط اليهم درجات كثيرة تظهر منه بادىء ذي بدء حذاءه اللامع الانيق ذا الساقين الحمراوين . . ولم يكن يضع حول عنقه رباطاً بل كان يرتدي تحت « الرودنكوت » المنسجم مع قامته ، صدارة من الساتان الاسود شديدة القذارة وكان وجهه يلمع من الشحم اشبه بقفل غمس في الزيت حديثاً . ووراء الخوان ، كان ينتصب غلام يكاد يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، بينما يقوم غلام آخر اصغر سناً على خدمة الزبائن . وكانت حلقات من القثاء معروضة على شكل ساعة ، الى جانب قطع من « بسكويت » حائل اللون وشرائح من لحم السمك تفوح منها رائحة كريهة . .

وكانت الحرارة شديدة خانقة لا تحتمل والجو مشبعاً برائحة الكحول حتى انه يكفي ان يتنفس المرء خمس دقائق فيه حتى يثمل .

يحدث احيانا ان نلتقي باشخاص نجهلهم تمام الجهل ومع ذلك نشعر باهتمام بهم وبدافع يقربنا منهم قبل ان نبادلهم كلمة واحدة . . كذلك كان شعور « رانسكو لنيكوف » حيال ذلك الرجل الجالس في معزل عن الآخرين . . ذلك الذي يلوح عليه انه موظف متقاعد .. فلم ينقطع عن النظر اليه خصوصاً وان الموظف بدوره كان يرقبه بالحاح ، والرغبة في التقرب منه واضحة على وجهه . بينما كان ينظر الى الآخرين بما فيهم صاحب الحانة ، نظرة عادية ، نظرة خبير ، طافحة بنوع من الترفع المقرون بالاشمئزاز وكأنهم يأتون بعده في رفعة المقام والمكانة الاجتماعية او درجة الثقافة ، حتى ليعز عليه ان يبادلهم الحديث والكلام . كان رجلا متجاوزاً العقد الخامس من عمره ، متوسط القامة متين البنيان تبعثرت على فروة راسه السوداء شعرات بلون اشهب تشي بسنه . وكان وجهه متورماً بتأثير الادمان، اصفر، او على الاصح ميالا الى الخضرة . وكانت عيناه تلتمعان تحت جفنيها المتنفخين تشوبها حمرة لا تخفي الحيوية العنيفة الماثلة في نظراتها . وكانت فيه ظاهرة خاصة تجتذب الانتباه : ذلك ان نظرته كانت تستعر بنوع من الحماس ... لم يكن ينقصه الذكاء ولا الاتزان ولكن كانت تصدر عنه احيانا حركات فجائية غير مقصودة يمكن ان تعزى الى الجنون . كان مرتدياً لباساً اسود رسمياً « فراك » قديماً ممزقاً وقد انتزعت ازراره الا واحداً كان لا يزال صامداً في مكانه على شكل ما ، وكأنه اراد بادخاله في العروة المقابلة له ، ان يحتفظ بالمظهر اللائق بدافع من احترام الرسميات ؛ وقد برز من الصدارة المحدبة قميصه المغطى بالبقع والاوساخ . . كان حليق اللحية ككل الموظفين ولكن لحيته ما كانت مزالة منذ ايام بدليل تلك الحزمة من الشعر

القاسي التي كانت نابتة على خديه ، اما حركاته وهيئته فكانت مطبوعة « بالبوروقراطية » المهيبة .. كان يبدو عليه برغم ذلك شيء من القلق : فكان لا يفتأ يسوي شعره ويضغط راسه بين راحتيه حيناً تلو الآخر بيأس وقنوط ، جاعلا مرفقيه على المائدة القذرة المبتلة بالجعة . واخيراً نظر الى راسكولنيكوف بثبات وخاطبه بصوت مرتفع حازم قائلا :

— هل تعتبرني متجاسراً يا سيدي اذا اتصلت بك بهذا الشكل المباشر ؟ أنه على الرغم من ان مظهرك لا يدل على مكانة رفيعة، غير ان خبرتي تدلني على أنك رجل ذو تربية حسنة لم تعتد الشراب . لقد كنت ابداً احترم التربية خصوصاً اذا تماشت مع الشعور القلبي . اني احمل لقب مستشار واسمي مارميلادوف المستشار القانوني . هل انت موظف بالمثل ؟

فاجابه الشاب وقد بوغت قليلا من لهجة التفخيم التي اتسم بها حديث الرجل ومن مفاجأته بهذا الحديث المباشر الذي لم تسبقه مقدمات :

— كلا .. انا طالب علم ..

لم يستطع — رغم الرغبة التي أحس بها مؤخراً في اقامة علاقات مع كائن من كان — التحرر من ذلك الشعور بالنفور الذي ما انفك يلازمه ويستمر في نفسه كلما وجه اليه غريب كلاماً ينال منه او على الاقل يحمل بين طياته معنى النيل من شخصه ..

إسترسل الموظف قائلا :

— طالب علم او طالب سابق ! لقد فكرت في هذا . انها الخبرة الطويلة المستمرة ..

ووضع أصبعاً على جبهته تأكيداً لمنزلته العقلية واضاف قائلا :

— لقد كنت طالب علم او انك على الاقل ترسمت برنامجاً دراسياً . ولكن

هل تسمح لي ؟..

وأشفع كلامه بالفعل ، اذ نهض من مجلسه مترنحاً وحمل صحيفته وقدحه واتجه نحو مائدة الفتى حتى اذا ما بلغها جلس الى جانبه ..

كان ثملا ولا شك ، ولكنه كان يتحدث بجلاء وحماس لو لا بعض الالتباس والاختلاط الذي كان يشوب حديثه بين الحين والحين . تهافت على « راسكولنيكوف » بتعطش حتى وكأنه كان هو الآخر قد امضى شهراً كاملا لم يتحدث خلاله مع أحد !

اردف بلهجة رزينة يقول :

ـــ حقيقة يا سيدي العزيز ان الفقر ليس عيباً ، كما اعرف كذلك أن الادمان رذيلة .. لكن العوز يا سيدي نعم العوز ، إنه عيب ولا شك . لانك في الفقر تستطيع الحفاظ على نبل شعورك المرهف. لكنما في العوز لم يتوصل احد الى الابقاء على كرامته ! والمعوز لا يستدعي طرده بالعصا بل بالمكنسة، لتكون معاملته اكثر زراية وتحقيراً . والناس على حق في ذلك . لان المعوز نفسه هو اول من يتذلل ويريق ماء وجهه ..

واردف بعد صمت قليل :

ـــ منذ شهر يا سيدي ضرب السيد « ليبزيا تنيكوف » زوجتي . وانت تدرك أن زوجتي تختلف عني بالطبع .. فهل رأيت مثل هذا الذل ؟.. واخيراً اسمح لي بان ألقي عليك سؤالا واعتبره لمجرد الفضول : هل أمضيت مرة الليل على نهر النيفا في الزوارق التي تحمل العلف ؟

فاجابه راسكولنيكوف :

ـــ كلا .. لم يسبق أن وقع لي ذلك ! ولكن ماذا تقصد بسؤالك ؟

— حسناً . . اردت ان اقول : إنني أبيت حيث ذكرت لك منذ خمس ليال !

ثم ملأ قدحه وافرغه في جوفه واسترسل في التفكير ... كانت ثيابه ومابقي عالقاً بها من القش تؤيد قوله ،حتى ان رأسه لم يسلم من المساهمة بنصيبه في هـذا التأييد .. ويمكن للناظر اليه ان يحكم بانه لم يبدل ثيابه ولم يغتسل منذ خمسة ايام حقاً .. كانت اظافره مسودة لكثرة ما تراكم تحتها من الاوساخ ويداه الضخمتان المحمرتان ، قذرتين بشكل ملحوظ .

بدا كأن الحديث قد اجتذب اهتماما عاماً بين الموجودين لم يبلغ بعد درجة التركيز . فالغلامان كانا يتضاحكان وراء الخوان الكبير بينما لاح صاحب الحانة وكأنه نزل من غرفته العليا خصيصاً للاستماع الى هذا الانسان « المسلي » ! فكان جالساً على مقربة وهو يتثاءب بخمول ويتصنع الاهتمام مما يؤكد ان « مارميلادوف » كان معروفاً منذ بعيد في ذلك المكان . لا شك ان ضعفه إزاء ميله لالقاء المحاضرات الطنانة ، عاد عليه بمحادثات كثيرة مع غرباء لم يكن يعرفهم من قبل في غير تلك الحانة .. وعادة التحدث الى الناس مستحكمة عند كثير من السكارى وخصوصاً لدى اولئك الذين لايجدون معاملة حسنة في دورهم ، والذين يفضلون أي شيء على المنزل .. لذلك تراهم يحاولون بث رفاق السكر شكاياتهم وتظلمهم سعياً وراء اكتساب عطفهم اذا امكنهم ذلك .

هتف صاحب الحانة بصوت جهير :

— يا لك من مهرج يا هـذا .. لم لا تشتغل ؟ لم لا تؤدي اية خدمة طالما أنك موظف ؟

فاجابه « مارميلادوف » موجهاً حديثه الى راسكولنيكوف كما لو كان هو المتحدث :

— لم لا أؤدي خدمـــة يا سيدي ؟ لم لا أؤدي أية خدمـــة ؟ أولا يقطر قلبي دمـــاً كلما احسست بما انا عليه من ذل وحقارة ؟ . . عندما ضرب السيد « ليبيزيا تنيكوف » منذ شهر زوجتي المسكينة بيده بينما كنت انــا متهالـكاً اشبه بالاموات لشدة السكر .. أو لم يكن ذلك ليحز في قلبي ؟ اسمح لي ايها الشاب . . هل وقع لك . . إه . . ان توسلت لاقتراض بعض المــال دون جدوى ؟

— لقد حـدث لي ذلك .. اريد ان اقول . . مـاذا تقصد بكلمـة دون جدوى ؟

— اريد ان اقول بكلمة دون اية جدوى ، ان تكون متأكداً سلفاً من ان مساعيك فاشلة لن تصل بك الى نتيجة .. خذ على سبيل المثال : انت تعرف سلفاً وبكل تأكيد ان هذا الرجل ـ وهو اشد المواطنين نفعاً واحسنهم مركزاً ـ لن يقرضك مالا مها تذرعت باسباب . اذ لمَ يقرضك ماله ؟ انه يعرف سلفاً انك لن ترد اليه ما تقترضه فهل يعطيك بدافع الشفقة ؟ ان السيد « ليبيزيا تنيكوف » ـ وهو من المطلعين على الآراء الحديثة ـ اوضح مرة ان العلم نفسه ينفي الشفقة ، وان الحال كذلك في بريطانيا حيث يسيطر الاقتصاد السياسي ... كنت اسألك: لم يوافق على اقراضك المال ؟ مع ذلك فانك على الرغم من علمك الاكيد بعقم محاولاتك فانك تسير الى هذا الهدف لكي ...

وقاطعه راسكو لنيكوف قائلا :

— وما فائدة الاستمرار ؟ ..

— ذلك لانه ليس امامك سبيل آخر ، ولانك تميز المكان المناسب عن سواه . المهم ان الحاجة تدفعك الى سلوك سبيل معين . ولسوف يأتي يوم تجد نفسك فيه مكرهاً على تقرير مصيرك . خذ مثلا : عند ما ذهبت ابنتي الوحيدة المرة الاولى

للحصول على بطاقتها.لقدمت بنفسي بتدبير يعود علي بالفائدة .. نعم ان ابنتي حصلت على بطاقة وهي تعيش من هذه المهنة !..

ولما شعر بالغلامين يسخران منه، وبصاحب الحانة يشاطرهما السخرية بدوره، ورأى ان وجه الشاب قد ظللته سحابة من الحزن، اردف يقول ببرود ظاهر.

— لا تبتئس يا سيدي، لا تبتئس .. فلقد تعودت مثل هذه الهزات من الرؤوس .. ان ما اقوله معروف من الناس اجمعين، والاسرار جميعها تنكشف آخر الامر، انني اقابل مثل هذه الامور بالخزي وليس بالاحتقار .. ليكن. نعم ليكن. هذا هو الانسان!(ecce homo !) اسمح لي ايها الشاب هل تستطيع .. كلا، يجدر بي ان أعبر عن رأيي بطريقة اكثر واقعية .لأقل : هل تجرأ بدلا من هل تستطيع .. نعم هل تجرأ — بعد ان تمعن النظر فيّ في هذه اللحظة — ان تقول بالتأكيد انني لست خنزيراً ؟

غير ان الشاب لم يعقب بكلمة .. بينما استرسل الخطيب المفوه بانتظار انتهاء عاصفة الضحك التي اثارتها عبارته الاخيرة في « الصالة »:

— حسناً .. لنفترض انني خنزير ولكن هي! انها سيدة! انا صورة عن الحيوان ولكن كاترين ايفانوفنا — زوجتي — شخصية ممتازة .. فهي ابنة ضابط كبير .. نعم لنفترض انني فاسد ولكنها — هي — تملك قلبا حانيا الى جانب ثقافتها وعواطفها النبيلة! ومع ذلك .. آه لو انها اشفقت علي يا سيدي .. ان كل انسان يا سيدي بحاجة الى ملجأ يشعر فيه بالحنان والشفقة! وكاترين جائرة ظالمة رغم شهامتها ونبلها ورغم علمي بانها عندما تنقي البراغيث عن ثيابي كما افعل احيانا بنفسي، فانها لا تعمل ذلك الا بسبب اشفاقها علي ..

تعالت الضحكات مجدداً في المكان فاردف يقول وقد علا وجهه الوقار مجسداً :

ـ آه يا إلهي .. لو ان مرة فقط .. ولكن لا .. كل ذلك لا يجدي . . فما فائدة الكلام ؟ نعم ما فائدته ؟ انني لم اعامل مرة بحنان . لكن لقد غدا ذلك امراً عاديا بالنسبة إلي وغدوت وحشا بالفطرة !

وهنا تدخل صاحب الحانة في الحوار وهتف بعد ان اهوى بقبضته على المنضدة :

ـ وحش فطري .. وأي وحش !

ـ تلك هي طبيعتي ! اتدري يا سيدي . . انني شربت حتى جواربها ولا اقول احذيتها . . لان ذلك يكون غير متناسق مع الوقائع . . اما جواربها . . نعم جواربها فقد شربتها .. وشربت كذلك منديل عنقها المصنوع من شعر الماعز ، وكان قد أهدي اليها قبل زواجنا . . فهو اذن يخصها ولا يخصني . . ونحن نسكن غرفة باردة . . . لقد اصيبت بسعال في الشتاء الاخير وها هي الآن تبصق دما .. ولنا ثلاثة اولاد صغار، وتشتغل كاترين ايفانوفنا من الصباح وحتى المساء ، فهي تغسل الملابس وتنظف الاواني وتعنى بالاطفال لانها منذحداثةسنها اعتادت النظافة وألفتها . . وصدرها ضعيف وقابليته للسل جلية واضحة اشعر بها تماما . وكيف لا اشعر بذلك ؟ اني كلما اكثرت من الشراب، كلماازددت احساسا بذلك الخطر. ذلك لانني اكتشف في الشراب استيعابا كبيراً للالم والشفقة. ولذلك اشرب ! انا اشرب لاضاعف ألمي ..

ثم احنى رأسه بيأس على المائدة وابث كذلك برهة لا يريم . ولما استعاد هدوءه اعقب قائلا :

ـ ايها الشاب ، يخيل إلي انني اقرأ على وجهك إمارات حزن معين ! وقد

احسست بذلك منذ ان دخلت ، مما حدا بي الى الاتصال بك . انني باطلاعك على تاريخ حياتي ،لم اقصد تحقير نفسي في اعين هولاء الكسالى المتراخين الذين يعرفون ذلك بعد ان استمعوا الي اكثر من مرة ، ولكنني كنت ابحث عن انسان لطيف حسن التربية لأبثه شكواي . اعلم ان زوجتي تلقت علومها في مؤسسة ارستقراطية جيدة في الاقاليم وقد رقصت عند تخرجها امام الحاكم مرتديه «شالها» وكانت الحفلة تضم عدداً من الشخصيات الرسمية .. ولما انتهت ، حصلت زوجتي على شهادتها وعلى « مدالية » ذهبية .. فاما المداليه ، فقد بعناها كذلك منذ زمن بعيد ... إه .. واما « دبلوم » الشرف ،فلا زالت تحتفظ به الى اليوم في صندوق. وقد أطلعت عليه مؤخراً صاحبة المسكن الذي نقطنه . . نعم . . لقد أطلعتها عليه رغم مشاحناتها المستمرة معها . ذلك انها كانت في حاجة الى التباهي امام بعضهم ،فعمدت الى ذكرياتها الماضية تحييها .وانا لااثقل عليها ، نعم لااثقل عليها، لان ذكرياتها القديمة هي كل مابقي لها الآن. اما ماتبقى فقد تبدد كالسحاب .. نعم .. نعم ، انها سيدة غضوب متباهية وصعبة المراس . فهي تغسل ارض مسكنها بيدها وتقنع برغيف من الخبز الاسود . لكنها لا تتزحزح قيد انملة امام الامور التي تتعلق بالاحترام والكرامة . لذلك لم تحتمل سماجة السيد ايبيزيا تنيكوف . فلما ضربها هذا بسبب ذلك ، لازمت فراشها متأثرة بالاهانة التي لحقت بها اكثر من آلام الضرب الذي نالها . لقد كانت ارملة لما تزوجتها وكانت اماً لثلاثة اطفال صغار .. وقد تزوجت للمرة الاولى ـ بدافع الميل ـ ضابطا من سلاح المدفعية هربت معه من بيت ذويها . كانت تحبه حباً جنونياً، ولكنه سقط فريسة المقامرة، فحوكم بسبب ذلك ومات على اثر المحاكمة . لقد كان يضربها في ايامه الاخيرة ، وعلى الرغم من انه لم يترك لها شيئا عند وفاته ،فانها لا زالت تذكره اليوم وملء عينيها الدموع ! انها تذكره كلما ارادت ان تقارن بيني وبينه لتشعرني بما انا عليه؛

وانا مسرور من ذلك لانه يتيح لها بهجة التخيل والتذكر . . ولقد ظلت بعد وفاته وحيدة مع اطفالها الصغار في إقليم ناء مجهول حيث التقيت بها اول مرة . كانت في فاقة مستحكمة لا استطيع وصفها لـك على الرغم من انني تذوقت كل انواع العوز .. وكان ذووها جميعهم منصرفين عنها مغفلين امرها ، مع ذلك فقد كانت فخورة ابداً معتزة بنفسها .. وعندئذ يا سيدي تقدمت انا ، وكنت ارملا بالمثل ،ولي من زوجتي الاولى فتاة كانت في الرابعةعشرة من عمرها ! طلبت يدها لانني ما كنت استطيع تصور مثل ذلك الالم الهائل ينزل بسيدة مثلها .. لك ان تحكم بنفسك الى اي مدى بلغت بها الفـاقه حتى قبلت ان تتزوجني ،وهي المهذبـة المثقفة سليلة الاسرة العريقة .. المهم انها قبلت بي وهي تبـكي وتنتحب وتلوي يديها ألماً . ذلك لانها لم تجد لنفسها مخرجا آخر ! انت تدرك ماذا اقول . . انت تفهم ما اعني بكلمة : لم تجد لنفسها مخرجا .. ام تراك لم تفهم بعـد المعنى ؟ كلا .. انك لم تفهمه بعـد ! لقت قمت بواجبـاتي حيالها طيلة عام كامل بشرف وامانة دون ان اقرب هذا (واشار بيده الى زجاجة الشراب)، لانني افهم معنى العواطف . غير أنني لم أوفق في تحريك عواطفها .. وبما إنني كنت عرضة لفقـد وظيفتي بين حين وآخر دونما سبب ألاهم إلا الدواعي الادار يـة البحتة ، فقـد شغفت بالشراب .. وقد مضى علينا عام ونصف منذ أن جئنا نسعى في هذهالعاصمة البديعة المزينة بعدد كبير من الابنية الضخمة . إننا لم نصل الى هنا الا بعــــد اغتراب ومصائب لا تحصى .. فوجدت هنا عملا ما لبث أن فقدته كالعـادة .. ولكن ليكن معلوماً لديك أنني فقدت عملي بخطيئتي هذه المرة لأن طبيعتي الفطرية انتصرت على تطبعي . . اننا نعيش اليوم في كوخ حقير تمتلكه أميلي فيودوروفنا ليبويتشسل . أما كيف نعيش ومن أين ننفق وكيف نقتـات . . فـــذلك مالا أعلمه ! ..

الأن في الدار التي نقطن غرفة منها ، عدداً من المستأجرين الأُخر . . وكأننا في « كفر نعوم(١) » حقيقيه .. نعم !.. وكانت ابنتي من زوجتي الاولى تنمو مع الزمن . أما ما عانته من « خالتها » زوجتي خلال أعوام نموها، فانني أفضل أن لا أخوض فيه . لأن كاترين ايفانوفنا، رغم أنها تفيض بالشعور والرقة ، ألا أنها لا تخرج عن كونها سيدة قاسية سريعة الغضب . أقول لك هذا فقط، إذ ماذا يجدي البحث في مثل هذه الامور !.. لم تتلق ابنتي سونيا شيئاً من الثقافة كما لا بد خمنت .. ولقد حاولت منذ اربع سنين أن أعلمها بعض التاريخ العام والجغرافيا، غير أنني توقفت عن متابعة هذا النشاط لأنني شخصياً ضعيف في هذه المواد ولأن الكتب اللازمة لاستدراك هذا الضعف تنقصني .. آه ماذا أقول .. إن مثل هذه الكتب المفيدة لم يعد لها وجود ! اذن فقد توقفنا عند سيروس ملك الفرس ..

ولما شبت ابنتي وبلغت الرشد ، قرأت بعض المؤلفات الروائية .. ولقد أعارها السيد ليبزيا تنيكوف مؤخراً كتاباً عنوانه : (فيزيولوجية لويس) . أتعرفه ؟.. لقد قرأته بشغف عظيم. بل أنها التهمته التهاماً، وكانت تقرأ لنا أحياناً بعض الفقرات منه بصوت عال .. ذلك هو كل ذخرها الذهني ! والآن إنني أتوجه اليك يا سيدي لألقي عليك سؤالاً بصورة خاصة جداً :

« هل تستطيع فتاة فقيرة ولكن متعففة أن تربح شيئاً مذكوراً من عمل شريف »؟ لا .. إنها لن تربح اكثر من خمسة عشر « كوبيكا » في اليوم اذا كانت شريفة وليس لديها مؤهلات خاصة .. نعم خمسة عشر « كوبيكاً » وعلى

---

(١) كفر نعوم مدينة من مدن (فلسطين الشمالية) ، ويقصد المؤلف تشبيه الدار بالمحشر لكثرة سكانها ! — المترجم —

شرط أن لا تغفل عن العمل دقيقة واحدة ! وقد نالهـــا من مستشار ولاية « كلوبستوك » إيفان ايفانوفيتش ما لا يسر ! أتعرفه ؟ لعلك سمعت به ! حسناً .. إن هذا الرجل اللامع لم يكتف بان تمنع عن دفع أجرة قمصانه الستة المصنوعة من القماش الهولندي الفاخر والتي خاطتها له ، ولكنه طردها ايضاً وهو يشتمها ويغلظ لها القول ، وقد ركلها بقدمه وأطلق عليها كل الاسماء التي اسعفته بهـا قريحته. محتجاً بأن ياقة واحدة من القمصان لم تكن مصنوعة بدقة وأنهـا فصلت بشكل خاطئ .. كل هذا بينما الصغار يتلوون جوعاً .. وأمهم كاترين ايفانوفنا لا تنفك تذرع غرفتنا وهي تعصر يديها وعلى خديها لطخـات حمراء من بوادر ذلك المرض المخيف ! كانت تصيح بها مغضبة قائلة : « أيتهـا الكسول .. أولا تأكلين وتشربين وتتدفئين ؟ » .. ولكن قل لي بربك ماذا تـــأكل المسكينة وماذا تشرب إذا كان الصغار لم يجدوا منـذ ثلاثـة ايام ما يمضغونه في افواههم الجائعة ؟.. نعم .. لقد نمت دون ان أحاول إسكاتها .. ولم أسكتها ؟ لقد كنت ثملا واقرب الى انسان ميت مني الى مخلوق حي .. كنت اسمع «سونيتي» تتكلم. انها هادئة كثيرة الاحتمال فكانت تتكلم بصوت عذب..وهي شقراء ولها سحنة شاحبة دائماً هزيلة ابداً ..

كانت تقول : « ما العمل يا كاترين ايفانوفنا ؟ هل من المعقول أن أزاول مثل هذه المهنة ؟.. غير أن « داريا بافلونا » — وهي امرأة سيئة السمعة معروفة لدى رجال البوليس — عاتبتها اكثر من مرة لاستنكارها مثل هذا الامر مدفوعة من قبل صاحبة المسكن !.. لذلك فقد أجابتهـا كاترين ايفانوفنـــا بلهجة تشوبهـا السخرية قائلة : « يا الهي .. هذا كنز جدير أن يحتفظ المرء به .. » .. كلا .. لا تلمها على هذا يا سيدي لا تلمها ! فهي لم تكن مالكة اعصابها عند ما تفوهت بتلك الكلمات .. فلقد كانت عواطفها مهيجة ، وكانت في اقصى حالات الحنق والغضب.

انها مريضة وامامها اطفالهـا يبكون من الجوع ويصرخون ! لم تتفوه كاترين ايفانوفنا بتلك الكلمات إلا لتسفه الحجة التي تـذرعت بهـا ابنتي .. وتلك هي عقليتها .. فهي تضرب الأطفال عند ما يبكون ولو كان بكاؤهم بسبب الجوع ..لانها تفقد اعصابها اذا غضبت وثارت !

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة .. واذا بسونيـا تنهض واقفة وتتشح « بلفحتها» ثم تخرج من الغرفـة . . لم تعد قبل الثـامنة فاتجهت بسكون الى حيث كانت كاترين ايفانوفنا ووضعت امامها على المائدة ثلاثين روبلا .. ودون أن تنبس ببنت شفة ، اخذت الدثار الكبير الاخضر (وقد فاتني أن أقول لك أن لدينا واحداً نستعمله جميعاً حسب الحاجة وهو من قماش « المدام ») فلفت بـه رأسها وجسدها وتهالكت على السرير ووجهها الى الجـدار .. بينما كان كتفاهـا الناحلين وجسدها الهزيل مسرحاً لقشعريرة وتشنجـات تفصح عن سريرتهـا ! كنت انا على حالي من السكر ، مستلقياً كما كنت .. فرأيت ايهـا الشاب ، نعم رأيت كاترين ايفانوفنـا تنهض بسكون ايضاً وتتجـه نحو سرير « سونيتي » الصغيرة .. هنـاك ركعت على ركبتيها واستمرت طيلة تلك الامسية راكعة بقربها تقبل اقدامها دون فتور ولا توقف .. ولقد نامت بقربها وعانقتها .. نعم لقد نامتا كلتاهما بينما كنت انا متهالكا مخموراً ..

صمت مارميلادوف وكأنه فقد النطق وملأ قدحه بسرعة وأفرغه في جوفه دفعة واحدة فندت عن حنجرته فرقعة مكتومة ثم أعقب يقول :

ـــ .. ومنذ ذلك الحين يا سيدي اضطرت ابنتي صوفي سيميونوفنا أن تقتني بطاقة لمزاولة مهنتها. وبسبب ذلك ايضاً لم تستطع البقـاء عندنا فغادرت المنزل . أما كيف وقع ذلك فان الامر في منتهى السهولة . ذلك أنه إثر ملابسة مزعجة ، وبناء على اخبار من بعض المغرضين ساهمت فيه « داريا فرانتزوفنـا » بقسط وافر

بحجة أننا أسأنا في تقديرها وتقديم آيات الأحترام الواجبة علينـــا حيالها ، احتجت صاحبة الدار التي نقطنها على سلوك ابنتي وادعت أنها لا تحتمل وجودها في دارها على الرغم من أنها دفعت داريا من قبل للتأثير عليها . . وهكذا انتقلت ابنتي من حال الى حال .

ثم جاء دور السيد ليبيزيا تنيكوف الذي . . إه . . كان له ذلك الموقف مـع كاترين ايفانوفنا . . كان ذلك بسبب سونيا . لقد كان في البداية يلتمس من سونيا التفاتة غير انه ما لبث حتى راح يبدي صدوداً واعراضاً وتذمراً . كان يقول : « كيف أستطيع العيش في منزل يضم هـذا العار وأنا ذلك الرجل النير المعروف » . . غير أن كاترين ايفانوفنا لم تسكت ازاء هـذا الادعاء الفارغ . . بل صمدت له وقاومته ،ومن هنا كان ما حصل لها على يده! أما « سونيتي » الصغيرة فانها تزورنا غالباً عند هبوط الظلام،فتساعد كاترين ايفانوفنا وتقدم لها ما يلزمها.. وهي تقطن عند الخيـاط كابيرناوموف الذي أجر لهـا غرفة خاصة . وهــــذا « الكابيرناوموف » أعرج وألكن . . وله عائلة ،وأبناؤه جميعهم ورثوا عنـه عاهته النطقية وكذلك زوجته . . فهي لكناء مثله،وكلهم محشورون في غرفة واحدة . غير أن لسونيا غرفتها الخاصة التي يفصلها عن غرفة الاسرة حاجز من الخشب.. نعم . . انهم اناس فقراء جداً وتمتامون . . نعم . . وذلك الصباح ، نهضت من فراشي وارتديت اسمالي ثم اتجهت الى حيث يقيم صـاحب السعـادة ايفان آثانـا سيفيتش بعـــد أن رفعت ذراعي الى السماء مبتهلا . . على فكرة . . هل تعرف صاحب السعادة ايفان آثانا سيفيتش ؟ كلا ؟ . . انك اذن لا تعرف رجلا ورعاً.. انه شمعة بكر « شمع كافوري » نصبت امام الرب ! والشمع يذوب . . نعم ولكن هذا ذاب دمعاً بعد أن استمع الى ما عندي من القول . . وقال لي بالحرف الواحد: حسناً يا مارميلادوف . . لقد خذلت آمالي في المرة الاولى، غير أنني سأعيدك الى

العمل على مسؤوليتي الشخصية فاذكر ذلك .. هيا يمكنك أن تنسحب ! » ولقد قبلت آثار أقدامه .. بالخيال طبعاً .. لأنني لو أردت عمل ذلك فعلا لما سمح لي به . لأن هذا الرجل رفيع الشأن من أنصار المبادىء الرسمية الجديدة فيما يتعلق بالتربية والمعاملة .. وعدت الى مسكني . ولا تسل عن الهياج الذي حصل حينما أعلنت أنني سأعود للعمل ولقبض المرتب !

طغى انفعال عنيف على مارميلادوف فتوقف عن متابعة حديثه .. وفي تلك الاثناء ، دخلت شرذمة من السكارى الى الحانة بصخب وضجيج وعلى العتبة ارتفعت انغام متباينة من أرغن استؤجر لهـــذه المناسبة ولا شك ، بينما راح طفل في السابعة من عمره يرفع عقيرته مغنياً « المزرعـة الصغيرة » .. وعم الصخب في « الصالة » بينما تهافت المعلم وأجيراه لخدمة الزبائن الوافدين ! وتابع مارميلادوف قصته دون أن يعبأ بالضجيج :

كان يبدو عليه الانهيار التام الا أنه كلما ازداد الثمل نيلا منه كلمـا قويت رغبته في الحديث والثرثرة .. وبدا وجهه منيراً لمجرد أن تذكر انه توصل الى استعادة عمله .. وكان راسكو لنيكوف يصغي اليه بانتباه ..

.. « مضى على ذلك خمسة اسابيع يا سيدي .. نعم .. خمسة اسابيع منذ ان بلغ نبأ عودتي الى العمل مسامع كاترين ايفانوفنـا وابنتي الصغيرة . كنت كمن انتقل الى النعيم في حين أنني كنت من قبل مهملا ككلب حقير ، لا اسمـع الا الشتائم والسباب .. اما في ذلك الحين فقد كانوا يمشون على اطراف اصابع اقدامهم اذا كنت نائماً ويوصون الاطفال بالسكوت والخلود الى السكينة . . « عاد سمعان زاخاريتش تعباً وهو الآن يستريح فصمتاً . . . » وكانوا يقدمون إلي القهوة قبل ذهابي الى المكتب ويسخنون « الكريما » .. نعم « الكريما » الاصلية الحقيقية ! لقد استطاعوا اخيراً أن يأتوا بها وأن يجدوا احد عشر روبلا ونصفاً

لتجديد ملابسي وصيانة مظهري .. أما أين وجدوا هذا المبلغ فذلك ما لا أعلمه .. كل ما أعرفه هو أنني امتلكت أحذية جديدة وقميصاً من القطن وثوباً كاملا أنيقاً كل ذلك بأحد عشر روبلاونصف .. فبدوت على أكمل وأحسن ما يمكن أن أكون .. ! وكنت عند عودتي الاولى من المكتب ألاحظ أن كاترين إيفانوفنا قد هيأت طبقين لتناول الطعام : حساء ولحم بقر مملح ببراعة . . الشيء الذي لم أره ولم أعهد مثله من قبل . كانت من قبل لا تملك ثوباً ترتديه ، أما ذلك الحين فقد ظهرت على أحسن زينة وكأنها ذاهبة لزيارة بعضهن .. لقد تجدد العتيق القديم على شكل من الأشكال لأن لها موهبة عمل كل شيء من لا شيء . كانت معتنية بشعرها تبدو انسانا آخر بياقتها الصغيرة البيضاء وأكمامها النظيفة . لقد بدت اصغر سناً وأوفر جمالاً .. وكانت سونيتي الصغيرة العزيزة تكتفي بتزويدنا بالمال وهي تقول : « لن أستطيع التردد عليكم بكثرة في الوقت الحاضر لأن ذلك غير ممكن في هذا الظرف .. سوف أحضر عند هبوط الظلام ولن يراني أحد هل تسمعون ؟ ! »

أويت الى فراشي ذلك المساء مبكراً فلم تعترضني كاترين ايفانوفنا ! هل تصدق هذا ؟ ولم يكن قد مضى على اشتجارها مع أميلي فيودوروفنا اكثر من ثمانية ايام . مع ذلك فقد دعتها لتناول القهوة ومكثتا معاً حوالي ساعتين . . وقد سمعتها تهامسان : « نعم .. إن سيميون زاخاريتش قد استعاد عمله وهو يقبض مرتبه من جديد .. لقد تقدم بنفسه الى صاحب السعادة فجاء سعادته بنفسه ايقود سيميون زاخاريتش من يده على مرأى من الآخرين ويدخله مكتبه . » فهل سمعت هذا ؟ هل سمعت ؟.. واضافت زوجتي تقول : « لقد قال له سعادته : لا شك يا سيميون زاخاريتش أنني اذكر خدماتك التي سبق أن أديتها لنا وعلى الرغم من ميلك الى الخمر فانني بناء على وعدك لي بالاقلاع عن تلك العادة

ونظراً لعدم الاستغناء عنك (هل سمعت هذا . هل سمعته ؟) فانني آمل الآن ان تبر بكلمتك . »

نعم . انني أعترف لك بانها ابتكرت كل هذا من عندها وسوته وأنضجته ليبدو معقولاً . فلا تظنن بان ذلك كان مجرد عبث يقصد منه الظهور . كلا . لقد انساقت هي نفسها وراء تخيلاتها .. كانت هي نفسها تتعزى بهذا القول واشهد الله ! واست ألومها كلا است ألومها من اجل ذلك .. اذ كر أنني عند ما أتيتها منذ ستة ايام بمرتبي الاول — ثلاثةوعشرونروبلا واربعون(كوبيكا)— كاملا دون نقصان ، دللتني بعبارات عذبة ولعلك تفهم معنى ذلك التدليل اذا أوضحت لك اننا كنا منفردين هي وانا لا يعكر صفونا وجود احد ! نعم . . لقد دللتني وهي تغمز خدي بأناملها وتقول بصوت عذب : « آه يا ملفوفتي الصغيرة !.. »

توقف مارميلادوف برهة وبدا كأنه يحاول الابتسام بدلالة الرعشة التي اجتاحت ذقنه . ثم تمالك نفسه .

كان ذلك الوسط : الحانة وذلك المظهر الفاسق الليالي الخمس التي قضاها في زورق للعلف ، ومنظر الزجاجة إضافة الى الحب العميق الذي يكنه ذلك الرجل لاسرته ، كل هذه الاشياء كانت تذهل جليسه الشاب الذي كان يصغي مأخوذاً وكأنه استحال الى اذان ... بيد انه لم يتخلص من شعور التبرم والنقمة : لقد نقم على نفسه لأنه ارتاد وسطاً كذلك الوسط !

هتف مارميلادوف مسترسلا :

— عزيزي السيد ، عزيزي السيد ، لعل كل هذا يدعو الى الضحك مع أنني لا أني اعرض على مسامعك ، مآسي العائلية الشخصية ! اما بالنسبة إلي

فانني لا أرى في كل ذلك ما يضحك . لأنني قادر على استعادة التجسس بكل ما قلته لك ... لقد كنت مستسلماً لحلمي الذهبي طوال ذلك اليوم وأمسيته الفردوسية ! كنت أحلم في اعادة بناء أسرتي وكساء اولادي كنت أتوقع أن اجلب الهدوء الى نفس زوجتي وأتطلع الى انتزاع ابنتي من الوهدة التي تردت فيها واعادتها الي حظيرة الاسرة .. كنت أحلم بأشياء اخرى كثيرة .. نعم .. كنت استطيع التفكير بحرية في كل هذا لأنه ميسور للانسان مباح له .

وفجأة انتفض مارميلادوف ورفع رأسه يحدق في وجه زميله الجديد . . . ثم قال :

— ومنذ صباح اليوم الثاني وبعد كل هذه الاحلام الجميلة وعلى الدقة منذ خمسة ايام فقط ، سرقت من زوجتي كاترين ايفانوفنا مفتاح صندوقها بحيلة بارعة شأن اللص المدرب واستوليت على رصيد راتبي الذي كنت أعطيته لها وها أنت ذا تراني أين جئت .. بل انظروا إلي جميعكم لقد غادرت منزلي منذ خمسة ايام وهم يبحثون عني هناك ولا شك ! ولقد فقدت مركزي وشربت نعم شربت بذلتي الجديدة بعد أن استبدلتها بهذه الأطمار البالية في حانة بالقرب من جسر « مصر » وانتهى كل شيء !

لم يكد مارميلادوف يصل الى هذا الحد من حديثه حتى ضرب جبهته بقبضته وصرف على اسنانه وأغلق عينيه ثم مال بمرفقيه بقوة على المائدة . لكن ذلك لم يدم اكثر من خمس دقائق عاد بعدها الى مطارحة زميله الحديث نظر اليه بعين لم تخل من خبث مصطنع وقال وهو يبتسم :

— لقد كنت اليوم عند سونيا وطلبت منها مالاً لأثمل . . . ها ها ها . . .

صاح واحد من افراد « الشلة » الذين دخلوا الحانة يقول :— وهل أعطتك؟ واشفع سؤاله بقهقهة مجلجلة ! غير أن مارميلادوف لم يلتفت الى المتكلم بل وجه حديثه الى راسكولنيكوف وقال :

— هذه الزجاجة اشتريتها من المال الذي أعطتنيه ! لم تكن تملك الا ثلاثين « كوبيكاً » لقد تأكدت من ذلك بنفسي فاعطتها لي دون أن تهمس بكلمة .. لقد اكتفت بالنظر ولكن ليس كما ينظرون هنا .. بل أنهـــا كانت نظرة علوية لا يحسنها الا الذين يؤمنون بان الرجال لا يستثيرون الا الشفقة ولا يستحقون الا البكاء من اجلهم وليس اصدار الحكم عليهم ! ولعمري ان ذلك يعـادل أبلـغ الحزن لما لا يوجه اليك أي تثريب ! نعم .. ثلاثون « كوبيكاً » اخذتهـا راضياً رغم حاجتها اليها . ألست من هـذا الرأي يا عزيزي ؟ انها الآن احوج ما تكون الى النظافة ومتطلباتها ؟ وتلك النظافة تكلف ثمناً معيناً وانت تفهمني ولا شك ! فهناك المراهم والأدهان التي يجب شراؤها والتي لا يمكن عمل شيء بدونهـا .. هناك الملابس الأنيقة والأحذية الجميلة الثمينة التي تصون الاقـدام من برك المـاء التي تعترض طريقـك . انت تفهم ولا شك يا سيدي وتدرك ما معنى الحفـاظ على النظافة !

اذن ما قولك وأنا أبوها اسلبها الثلاثين « كوبيكا » التي لم تكن تملك غيرها ولأي شيء ؟ لأعاقر الخمر وانهل من الشراب !.. هل في الدنيا من يشفق على مثل ذلك الرجل الذي هو انا ؟ قل بربك هل تشفق على مثلي ؟ أجب بنعم ، او لا .. هل تشفق علي الآن يا سيدي ؟ قلهـا ولا تخف ، هل تشفق ؟.. نعم او لا .. ها ها ها ها .

اراد بعد ذلك ان يرتشف جرعة جديدة ولكنه لم يجد في الزجاجة شيئاً .. كانت الزجاجة قد فرغت .

صاح به صاحب الحانة وكان قد عاد الى مكانه قريباً منها :

— ولمَ يشفق على مثلك ؟

ودوت ضحكة صاخبة مصحوبة بشتائم وسباب . ذلك ان الذين لم يكونوا قد استمعوا الى تلك المناجاة ، كانوا يصرخون لا لشيء إلا للنيل من الموظف السابق والتسلي على حسابه .

وزأر مارميلادوف فجأة وهو ينهض قائلا :

— الشفقة ؟ ولم الشفقة ؟

كان منتصباً وذراعاه مرفوعتان كان فريسة حماس واندفاع شديدين كان يتحدث كما لو لم يكن قد سمع بتلك الكلمات من قبل .

— لمَ يشفق عليّ ؟ أهذا ما قلته ؟ انك على حق فانا لا اوحي بالشفقة علي .. على العكس ينبغي ان اصلب نعم ان اصلب على صليب وليس ان يرثي لحـــالي ! ولكن اصلبوني بعد ان تحاكموني واشفقوا علي قليـلا وانتم تصلبونني وعندئـذ سأمضي الى عقابي لأنني لست مشوقاً للسرور بل انني في شوق لـلالم والدموع وانا متعطش اليها فهل تظن — ويحك — ان نصف الزجاجة التي قدمتهـا إلي قـد خففت ما بي ؟ لقد بحثت في اعماقها عن الألم .. الألم والدموع هذا ما انا بسبيل البحث عنه فيها ! فلما لمستها بشفتي وجـدت ما اريد ! ولسوف يرحمني من يشفق على الناس اجمعين .. ذلك الذي يفهم كل شيء ! انه الأحد . . هو القـاضي العادل .. ولسوف يظهر يوم الدينونة وسيقول : « اين هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحت بنفسها من اجل « خالة » لها مصدورة ؟ ضحت بنفسها لتساعد اطفالاً لم يكونوا اطفالها ! اين هي تلك الفتاة التي اشفقت على ابيها في الارض ، ذلك السكير الكريه دون ان تتنكر له بقسوة وتقرز ! » .. ولسوف يقول لها : « تعالي ! لقد عفوت عنك مرة .. المرة الاولى .. ولسوف اسامحـك واعفو عن

خطيئاتك التالية لأنك احببت بعنف » ولسوف يعفو عن « سونيتي » نعم سوف يعفو عنها انا اعرف انه سيعفو عنها . لقد احس قلبي بذلك منذ ان كنت عندها منذ حين !.. لسوف يحاكم الجميع .. نعم الجميع دون استثناء واسوف يصفح عنهم جميعاً : عن طيبهم وخبيثهم شرسهم ولطيفهم .. وعند ما ينتهي منهم جميعاً ، لسوف يستدعينا نحن ايضاً ! وسيقول لنا : « هيا اقتربوا انتم ايضاً . تعالوا ايها الخاطئون » ! وسوف نتقدم جميعنا دون خجل وسيقول لنا : « ايها الخنازير ! ان صورتكم تشبه صورة الحيوان وانتم تحملون طابعه ! ولكن اقتربوا مع ذلك!» ولسوف يهتف الهادئون العاقلون : « رباه .. كيف تتقبل هؤلاء ايضاً ؟ » فيجيبهم : « يا معشر العقلاء الهادئين ، اذا كنت اتقبلهم فذلك لأنهم جميعاً لم يتوقعوا يوماً ان يصبحوا من المنبوذين واهل الجحيم ! » .. واسوف يفتح لنا ذراعيه بعد ذلك فنرتمي بينها ونبكي ونفهم كل شيء ! حتى كاترين ايفانوفنا نفسها ستفهم ! رباه .. ليأت ملكوتك !

استنفذ المسكين قواه وهو يلقي موعظته المؤلمة فتهالك على مقعده تعباً منهوكا دون ان ينظر الى احد وكأنه نسي كل من كانوا حوله واستغرق في بيداء التفكير ! احدثت اقواله تأثيراً خاصاً في النفوس حتى ان السكون عمّ خلال فترة من الزمن ولكنه سكون راحت تمطر بعده الشتائم على المتكلم وتغرقه الضحكات فمن قائل !

— احسنت في خطبتك !

الى آخر يعقب بقوله : — إنه يهذي .. وثالث يصيح :— يالك من موظف صغير حقير ! وهكذا ..

فرفع مارميلادوف رأسه فجأة واهاب بزميله قائلا :

ـ هيا لنخرج يا سيدي .. رافقني .. انني أقطن في دار «كوزل» في نهاية الباحة لقد حان الوقت فهيا الى حيث كاترين ايفانوفنا!

لم يكن راسكو لنيكوف بأقل منه لهفة على الرحيل فقد كان يفكر منذ برهة في مساعدة مارميلادوف الذي برهن على ان لسانه اقوى من ساقيه اللذين ما كانا يعاونانه على الوقوف مما جعل مهمة راسكو لنيكوف عسيرة!

كانت المسافة التي يتحتم عليهما اجتيازها تتراوح بين مائتين وثلاثمائة خطوة فكان كلما اقترب الثمل من المكان المنشود كلما اكتسحت كيانه الرهبة والمهابة .. راح يقول لمرافقه بانفعال:

ـ لست اخشى كاترين ايفانوفنا في هذه اللحظة .. لا ولا ان تجذب شعري وتقتلعه اذ ماذا يهمني ان تقتلع شعر رأسي؟ بل انني اؤكد انه من الضروري ان تفعل ذلك. كلا ليس ذلك ما اخشاه في هذه اللحظة ولكنني اخاف من عينيها .. نعم عينيها ومن اللطخات الحمراء التي تزين خديها واخاف ايضاً من تنفسها .. ترى هل شاهدت من قبل كيف يتنفس المصابون بذلك المرض؟ خصوصاً عندما يستهدفون لمشاكسة او احتدام جدال؟.. انني اخاف كل هذا واخاف سماع صوت الاطفال وهم يبكون لأنني لا اعرف ماذا سيكون حالهم اذا كانت سونيا لم تأتهم بما يأكلون .. اما الضرب فلست اخافه واعلم يا سيدي ان ذلك الضرب لا يؤلمني بل على العكس انه يهيء لي احياناً لوناً من اللذة لا قدرة لي شخصياً على الاستغناء عنها! انه خير .. نعم من الخير لي ان تنفحني «علقة» ترفه بها عن نفسها .. ذلك افضل ولا شك .. والآن ها هي الدار .. بيت «كوزل» إن صاحبها الماني غني مهنته صانع اقفال .. هيا قدني!

اجتاز الزميلان الباحة وراحا يتسلقان الطبقات الاربعة التي تفصلها عن غرفة كاترين ايفانوفنا .. فكانوا كلما امعنوا في الصعود ازداد الظلام حلكة ..

كانت الساعة تشرف على الحادية عشرة وعلى الرغم من أن الليل في بترسبورغ لا يكون ليلا بالمعنى الحقيقي في مثل ذلك الوقت من العام، إلا ان ذلك لم يمنع العتمة من ان تخيم على أعلى السلم !

كان الباب الحائل اللون الذي يشرف على نهاية السلم من الأعلى مفتوحاً ، وكانت هناك ذبالة تضيء غرفة حقيرة جداً لا يتجاوز طولها عشر خطوات ؛ وكان يمكن رؤية كل ما فيها من « بسطة » السلم فاذا بالفوضى تعمها . .

كان كل شيء فيها مهملا منثوراً وعلى الأخص ألبسة الاطفال . وفي احدى الزوايا نشر دثار بال تملؤه الثقوب كان يخفي وراءه ولا شك سريراً . اما في الغرفة فلم تكن العين لتقع على كرسيين وديوان محطم يغطيه قماش من « المشمع » في حالة سيئة جداً ؛ وامام الديوان انتصبت طاولة مطبخ مصنوعة من خشب الصنوبر لم يكن يغطيها طلاء ولا غطاء ؛ وعلى ركنها كانت شمعة مضاءة تلفظ انفاسها في شمعدان من الحديد . كان مارميلادوف يشغل غرفة خاصة تشكل هذه ممشى لها وكان الباب المؤدي الى تينك الغرفتين — على ما في هذه الكلمة من استعارة جريئة — موارباً وكانت تنبعث من ورائه صرخات وصيحات . . كان هناك من يضحك ويقهقه كما هو حال الذين يلعبون الورق ويحتسون الشاي ويتسامرون ؛ فكان يمكن التقاط بعض الكلمات دون ان يكون لها مؤدى واضح !

تعرف راسكولنيكوف فوراً على كاترين ايفانوفنا . كانت امرأة شديدة النحول دقيقة القوام متوسطة الطول متناسقة التكوين . كانت تحتفظ بشعرها الكستنائي البديع ولكن خديهـا كانا أقرب الى اللطختين لشدة احمرارهما . كانت تذرع غرفتها جيئة وذهاباً ضامة يديهـا الى صدرها متصلبة الشفتين ، تتنفس تنفساً قصيراً متقطعاً وكانت عيناها تلتمعان من الحمى لكن نظراتها كانت

حادة قاسية فكان الناظر اليهـا تحت ذلك الضوء المتذبـذب الخـافت يحس عما يشيعه ذلك الوجه المحموم بفعل السل من أسى في النفس . خمن راسكو لنيكوف سنها فاعطاها ثلاثين ربيعاً فكانت والحالة هذه لا تشكل مع مارميلادوف زوجاً متجانساً ..

لم تكن قد سمعت صوت خطى الوافدين ولم تكن قـــد رأتها .. إذ كانت مستغرقة في خواطرها لا تسمع ولا ترى ! وكان جو الحجرة خانقـاً مع ذلك لم تكن النافذة مفتوحة وكانت تنبعث رائحة عفن شديدة من السلالم مـــع ذلك لم يكن الباب المؤدي اليها مغلقاً .. وكانت سحابة من دخان السجـاير تكتسح غرفتها من الغرفة المجاورة فيشتد سعالها ومع ذلك لم تكن مغلقة ذلك الباب الذي كانت تنبعث من ورائه تلك السحب ! وكانت صغرى الفتيات ولها من العمر ست سنين ، نائمة على الارض بل قل منكفئة على الارض منطوية على نفسهـا ورأسهـا متكئ على الديوان . أما الطفل — وكان اكبر من أخته بعـام واحـد — فقد كان يرتجف في زاوية الغرفة وهو ينتحب .. لا شك أنهـا كانت قد فرغت للتو من ضربه ! وأما البكر وهي في التاسعة من عمرهـا ، طويلة القامـة بالنسبة الى سنها ، رقيقة كعود الثقـاب ، فكانت شبه عارية الا من قميص مهلهل ممزق وعلى كتفيها العاريتين دثار من الصوف ادخلت عليه الام تعديلات كثيرة لم تستطع برغمها ان تجعله يبلغ ركبتيها .. كانت واقفة في زاوية الغرفـة تضم الى صدرهـا أخاها الأصغر وتطوقه بساعدها العاري الهزيل الضامر كانت كـأنها تهمس في أذنيه بكلام يمنعه من معاودة البكاء بينما كانت هي ترتعد هلعاً وتتابع أمها بعينيها الداكنتين الكبيرتين اللتين كانتا تبدوان أكثر اتساعاً في محجريها من ذلك الوجه الذي يكسوه الرعب العنيف .

لم يدخل مارميلادوف الى الغرفة بل جثا على ركبتيه ودفع راسكولنيكوف

الى الامام . فلما أبصرت المرأة بذلك الغريب يدخل غرفتها توقفت ساهمة امـامه وقد انتشلها دخوله المفاجيء من شرودهـا .. وحاولت أن تفسر سبب وجوده فظنت أنه يقصد الغرفة المجاورة خصوصاً وان غرفة مارميلادوف كانت تستعمل كمدخل لها . فلما بلغت من تفكيرها هذا الحد اتجهت نحو الباب الآخر لتفتحـه له دون ان تعيره التفاتاً . غير أن نظرها وقع فجأة على زوجهـا ورأته جاثياً على ركبتيه امـام العتبة فندت عن صدرهـا صيحة غضبى وهتفت وقـد أعماها الغضب :

ـــ آه .. ها قد رجعت .. أيهـا اللص .. أيهـا الوحش ... أين المال ؟ ماذا في جيبك ؟ أرني ! إن هذا ليس ثوبك فـأين ذلك الثوب ؟ أين المال ؟ تكلم !.. وارتمت عليه تفتشه .. فأبعـد مارميلادوف ذراعيه بسكون واستسلام ليساعدها على إتمام مهمتهـا . لم تجد في جيبه ولا « كوبيكاً » واحداً !

صاحت به :

ـــ ماذا عملت بالمال اذن ؟ آه ياربي .. هل يمكن ان تكون قـد ثملت به كله ؟ لقد كان في الصندوقة اثنا عشر روبلا قبل أن تسطو عليهـا ..

وفجأة استبدبها الغيظ والغضب فأمسكت بشعره وجذبته بكل قواها الى الغرفة بينما كان ـــ هو ـــ يسهل عليها تلك المهمة في حدود طـاقته مستجيبـاً لهـا محاولا اللحـاق بهـا على ركبتيه وهو على جثوه ! وبينما كانت زوجتـه تهزه من شعره بعنف وتضرب رأسه بأرض الغرفة ! كان هو يردد موجهـاً الكلام لرفيقه :

ـــ إن هذا يفيدني يا سيدي ! إنه لا يؤلمني .. واستيقظت الصغيرة التي كانت نائمة على الارض وراحت تصرخ باكية معولة ولم يتمكن الطفل الذي الى جانب

أخته الكبرى من مقاومة خوفه اكثر من ذلك فانخرط هو الآخر في بكاء مرير وازداد التصاقاً بأخته التي كانت بدورها ترتعد من الرعب فكانت ترتجف كورقة في مهب ريح عاتية !

كل ذلك والمرأة ما فتئت تصيح يائسة :

ـ لقد انفقه كله على الشراب .. لقد شربه كله ! وهذا الثوب ليس ذاك الذي اشتريته له .. رباه لقد سقطنا من جديد بين انياب الجوع .. الجوع ! وراحت تشير بيدها الى أطفالها وهي تتلوى من الألم وتقول :

ـ آه من هذا الوجود المريع !

ثم زجرت قائلة : ألا تستحي .. ألا تخجل .. ؟ ! لم تكتف بما فعلت بل توجهت نحو راسكولنيكوف وصاحت به :

ـ لقد جئت من الحانة معه ؟ لقد سكرت معه ؟ كنتما تشربان معاً ... أخرج من هنا ..

تهافت الشاب طالباً النجاة دون أن ينبس ببنت شفة وكان باب الغرفة الاخرى الذي كان مواربا قد فتح على مصراعه وبان خلال الفتحة بعض الفضوليين الذين حلا لهم مشاهدة تلك التمثيلية المؤلمة ! وكانت الاعناق مشرئبة و « النظارة » متلهفون بين مدخن لفافة ومولع بغليون ! كانت اجسادهم ملفوفة في جلابيب نوم ممزقة بالية وكان بعضهم مرتدياً ألبسة صيفية خفيفة اقرب الى التبذل وآخرون في أيديهم ورق اللعب ! وكان يزيد في تسليتهم قول مارميلادوف وهي تجذبه من شعره إن ذلك يفيده ولا يؤلمه ! ولقد تدافع اولئك المتطفلون حتى كادوا ان يبلغوا حجرة جيرانهم لو لا أن اوقفتهم همهمة حانقة مغضبة ! تلك الهمهمة كانت تنبعث من صدر أميلي ليبيوشسبل التي ظهرت على « المسرح » لتعيد

الامور الى نصابها على طريقتها وهي تسقي المرأة المسكينة سيلا من الشتائم ملوحة لها للمرة المائة بوعيدها القاضي بتخلية الغرفة منذ الصباح !

استطاع راسكولنيكوف قبل خروجه ان يجمع في قبضته الدريهات القليلة التي تبقت لديه من « الروبل » الذي انفق بعضه في الحانة وان يضعها خلسة على حافة الكوة . فلما بلغ السلم ، ندم على ما فعل وود لو استعاد ما منح وراح يناجي نفسه قائلا :

« يا لها من حماقة تلك التي ارتكبتها في التو واللحظة ! ان لديهم « سونياهم » بينما انا في مسيس الحاجة الى المال . » . غير انه تذكر اقوال مارميلادوف حين قال : « ان سونيا بحاجة الى الأدهان والى كل متطلبات النظافة » فأيقن أنه لن يستعيد منحته حتى ولو اتيح له ان يتسلل دون ان يعترضه احد ! لا لن يفعل ذلك . . ان وسائل النظافة غالية الثمن !

تابع سيره نحو غرفته وهو يغمغم : « ان سونيا لا تستطيع الكسب بسهولة ... ان ملاحقة الغني بقصد السيطرة عليه لا تخلو من متاعب واخطار ! نعم ... لولا دريهاتي لما كان باستطاعة افراد هذه الاسرة البائسة الا التطلع بلوعة وحرمان الى الطعام الذي لا يستطيعون نيله ! مسكينة سونيا ... يا للمهنة التي دفعوها اليها بتأثير الحاجة ! نعم ... لقد ذرفوا دمعاً سخيناً في بادئ الامر لكنهم سرعان ما اعتادوا تلك التضحية وألفوها . نعم ... ان الانسان نذل حتى انه يعود نفسه على تقبل كل شيء !

ثم تابع تفكيره وقال يخاطب نفسه :

« هيا يا فتى ... لقد كنت قاسياً في حكمي . اذ لو لم يكن الانسان في حقيقته نذلاً أو بالاحرى لو لم تكن النذالة من صفات الانسانية لكان معنى ذلك ان كل ما في الوجود ليس الا اباطيل ... نعم أراجيف خيالية لا حد لها ... ولا شك أنها كذلك !

الفَصلُ الثّالِثُ

استيقظ راسكو لنيكوف متأخراً بعد ان حفل نومه بالأحلام المزعجة ، فلم يفده نومه الطويل في استعادة قواه . كان مزاجه حاداً مستطيراً وبدت الغرفة لناظريه بشعة كريهة . بدت أشبه بقفص طوله ست خطوات ذي مظهر عريق بالبشاعة بوريقاته الباهتة التي تزين جدرانه ، يسبح الغبار الكثيف في ارجائها ، منخفضة جداً حتى انه كان على طويل القامة ان يتحاشى ارتطام رأسه بسقفها ، اما الأثاث فكان يتناسب معها : ثلاثة مقاعد متداعية قديمة ومنضدة مدهونة « مجازاً » في احد اركانها وقد تراكمت فوقها الكتب والدفاتر التي يشهد الغبار الذي يعلوها انها لم تمس منذ أمد بعيد !.. وكان هناك كذلك « اريكة » كبيرة تشغل المساحة القائمة بين منتصف الغرفة والجدار مجللة بقماش هندي ممزق كان راسكو لنيكوف يستعملها بدلاً من السرير ! وكثيراً ما كان ينام عليها بألبسته كلها دون ان يبسط فوقها غطاء ما ويلتحف معطفه القديم ، معطف التلمذة ! وكان يستعيض عن الوسادة — لافتقاره الى واحدة — بكيس صغير حشر فيه كل ما وصلت اليه يده من ملابس داخلية قذرة أم نظيفة على قدر حاجته .. وكذلك كانت هناك منضدة صغيرة امام « السرير » !

كان من العسير على المرء الانحطاط الى اسوأ من هذا المصير ! . . مع ذلك فان راسكو لنيكوف كان في حالة نفسية تجعله يرتضي تلك الحقارة فكان منظر كوخه الزري يبعث في نفسه نوعاً من السرور . كان قد ألف العيش في عزلة تامة كالسلحفاة التي تلجأ الى بيتها الطبيعي .. غير انه لم يكن راضياً عن الخادم

ذات الوجه الذي يثير في نفسه حقداً مريراً كلما أطلت ذات صباح لتراقب ما يجري في غرفته . تلك هي عادة بعض المخبولين الذين يثورون بفعل بعض الاشياء دون بعضها الآخر ! وكانت صاحبة الدار قد انقطعت عن تقديم الطعام اليه منذ اكثر من خمسة عشر يوماً . فلم يفكر — رغم ذلك الصوم الاضطراري — في وجوب النزول اليها ومناقشتها الأسباب ! وكانت « ناستاسيا » وحدها — وهي الطاهية والخادم الوحيدة في المنزل — راضية عن ذلك المستأجر لأنها كفت نهائياً عن ترتيب سريره وتنظيف غرفته اللهم الا اذا صدف أن مرت من هناك مرة في الاسبوع وبيدها مكنستها .. وكانت هي التي أيقظته هذا الصباح — لدهشته — وهي تهيب بهَ ان ينهض :

— هيا انهض ! كيف تنام الى هذا الوقت وقد تجاوزت الساعة التاسعة ؟ لقد أتيتك بالشاي فهلا ارتشفته ؟ سوف تموت من الجوع اذا بقيت على حالك !

فتح المستأجر عينيه وارتعد ! فقد عرف صوت ناستاسيا ! ولكنه تمالك اعصابه وقال بصوت خافت :

— أهي صاحبة الدار التي ارسلت إلي هذا الشاي ؟

وضعت امامه آنية الشاي الخاصة بها والتي كانت فيها بقايا الشاي الذي تحدثت عنه ثم القت بجانبها بقطعتين صغيرتين من السكر المصفر وقالت : — آه .. صاحبة الدار !... ليكن !

تناهض الشاب وراح يبحث في جيوبه — وكان نائماً بألبسته كاملة — ثم اخرج قطعة نقود صغيرة وقال :

— هاك ياناستاسيا إئتني اذا اردت بقطعة صغيرة من الخبز ثم اذهبي الى اللحام واشتري لي بعضاً من « النقانق » واجهدي ان تكون

رخيصة الثمن !

— سآتيك بالخبز حالاً . اما « النقانق » فانني أفضل عليها حساء الملفوف الذي عندنا بعضه ؛ فلقد رفعت لك جانباً منه مساء امس ولكنك تأخرت في عودتك ! انه حساء لذيذ جداً ..

عادت اليه بعد قليل بالخبز والحساء فمضى يأكل بنهم بينما جلست الى جانبه وراحت تثرثر . كانت من تلك النسوة القرويات اللاتي يتمتعن بلسان لا يدركه الاعياء ! قالت تحدثه :

— تريد « براسكوفي بافلونا » أن تشكوك الى البوليس !

فأربد وجه راسكو لنيكوف واجاب مستفسراً :

— تشكوني الى البوليس ؟ ماذا يزعجها مني ؟

— انك لا تدفع لها ولا تريد اخلاء الغرفة وهذا ما يزعجها منك !

فهمهم بين اسنانه يقول :

— يا للشيطان .. هذا ما ينقصني في هذه الآونة ! إن ذلك يأتي في غير موضعه ! .

ثم تابع بصوت مرتفع يقول :

— يا لها من حمقاء ! سوف اقابلها اليوم وسأتحدث معها في الامر !

— قد تكون حمقاء كما تقول مثلي تماماً .. ولكن انت الذي تنعم بالذكاء الألمعي لمَ تبقى هكذا منزوياً دون أن تمد أنفك الى الخارج ؟ كنت من قبل — على حد قولك — تعطي دروساً للاطفال فلمَ لاتقوم الآن بأي عمل ؟

فأجابها بلهجة جافة دون أن يعي ما يقول :

— انا أعمل شيئاً ما ..

— ماذا تعمل ؟

ــ عملا . . .

ــ أي عمل ؟

فأجابها برزانة بعد صمت قصير قائلا :

ــ انني أفكر !

كان مزاج ناستاسيا مرحاً حتى انها اذا ابتهجت لشيء مها بلغت تفاهته ، راحت تضحك بسكون ضحكة مكبوتة تهز جسمها كله وتجعلها تتلوى بعنف حتى ينتهي بها الحال غالباً الى قذف ما في احشائها ! تلك كانت احدى ميزاتها ولقد كانت فريسة لتلك الميزة في تلك اللحظة عند سماعها جواب الشاب !

ولما استطاعت النطق قالت :

ــ هلا فكرت على الأقل .. في كثير من المال ؟

ــ لا يمكن إعطاء دروس اذا لم يكن لدى المرء أحذية وعلى كل حال انني لا ابالي !

ــ لا عليك ! . .

واسترسل بلهجة شرسة وكأنه يناقش أفكاره الشخصية وقال :

ــ دروس ؟ لا يجني الانسان منها الا النذر القليل . .

ــ لعلك تريد اكتساب ثروة كاملة دفعة واحدة . .

فأجابها بلهجة مطمئنة بعد تفكير قصير قائلا :

ــ نعم ثروة كاملة . .

ــ مهلا .. انك تخيفني لأنك تتوق الى الوثوب الخطر .. وعلى فكرة ، لقد وردت اليك رسالة في غيابك كدت انساها . .

ــ ماذا ؟ رسالة إلي ؟ وممن ؟

— ممن ؟ لست ادري ! لقد أعطيت الساعي من جيبي الخاص ثلاثة « كوبيكات » فهلا أعدتها إلي ؟

فهتف بها راسكولنيكوف قائلا وقد هزته المفاجأة :

— بحق السماء اذهبي وجيئيني بها ! يا إلهي !

لم تمض دقيقة حتى كانت الرسالة بين يديه ، كان يتوقع ان تكون من أمه التي تقطن مقاطعة « ر ... » وصدق ما توقعه ! فلما اخذهـا بين يديه شحب لونه .. فقد انقطعت عنه الرسائل منذ أمد بعيد ؛ وكانت افكاره تزيد في إيلامه.. وابتهل الي الخادم بضراعة أن تذهب وتتركه لوحدته :

— هاك « كوبيكاتك» الثلاثة يا ناستاسيا وانصرفي .. انصرفي بحق الرحمن.. بحق السماء عجلي بالانصراف !

كانت يده ترتعد والرسالة فيها ، ولم يكن يريد فضها بحضور الخادم . كان يشعر بحنين للبقاء « وحده » مع ذلك الكتاب، فلمـا ارتحلت ناستاسيا ، حمل الرسالة الى شفتيه وقبلهـا وراح يتمهل في معاينة العنوان الذي كانت تحمله ! .. لقـد تعرف على كتابة امه العزيزة ، ذلك الخط الدقيق المائل ، خط امه التي علمته اول مبادىء القراءة والكتابة .. واخيراً فض الغلاف فطالعته رسالة مطولة سطرت على ورقتين كبيرتين امتلأت صفحاتها كلها بكتابة دقيقة متلاحقة .

عزيزي روديا : ها قد مضى شهران لم اتصل بك كتابة خلالهما ، ولقد تألمت لذلك وقاسيت من هذا الانقطاع حتى انني لم استطع النوم الليلة الماضية لكثرة ما فكرت فيك . أعتقد أنك لن تلومني على سكوتي الطويل القسري ! وانت تعلم كم احبك .. فأنت كل ما تبقى لنا : لدونيـا ولي ، انت كل شيء بالنسبة الينا ، كل املنا وايماننا بالمستقبل ... لا تسل عن حالي حينما علمت أنك

تركت الجامعة منذ شهور بسبب ضيق ذات يدك ، وان دروسك انقطعت وكذلك مواردك !

كيف استطيع يا ولدي ان اساعدك وانا لا امتلك الا مائة وعشرين روبلا في العام هي كل جرايتي .. ان الخمسة عشر روبلا التي بعثت بها اليك منذ اربعة اشهر ، كنت اقترضتها — كما تعلم — من احد الباعة عندنا : فاسيلي ايفانوفيتش فاخروشين . انه رجل باسل وقد كان صديقاً لأبيك . بيد أنني عنـــد ما فوضته بقبض جرايتي استيفاء لدينه ، لم أتمكن من الوفاء قبل اليوم ، مما جعلني خـــلال هذه المدة عاجزة عن امدادك باي عون . اما الآن والحمـد لله ، فانني اعتقد ان بمقدوري ان امدك ببعض الشيء ، وعلى العموم نستطيع اليوم ان نباهي باننا في حال يتحسن باطراد الامر الذي بادرت الى اطلاعك عليه .. فهل خمنت يا عزيزي روديا ما هو السبب ؟ ان اختك يا ولدي تقطن منذ شهر ونصف معي واننـا نأمل ان لا نفترق بعد اليوم ابداً . حمداً لله فقد انتهت آلامهـــا واسوف اطلعك على دقائق الامر بالترتيب لكي تدرك كيف وقع ذلك ، الامر الذي اخفينـاه عنك حتى اليوم .

عند ما كتبت لي منذ شهرين انه ترامي الى سمعك ان اختك دونيـا موضع معاملة سيئة من قبل مستخدميها آل سفيدريكايلوف وانك تسألنا ايضاحاً عن ذلك يفي بحاجتك الى الاطمئنان ، ما كنت اعرف كيف اجيبـك . . . ولو أنني اخبرتك بالحقيقة كلها لهجرت المدينة واقطعت الطريق مشياً على قـدميك لتصل الينا . ذلك لانني اعرف عواطفك وافهم عقليتك ، فما كنت لتترك اختـك عرضة للامتهان والاعتداء عليها حتى انني شخصياً كنت يائسة ولكن لم يكن بوسعي عمل شيء ! زد على ذلك أنني ما كنت اعرف الحقيقة كلها . . . وكان أسوأ ما في الامر ان اختك « دونيا » لما عملت عندهم كمربية منذ عامين ، استلفت مائة روبل

بشرط ان تحسم على دفعات من اجورها الشهرية ، الامر الذي جعلها عاجزة عن التحرر من ربق مستخدميها قبل وفاء السلفة ... وهذا المبلغ (واستطيع الآن أن اصارحك يا عزيزي روديا) كانت استلفته بصورة خاصة لترسل اليك منه الستين روبلا التي تلقيتها منا في العام الماضي ... وقد خدعناك كلتانا حينما اوهمناك انه مال ادخرته اختك من قبل ... والان اطلعك على الحقيقة كلها لأن الله منّ علينا واراد ان تختلف اوضاعنا كلها وتتحسن ولأنني اريدك ان تدرك الى أي حد تحبك اختك دونيا واي قلب عطوف نادر المثيل تحمل بين ضلوعها ... والقضية هي ان السيد سفيدريكايلوف كان يعاملها في البداية بخشونة وصلف ... فكان يعرضها على مائدة الطعام لمختلف انواع الهزء والمشاكسة المسجوجة ... ولا اريد الاسترسال في شرح هذه التفاصيل المؤلمة كي لا أثيرك واحرك غضبك دون جدوى طالما أن هذه الامور قد انتهت الان ولن تعود ...

موجز القول ، كان مركز دونيا أليماً لدى آل سفيدريكايلوف رغم ما كانت تلاقيه من حسن المعاملة من زوجته « مارتا بيتروفنا » ومن كل سكان المنزل الآخرين ، لكن ماذا نتج عن ذلك ؟ تصور ان ذلك المأفون كان منذ امد بعيد يضمر ميلا نحو دونيا وانه كان يخفي كل ذلك تحت ستار من الغلظة والفظاظة والاحتقار ! ولعله كان يخجل من نفسه او انه استنكر ما يبيت لها من آمال محرمة وهو الطاعن في السن ، رب الاسرة الكبيرة ... ومن اجل ذلك كان ينقم على دونيا ويحقد عليها ... ولعله كان يقصد من وراء تلك القسوة والسخرية التي كان يعرضها لها ان يجعل الباقين يحذون حذوه في معاملتها . غير انه لم يستطع الصمود والمثابرة على خطته ... وبلغ منه الهوس أن راح يفاتح دونيا بصراحة بما في نفسه ويعرض عليها عروضاً دنيئة ممنياً إياها بشتى المكافآت والعطاءات ومؤكداً لها استعداده لهجر اسرته والفرار معها الى حيث ينعم بحبه الاثيم سواء

أكان ذلك في إحدى ممتلكاته النائية ، أو في خارج البلاد ... لك أن تتصور بعد هذه المقدمة في أي ذعر وأية رهبة كان تعيش أختك المسكينة . . وما كان لها أن تفكر في ترك عملها ، ليس بسبب السلفة الواجبة التأدية فحسب ، ولكن لتجنيب مارتا بيتروفنا الألم الذي سيحدثه لها علمها بالأمر ... وهي لو علمت به ، أو شعرت بظل من الشك في نفسها في هذا الصدد ، لأحدثت في الاسرة مشاحنات لا تؤدي إلا إلى أسوأ النهايات والاحتمالات . أضف الى ذلك الفضيحة التي كان يمكن أن تلحق بدونيا ، رغم أننا لم نتمكن من اجتناب هذه الفضيحة كلياً . .

كانت دونيا لا تستطيع الفرار من ذلك البيت المقوت ، قبل ستة اسابيع على الاقل ، وذلك بنتيجة ظروف شتى ... وانت تعرف اختك ، وتعرف كم هي حكيمة عاقلة متينة الخلق ! وهكذا عوات دونيا على الاحتمال ، مطمئنة الى شجاعتها التي لا تخونها في مجابهة تلك الأمور ، مهما كانت الظروف حرجة ، والملابسات دقيقة خطيرة ! وقررت الامتناع عن الكتابة اليّ حول هذا الموضوع ، كي لا تثير الرعب في نفسي . لذلك فان رسائلها التي كانت ترد الي تباعاً ، لم تكن تحمل أي تلميح حول هذا الموضوع ؛ فجاءت الخاتمة بشكل فجائي غير متوقع ! ذلك أن « مارت بيتروفنا » — بصدفة عجيبة — داهمت زوجها في البستان ، وهو يبتهل الى دونيا ، ويتوسل اليها ... ففهمت الموضوع على عكسه ، واتهمت دونيا بما كان ينبغي لها أن تتهم به زوجها . فقام بينهما في ذلك البستان مشهد مريع ... كانت « مارت بيتروفنا » ترفض الاستماع الى ايضاحات « دونيا » ، بل انها سمحت لنفسها أن تضربها وأن تصيح في وجهها طيلة ساعة من الزمن ، وامرت اخيراً ان تعاد الى المدينة — عندنا — على عربة قروية عادية ، ألقيت فيها حاجاتها دون نظام ولا ترتيب ... وتكدست في تلك

العربة ألبستها « وبياضاتها » وكل ما حملته معها في ذهابهـــا إلى ذلك البيت ... وكانت السماء تمطر مطراً غزيراً ، واضطرت دونيا على ما كانت عليه من تجريح وخزي ، أن تقطع سبعة عشر فرسخاً برفقة الفلاح ، وفي عربة مكشوفة . فاحكم الآن بنفسك على نوع الجواب الذي كان يمكنني إرساله اليك ، جواباً على كتابك الذي بعثت به إلي منذ شهرين ؟ . لقد كنت يائسة ، لا أكاد أفقه شيئاً مما يدور حولي ، فلم أجرأ على مكاشفتك بالحقيقة ، وإلا لتجرحت كرامتك ، ولاستثارك الغضب ، ولكنت أتعس المخلوقات . . خصوصاً ما كنت لتستطيع الاتيان بأي أمر ، الا زيادة موقفك سوءاً وخطورة ! هـذا مع العلم أن دونيا حذرتني من مفاتحتك بالموضوع ، فلم أجد في نفسي القدرة على تدبيج رسالة تحمل تفاصيل تافهة مغلوطة لا أعرف كيف أصوغها !

استمرت الافتراءات تروج هنا في المدينة ، طيلة شهر كامل . وكنا هدفاً مكشوفاً لها ؛ وبلغت من شدتها أننا — دونيا وانا — ما عـدنا نستطيع وطء أرض الكنيسة بأقدامنا ، خشية ألسنة الناس الحداد ، ونظرات الاحتقار التي كنا نستهدف لها ، والهمسات التي كانت ترتفع في استقبالنا ؛ وبلغ الحال حداً لم يعد بعضهم يخجل من إبداء آرائه أمامنا وجاهياً دون خفر ولا حياء .. وأدار معارفنا ظهورهم لنا ، وقلب لنا أصدقاؤنا ظهر المجن . حتى امتنع بعضهم عن توجيه التحية الينا ومخاطبتنا .. ثم بلغني من مصدر موثوق أن بعض المستخدمين والموظفين الصغار ، تآمروا بينهم ، وقرروا إهانتنا بشكل دنيء ، بأن يلطخوا باب مسكننا بالقطران ، حتى أن مالكي الدار راحوا يدعوننا الى اخلائها ... وكانت « مارت بيتروفنا » وراء كل هذه التخرصات والأفاعيل ؛ فقـد راحت تنشر القصة كما فهمتها في كل مكان تؤمه ، لتنال عن دونيا وتحط من قيمتها ..

وكانت معرفتها بالناس من مختلف الطبقات تسهل مهمتها ؛ خصوصا وانها ميالة بطبعها الى الثرثرة والتحدث عن شؤونها الداخلية ، الأمر الذي كان يهددنا بانتشار تلك القصة ، ليس في مدينتا فحسب ، بل في المقاطعة كلها ؛ وبلغ من حزني أن وقعت فريسة المرض ، على عكس دونيا التي اظهرت جلداً عجيباً ...

ليتك رأيتها وشهدت كيف كانت تحتمل كل هـذه الافتراءات المرذولة ، وتشجعني على الاحتمال وتعزيني بالمصاب لتخفف وطأه في نفسي . انها ملاك ! وقد رحمنا الله وغمرنا باحسانه إذ انهت آلامنا .. ذلك أن السيد سفيدريكايلوف قرر الاعتراف بذنبه ، والاقلاع عن خطئه .. ولعله أشفق على دونيا مما حلّ بها بسببه ، فشرح « لمارت بتروفنا » الأمر بحذافيره ، وقـدم اليها الأدلة التي تنادي ببراءة دونيا الكلية وتدعمها .. واذكر منها بصورة خاصة ، رسالة كانت دونيا قد وجهتها اليه قبل أن تفاجئها مـارت بتروفنـا في الحديقة ، كانت تطلب اليه فيها أن يكف عن ملاحقته لها ، وتعتذر له فيها عن ملاقاته في الموعد الذي رجاها أن توافيه فيه .. — وقد بقيت تلك الرسالة بعد انسحاب دونيا بين يدي السيد سفيد ريكايلوف — وتعتب عليه فيها سلوكه المشين حيال زوجته مارت بتروفنا . وتذكره بانه متزوج ورب عائلة ، وإن تصرفه سوف يجلب التعاسة والشقاء للأسرة كلها . وتدعوه الى الكف عن مضايقة فتـاة مسكينة عزلاء ، لا تملك عن نفسها دفاعـاً ... كل ذلـك بلهجة عنيفة شديدة حاسمة .

خلاصة القول يا عزيزي روديا ، كانت تلك الرسالة مؤثرة ونبيلة ، حتى اني لم أتمالك نفسي عن الانتحاب عند ما قرأتها . ولا أستطيع اليوم أن أعيد تلاوتها دون ان تملأ الدموع عيني .. وجاءت شهادة الخدم مصداقاً لصحة ما جاء في رسالة دونيا ، مؤيدة لها . أولئك الخدم الذين ظهر أنهم كانوا يعرفون اكثر

مما قدر السيد سفيد ريكايلوف نفسه ، كما يحدث دائماً في مثل هـذه الحالات .. وقد ذهلت « مارت بيتروفنا » للنبأ ، فكان صدمة أليمة لها ، زادت شدتهـا عن الصدمة الأولى — كما اعترفت بنفسها بعدئذ — .. ولم يبق لديهـا أي شك في براءة دونيا .. وهكذا لم تكد شمس الصباح تشرق — وكان اليوم أحداً — حتى هرعت الى الكنيسة تبتهل الى العذراء شديدة القدسية أن تساعدها على احتمال هذه التجربة العنيفة ، والقيام بالواجب المترتب عليها . ثم جاءت تزورنا بعد ذلك مباشرة ، دون أن تتوقف في الطريق ،فقصت علينا الخبر بحـذافيره ، وبكت بمرارة واندفعت — تحت تأثير ندمها وشعورها بالاثم — الى دونيا تعانقها،وتطالب اليها الصفح عنها . ثم غادرتنا وطافت في انحاء المدينة كلها ، فلم تترك أحـداً من معارفها الا وأزجت دونيا أمامه مديحاً حاراً ، وسكبت سيلا من الدمع وهي تشيد بنقاء عواطفها ، ونبل اخلاقها .. ولم تكتف بذلك بل راحت — زيادة في تبرير موقف دونيا وسعياً وراء رد اعتبارها السليب إليهـا — راحت تتلو رسالتهـا بصوت عال أمام الناس ، تلك الرسالة التي حدثتك عنها ، والتي وجهتهـا دونيـا الى السيد سفيد ريكايلوف .. بل وسمحت لمن أراد ان ينسخ عنهاصورة ليحتفظ بها ، ويطلع عليها من يشاء (وهو تصرف لا أعتقد أنه في محله) .. وبهـذه الطريقة لبثت « مارت » عدة أيام متتالية تطوف المدينة ، ساعية لاصلاح ما افسدت، فلم تترك أحداً من معارفها الا وحدثته بالنبأ الجديد ، حتى أن بعض هؤلاء راح يبذها في نشر الخبر والتعقيب عليه !.. وكانت زيارة مارت بيتروفنا متوقعة لكل مكان ، فكان يعرف سلفاً انها ستقرأ الرسالة في يوم كذا ، حتى ان الذين سبق لهم سماع ما جاء فيها ، كانوا يقصدون حيث تكون ، ليستمعوا من جديد الى تلك التلاوة العتيدة !

اني أعتقدت أن مارت بيتروفنا بالغت كثيراً في امثال هـذه التعرفات ،

ولكنها كانت ترضي ضميرها وتحتكم لعقليتهـــا ؛ وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التعرف ان عاد الى دونيا اعتبارها ، وتحررت نهائياً من الوصمة التي كانت تهدد حياتنا ... وقد تلقت دونيا عروضاً كثيرة للتدريس في عدة دور ، الا انها رفضت تلك العروض ؛ واستعدنا مرة ثانية مكانتنا بين النـــاس الذين راحوا يعربون لدونيا عن مودتهم وأسفهم .. وكان لهذا الحدث اثر في تسهيل التحسن الذي طرأ على موقفنا ، اذ تقدم خطيب يطلب يد دونيا فوافقت عليه ، وانا بدوري بادرت الى اخبارك .. اذ رغم ان القضية قد بُتّ فيها دون اخذ موافقتك فاننـا — دونيا وانا — ندرك تماماً أنك لن تسرهـا في نفسك ، خصوصاً متى عرفت أننا ما كنا لنستطيع ارجاء البت فيها ، وانك ما كنت لتستطيع الحكم على الموضوع بدقـــة ، وانت حيث انت الآن . . . واليك تفصيل القضية كما وقعت :

بيير بيتروفيتش لوجين المستشار القضائي ، يمت بقرابة بعيدة الى مـارت بيتروفنا ، التي لعبت دوراً فائقاً في هذه المناسبة . فهو الذي بدأ يعرب لقريبته عن رغبته في التعرف الينا ؛ وقـــد استقبلناه بالطبع على احسن ما يكون الاستقبال ، وقدمنا له القهوة ... وفي اليوم التالي بالذات بعث الينا رسالة عرض فيها بأسلوب مهذب رغبته ، والتمس جواباً سريعاً وحاسماً .. وبيير هذا ، رجل اعمال جم المشاغل تعتبر الثواني ثمينة في حياته .. ولسوف ينتقل الى بيترسبورج! فلما أطلعتنا على رغبته ، فوجئنا بها ، كما لا شك تتصور ذلك . لأنه كان عرضاً فجائياً غير منتظر .. فأمضينا كلتانا سحابة يومنا نمحص المسألة ، ونناقشها على كل الوجوه . صحيح ان سن بيير هذا يبلغ الخامسة والاربعين ، الا ان مظهره مرض جداً ، فيه جاذبية للنساء ؛ وهو الى جانب ذلك ذو مركز ممتاز ، ورجل مرموق رغم ما يبدو على محياه من عبوس وترفع . لكن ذلك قد لا يبدو

المظهر ، مجرد مفعول النظرة الاولى ليس الا ؛ وسوف تلقاه في بيترسبورج ، ولن يتأخر ذلك ، فآمل ان لا تحكم عليه باندفاع ودون روية ، كعادتك يا عزيزي ، اذا لمست في مظهره مما يستوقف الانتباه للوهلة الأولى ! اقول لك لمجرد القول ، رغم وثوقي من أنه سينتزع اعجابك ولأنه ، لكي نحكم على رجل من اي نوع كان ونتوصل الى معرفة سريرته ، ينبغي أن نتصرف حياله بحكمة واحتراس بالغين . اذا اردنا ان لا نقع في شطط يصعب تصحيحه بعدئذ وازالة آثاره . اما فيما يتعلق ببيير بيتروفيتش ، فلدينا اكثر من دلالة على أنه من خيرة الرجال ، واوفرهم احتراماً !.. وقد صرح لنا في زيارته الأولى انه رجل ايجابي حقاً ، ولكنه ازاء عديد من النقاط ، يؤمن « بمبادئ الأجيال الحديثة » حسب تعبيره الخاص . وانه عدو التسرع في الحكم على الأشياء ... ولقد حدثنا في زيارته تلك بأشياء كثيرة ، لأنه — كما يبدو — معجب بنفسه بعض الشيء . يحب ان ينصت الناس الى حديثه ، مما لا يجدر اعتباره عيباً الا اذا شئنا ان نفرط في الحكم !... انني لم افهم شيئاً كثيراً من كل ما قال ، غير ان دونيا شرحت لي انه على الرغم من ان ثقافته الأساسية لم تكن عالية ، الا أنه ذكي تبدو عليه الطيبة والنبل ... انك تعرف عقلية اختك يا روديا . انها شابه ذات تفكير منطقي قويم ، مثابرة شريفة النفس رغم قلبها الحساس المتأجج كما لاحظت عليها ذلك . طبيعي أن ، لا دونيا ولا بيير ، ارتبط احدهما بالآخر بغرام مسبق . لكن دونيا — الى جانب كونها فتاة ذكية — شابة نبيلة كملاك السماء ، تعتبر ان من واجبها بناء سعادة زوجها الذي عليه بدوره ان يفكر بمثل ذلك ، الأمر الذي لا نجد لدينا أي دافع للشك فيه رغم السرعة التي رافقت البت في هذه القضية ! انه على العموم من الرجال الاذكياء النابهين ، فهو يدرك اذن ان سعادته العائلية ستكون اكثر توطيداً كلما كانت دونيا محفوفة بالسعادة والهناء . اما فيما يتعلق ببعض التباين

في الأمزجة وتوافه الميل ، والذي يرجع في الغالب الى تباين في الآراء — وهو الأمر الذي لا يمكن اجتنابه حتى في اكثر الاسر تفاهماً وسعادة — فان دونيا تكفلت في علاجه على طريقتها . انها تؤكد لي ، بأن ليس في الأمر ما يتعلق ويشغل البال ، وانها ستتغاضى عن كثير من الأمور شريطة ان تعم العدالة ، ويسود علاقاتها التجرد والنزاهة .

ان المظاهر كثيراً ما تخدع ياولدي ! فقد بدا لي هذا الرجل لأول وهلة غضوباً بشيء من الوقاحة ، غير أنني تأكدت من ان هذا الشعور يرجع الى صراحته الشديدة .. وقد صرح في زيارته الثانية لنا ، عقب ابلاغه موافقتنا ، انه قبل ان يصادف دونيا ويتعرف اليها كان مقرراً ان لا يتخذ لنفسه زوجة الا فتاة شريفة دون بائنة ، تذوقت معنى الحرمان والفاقة .. وفسر لنا وجهة نظره هذه قائلا : ان الرجل لا يجب ان يكون مديناً بشيء لزوجته ، ومن الخير ان تنظر المرأة الى زوجها نظرتها الى محسن كريم . هذا مع العلم انه عبر عن رأيه ذاك بشكل ألطف مما كتبته لك ، غير انني نسيت عباراته التي تفوه بها ، واكتفيت بأن نقلت اليك المعنى ! كما أنه لم يقل ذلك القول متعمداً متروياً ، بل ان تلك العبارة افلتت من فمه خلال حمى النقاش والحديث ، حتى انه بعد ان قال ما قال عاد يصلح ما تفوه به ، ويزيل ما قد يكون علق في نفوسنا من آثاره ! ولبثت أعتبر ذلك القول لوناً من الاهانة ، وفاتحت دونيا بعد ذلك بما خمنت ، فأجابتني بشيء من التبرم « ان الكلام شيء والأفعال شيء آخر » وهو قول على العموم لا يخرج عن الحقيقة !

أمضت دونيا ليلتها الأولى ساهرة .. تلك الليلة التي سبقت قرار

القبول .. كانت تظنني نائمة . لذلك فقد نهضت من فراشها ، وراحت تذرع غرفتها جيئة وذهاباً ، ثم جثت على الأرض وراحت تصلي بحرارة وقتاً طويلا ، امام « الايقونه » وفي الصباح ، انهت الي قرارها بالموافقة على الزواج !

قلت لك في متن هـــذه الرسالة ان بيـير بيتروفيتش سيسافر الى بيترسبورج ، وان اعمالاً هامة تقتضيه ذلك السفر ، وانه سيفتتح فيهـا مكتباً للمحاماة فهو يزوال هذه المهنة منذ زمن بعيد ، وقد ربح مؤخراً قضية هامة . على ذلك ، تستطيع اعتبـاره يا عزيزي روديا ، ذا منفعة بالنسبة اليك ، وقد اتفق رأينا — دونيـا وانا — على انـك تستطيع منذ اليوم ان تبني مستقبلك الذي اصبح مؤمناً نهائياً . . آه . . ليت ذلك يتحقق بالفعل .. انه سيكون فعلا نجاحاً منقطع النظير ، او قل رضواناً من الله لا اكثر ولا اقل .. حتى ان دونيا لا تنفك تفكر في ذلك ! ... ولقد ألححنا الى بيير بيتروفيتش بذلك ، فكان جوابه متحفظاً ولكنه صرح بأنه يفضل بالطبع ان يدفع اتعاباً لواحد من افراد الاسرة طالما انه لن يستطيع الاستغناء عن امين سر له « سكرتير » ، شريطة ان يبرهن ذلك القريب على كفاءته ، فيشغل مركزه بجدارة (ولست عاجزاً عن ذلك ابداً !) ثم عبر عن شكوكه في ان تكون دراساته في الجامعة لا تسمح لك بمزاولة العمل في مكتبه ؛ وتوقفت المسألة عند هذا الحد . غير ان دونيا التي لا يشغلها امر اكثر من هذا ، ستعود الى البحث فيه من جديد ... لقـد وضعت منذ ايام مشروعـاً مستعجلا يتعلق بمستقبلك : هي تجزم بانك تستطيع ان تصبح بعد قليل مساعـداً لبيير بيتروفيتش ، بل شريكاً له في اعماله القانونية ، خصوصاً وانـك

طالب في كلية الحقوق ! انني شخصياً من هذا الرأي ، لذا تراني أسبح في هذه الأمال ، وأتيه في خضم هـذه المرئيات معتبرة كل ذلك حقيقة واقعة ! وعلى الرغم من تحفظ بيير بيتروفيتش الحـالي ، وهو تحفظ واضح السبب لأنه لم يتعرف اليك بعد ، فان دونيا متأكدة تماماً من أنها ستبلغ الهدف بفضل نفوذها الذي تفكر في استعماله على زوجها المقبل .. نعم انهـا واثقة من ذلك !

اننا ولا شك نمتنع عن التحدث عن آمالنـا أمام بيير بيتروفيتش ، خصوصاً عن رغبتنا في ان نراك يوماً شريكاً له ، لأن بيير هـذا رجل واقعي واملة اذا شهد وعرف ما نضمر عزا ذلك الى اغراقنا في الخيـال والاوهام . هذا عدا عن اننا — دونيـا وانا — لم نحـدثه قط عن املنا في ان يقدم الينا المال اللازم ، طيلة وجودك في الجـامعة لمتابعة دروسك ؛ ونحن واثقتان من أننا في غير حاجة الى التحدث عن هـذا الأمر ، الذي سيكون بديهيـاً في المستقبل ، والذي لا شك سيبدأ من جانبه ، بعد ان يسمعك بعض المواعظ ، لأنـه لن يستطيع رفض هـذا الرجاء الذي تتقدم به دونيا اليه كزوج ! عدا عن انك ستكون مساعده الايمن في اعماله ، وبذلك تخرج القضية عن نطاق الاحسان والمساعـدة وتكون بمجرد دفع اجر انت تستحقه لقـاء عملك . تلك هي مشـاريع دونيـا التي تضمرهـا لـك ، وانـا متضـامنة معهـا في ذلـك مؤيدة لها !

كذلك لم نتحدث في هذا الامر لانني كنت أهدف الى جعلك معه على قدم المساواة ، بعد ان تتقابلا للمرة الاولى ! ذلك ان دونيا كانت تتحدث اليه عنك بلهجة كلها حماس وتأييد ، فاذا به يجيبها لكي يحكم على رجل مـا ينبغي ان

يراه عن قرب ، وأن يحتك به . لذلك فهو يحتفظ برأيه فيما يتعلق بك الى اليوم الذي سيتعرف عليك فيه .

سأطلعك كذلك على أمر يا عزيزي روديا . إنه ليس رأي بيير بيتروفيتش بالطبع ولكنه — ولنقل — هذيان امرأة عجوز ! ذلك أنني بسبب اعتبارات معينة ، افكر في البقاء حيث أنا ، بعد زواج أختك دونيا ، بدلاً من أن أشاطرهما السكن . انني واثقة من أنه سيكون له من نفسه ما يحفزه على مطالبتي بعدم الافتراق عن ابنتي ، وسأرفض بالطبع طلبه ... وهو وإن كان لم يحدثني بعد بشيء ، ولكنه واضح أنه سيكون كذلك ! وقد لاحظت أكثر من مرة في هذه الحياة ، أن الأصهار لا يضمرون خيراً لحمواتهم ، لذلك فانني الى جانب رغبتي في عدم ازعاجها في عشها ، أفكر جدياً بالاحتفاظ بحريتي المطلقة واستقلالي التام !.. ولن أعدم قطعة من الخبز أتبلغ بها ، وأنا أم لولدين مثل دونيا ومثلك ! ولسوف أقطن بالقرب منكما كليكما .

وأخيراً ساصل بك يا روديا الى النهاية الطيبة التي احتفظت لك بها في هذه الرسالة : ألا فاعلم يا عزيزي روديا اننا سوف نجتمع ثلاثتنا قريباً ، ولسوف نتعانق بحرارة بعد فراق دام ثلاثة اعوام . ذلك أنه تقرر — مسبقاً — أن نذهب — دونيا وأنا — الى بيترسبورج . أما متى سيكون ذلك ؟ فلست أدري ! إنما ارجح أن يكون ذلك خلال ثمانية أيام . وهو متوقف على الاستعدادات التي سيتخذها بيير بيتروفيتش والزمن الذي ستتطلبه . غير أنه سيخبرنا في حينه لنوافيه الى بيترسبورج ، لأنه يتعجل زواجه ويهدف الى الانتهاء منه خلال الشهر أو على أبعد حد ، في وقت جد قريب : أي بعد عيد « انتقال العذراء » !

آه ... بأية سعادة سوف أضمك الى صدري ! ودونيا ... إنها تحترق شوقاً الى رؤيتك ... لقد قالت ذات مرة مازحة : انها لم تتزوج بيير بيتروفيتش إلا لكي

تنتقل الى بيترسبورج وتراك ! انها ملاك كريم ! لقد اخبرتني بأنها لن تضيف شيئاً الى رسالتي اليك هذه المرة، ورجتني أن أعلمك بأن لديها أشياء كثيرة سوف تريها لك بنفسها ، أشياء تبلغ من الكثرة حداً يجعلها عاجزة عن الامساك بالقلم وتسطيرها اليك بالترتيب والتسلسل . لأنها تعرف أن الأسطر القليلة — مهما بلغ عددها — ، لن تستطيع ايضاح ما يعتلج في نفسها . لأن الاسطر توقظ الحنين في النفس لا أكثر ... لسوف نلتقي قريباً يا ولدي غير انني عازمة على أن أرسل اليك في الايام القريبة ، كل ما أستطيع ارساله من مال . اذ ان اعتباري المالي قد ارتفع في كل مكان منذ أن عرف الناس ، أن دونيا ستتزوج من بيير بيتروفيتش . وأنا أعرف ان اتاناس ايفانوفيتش سيوافق على تسليفي خمسة وسبعين روبلا على جرايتي السنوية ، مما سيجعلني قادرة على أن أرسل اليك منها خمسة وعشرين أو ثلاثين روبلا . ولو لا خوفي من نفقات الطريق وما قد يطرأ علينا ، لأرسلت اليك أكثر من هذا المبلغ . انني أحتاط لهذا رغم أن بيير بيتروفيتش عرض علينا أن يتحمل جزءاً من النفقات الناجمة عن هذه الرحلة ، فيطلب الى واحد من معارفه أن يقوم بنقل متاعنا . غير أننا يجب ان ندفع قيمة تذاكر سفرنا حتى بيترسبورج . وليس من المعقول أن نحل في المدينة دون أن يكون معنا مال يكفينا في أيامنا الاولى على الأقل . هذا مع العلم أن دونيا وأنا ، دققنا في كل صغيرة وكبيرة ، واتخذنا لها الحيطة . وبذلك فلن يكلفنا السفر غالياً . اذ لا يفصلنا عن محطة السكة الحديدية أكثر من تسعين فرسخاً ، وقد اتفقنا مع أحد الفلاحين على ايصالنا اليها ، سنسافر في الدرجة الثالثة بكل اطمئنان ورضى ، وبذلك سأنجح في ارسال ثلاثين روبلا اليك وليس خمسة وعشرين .

أعتقد أن ما كتبته حتى الآن يكفي ؛ فقد ملأت ورقتين كبيرتين لم أترك فيها مكاناً خالياً . لقد أنهيت لك قصتنا كما وقعت ، والله يعرف كم وقع لنا من حوادث!

والآن يا عزيزي روديا ، أقبلك على البعد بانتظار تلاقينا المقبل ، وأحمل اليك قبلات دونيا التي كلفتني بها ، وليرض عنك الله ولتحل عليك بركتي كأم .

أحبب اختك دونيا يا روديا ، أحببها بقدر ما تحبك ، واعلم أنها تحبك حباً عميقاً لا حدود له ، تحبك أكثر مما تحب نفسها ! انها ملاك كما قلت لك . وأنت يا عزيزي روديا ، أنت كل شيء بالنسبة الينا ، أنت أملنا وعزاؤنا في المستقبل . أرجو الله أن تكون سعيداً فنكون كذلك سعداء ...

هل تصلي دائماً كما كنت تفعل من قبل يا روديا العزيز ؟ وهل تؤمن أبدا بالقدرة والعناية الالهية المقدسة ؟ انني أخاف أن تكون الزندقة التي بدأت تسري بشدة اليوم ، قد وجدت طريقها الى نفسك . اذا كان ذلك قد حدث ، فسأصلي من أجل هدايتك يا ولدي . واذكر يا ولدي الحبيب ، كيف كنت تتمتم صلواتك لما أن كنت طفلا وكان ابوك حياً . كنت تجلس على ركبتي ، وكنا جميعاً سعداء. فالى اللقاء يا ولدي ، أضمك بعنف بين ذراعي وأرسل اليك قبلاتي .

محبتك حتى القبر

بولشيري راسكو لنيكوف

كانت العبرات تغسل وجنات راسكو لنيكوف منذ أن قرأ الكلمات الاولى. غير أنه ما أن فرغ من قراءة الرسالة كلها ، حتى شحب وجهه واكتسحت جسده رعشة هزت كيانه ، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة كلها مرارة ! ترك رأسه يسقط على الوسادة القذرة المحشوة بالالبسه ، وراح يفكر . كان وجيب قلبه يصم آذانه ، وكانت أفكاره توقد نيران الحمى في جسده . شعر أنه سيختنق في هذه الغرفة الصفراء التي تشبه الخزانة أو الصندوق ، بينما تاهت نظراته في الفضاء ... ولم يلبث أن اختطف قبعته وخرج دون أن يتهيب هذه المرة من لقاء

صاحبة الدار على السلم ! نعم لقد نسي هذه الحيطة تماماً ... سار في اتجـاه (ايل سان بازيل) جزيرة القديس باسيل ، ماراً بالشارع (فـ ...) كما لو كانت هناك أعمال هامة مستعجلة تنتظره . غير أنه راح كعادته يناجي نفسه ويتحدث اليهـا بصوت مرتفع احياناً ، دون ان يلاحظ ما حوله ، او يبـالي بمن يصطدم بهم ، شأن السكير المدمن .

الفَصلُ الرابعُ

كانت رسالة أمه تعذبه ... فقد أدرك منذ البداية الاساس أو الجوهر الذي قامت عليه خطة أمه وأخته ؛ فوصل الى قرار حاسم . قرار نهائي لا رجعة فيه : « لن يحدث هذا الزواج وأنا على قيد الحياة ... أما السيد لوجين فالى جهنم ! »

نعم كانت التضحية واضحة تقذي العيون ... فراح يتمتم بين أسنانه وعلى وجهه ابتسامة من نجح في مسعاه .

— لا يا أمي ، لا يادونيا ، لن تخدعاني ... يا للعذر الذي تتذرعان به عن عدم استشارتي في الامر ، والذي دفعكما الى البت فيه بدوني . آه ... لم يكن ينقصني إلا هذا ... انهما تظنان أن لا أمل بعد ذلك في فسخ الخطوبة ... سنرى هل هناك امكان أم لا ... كم هو عجيب ذلك القول : « انه رجل عملي جداً هذا الـ : بيير بيتروفيتش ، جم المشاغل حتى أنه لا يستطيع الا أن يتزوج بسرعة البرق ! » ... كلا يا دونيا ... أنا أرى بوضوح وأعرف « كل » ما تزمعين قوله لي ... أنا أعرف ما كنت تفكرين فيه تلك الليلة عند ما كنت تذرعين غرفتك بقلق .. أنا أعرف ماذا طلبت الى الله في صلواتك لعذراء كازان التي تزين صورتها غرفة أمي الصغيرة ! ان الصعود الى غولغوتا(١) صعب شائك ه ... هكذا اذن قررت نهائياً ... هل يعجبك يا أختي آفدوتيا رومانوفنا أن تتزوجي رجل أعمال ايجابي يملك ثروة (ولنقل أنــــه يملك ثروة ، لأن ذلك أكثر ايجابية وأشد تأثيراً) ، ويشغل عملين ويشاطر الاجيال الحديثة مبادئهـا

---

(١) غولغوتا Golgotha جبل بالقرب من اورشليم صلب عليه المسيح ـ المترجم

(كما كتبت امي) ، حسن المظهر كما لاحظت ذلك بنفسك ! ان هـــذا « المظهر » هو الباقـــة ! ودونيـــا ، انهـا ستتزوج بهذا المظهر ... رائع ... رائع !

لمَ ألحت أمي في رسالتها الى « الأجيال الجديدة » ؟ انه أمر يثير الفضول. هل أرادت وصف عقلية الشخص ، أو أن لها أهدافاً أبعد من ذلك ؟ كأن تسترضيني مثلا لحساب السيد لوجين ؟ آه يا للماكرات . . . يجب معرفـة المدى الذي بلغت اليه الصراحة التي تبادلتاها تلك الليلة وذلك النهار والايام التي تلته .. انه أمر جدير بالاهتمام ! هل نطقتا « بالكلمات » التي كتبتها لي كلها ، أم أن كلاً منها خمنت ما في ذهن الاخرى . لا شك أن ذلك هو نصيب الجزء الأوفى من هذه القصة . ان ذلك واضح في الرسالة .

بدا الرجل « بارداً » بعض الشيء حيال أمي ، فراحت الساذجـة المسكينة تطلع دونيا على ملاحظاتها ، فانزعجت هذه وخاطبتها في « شيء من التذمر » ... لا شك انها ستتذمر ! من ذا الذي لا يتذمر اذا كان الامر منتهياً وفي غير حاجة الى سؤال أو جواب ؟ عند ما يكون القرار النهائي متخذاً دونما حاجـــة الى نقاش ؟.. ولمَ كتبت لي كذلك : « احبب دونيا يا رودي لأنهـا تحبك أكثر من نفسها » . أو ليس ذلك بسبب تبكيت الضمير الذي كان يعتلج في أعماقها ، بسبب تضحية ابنتها في سبيل ابنها ؟ ... « أنت أملنـا وذخرنا للمستقبل ، أنت كل شيء بالنسبة الينا ... » ! آه يا أمي !

أحس بغضب عنيف يملأ صدره ، حتى أنه ود لو قابل السيد لوجين ، اذن لقتله ! وأضاف يحدث نفسه وهو يتابع زوبعة أفكاره :

— هه ... بالطبع ، يجب التصرف ببطء وحذر لمعرفـة أي شخص وسبر غوره ، غير أن السيد لوجين كالضياء نفسه ، في غـــير حاجة الى درس وسبر !

فهو قبل كل شيء « رجل أعمال ومظهره حسن » ... تصور أنه تحمل أعباء نقل «عفشها» على نفقته !.. فكيف لا يكون طيباً بعد كل هذا ؟ أما هما — خطيبته وأمها — فستستخدمان قروياً وستقطعان الطريق الى المحطة في عربة مغطاة بقماش خلق ، وأنا أدرى بالمشقة في مثل هذه الرحلات . لكن ماذا يهم ؟ ليست المسافة الا تسعين فرسخاً فقط !!

ثم « سوف ننتقل بهدوء في عربة من عربات الدرجة الثالثة » مسافة ألف فرسخ ! لا شك أن الواجب يقضي على الانسان أن يتصرف بحسب امكانياته . ولكن ما قولك يا سيد لوجين ؟ ان الموضوع يتعلق بخطيبتك ! ثم انه لا يمكنك أن تجهل حاجة أمها واضطرارها الى الاستلاف على جرايتها لتقوم بتلك الرحلة! لا شك انك فهمت ذلك بعقليتك التجارية ، وخمنت أن في هذه العملية شخصين لا يمكن الا أن يتساويا من حيث الشروط والواجبات . واذن فعلى أحدهما أن يقدم الخبز وعلى الآخر أن يقدم الملح أما التبغ (على حد قول المثل) فهو علاوة « على البيعة » ! وهكذا أيها الرجل العملي ، لقد تصرفت بما يضمن مصالحك لأن نفقات شحن « العفش » ستكون أقل تكليفاً من أجرة الانتقال ولعلك تنقل «العفش» مجاناً . . . فهل غفلتا عن هذا أم تعمدتا اغفاله ؟ والعجيب أنهما سعيدتان ... كيف يغفل المرء عن الادراك أن هذه الباكورات ليست الا أزهاراً ، وأن الثمار ستأتي بعدها ... نعم كيف ؟.. صحيح أن البخل ليس هو كل ما يثير الحفيظة في هذا الموضوع ، حتى يأتي معه القبح ويعقبه التصرف! ان مثل هذا التصرف ينبىء بكامل البرنامج عندما يتم الزواج . فلم اذن تنحدر أمي الى مثل هذا الجنون ! كيف ستصل الى بيترسبورج ، بثلاثة روبلات في جيبها أو كمبيالة تقول هذه المرأة العجوز « ورقتين

صغيرتين ، . هه ... على أي شيء تعتمـــد في عيشهـــا في بيترسبورج ؟ لقد تأكدت — من بعض الدلالات — أن بقاءها مع ابنتها في بيت واحد بعد الزواج مستحيل ، حتى ولو كان في الأيام الاولى ! لا شك أن ذلك الرجل النبيل كان قد أغفل عامداً بضع كلمات ، حتى يُفهم قصده . مع ذلك فان أمي تريد أن تستغفلني ، وتجعلني أعتقد أنهـــا هي التي سترفض ! ماذا تنتظر ؟ وعلى أي شيء تعتمـد ؟ على مائة وعشرين روبلا جرايتهـا السنوية التي يجب إنقاصها بما يسدد القرض لصاحبه : آثاناس ايفانوفيتش ؟ إنها تقضي الشتاء كله وهي تحيك الدثارات الصوفية والقفـازات ، وتتعب بذلك عينيـــها ! ولكن ذلك لا يأتيهـا بأكثر من عشرين روبلا في العام ، تضاف الى المائة والعشرين التي هي من حقهـا ... فهي اذن تعتمد على كرم السيد لوجين !..

« سوف يعرض عليّ بنفســـه ، سوف يرجوني قبول ما يعرض » . لها أن تتبجح ! ذلك شأن أصحاب النفوس النبيلة الطـاهرة . إنه ليروق لهم أن يفرقوا حتى اللحظة الاخيرة ريش الطيور القـــذرة عن ريش الطواويس كما يقول المثل ، إنهم لا يرون إلا الخير ولا شيء إلا الخير ، ومهما بلغ من احتمالهم للشر وتعرضهم له ، فانهم لا ينطقون الـكلمـة التي يجب أن تقال في هـذا الصدد ... إن مجرد التفكير في الشر يقلق مثل تلك النفوس الساذجة ، نعم ، انهم يحجبون أعينهم بأيديهم أمام الحقـائق حتى تصفعهم الصورة الحقيقية وتصطدم بأنوفهم . .

كم أود أن أعرف اذا كان هذا السيد لوجين يحمل أوسمـة أم لا ! انني أراهن أنه يحلي من عروته شريط القديسة آن ، وأنه يضيف اليه

الصليب عند ما يدعى الى وليمة يقيمها بعض الرجالات الرسميين أو التجار .. فليس هناك من خطر أن ينسى ذلك في حفلة زفافـــه ! ولكن ليذهب الى الجحيم ...

يا الهي ! إن أمي خلقت هكذا ، لكن دونيا ؟ عزيزتي دونيـا ... أنا أعرفك جيداً . لقد كنت في العشرين من عمري لما فارقتك آخر مرة ! كنت أعرف عقليتك . فقد كان لدي من الوقت ما يكفي لهذه المعرفة . . . ها أن أمنا الصغيرة تكتب لي وتقول : ان دونيا « صبورة جداً ».. أنا أعرف عنك ذلك. أعرفه منذعامين ونصف ومنذعامين ونصف لم أكف مرة عن التفكير في هذا الصبر ، وبصورة أدق ، في هذه الطاقة الكبيرة التي تمتلكينها ، الطاقة على الاحتمال والصبر ! كيف لا وقـــد صبرت على مثل سفيدريكايلوف وكل الملابسات التي لازمته ... انها طاقة جبارة هائلة ! واليوم تعتقدين أنت وأمي أن لا عليك اذا صابرت واحتملت « لوجيناً » الذي يبـــدي اغتباطه لمصاهرة نساء فقيرات ويدلي برأيه حول هذا الموضوع في المقـابلة الاولى !.. حسناً ... لنفترض أن « ذلك قد أفلت منه » رغم أنه ذلك الانسان الرزين المفكر الذي لا يمكن أن يغفل عن مثل هـذه الاقوال فيدعهـــا تسبق ارادته وتعاند رغبته في كتمانهـا ! ولكن كيف فات دونيا هـذا ؟ كيف تستطيع أن تعيش مع زوج هذا رأيه ؟ أجدى لها أن تأكل خبزاً يابساً وتتجرع قطرات من الماء ، من أن تتورط وتبيع روحها ! كيف تستغني عن حريتهـا من أجل قضية لها علاقـــة بالترف . نعم لن تفعل ذلك ولو كان في سبيل كل الـ : «سشليسويغ(١) ـــ هولستن » فكيف من اجل هذا اللوجين ! كلا . . . ان

---

(١) كلمتان الاولى لمقاطعة دانيمركية والثانية لمقاطعة بروسية ضمتا معاًوادخلتا في عداد الاراضي البروسية تحت هذا الإسم. ـــ المترجم ـــ . . . .

دونيا التي عرفتها ليست هذه التي أراها اليوم ... ولا يمكن ان تكون قد تغيرت عما كانت عليه ... فماذا أقول ؟

لا شك أن البقاء لدى آل سفيدريكايلوف محزن أليم ، كما أنه مؤلم كذلك أن يتجول المرء من مقاطعة الى اخرى كل حياته لقاء مائتي روبل في العام ليعمل في تربية الأطفال وادارة البيوت . لكنني أعرف أن اختي تفضل أن تعامل معاملة الزنجي بالنسبة الى صاحب مزارع المطاط أو معاملة « ليتواني » بالنسبة الى الألمانيين ، على أن تفسد روحها واحساسها بالارتباط مع رجل لا تميل اليه أبداً وليس بينها وبينه أي توافق أو امتزاج ، مدفوعة أبداً بغنم شخصي . حتى ولو كان السيد لوجين مصنوعاً من سبيكة من الذهب أو منحوتاً في قطعة من الماس ، فالدونيا ما كانت لترضى أن تكون المحظية «السرية» الشرعية للسيد لوجين . فلم اذن وافقت الآن ؟ ما هذا ... آه ... أي سر غامض ؟ ان الأمر واضح جداً : فهي ما كانت لترتضي ذلك من أجل نفسها أو من اجل رفاهها حتى ولو كان في ذلك انقاذاً لها من الموت ! فهي لم تكن لتبيع نفسها هكذا ... لكن اذا كان الأمر من أجل شخص آخر ، انها في هذه الحالة تبيع نفسها ... نعم إنها تبيع نفسها ! اذا كان الشخص الذي تضحي من أجله يأتي في منزلة أرفع من منزلة نفسها ! أي اذا كانت تحبه حب عبادة ، وهنا ينجلي السر ! انها تبيع نفسها من أجل أمها وأخيها ! انها تفرط في كل شيء إلا في هذين ! نعم ... اننا نحاول في بعض المناسبات قتل عواطفنا ، فنحمل حريتنا الى السوق نعرضها ، حريتنا وسعادتنا وراحتنا حتى وضميرنا .. نعم كل شيء ! نبذل حياتنا اذا كان في هلاكها اسعاد المخلوقات التي نحبها ونرجو لها السعادة ! بل اننا نمضي الى أبعد من هذا ، فنبتدع ما يحلنا من ذمتنا ، ونستعير حكمة اليسوعيين لنهتدي خلال وقت ما ، أننا قمنا بواجبنا ، ونقنع انفسنا بان

ما كان ، ان هو الا أحسن ما يمكن أن يكون ، وأنه طالما أن النتيجة ستكون حسنة ، فان الوسائل الى بلوغ هذه النتيجة تجد ما يبررها . نعم نحن هكذا . . والقضية في منتهى البساطة والوضوح . من الواضح أن روديون رومانوفيتش راسكو لنيكوف — أي أنا — هو الذي يأتي في الصف الأول من هذاالقضية، وهو محور التضحية ! كيف لا ؟ ينبغي دعم سعادة هذا « الراسكولنيكوف » وضمان حريته ومثابرته على دروسه في الجامعة وتأمين عمل شريف له في مكتب مرموق يكون شريكاً فيه فيصبح غنياً ... ولمَ لا ؟ سوف يتذوق لذائذ الشهرة وطعم الظفر حتى ولو كان في نهاية ايامه ! أما الأم فهي ليست بذات موضوع هنا ... المهم هو ابنها روديا « روديابا » ألابن المدلل ، ألابن البكر ! كيف لا تضحي من أجل ولد بكر « كهذا » بفتاة — كدونيا — ؟ آه ابتها الاخوات العزيزات الطالبات ... أعتقد ان الاستعداد للوصول الى نهاية تشبه تلك التي ترددت فيها سونيا ليس بعيداً اذا كان ذلك في سبيل إسعاد روديا ! نعم ... سونيا ... سونيا مارميلادوف ، سونيا الخالدة التي ستبقي أزلية ما بقي العالم ...

يا الله ... هل فكرتما في التضحية التي أنتما بصددها ؟ هل قمتما بهذهالتضحية اذن ؟ هل قارنتما بين قواكما ومصالحكما ؟.. هل وجدتما ذلك معقولا ؟ أتدرين يا عزيزتي دونيا أن مصير سونيا ليس أحط من مصيرك في عيشك مع لوجين ؟

ان امي تقول « ان المسألة ليست مسألة حب متبادل مسبق » . لكن كيف يمكن أن يقوم هنا حب أو مجرد ميل ، طالما أن الازدراء والاحتقار والتوتر هي كل ما يبدو الى الآن ! أولا يساوي هذا مصير تلك الفتاة التي دفعت الى البغاء واضطرت الى « الاحتفاظ بالنظافة » ... هل هناك فارق بين المصيرين ؟

انا لا أجد فارقاً ... انا افهم معنى « النظافة » . ان « نظافة » « لوجين » تعادل « نظافة » سونيا . لعلها اكثر سوءاً واشد حقارة واكبر مقتاً ... نعم انها اكثر من ذلك ، لانك انت يا دونيا ، تملكين بعض الرفاهية، بينما الامر بالنسبة الى سونيا هو اجتناب الموت جوعاً ... ان هذه « النظافة » يادونيا ، هذه النظافة تكلف غالياً ... وغداً ، لما ينهار الثقل ساحقاً قواكما ، لن يكون الندم ممكناً ... لن يتبقى لكما الا الدموع والأحزان ... والآلام واللعنات ! دموع ساكنة تذرفانها بهدوء ، لأنكما لستما « مارث بيتروفنا » ... وانت يا امي ماذا سيحل بك ؟ انت منذ الآن قلقلة حزينة معذبة ! فماذا يكون حالك عند ما تبصرين بوضوح ... وانا . . . نعم انا ... من ظننتماني ؟ انا لا اريد تضحيتك يا دونيا ، كذلك لا اريد تضحيتك يا أمي الصغيرة ! ان ذلك لن يكون وانا على قيد الحياة ... نعم لن يكون ... لن احتمل هذا ولن أتقبل به !

ثاب راسكو لنيكوف الى نفسه بعد طول استغراق ، فتوقف برهة كأنه يعيد النظر فيما قال ... وراح يخاطب نفسه معنفاً :

— لن يكون ؟... ماذا تفعل انت لتمنع ذلك ؟ هل تمنعها عن ذلك ؟ وبأي حق من فضلك ؟ ماذا تستطيع ان تعوضها به او أن تعدها بتحقيقه لقاء هذا الحق الذي تريد ممارسته ؟ أأن تكرس لها مصيرك ومستقبلك « عند ما تنهي دراساتك وتجد وظيفة تشغلها » ! ؟ ان هذه النغمة معروفة فضلا عن أنها تنبئ بالمستقبل .. نعم المستقبل . بينما نحن نعيش في الحاضر . فماذا أعددت لهذا الحاضر ؟ انك قانع بالعيش على فتات مائدتها ... وهذا المال الذي أنفقته وستنفقه، أو ليس من القروض التي تتداركاناها لك ؟ أليس ما ابتطاعتا اقتطاعه من المائة روبل التي تتقاضيانها في العام ؟ أليس كذلك مما ستقترضه أمك بفضل

تعارفها بآل سفيدريكايلوف؟ كيف تحميها من آل سفيدريكايلوف ومن هـــذا الـ : اثاناس ايفانوفيتش فاخروشين ايهـا المليونير المنتظر ؟ هل تظن نفسك من الآلهة حتى تتصرف بمقدراتها ؟ اسوف تجد أمك وقتاً كافيـــاً خلال السنوات العشرة المقبلة لتفقد ابصارها لكثرة ما تنهك عينيهـا بحياكة « الشيلان » والقفازات ، بينما تكون الشابة قد فقدتـه لكثرة مـــا تذرف على دموع ... واختك ؟ تصور قليلا مـــاذا سيحدث لأختـك خـــلال عشر سنين فهل فهمت ؟..

وهكذا كان الشاب يتعذب ويتألم بهذه الأسئلة والمحاكمات ، ويثـير كوامن غضبه وكأنه يجد متعة في ذلك ... انما الجـدير بالذكر أن تلك الأسئلة لم تكن جديدة تماماً بالنسبة اليه ، اذ لم يكن لديه شيء غير منتظر ... بل أنه كان يشعر بها منذ زمن طويل ، كانت هذه القضية ماثلة امـــام عينيه ، تنمو وتترعرع حتى اتشحت منـــذ حين بوشاح المعضلة المخيفـة ، المعضلة الموحشة المروعة التي تحرق دماغه وقلبه دون هوادة ، متطلبة جواباً حاسماً كان يؤمن أنه لن يكون ! وجاءت رسالة أمه فكان لها في نفسه وقع الصاعقـة ... نعم ان الوقت اليوم ليس وقت الشكوى والتحسر ومعالجة المسألة سلبياً ، اذ انه ثبت لديه مواقع « آ + ب » ان المسألة صعبة الحل ،فكان يجب والحالة هذهالشروع في امر فوري وبأسرع ما يمكن . كان ينبغي له أن يتخذ قراراً مها كلفه الامر ، بالغاً ما بلغ من خطورة ؟

كان يتساءل محنقاً : « هل أضع حداً لحياتي ؟ هل أتقبل الوقائع واحتملها ، خانقاً في نفسي كل شعور بالنقمة والثورة والتمرد.. هل أتنازلعنحقي فيالحياة، حتي في العمل ، حتي في الحب ؟..

تذكر فجــأة السؤال الذي طرحــه مارميلادوف مساء أمس حين قال :

ـ « هل تفهم يا سيدي ، هل تفهم معنى جملة : « لم يعد يعرف أين يذهب والى أين يقصد ؟ هل تفهم معنى هـذا ؟ يجب أن يكون لكل انسان جهة يذهب اليها !.. »

ارتعدت فرائصه فجأة وعادت الفكرة التي كان يهدهدها في خيـاله امس ، تمثل امام عينيه . لم يرتعـــد لأن الفكرة القديمة عادت الى الظهور ، كان يعرف سلفاً أنها ستخامره ، كان يحس بهـا انهـا تلاحقه وتشق لنفسها طريقاً لتصل الى الصف الاول من معروضات فكره ، كان ينتظر أوبتها ... ثم ان الفكرة لم تكن كتلك التي كان يشعر بها امس او منـذ شهر ... لأن تلك كانت أشبه بالخيال ، الخيال المجرد . أما فكرة اليوم، فكانت مختلفة كل الاختلاف، انها اكثر من مجرد حلم ، انها تبدو بشكل جديد مجهول منه .. كان يفهم سبب هذا التبدل ومؤداه ..

اندفع الدم الى رأسه وغشيت عينيه سحـــابة ، فبدا كل شيء قاتمـاً ... راح يتلفت حوله متلهفاً باحثاً عن شيء ... مقعد مثلا . لأنه كان يشعر برغبة عنيفـــة في الجلوس ... كان يسير حينـذاك في شـارع « ك » ... فأبصر بمقعد على بعد مائـــة خطوة من مكان وقوفـــه ! اندفع الى حيث كان المقعد بكل مـــا في ساقيه من قوة . لكن حادثـــاً وقـــع له في الطريق استلفت انتبـــاهه وأخره عن غـايتـــه .

كانت أبصاره عالقة بالمقعد الذي يقصد اليــه ، فاذا بامرأة تسير على بعد عشرين خطوة أمامه . لم يعرها اي اهتمام في البدايـة ، كما كان



سونيا

شأنه في كل ما يحيط به ، اذا كان مشغول الفكر مستغرقاً في خواطره . . ، وكثيراً ما وقع له أن عاد الى غرفتــه دون أن يعلم بأي الشوارع مرّ ، وكيف وصل الى حيث كان ... كان يسير هكذا عفوياً دون تقدير ولا تدبر ... غير أن هذه المرأة التي كانت تمشي أمامه، لم تكن تخلو من شيء شاذ يستوقف الانتباه للوهلة الأولى ؛ شيء بدأ يحتكر تدريجياً كل اهتمامــه ، حتى نسي كل شيء إلا التحديق فيه والتطلع إليه ! أراد اكتشاف هــذا السر الذي يجعل تلك المرأة حافلة بالشذوذ الغريب ، كانت تسير في ذلك الجو الحار الخانق ، عارية الرأس دون مظلة وقفازات ، وكانت تطوح ذراعيها بـأسلوب مضحك . كانت تلبس ثوباً من الحرير الرخيص ، غريب التكوين ، يبدو كأنه لا يجد مستقراً على جسد لابسته ويكاد يتخلف عنه لولا رباط خفيف يثبته في مكانه . ثوب ممزق ابتداء من التقاء الجزع بالساقين ، تتدلى منه قطعة انفصلت عن مجموعه وراحت تتأرجح كلمـا تحركت صاحبته ... كانت تلف عنقها العاري « بلفحة » صغيرة لا تكاد تستره . لم يكن هذا وحده يستوقف النظر ، بل المرأة نفسها . إذ كانت تسير بخطى غير متزنة ، تتعثر في مشيتها وتتمايل يميناً وشمالاً ... ممـا أيقظ فضول راسكو لنيكوف ، فأدركها في اللحظة التي بلغت فيهـا المقعد ، وتهـالكت على جانبه ، ملقية رأسها على المسند مغمضة عينيها اللتين انهكها ولا شك التعب ... كانت نظرة واحدة اليها تكفي ليعرف الناظر أنها مخمورة تمامـاً ... فبدا المشهد لعينيه غريبـاً شاذاً حتى أنه ود لو كان مخطئاً ..

كان يرى أمامه فتاة ذات وجه صغير يدل على سنها المبكرة ، فهي لم تكن تبلغ السادسة عشرة من عمرها ، دقيقة التكوين تحيط برأسها ثروة من الشعر الذهبي الاشقر ، جميلة الوجه منتفختة ! كان يبدو عليها أنها لا تعي ما حولها ... فقد

عقدت ساقيها الواحدة فوق الأخرى ، فظهر منها أكثر ما يجمل ظهوره عادة ، مما يدل على إنها لم تكن تشعر بوجودها في الشارع .

لم يجلس راسكو لنيكوف لا، ولم يمض في طريقه كذلك ، بل وقف يتأمل الفتاة دون أن يصل في قراره الى رأي حاسم ... كان ذلك الشارع مقفراً معظم الوقت ، أما في تلك الساعة (الواحدة بعــــد الظهر) وفي مثل تلك الحرارة الخانقة ، فان مرور الناس فيه يكون غريباً حقاً . مع ذلك فقد كان هنـاك سيد يقف على مسافة خمس عشرة خطوة ، منتحياً جانباً في ممشى بين اشجار الشارع ، يبدو عليه أنه ينتظر بدوره أن تسنح له فرصة للاقتراب من الفتاة المخمورة ، تنفيذاً لرغبات معينة ! ولعله شاهدها هو الآخر فلاحقها، ولكن راسكولنيكوف عرقل مسعاه بظهوره . فكان ذاك يلقي عليه نظرات حاقدة دون أن يشعره بذلك، وينتظر بفارغ الصبر أن يمضي ذلك المتطفل حتى يحل محله . كان الأمر واضحـاً لا يحتاج الى تمحيص . فهذا السيد في الثلاثين من عمره متين الجسم ممتلئ الجسد مزدهر الوجه ، ذو شفتين ورديتين يزينها شارب صغير ، يرتدي ملابساً تدل على أناقة كبيرة . إذن ؟ لقد أصبحت الغاية معروفة !

شعر راسكو لنيكوف بغضب جامح ، وود بجدع الأنف لو يوجه إهانة الى ذلك الديك الرومي.. فاقترب منه وقد ضم قبضتيه انفعالاً وصاح به وهو يكشر عن أسنانه التي غطاها الزبد !

ـــ أنت يا سفيدريكايلوف ... ماذا تبحث هنا ؟

فقطب السيد حاجبيه لدى سماعه الاسم الذي اطلقه راسكولنيكوف استعارة عليه ، وقال بلهجة خطيرة وترفع مرموق !

ـــ ماذا تريد أن تقول ؟

ـــ إبرح هذا المكان فوراً ... هذا ما أردت أن أقوله !

ــ كيف تجرأ على التلفظ بهذا الكلام أيتها الحشرة ؟.. وهز سوطه بيده !

فلم يمهله راسكو لنيكوف وارتمى عليه دون أن يفكر بأن خصمه الضخم يساوي اثنين من حجمه ! وفي تلك اللحظة ، شعر بيد تقبض عليه بشدة من الخلف . واذا برجل من رجال البوليس يتدخل في الأمر قائلا :

ــ أيها السادة ، المرجو تجنب المشادة في مكان عام ...

ولما شاهد أطمار راسكو لنيكوف صاح به :

ــ من أنت يا هذا ؟ وماذا تريد ؟ . .

نظر راسكو لنيكوف بجرأة الى رجل البوليس . كان له سالفان أشهبان يضفيان على وجهه النبيل ذي التقاطيع الدالة على النباهة والذكاء ، لوناً من الوسامة ! قال :

ــ إنني أريدك أنت بالذات !

ثم أمسك بذراعه وأردف :

ــ أنا طالب علم سابق واسمي راسكو لنيكوف اذا كان يعنيك معرفته ...

واستدار نحو « الديك الرومي » وقال :

ــ وانت ، تعال معي ، سأريك شيئاً ... ومشى نحو المقعد الذي تخاذلت عليه الفتاة يرافقه الشرطي وأردف :

ــ أنظر ، انها مخمورة تماما ، لقد رأيتها تسير على غير هدى في الشارع ، ومن يدري من أين خرجت ومن هي ! غير أنه من الواضح ، أنها ليست محترفة . انها على الأرجح فتاة مسكينة ، إئتمر بها حتى أغريت على الشرب فثملت ... ولعل هذه هي المرة الاولى التي تتذوق الخمرة فيها ... لقد أريد بها شر فنصب لها هذا الشرك الذي تردت فيه ! لعلك تفهم يا سيدي ما أعني ... لقد ألقي بهـا الى الشارع بعد أن نال منها الأنذال ما يشتهون ... أنظر الى ثوبها الممزق وكيف

لبسته أو بالأحرى كيف أنزلت فيه ... من الجلي أنها لم تلبسه بنفسها ، إنها أيد غير مجربة تلك التي ألبستها هذا الثوب ... أنها أيدي الرجال ... والآن إلق نظرة على هذا السيد السمين الذي كدت أتشاجر معه منذ قليل .. انني لا أعرفه بل إنني رأيته اليوم للمرة الاولى ... لقد شاهدها هـذا السيد النبيل وهي على حالها هذا من الثمل وفقد الحواس ، وقد رأيتهـا لا تعي ما تعمل ولا تستطيع التمييز بين الخير والشر ، فاراد أن يقترب منها ليفاجئها في هذه الحال ويقودهـا الى أي مكان ... ثق انني لست مخطئاً فيما أقول ... لقد شهدته بنفسي يرقبهـا ويحصي حركاتها ويتبعها . فكان حضوري عائقـاً غير منتظر . وهو ينتظر أن أبرح المكان لينفذ مأربه . انظر كيف ابتعد بعض الشيء وراح يتظـاهر بلف « سيجاره » ... فكيف السبيل لانتزاع هـذه الفتاة من براثنه ؟ كيف السبيل لاعادتها الى ذويها ؟

أدرك الشرطي على الفور ماذا هناك وراح يفكر . كانت نواياه حيال الرجل السمين غير خافية . انما كانت هناك عقبة من نوع آخر . . تلك هي الفتـــاة المخمورة . انحنى عليها يتفحصها عن قرب ، وبدت على وجهه آيات الشفقة والحنان ودمدم قائلا :

— يا للطفلة المسكينة ! لا زالت طفلة تماماً ... لقد خدعوها ولا شك . . . هذا واضح ! هل تسمعين يا آنسة ... أين تقطنين ؟

وفتحت الصغيرة عينيها المتعبتين وقد اصطبغتا بلون الدم ، وحدجت سائليهـا بنظرة بلهاء ، ثم حركت ذراعها ملوحة وكأنها تحاول طردها .

بحث راسكو لنيكوف في جيبه واخرج عشرين كوبيكاً قدمها للشرطي وقال له : — أرجو أن تستدعي عربة وأن ترافقها الى منزلها اذا كنت تعرف عنوانها ! ولكن كيف السبيل لمعرفة العنوان ؟

اما الشرطي فقد عاد ينادي الفتاة بعد ان أودع المال في جيبه :

ـ يا آنسة ، يا آنسة ، سوف أقودك بنفسي فـالى أين تذهبين ؟ أين تقطنين هه ؟

تمتمت الفتاة وهي تلوح بذراعها قائلة :

ـ إغرب عن وجهي أيها « الكلاّب »... دعني بسلام .

بدت امارات الألم على وجه الشرطي وراحت تتنازعه عوامل مختلفة بين اشفاق وانتصار للفضيلة المنتهكة ، واستنكاراً للنعت الذي أطلقته عليه . وقـال مسترسلا :

ـ كم هو مخجل ما أنت فيه يا آنستي ...

ثم خاطب راسكو لنيكوف مرة ثانية وهو يتفحصه من رأسـه وحتى أخمص قدميه :

ـ هنا الصعوبة الحقيقية ... نعم هنا العقبة .. انها لا تعي شيئاً . فهل لقيتها بعيداً عن هنا ؟

ـ لقد قلت لك انها كانت تسير أمامي تائهة شاردة اللب وهي تمايل وتترنح ، ولم تكد تصل الى هذا المقعد حتى تهاوت عليه !

ـ يا إلهي كم هو مخجل هذا الذي يجري في هذه الايام . فتاة كهذه ، بل طفلة لم تشب عن الطوق تثمل ... لقد غُرر بها حتماً ليس هناك شك أبداً . ان ثوبها مُمزق كله ... آه من أولئك الفجار الذين يسابقون الوقت ويمضون الى أهدافهم من أقصر الطرق !.. لعلها من عائلة كريمة أصيبت بالفـاقة والعوز . فالمدينة تحفل بهذه العائلات البائسة اليوم ... ان النـاظر اليها يخيل اليه أنهـا آنسة فاضلة ...

صمت الشرطي برهة وعاد الى المخمورة يحاول اعادتها الى صوابها ... لعل له

والى الآخر بنات « يفضلن يعتبرن آنسات فاضلات » يتبعن الاساليب سائدة بين الفتيات ، المقتبسة عن ابتكارات مصطنعة لا تمت الى حسن التربية في شيء ...

بادر راسكو لنيكوف يقول :

ــ المهم أن لا ندعها فريسة لهذا السافل ، فهو قمين بتدنيسها من جديد ! ذلك ما يريد وليس من العسير تبيانه . . . ألا ترى أنه لا ينصرف ... الفاجر !

كان يتكلم بصوت مرتفع وهو يشير الى السيد ... وسمعه هذا فكاد أن يغضب من جديد .. غير أنه تمالك واكتفى بأن ألقي على الطالب المفلس نظرة تنطوي على الازدراء . واخيراً استدار على عقبيه ، وراح يمشي بتمهل مبتعداً ، ثم توقف من جديد بعد قطع عشر خطوات ..

قال الشرطي بلهجة حالمة :

ــ أن لا نتركها له أمر ميسور ، لو أنها ذكرت لنا اين تقطن .. وعاد يهزها ويصيح : يا آنسة ، يا آنسة !

فتحت الفتاة عينيها وبدت كأنما استعادت بعض حواسها ، ونظرت بامعان الى الشرطي ورفيقه ، ثم نهضت وسارت في الاتجاه الذي جاءت منه ، ودمدمت وهي تلوح بيدها شأن من يطرد انساناً يضايقه : « المغفلون ! ماذا يريدون من ملاحقتي » وراحت توسع الخطى وهي تتعثر وتترنح . اما الرجل الانيق السمين ، فقد راح يتبعها من جديد محافظاً على المسافة التي بينهما ، دون أن يغادر المشى بين الأشجار !

أثارت هذه الفعلة حفيظة الشرطي ذي الشاربين الكبيرين فقال لراسكو لنيكوف بلهجة العزم والتصميم :

ــ لا تبتئس ... لن ادعها له ! وتبع الفتاة ومطاردها ... وقبل أن

يبتعد عن الفتى أردف يقول : كم انتشر الفسق والفساد في هـــذه الأيام ...! أما راسكو لنيكوف ، فقد كان في تلك اللحظة كمن وخزته إبرة نفذت خلال جسده. شعر برد فعل عكسي تجاوب صداه في نفسه فهتف ينادي الشرطي ، ولما استدار هذا نحوه مستجيباً لندائه قال له :

ـــ دعك من هذا ... لم تحشر نفسك فيه ؟ دع الرجل يتابعها ، دعه يبحث عن تسليته ! ماذا يهمك منه !

فاتسعت حدقتا الشرطي وظن أنه حيال مخبول ذاهب العقل ، فلم يعـــد ولم ينفض يده من المهمة التي آلى على نفسه إتمامها ، بل اكتفى بأن لوح بيده ومضى وهـو بين مصـدق ومكذب يتبع الرجل الانيق والفتـــاة . وما ان اصبـح راسكولنيكوف وحيداً حتى خاطب نفسه بقوله :

ـــ لقد حمل معه العشرين « كوبيكاً » التي كنت أملكها . يا للشيطـــان ... لسوف يجعل الآخر يدفع له بعض المـــال ليترك له الفتـاة ! وستكون تلك خـاتمة القصة . . . يا الله ! هل لمثلي أن ينصب نفسه حـامياً للغير ؟ هل لي الحق بالتدخل ؟ مـاذا يهمني اذا افـترس النـــاس بعضهم بعضاً ؟ ثم كيف سمحت لنفسي باعطـاء العشرين « كوبيكاً » التي كانت معي ؟ هل هي تخصني فعلا ؟

شعر ازاء هذه الافكار والاسئلة ، بحمل ثقيل يهبط على صدره يكاد يكتم انفاسه ! جلس على ذلك المقعد الوحيد وتاهت أفكاره في سمـــاء الخيال ... لقد كان من العسير بالنسبة اليه أن يفكر في أي شيء ... كان يتمنى لو فقد الوعي وخسر الاحساس ، حتى اذا ما استفاق ، كان كل شيء قد أضحى منسياً ، فيعود الى حياة جديدة لا أفكار محزنة فيها ولا تفكير ... ألقى نظرة الى حيث كانت الفتاة جالسة ولم يتمالك نفسه أن قال :

ـ يا للفتاة المسكينة ، سوف تعود الى وعيها وستبكي ، ثم تطلع أمها على كل شيء ... واسوف تضربها أمها أول الأمر ، اسوف تجلدها بشدة وقسوة واذلال. بل لعلها ستطردها من البيت ! واذا افترضنا جدلاً أنها لن تطردها ، فانها لن تعدم واحدة مثل داريا فرانتزوفنا لتشتم رائحة الفريسة وتحوم حولها . ولسوف تبدأ الفتاة بالتنقل هنا وهناك ، وبعدئذ سيكون المستشفى (والحال أبداً كذلك بالنسبة للخاطئات اللاتي يعشن في كنف أمهات شريفات يفضلن التخلص من عارهن بصمت) ولن تخرج منه حتى تعود اليه ! وهكذا فانها لن تبلغ التاسعة عشرة من عمرها ، حتى تصبح سقيمة عليلة وتكون قد انتهت ... النهاية نعم ... لقد شهدت حالات مشابهة ! ولكن ماذا يهم ؟ يا للشيطان ... يبدو أن هناك نسبة مئوية ينبغي أن تدفع في مكان ما ... الى الجحيم ؛ نعم ذلك ضروري لانعاش الآخرين والابقاء عليهم . نعم ... نسبة مئوية ... يا له من تعبير جميل ... كلمات منمقة مطمئنة ذات طابع علمي ... اذ من ذا الذي يرهب هذه الكلمة : نسبة مئوية ! أما لو كانت كلمة أخرى ... لكان الحال أقل طمأنينة ... ماذا مثلا لو أن دونيا أدخلت في هذه النسبة على شكل من الاشكال؟ النسبة الواجبة الدفع اليوم أو في المستقبل ؟ ..

وفجأة ثاب الى رشده وتذكر أنه خرج من غرفته لسبب ما فهتف :

ـ رباه ... الى أين أمضي ؟ كان هناك سبب وجيه دفعني الى الخروج من غرفتي ! نعم ... نعم ... لقد خرجت مباشرة بعد قراءة الرسالة ... آه لقد تذكرت ، كنت أقصد ايل سان بازيل ... نعم كنت أريد الذهاب عند رازوميخين ! ولكن لماذا أذهب الى هناك ؟ كيف طرأت لي فكرة الذهاب الى رازوميخين فجأة ؟ غريب ...

أدهشه تصرفه ... لقد كان رازوميخين أحد أصدقائه القدماء في الجامعة !
ومن الغريب انه لما كان يتابع دروسه في الجامعة ، لم يكن يختلط بزملائه ويرتبط بهم بصداقات ، حتى أنهم جميعاً تنكروا له وتغافلوا عن وجوده . فكان لا يزور أحداً ولا يسره أن يستقبل أحـــداً ... لا يشترك في اجتماعات الطلبة ولا في مناظراتهم ، عازفاً عن لهوهم ومجونهم ... وكان منصرفاً الى العمل منكباً على الدراسة ، فاستطاع بذلك اكتساب عطف زملائه . لكنه لم يكن محبوباً من أحد ! كان فقيراً معدماً مشتطاً في كبريائه عزوفـاً عن الناس ... كان يبدو أبداً وكأنـــه يتدبر أمراً في سريرته ! كان بعض زملائه يعتقدون أن له أسلوباً كريهـــاً بالنظر اليهم ، حتى لكأنهم أطفال ، ولكأنـه متفوق عليهم بالذكاء والمعرفة وادراك الامور ، وكان يعتبرهم دونـــه ايمـاناً ومعتقداً .

أما مع رازوميخين ، فقد كان الامر مختلفاً ، اذ كان اكثر ميلا اليه ، اكثر صراحة معه وأشد تعلقاً به من كل الزملاء الآخرين ... ولم يكن من الممكن معاملة رازوميخين خلاف ذلك . فهو شاب يتفجر لطفـــاً وايناساً ، بسيطاً نقي السريرة طيباً حتى السذاجة ... وكان ذلك المظهر الساذج يخفي وراءه تعمقاً في الأمور وكرامة موفورة ... فكان محبوباً من أقرانه جميعـــاً وخصوصاً أولئك الذين عرفوه واختبروه . نعم ... لقد كان بسيطاً بل وساذجاً أحياناً ، ولكنه لم يكن قط أحمقاً ... كان ذا مظهر جذاب بقامته المديدة ونحول وجهه ، ولحيتـه المهملة وشعره الأسود ... كان يظهر احياناً على حقيقته جباراً عربيداً ... حتى أنه ذات مرة ، بينما كان خارجاً مع اصدقائه الى المدينة ، تغلب بضربة واحدة على نقيب في الجيش ، يبلغ طوله ستة اقـــدام تقريباً ... وكان يستطيع أن يشرب بشكل مريع ، كما كان يستطيع الامتناع عن الشراب وعدم الاقتراب منه . كان

كذلك يسترسل احياناً في تصرفات مشبوهة ولكنه كان يعرف دائمـــاً كيف يتخلص من نتائجها وينأى بنفسه عن مضاعفـاتها ، وكانت هناك ميزة اخرى تضاف الى مزايا رازوميخين الكثيرة : ذلك أنه ما كان يستسلم امام أية خيبة أمل تصيبه ، ولا يتراجع اذا ركبه النحس ! كان يستطيع أن يعيش في حجر وأن يحتمل آلام الجوع ولذعات البرد وآلامه ، دون أن يتذمر . لأنه كان فقيراً يعول نفسه بنفسه ويبحث عن المصادر التي تغذيه بايراد مناسب ، ويزاول كل الأعمال ... كان يعرف أن هناك عدداً لا يحصى من الحيل التي يمكن اللجوء اليها في العمل ـــ طبعاً ـــ ... ولقد امضى ذات مرة شتاء كاملا دون أن تدخل النار حجرته . مـــع ذلك ، فقـد كان يؤكد أن ذلك أفضل ، لأن الانسان ينـام بهدوء وهناء اذا كان يشعر بالبرد ! لقد كان في ذلك الوقت خارج الجامعة .. نعم لقد ترك الدرس ، ولكن لفترة قصيرة كما كان يقول . كان يعمل جاهـداً للتغلب على الظروف القاسية وتيسير الدراسة ، ولم يكن راسكو لنيكوف قد زاره منذ اربعة اشهر . وكان رازوميخين يجهل عنوانه بدوره ! ولقد لمحـه ذات مرة منذ شهرين مضيا ، لكنه أدار وجهه حتى لا تقع عينه عليه . بل انه انتقل الى الرصيف المقابل كي ينجو من المقابلة ... ولقد لاحظ رازوميخين ذلك ، غـــير أنه تابع طريقه دون أن يزعج « صديقه » ...

الفَصلُ الخَامِسُ

فكر راسكو لنيكوف في أمره وهو على حاله ذاك ، وراح يخاطب نفسه قائلا :

— بالأمس عزمت على زيارة رازوميخين . كنت أريده على أن يجد لي عملا على طريقته ... عملا أفيدمنه : تدريس مثلا ... أي عمل . أما الآن ، كيف يمكن أن أفيد منه ؟ لنفرض أنه اوجد لي من أدرسهم ، وأنه تقاسم معي آخر « كوبيك » يملكه — هذا اذا كان يملك شيئاً — ليشتري لي أحذية وملابس أظهر بها ، فماذا يكون ؟ هل هذا ما أنشده بالفعل ؟ الحقيقة ان زيارتي لرازوميخين ضرب من الحماقة ...

كان عزمه على زيارة رازوميخين يقلقه ويغمر روحه بعذاب مستمر ... بدا كأنه كان يعرف السبب الحقيقي لهذا العزم ... كان يقلب أوجه الرأي في هذه المسألة العادية ، ليجعلها تبدو ذات طابع خاص بي ، فيفرغ ما في جعبته من لوم وعتاب على نفسه منددا زاجراً ... كان يتساءل : « هل صحيح أنني فكرت باصلاح كل شيء بمساعدة رازوميخين ؟... » كان يفكر ويفكر ... ويضغط على جبهته بيده ، حتى واتته فكرة ... فكرة مفاجئة غريبة كانت محصلة تردده العميق العنيف . ناجى نفسه يناقشها بهدوء كمن اتخذ قراراً نهائياً :

— هه ... سأذهب الى رازوميخين ... سأذهب الى رازوميخين ولا شك .. ولكن ليس الآن . سأذهب اليه صباح اليوم التالي « للعمليه » ، بعد أن تكون قد انتهت بنجاح ، لأعيد معه بناء كل شيء على قواعد جديدة ! ثم استدرك بعد

أن ثاب الى نفسه وقال : « وبعد ذلك ؟ هل حقيقة سيكون « ذلك » حسناً لاغبار عليه ؟ هل يعقل أن يكون كذلك ؟ »

غادر المقعد الذي جلس عليه ، بل انتزع نفسه عنه انتزاعاً ، ومضى بخطى حثيثة ، وكأنه يهرب من شيء يتابعه . تاقت نفسه للعودة الى بيته ... الى حيث بدأ ... ولكن هذه الفكرة أثارت في اعماقه الاشمئزاز . فهناك .. في ذلك الحجر المرتفع المنزوي .. اختمرت تلك « العملية » في ذهنه منذ نيف وشهر ... اذن لا ينبغي أن يعود الى هناك .. ومضى دون ان تكون له وجهة يقصدها .

انقلب اضطرابه العصبي الى نوع من الحمى .. الى نوع من المرض ، فراح يرتجف وكأن البرد يهرأ جسده ، رغم ذلك الحر الخانق الذي يشبه نار الأتون الملتهبة .. تسلط بمجهود جبار على أعصابه ، وأجبر حواسه على الانتباه ، وعينيه على التطلع فيما حوله بتدقيق ودقة ، عله يجد في المحيط الذي يمخر فيه ، مادة ترفـــه عن نفسه وتسليه . لكنه لم يوفق في هـذا ايضاً .. كان يعود من جديد الى احلامه وتخيلاته .. كان جسده وحده يعيش على الأرض ، أما روحه وعقله ، ففي مجاهل لا يعرف لهـــا قراراً ... عادت القشعريرة تكتسح جسمه وتهزه ... فنظر حوله ليجد أنـــه نسي ما كان يفكر فيه ، ونسي اين يكون ، والى أين يمضي ... وهكذا اجتاز جزيرة « سان بازيل » كلها ، فبلغ نهر « نيفا الصغير » ، واخترق الجسر ثم استـدار في طريق الجزر . تلطف الجو بعض الشيء بفعل المياه والنباتات الطفيلية التي تكسو المكان ، فكان لهذا التبدل في الجو اثره في تهدئة اعصاب الشاب بعض الشيء . وارتاحت عيناه لهذا المشهد بعد ان انهكها الغبار .،. غبـــار الشوارع وذرات الجير .. وارهقها منظر الأبنية الكبيرة الضخمة وهي تسد امامها المنافـــذ . وصل الى حيث لا غبار ولا عفن ولا اختناق ... ولا ... ولا حانات ! غير أن هـــذه

الراحة التي شعر بها فترة وجيزة ، فقدت بعد قليل بهجتها ، وانقلبت ثقيلة الوطء تنهك قواه . كان يتوقف احياناً امام « فيلا » ضائعة بين الخضرة ، ليتطلع خلال الحاجز الخارجي ، الى الشرفات وعليها نساء جميلات بكامل زينتهن ، واطفال هائثون ، بعضهم يلعب في الحديقة وينادي الآخرين ... كانت الازهار تجذب انتباهه بصورة خاصة ... انها مخلوقات صامتة ... ! وبين الحين والحين ، كانت تطالعه مناظر الترف والنعيم ، بين عربات انيقة وفرسان من الجنسين ، فكان يتابعهم النظر بفضول ، ثم ينسى وجودهم حتى قبل أن يختفوا عن ناظريه ... ! توقف مرة ليعد ما يملك من مال . فوجد أن ثروته تبلغ ثلاثين « كوبيكاً » ، وتذكر أنه أعطى رجل البوليس عشرين « كوبيكاً » ، وأعطى ثلاثة لناستاسيا من اجل الرسالة ، فيكون اذن ، قد منح آل مارميلادوف مساء البارحة ، حوالي سبعة وعشرين روبلاً وخمسين « كوبيكاً » كانت كل المبلغ الذي كان يملكه هو ثلاثون روبلاً وقد اعطاها كلها لآل مارميلادوف . كانت دريهماته على كفه يحصيها . لكنه نسي لمَ اخرجها من جيبه وقام بعملية الاحصاء ... لا شك أنه كان يحس سبباً وجيهاً دفعه لفعل ذلك . لكنه نسيه ! وصدف أن مر امام دكان شواء ، فهاجت نفسه وتاقت الى الطعام . فدخل المطعم وتناول فيه كأساً من الخمر (العرق) واكل شطيرة محشوة باللحم المبهر ... لم يكن قد شرب الخمر منذ أمد طويل . لذلك فقد اثر القدح الصغير في أعصابه ، رغم أنه مجرد قدح صغير ! فغدت خطاه متثاقلة وطاب له أن ينام . لذلك عاد في طريق مسكنه ، لكنه لم يكد يبلغ جزيرة « بيتروفسكي » حتى توقف منهوك القوى ... فتنكب الطريق ودخل بين الأدغال ، يرتمي على الحشائش حيث استغرق من فوره في نوم عميق .

يلاحظ أن أحلام المرء في الحالات المرضية ، تمتاز غالباً برونق عادي وألوان صارخة وتشابه عجيب مع الواقع . لكن تسلسلها واخراجها يبلغان

من الواقعية ومن دقة التفاصيل مبلغاً ، يجعلها تبدو أشبه بلوحة فنان عبقري . حتى أن الحالم نفسه لو استطاع رسمها في يقظته ، لنافس فيها الفنانين الموهوبين أمثال بوشكين وتورجينيف . إنما الأحلام التي من هذا النوع ، أحلام مؤلمة تترك في نفس المرء ذكرى باقية ، وتحدث على نفسيته أثراً غير حسي تزيد في تحطيم أعصابه وزعزعة ثقته . كذلك كان الحال بالنسبة للحلم الذي تخيله راسكولنيكوف ..

حلم في طفولته هناك ... في مدينتهم الصغيرة ... عندما كان في السابعة من عمره ..! وفي يوم عيد كان يتجول مساء مع أبيه في ضواحي المدينة ، في جو مشبع بالغبار ، والحرارة شديدة الارتفاع ، والأمكنة هي هي التي انطبعت صورتها في ذهنه . . . بل أن الذكرى ما كانت لتوضح معالمها كما أوضحها الحلم . كانت المدينة الصغيرة قائمة في منطقة مكشوفة وكأنها الكف ... لم يكن يحيط بها مرتفع واحد ولا شجرة واحدة ... وفي الافق البعيد ، كانت نقطة سوداء صغيرة ، تفضح وجود حرش صغير ... وعلى بعد خطوات من آخر بستان من بساتين المدينة ، كانت هناك حانة ... حانة كبيرة كانت تترك في نفسه أثراً سيئاً ، بل تخيفه كلما كان يمر بالقرب منها وهو يتنزه مع أبيه . كان فيها أبداً جمع غفير من الناس يتبادلون الشتائم والصراخ ، ويضحكون ويغنون أغنيات بذيئة ، وكثيراً ما كانوا يتضاربون ! وحول تلك الحانة كان عدد من السكارى بوجوههم البشعة تفوح منهم رائحة كريهة . فاذا صادفهم ، كان يلتصق بأبيه وهو يرتعد ..! وعلى مقربة من تلك الحانة كانت هناك الطريق ، طريق مختصرة مغطاة بالغبار ... غبار اسود ، تنعطف على بعد ثلاثمائة خطوة على شكل مرفق ، ثم تدور حول المقبرة ... وفي وسط المقبرة تقوم الكنيسة ، وهي مبنية من الحجارة ، ذات قبة خضراء ، كان يذهب اليها مرة أو مرتين في العام ، أثناء

القداس الذي كانوا يقيمونه على روح جدته المتوفاة منذ زمن بعيد يسبق ميلاده ! كان يحمل معه في تلك المناسبة قطعة من الحلوى « كاتو » موضوعة في صحن أبيض ، وملفوفة في منديل . كانت تلك الحلوى تصنع من السكر وعلى سطحها صليب من حبات الزبيب المغموسة في الارز ..

كان يحب تلك الكنيسة بصورها القديمة التي كانت غالباً دون اطارات ، ويحب الكاهن ذا الرأس المرتجفة ... كان الى جانب ضريح جدته الذي تغطيه قطعة كبيرة من البلاط ، ضريح صغير يرقد فيه أخوه الاصغر الذي توفي في شهره السادس ، فكان لا يعرفه كذلك ولا يحتفظ له في ذاكرته بأية صورة . كل مافي الأمر أنهم قالوا له بأن ذلك هو ضريح أخيه. فكان كلما زار المقبرة ، رسم أمامه على صدره علامة الصليب بخشوع ورفع قبعته عن رأسه ثم انحنى ليقبل الضريح البارد !

كان يحلم في تلك اللحظة بأنه مع أبيه يسيران في الطريق الى المقبرة فيمران امام الحانة ... فيقبض على يد أبيه بشدة وينظر الى تلك الناحية — ناحية الحانة — برعب ظاهر ، فيجذب انتباهه أمر غريب ! كانت تدور فيها حفلة داعرة حقيقية : نساء « بورجوازيات » في ألبسة أيام الآحاد ونساء من العوام مع رجالهن وأنواع مختلفة من المخلوقات التي تعيش في الاوساط المظلمة . . . الطبقة السفلى ... كانوا كلهم سكارى بين نساء ورجال يرقصون وينشدون الاغاني ... وكان أمام باب الحانة عربة غريبة الشكل ... عربة ضخمة من ذلك النوع الذي تجرها خيول قوية متينة وتستعمل لنقل البضائع وزكائب الخمر ... كان يحب رؤية تلك الخيول القوية الجبارة ذات الذوائب الطويلة والسيقان المتينة ، تمشي براحة ، بايقاع متزن وهي تجر وراءها أثقالاً كأنها

الجبال دون أن يبدو عليها التعب وكأن أحمالها ترفه عنها بدلاً من أن تنهكها !

والغريب أن تلك العربة لم تكن تقطرها الخيول الجبارة القوية . بل كانت مقطوره الى « كديش » أعجف من ذلك النوع من الجياد التي يرثى لحالها ، والتي كثيراً ما شاهد مثلها ، وهي تجهد في جر حمولة من الخشب أو القش على الطرق المخربة حيث تغرز العجلات الى محاورها في الأتربة والحفر ، والفلاحون يسوطونها بوحشية وقسوة على ظهورها وأحياناً على وجوهها وعيونها حتى أنه كان يشعر بوقع السياط على جسده هو إشفاقاً منه عليها فيكاد ينفجر من البكاء لولا أن تسارع أمه الى إبعاده عن النافذة موفرة عليه متابعة هذا المشهد الكئيب المفجع !

وفجأة ارتفع ضجيج كبير : فقد خرج من الحانة عدد من الفلاحين « الموجيك » الأقوياء وهم يغنون ويتضاحكون ويرقصون « البلالايكا » وهم على أسوأ حال من الثمل، يرتدون قمصاناً حمراء وزرقاء و« جواكيتهم » على اكتافهم. صاح أحدهم :

— اصعدوا ... اصعدوا جميعكم سوف أنقلكم جميعاً فاصعدوا . .

كان المتكلم فتى ضخم العنق منتفخ الوجه بلون أشقر مشبع بالحمرة .

— ايستطيع « كديش » كهذا أن يحملنا ؟..

— اسمع يا ميكوكا ... لا شك أنك مجنون ... من ذا الذي يفكر في ربط فرس هزيل كهذا الى عربة هائلة كهذه العربة ؟

— لعمري ... هذا حيوان تكدست على ظهره أعباء عشرين سنة وتزيد ..

تلك كانت الملاحظات والآراء التي تطايرت من الأفواه إثر الدعوة الغريبة التي تقدم بها ذلك الفتى الى أولئك السكارى ... غير أنها ملاحظات لم تزعزعه عن

رأيه فهتف وهو يقفز الى العربة ويمسك بمقاود الحصان الهزيل :

ـــ اجلسوا جميعاً ... لسوف أحملكم كلكم ... لقد أعرت حصاننا الأشعل الى « ما تغيشي » وقد ذهب به منذ لحظات . وهذه الفرس ملكي أيها الأصدقاء .. انها كرب وأسى بالنسبة الي . واني أفكر أحياناً في أن أقتلها لأنها لا تساوي الشوفان الذي تلتهمه .. هيا اصعدوا ولسوف أجعلها تمشي خبباً ..

أخذ السوط في يده وراح يهزه وكأنه يتلذذ سلفاً بما سيذيق الحيوان المسكين من ضرب موجع أليم .

وصاح بعضهم يقول : ـــ فلتصعدوا اذن ... ألم تسمعوه يقول أنه سيجعلها تطير خبباً ..؟

وآخر يقول : ـــ انها لم تخب منذ عشر سنين على الاقل ».

وثالث : ـــ بل ستخب ... لا تشفقوا عليها أيها الاصدقاء ، ليضربها كل منكم بسوطه ... ليستعد كل منكم ... هيا ... انهالوا عليها بالضرب ..

راحوا يصعدون الى العربة ... عربة ميكولكا وهم يضحكون ويتبادلون السباب ... وجلس ستة اشخاص فيها بانتظار الآخرين ، لأن المكان كان يتسع للكثيرين ، وحملوا معهم امرأة ضخمة ذات خدين بارزين مصبوغين . كانت ترتدي « صدارة » من القماش الهندي الأحمر وتحشر قدميها في حذائين عاليين ثقيلين ... وكانت تكسر بندقاً بين أسنانها وتضحك بين حين وآخر .. كذلك كان الجميع يضحكون ... وكيف لا يضحكون وهذا الحطام الذي على شكل فرس مدعو للسير خبباً بهذا الحمل الثقيل !

أخذ غلامان كانا في عداد الراكبين سوطاً ليساعدا به ميكولكا في مهمته القاسية .. مهمة جلد الحيوان .. وارتفعت الصيحات تحث الدابة على السير. واستصرخت هذه قواها ، لكنها لم تستطع أن تخب بل بالكاد استطاعت التقدم

خطوة واحدة . كانت تضرب الأرض ، وهي تكاد أن تخرج من جلدها من ألم السياط الثلاثة التي كانت تلهب ظهرها وتنهال عليها كالبرد بينما تضاعف ضحك الركاب وصخبهم ! وغضب ميكولكا وعبر عن غضبه بلسعات أشد قوة كما لو كان يعني ما يقول من أن الفرس ستخب . واندفعت من بين الجماعة التي بقيت على الرصيف فتاة صغيرة بدت معجبة بالمنظر . صاحت مستعطفة .

ـ دعوني اركب يا أصدقائي !

فأجابها ميكولكا ملء حنجرته :

ـ هيا اصعدي . اصعدوا جميعاً ، سوف اقودكم الى منازلكم وسترون كيف سأثير حماس هـــذه الفرس. وراح يضرب ويضرب ويضرب ويبحث عن أدوات جديدة ليستعملها في هذه المهمة .

صاح الفتى :

ـ أبي أبي ، أبي ماذا يعمل هؤلاء ؟ أبي إنهم يضربون الحصان الصغير المسكين ! فيجيبه أبوه :

ـ هيا بنا ، هيا بنا ، انهم سكارى قادرون على ارتكاب حماقة . دع هؤلاء المأفونين ، تعال لا تنظر اليهم ! وأراد أن يبعده عن المكان !

غير أن الفتى تملص من يد أبيه فاقـــداً أعصابه وهرع الى الحصان الصغير الذي كاد أن ينفق من الألم : فيستجمع أنفاسه وقواه ويعاود الجر دون جدوى . وكان الركاب يصيحون :

ـ اضرب ، اضرب الى أن ينفق ، وعلى كل حال لن يتأخر ذلك ...

بينما صاح عجوز من النظارة مستنكراً هذا المشهد :

ـ أولست مسيحياً انت ؟ أجب بلا او نعم أيها الوحش !

وأضاف آخر :

ــ هل رأيتم قبل الآن حصاناً صغيراً هزيلا كهذا يجر حملا بهذه الضخامة؟ وثالث موجهاً حديثه لميكولكا :

ــ أيها القذر .. ويجيب ميكولكا غير آبه بالاعتراضات :

ــ فيم تتداخلون ؟ إنه حصاني أصنع به ما أشاء . ليصعد من يريد ، لسوف أجعله يسير خبباً .!

وفجأة انفجرت ضحكة هائلة طغت على صوت ميكولكا: ذلك أن الفرس لم تعد تحتمل الضرب الذي ينهال عليها ولم تكن تستطيع السير بحملها، وكنتيجة طبيعية لغضبة الحيوان راحت تستعمل قائمتيها الخلفيتين دلالة على احتجاجها العنيف . حتى أن المحتجين أنفسهم لم يتمالكوا من الضحك . وهرع فتيان من « الشلة » فأمسكا بسوطين وراحا يلهبان كشح الحيوان بالضرب الوجيع كل من جانب . وكان ميكولكا يشجعهما بقوله :

ــ اضربا ، اضربا على الأنف والعينين والوجه .

ويصيح آخر من ركاب العربة : غنوا يا أصدقائي . نعم لنغن ؛ وسرعان ما رفعوا العقائر بأغنية قذرة مبتذلة على أنغام الصفير وحركات الأرجل في ضبط الايقاع بينما ظلت المرأة الضخمة تكسر بندقاتها بين أسنانها وكأن ما يجري لا يعنيها في قليل أو كثير .

ركض الفتى اذاً نحو الحصان واندفع الى الامام وهو يشاهد أولئك القساة يضربونه على عينيه وملء وجهه وراح يبكي . كان قلبه يتفطر حزناً ودموعه تنهمر بغزارة ... أحس بالسوط يلمس جانب وجهه حينما كان أحد الضاربين يرفعه بيده لينهال به أداء لمهمته .غير أنه لم يشعر بالألم .. كان يصيح ويتلوى ويستصرخ عواطف الموجودين ويندفع نحو الرجل العجوز ذي اللحية المدببة الشائبة مستنجداً ، فيقابله هذا بهزات من رأسه شأن من أصدر حكمه وانتهى.

وتحاول امرأة إمساكه من يده لتخلصه من ذلك الجمع الحاشد، فيفلت منها ويعود قرب الفرس ... الفرس التي كانت في تلك اللحظة على آخر رمق .

لم يكف ميكولكا عن الصراخ والغضب ، كان ينعت الدابة المسكينة بما يحضره من كلمات . ولما لم تستجب له ألقى السوط من يده واحتضن مقعداً كبيراً كان داخل العربة رفعه بيديه الى الأعلى بجهد بالغ وانهال به بضربة عاتية شرسة على ظهر الفرس المسكينة وهو يصيح معترضاً على الاحتجاجات التي ارتفعت من حوله ويقول :

ـ انها ملكي ، ملكي ! ..

وصدر عن ارتطام المقعد صوت مكتوم بينما تعالت بين النظارة أصوات تقول :

ـ اجلدوها . لمَ لا تجلدون ؟ لماذا توقفتم ؟ .. فيرفع ميكولكا المقعد ثانية الى أعلى ويهبط به من جديد على ظهر الحيوان التعس الذي سقط على مؤخرته ثم نهض كالمجنون واستجمع آخر ما تبقى له من قوى وجذب ، جذب دون أن يستطيع التقدم . والسياط الست والمقعد الضخم ترتفع وتهبط دون شفقة بقوة ووحشية وبشكل رتيب ، وميكولكا يكاد يجن غيظاً لأنه لم يجد طريقة يقتل بها الحيوان بضربة واحدة . أما المتفرجون فقد قنعوا بابداء الملاحظات . فمن قائل :

ـ كم هو جلود هذا الحيوان ! وآخر :

ـ لن يعيش طويلا ، فقد دنت نهايته ! وثالث يزمجر :

ـ ان ضربة فأس واحدة هي وحدها قادرة على وضع حد لكل هذا .

لم يكتف ميكولكا بكل ذلك ، وهو الذي أعماه الغضب ... ألقى فجأة بالمقعد جانباً ، وانحنى يفتش في عربته عن سلاح جديد ثم انتصب وفي يده

عتلة من الحديد وصاح ملء حنجرته يحذر المجتمعين حول الدابة مما سيكون، وانهال على ظهر الحصان بضربة صاعقة حشد فيها كل قوته فترنح الحيوان وسقط وهو يحاول جر العربة ، ولما أصابته الضربة الثانية هوى على الأرض وكأنه جُزّ من قوائمه ...

لم يشفق ميكولكا ولم يهز المشهد عواطفه ، بل قفز من العربة كالمجنون وهو يصيح : لنجهز عليها ... لنجهز عليها . وراح الناس يختطفون ماتقع عليه أيديهم : سوط ، عصا ، مقعد ؛ أي شيء وينهالون به على الفرس المحتضرة بينما كان ميكولكا واقفاً قرب رأسها يهوي عليه بعتلته دون إشفاق حتى أن الحيوان المسكين اختلج أخيراً ومد عنقه الى أقصاه ثم زفر زفرة عميقة ونفق . وصاح صائح :

— لقد نفقت . وآخر :

— لمَ لمْ تخب ؟

وهتف ميكولكا وعتلته في يده وقد اختلط الدم بياض عينيه :

— انها ملكي! وبدا كأنه يأسف اذ لايرى شيئاً يضرب به . وتعالت اصوات بين النظارة محتجة تقول :

— لقد وضح الآن أنك لست مسيحياً . نعم لقد وضح !..

أما الطفل الصغير فلم يكن يعي ما حوله . أطلق صيحة مريعة وشق لنفسه طريقاً بين الجمع متجهاً نحو « الكديش » وجثا بالقرب منه وراح يعانق رأسه الميت المثخن بالجراح ويقبل عينيه وشفتيه وفجأة تغلب عليه الغضب فارتمى على ميكولكا مطبقاً قبضتيه ، وفي تلك اللحظة أدركه أبوه الذي كان يحاول عبثاً ايجاده بين الحشد والامساك به وصاح :

— لنذهب ، لنذهب ، لنعد الى البيت...

كان الطفل يبكي وجسمه يهتز .شعر بأن شيئاً ما يقطع عليه تنفسه ويلجم لسانه فجهد حتى صاح من صدر كليم :

ـــ أبي ! لمَ . . لمَ قتلوا هـــذا الحصان البريء المسكين ؟

فأجابه أبوه :

ـــ انهم سكارى ياولدي يتسلون . ثم هل يعنينا هذا ؟ تعال ياولدي نرتحل.

وطوقه ابوه بذراعيه ولبث يعاني ثقلا شديداً على صدره ... كابوساً مريعاً ؛ يحاول التخلص منه واستزداد انفاسه المبهورة . وبلغ من ضيق صدره ان كاد يختنق . فأطلق صيحة مدوية واستفاق ...

استفاق راسكو لنيكوف فوجد أن العرق يتصبب على جسده ، وقد ابتل به شعره ؛ واستوى جالساً والرعب ماثل في عينيه وقال وهو يزحف نحو شجرة قريبـــة ليستند الى ساقها . كان يتنفس تنفساً عميقاً . هتف :

« حمداً لله. إنه ليس اكثر من حلم ! ... ولكن ألا يجوز ان يكون هذا بداية حمى ؟ حلم مخيف »

كان يشعر ان جسمه محطم وأن روحه تعيش في ظلام وخيبـة . فأسند مرفقيه على ركبتيه وأخذ رأسه بين يديه وراح يفكر ويناجي نفسه على طريقته :

ـــ رباه ! هل هذا ممكن ؟ هل أستطيع أن آخذ فأساً بيدي فأضرب به الرأس وأجعل الدماغ يتناثر ؟ هل يمكن ان أسبح في الدماء الحارة اللزجة ؟ هل استطيع تحطيم القفل والسرقـــة ؟ سوف أرتعد ، سوف أرتعد وأنا مغطى بالدم . . . رباه ! بضربات فأس . . . هل ذلك ممكن ؟

كان يرتعد كالورقة الجافـــة امام الريح العاتية وهو

يحدث نفسه . عاد من جديد يستغرق في ذهوله المعهود ! ناجى نفسة قائلاً :

ــ ورباه ! ماذا حل بي ؟ كنت أعرف سلفاً أنني لن أحتمل ذلك . والبارحة لما قمت بتلك التجربة . نعم البارحة فهمت تماماً أنني لن أحتمل هذا ، فلم شككت في الأمر حتى الآن . والبارحة تماماً وأنا أهبط السلم قلت لنفسي ان ذلك مريع وقذر ... إنه انحطاط ... رباه ! لم استطع النوم وهذه الفكرة وحدها تثير حفيظتي وتشل حركتي خوفاً . كلا لن استطيع .. لن استطيع .. ولنفرض جدلاً أن كل حساباتي وتخميناتي لا تترك مجالاً للشك وأن كل ما قررته خلال هذا الشهر واضح وضوح الشمس ، دقيق كعلم الحساب فانني ـــ رباه ـــ لن استطيع التصميم . كلا ... ابداً .. لن استطيع اتخاذ قرار نهائي . فكيف ؟ كيف انني حتى الآن ...

وقف ذاهلا ونظر حوله دهشاً لوجوده حيث كان ثم اتجه نحو الجسر « ت » .. شاحب الوجه ، ملتهب العينين ، منحل الاطراف ، يهده التعب .. خيل اليه أن تنفسه كان اخف من المعتاد ، وشعر أنه تحرر من عبء ثقيل كان يسحقه زمناً طويلا وأن روحه انتعشت بعد طول غم ، فهتف ضارعاً : « رباه ! هب لي من لدنك طريق الصواب حتى أقلع عن حلمي الملعون ....

اجتاز الجسر ونظر بسكون وهدوء الى نهر « نيفا » وغروب الشمس يضفي عليه لون النار ، والشمس محمرة عند الافق . لم يشعر قط بضعفه رغم التعب الذي كان ينهكه حتى ليظن أن العلة التي كانت في قلبه تعكر صفو حياته قد برئت وشفيت . حراً ... حراً ، كان الان حراً ... لقد

مجا من السحر ، من الاغراء ، من الآلام .. من الوسواس المرعب ، وغداً عندما يستعرض هـذا الوقت بـكل ما حصل فيه وما وقع له في هذه الأيام دقيقة فدقيقة ، ثانية فثانية ، نقطة فنقطة سيحس في اعماقه احساساً خرافياً ممتعا ! وعلى الرغم من أن تلك الحال لم تكن شديدة الغرابة الا أنه كان يجـد فيها شيئا من نفسه وكأنه يكتشف ويتصور مقدراته ومصيره .

كان يجهل الأسباب التي تدفعه الى التجول في الشوارع متخـذاً طريقا مطولة للعودة الى غرفتـه وهو الذي كان على آخر رمق يسحقه التعب ، والألم . كان يستطيع اللجوء الى طريق اقصر تعيده بسرعة الى حيث يستريح ، ومع ذلك فهو يذهب الى حيث لم تكن تدعوه حاجة الى الذهاب ، عاد عن طريق « شارع العلف» دون أن يفسر لنفسه الأسباب . صحيح ؟.. لقـد حصل له أن عاد الى غرفته مرات دون ان يعرف كيف وصل وأي سبيل سلك . نعم لقد وقع ذلك اكثر من عشر مرات ! أما لمَ وقعت تلك المقابلة الهامة الحاسمة وغير المنتظرة في ذلك المكان بالذات الذي لم يكن لديه من سبب يدعوه الى ارتياده ، وفي تلك اللحظة الحاسمة من حياته حيث ما كان يمكنه وهو على حاله تلك وفي ظروفه التي عاش فيها أن يتجنب التأثر بها واخضاع مصيره لها ، فذلك ما كان يتساءل عنه دائما ! وأخيراً عده شركا هيأته الأقدار ليقع فيه :

كانت الساعة تشرف على العاشرة حينما اخترق السوق . وكان الباعة المتجولون وأصحاب المخازن يغلقون دكاكينهم أو يجمعون بضاعتهم المعروضة ويحزمونها ليعودوا بها الى دورهم وقد انقطع سيل الزبائن ، وهنا وهناك بالقرب من دكاكين الشواء ومداخل البؤر ، وفي الساحات القذرة النتنة التي تحيط

منازل « شارع العلف » كان الصعاليك والسوقة وحثالة المصانع يعج بهم المكان!
وكان راسكولنيكوف يميل الى هذه الامكنة والازقة المحيطة بها فيرودهـا لما يخرج تائها دونما هدف يقصده لأنه ما كان يستهدف هنا لأي نوع من النقد المزري وهو في تلك الاسمال البالية . كان يمكن ان يتنزه المرء هنا دونما خشية من فضيحة او زرية! وعلى زاوية زقاق « ك » كان بائع وزوجه يبيعان، منفصلين ، خيوطـا ، واشرطة ، ومنـاديل قطنية ، و « خرداوات » كانا يستعدان لمغادرة المكان والعودة الى مسكنهما ويتلكـآن قليلا في الثرثرة مع شخص يعرفانـه . اما ذلك الشخص فكان اليزابيت ايفانوفنا او بالاختصار اليزابيت كما كان يسميها الناس وهي الاخت الاصغر لأليونا ايفانوفنا تلك العجوز المرابية ارملة معاون في الكلية والتي كان راسكولنيكوف قـد رهن امس ساعته عندها حينما كان يقوم « بتجربته ». كان عارفا بوجود هذه الـ « اليزابيت » منذ زمن بعيد وكانت هي بدورها تعرفه بعض الشيء . كان يعرف انها فتاة خرقاء خجول مرحة العقلية حمقاء بعض الشيء في الخامسة والثلاثين من عمرها تعاملها اختها الكبرى معاملة الرقيق . كانت تشتغل من اجلها ليلا نهاراً وتضطرب تحت وطء نظراتها وتحتمل منها كل اهانة حتى الضرب. كانت تلك اللحظة تحمل ربطـة في يدها وتقف مترددة امام البائع وزوجتـه تصغي اليها بانتباه وهما يرويان لها امراً بحماس ظاهر. ولما شاهدها راسكولنيكوف احس بشعور مبهم غامض يشبه الذهول يستحوز عليه رغم ان تلك المقابلة لم تكن تعني بالنسبة اليه شيئا مهما . وسمع البائع يقول متمما حديثه :

— لك ان تقرري يا اليزابيت ايفانوفنا فالأمر منوط بك . عودي غداً في السابعة وسيكونوا جاهزين .

فأجابت اليزابيت ساهمة بصوت واهن وكأنها تحجم عن اتخاذ قرار : غداً ؟

فقالت زوجة البائع وهي امرأة عطوف في عينيها اشفاق :

— آه .. آه كم تخيفك العجوز اليونا ايفانوفنا ! لعمري ان المرء ليعتقدك طفلة اذا استمع اليك . رغم انها ليست اختك بالمعنى المفهوم. ان هي الا اخت بالعهد ومع ذلك انظري كيف تعاملك .

وقاطعها زوجها قائلا :

— نعم لمرة واحدة اغفلي عن اخبار اليونا ايفانوفنا . اتبعي نصحي : تعالي الينا دون ان تستأذنيها فالمسألة مهمة ولسوف تقتنع اختك بعدئذ بذلك .

— ومتى ينبغي ان احضر ؟

— حوالي الساعة السابعة غداً. ولسوف يأتون بدورهم، ولسوف تحكمين بنفسك

واضافت الزوجة : — ولسوف يقدمون لك الشاي ...

فأجابت اليزابيت دون ان تخرج عن شرودها :

— حسنا سأحضر ... ثم تأهبت للانصراف .

كان راسكو لنيكوف قد تجاوزهم في تلك اللحظة فلم يسمع من حديثهم اكثر مما سمع ... وقد تعمد ان يبطئ الخطى دون أن يشعرهم بذلك ساعياً الى سماع ما يستطيعه من تلك المحاورة . وكان الذهول الذي أحس به في البداية قد انقلب تدريجاً الى رعب فقشعريرة باردة اكتسحت كيانه . لقد عرف شيئاً عن طريق الصدفة المحضة ... شيئاً هاماً في « مشروعه » لقد عرف أن اليزابيت الأخت الوحيدة للعجوز المرابية ستكون غائبة عن المنزل — منزل اختها — غداً في الساعة السابعة ... أي أن العجوز ستكون وحيدة في تلك الساعة . .

كان يفصله عن غرفته عدد قليل من الخطى فلما دخل مسكنه كان كمن حكم عليه بالموت . لم يكن يستطيع المناقشة ولا البحث في شيء ولكنه شعر من صميم كيانه أنه فقد من جديد حرية الفكر والارادة وأنه فقدهما نهائياً .

لا شك أنه اذا كان قد انتظر سنوات طويلة اللحظة الحاسمة لتحقيق «مشروعه» فذلك لأنه لم يكن ليستطيع الاعتماد على مثل هذه الصدفة السعيدة التي عرضت له اليوم وفي تلك اللحظة بالذات . نعم لا شك أنه ما كان يستطيع معرفة الوقت الذي تكون فيه العجوز منفردة دون أن يستقصي ذلك ويتحقق منه بطرح أسئلة خطيرة هنا وهناك قد تجعل المسؤولين يذكرونه عند التحقيق وهكذا فقد تقرر أن يكون غداً في ساعة معينة ، الموعد الذي تكون فيه عجوز معينة وحيدة في دارها وأن يكون هناك فتى يقصد اغتيالها . نعم كان ذلك مقرراً من الازل.

الفَصْلُ السَّادِسُ

كان مقدراً أن يلم راسكو لنيكوف بالسبب الذي دعا البائع وزوجـــه الى دعوة اليزابيت ، ان يعرف أنه بسيط عادي . فقد كانت هناك عائلة كريمة أخنى عليها الدهر تريد بيع بعض حاجات من ألبسة وأثواب نسائية ، ولما كانت تلك العائلة تخجل من عرض تلك الحاجات في السوق فقد راحت تبحث عن مشترية . وكانت اليزابيت تهتم بمثل هذه الامور ولها زبائن كثر لأنهـــا كانت معروفـة بنزاهتها وأسعارها المعقولة وعزوفها عن المساومة . كانت قليلة الكلام كثيرةاللطف رقيقة المعشر شديدة الحذر .

غدا راسكو لنيكوف في أيامه تلك خيالياً متطيراً وقد خلف ذلك التطير في نفسه آثاراً لا تمحى حتى أنه كان يميل الى الاعتقاد ــ وهو في صدد هذه القضية ــ أن هناك تسابقاً غريباً وغامضاً في الاحداث ، تسابقاً شاذاً ترافقه سلسلة من المؤثرات والمصادفات : ففي الشتاء السابق كان أحـــد أصدقائه الطلاب المدعو « بوكوريف » ذاهباً الى « خاركوف » فأعطاه عنوان العجوز آليونا ايفانوفنا في سياق حديث عابر ، وأعلمه أنه يستطيع أن يجد لديها مايقترضه اذا دعته الحاجة وكان لديه رهينة يقدمها .

ومضت ايام طويلة قبل ان يتذكر راسكولنيكوف ذلك العنوان ، لانه كان يعطي دروسا مأجورة يتخلص بريعها من ضائقاته المالية . فلما تزايدت متطلباته لم يكن لديه الا حاجتان تصلحان لتكونا رهناً ترتضيه العجوز : الساعة القديمة المصنوعة من الفضة التي ورثها عن أبيه والخاتم الذهبي المزين بثلاثة أحجار حمراء

كانت اخته قــــد اعطته له على سبيل الذكرى لما ان افترقا اول مرة . فقرر ان يضحي بالخاتم بادىء ذي بدء فيقدمه للمرابية . ولما ذهب اليهـا شعر نحوهـا بكراهية عميقة قبل ان يعرف عنها شيئاً . ولما أعطته « الورقتين النقديتين » عرج في طريق عودته الى البيت على حانة موبوءة وطلب لنفسه قدحا من الشاي ثم جلس يفكر . فنبتت في رأسه فكرة غريبة ما لبثت أن سيطرت على تفكيره .

كان إلى مائدة قريبة منه طالب لا يذكر أنه رآه أو عرفه من قبل . وكان الطالب يجلس مع ضابط يحتسيان الشاي بعد أن فرغا من شوط « بليار » . سمع راسكولنيكوف الطالب يحدث الضابط عن مرابية عجوز ، أرملة مساعـــد في الكلية ، اسمها آليونا ايفانوفنا ويعطيه عنوانها فكان ذلك في حد ذاته نوعاً من الغرابة في نظره . فهو قد وصل تواً من لدنها وها إنهم هنا يتحدثون عنها ! إنهـا الصدفة ولا شك ولكنه وقع تحت تأثير شعور معين ! وكأن الطالب أراد دعم ذلك الشعور وتنميته في نفسه ، فراح يروي لصديقه تفاصيل دقيقة كثيرة تتعلق بتلك الـ « اليونا ايفانوفنا » . كان يقول :

— إنها مدهشة ، ... يمكن للمرء أن يجد لديها دائمــاً ما يقترضه ... فهي غنية كأحد اليهود تستطيع إقراض خمسة آلاف روبل دفعة واحدة ولا تتنازل عن روبل واحد تقرضه لقاء رهن . ولقد غمرت عدداً كبيراً من أصدقائي بحسن صنيعها غير أنها عنيدة قاسية كالجمل !

وهكذا راح الطالب يقص على زميله مايعرفه من صفات المرأة فقرر أنها خبيثة جشعة وأن تأخر يوم واحد عن أجل الدفع الممنوح من قبلهـــا ، يكفي لضياع الرهينة التي في يدها ؛ وانها تعطي ربـع قيمة الشيء المرهون وتستوفي فائدة تتراوح بين خمسة وسبعة في المائة عن الشهر الواحد . ولم يغفل ذلك الطالب أية

معلومات عن المرابية : فذكر في سياق حديثه أن لها أختاً تدعى اليزابيت وأنها صغيرة نسبياً ومستكينة لدرجة أن العجوز تضربها لأتفه الاسباب وتسيطر عليها سيطرة تامة رغم أن طول هذه الـ « اليزابيت » لا ينقص عن ستة أقدام ، وهذا وجه الغرابة في الموضوع كما كان يقول !

وهنا انتقل موضوع الحديث وتركز حول اخبار اليزابيت فكان الطالب يتحدث عنها بغبطة ملحوظة دون أن يكف عن الضحك حتى أن الضابط الذي استمع اليه حتى تلك اللحظة بشغف واهتمام ، رجاه أن يبعث بتلك الـ « اليزابيت » اليه لتغسل له ثيابه الداخلية . لم تفت راسكو لنيكوف كلمة واحدة من ذلك الحديث . حتى أنه تأكد من إحاطته علماً بكل ما يتعلق بتلك العجوز دفعة واحدة : فاليزابيت هي الأخت الصغرى ولكن من أم أخرى ، ولها من العمر خمسة وثلاثون عاماً تعمل ليل نهار لحساب أختها وتشغل في بيتها مركز الطاهية والغسالة الى جانب اشغال الحياكة التي كانت تقوم بها كلما سمح لها الوقت ؛ وانها كانت ترهق نفسها بالعمل والخدمة وتعطي أختها كل ربحها دون أن تجرأ على تقبل عمل ما أو عقد صفقة ما إلا باذن العجوز وموافقتها . وكانت المرابية قد كتبت وصيتها التي حرمت فيها اليزابيت من كل شيء باستثناء بعض الأثاث . ولم تكن اليزابيت تجهل ذلك . كانت تعرف أن أختها العجوز قد وهبت ديراً في مقاطعة « ن ... » كل مالها ، التماساً لراحة روحها عند الموت .

لم تكن اليزابيت تمت الى بيئة راقية رغم انحدارها من أسرة عاشت في المدينة. كانت طويلة القامة ، هزيلة التكوين ذات قدمين كبيرتين ملتويتين ، تنتعل دائماً أحذيه مشوهة ، وتميل الى النظافة المفرطة . وكان ما يزيد في دهشة الطالب واستغرابه أن اليزابيت تلك كانت دائماً حبلى . حتى أن الضابط لم يتمالك أن قال معقباً :

ـــ إنك هنا تعطي صورة لوحش مخيف .

ـــ يجوز ... انها نحاسية اللون وكأنها جندي في لباس امرأة ولكن لا يمكن أن تنحدر الى مرتبة الوحش . إن لها سماتـــاً غاية في الطيبة وعينين جميلتين . وهي هـادئة ووديعة ترتفي كل شيء حتى يمكن القول أن ابتسامتها جذابة ..

فقال الضابط متسائلا وهو يضحك :

ـــ هل يمكن أن تروق لك ؟

ـــ لمجرد غرابتها فقط . أما تلك العجوز اللعينة : فأقسم أنني ما كنت لأشعر بأي تبكيت في ضميري لو قتلتها وسلبتها مالها ...

ضحك الضابط لقول صديقه . غير أن راسكو لنيكوف ارتعد له : لقد كان غريبا أن يسمع ذلك . غريباً أن يسمع فكرته على لسان غيره !

قال الطالب بحماس مخاطباً زميله :

ـــ سوف أطرح عليك سؤالاً جديـاً لو سمحت وبالطبع إنني أقول ذلك على سبيل المزاح فحسب . قارن بين عجوز خرقاء حمقاء خبيثة غليظة الفؤاد مريضة غير ذات فائدة لأحد ، لاتعرف من حياتها لم تعيش،وستموت غداً ميتة طبيعة ... هل تفهم ، هل تفهم ؟

فقاطعه الضابط قائلا بعد أن أصغى اليه باهتمام وراقبه بنظرة منفعلة :

ـــ لا شك انني أفهم .

واسترسل الطالب يقول :

ـــ نعم قارن بين عجوز كالتي وصفتها وبين قوى فتية نشيطة تضيع هبـاء لافتقارها الى السند والدعم ، قوى تضيع بالالوف وفي كل مكان ... مئـــات بل ألوف من الاعمال الممتازة والمشاريع التي يمكن تحقيقهـا وتنفيذهـا بأموال تلك

العجوز الموهوبة لدير ... مئات بل ألوف من المخلوقات يمكن تسييرها في الطريق القويمة وعشرات من الأسر يمكن انقاذها من المجاعـــة والانحلال والدمار والتفكك وتجنيبها مستشفيات الامراض السارية بتلك الاموال . فلتُقتل إذاً وليؤخذ مالها وليكرّس بعدئذ لنفع الانسانية . فهل تعتقد أن جريمة تافهة كهذه لا تساوي ألوف الحسنات التي تقابلها . فكر أن حياة واحـــدة تنقذ ألوفاً من الدمار والانحلال والفساد ... مئات من الارواح تنقذ لقاء روح تزهق . ألا ترى في ذلك عملية حسابية واضحة ؟ ثم ما وزن حياة عجوز خبيثة كهذه في الميزان العام ... عجوز سخيفة بليدة معلولة ؟ إنها لا تساوي ذرة بل جرثوماً بل وأقول أن حياتها أبخس من ذلك ثمناً . لأن هـــذه العجوز ضارة بالانسانية . انها تبتز وتحتكر المستقبل بثمن الحاضر ، انها وحش ضار ... أتدري أنها مؤخراً عضت اصبع اليزابيت في ساعة غضبها فكادت أن تقطعه لو لا قليل ؟

فقال الضابط :

ــ لا شك أنها غير جديرة بالحياة . ولكن هي الطبيعة !

ــ آه ... آه يا صديقي . الطبيعة ؟ الطبيعة ؟ يمكن تبديلها وتعديلها وتسييرها والا أوشكنا على الغرق في خضم من المعتقدات الفاسدة . لو تركنا الطبيعة وشأنها لما لمع رجل كبير . يقولون : « الواجب ! الضمير » وأنا لا أعارض ولا استنكر الواجب والضمير لكنني أطلب بل أطالب بايضاح معنى هذه الكلمات ! حسناً . سأطرح عليك سؤالاً آخر :

ــ كلا ! بل دع لي أنا فرصة السؤال :

ــ أنت الآن في اندفاع كلامي كالخطيب المفوه ولكن قل لي هل تتعهد بقتل هذه العجوز « بنفسك » ؟

ــ بالطبع لا . انني أتحدث من وجهة النظر العدالية وذلك لايعني أنني أقصد نفسي بالذات في هذه اللحظة .

ــ حسناً . اذا اردت رأيي قلت لك انه طالما لا تحزم امرك على تنفيذ ما تقول فلا يمكن ان تتعلق المسألة بالعدالة ... هيا نلعب شوطاً آخر ...

كان راسكو لنيكوف فريسة اضطراب عنيف لأن تلك النظريات لم تكن غريبة عنه . انها نظريات وآراء شباب سمعها غالباً ، وهم يتداولونها على اشكال مختلفة وبصدد مواضيع مختلفة . ولكن لم جمعت الصدفة تلك الآراء وادخرتها حتى تلك اللحظة ليسمعها راسكو لنيكوف ؟ او على الاصح كيف انتقلت افكاره بحذافيرها الى راس سواه في اللحظة التي نبتت فيها في راسه وراحت تزدهر ؟ كيف يفكر هو في العجوز ثم لا يلبث حتى يسمع حديثاً يدور حولها ؟ انها صدفة غريبة . وقد لبث ذلك الحديث الذي دار في تلك الحانة يؤثر تأثيراً كبيراً على الأحداث التي وقعت بعد ذلك حتى انه ليقال أن هناك علاقة او ارتباطاً أو تقريراً يصدر عن القدر ..

* * *

عندما عاد راسكو لنيكوف من « سوق العلف » استلقى على « سريره » ولبث ساعة لايريم ولا يتحرك . وكان الظلام قد أرخى سدوله في ذلك الحين ولم يكن لديه شمعة يوقدها بل ان فكرة ايقادها ــ لو وجدت ــ لم تكن لتخطر على باله . لم يذكر أبداً خلال المدة الاخيرة أنه استطاع التفكير في شيء ... وأخيراً عادت اليه قشعريرة الحمى التي شعر بها مؤخراً فوجد أن خير ما يفعله هو النوم . فاغمض عينيه واستغرق في نوم عميق .

نام أكثر من عادته ولم يتخلل نومه أحلام ، حتى ان ناستاسيا التي دخلت غرفته في العاشرة صباحاً وجدت صعوبة في ايقاظه . كانت تحمل اليه الشاي

والخبز . الشاي الذي كانت قدمته له من قبل في انائها الخاص .

هتفت باحتقار :

ــ رباه كم ينام انه لا يحسن الا النوم .

نهض باجهاد وهو يشعر بألم في رأسه ، فراح يتمشى في غرفته ثم لم يلبث أن سقط على السرير من جديد . صاحت ناستاسيا :

ــ أتعاود النوم ؟ هل أنت مريض ؟..

ولما لم يجب ، أردفت :

ــ ألا تريد أن تحتسي قدحاً من الشاي ؟

فأجابها بضعف وهو يغمض عينيه ويستقبل الجدار بوجهه : ــ فيما بعد ..

انحنت ناستاسيا فوقه وهي تقول :

ــ لعمري قد يكون مريضاً ... ثم دارت على عقبيها وخرجت ، ولم تعد اليه إلا في الساعة الثانية وكانت تحمل الحساء . كان لا يزال نائماً كما تركته والشاي لم يمس ، فراحت تهزه بعضب وتقول :

ــ مابك لا تنفك تنام ؟ هل أنت مريض ؟ أجب بنعم أو لا !

لكنها لم تتلق جواباً كذلك . فنظرت اليه باستنكار وقالت :

ــ من الخير لك أن تقوم بجولة في الشارع ، قد يفيدك الهواء الطلق ... ماذا لو جلست قليلا !

جلس الشاب في سريره ، وأطرق برأسه محدقاً مستغرقاً في خواطره . ولم يرد على قولها : ــ فيما بعد ... ارتحلي .. وأشار بيده نحو الباب . فوقفت برهة تتأمله بنظرة اشفاق ثم خرجت .

لبث مطرقاً بضع دقائق ثم رفع رأسه ونظر باستغراق إلى الشاي والحساء وأخيراً انتزع قطعة من الخبز وأمسك بالملعقة وبدأ يأكل ... ابتلع لقيمات دون

شهية وبشكل آلي . فسكن الألم الذي في رأسه ولما انتهى من طعامه تمدد على « السرير » ولكنه لم ينم . بل لبث ساكناً مستلقياً على صدره دافناً وجهه في «الوسادة » . كان يفكر ويفكر وكانت أحلامه غريبة . كان يتصور نفسه هناك في إفريقيا ، في مصر بالقرب من بعض الواحات ، ويرى أن القافلة تستريح والجمال تنام هانئة ، وأشجار البلح نامية على شكل دائرة محيطة . وكان الجميع يتناولون الطعام أما هو فكان يشرب من غدير جار من مجرى قريب من هناك . ولقد شعر أن ذلك الماء أنعشه ... إنه ماء أزرق صاف يسيل فوق حصى ملونة وفي مجرى من الرمال التي تعكس إشعاعاً ذهبياً .

وفجأة سمع دقات ساعة بوضوح فانتفض ورفع رأسه ونظر من النافذة وبعد أن خمن الوقت غادر «سريره » كما لو انتزعته أيد خفية . شعر باشراق عقلي فسار متلصصاً نحو الباب يواربه بهدوء ويصغي . فلم يسمع أية ضجة على السلم كما لو أن كل من في البيت كانوا نياماً . راح يعتب على نفسه استغراقه في النوم كل هذا الوقت دون أن يتخذ العدة لما هو في سبيله . واعتبر هذا الاهمال منه عملا شنيعاً شاذاً . فقد أدركه الوقت والساعة أشرفت على السادسة ؛ وهنا شعر بوجيب قلبه يتجاوب في الحجرة ، واستولت عليه عجلة خارقة صاخبة مضطربة طردت الذهول والنعاس اللذين كانا مستوليين عليه . كانت الاستعدادات اللازمة بسيطة غير معقدة . فاستنجد بكل قواه ليدبر الامر ويبلغ به مبلغ الكمال فلا ينسى شيئا ولا يغفل أمراً وشعر بضربات قلبه تكاد تخنقه فصمد وقاوم وأخرج من « وسادته » رزمة من الثياب انتقى منها قميصا قذراً خلقا نزع منه « سريدة» بعرض بوصة واحدة وطول ثمانية بوصات أراد أن يصنع منها عقدة سيالة « أنشوطة» يثبتها في معطفه، الأمر الذي لن يستغرق منه الا دقائق معدودات . نزع معطفه الصيفي الواسع المصنوع من قماش قطني متين . (وهو اللباس الخارجي الوحيد الذي كان يملكه) ، وبدأ

يخيط في داخله تحت الابط طرفي « السريدتين » . كانت يداه ترتعـــدان خــلال تلك العملية ولـكنه أنجزهــا بدقــة لا تفضحها العـين ، ثم ارتدى المعطف ...

كان قد هيأ الابرة منذ بعيد وكذلك الخيط كان محتفظا به في قمطر المائدة ملفوفا في ورقة باعتناء .أما «الانشوطة» فكانت من تصميمه : ادخرهاللفأس إذ أنه يستحيل عليه الخروج الىالشارع والفأس في يده ، أما اخفاؤهـــا تحت المعطف فيستوجب استعمال اليد أو الذراع لتثبيتها . ولكن بمثل هذه «الانشوطة» ليس عليـه الا أن يدخل الجزء الاعلى منها فيها ويتركـها متدلية دون أن يخشى سقوطها ؟ وستبقى تحت ابطه طيلة الرحلة ولن يقتضيه الامر الا ادخال يدهاليسرى في جيب معطفه والامساك بالمقبض ليمنعهـا من التأرجح . ولما كان معطفـه عريضا حتى لـكأنه غرارة كبيرة ، فان الناظر اليه لن يستطيع أن يحـدس أنه يسند بيـده شيئا . وهـكذا نبتت فكرة «الانشوطة» في رأسه منذ نيف وخمسة عشر يوما ...

أنهى عمليته ومد يده الىالفراغ الواقع بين « الديوان» وحافة الجدار من الجهة اليسرى وعبث برهة بأصابعهباحثا ثم اخرج «الرهينة» التي ادخرها لهذه المناسبة. لم تكن شيئا ثمينا بالمعنى المفهوم .كانت عبارة عن قطعتينمن الخشب المجلو المصنوع على شكل علبة السجائر وقد غطاها بقطعة من الحديد الابيض (تنك) عثر عليهـا خلال احدى نزهاته.، ثم لفها بعناية في ورقة بيضاء ناصعة نظيفة جداً ألصقها من أطرافها حتى ليتعذر نزعها بسهولة . كان قصده من ذلك لفت انتبـــاه العجوز وقتـا كافيا واشغـالها زمنا بنزع الغلاف بانتظار اللحظـة الحاسمة . وقد عمد الى قطعة الحديد لتزيد في وزن العلبـة الموهومة حتي لا تدرك

العجوز خدعتـــه للوهلة الاولى ... وهي خطـة مدروسة بعنـايه ومعدة بحذق .

سمع فجأة صوتا من ساحة الدار يهتف :

ـ لقد أعلنت الساعـة السادسة منذ طويل .... فكان لهـــذا القول رد فعل عنيف في نفسه : « السادسة منذ زمن طويل ؟ رباه ! »

اندفع نحو الباب وأصاخ السمع ثم أخذ قبعته ونزل الدرجات الثلاثين بحذر القط وحرصه وتوقف برهة : كان عليه تنفيذ الجزء الاهم من تلك الاستعدادات: سرقة الفأس من المطبخ .

أما لمَ استعمال الفأس بالذات ؟ فذلك ما لا يعرفه ! لأن الفكرة واتته من قبل فتبناها وتقبلها دون نقاش ...

يجدر ابراز نقطة هامة في قرار راسلولينكوف: ذلك أنه كلما اتخذت خطته صبغة نهائية كلما ازدادت في عينه رهبة ووحشية لدرجة أن الصراع الاليم الذي كان ينشب في أعماقه كلما ناقش تلك الفكرة كان يجعله أبعد ما يكون عن تنفيذ عزمه . حتى انه في تلك اللحظة ، رغم جمعه كل مايلزم لتلك « العملية » وتدقيقه في كل التفاصيل حتى التافه منها ، كان لا يزال يعتقـد أن ما سيقدم عليه ضرب من المستحيل ... نوع من الاغراق في الوحشية . مع ذلك كان يشعر ان التراجع متعذر في تلك اللحظة !

لم يكن الحصول على الفأس يقلق باله من قبل نظراً لسهولته : فناستاسيا غالبا ما تكون غائبة عن البيت مساء لأنها تزور الجيران حينا أو تكون في السوق أحيانا تاركة باب المطبخ مفتوحا... ذلك الباب الذي كان علة قلق راسكولينكوف وخوفه كلما أراد التسلل من البيت . فلم يكن أسهل عليه من ان يتسلل الى المطبخ بهدوء فيأخذ الفأس ليعيدها بعد ساعة على الاكثر عندما يكون كل شيء قـد

انتهى . بيد انه كان يخشى بعض الثغرات في هذه الخطة كأن ترجع ناستاسيا قبل الوقت فيتعذر عليه اعادة الفأس ويضطر للانتظار حتي تسنح فرصة أخرى، يجوز ان تكتشف خلالها ضياع الفأس فتبحث عنها صارخة مزمجرة وبذلك يتولد الشك اوعلى الاقل يسبب نمو الشك. لكن الوقت ما كان يسمح له بالتريث امام هذه العقبة التافهة ، لأن تفكيره كان منصرفا الى الناحيـــة الأهم من الموضوع تاركا توافـه التفصيـل الى ما بعد عندمـا يكون قد انتهى من عمله .

رغم هذا فانه ظل يشعر باستحالة تنفيذ « العمل » . تذكر على سبيل المثـال حاله مساء البارحة — لما أن أقنع نفسه بوجوب اجراء تجربة تقتصر على زيارة المكان دون ان يرافقها أي عمل — وكيف ثارت خواطره واضطربت افكاره وتخاذلت ساقاه رغم ما كان يقنع به نفسه من أقوال ومن ان لا ضير من اجراء التجربة طالما انها تتعلق بحلم وليس بحقيقة . بيد انـه حلل النتيجة الادبية لتلك المسألة تحليلا دقيقاً فكان تفسيره وافتاؤه من الدقة وحسن السبك لدرجة لم يشعر معها في وجدانه بأي اعتراض . لم يكن يريد التساهل مع نفسه فيهذا الموضوع بل كان يبحث بعناد عن اعتراضات وانتقادات تسفه قراره . لكن نهار امس الغني بحوادثه المفاجئة الحاسمة أثر فيه تأثيراً آلياً فكان كمن يقسر على اتبـاع الطريق ترغمـه قوة قاهرة لا قبل له بمقاومتهـا ... كمن أطبقت على ثوبه عجلة جبارة وراحت تدور وتجذبه اليها بشدة وتصميم .

فكر من قبل — قبل ان يضع خطته — في الاسبـاب التي تجعل كل جريمة سريعة الاكتشاف ، وفي الدوافع التي تتيـح للمحققين العثور بسهولة على آثار تدين القتلة وخرج بنتائج مثيرة : كان السبب الرئيسي — على رأيه — هو الاستحالة الطبيعيةلاخفاء الجريمة فيصدر المجرم نفسه . لأن المجرمين من أي

نوع كانوا يشعرون عند تنفيذ جريمتهم و بعدها بقليل، بضعف في إرادتهم وفي أحكامهم ؛ وكان راسكو لنيكوف مؤمناً بأن ذلك الخور يستحوذ على الانسان كما يتسلط عليه المرض وينمو فيـــه باطراد حتى أنه يبلغ الذروة قبل الاقدام على تنفيذ الجريمة بقليل ، ويظل على هذه الحال أثناء ارتكابها ويبقى أثره زمناً ما بعد ذلك بحسب الاشخاص ودرجة مقاومتهم ثم لايلبث أن يزول شأن كل الامراض. بقي أن يعلم هل المرض يرافق الجريمة أبداً أم أن الجريمة ذاتها هي بحسب طبيعتها ممتزجة بنوع من المرض ... ذلك مالم يتوصل الى حله حتى تلك اللحظة !

ظن راسكو لنيكوف — حينما بلغ من تحليله هذا الحد — أن أمره سيختلف بعض الشيء عما استنتج وأن مثل ذلك الانقلاب الروحي لن يحدث في نفسه. وظن أن قواه الفكرية وإرادته لن تتخليا عنه خـــلال مراحل « مشروعه » لسبب بسيط : هو أن ماهو بسبيله (ليس جريمة). وليس لنا أن نفسر الاسباب التي أوصلته إلى هذه النظرية الأخلاقية ، لكننا نكتفي بالقول أن الصعوبات العملية ذات الصبغة المادية البحتة ما كانت تلعب في ذهنه إلا دوراً ثانوياً . كان يقنع نفسه بقوله : « - يكفي أن أراقب إرادتي ووجداني وأسيطر عليها حتى أتغلب في اللحظة الحاسمة على كل الصعوبات التي قد تعترض مشروعي » .

لكن اللحظة الحاسمة كانت تتأخر باستمرار حتى بات يشك في المبادىء التي أوجدها والاستنتاجات التي استخلصها من مناقشاته . والآن بعد أن حان الوقت فان الحوادث اتخذت صبغة جديدة غير منتظرة ، وأول عقبة صادفته كانت عندما بلغ نهاية السلم قرب ذلك الباب الذي كان أبداً مفتوحاً إذ أنه بينما كان يلقي عليه نظرة جانبية ليتأكد من غياب ناستاسيا وصاحبة الدار أو على الاقل غياب الاولى ووجود الثانية في غرفة مغلقة داخل الشقة ، ليتسنى له أخذ الفأس دون أن يراه أحد ، رأى لدهشته البالغة ، أن ناستاسيا كانت هناك مشغولة بنشر بياضات على الحبال

فاستمر في سيره وكأنه لم يرها . لكنهـا أبصرت به بل أنها راحت تتابعه بنظرها حتى تجاوز نطاق الرؤية المتاح لها في مكانها وهكذا أخفق في أهم جزء من خطته .

وراح يعتب على نفسه وقد عصفت بين جوانحه غضبة حيوانية ويقول :

ـ « من أين جئت بتلك الفكرة السخيفة ، فكرة غياب ناستاسيا عن المطبخ في اللحظة الحاسمة ولمَ ، لمَ اعتبرتها أمراً واقعاً رغم مايعتورها من أخطاء سخيفة ؟ »

وقف أمام الباب الخارجي للبناء تتنازعه عوامل شتى : فهو لا يستطيع الخروج الى الشارع هكذا دون هدف لأن في ذلك إيلاماً له ، ولا يريد العودة الى غرفته فالايلام أشد ! راح يدمدم حانقاً : « لقد أضعت فرصة جوهرية وأضعتها الى الابد » وفجأة التمعت عيناه ببريق خاطف وارتعش كيانه فرحاً : شاهد في غرفة حارس البناء شيئاً يلتمع ، شيئاً عرف فيه ضالته التي أخفق في الحصول عليها من المطبخ : فأساً كامنة بين قطعتين من الخشب ، تحت مقعد الحارس ! ولما كان الباب مفتوحاً فقد حدس أن يكون الحارس خارج الغرفة غير بعيد عنها ... لم ينتظر أكثر من ذلك واقترب من الكوخ وهو ينادي بصوت مختنق حتى اذا تأكد من غيابه دخل الكوخ وانتزع الفأس فأودعها المكان الذي أعده لها تحت معطفه وخرج دون أن يراه أحد .

قال يحدث نفسه : ـ الحقيقة أن الشيطان يتدخـل عندما يخفق الذكاء ... وارتسمت على وجهه ابتسامة غريبـــة : لقد خدمه الحظ وشجعته تلك الخدمة أيما تشجيع .

سار في الشارع ببطء خشية ايقاظ الشكوك وجهد في أن يتحاشى النظر الى الوجوه زيادة في الحيطة والحذر . تذكر فجأة قبعته الشاذة فهتف غاضباً : « رباه ! كيف فاتني استبدالها بما كنت أملكه من نقود البارحـة ؟ » وأفلتت شفتاه سبة بذيئة . وبينما هو في طريقه لمح ساعة جدار في دكان مر بالقرب منها فاذا بها تشير

الى السابعة وعشر دقائق فكان ينبغي إذاً أن يحث الخطى خصوصاً وأنه معتزم بلوغ المكان من الطريق الجانبية . والغريب أنه في المرات السابقة ، مرات التجربة ، كان يشعر برعب واضطراب . أما الآن فلم يكن يحس بشيء من ذلك بل ويمكن القول أن شعوراً بالارتياح كان يغمره . كانت أفكاره متجهة وجهات لاعلاقة لها بما هو بصدده . كان يقول وهو يسير بالقرب من حديقة « يوسّوبوف » انه من المستحسن لو عُمد الى إقامة نوافير كثيرة كبيرة لتلطف الجو في مثل هذه الامكنة العامة ، ثم لاحظ أنه لو عُمد إلى توسيع « البستان الصيفي » حتى « ساحة مارس » ودمج في حديقة « باليه ميشيل » فان ذلك سيكون تجديداً جميلاً نافعاً « لسان بترسبورغ » وهنا أثار انتباهه سؤال عرض له فجأة : لمَ يفضل الناس في المدن الكبيرة — سواء بدافع الحاجة أو بدافع الذوق — السكنى في الأحياء التي لاتتخللها نوافير ولا حدائق والتي ليس فيها إلا الوحل والعفن والروائح القذرة ؟ وتذكر نزهته في « شارع العلف » والأسباب التي دفعته اليها فلم يتمالك أن تمتم : « يالي من أحمق ! يجدر بي أن لا أفكر في هذا .. أعتقد أن أولئك الذين يساقون الى ساحة النطع يستمتعون لآخر مرة بالمناظر التي تحيط بهم وهم في طريقهم الى الموت » .

ومضت هذه الفكرة في رأسه برهة لكنه سرعان ما أطفأها إذ كان قد بلغ الدار التي يقصدها وأصبح الباب قبالته . تناهى الى سمعه صوت ساعة بعيدة تدق دقة واحدة فهمهم : « هل يمكن أن تكون النصف بعد السابعة ؟ مستحيل ان هذه الساعة مغلوطة » .

خدمه الحظ مرة أخرى عندما هم باجتياز عتبة المكان حتى ليظن أن القضية جاءت عمداً . فقد مرت في تلك اللحظة عربة كبيرة محملة بالقش راحت تجتاز المدخل الرئيسي للدار وبذلك حجبت دخوله فلم يشعر به أحد حتى أن العربة لم تكد تبلغ

الباحة إلا وكان قد بلغ السلم الأيمن وارتقاه . وتناهت الى سمعه أصوات مزمجرة آتية من جانب العربة .وفتحت نوافذ كثيرة مطلة على الباحة غير أن الأبواب المطلة على السلالم لبثت مغلقة .

راح يصعد قاصداً الطبقة الرابعة حيث تقيم العجوز وقد وضع يده على قلبه ليمنعه من الوثوب . وتحسس الفأس التي إلى جانبه واطمأن الى وجودها للمرة الاخيرة ... سره خلو المكان في تلك اللحظة ... صحيح أن في الطبقة الثانية مسكناً غير مأهول وأن بعض العمال يقومون باصلاحات فيه ، غير أن ذلك لم يثبط من عزيمته . تجاوزهم دون أن ينظر اليه أحد وراح يحدث نفسه قائلاً : « لاشك أنه كان من الاصلح عدم وجودهم ولكن لا بأس على كل حال فهناك طبقتان أخريان ».

بلغ الطبقة الرابعة ووقف أمام الباب ونظر الى المسكن الخالي المقابل لمسكن العجوز . تذكر أن في الطابق الثالث مسكناً يقوم ولا شك تحت مسكنها مباشرة وهو خال بالمثل وراودته فكرة عابرة لحظة واحدة : « أوليس من الخير أن أعود ؟» غير أنه لم ينتظر الجواب بل راح يسترق السمع وأذنه لصق باب العجوز فلم يسمع حركة . كان السكون يخيم على السلالم بالمثل فألقى نظرة أخيرة حوله وتأهب مستعداً وهو يرفع من جديد مقبض الفأس تحت معطفه ويتساءل : « أولست شاحباً بعض الشيء ؟ إن العجوز حذرة جداً فهلا يجدر بي أن أتريث برهة ريثما استرد روعي ؟ » .

لكن ضربات قلبه لم تخف ، بل على العكس كانت تزداد باطراد فلم يأبه لها وأمسك بحبل الجرس يجذبه ثم عاد يقرعه بعد نصف دقيقة بأشد من المرة السابقة دون أن يتلقى جواباً ! شعر أن لا فائدة من القرع بالحاح لانها ستثير ريبة العجوز بدلاً من أن توحي اليها بالاطمئنان ... ولا شك أنها في الداخل وحيدة كما يعرف سلفاً وهذا هو سبب التلكؤ الذي يبدو عليها ... نعم ... لقد كان يعرف بعضاً

من عادات آايونا إيفانوفنا ..

أصغى من جديد إلى الباب فسمع فجأة احتكاك يد على مزلاج الباب من الداخل وحفيفاً خافتاً كالذي يتخلف عن مرور شخص قرب الجدار .. وسواء اكتسبت حواسه إرهافاً خاصاً أم إن الحركة كانت واضحة مسموعة ، فانــــه لم يتمالك أن ارتعد وهو يفكر أن وراء هذا الباب يقف شخص ينصت مثله إلى ما قد يدور في المشى ... ولعله مثله ، قــد ألصق أذنه على الباب ... فراح يتحرك في مكانه مثيراً ضجة معقولة ليجنّب الشخص المترقب وراء الباب كل خوف وحذر ، ثم عاد يقرع للمرة الثالثة بهدوء دون أن تظهر عليه بوادر نفاذ الصبر ... وظلت هذه اللحظة ماثلة في خاطره ، حتى أنه لبث يذكرها أمداً طويلاً .. أدهشه الاستعداد الذي أبداه والحيل التي تذرع بها على الرغم من انه ــ خلال فترات متقطعة ــ كان يشعر بانعدام الاحساس وكأنه بارح جسده .

وفجأة ، سمع صوت المزلاج وهو يرفع ...



راسكولنيكوف يتأهب لارتكاب الجريمة

الفَصلُ السَّابعُ

وورب الباب بهدوء كالمرات السابقة وبدت العينان الحادتان الحذرتان تلتمعان وسط الظلام . وفي تلك اللحظة فقـــد راسكولنيكوف هدوءه وكاد أن يفسد خطته كلها بالخطيئة التي ارتكبها : ذلك أنه خشي أن يدفع الحذر بالعجوز الى إغلاق الباب في وجهه ، ولم يلاحظ أن وجهها كان يعكس إحساسها بالاطمئنان ، فأمسك الباب وجذبه نحوه بشدة حتى أن العجوز الـتي كانت تمسك به بحذر وعنف معاً اندفعت معه الى الممشى . ولما رأى أنها تتصدى له لتمنعه من الدخول تقدم نحوها وفي عينيه نظرة وحشية أخافت العجوز ، فتراجعت خطوة الى الوراء وأرادت أن تقول شيئاً غير أن لسانها لم يسعفها بالنطق .

ابتدرها بلهجة سعى أن يجعلها طبيعية :

ـــ مساء الخير يا أليونا ايفانوفنا ... لقد جئتك بالرهينة التي وعدتك بها ... ولكن لنمض الى هناك حيث النور ... وراح يدفعهـا أمامه بعنف وهو يدخل الغرفة دون أن تدعوه إلى الدخول . وعادت العجوز تقف في سبيله وقد استعادت القدرة على النطق وصاحت :

ـــ يا إلهي ؟ ماذا تريد ؟ من أنت ؟ ماذا تبغي ؟.

فمد لها راسكولنيكوف يده بالعلبة الوهمية وقال :

ـــ هيا يا أليونا إيفانوفنا . أنا من معارفك القدماء أنا راسكولنيكوف وهذه هي الرهينة التي حدثتك عنها مؤخراً .

تناولت العجوز العلبة ومضت تتفحصها ثم لم تلبث أن عادت تنتصب أمامه

وتنظر في عينيه محدقة ... كانت تتأمله بانتباه وريبة وقـــد مضت دقيقة خيل لراسكولنيكوف خلالها أن عيني العجوز تلتمع بسخرية مرة كما لو أنها خمنت كل شيء ، فشعر بضعف شامـل وبنوع من الخوف حتى أن تحديق العجوز لو استمر نصف دقيقة أخرى لاذ بأذيال الفرار .

بذل مجهوداً جباراً للتغلب على ضعفه وقال بلهجة خبيثة :

ــ ماذا دهاك حتى تنظري إلي بهذا الشكل ؟ ألا تعرفينني ؟ هذه العلبة التي حدثتك عنها فاما أن تأخذيها وإما أن تعيديها إلي لأتصل باناس آخرين .

فاه بتلك العبارات عفوياً حتى أن العجوز اطمأنت للهجته بعض الشيء ووجدت في قوله مايشجعها فقالت وهي تنظر الى الرهينة :

ــ لكن يا صديقي لمَ تصرفت هكذا منذ قليل ؟ ثم أشارت الى العلبـــة وأضافت : ماهذا ؟

ــ علبة سجائر فضية . ماذا دهاكِ ؟ لقد حدثتك عنها من قبل .

فمدت يدها وهي تقول :

ــ كم أنت شاحب ! ويداك ترتجفان ! هل أنت مريض ؟

فأجابها بصوت مرتجف :

ــ كيف لايشحب من لايجد ما يأكل ؟ إنني مصاب بالحمى ...

وخذلته قواه من جديد . غير أن العجوز اقتنعت بالجواب وتناولت الرهينة وعادت تسأل وهي تزن البضاعة في يدها وتنظر بحدة الى راسكولنيكوف :

ــ ماهذا ؟

ــ إنه الشيء ... علبة السجاير .. علبة فضية ، عاينيها .

ــ هم !... لاتبدو أنها من الفضة ثم إنها ملفوفة بعناية .

وراحت تسعى لازالة الغلاف فاقتربت من النافـذة حيث النور أقوى بعض

الشيء لأنها تحتفظ بنوافذها مغلقة دائماً رغم الحرارة الخانقة ، وتركته لحظات وقد أدارت له ظهرها ... ففك أزرار معطفه وخلص الفأس من العقدة السيالة « الأنشوطة » دون أن يخرجها من تحت إبطه وأسندها بيده اليمنى تحت معطفه . شعر بضعف هائل يكتسح ذراعيه وبحركاته تتثاقل وكأن أطرافه قدت من رصاص وخاف أن تسقط الفأس من يده ! وفجأة أحس بدوار . تناهى الى سمعه صوت العجوز وهي تقول :

— يالها من فكرة سقيمة تلك التي قضت بحزم هذه العلبة في مثل هذا الغلاف ... فكان لهذه الجملة وقع السحر في نفسه . كان الوقت يدركه وعما قليل ستكتشف المرأة الخدعة وعندئذ يضيع كل شيء .

أخرج الفأس من مكانها ورفعها بكلتا ذراعيه دون أن ينتبه الى حركته وتركها تسقط آلياً ودون عنف على رأس العجوز ؛ فقد كانت قواه خائرة . لكنه سرعان ما استرد قواه بعد الضربة الاولى . وكانت العجوز كعادتها عارية الرأس وشعراتها البيضاء القليلة مضمخة بالأدهان كالعادة مجدولة على شكل ذنب فأر وملفوفة على مشط صغير في مؤخرة رأسها .

أصابتها الضربة الأولى في قمة رأسها وساعده في ذلك قصر قامتها . وكانت الرهينة لاتزال في إحدى يديها . ثم انهال عليها بكل قواه بضربة ثانية وثالثة مستهدفاً الرأس فتفجر الدم وكأنه سُفح من إناء ، وتهاوى جسمها على الأرض فتراجع الى الوراء ليتفادى الاصطدام بها ... كانت قد فارقت الحياة وقد اتسعت حدقتاها وكأنها على وشك الخروج من محجريها بينما راح وجهها وجبينها يختلجان ويتقلصان من تشنجات النزع الأخير .

وضع الفأس على الأرض قرب القتيل وراح يبحث في جيوبها محاذراً تلويث يديه بالدماء التي كانت تتدفق من رأسها . بدأ بالجيب اليمنى حيث رآها تضع المفاتيح

في المرة الاخيرة . كان محتفظاً بصفاء ذهنه لايشعر بأي خدر أو دوار باستثناء رعدة خفيفة في يديه وكان يقظاً حذراً فلم يتسخ ثوبه . عثر بالمفاتيح التي كانت تجمعها رزمة واحدة وتربطها حلقة من الفولاذ وهرع الى الغرفة الداخلية التي كان يحجب الستار بابها .

كانت غرفة صغيره جداً يقوم في صدرها دولاب من الزجاج يغص «بالأيقونات» والى الجدار المقابل سرير نظيف جداً وعليه غطاء من الحرير المبطن بالقطن مصنوع بعناية ودقـــة . وبالقرب من الحاجز الخشبي الذي يفصل بين الغرفتين قامت الخزانة . والغريب أنه لم يكد يدخل المفتاح في القفل ويسمع الصرير حتى اعترته رعدة اكتسحت كيانه وأحس برغبة ملحة بالفرار لكن تلك الرغبة لم تدم أكثر من لحظة واحدة إذ لم يكن من السهل التراجع بعد أن وصل الى تلك المرحلة. تملكته فكرة جديدة مقلقة : « ألا يمكن أن تكون العجوز لازالت على قيد الحياة أو أن تكون الحياة قد عادت اليها ؟ فترك المفاتيح والخزانة وعاد قرب الجثة وأمسك بالفأس مرة أخرى ورفعها بين يديه لكنه لم يضرب . ذلك لأن وفاة العجوز كانت أمراً محققاً . انحنى فوقهـــا يتفحصها عن قرب فرأى أن جمجمتها محطمة وأن الجزء الأعلى منها قد انتزع من مكانه وود لو لمسه بيده ولكنه تماسك . شاهد بركة من الدم تجمعت على الأرض ووقع بصره بغتة على شريط من الحرير يطوق عنق القتيل فجذبه ولكنه امتنع عليه . كان الشريط غارقاً بالدم فحاول رفعه ولكن عائقاً كان يحول دونه . تملكه نفاذ صبر غريب وود لو استعمل الفأس مجدداً ليقطع الشريط بضربة واحدة ولكنه لم يجرأ على ذلك . وبعد عناء وجهد دقيقين لوث خلالها أصابعه والفأس بالدم توصل الى استخلاص الشريط من الجثة . كان يتدلى منه كيس نقود وصليبان أحدهما من خشب السرو والآخر من النحاس وبينهما صورة من « الصيني » أما في الكيس فكانت حافظة نقود منتفخة من الجلد

الوعل ذات قفل صغير من الفولاذ . وضع راسكولنيكوف الحافظة في جيبه دون أن يعاين مافيها والقى الصليبين فوق المرأة وحمل معه الفأس وعاد الى غرفة النوم من جديد .

راح يعمل بعجلة محمومة : ويجرب المفاتيح عبثاً ولم يكن سبب ذلك ارتعاد يديه، لأنه كان يميز أشكال المفاتيح وأحجامها ويدرك تماماً أن هذا مثلاً لاينطبق على فتحة القفل. وفجأة تذكر ذلك المفتاح الطويل ذي الأسنان المشرشرة وقدّر أنه لايمكن أن يكون لهذه الخزانة (وهو تقدير سبق له أن توصل اليه من قبل) بل إنه مفتاح صندوق حديدي ما حيث يمكن أن تكون فيه كل ثروة العجوز . وعلى هذا فقد ترك الخزانة وراح يبحث تحت السرير معتمداً على أن العجائز اعتدن دائماً إخفاء صناديقهن في مثل ذلك المكان .

لم يخطئ الظن فقد شاهد صندوقاً كبيراً ذا غطاء محدودب مكسو بقماش « الماروكان » الأحمر ومزين بالمسامير الحديدية ، ولما أدخل المفتاح في القفل فتحه بسهولة : وقع بصره بادئ ذي بدء على غطاء أبيض يخفي فراء أرنب تزينه أشرطة وبطانة حمراء وثوب من الحرير ثم حرملة « شال » . أما مابقي فلم يكن أكثر من خرق لاقيمة لها ولا شكل ؛ فراح يزيل الدم العالق بيديه مستعملاً بطانة الفراء الحمراء وهو يحدث نفسه قائلاً :

— انها حمراء والدم أحمر ولا شك أنه لن يظهر عليها ...

وبينما هو يفتش بين الخرق ، إذ عثر على ساعة ذهبية تنزلق بينها ، فحفزه ذلك على متابعة البحث متأكداً أن أليونا ايفانوفنا تحتفظ بين هـــذه الخرق « بالرهائن » التي تحصل عليها لقاء ماتسلفه من مال . بل لعل مايراه الآن لايعدو الرهائن التي عجز أصحابها عن دفع ما استلفوا عليها من نقود فأصبحت ملكاً للعجوز . رأى مجموعة غريبة من أقراط وأساور ودبابيس ثمينة بعضها لازال في علبه المخملية

والبعض الآخر ملفوفاً بعناية بأوراق الصحف ؛ فأودع تلك الأشياء جيبه دون تردد ... ولم يستحسن فتح العلب كلها وفض اللفافات خشية أن يستغرق ذلك من الوقت ماهو في مسيس الحاجة اليه .

وفجأة سمع صوت خطوات في الغرفة التي سجت فيها جثة القتيل ؛ فتوقف وقد عقل الرعب القاتل حركاته فشلها ... وانقطع الصوت حتى أنه عزا ما سمعه الى اضطراب أعصابه وتخيلاته السقيمة المريضة . غير أنه سرعان ماسمع صرخة خافتة أشبه بزمجرة مكتومة ... وران سكون مريع دام دقيقة أو دقيقتين ... كان خلالها مقعياً بالقرب من الصندوق يحاول عبثاً استعادة هدوئه وتنفسه الرتيب.. وفجأة انتفض بعنف وأخذ الفأس بيده ثم هرع الى الغرفة التي ترك فيها القتيل !

كانت « اليزابيت » واقفة في وسط الغرفة وهي تحمل حزمة كبيرة ، وكانت تنظر بذهول وتبلد الى أختها الميتة وقد شحب وجهها حتى غدا كقطعة من القماش القذر.. بدا عليها أنها عاجزة عن الصراخ فلما رأته مندفعاً نحوها ارتعدت كالورقة التي تتقاذفها الرياح ، وقد اعترتها قشعريرة متقطعة وعلا وجهها تشنج دوري رتيب! رفعت ذراعيها وراحت تتراجع ببطء أمامه باحثة عن زاوية تلتصق فيها وهي تحدق في وجهه خرساء مكتومة الأنفاس . اندفع نحوها رافعاً فأسه فتقلصت شفتا المرأة المسكينة تقلصاً أليماً شأن بعض الأطفال عندما يفاجأون بشيء يخيفهم ويحاولون الصراخ مستنجدين . كانت تلك التعسة من السذاجة بحيث أنها لم ترفع ذراعها لتحمي وجهها كما ينتظر غريزياً في موقف كالذي وجدت فيه . بل إن حركتها كانت من الضعف والحيرة حتى أن يدها لم ترتفع الى مستوى الكتف وهكذا أصابتها ضربة الفأس ملء رأسها ، وكان يستعملها هذه المرة من جزئها الحاد المدبب، فشطرت رأسها شطراً وتهاوت البائسة في مكانها بينما تناول راسكولنيكوف الحزمة التي كانت بين يديها وألقى بها جانباً وعاد الى غرفة النوم من جديد .

بدأ الرعب يستحوذ على نفسه أكثر فأكثر وخصوصاً بعد جريمته الثانية التي لم يكن قد مهد لها أو أدخلها في حسابه وشعر برغبة ملحة في مغادرة المكان وكأنه أدرك في تلك اللحظة دقة موقفه وحرجه وأنه على الرغم من توقعه مثل تلك المصاعب والعقبات فانه لم يكن حتى ذلك الحين إلا في المرحله الاولى وليس يدري كم من موانع جديدة ستنتصب في طريقه قبل أن يعود سالماً الى غرفته، بل كم جريمة أخرى سوف يضطر الى ارتكابها واقتراف وحشيات أبشع فأبشع صيانة لسلامته ؟.. لو أنه توقع كل ذلك لكان حرياً به أن يتراجع . ود الآن لو يوقع بنفسه ليس من الخوف بل من الاشمئزاز وبشاعة ما أقدم عليه .

راح ذلك الاشمئزاز يتزايد في نفسه دقيقة فدقيقة حتى همّ بالابتعاد عن غرفة النوم والصندوق وسيطر على عقله شرود جديد أشبه بالتخيل . بلغ به الأمر أن نسي نفسه أو على الأصح نسي الفكرة الرئيسية التي جاء من أجلها ليهتم بتفاصيل ثانوية تافهة . من ذلك أنه لاحظ في المطبخ دلواً مملوءاً بالماء مثبتاً فوق مقعد خاص فقرر أن يغسل يديه والفأس لانها كانت مغطاة بالدم . واندفع الى حيث كان الدلو فغمر فيه حديد الفأس وانتزع قطعة من الصابون كانت في علبة على حافة النافذة وراح يغسل يديه داخل الدلو بالذات ولما انتهى أخرج الفأس وأمضى ثلاث دقائق وهو يزيل ما علق بمقبضها من نقاط الدم حتى أنه استعمل الصابون لهذه الغاية ثم جفف يديه والفأس بقطعة من الثياب كانت منشورة على حبل في المطبخ ، اقترب بعد ذلك من النافذة ليتسنى له معاينة مقبض الفأس بوضوح ولما تأكد من خلوها من الآثار أقلقه أن يكون المقبض رطباً وأخيراً أعادها إلى مكانها من «الأنشوطة» وألقى نظرة أخيرة على معطفه وسرواله وحذائه فرأى للوهلة الأولى نقاطاً صغيرة على حذاءيه فبلل خرقة ومسحها . وخيل اليه أنه لم يعاين كل شيء وأن هناك بعض التفاصيل غابت عن عينيه المدققتين فوقف برهة في وسط الغرفة يتأمل موقفه

وظن لحظة أنه باتَ أقرب الى الجنون لأنه يفتقر في تلك اللحظة الى الوعي الكافي للتحليل والتفكير والاستنتاج وزمجر يقول : « رباه ! ينبغي أن أفر ، أفر » ! غادر غرفة النوم محاولاً الخروج وهناك لقي ماصعقه صعقاً — وهـــو أدق تعبير يطلق على ماشعر به في تلك اللحظة — فوقف متسمراً في مكانه لايصدق عينيه : رأى الباب ، البـــاب الخارجي الذي يؤدي الى حيث الجثتين ويطل على المشى الخارجي ، ذلك الباب الذي قرعه منذ قليل ، الذي نفـذ منه الى هذا المسكن ، رآه مواربا !.. ومعنى ذلك أنـه كان خلال كل هذا الوقت غير مغلق بالمفتاح ولا بالمزلاج وإذاً فان العجوز كانت قد تركته مفتوحاً من باب الحذر ، التعقل وبذلك أتيح لاليزابيت أن تدخل إذ لاشك أنها لم تنفذ خلال الجدران .

بادر الى الباب فأغلقه ودفع المزلاج وراءه ووقف لحظة يفكر : وليس الأمر مجرد إغلاق الباب ، إنما المهم هو الخروج » . فعاد يفتح الباب ويصيخ السمع . تناهى إلى أذنيه صوتان صاخبان يعربدان بسباب وشتائم فتساءل عمن يكون صاحباهما وانتظر بفارغ الصبر أن تخفت أصواتهما ويرتحلا ، وأخيراً وبعد لأي هدأت الأصوات . وبينما كان يستعد للخروج سمع في الطابق الأسفل صوت باب يفتح وزمجرة على السلم فخمن أن شخصاً ما يهبط إلى الأسفل وهـو يدمدم لحنا وتساءل مرة أخرى قائلاً :

— مابالهم يحدثون مثل هذا الصخب ؟

أغلق الباب من جديد وعاد ينتظر حتى خيم السكون وهدأت الأصوات . وما كاد يضع قدمه على الدرجة الأولى حتى تناهى إلى سمعه صوت خطى بعيدة آتية من أسفل السلم وشعر أن تلك الخطوات تتجه إلى حيث هو بالذات أو بالأحرى إلى حيث كان . أما كيف خمن ذلك ؟ وما هي الميزات التي تفردت بها تلك الخطى حتى توصل إلى ذلك الاستنتاج ؟ ليس يدري ! كانت خطوات ثقيلة متزنة بطيئة

وكانت في تلك اللحظة قد بلغت الطبقة الاولى من البيت وبدأ وقعها يتجاوب مرتفعاً باطراد. أحس كأن صاحب الخطى يلتقط أنفاسه المبهورة بصعوبة، فلبث يتابع تلك الخطوات بسمعه حتى بلغت الطابق الثالث ولم يبق لوصولها اليه إلا زمن يسير بينما لبث هو جامداً في مكانه عاجزاً عن تحريك أطرافه.

بدأ القادم يرقى الى الطبقة الرابعة عندما استرد راسكولنيكوف حواسه ونجح أخيراً في العودة الى المسكن الذي غادره فأغلق الباب وراءه ثم دفع المزلاج ببطء وهدوء محاذراً احداث أي صوت. كانت حركته غريزية فحسب فلما فرغ منها قبع وراء الباب كاتماً أنفاسه وجعل يصغي بكل حواسه.

بلغ القادم الباب ولم يعد يفصله عنه إلا ذلك الحاجز الخشبي وشعر بأنه يصيخ السمع بدوره وأنه يتنفس بصعوبة وتصوره راسكولنيكوف ضخم الجثة طويل القامة! قرع الزائر الجرس وانتظر برهة ثم عاود الكرّة ولم يلبث أن استولت عليه غضبة مفاجئة فراح يهز الباب نافذ الصبر. وكان راسكولنيكوف يراقب المزلاج وهو يهتز في مكانه وخيل اليه أنه سيتداعى آخر الأمر تحت وطأة الهزات العنيفة وخطر له أن يمسك المزلاج بيده ويدعمه ولكنه خشي أن يفطن «الآخر» الى ذلك فطاش صوابه وبدأ الدوار يغزو رأسه وظن أنه ضائع لا محالة. وفجأة سمع القادم يزمجر.

— ماذا جرى؟ هل إستغرقتا في النوم أم أن أحداً قتلها؟ يا للجيفتين! هيه! أليونا إيفانوفنا أيتها الساحرة العجوز! اليزابيث إيفانوفنا ياذات الجمال الرائع! افتحا.. آه ياملعونتان! هل يعقل أن تكونا نائمتين؟

ومن جديد عاد يقرع الجرس بالحاح في ثورة غضبه حتى كاد أن يقطع الحبل وبدا كأنه ليس غريباً عن المرأتين وأنه يشغل مركزاً هاماً عندهما. وفي تلك اللحظة ارتفعت أصوات خطوات أخرى سريعة خفيفة... كان قادم آخر يقترب من

المسكان ، قادم لم يسمع راسكولنيكوف صوت خطاه أول الأمر وسمع الحديث التالي يدور بين المجهولين : سمع القادم الجديد يقول :

ـ لايعقل أن لايكون أحد في البيت . مرحباً يا « كوخ » .

كان الصوت رناناً مرحاً حتى أن راسكولنيكوف قدر أن صاحبه لايعدو أن يكون شاباً في مطلع العمر . وأجاب الصوت الآخر :

ـ الشيطان وحده يعرف ! لولا قليل لاقتلعت القفل منذ لحظات ، ولكن كيف عرفتني أنت ؟

ـ كيف هذا ؟ ألم أهزمك أمس الأول في « كامبرينوس » ثلاثة أشواط متعاقبة بالـ « بليارد » ؟

ـ آه .. آه ...

ـ غريب أن لايكون في المنزل أحد ، بل أستطيع القول أنه غاية في الغرابة أين يمكن أن تكون العجوز في هذه اللحظة ؟ عندي ما أقوله لها ؟

ـ وأنا كذلك ياصديقي عندي ما أقوله لها ..

ـ اذاً ما العمل ؟ لم يبق إلا أن ننسحب . ولكنني لا أفهم مع ذلك لمَ تحدد تلك الساحرة موعداً في هذه الساعة ثم تتخلف عنه ، والأدهى من ذلك أنني جئت من بعيد ، ياللشيطان ! لست أفهم أينْ مضت . فهي لاتتحرك كل العام من بيتها ! تلك الساحرة . إنها مريضة تشكو ألماً في ساقيها مع ذلك فهي ليست في مسكنها .

ـ ماذا لو سألنا حارس البناء ؟

ـ ماذا نسأله ؟

ـ أين ذهبت ومتى تعود !

ـ هم !... ياللشيطان ! نسأل ،.. نسأل ... ولكن بما أنها لم تعتد الذهاب الى أي مكان فكيف نسأل ؟..

وجذب مقبض الباب من جديد وتابع :

ـــ الى الشيطان لابد وأن نذهب خائبين .

ـــ انتظر ... انظر ... ألا ترى كيف أن الباب قد تحرك لما جذبته ؟

ـــ حسناً .. وماذا بعد ؟

ـــ هـذا يعني أنه غير مغلق بالمفتاح ، بل بالمزلاج ... ألا تسمع « صلصلة » المزلاج ؟

ـــ حسناً .. وماذا بعد ؟

ـــ اولا تفهم ؟ معنى ذلك أن واحدة منهما في البيت ، فلو أن كلتيهما خارجتان لأغلقتا الباب بالمفتاح من الخارج وليس بالمزلاج من الداخل . انتبه ... هل سمعت الصوت الذي يحـدثه المزلاج ؟ اذاً .. لـكي يستطيع المرء أن يدفع المزلاج ينبغي أن يكون في الداخل هل أدركت ؟ هما هنا غير أنهما لاتفتحان .

فصاح كوخ مأخوذاً :

ـــ يه !.. لاشك انهما هنا ...

وعاد يهز الباب بعنف بينما هتف الشاب يقول :

ـــ انتظر . لاتجذب الباب هكذا ... إن في الامر مايريب ... فلقد قرعت الجرس وهززت الباب بعنف وهما لاتفتحان واذاً فهما مغمى عليهما أو ...

ـــ ماذا ؟

ـــ هيا لنأت بالحارس وليوقظهما بنفسه .

ـــ حسناً ...

وراح الاثنان يهبطان السلم وفجأة هتف الشاب :

ـــ انتظر ... قف أنت هنا قليلا وأنا سآتي بالحارس !

ـــ ولمَ أبقى ؟

— من يدري؟

— ليكن!

وهتف الشاب متحمساً قبل أن يهبط السلم :

— أرأيت ؟.. إنني أستعد لاكون قاضي تحقيق ! مما لاشك فيه نعم لاشك فيه أن في الامر سراً مريباً .

بقي كوخ في مكانه وحيداً وجذب مرة أخرى حبل الجرس فارتفع صوته مجلجلا ثم أخذ يهز الباب ولكن بهدوء وكأنه مستغرق في خواطره . كان يدير المقبض يميناً ويساراً ليتأكد تماماً من أن الباب غير مغلق بالمفتاح ثم نفخ كالثور الهائج وانحنى على ثقب البـــاب ينظر خلاله . لكن المفتاح كان فيه من الداخل وهذا ما حال دونه وما اعتزم .

أما راسكولنيكوف فكان واقفاً دون حراك يضغط على فأسه ذاهلا . كان مستعداً لمقاومتها والقضاء عليها عندما يعودان وقد واتته فكرة مناداتها للقضاء عليها بل لشتمها والسخرية منها .

ومر الوقت دقيقة دقيقة ولم يعد الشاب مما جعل «كوخ» يتململ قلقاً وأخيراً هتف يقول :

— يا للشيطان ! ماذا بعد ؟ لمَ أنتظر ؟

وترك مكانه ومضى يهبط السلم مسرعاً حـــتى اختفى وقع قدميه الثقيلتين . وبحركة غريزية ، فتح راسكولنيكوف الباب ثم أغلقه على أحسن ما استطاع وهبط السلم بدوره مندفعاً فبلغ الطبقة الثانية حينما تناهى إلى سمعه صخب وضجيج ينبعثان من الأسفل ، وحار في ايجاد مخبأ يلوذ به وكاد أن يعود أدراجه لولا أن سمع فجأة صوتاً يصيح :

— آه .. أيها الوحش القذر ! أوقفوه !

وأعقب ذلك هبوط سريع على السلم في الطبقة السفلى وصوت يصيح بجنون :

ــ ميتكا .. ميتكا .. ميتكا .. ميتكا .. ميتكا .. ليأخذك الشيطان .

وأعقبت الصرخات زمجرة مريعة استمرت حتى بلغت الساحة الخارجية ثم عاد السكون وفي نفس الوقت انبعث عدد من الرجال يتحدثون بأصوات مرتفعة وراحوا يصعدون بضجيج وصخب.قدر راسكولنيكوف أن يكون القادمون ثلاثة أو أربعة وغمغم « لقد أتوا » وبيأس واستبسال اتجه نحوهم وهو يقول لنفسه : ليكن مايكون ! فأنا ضائع سواء أوقفوني أو تركوني أمر لأنهم سيذكروني حتما !

لم يبق بينه وبين القادمين إلا طبقة واحده وفجأة لاح له الخلاص ... رأى على مقربة منه الى اليمين مسكناً خالياً تماماً وقد ترك بابه مفتوحاً عرف فيه المسكن الذي يقوم العمال بترميمه وأدرك أن أولئك العمال هم الذين خرجوا منذ قليل يتحدثون بأصوات مرتفعة وبدا له كأنهم تعمدوا ترك الباب مفتوحاً ليتيحوا له مجال الاختفاء . وكان أرض المسكن ملطخاً بالجير وفي وسط الغرفة صفيحة والى جانبها فرشاة كبيرة ووعاء فيه أصباغ . وبسرعة البرق انسل راسكولنيكوف الى الداخل والتصق بالجدار .ولم يكد يتوارى حتى وصل القادمون الى مكانه واستمروا يصعدون الى الأعلى وهم يتحدثون . وانتظر بضع ثوان ثم هبط مسرعاً فلم يجد أحداً في طريقه حتى بلغ الباب الرئيسي فنفذ منه الى الشارع .

كان يعرف أنهم في تلك اللحظة قد بلغوا مسكن العجوز وأنهم ذهلوا امام الباب المفتوح الذي كان منذ لحظات مستعصياً عليهم ورآهم بعين الخيال يتأملون الجثتين خلال دقيقة وانهم توصلوا اخيراً الى الادراك بان المجرم كان منذ قليل وراء هذا الباب المغلق وانه نجح بوسيلة ما في الاختفاء والفرار تحت انوفهم . ولعلهم اهتدوا كذلك الى انه توقف لحظة في المسكن الخالي حينما كانوا يصعدون

الى الطبقة الرابعة ... لكنه ما كان يجرأ على حث خطاه رغم انه كان على بعد مائة خطوة من المنعطف الاول . كان يتساءل : « ماذا لو تسللت خلال احد المداخل واختفيت تحت واحد من هذه السلالم في بيت من هذه البيوت المجهولة » ؟ كلا ! سوف يؤذيني ذلك. اذاً هل التي بفأسي في مكان ما ؟ هل أستقل عربة ؟ كلا ! يا للتعاسة ! الويل الويل !

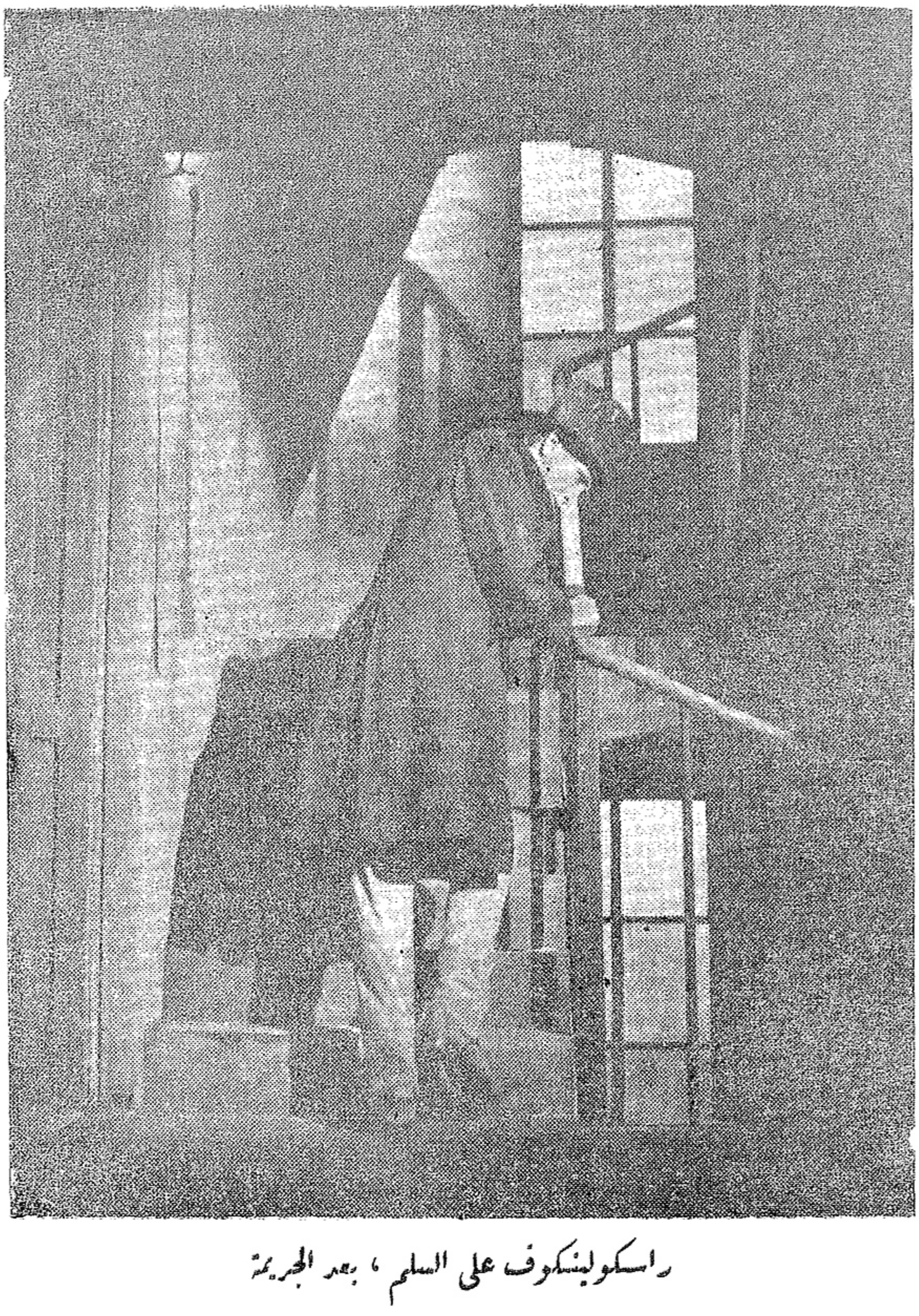
واخيراً مر بزقاق فانعطف فيه وهو يكاد ان يموت من الذعر . كان حاله يوحي بالشك وينطق به . لكن الازدحام كان شديداً فضاع فيه كما تضيع الذرة في صحراء من الرمل. وبلغ من انفعاله واضطرابه انه كان يسير على قدميه بمعجزة . وكان العرق يغمر وجهه ويتصبب على عنقه حتى انه سمع بعضهم يهتف به حينما بلغ مدخل القنال :

— « يبدو لي انك جلد جم المقاومة » !

راح يهدا اضطرابه كلما اوغل في السير ولما بلغ الرصيف رُوّع اذ راى عدداً قليلاً من الناس هناك وخشي ان تكون ملاحظته اسهل بين هذا العدد القليل وود لو رجع إلى ذلك الزقاق المزدحم. واخيراً بذل مجهوداً خارقاً وقام بدورة وصل بعدها الى منزله عن طريق آخر .

لم تكن افكاره هادئة تماماً حينما تخطى مدخل البيت لذلك فانه لم يتذكر الفأس إلا عندما بلغ السلم وعندئذ فقط تذكر ان عليه إعادتها الى مكانها بسرية تامة. ولم يستطع إقناع نفسه بجواز التملص منها كيفما اتفق دونما حاجة الى اعادتها الى مكانها لان فكرة استبقائها زمناً آخر بانتظار القائها في باحة منزل مجهول عندما تسنح الفرصة لم تكن تعجبه .

وهنا تدخل القدر ايضاً لأنه راى باب كوخ الحارس مغلقاً فاتجه نحوه دون تفكير ولا تدبر ودفع الباب برعونة حتى ان الحارس لو كان في مكانه وسأله عما



راسكولنيكوف على السلم ، بعد الجريمة

يريد لما زاد على أن يقدم له الفأس دون أن يتفوه بحرف واحد . لكن الصدف أرادت أن تضيف إلى ملابساتها العجيبة فصلاً جديداً فلم يكن الحارس في كوخه. وهكذا أتاحت له أن يعيد الفأس إلى مكانها بين قطعتي الخشب كما وجدها بل وأكثر من ذلك : استطاع أن يبلغ غرفته دون أن يقابل أحداً لأن باب المطبخ « العتيد » كان مغلقاً ... وهكذا استلقى راسكولنيكوف بكامل ثيابه على « السرير » لا لينام بل ليستغرق في ذهول عميق حتى أنه لو دخل بعضهم غرفته لانتفض وانتصب واقفاً وهو يصيح ويرتعد .

كانت صور وخيالات وأفكار مبعثرة مشوهة تحتدم وتصطخب في رأسه لم يوفق في تمييز شيء منها ولم يستطع الأخذ بواحدة منها رغم الجهد العنيف الذي كان يبذله .

القسم الثانى

الفَصلُ الأوّل

ابث مستلقياً وقتاً طويلا .. وكان يبدو أحياناً متنبهاً يدرك أن الليل قد أقبل وأن قسما منه قد لُف في حساب الزمن ، لكنه ما كان يفكر في النهوض.. وأخيراً بدا له أن النور يعم الغرفــة وأن النهار قد أقبل ، فلبث في ذهوله مستلقياً على « السرير » ووجهه إلى الأسفل ، بينما صكت أذنيه زمجرات مريعــة صادرة من الشارع ... كانت تلك الزمجرات مألوفة لديه من قبل لأنها أصوات السكارى الذين يخرجون من الحانات صاخبين ... خمن أن الساعة قد جاوزت الثانية صباحاً ... وقفز فجأة من « السرير » وكأن يداً انتزعته منه وهتف : « كيف ؟ الساعة الثانيــة ؟.. » وجلس مستغرباً وسرعان ما عادت به الذاكرة الى الوراء فوعى كل شيء .

خيل اليه في اللحظات الاولى أنه فقد العقل ، فسرت في جسده رعدة باردة من أثر الحمى التي بدأت تنهش عقله وجسمه كما كانت تفعل به من قبل ... واصطكت أسنانه حتى لكأنها تتحطم في فمه ... نهض الى الباب يفتحه ويصغي بانتباه فلم يسمع حركة ولا حساً ... وكل من في البيت مستغرق في النوم . سرح طرفه في غرفته وعاد ينظر إلى نفسه واستغرب كيف أغفل إغلاق باب غرفته من الداخل بالمزلاج عندما آب من جولته ... وكيف سمح لنفسه بالارتمــاء بكامل ثيابه على «الديوان» دون أن يخلع حتى قبعته ! نظر إلى القبعة فاذا بها قد انحدرت عن رأسه لتستقر على الأرض حيث كانت « وسادته » وتمتم على عادته القديمة : « لو أن أحداً دخل غرفتي ماذا كان حري به أن يظن ؟ سيقول أنني ثمل ولكن ... » .

هرع الى النافذة وراح يتفحص ثيابه بدقة على الضوء القوي الذي كان يتدفق

خلالها . لكنه سرعان ما استسخف الطريقة التي يسلكها ... فنزع ثيابه وهو يرتجف ليقوم بالفحص اللازم . لم يترك ثنية إلا وبحث خلالها ، ولا طيــــة إلا وسواها وبحث فيها وأعاد الفحص مثنى وثلاثاً .. دون أن يجد لطخة واحدة باستثناء بضع نقاط تجمعت أسفل كم سرواله ، فأخذ سكيناً كبيراً من النوع الذي يطوى وقطع ذلك الجزء من الثوب وهكذا بدا كأن كل شيء قد اختفى ...

تذكر فجأة حافظة النقود والأشياء الأخرى التي أخذها من صندوق العجوز والتي كانت في تلك اللحظة تملأ جيوبه ! لم يكن قد فكر في إخراجها والتخلص منها بل إنه لم يفكر فيها منذ قليل وهو يتحرى ثيابه ! كيف ذلك ؟ هل هـذا معقول ؟ وبلمحة خاطفة ، بادر إلى انتزاعها من جيوبه والقائها على المائدة ثم قلب بطانة جيوبه خشية أن يبقى فيها شيء لم يعثر عليه وحمل ما تراكم لديه منها إلى زاوية من الغرفة ... وفي تلك الزاوية من الجدار ، كانت بعض القطع من سجاد الزينة معلقة وقد بليت وحال لونها حتى بات وجودها لوناً من الوان البؤس الذي تفيض به الغرفة ، فحشر تلك الأشياء في ثغرة وراءها تحت الورق الباهت الذي يزين الجدار وتمتم : « هكذا ... لن تُرى ولن تُعرف ... وسألحق الحفظة بها » .

شعر براحة بال وعاد يتأمل المكان الذي أخفى فيه مسروقاته ولم يلبث أن هتف : ـ « يا إلهي ... ماذا فعلت ؟ هل يسمى هذا « مخبأ » ... أهكذا يخبئ المرء ما يريد ؟ » ... والحقيقة أنه لم يكن قد فكر في غير المسائل النقدية لذلك لم يكلف نفسه عناء البحث المسبق عن المخبأ المناسب . واسترسل يدمدم :

ـ « لكن الآن ... نعم الآن ؟ هل لي أن أغتبط بهذه النتيجة ؟ هل هكذا تخفى الأشياء ؟ لاشك أنني فقدت العقل ! » ..

ولما أعياه التفكير ، عاد إلى « السرير » مرة ثانية يجلس عليـــه وعادت القشعريرات القاسية تهز جسده ... وبحركة آلية ، جذب اليه معطفه القديم الذي

كان ملقى على « كرسي » هناك وتدثر به ، واستحوذ عليه الذهول فراح في بحران عميق وهو بين النوم واليقظة وفقدان الحس ! لكن ذلك لم يدم طويلاً إذ لم تمض دقائق معدودة حتى انتفض من جـــديد وانحنى بارتياع يفحص ثيابه ؛ وزمجر خلال أسنانه المطبقة يقول :

— « كيف أسمح لنفسي بالنوم وأنا لم أنته من عمل شيء ؟ لاشك انني لم انته من شيء ... نعم لاشك ! وكيف أزعم ذلك وأنا لم أرفع « الانشوطة » من مكانها من المعطف ؟ » .

انتزع « الانشوطة » ومزقها قطعاً صغيرة وأودع القطع « وسادته » وهـــو يتمتم : — « كيف غفلت عن هذا ؟ كيف غفلت عن هذا الأمر ؟ أما هذه القطع الممزقة من القماش فانها لن تثير الآن أية شبهة ، أو على الأقل هذا مايبدو لي ... نعم كذلك يبدو لي » ووقف في وسط الغرفـــة وهو يجيل حوله نظرات محمومة واجفة فلم يترك الأرض ولا الجدران إلا وتفحصها بدقة ليتأكد من أنه لم ينس شيئاً .

كان شعوره بأن كل شيء بدأ يخونه حتى الذاكرة ، يؤلمه أشد الألم ويزيد في تعذيبه ؛ فدمدم مروعاً : « ماذا ... هل يعقل أن يبدأ ذلك ؟ هسل يعقل أن يكون العقاب قد بدأ يدب ليعمل عمله ؟ ويلاه ... هاهو !.. هاهو !.. انه هو ..» كانت القطع الممزقة التي فصلها عن سرواله والتي كانت آثار الدماء عالقـــة فيها ، ملقاة باهمال على الأرض عرضة لأنظار أي داخل متطفل ! لذلك لم يتمالك أن هتف وهو فريسة القلق القاتل : « ماذا جرى لي ؟.. ماذا حصل لي ؟ » .

خطرت له فكرة غريبة في تلك اللحظة : لعل تلك الثياب كلها ملوثة بالدماء دون أن يلاحظ — هو — ذلك ؛ أم لعله لم يتمكن من العثور عليها نظراً لحواسه الضعيفة الفانية وتفكيره السقيم القاتم ! وفجأة تذكر أن حافظة النقود ملوثة هي الاخرى بالدم . فناجى نفسه قائلاً : « ...وعلى ذلك فان الدم ينبغي أن يكون قد

علق في جيبي كذلك لأن الدماء لم تكن قد جفت عليها حينما أودعتها جيبي ! » ..
وقرن القول بالفصـــل فقلب بطانة جيبه وإذا عليها آثار واضحة من الدم فهتف : « إذن ... لم يهجرني التفكير السليم تماماً ... لازلت أمتلك قواي العقلية وحرية تفكيري وإلا لما توصلت الى هذه الاستنتاجات ! » .وندت عن صدره زفرة فرح وغبطة وراح يتذوق هذا الانتصار المبين ويحدث نفسه بقوله : « لم يكن ماشعرت به من قبل إلا الضعف الذي تحدثه الحمى ... كان لحظة ذهول فحسب » . ونزع بطانة الجيب الأيسر كلها ! وفي تلك اللحظة نفذ شعاع من الشمس خلال النافذة وسقط على حذائه الأيسر ... كانت بعض الآثار تبـدو على مقدمة الحذاء ... فتمتم : « إن مقدمة حذائي كلها مغموسة بالدم » ... أي أنه في لحظة شرود ، وطأ بقدمه بركة الدم هناك ! وزمجر بانفعال يقول : « ما العمل الآن ؟ كيف أتخلص من هذا الآن ؟ كيف أتخلص من هذا الجزء من نعل الحـذاء ومن بطانة الجيب ومن قطع السروال الملوثة ؟ » .

جمع تلك الأشياء كلها وحملها في يده ووقف منتصباً في وسط الغرفـة يجيل الطرف حوله مستطلعاً منقباً وراح يتساءل : « أفي المدفأة ؟ ولكنهم سيبحثون فيها قبل كل شيء ! أأحرقها ، ولكن كيف وبأي شيء وأنا لا أمتلك ثقاباً ! كلا ... الأفضل أن ألقيها بعيداً ! » . وعاد الى « الديوان » يجلس عليه واسترسل يقول : « ولكن الآن ... فوراً ... ودون تأخير ! » لكن رأسه سقطت مجـــدداً على الوسادة يثقلها المرض والتعب والانهاك ومن جديد أحس بالرعدة المتجمدة الاليمة تجتاح جسده المتداعي ... ومن جديد جذب معطفه اليه يتدثر به . واستمر وقتاً طويلاً فريسة فكرة واحدة تضرب على أعصابه باستمرار والحاح . فكرة التخلص من تلك الآثار بأسرع مايمكن ... كانت تتجسد أمام ناظريه وفي خياله وتحدثه قائلة : « فوراً ... فوراً ... » .

حاول مراراً أن ينهض من « السرير » ولكنه كان يخفق في كل مرة . وسمع فجأة قرعاً عنيفاً على الباب وصوتاً مزمجراً يقول :

— افتح ... هل أنت ميت ؟ نعم أم لا ؟ انت لاتحسن إلا النوم ... إنه ينام اياماً كاملة كالكلب ! هيا افتح ... لقد تجاوزت الساعة العاشرة !

كان المتحدث ناستاسيا المخيفة ... ناستاسيا فحسب ! وسمع صوتاً آخر يقول :

— لعله ليس في غرفته !

فانتفض راسكولنيكوف وقال يخاطب نفسه : « اللعنـــة ... هذا صوت الحارس ! ترى ماذا يريد ؟ » شعر أن قلبه يكاد أن يبلغ فمه .. وقالت الخادم مزمجرة تجيب على تعليق الحارس :

— ومن الذي أغلق الباب بالمزلاج إذن ؟ أرأيت هذا ؟ انه يحبس نفسه الآن! هل يخشى أن يخطفه أحد ! هيا افتح ...استيقظ أيها « اللوار »(١) .. استيقظ .

خاطب راسكولنيكوف نفسه قائلاً : « ماذا يريدون ؟ لماذا الحارس ؟ لقد اكتشف كل شيء ! هل أقاوم أم أفتح ؟.. ليذهبوا إلى ... »

ونهض قليلاً وانحنى نحو الباب فرفع المزلاج ... كانت غرفته من الضيق بحيث تسمح له أن يمحل ذلك دون أن يبارح مكانه ! ورأى أمامه الحارس وناستاسيا منتصبي القامة !

تفحصته ناستاسيا بنظرة غريبة أما هو فقد نظر الى الحارس نظرة ملؤهـا التحدي واليأس ! فمد هذا يده إليـــه وفيها ورقة سمراء مطوية ومختومة بالشمع الأحمر ! وقال وهو يسلمها اليه :

— إنها دعوة جاءت من الدائرة !

---

(١) — اللوار حيوان قارض ، يختفي طيلة الشتاء ويقتات بالبلوط يضرب به المثل لمن ينامون نوماً عميقاً .. — المترجم

— اية دائرة ؟

— من دائرة الشرطة ! إنهم يطلبونك ... ألا ترى انها من دائرة البوليس!

— البوليس ولمَ ؟

— لست أدري ! إنهم يدعونك فاذهب اليهم !.. ونظر اليه باهتمام والقى نظرة شاملة على المكان ثم انصرف .

قالت ناستاسيا دون أن تفارقه بنظرها :

— ألست منحرف المزاج ؟ إن آثار الحمى بادية عليك منذ البارحة !

فلم يتحرك ولم يجب ، لكنه فض الدعوة التي سلمها اليه الحارس دون أن يلقي نظرة على مافيها بينما أردفت ناستاسيا وقد لانت لهجتها بعض الشيء وظهرت إمارات الشفقة على وجهها : — حسناً ... لاتنهض ... وإذا كنت مريضاً فلا تذهب إلى دائرة الشرطة فليس في الامر مايستدعي العجلة .. ماهذا الذي في يديك ؟

نظر الى حيث أشارت فرأى قطعة السروال الملوثة والجزء الذي انتزعه من « نعل » حذائه و ... بطانة الجيب الملوثة ! كان لازال محتفظاً بها في يده وقد نام وهي في يده لم يفلتها ! لم يفعل شيئاً ... بل ضغط بشدة على تلك الأشياء في يده وارتمى على فراشه وهو بين الموت والحياة ... كانت الحمى تنهش جسده ومقاومته تضعف باستمرار . بينما استرسلت « ناستاسيا » تقول :

— أرأيت الى هذه الخرق والتفاهات يجمعها وكأنها كنز ثمين ! والأدهى من ذلك أنه ينام وهو ممسك بها ! وانفجرت في ضحكتها المكتومة وراح جسمها يهتز ويرتعد ويتلوى على الأثر !

أخفى راسكولنيكوف تلك « التفاهات » تحت معطفه بسرعة شأن البخيل الذي يدافع عن ثروته وحدجها بنظرة عميقة نفاذة ... شعر وهو في شبه غيبوبة أن الأمر ليس خطيراً كما توهم لأنه لايعقل أن يعامل امرؤ يراد توقيفه وسوقه

بهذا الشكل ! وسمع « ناستاسيا » تخاطبه وكأن صوتها صادر عن مكان سحيق :

ـ ألا ترغب في قدح من الشاي ؟ سوف آتيك بقدح إذ لا زال بعضه في الاناء !

فدمدم دون ان يعي :

ـ كلا ... سأذهب ... اريد ان اذهب الى هناك ... الى الدائرة فوراً ... وهمّ بالوقوف . فخرجت دون ان تضيف كلمة واحدة .

هرع الى النافذة يعاين قطعة « النعل » والخرق الملوثة وقال : « إنها ملطخة ولا شك ، ولكنها غير واضحة المعالم والفضل يعود الى الاحتكاك والطين اللذين جعلا اللون حائلاً ... وهكذا فان « ناستاسيا » لم تميزها عن بعد ! حمداً لله ! » ثم ادنى « الدعوة » من عينيه وراح يقرأ ... لبث يقرأ ويمعن برهة طويلة حتى فهم . كانت دعوة عادية جداً من مكتب مدير شرطة الحي « قوميسير » يطلب اليه فيها المثول في القسم في التاسعة والنصف من ذلك النهار !

اخذ يسأل نفسه قائلاً : « ما معنى هذه الدعوة ؟ انا شخصياً لا تربطني علاقات مع رجال الشرطة ... ثم لماذا اليوم بالذات ؟ »

ثم انه يجثو على ركبتيه مبتهلاً إلى الله ان يلهمه الرشد والسكينة من ذلك القلق المميت الذي استولى عليه ... وتلاعبت على شفتيه ابتسامة لم يكن مبعثها الرغبة في الصلاة بل الدوافع التي سولتها له . ارتدى ملابسه على عجل وهو يتمتم : « اذا خسرت نفسي فسحقاً ... نعم لا يهمني ان اضيع ولا يمكن إلا ان البس في قدمي هذا الحذاء ولسوف تضمحل كل الآثار عندما يزداد اتساخاً ! » لكنه لم يكد يدخل قدمه فيها حتى سحبها باشمئزاز وهلع . بيد انه فكر انه لا يملك زوجاً آخر ، فعاد يضحك وهو يتمتم : « لن يحصل شيء ... ها قد لبسته في قدمي »... وفرغت منه » ! شعر ان ساقيه لا تحتملانه فدمدم مستنتجاً : « انه الخوف » . واعقب وهو يشعر براسه تدور وبمعالم الأشياء تغيب عن ناظريه : « إنها خدعة !

إنهم يتذرعون بالمكر ليستدرجوني ثم ينالون مني نيلاً وضيعاً » . وتمالك نفسه بجهد خارق واتجه نحو السلم يهبطه وهو يقول : « المزعج في الأمر أنني في حالة هذيان أو مايقربها ... وقد أفلت بعض الحماقات عفواً »

فكر وهو في طريقه إلى السلم بالمسروقات التي خبأها في تلك الثغرة من الجدار فغمغم : « لعلهم ينتهزون فرصة غيابي للقيـام بتفتيش دقيق في حجرتي » . غير أنه هز كتفيه دلالة على اليأس والاستسلام للمصير وتابع طريقه وهو يقول : «ايفعلوا مايبتغون علي أتخلص من آلامي ! »

كانت الحرارة في الطريق لاتحتمل كالعادة لأن السماء شحت في تلك الأيام الثلاثة الماضية فلم تهطل قطرة واحـــدة من المطر ... وعاد منظر الجير والآجر والقرميد يصافح عينيه ويحدث في نفسه ذلك الأثر المقبض حتى أنه شعر بالدوار... كذلك نفذت الى أنفه رائحة العفن وأبخرة الحانات القذرة وعاد يصطدم بالسكارى في كل خطوة وحول كل منعطف ! وهكذا عادت اليه أعراض الحمى كعادته كلما خرج في نهار شديد النور قوي الحرارة .

وصل إلى المنعطف الذي سلكه أمس في ذهابه والقى نظرة قلقـــة نحو ذلك « البيت » ثم حول أبصاره وجهة أخرى . وغمغم يتساءل بوجل : « أتراني أعترف إذا سألوني في دائرة الشرطة ؟ » .

كانت دائرة البوليس على بعد ربع « فيرست » (١) من محل إقامته في الطبقة الثالثة من بناء حديث جداً . وقد أتيح لراسكولنيكوف أن يزور دائرة البوليس في مركزها السابق قبل أن تنقل الى المركز الجديد ... أما هذا المركز فلم تكن لديه أية فكرة عنه .

اجتاز المدخل العام فاذا بسلم إلى يمينه كان يهبط عليه في تلك اللحظة واحد

---

(١) فيرست : ١٠٦٧ متراً . المترجم

من « الموجيك » وبيده كتاب . فغمغم : « لعله الحاجب وعلى هذا فان المكتب هنا» . صعد السلم شارداً دون أن يحاول الاستفسار عن وجهته من أحد .

قال يخاطب نفسه : « سوف أدخل وأركع على ركبتي وأعترف بكل شيء !» .

كان السلم ضيقاً وشديد الميل مليئاً بالماء القذر تفضي عليه مطابخ المساكن كلها التي تعمر بها « أدوار » البناء الثلاث وتبقى أبوابها مفتوحة طيله النهار فتنتشر منها روائح مزعجة . وكان الحجاب لا يفتأون يصعدون ويهبطون وسجلاتهم تحت آباطهم ورجال الشرطة يعج بهم المكان بالاضافة إلى عدد كبير من الاشخاص من الجنسين وكل ينتظر دوره ؛ وكانت الحرارة خانقة في الداخل يزيد في ضغطها رائحة الزيت التي كانت تنتشر من الغرف حديثة الطلاء حتى ليحس المرء بالغثيان. انتظر راسكولنيكوف لحظة وآثر بعدئذ الانتقال الى الغرفة المجاورة . كانت غرف البناء كلها صغيرة منخفضة ... شعر بلهفة لاتقاوم تدفعه إلى استباق الزمن وبلوغ غرفة المدير ليطمئن الى السبب الذي دعي من أجله . فلما دخل الغرفة الثانية شاهد نفراً من الكتبة منكبين على دفاترهم . ولم تكن ملابسهم أفضل من ملابسه سأله أحدهم قائلاً :

ـــ ماهي حاجتك ؟

أبرز راسكولنيكوف تذكره الدعوة فلما قرأها الكاتب قال له :

ـــ أنت طالب علم ؟

فأجاب : ـــ نعم طالب علم سابق .

تفحصه الكاتب بنظرة لاتنطوي على شيء من الضجر أو الحقد . كان رجلاً أشعث الرأس بشع المنظر ذا نظرة ثابتة متحجرة ؛ أشار بيده الى الغرفة الأخيرة في الممشى وقال :

ـــ اتصل بأمين السر هناك .

اتجه راسكولنيكوف نحو الغرفـــة الرابعة والأخيرة ، وكانت ضيقة تعج بالمراجعين . كان الحاضرون أفضل حالاً ممن شاهـدهم حتى تلك اللحظة في تلك الدار وكان بينهم سيدتان إحداهما ترتدي ملابس الحداد متجهة بوجهها نحو أحد الكتاب تملي عليه أقوالها . أما الأخرى ــ وكانت ضخمة الجسم ذات وجه زاهي اللون تشوهه لطخات من أثر مرض جلدي ،مفرطة الزينة تتدلى على صدرها حلية « بروش » تشبه الاناء ــ فانها كانت تجلس منفردة وكأنها تنتظر دورها . قدم راسكولنيكوف الرقعة لامين السر فنظر هذا اليها نظر سريعة ثم قال باقتضاب :

ــ انتظر ... وراح يتابـع الاهتمام بالسيدة ذات الملابس السوداء .

تنفس راسكولنيكوف الصعداء وهو يتمتم : « لاشك أن الأمر لاعلاقـة له بقصة البارحة ! » واستعاد شجاعته وروعه وصفاء ذهنه وحضور بديهيته . وتمتم محدثاً نفسه : « ان أية حماقة ، بل أن أية خطيئة مهما بلغت تفاهتها تقضي عليّ ... هم !.. من المؤسف أن لايكون هنـــا شيء من الهواء ... اكاد أختنق.والدوار يعاودني ... » .

شعر في أعماقه بانقلاب مريـع . . كان يخشى أن يفقد سيطرته على نفسه ! كان يحاول التمسك بشذرات أفكار قلقة تضيق بها رأسه ولكنه يخفق ! وكان اهتمامـه متجهاً إلى « أمين السر » ... كان يحاول أن يستخلص شيئاً إعتماداً على مظهره ، شيئاً يستهدي به ويرتكز اليه .

كان أمين السر شاباً في الثانية والعشرين من عمره ، ذا وجـــه أسمر يبدو أكبر سناً من حقيقته ، مرتدياً ثيـابه على أحدث طراز وبشيء من الأناقة ، ذا شعر مموج مضمخ مفروق في الوسط حتى مؤخرة الرأس « يلمع في أصابعه » عدد من الخواتم وله يدان نظيفتان دقيقتان ، وتتدلى من جيب صدارته سلسلة ذهبية . سمعه يتبادل مع أحد الأجانب كان يجلس بالقرب منه حديثاً باللغة الافرنسية ولاحظ

أنه يتكلم بطلاقة ! وفجأة قال أمين السر موجهاً حديثه للسيدة البدينة :.

ــ هلا جلست يالويز ايفانوفنا !

فجلستوسط حفيف ثوبها الحريري ذي اللون الصارخ بعد أن كانت واقفة لاتحاول الاقتراب من « الكرسي » القريب منها . وانتشرت ذيول الثوب الموشاة « بالدانتيلا » في شبه دائرة كبيرة وصلت إلى منتصف الغرفة بينما تضوع عنه شذى عطر نفاذ . بدت السيدة مرتبكة بعض الشيء لاشغالها هذا الفراغ الكبير بثوبها الازرق السماوي وعبرت الابتسامة الباهتة التي ارتسمت على شفتيها تعبيراً واضحاً عما يعتلج في نفسها من انفعالات ... وفي تلك اللحظة انهت السيدة ذات الثياب السوداء من عملها ونهضت تهم بالخروج فاذا بجلبة ترتفع وضابط في هيئته مايوحي بالشجاعة يدخل الغرفة وهو يمشي محركا كتفيه بحركة وتيرة تتناسق مع خطاه . القى الداخل قبعته المزينــــة بالاشرطة على المكتب وجلس على « اريكة » . نهضت السيدة البدينة باحترام حينما شاهدت الضابط وانحنت أمامه انحناءة عميقــة محيية فلم يكترث لها ولم يعرها التفاتة ولم تجرأ هي بدورها على الجلوس في حضرته فظلت واقفة . كان ذلك الضابط معاون رئيس القسم ذا شاربين كبيرين أشهبين يبرزان أفقياً على جانبي وجهه وتقاطيع دقيقة تعبر عن شيء من الخشونة والتكبر . نظر الى راسكولنيكوف باحتقار ، وكان على حق إذا حكم على المظهر لأن راسكولنيكوف كان زري الملابس الى جانب الارتباك والخجل اللذين لاحا عليه فكان مظهره الخارجي لايتلاءم مع المستوى في تلك الغرفة . وشاء سوء حظ راسكولنيكوف أن ينظر بجرأة في عيني ذلك الضابط الذي شعر بنوع من الاهـانة لتلك النظرة وأدهشه وجود صعلوك في تلك الغرفة لايفكر في غض بصره أمام نظرته الصاعقة فصرخ يقول :

ــ ماذا تريد ياهذا ؟

فأجاب راسكولنيكوف بشكل ما :

ـــ لقد استدعيت بناء على طلب .

وبادر أمين السر الى القول متخلصاً من أوراقه .

ـــ انه هنا بصدد المطالبة بالمال : « إنه الطالب » !

ثم دفع نحو راسكولنيكوف دفتراً وأشار الى فقرة فيه وقال :

ـــ اقرأ هذا :

خفق قلب راسكولنيكوف فرحا وشعر براحة هائلة عميقة تفيض على نفسه . المال ؟ وأي مال ؟ اذاً ليست الدعوة بصدد « ذاك » .

كان هذا محور تفكير راسكولنيكوف . شعر بأن الحمل الذي كان يوقره قد ازيح عن كاهله . صاح به الضابط الذي استشاط غضباً دونما سبب وجيه :

ـــ واية ساعة حُددت لكم ياصاحب المعـــالي ؟ يطلب اليك ان تحضر في التاسعة وها نحن في العاشرة والربع .

لم يتمالك راسكولنيكوف نفسه فقد شعر بدوره بغضب مفاجئ يكتسحه ، غضب لم يترك مجالاً لاية رغبة اخرى فصاح بصوت مرتفع :

ـــ لم تعط إلي «الرقعة» إلا منذ ربع ساعة فقط . وإنه لمجهود مني ان احضر انا المريض المهموم .

ـــ لاتصرخ هكذا !

ـــ انا لا اصرخ ! انا اتكلم بهدوء اما انت ، فأنت الذي تصرخ ... وانا طالب ولا اسمح ان يُصرخ في وجهي .

ـــ اخرس ، إنك في محكمة وتلك سماجة بإحضرة السيد .

ـــ وكذلك انت في محكمة مع ذلك فانك تصيح في وجهي وتدخن لفافتك وإذاً فأنت تحتقرنا جميعاً .

شعر راسكولنيكوف بسرور بالغ وهو يتفوه بتلك الكلمات وكان أمين السر ينظر اليها باسماً . أما الضابط فقد زاد غليانه حتى أنه لبث برهة مشدوهاً ولما أسعفه النطق هتف بصوت غير طبيعي :

ــ هذا ليس شأنك . تفضل بالادلاء بافادتك التي تطلب منك . أره يا « الكسندر غريغوريفيتش » ! هناك شكايات ضدك . أنت لاتدفع ديونك مع ذلك فأنت تصيح وتحتج ...

ثم التفت الى أمين السر وقال :

ــ ماموضوع الشكوى ضده ؟..

فأجاب أمين السر مخاطباً راسكولنيكوف :

ــ إنه مال يطلب منك أن تدفعه سداداً لسفتجة وبناء على الطلب . فلك إما أن تدفع مع النفقات والغرامة الى آخره ، واما أن تصرح خطياً عن التاريخ الذي تستطيع الدفع فيه وبذات الوقت تتعهد بعدم مغادرة العاصمة وعدم بيع أو إخفاء شيء من ممتلكاتك قبل التسديد .أما الدائن فانه مخير بل ومجاز في أن يبيع ماتملك وأن يتصرف ضدك وفقاً للانظمة المرعية .

ــ ولكنني لست مديناً لأحد .

ــ ذلك ليس من شأننا . لدينا سفتجة موقعة بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلاً قدمتها السيدة « زارنيستين » أرملة أحد مساعدي الكلية وقد رفعت الأرملة « زارنيستين» تلك السفتجة إلى المستشار الحقوقي «تشيباروف» وهكذا استدعيناك لضبط أقوالك .

ــ ولكنها صاحبة مسكني ؟

ــ وماذا يهم أن تكون صاحبة مسكنك ؟..

كان أمين السر يتأمله وعلى وجهه ابتسامة مشفقة عطوف وقد التمعت فيعينيه

نظرة انتصار وكأنه يقول : « هذا غر وقد أرتج عليه » . ظل راسكولنيكوف واقفاً يقرأ ويسمع ويجيب أحياناً ، كل ذلك بشكل آلي . فهو لم يستطع الصمود لرد الفعل الذي حدث في نفسه : « هل كان يجدر استدعاؤه وإقلاقه من أجل هذه التفاهة ؟. سفتجة ... هل تستحق مثل هذه العناية » . كان يشعر شعوراً غريباً بأنه أفلت من خطر مريع وأنه أنقذ عنقه من النطع .وكان هذا كل مايمثل في خاطره . نعم .. لقد نجا دون أن يعمد الى توقــــد ذهنه واللجوء الى تدابيره واحتياطاته التي صممها ودون أن تطرح عليه أية أسئلة . لكنه في تلك اللحظـــة انتزع من خواطره بفعل ارعاد الضابط وصياحه . كان في هذه المرة — وهو لازال يعاني من آثار تحدي راسكولنيكوف له — يبحث عن ناحيـة أخرى يفثأ غضبه فيها ولم يجد غير « المرأة البدينة المتبرجة » التي كانت لاتزال تنظر اليه بابتسامة بلهاء منذ أن احتقرها عند دخوله .

صاح بها يقول :

— آه .. هذا أنت ؛ أنت أيتها الـ ... الـ ... ماذا حصل عنـــدك في الليلة الفائتة ؟ هه ؟ لقد عدت مجدداً وصمة في جبين الحي الذي تقطنين فيه وعدت الى إثارة عراك في الشارع ؟ إذاً خصام جديد وثمل ، لسوف أرسلك الى إصلاحية ولقد أنذرتك من قبـل ... أنذرتك عشر مرات وأفهمتك أنني لن أحتمل المرة الحادية عشرة وها أنت ذي قد عدت أيتها « الفاعلة التاركة » :

كادت الورقة التي في يد راسكولنيكوف أن تسقط على الأرض من الدهشة فنظر الى السيدة البدينة نظرة استغراب للمعاملة التي تلقاها دون أن تريم وأدرك فوراً أي نوع من النساء هي وبدت القصة له مسلية بعض الشيء فأصغى وفي نفسه رغبة في الضحك ... والانفجار مقهقهاً .فلقد كانت أعصابه كلها تهتز استجابة لهذه الرغبة . وكان أمين السر يحاول تهدئة الضابط « إليا بتروفيتش » وهو يعرف

سلفاً — لخبرته الطويلة به — أنْ تدخله لن يجدي وأن من العبث وضع حد لغضبة الملازم اذ انفجر مرجل ذلك الغضب . أما السيدة المتبرجة فقد بدأت ترتجف عندما بدأ الضابط الملازم يبرق ويرعد ولكنه — لعظيم دهشته واستغرابه — وجد أنها كانت تهدأ ويكسو وجهها الاطمئنان كلما ازدادت شتائم الضابط الملازم وسبابه قحة وعنفاً . بل انها ابتسمت له ابتسامة جذابة ولم تنحني أمامه منتظرة بفارغ صبر دورها في الكلام . ولما أراد الضابط أن يتنفس ليتابع حملته انتهزتها فرصة مواتية لتقاطعه بقولها :

— ياسيدي الرئيس (لاحظ كلمة الرئيس) لم يحدث عندي لاعراك ولامعارك ولا فضيحة . كل مافي الأمر نوع من الثمل وسأحدثك كيف وقع ذلك ياسيدي الرئيس ! انها ليست خطيئتي ... إن منزلي محترم ياسيدي الرئيس ! والرواد يتصرفون تصرفاً نبيلاً ياسيدي الرئيس ! ولم يحدث أبداً أبداً أن وافقت على حدوث فضيحة ... وقد جاءني ذلك الرجل ثملاً يترنح وطلب ثلاث زجاجات ثم رفع ساقيه في الهواء وراح يعزف بها على « البيان » فهل هذا تصرف نبيل في منزل شريف ؟ لقد أعطب « بياني » فقلت له ان تصرفه لايروق لي وعندئذ أخذ زجاجـــة وراح يضرب الموجودين بها على أقفيتهم ، فناديت الحارس «فورنيك» فجاء . وضرب الرجل «كارل» فخدش احدى عينيه وكذلك خدش عيناً لهنرييت وصفعني خمساً . وازاء هــــذا التصرف غير اللبق وخصوصاً في منزل محترم كمنزلي لم أتمالك أن استنجدت ياسيدي الرئيس ؟ فمضى الرجل الى النافذة المطلة على القنال وراح يزمجر كالخنزير الصغير حتى خجلت منه اذ كيف تجوز الزمجرة كالخنزير أمام النافذة ؟ في .. في .. في ..! جذبه كارل من معطفه ليرغمه على مغادرة النافذة وهنا — والحق يقال — مزق له ثوبه وعندئذ راح يصرخ ويحتج مطالباً بعطل وضرر قدره خمسة عشر روبلاً قيمة « فراكه » المزق وأنا لم أدفع له ياسيدي الرئيس إلا خمسة روبلات ثمناً لذلك الثوب ، كل هذا جرى في منزل محترم أحدث فيه هو هذه الفضيحة . وقد

هددني بأنه سيكتب ضدكم هجاء كبيراً وينشره في الصحف مدعياً أنه على اتصال بهما جميعها .

ـــ هيه !.. اذاً فهو كاتب ؟

ـــ نعم ياسيدي انه انسان خشن وجريء فوق ذلك لأنه لم يخش وهو في منزل شريف ..

ـــ هيا هيا هيا .. كفاني ماسمعت لقد قلت لك وكررت ...

وهنا تدخل أمين السر من جديد وهتف بالضابط « إليا بتروفيتش » معاتباً فنظر هذا اليه نظرة سريعة قابلها أمين السر بإيماءة من رأسه وتابع :

ـــ ... حسناً فيما يتعلق بك يالويز ايفانوفنا المحترمـــة فاليك كلمتي الأخيرة والمرة الأخيرة : اذا حدث أن وقعت فضيحة جديدة في بيتك المحترم فلسوف أصعدك بنفسى الى « سلة السلطة » (١) كما يقال باللغة الفصيحة . فهل سمعت ؟ اذاً انه أديب كاتب ذلك الذي قبل في « منزل محترم » خمسة روبلات لقـــاء ذيل « فراكه » .. مرحى لأولئك الكتبة ...

والقى على راسكولنيكوف نظرة احتقار وأردف :

ـــ أول أمس في حانة ، وقعت حادثة مع واحد من أولئك الأدباء فقـد تناول الطعام ورفض الدفع وهدد صاحب المطعم بهجوه في الصحف . وكان آخر على باخرة منذ ثمانيـة أيام فسبَّ وشتم بكل الكلمات عائلة من أرفع العائلات وأعرقها شرفاً : زوج وابنة مستشار في الدولة وكذلك طُرد واحد منهم منذ أيام من دكان حلويّ . هكذا هم هؤلاء الأدباء الكتاب الطلاب ... پوه !

وعاد الى السيدة يصيح بها :

ـــ أما أنت فارحلي من هنا وسأراقبك بعين لاتغفل فحذار حـــذار ! هل سمعت ؟

---

١ ـــ يقصد عربة السجن . المترجم

حيت لويز ايفانوفنـا وانحنت للحاضرين جميعهم بحركة رشيقة ! ثم اتجهت نحو الباب وهي تتراجع وتنحني تحاول الخروج . غير أنها اصطدمت صدمة عنيفة بضابط ذي وجه مشرق وضاء يزين وجهه سالفان أشقران ... كان ذلك الضابط هو « نيكوديم فوميتش » بالذات رئيس القسم « قوميسير » . فبادرت لويز ايفانوفنا الى الانحناء أمامه حتى كادت أن تلمس الأرض ثم غادرت الغرفة . أما الضابط فقد راح يقول بصوت ناعم لطيف يحمل معنى الود موجهاً حديثـــه الى مساعده إليا بتروفيتش :

ـــ لقد أثاروك مجدداً ياعزيزي اليا بتروفيتش ! نعم كنت ثائراً وقد سمعت من السلم . فأجابه اليا بتروفيتش وهو ينتقل من طاولة الى أخرى حاملاً أوراقـه معه ومحركاً كتفيه على عادته :

ـــ ما العمل ؟ انظر هذا : ان حضرة السيد كاتب ، طالب أو بالأحرى طالب سابق غير أنه لايسدد ديونه ، ويوقع على سفاتج ويرفض اخلاء المسكن فتنهال علينا شكايات مستمرة ضده واذا به يحتج لأنني أدخن لفافتي في حضرته ومع ذلك تمعن فيه : هذا هو في أروع بهائه !

غير أن نيكوديم فوميتش قال مقاطعاً :

ـــ إن الفقر ليس عيباً ياصديقي لكننا نعلم أنك من البارود لاتحتمل الأذية .

ثم خاطب راسكولنيكوف قائلاً :

أرى أنك أثرت حفيظته ولم تسيطر على أعصابك وقد أخطأت ياصاح لأن اليا بتروفيتش من زبدة الرجال وخيرتهم أؤكد لك ذلك .. إلا أنه ناري المزاج كالبارود يشتعل ويثور ثم يخمد ولا يبقى من ثورته شيء ! ان له قلباً من ذهب وقد أطلق عليه في الفرقة لقب « الملازم البارود » .

هتف اليا بتروفيتش وقد سره ثناء رئيسه وأرضى غروره :

— ويالها من « فرقة » تلك ...

شعر راسكولنيكوف باغراء ليقول شيئاً جميلاً مناسباً فوجد نفسه يقول بصوت واضح :

— العفو ياسيدي الرئيس ... لكن ضع نفسك مكاني ! مع ذلك فأنا على استعداد للاعتذار اليه اذا كنت قد غمطته حقه من الاعتبار . أنا طالب فقير مريض أنوء بالفاقة (وقد استعمل عامداً كلمة أنوء) نعم ... أنا طالب سابق لأنني اليوم لا أملك وسائل المعيشة اللازمة للاستمرار في الدراسة . لكن أمي وأختي اللتين تسكنان مقاطعة « إيكس » ... سترسلان إلي مالاً قريباً ولسوف أدفع . أما صاحبة المسكن الذي أقطنه فهي سيدة نبيلة أزعجها أن أخسر دراستي وأن أنقطع عن دفع ماعلي منذ ستة أشهر فامتنعت خلال هذه المدة عن تقديم الطعام الي ولست أفهم سبب هــــذه المعاملة ! وها هي ذي تعمر الآن على أن أدفع لها مستعينة بهذه السفتجة ، فاحكم بنفسك .

وتدخل أمين السر من جديد ليقول :

— لكن هذا ليس من شأننا ...

لكن راسكولنيكوف تابع حديثه دون أن يعبأ بملاحظة أمين السر :

— عفواً ، عفواً ، أنا من رأيك . ولكن دعوني من جانبي أشرح لكم : إنني أقطن عند السيدة « زارنيستين » منذ ثلاث سنوات وهــو الوقت الذي مضى علي هنا منذ أن تركت المقاطعة الــــتي جئت منها . وفي البداية ... أقصد في بادئ الأمر ... — ينبغي أن أعترف — بأنني بدوري وعدتها بأن أتزوج من ابنتها . كان وعــداً شفهياً فحسب لأن الفتاة كانت تعجبني رغم أنني لم أكن أعشقها وبكلمة واحدة اقول انه الشباب ! هذا مادعا صاحبة المسكن أن تقرضني بسخاء وكنت أعيش حياة وديعة مسلية ...

كان راسكولنيكوف يتحدث غير مبال بأمين السر . كان يخاطب نيكوديم فوميتش وحده ولقد أراد حيناً أن يشرك الملازم اليابتروفيتش في الحديث غير ان هذا تشاغل بفحص اوراقه معرضاً عنه باحتقار . ولما بلغ هذا الحد من كلامه قاطعه اليا بتروفيتش بجفاء قائلاً :

ـ لم نكن نطلب منك هذا التفاصيل الخاصة ايها السيد وليس لدينا الوقت للاستماع اليك .

فأوقفه راسكولنيكوف باشارة من يده وتابع قصته بحماس رغم ماشعر به فجأة من صعوبة في الاستمرار ...

ـ لكن لو سمحت ، ينبغي ان اطلعكم على سير الأمور بالترتيب رغم عدم نفع التفاصيل واهتمامكم بها . منذ عام توفيت تلك الفتاة متأثرة « بالتيفوس » ولبثت انا مستأجراً عند السيدة التي احتلت منذ ذلك الحين الشقة التي تقطنها الآن وقالت لي بتودد إن لها ملء الثقة بي لكنها ترجوني أن أوقع لها تلك الورقة التي أوردت فيها حسب تقديرها مجموع الدين الذي لها بذمتي وأردفت ـ بعد أن وقعت بناء على طلبها ـ بأنها ستستمر على إقراضي الوقت الذي أشاء وإنه يستحيل ـ نعم هذه هي الكلمة التي استعملتها ـ يستحيل أن تستثمر توقيعي على تلك الورقة بل إنها تترك لي الحق في أن أدفع متى أشاء ... والآن وقد أضعت دروسي وغدوت لا أملك ما أتبلغ به تأتي هي وتشكوني لماذا نطلق على هذا ؟

فقال له اليابتروفيتش بلهجة حاسمة مهينة :

ـ ان كل هذه التفاصيل الدقيقة الشخصية لاتهمنا أيها السيد إننا نطلب منك أن توقع على التصريح والتعهد فحسب . أما وإنك كنت عاشقاً أو غير عاشق الى آخر تلك الملابسات المؤسية فليس لنا إلا ...

فقاطعه نيكوديم فوميتش مغمغماً وهو يجلس وراء مكتبه يكتب وكأنه خجل

من تصرف مساعده :

ــ هيه ! أنت تقسو قليلاً .

وقال أمين السر مخاطباً راسكولنيكوف :

ــ اكتب !..

فسأل هذا بلهجة خشنة :

ــ وماذا اكتب ؟

ــ سوف أملي عليك .

لاحظ راسكولنيكوف أن أمين السر يعامله بمزيد من الاحتقار والاشمئزاز بعد اعترافه ذاك ولكنه كان يشعر في أعماقه باستهتار لما قد يتخذه غيره ضده من الاجراءات ويستخلصه من الاستنتاجات . وقد طرأ عليه ذلك التحول في خلال لحظة خاطفة حتى أنه لو فكر قبل أن ينطق بما نطق لاستنكر على نفسه تصرفها ولأدهشه اشراكهم في عواطفه ودخائله ،.. تلك العواطف التي لا يدري من أين جاء بها . كان يشعر في تلك اللحظة أنه لو استبدل من في الغرفة من رجال الشرطة بأصدقاء أعزاء على نفسه لما وجد في مقدوره أن يتلفظ بكلمة انسانية واحدة يعرب بها عن إحساساته حيالهم ... لقد غدا قلبه فارغاً تماماً وعاوده الاحساس القاتم بالوحدة .. الوحدة العميقة القاسية التي تنخر كيانه . لم يكن مرد ذلك الانقلاب النفسي دناءة الاعترافات العاطفية التي أوردها على مسامع اليابتروفيتش أو الانتصار البشع الذي سجله ذلك الملازم عليه ، فقد شعر بأن دناءته وغرائزه والضباط والآلام والسفاتج والدوائر وكل ماهناك لا يمكن أن يثير اهتمامه في شيء حتى أنه ما كان ليطرف بعينه استغراباً أو استنكاراً لو سمع أنهم يحكمون عليه باحراقه حياً . بل إنه ما كان ليلقي بالاً إلى ذلك الحكم لو صدر ، كان مايشعر به جديداً كل الجدة ، عاملاً خفياً لم يسبق له أن شعر بمثله من قبل .

عاملاً لم يفهمه بل شعر به فقط وأحس بتأثيره . إنه يدعوه بل يستصرخ إحساساته بأن لا ينبغي له أن يخاطب هؤلاء النـــاس ، هؤلاء الموظفين من الشرطة ليس في مشاكله وعواطفه كما فعل منذ حين فحسب بل في أي شيء حتى أنه لو استبدل هؤلاء الموظفون بأقرب وأعز أقربائه ، باخوانه وأخواته ، لما وجد في نفسه دافعاً الى مخاطبتهم .

وبينما كان فريسة لهذا الشعور المؤلم الذي لم يعهد بمثله كان أمين السر يملي عليه صيغة الاعتراف المعمول به في مثل تلك الحالات « لا أستطيع الدفع وأعد بالتسديد بتاريخ كذا . لن أبرح هذه المدينة ولن أبيع أو أمنح ما أمتلك الخ ..» ولاحظ أمين السر بفضول أن القلم قد سقط من يد راسكولنيكوف فهتف به :

ــ أرى أنك لن تستطيع الكتابة ! فهل أنت مريض ؟

ــ نعم إن بي دواراً ... استمر

ــ هذا كل شيء ، وقع بامضائك

وسحب أمين السر الورقـــة الموقعة وانصرف إلى أعمال أخرى بينما أعاد راسكولنيكوف القلم ولكن بدلاً من أن ينصرف أسند مرفقيه الى الطاولة وضغط رأسه بين يديه . كان يشعر كأن مسماراً قـــد غرس في جمجمته وأحس برغبة غريبة تدفعه الى القيام فوراً والاقتراب من نيكوديم فوميتش والاعتراف له بالتفاصيل الدقيقة ، عما عمل البارحة ، ثم مرافقته حتى مسكنه ليطلعه على الأشياء التي أخفاها في تلك الثغرة وراء السجادة المهلهلة . كان الاغراء عنيفاً حتى أنه نهض من مكانه لينفذ ماجال في خاطره . وحدث نفسه خلال ذلك الذهول العظيم : « أولا يجدر بي ان أمعن النظر دقيقة أخرى ؟ ولكن كلا ! من الأفضل ان اعمل دون ان افكر فأزيح هذا العبء الثقيل ! » وتسمر في مكانه برهة :

كان نيكوديم فوميتش يتحـــدث بحرارة الى اليابتروفيتش وبلغت مسامع

راسكولنيكوف العبارات التالية :

ــ ذلك لا يمكن ان يحدث ، سوف نطلق سراحها معاً لأن القضية معقدة متناقضة ولك ان تحكم بنفسك . لمَ يستدعيان البواب لو انهما فعلا ذلك ؟ ألكي يشيان بنفسيهما ام اغراقاً منهما في الخداع ؟ كلا ، ذلك لا يمكن ان يكون مكراً ! ثم إن ذلك الطالب « بيستر ياكوف » شوهد من قبل امرأة وبوابين قرب المدخل الرئيسي في اللحظة التي وصل بها وكان برفقة ثلاثة من اصدقائه ودعهم عند الباب طالباً اليهم الانتظار . ولقد استفسر عن العنوان بحضور اصدقائه فهل كان يعمل ذلك لو انه جاء ينفذ تلك الفعلة ؟ اما « كوخ » ذاك فقد امضى لصف ساعة عند بائع حلي في الشارع قبل ان يصعد إلى مسكن العجوز وكانت الساعة الثامنة الا ربعاً تماماً حين خرج من لدن الجوهري متجهاً اليها فاحكم الآن .

ــ لكن اسمح لي ، كيف يمكن ان تتناقض عباراتهما بهذا الشكل ؟ فهما يؤكدان انهما قرعا الباب فوجداه مغلقاً ثم بعد ثلاث دقائق عادا مع الحارس فوجدا الباب مفتوحاً .

ــ لاشك ان هنا نقطة السر ! فالقاتل باتاً كيد كان مختفياً داخل المسكن مغلقاً على نفسه الباب بالمزلاج لولا حماقة « كوخ » الذي انصرف من مكانـــه ليستدعي الحارس لاكتشفه حتماً . استطاع القاتل خلال هذه الفترة ان يهبط السلم وان يتسلل تحت انوفهم على شكل من الاشكال ثم ان « كوخ » كان يتول ملوحاً بيديه الاثنتين : لو انني لبثت هناك لخرج الي بغتة وقتلني بفأسه .

ــ مع ذلك لم يشاهد القاتل احد .

ــ وكيف يشاهدونه والبناء سفينة نوح حقيقية ؟..

كانت هذه الملاحظة صادرة عن امين السر الذي كان يصغي الى حديثهما بانتباه . واسترسل نيكوديم فوميتش بحرارة :

ـــ ان القضية واضحة ، واضحة !

غير ان اليابتروفيتش اصر على قوله :

ـــ كلا ! ان القضية ليست واضحة ابداً.

رفع راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب ولكنه لم يبلغه ... وعندما استرد وعيه رأى نفسه جالساً على « كرسي » والى جانبيه شخصان يمسكان به ليمنعاه عن السقوط وفي يد احدهما كأس فيها ماء اصفر اللون بينما كان نيكوديم فوميتش واقفاً امامه ينظر اليه بحـــدة . فنهض من مكانه وابتدره نيكوديم فوميتش بلهجة خشنة :

ـــ مابالك ؟ أأنت مريض ؟

وأعقب أمين السر قائلاً وهو يعود الى اوراقه :

ـــ كان لايكاد يضبط أعصابه حينما كان يكتب الاقرار حتى أن القلم كان يتحرك في يده بصعوبة .

وهتف اليابتروفيتش من مكانه وهو يرتب أوراقه :

ـــ أأنت مريض منذ بعيد ؟

فغمغم راسكولنيكوف :

ـــ منذ أمس .

ـــ لكنك لم تكن أمس في مسكنك . هل خرجت منه ؟

ـــ نعم لقد خرجت .

ـــ وأنت مريض ؟

ـــ نعم وأنا مريض ..

ـــ وكم كانت الساعة ؟

ـــ حوالي الثامنة مساء .

وأين ذهبت ؟ واسمح لي بسؤالك

— الى الشارع .

— يالها من اجابة قصيرة وواضحة

كان راسكولنيكوف شاحباً لاحيـــاة فيه وكان يجيب باقتضاب وبصوت مضطرب دون أن يغضي بطرفه أو أن يشيح بعينيه السوداوين الملتهبتين أمام نظرة اليابتروفيتش الذي قال بلهجة غريبة :

— لا ... بأس ... عليك ..!

وأراد نيكوديم فوميتش أن يضيف شيئاً غير أن أمين السر نظر اليه نظرة حافلة بشتى المعاني فصمت وسكت الباقون مما أدهش راسكولنيكوف خصوصاً عندما سمع اليابتروفيتش يقول :

— هيا لابأس لن نستبقيك أكثر من ذلك .

انسحب راسكولنيكوف واستطاع وهو في طريقه الى الباب أن يسمع احتدام الحديث بين الضابطين وأمين السر وبلغه صوت نيكوديم فوميتش يطرح بعض الأسئلة ولما بلغ الشارع استعاد هدوءه فهتف قائلاً :

« تفتيش ! تفتيش ! » لسوف يفتشون مسكني ، اولئـــك الأشقياء إنهم يشتبهون بأمري » وعاد الرعب يستحوذ عليه من رأسه حتى اخمص قدميه .

الفَصْلُ الثّاني

كان يتساءل : « ماذا ؟ ماذا يكون لو أن التفتيش قد وقع بالفعل ؟ سوف أرام حتما في غرفتي الآن »

لكنه بلغ غرفته فلم يجد فيها أحـــداً حتى ناستاسيا نفسها لم تكن قد مست شيئاً . هتف :

ـــ رباه ! كيف تركت كل هذه الأشياء في مخبئها ؟

هرع الى المخبأ فأدخل يده وراء السجادة المعلقة وأخرجها حاملة المسروقات ثم حشرها في جيبه وهو يعدها : ثمانية ، بينها علبتان صغيرتان تحويان أقراطاً للأذن أو شيئاً من هذا القبيل لم يحاول التدقيق فيه ، ثم أربع علب أخرى مغطاة بقماش « الماروكان » وسلسلة ملفوفـــة في ورقة انتزعت من صحيفة يومية وأشياء اخرى مشابهة ولعلها أوسمة ذهبية ملفوفة كذلك بورق الصحف . وزع هـذه الأشياء على جيوب معطفه والجيب الوحيد الذي بقي له فيسرواله ساعياً ان لا يظهر لها حجم واضح ثم اضاف اليها حافظة النقود وخرج من غرفته تاركاً بابها مفتوحاً على مصراعيه .

سار بخطى حثيثة متزنة رغم ضعفه وشعر بصفاء فيذهنه : كان يخشى تسللاً ، ويخاف ان يداهم او ان يُفتتح تحقيق معه خلال نصف ساعة او ربع ساعة وعلى ذلك فان عليه ان يخفي الأدلة الجرمية . نعم ، يجب ان ينتهي من كل هذا طالما انه يحتفظ ببعض القوة وصفاء الذهن ! ولكن الى اين يذهب ؟..

كانت هذه النقطة مبحوثة من قبل ومقررة : « سألقي بهذه الأشياء في القنال ولسوف تمضي هذه الأدلة الثبوتية الى المـــاء حاملة معها المسألة كلها ، تلك كانت

فكرته في الليلة السابقة عندما كان في ذهوله وهذيانه يهتف خلال لحظات الاشراق التي كانت تتخللها : « ينبغي الخلاص من هـذا بالسرعة الكلية » وبدت له القضية الآن اسهل مما كانت عليه بالأمس .

امضى ربع ساعة وربما اكثر وهـــو يذرع ضفة قنال « كاترين » ويعاين السلالم التي تهبط الى المرافىء المنخفضة كلما اتى واحداً منها . لكنه لم يفكر في تنفيذ مشروعه خلال ذلك الوقت لأنه كان يلتقي تارة بزورق واخرى بنسوة يغسلن الملابس ، او كان يصادف مراكب مثبتة الى الرصيف ؛ وكانت الأرصفة تعج بالناس والمكان مكشوفاً يصعب فيه اجتناب نظرات الفضوليين . سيكون غريباً ان ينحدر انسان عمداً وان يتوقف ليلقي بأشياء الى الماء ... ثم هل يعقل ان تغوص تلك العلب المصنوعة من القماش في الماء ؟ واذا طفت ـــ وهذا ماسيحدث ـــ فلسوف يراها كل الناس . بل ان كل من صادفهم حتى الآن كانوا يمعنون النظر فيه كما لو لم يكن لديهم مايشغلهم الا هذا . خاطب نفسه قائلاً : اليس هذا بفعل الوهم ؟ أهو حقيقة ؟

واخيراً خطرت له فكرة جديدة : ان يلقي بتلك الأشياء في مكان ما من « النيفا » ؛ فهناك سيكون الازدحام اقل ولن يلاحظ فعلته احد وستكون العملية أسهل لأنها بعيدة عن مكان الحادث . ادهشه ان يكون قد امضى اكثر من نصف ساعة فريسة للقلق والاضطراب وهو يطوف في تلك الأمكنة الخطيرة : كيف يضيع مثل هـــذا الوقت الثمين محاولاً تنفيذ مشروع جنوني بدا له خلال فترة ذهوله وهذيانه امس ؟ لاشك انه اصبح ساهماً شديد النسيان وهو يشعر بذلك .

توجه نحو نهر « النيفا » مجتازاً شارع « ف » ... وفي الطريق خطرت له فكرة اخرى : « لماذا في « النيفا » ؟ لمَ القي بهذه الأشياء الى الماء ؟ اوليس من الأصوب ان امضي الى اي مكان آخر بعيداً عن هنا ولنقل الجزر مثلاً ؟ لسوف

ابحث هناك عن مكان قصي منعزل في حرش مثلاً أو تحت شجرة ، وسأدفن كل هذه الأشياء بعد أن أميز الشجرة التي أخفي كنزي تحتها ؟ » وعلى الرغم من ايمانه بأن حالته لاتسمح له بالحكم على الأشياء حكماً مدروساً قوياً ، إلا أن تلك الفكرة بدت له قوية ومعقولة .

بيد أنه لم يبلغ الجزر . ذلك انه بينما كان ينطلق من شارع (ف) ... نحو الميدان، لمح الى اليسار ساحة محاطة بجدار من كل جهاتهـا ، والى يمينها مباشرة بعد باب مدخلها الرئيسي ، يرتفع جدار من الحجر المجرد لبناء ذي أربع طبقات . أما في الجانب الأيسر قبالة ذلك الجدار اعتباراً من المدخل الرئيسي ، فقد قام حاجز من الخشب بطول عشرين خطوة ينعطف فجأة . كان المكان قاحلاً وقـد ألقيت فيه أشياء كثيرة مهملة : وفي صدر الساحـــة برزت زاوية مرآب مشيد من الحجر المتسخ ، وخمن راسكولنيكوف أن هناك في مكان ما من تلك الفسحة تقوم دكان حداد أو قفال أو صانع عجلات بدلالة الغبار الأسود الذي ينجم عن الفحم والذي كانت الأرض مغطاة به ؛ فهتف يقول فجأة : « هذا هو المكان المناسب حيث ينبغي أن القي فيه بما معي والصرف » .

لم يشاهد أحداً هناك ،فتخطى المدخل ولاحظ بالقرب من الباب ميزاباً كالذي يشاهد مثله في أبنية المصانع والمعامل . وفي أعلى الميزاب غرست لوحة كتب عليها بالحكك : « ممنوع الوقوف هنا » . قدر راسكولنيكوف أنه لن يتبادر الى ذهن أي مخلوق أنه جاء الى هنا . فخاطب نفسه قائلاً : « سوف أتخلص من هذه الأشياء دفعة واحدة هنا وسأمضي بعد ذلك »

القى نظرة أخيرة على ما حوله وهو يغيب يده في جيبه ،فلاحظ قرب الجـدار الخارجي بين الباب والميزاب،حجراً كبيراً غير مصقول يزن عشرين رطلاً على أقل تقدير، مسنداً الى الجدار بمحاذاة الشارع .وكان الرصيف يأتي مباشرة وراء

الجدار، فتناهى الى أذنيه وقع خطوات. غير أنه لم ير احداً، وتأكد من أن احداً لن يستطيع رؤيته من الخارج الا اذا تخطى الباب، وهـذا محتمل، لذلك فان السرعة واجبة.

انحنى على الحجر يحتضنه من أعلاه بكلتي يديه. واستنجد بكل قواه حتى أزاحه من مكانه فاذا به يخفي حفرة غير عميقة التي فيها بما في جيوبه ووضع الحافظة فوقها دون أن تمتلئ وأعاد الحجر الى مكانه بعد أن سوى الأرض حوله ومحا كل الآثار التي قد تشي بما فعل، ثم ألقى نظرة أخيرة ليتأكد من حسن صنعه، فرأى أن الحجر لا يكاد يبدو عليه تبدل مركزه، وتأكد أنه من المستحيل تخمين مافعل.

خرج من الساحه واتجه نحو الميدان وهو يشعر بمثل ذلك الفرح الطاغي الذي استولى عليه منذ حين لما كان في دائرة الشرطة. هتف يناجي نفسه «لقد دفنت الأدلة الجرميه فمن.. من ذا الذي يخطر له أن يبحث عنها تحت ذلك الحجر؟ انه في مكانه منذ أن بنيت تلك الدار وسيبقى طويلاحيث هو. ولوافترضنا أن تلك الأشياء سوف تكتشف فمن ذا الذي يفكر فيّ أنا؟ نعم لقد انتهى كل شيء ولم تبق هناك أدلة» وراح يضحك وقد تذكر فيما بعد أنه ضحك بعصبية ضحكة طويلة مكتومة، وانه لبث يضحك طوال الوقت الذي استغرقه في اجتياز الميدان. ولما بلغ الى شارع «ك».... حيث التقى أول أمس بتلك الفتاة المخمورة، بتر ضحكته بل انها تلاشت وحل محلها تفكير من نوع آخر. خيل اليه فجأة أنه يشعر بدافع عنيف للمرور قرب ذلك المقعد الذي كان يجلس عليه لما انصرفت الفتاة، وخشي أن يقابل رجل البوليس ذا الشاربين الكبيرين الذي أعطاه ذلك اليوم عشرين «كوبيكا». وزمجر: الى الشيطان.

راح يمشي وهو يتلفت ساهما ذات اليمين وذات الشمال وتركزت أفكاره كلها في نقطة رئيسية أو على الأقل خيل اليه أنها رئيسية. رأى نفسه في تلك اللحظة

وحيداً أمام تلك الفكرة الرئيسية ، وحيداً لأول مرة منذ شهرين ، قال يحدث نفسه : « ليحمل الشيطان كل هذا . طالماأنني بلغت هـــذا الحد فلأبق حيث أنا وليحمل الشيطان الحيـاة الجديدة ، ورباه كم هو سخيف كل هذا !.. كم كذبت وتوسلت اليوم ! كم تصرفت بدناءة أمام ذلك البغيض اليا بتروفيتش ! لكن ماذا يهم ؟ لست أبالي بهم ولا أبالي بالتذلل الذي بدا علي أمامهم . ليس هذا مايشغلني . طبعاً ليس هذا »

توقف فجأة وقفز أمام عينيه سؤال جديد كل الجدة ،غير منتظر ومع ذلك بسيط غاية في البساطة،حيره وأربكه :

« لو ان كل ماوقع وحدث كان بدافع حقيقي وليس بسخف وغباء ، لو انه كان لديك هدف واضح مسطر محدود ،فكيف لم تلق حتى الآن نظرة واحدة على مابداخل الحافظة ؟ كيف تجهل ما عادت به عليك فعلتك ؟ كيف سببت لنفسك كل هذه الآلام وارتكبت تلك الفعلة البغيضة شديدة النذالة ولأي سبب ؟ كيف تبادر الى ذهنك منذ قليل أن تلقي بتلك الحافظة والحلي الى الماء وانت لم تكد تمعن النظر فيها ؟ مامعنى هذا اذاً ؟ »

هذه هي النقطة الرئيسية التي تركز فيهـا السؤال المحير الأليم . كان يعرف سلفاً انه حق وأن السؤال لايحمل شيئاً جـديداً يجهله : قرر التخلص من تلك الأشياء في الليلة الفائتة بالقائها الى الماء وكان يود لو نفذ ذلك دون تردد ولا إمهال . ولكن كيف اذا وجب عمل ذلـــك ــ وانه لواجب ــ كيف اذن فعل مافعل ؟.

كان يعرف كل هذه الأشياء ويتذكرها ، انتلك الفكرة ــ فكرةالتخلص من هذه الأشياء ــ راودته في ذات اللحظة التي كانت يده تمتد فيها الى صندوق العجوز القتيل تفتشه ؟..

ناجى نفسه بقوله : « ان السبب في كل ذلك هو المرض ، انني اعذب نفسي واكثر من ايلامها ولست أدري ماذا أعمل ... كذلك كنت أمس وأمس الاول وكل الوقت الذي كنت اتعذب فيه ... أما عندما أشفى ، فسأتخلص من هذه الآلام ! لكن ماذا يحصل لو انني لم أشف ؟ رباه كم أرزح تحت كل هذه الأعباء ! »

كان يمشي دون توقف وكان مشوقاً الى الترفيه عن نفسه بأي شكل كان، لكنه ما كان يدري كيف السبيل الى ذلك . كان هناك شعور غامض يشق طريقه الى رأسه ، شعور بالاشمئزاز نحو كل ما يحيطه وكل مايصادفه في طريقه ، شعور عميق وحشي حقود . كان المارة يبدون امامه بشعين بوجوههم وتصرفاتهم وحركاتهم يثيرون اشمئزازه . حتى لو ان احداً خاطبه لبصق في وجهه او لعضه باسنانه .

توقف فجأة عندما اشرف على رصيف نهر « النيفا » الصغير في جزيرة « سان بازيل» بالقرب من الجسر واذا به يحدث نفسه بقوله : « هنا يقطن في هذه الدار... لكن ما معنى هذا ؟ هاقد جئت الى حيث يقطن « رازوميخين » رغماً عني ... ان قصة امس تتكرر اليوم ... ان هذا غريب . اتراني جئت متعمداً ام هكذا صدفة ؟ مع ذلك لابأس لقد كنت اقول منذ ثلاثة ايام انني سأزوره بعد « الصفقة » والآن وقد تمت فسأذهب اليه. أم هل تراني لا استطيع زيارة احد ! »

صعد الى الطبقة الخامسة حيث يقطن (رازوميخين) وكان هـذا في غرفته مشغولاً بالكتابة فجـاء يفتح له الباب بنفسه. والتقى الصديقان اللذان لم يلتقيا منذ اربعة شهور . كان رازوميخين مرتدياً معطفاً منزلياً بالياً تماماً وقد وضع قدميه العاريتين في حـــذاء خفيف وترك شعره مشعثاً : كانت لحيته مهملة ووجهه غير مغسول . ارتسمت آيات الدهشة على ذلك الوجه وهتف وهو يصعد صاحبه بنظرة من راسه حتى قدميه :

ـــ كيف ! هذا انت ؟..

ثم اطلق صفيراً من شفتيه وهتف :

ــ كيف حدث ان وقعت في مثل هذا العوز؟ لعمري ان « اناقتك » تفوق « اناقتي »

وراح ينظر الى اسمال راسكولنيكوف ويقول :

ــ ولكن هلا جلست ؟ انك تبدو تعباً .

تهالك راسكولنيكوف على « ديوان » تركي مغطى بقماش مشمع يفوق بالقدم ذلك الذي في حجرته بينما اقترب رازوميخين منه وهو يقول :

ــ اتدري انك مريض جداً ؟

راح يجس نبضه . فانتزع راسكولنيكوف يده منه بحركة عنيفة وصاح :

ــ لاتتعب نفسك . لقد جئت ... اليك السبب ... لم يعد عندي دروس ... فأردت .. مع ذلك لست في حاجة الى دروس .

هتف رازوميخين وهو يحدق في وجهه :

ــ لكن ... ماذا دهاك ؟ انك تهذي !..

استوى راسكولنيكوف واقفاً ! لم يكن قد فكر ــ عندما صعد الى مسكن رازوميخين ــ في أنه سيقابله وجهاً لوجه . أما وقد وقعت التجربة الآن ، فقد شعر بأنه لايستطيع بعد هذه اللحظة أن يلتقي بأي كان ، وأن لقاء الناس يؤلمه ويزعجه . وثارت في نفسه غضبة عنيفة وكاد أن يختنق من الانفعال لمجرد دخوله بيت رازوميخين ! وفجأة قال :

ــ الوداع ... وقصد الى الباب .

ــ لكن ابق ... ويحك إبق ... يالك من شاذ !

فأجاب راسكولنيكوف وهو يخلص يده من يد صديقه :

ــ ليس بي مايغريني بالبقاء !

ــ اذاً ؟ لم جئت ... هل أنت مجنون ؟.. هيا ... انك بذلك توجه إلي نوعاً

من الاهانة ! لن أدعك تخرج هكذا ...

— حسناً ... ! لقد جئت اليك لأنني لا أعرف احـــداً يستطيع مساعدتي سواك .هذا أولاً .. ولأنك أحسن من الباقين دون استثناء وأقصد أكثرهم ذكاء وأنك تستطيع أن تحكم .. أقصد ..! ولكنني الآن لست في حاجة الى شيء .لقد اكتشفت ذلك فجأة فهل تسمع ؟ لاشيء مطلقاً : لاخدمات ولا تودد من أحد ! أنا وحيد ويكفيني هذا فدعني هادئاً ...

— لكن تريث ! تريث دقيقة ! يالك من مغفل ! نعم هذا رأيي ولن تستطيع إبداله . استمع الي قليلاً : ليست لدي دروس ولا يهمني ذلك . انما لدي في « سوق البراغيث » كتبي يدعى « خيرو فيموف » وهو يساوي اكثر من درس ! ولن أبدله لقاء خمسة دروس تعطى الى عند التجار ! انه يهيء وينشر كتباً في العلوم الطبيعية يتخاطفها الناس كما يتخاطفون الخبز ! والعنوان وحده مسألة قائمة في حد ذاتها ! أنت تدعي دائماً بأنني سخيف . ولكني أؤكد لك أن هناك من هم أشد مني سخفاً ... ان الناشر الذي أتعامل معه قد تبع «.موضة » هذا الوقت وهو شخصياً لايعرف ال « آ » من ال « ب » وأنا أشجعه في مسعاه بالطبع . خذ مثلاً هاتين الورقتين الى جانب عدد من الابحاث الالمانية . انها في رأيي لون من الهذر السخيف : انهم يبحثون هنا عما اذا كانت المرأة مخلوقاً انسانياً أم لا ! وبالطبع انهم يدللون أخيراً « وبكل فخر » على أنها انسان كـكل انسان !.. ان خيروفيموف يهيء هذه الابحاث لنشر « المسألة النسائية » التي هي حديث الساعة ؟ وأنا الذي أترجم له وهو بدوره سيضخم هذه الوريقات حتى يضاعفها ويجعلها ستاً ؛ وعندئذ سنطلق عليها عنواناً مثيراً سيحتل نصف الصفحة الاولى وسنبيع النسخة الواحدة بخمسين « كوبيكا » ! ولسوف تكون تجارة رابحـة . انني اتقاضى ستة روبلات لقاء كل صفحة ترجمة وقد دفع لي ستة روبلات مقدماً ... وعندما نفرغ من هذا

العمل سوف نترجم موضوعاً آخر يتعلق بالحوت . وقد لاحظنا في الجزء الثاني من « الاعترافات » (١) مجموعة من الاقاصيص والروايات وسوف نترجمها كذلك رغم أنها لون من الازعاج المحسوس ! وقد صرح بعضهم لخيروفيموف ان «روسو» يشبه في عقليته وانتاجه « راديستشيف » ! وأنا بالطبع لا أناقشه ولا أناقضه وليذهب الى الشيطان .

هيا ... هل تريد أن تترجم الورقة الثانية التي تبحث في : « هل المرأة مخلوق انساني ؟ » اذا راق لك ذلك فخذها على الفور وخذ بعض الاقلام والورق وكل هذا على حساب « السيد » واقبل مني هذه الروبلات الثلاثة ! وبما أنني تقاضيت سلفة لترجمة الورقتين الاولى والثانية ،فيكون نصيبك ثلاثة روبلات لترجمة الورقة الثانية ومتى فرغت منها فستتقاضى ثلاثة روبلات اخرى . آه . أرجوك لاتتصور أنها خدمة أقدمها لك بل على العكس.لقد أدركت عندما رأيتك تدخل أنك ستكون ذا نفع عميم لي ، فأنا أولاً سيء الخط وثانياً ضعيف في اللغة الالمانية لدرجة أنني أخترع اختراعاً بين الحين والحين ويعزيني أن ما اضيفه من عندي خير من المكتوب في الورقة ! لكن من يدري ؟ قد يكون ما « اخترعه » اسوأ مما اقدر بل قد يكون سيئاً للغاية . والآن هل تقبل ؟ نعم ام لا ؟

اخذ راسكولنيكوف اوراق الموضوع الالماني وخرج دون ان يفوه بكلمة و « رازوميخين » ينظر اليه حائراً لتصرفه . ولما بلغ زاوية الشارع الاول ، عاد فجأة من حيث أتى ، وصعد الى مسكن رازوميخين فوضع الاوراق والروبلات الثلاثة ثم خرج بصمت كالمرة السابقة !

صاح رازوميخين وقد بان عليه الغضب :

ـــ ماهذا ؟ انها الحمى « الساخنة » ولا شك . هل تمثل دوراً ؟ انك تفقدني

(١) كونفيسيون : مجلة فرنسية Confessions مثيرة . المترجم

صوابي . يا للشيطان ! لمَ عدت ؟

فتمتم راسكولنيكوف وهو يهبط السلم :

— لست في حاجة الى ... ترجمات ..

— إذاً ماذا تبغي ؟

فلم يجبه راسكولنيكوف بل استمر يهبط بصمت ...

— اسمع !.. اين تقطن ؟

ولما لم يتلق جواباً هتف معقباً :

— حسناً ... اذهب الى الشيطان !

حينما بلغ راسكولنيكوف جسر « نيكولا » أتيح له مرة اخرى ان يستعيد شعوره . كان ذلك إثر حادث مزعج وقع له . ذلك ان سائقاً كان يقود عربة خاصة لسعه بسوطه لسعة قوية جعلته يقفز قفزة كبيرة نقلته حتى حاجز الجسر ! لقد نبهه الرجل ثلاثاً دون جدوى فعمد الى هذا التنبيه العملي ، لانه كان يسير في منتصف الجسر حيث لاينبغي ان تكون الا العجلات والبهائم . صرف على اسنانه حانقاً متألماً بينما تعالت حوله الضحكات والسخريات .

— لقد احسن صنعاً ...

— لابد وانه نشال مأفون !

— ياللخبيث ! انه يتصنع الثمل ويرمي بنفسه بين قوائم الخيول ليطالب بتعويضات !

— انها تجارة مثل غيرها !

وبينما هو بالقرب من الحاجز يصغي الى تلك الاقوال الساخرة ويتابع العربة بنظرة حانقة مخبولة ، اذ شعر بيد تلمس يده وتضع فيها نقوداً . ورأى سيدة متقدمة في السن قليلاً قدر أنها من طبقة التجار ، ملتفة بحرملة والى جانبها فتاة تحمل

مظلة خضراء لاشك انها إبنتها . كانت السيدة تقول له :

ــ « اقبل مني هذا الاحسان باسم المسيح ! » .

فأخذ المال وتابعت السيدتان سيرهما . تأكد لديه ان مظهره الخارجي اوحى لهما بانه واحد من اولئك المتسولين او محترفي التسول الذين يمدون الى حيل لاستدرار شفقة الناس ... وها هو يملك عشرين كوبيكاً والفضل في ذلك يعود الى تلك الضربة التي نالته من سوط سائق العربة ، تلك الضربة التي حركت الشفقة في نفس السيدة .

اطبق يده بشدة على النقود التي فيها وسار بضع خطوات ثم استدار في مواجهة النهر باتجاه القصر . كانت السماء صافية لاسحاب فيها والمياه زرقاء غير كدرة وهو امر نادر بالنسبة الى نهر « نيفا » ... وكانت قبة « الكاتدرائية » ــ وهي لاتبدو واضحة المعالم اكثر منها من تلك البقعة فوق الجسر ــ تلتمع وتتألق في هذا الجو الصافي الرائق حتى ليستطيع الناظر اليها تعداد كل خطوطها وزخرفتها . شعر راسكولنيكوف بهدوء في نفسه ناسياً الالم الذي خلفته لسعة السوط وراح ينظر الى تلك الاماكن التي كانت مألوفة لديه بشكل خاص . كيف لا وهو الذي وقف مئات المرات حيث هو ــ حينما كان يرجع من الجامعة في طريقه الى البيت ــ يتأمل تلك المناظر البهيجة البديعة يغمره شعور غريب . كان ذلك المشهد يثير في نفسه فكرة جامدة غير مفهومة اذ كان يخيل اليه ان كل هذه الابهة ومظاهر العظمة كانت محرومة من النشاط او على الاصح من الروح ! وكانت تلك الفكرة تدهشه فهي غامضة حزينة لم يجد لها تعليلاً . اما الآن فقد بدا له لن تلك الاسئلة التي كان يبحث عن اجوبة لها وذلك الشعور الغريب الذي كان يعتوره قد اصبحت جميعها مفهومة واضحة الخطوط . وبدت له غرابة الصدف في وقوفه في تلك اللحظة بالذات في ذلك المكان بالذات ناظراً الى تلك المناظر بالذات التي

كان يتأملها من قبل لما ان كان في الجامعـة وكأنه يرجو ان يشعر بمثل الشعور الذي كان يحس به من قبل . بدا له كل ذلك مضحكا وانتهى بأن احس بقوة غير منظورة تعتصر قلبه فيقطر ألماً . ادرك ان ماضيه وافكاره ومشاكله ، إحساساته ووجهات نظره التي كان يحس بها من قبل ، مفروشة تحت قدميه بل غارقـة في جرف سحيق ليس له قرار .والى ذلك الجرف السحيق انحدرت روعـة المناظر التي بدت لعينيه ثم تبعها بنفسه هابطاً ... شعر كأنه حلق الى ارتفاعات سامقة حتى اختفت كل المعالم عن ناظريه ! وتحركت يده حركة آلية فأحس بالنقود التي فيها تأملها برهة ثم طوح بها الى الماء ! وعندئذ دار على عقبيه وعاد الى البيت وهو يشعر بأنه في تلك اللحظة قد قطع آخر رباط يصله بالعالم الحي !

بلغ مسكنه مساء بعد ان انقضت ست ساعات منذ ان بارحه ! اما كيف وأي سبيل سلك فانه ما كان ليستطيع الجزم في معرفته ! خلع ملابسه وارتعـد كالحصان الحرون ثم استلقى على « الديوان » متدثراً بمعطفه وغط في نوم عميق !

استيقظ فجأة في الظلام الدامس إثر صرخة مريعة صكت سمعه . صرخة لم يكن قد رأى او سمع بمثلها من قبل ، صرخـــة رافقتها زمجرة ونحيب وضربات ولعنات فظيعة لم يعهد مثلها من قبل . لم يكن يفكر أو يتصور وجود مثل هـذه الوحشية والضراوة ، فرُوع وانتصب في « سريره » جالساً شاعراً بعذاب متزايد ينزل به ثانية فثانية . لكن الضربات والنحيب والشتائم كانت تتزايد تدريجياً ، وبالشدة ذهوله واستغرابه حينما تعرف وسط ذلك الضجيج على صوت صاحبـة مسكنه . كانت تزمجر وتزأر بصوت حاد متقطع سريع حتى أنه أخفق في فهم بعض ماتقوله .غير أنه خمن أنها تتوسل وتستعطف لكي يكف اولئك الذين يضربونها عن عدوانهم . وكان الصوت آتياً من السلم فسمع راسكولنيكوف هدير صوت المعتدي ، كان صوته يفيض غضباً وقد استحال الى صرخات مبحوحة حتى تعذر

عليه فهم شيء من حديثه اللاهث المختنق . وفجأة اقشعر جسم راسكولنيكوف : لقد تعرف على صوت الوحش الضارب ... كان اليا بتروفيتش : « ترى ماذا يفعل اليا بتروفيتش هنا ولمَ يضرب صاحبة الدار ؟ من الواضح أنه كان يركلها بقدميه ويضرب رأسها على درجات السلم ..! كان يمكن تخمين ذلك من بكاء المرأة وصوت الضربات فماذا حدث ياترى هل انقلبت الأوضاع في العالم ؟ »

هرع السكان الى السلم وارتفعت اصواتهم مستنكرة ثم ارتفع صوت أقدام صاعدة وابواب تصفق وخطى متلاحقة .. « ترى لمَ كل هذا ؟ لمَ ؟ كيف يمكن أن يحدث أمر كهذا ؟ »

كان راسكولنيكوف وهو يطرح على نفسه مثل هذه الأسئلة يعتقد مخلصاً انه قد جن لولا أنه كان يسمع بجلاء كل هذا الضجيج، وفجأة خيل اليه أنهم آتون الى غرفته فغمغم يحدث نفسه :

« رباه انهم صاعدون ! اذاً ان كل هذا بسبب مسألة البارحة » واراد ان يغلق الباب بالمزلاج لكن يده لم تطعه وشعر بعقم هذه المحاولة وبألم يعذب روحه ويسحق عظامه . انقضى الوقت بطيئاً قاتلاً ومضت عشر دقائق دون أن يحدث شيء وهـــدأت الأصوات بالتدريج وتناهى الى سمعه صوت صاحبة الدار تزمجر وتنتحب وصوت اليا بتروفيتش يهدد ويشتم ثم اختفت الأصوات نهائياً وران السكون فتمتم قائلاً : رباه ! هل ذهبوا حقيقة ؟ لاشك في ذلك وها إن صاحبة الدار تذهب الى شقتها باكية منتحبة ! ها إنها تغلق باب الشقة بعنف وصخب والناس يتفرقون ويخلون السلم ليدخل كل منهم الى مسكنه ، وهم يتناقشون ويتنادون بصيحات مرتفعة او يتحادثون بما يشبه الدمدمة . كان يبدو انهم عديدون كما لو ان كل السكان قد هرعوا الى مكان الحادث . فلبث يتساءل عبثاً عن السبب .

خارت قوى راسكولنيكوف اخيراً وتهاوى من جديد ولكن النوم ابى ان

يداعب عيونه فبقي نصف ساعة ممداً فريسة الألم ، ألم عنيف لا يُحتمل والشعور بالرعب لم يحس بمثله من قبل ، وفجأة انبثق نور في حجرته ورأى ناستاسيا داخلة تحمل شمعة موقدة في إحدى يديها وآنية حساء في الأخرى . نظرت إليه بانتباه ولما رأته مستيقظاً وضعت « الشمعدان » على الطاولة وراحت ترتب الأشياء التي تحملها : الخبز والملح والطبق والملعقة وهي تقول :

— إنه لم يأكل شيئاً منذ الأمس، مع ذلك فقد راح يجر أسماله طول النهار وهو مصاب بهذه الحمى العنيفة..

— ناستاسيا ... لمَ ضربوا السيدة ؟

فنظرت إليه بدهشة وقالت :

— من الذي ضرب السيدة ؟

— منذ حين ، منذ نصف ساعة. إيليا بيتروفيتش، مساعد رئيس الشرطة ... على السلم . لمَ عاملها بهذه الخشونة ؟ بل ولمَ جاء إلى هنا ؟

حدقت ناستاسيا في وجهه طويلاً وقطبت حاجبيها ولزمت الصمت . شعرت بنوع من الارتباك بل ومن الخوف . بينما استمر راسكولنيكوف يقول بصوت ضعيف خائر :

— ناستاسيا لمَ لا تتكلمين ؟

فتمتمت وكأنها تحدث نفسها :

— هذا هو الدم .

فشحب لونه وتقهقر حتى التصق بالجدار وهتف :

— الدم ؟ ... أي دم ؟ ...

نظرت اليه ناستاسيا بصمت وأخيراً قالت بصوت ثابت وبلهجة خطيرة :

— لم يضرب السيدة أحد .

فنظر إليها وهو يكاد يختنق وقال :

ــ لقد سمعت بنفسي ... لم أكن نائمـا ... كنت جالساً .. لقــد سمعت طويلاً . ان مساعد مدير الشرطة كان هنا على السلم ... وكل السكان قدهرعوا وغادروا مساكنهم .

ــ لم يأت أحد إنما هو الدم يصرخ فيك ... إذ أنه عندما لا يجد مخرجاً يهاجم الكبد ويجعلك بذلك تتصور مثل هذه الأوهام . والآن سوف تأكل . أليس كذلك ؟...

لم يجب وظلت ناستاسيا بالقرب منه صامتة تحدق في وجهه متفحصة .

ــ ناستاسيا . . أريد أن أشرب ...

غادرت الحجرة وعادت اليه بعد دقيقتين تحمل ماء في إبريق من الفخار الأبيض لكنه لم يذكر ما وقع له بعد ذلك . تذكر فقط أنه ابتلع جرعـة من الماء البارد وصب محتويات الابريق على صدره ثم فقد الوعي .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

استمر مريضاً زمناً طويلاً لكنه لم يفقد خلاله حاسة التفكير تماماً فكانت حاله منقسمة بين هذيان الحمى والشرود الذهني . تذكر فيما بعد أنه كان يحس أحياناً بجمع غفير من الناس التفوا حوله يريدون انتزاعه وحمله الى مكان ما وهم يتناقشون بصدده ويتشاجرون ، وأحياناً أخرى يجد نفسه وحيداً في غرفته وقد بارحها الناس لأنهم خافوا منه، فكانوا من حين إلى آخر يواربون الباب قليلاً لينظروا إليه ويهددوه أو يستهزئوا به مستثيرين غضبه. وتذكر كذلك أن ناستاسيا كثيراً ما كانت تجلس قرب سريره كما لاحظ رجلاً غريباً لم يستطع معرفته ولا تحديد مهمة يشاطرها زياراتها الأمر الذي أحزنه حتى أن الدموع كادت أن تطفر من عينيه .

كان يخيل إليه أحياناً أنه أمضى أكثر من شهر في سريره ، وأحياناً أخرى أن كل شيء قد تم في بحر يوم واحد . لكن « ذلك الشيء » نعم ذلك الشيء كان قد نسيه تماماً ، وإن كان يشعر في قرارة نفسه انه افتقد أمراً لا يجد في نفسه القدرة على استعادته ، فكان يتألم ويتعذب ويزفر ويثور لمجرد تفكيره في هذا العجز ثم يذهل ويغيب عن الوعي. وإذا استفاق بعدئذ كان ينهض محاولاً الفرار والابتعاد عن السرير فيشعر بأيد تعيده اليه بالقوة فيعود إلى غيبوبته .

أمضى زمناً طويلاً على هذا المنوال ولما صحا ذات يوم — وكان ذلك في الساعة العاشرة والطقس جميل والشمس تغمر الجدار الأيمن باشعاع ضوئي بديع فتنير الزاوية القريبة من الباب — رأى ناستاسيا جالسة بالقرب من سريره مع رجل لم يكن يعرفه كان يرقبه بفضول، وصاحبة المسكن تنظر إليه خلال الباب

الموارب . كان ذلك الغريب شاباً مرتدياً قفطاناً ، ذا لحية صغيرة مدببة يشبه الجباة في مظهره . تناهض راسكو لنيكوف وسأل مشيراً إلى الشاب :

من هذا يا ناستاسيا ؟

ـــ هيه ؟ لقدعاد الى وعيه...

ـــ شعرت صاحبة الدار أن المريض قد استعاد قواه فأغلقت الباب الموارب وأختفت فوراً لأنها كانت امرأة شديدة الخجل ترهب المناقشات والاستفسارات. كان لها أربعون عامـــاً وكانت سمينة منتفخة ذات عينين سوداوين يعلوهما حاجبان بلونها ، طيبة في كل شيء : بكسلها وكرمهـا ، مضيافة ، مفرطه في الخجل ؟

عاد راسكولنيكوف يستفسر موجهاً حديثه إلى الغريب مباشرة :

ـــ من ... أنت ...؟

وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل رازوميخين وهو يحني قامته قليلاً بسبب طولهـا . هتف وهو بالباب :

ـــ ياله من كوخ ! ! إن رأسي يصطدم أبداً بالسقف ومع ذلك فهم يطلقون عليه اسم مسكن ... إذاً يا أخي فقد عدت إلى وعيك ... لقد علمت بذلك تواً من « باشنكا » .

قالت ناستاسيا :

ـــ لقد استعادصوابه تواً...

وقال الغريب الذي يشبه الجباة في هيئته بصوت مجلجل وهو يبتسم :

ـــ لقد عاد إليه وعيه.

تذكر راسكولنيكوف أن سؤاله الذي وجهـه إلى ذلك الغريب لم يحظ بجواب بعد ! وشعر رازوميخين برغبة صديقه فسأل :

ـ ولكن أنت ... من أنت ؟ فأنا مثلاً اسمي رازوميخين وأنا طالب مفضال مهذب وهذا صديقي . أما أنت فمن تكون ؟

ـ أنا مستخدم لدى التاجر « شيلوبابيف » وقد جئت هنا لحاجة .

فقال رازوميخين :

ـ حسناً . تفضل بالجلوس على هذا « الكرسي » . واستوى بنفسه جالساً على المقعد الآخر بجانب المائدة . وخاطب راسكولنيكوف بقوله :

ـ يا صديقي العجوز أحسنت صنعاً إذ استعدت حواسك . فمنذ أربعة أيام ـ كما قيل لي ـ لم تأكل ولم تشرب شيئاً باستثناء ما كان يصب في فمك من قطرات الشاي بواسطة الملعقة . ولقد أتيتك مرتين بـ « زوسيموف » . أنت تذكر زوسيموف ؟ لقد عاينك بدقة وصرح أن الأمر ليس خطيراً وأن حالك تشبه بكل بساطة حال الذي تلقى ضربة من مطرقة . أي ـ كما أكد ـ إنك تشكو من ضعف عصبي نتيجة لسوء التغذية . أما المرض نفسه فبسيط يمكن الشفاء منه بسهولة . إن زوسيموف حجة لا يبارى وهو يعود عدداً من المرضى الخطرين . ثم استدار نحو المستخدم وقال :

ـ لا أحب استبقاءك كثيراً ... فتفضل إذا أردت باطلاعنا على سبب زيارتك . لاحظ يارودیا أن هذه هي المرة الثانية التي يبعث صاحب ذلك المخزن برسل من لدنه . ففي المرة الأولى كان واحداً غير هذا ، فمن الذي جاء في المرة الأولى ؟

فأجاب المستخدم :

ـ لعلك تقصد الذي جاء منذ ثلاثة أيام . إنه مستخدم مثلي واسمه : الكسيس سيميونوفيتش .

ـ إن لسانه على الأقل أطول من لسانك فما رأيك ؟

ـ نعم إنه رجل أكثر كفاءة مني .

— ليس لنا إلا أن نهنئك ... هيا استمر .

— حسناً . هذه هي الحكاية : إن لدينا حوالة من والدتك أرسلت بواسطة المدعو آتاناس إيفانوفيتش فاكروشين الذي أعتقد أنك سمعت عنه . وانني مكلف بان أقدم لك مبلغاً قدره خمسة وثلاثون روبلاً هي ما أخذه سيميون سيميونوفيتش من أمك وأعتقد أنك مطلع على مجرى الأمور .

كان هذا الكلام موجهاً إلى راسكولنيكوف جواباً على سؤال صديقه فتمتم هذا بصوت حلم :

— آه ... فاكروشين . نعم أذكر .

هتف رازوميخين قائلاً :

— هل تسمع ؟ إنه يعرف التاجر فاكروشين . وكيف لا يعرفه ؟ ثم انني ألاحظ أنك أنت الآخر ذو لسان طويل ... هيا لا تبتئس . إنه لذيذ دائماً أن يستمع الانسان الى محاضرات حكيمة . استمر ...

— حسناً . بالضبط إن هذا الـ « فاكروشين أتاناس إيفانوفيتش » هو الذي توسط في المرة الأولى بناء على رجاء والدتك في إرسال نقود إليك ولم يحجم هذه المرة بالمثل عن إبلاغ سيميون سيميونوفيتش بوجوب دفع خمسة وثلاثين روبلاً إليك بانتظار ما هو أحسن .

هتف رازوميخين :

— لعمري إن هذه الـ « بانتظار ما هو أحسن » هي أجمل ما خرج من فمك ولقد نطقتها بسهولة لا يماثلها في الجمال إلا قولك « بناء على رجاء والدتك » والآن ماذا تعتقد هل هو مالك قواه ؟ نعم أو لا ؟

— بالنسبة إلي إنه ككل أولئك الذين يوقعون لدينا عند القبض .

— إذاً سوف يحسن التوقيع « الشخبرة » هل معك الدفتر ؟

ـــ الدفتر؟ ها هو ذا .

ـــ هاته . هيا ياروديا انهض قليـلاً . سوف أسنـــدك بينما ستكتب له هنا : راسكو لنيكوف . خذ القلم بيدك يا صديقي . إننــــا في شديد الحـاجة الى المال .

هتف راسكولنيكوف وهو يدفع القلم بعيداً :

ـــ لا حاجة بي الى المال .

ـــ إذاً ماذا يلزمك ؟

ـــ لن أوقع هذا الايصال .

ـــ لكن يجب أن تعطي إيصالاً .

ـــ لست في حاجة إلى النقود .

ـــ لست في حاجة الى النقود؟اسمع يا صديقي أنت تكذب وأنا شاهدعلى ذلك ! ثم استدار الى المستخدم وقال : لاتبتئس . إنه يهزر . ثم إن هذا مألوفاً لديـه في حال اليقظة الكاملةوأنت رجل عاقل.اسوف نسير يده ليستطيع التوقيع فهيا بنا نتعاون.

ـــ على كل حال إنني استطيع العودة مرة أخرى .

ـــ كلا ! كلا ! لمَ تزعج نفسك ؟ أنت رجل معقول ... هيا ياروديا لا تؤخر هذا الزائر . ألا ترى ؟ إنه ينتظر ...

امسك بيد راسكولنيكوف ليساعده على التوقيع . فهتف هذا قائلاً :

ـــ دعني سوف أوقع بنفسي . ثم أخذ القلم وكتب اسمـــه في الدفتر فسلمه المستخدم المال وانسحب .

ـــ مرحى ! ألا تأكل الآن ياصديقي ؟

فأجاب راسكو لنيكوف :

ـــ بلى .

سأل رازوميخين الخادم قائلاً :

– هل لديكم حساء ؟

فأجابت ناستاسيا وقد حضرت المناقشة من أولها :

– نعم لدينا من بقايا البارحة .

– هل هو حساء بالأرز والبطاطا ؟

– نعم بالأرز والبطاطا .

– كنت أخشى أن لا يكون كذلك ... إيتنا بالحساء وأعطنا شاياً .

– ها أنا ذاهبة .

كان راسكو لنيكوف يرقب ما يجري بدهشة عميقة ورهبة متبلدة وقد استصوب الصمت وانتظار ما سيحدث . قال مخاطباً نفسه : « يخيل إلي انني لست واهماً بل ان هذا يبدو واقعياً ».

استغرقت مهمة ناستاسيا دقيقتين عادت بعدهما بالحساء والشاي . كانت تحمل ملعقتين وطبقين وما يلزم مائده الطعام من ملح وبهار وخردل مما لم ير راسكو لنيكوف ترتيباً مثله من قبل ، بل إنها كانت تحمل أيضاً غطاء مائدة نظيف .

قال رازوميخين :

– يحسن بـ « پراسكوفي بافلوفنا » أن ترسل إلينا قدحين من الجعة وسنشربها باستمتاع ياناستاسيا .

فغمغمت الخادم :

– لعمري إنك تعني بنفسك ... ومضت تنفذ الأمر .

استمر راسكو لنيكوف يحدق فيما حوله بذهوله المعهود لكنه لم يخل هذه

المرة من اهتمام ملموس . بينما جلس رازوميخين إلى جانبه على «الديوان» وراح يرفع رأسه بحركة غير حاذقة فأسندها الى ذراعه ثم بدأت يده اليمنى بعد ذلك تسعى بين إناء الحساء وفم راسكو لنيكوف مرات وهو يستوقف الملعقة أمام فمه كل مرة لينفخ عليها خشية أن يكون الحساء ساخناً فينزعج المريض. وكان الحساء بارداً تقريباً ، غير أن ذلك لم يمنع راسكو لنيكوف من التهام ملء ملعقة وتكرار ذلك مرات . وفجأة توقف رازوميخين عن أداء مهمتـــه وصرح بانه يجب استشارة زوسيموف الآن !

دخلت ناستاسيا في تلك اللحظـة حاملة زجاجتين من الجعـة وضعتها على الطاولة فسأل رازوميخين راسكو لنيكوف قائلاً .

— أترغب في شرب قليل من الشاي ؟

— نعم .

فصاح بناستاسا قائلاً :

— اجري فوراً واتي بالشاي ياناستاسيا . انني أعتقد أننا نستطيع الاستغناء عن رأي كلية الطب بصدد الشاي .. آه! ها هي الجعة أيضاً .

جلس رازوميخن على كرسيه وراح يفتك باللحم فتكاً ذريعاً وكأنه لم يقرب الطعام منذ ثلاثة أيام ، وكان يحدث راسكو لنيكوف على قدر ما يسمح به فمه الممتلىء ويقول :

— ياصديقي العجوز روديا انني أطعم عندك منذ ثلاثة ايام على حساب السيدة باشانكا وهي تعني بي عناية خاصة !إنني لاأرى مانعاً من مصارحتك بأنني لا أحتج ولا أعترض على عنايتها بي .ولكن ها هي ناستاسيا وقد جاءت بالشاي إنها تحسن التدبر . حسناً هل ترغبين في قدح من الجعة ياناستاسيا ؟

— يالك من ماكر ممازح !

= إذاً من الشاي .

ـ أما هذا فنعم .

ـ حسناً قدمي لنفسك . بل انتظري سأقوم أنا على خدمتك . اجلسي إلى المائدة .

وقام فوراً بواجب رب الدار كأحسن ما يكون ، فملأ القدح الأول ثم قدحاً ثانياً وترك طعامه وعاد يجلس على « الديوان » قرب صديقه . والمرة الثانية مد ذراعه اليسرى الى رأس راسكو لنيكوف يرفعها ثم راح يسقيه الشاي بالملعقة وهو ينفخ عليها لتبرد ؛ وكأنه بذلك يساهم في شفاء المريض مساهمة فعلية .

أما راسكو لنيكوف فكان صامتاً لا يبدي مقاومة رغم شعوره بقدرته على الحركة واستعمال يديه بما يكفي للامساك بملعقة وقدح بل لعله كان يستطيع المشي ، لكنه عمد بمكر حيواني إلى إخفاء طاقته وقواه متصنعاً البله والذهول مراقباً بنفس الوقت ما يحدث ومفكراً بامعان فيما يرى . وبعد أن جرع محتويات الملعقة العاشرة ، حرر رأسه من ذراع صديقه ودفع الملعقة بطيش ثم ترك رأسه تهوي على « الوسادة » وشعر بأنها وسادة حقيقية يكسوها غطاء نظيف مما ضاعف في حيرته .

تمتم رازوميخين وهو يعود الى مجلسه الأول فيأكل ويشرب الحمة :

ـ ينبغي أن ترسل باشانكا اليوم أيضاً مربى التوت لنهيء شراباً للمريض .

فسألت ناستاسيا .وهي تمسك قدحاً بأصابعها الخمس وتمتص الشاي على قطعة السكر التي في فمها :

= ومن أين تأتي بالتوت ؟

— إنه شائع وموجود في كل البقاليات ياعزيزتي . ألا ترى ياروديا ؟ لقد وقعت هنا حكاية لم تطلع على تفاصيلها بعد : عندما فررت كالنشال في ذلك اليوم من مسكني دون أن تطلعني على عنوانك ، غضبت غضباً شديداً وقررت أن أبحث عنك لأؤدبك . فشرعت أطاردك منذ ذلك اليوم وأنا أبحث هنا وهناك ناسياً أنك تقطن هنا . خصوصاً وأنني ما كنت أستطيع أن أذكر هذا لأنني ما كنت أعرفه . أما مسكنك الأسبق فكنت أعرف أنه في « الزوايا الخمس» « خارلاموف » . بحثت طويلاً عن هذا « الخارلاموف» وظهر لي فيما بعد أن اسمه هو « بوخ » وليس خارلاموف ولكن الأخطاء شائعة في أسمــاء الاعلام فاستأت استياء بليغاً وعدت في اليوم التالي إلى مكتب الاستعلامات. تصور انني خلال دقيقتين فقط استطعت أن أحصل على عنوانك لأن اسمك كان مسجلاً هناك .

— مسجل ؟

— وكيف ! مع ذلك لم يستطيعوا في ذلك المكتب أن يدلوا بعنوان الجنرال كوبيلييف ليعطوه الى شخص كان يسأل عنه بحضوري ... لا أود اضاعة الوقت بالتفاصيل لذلك أقول بكلمة واحدة انني وصلت الى هنا وأحطت علماً بكل ما يتعلق بك ، نعم بكل شيء ياصديقي . أنا أعرف كل شيء وناستاسيا تشهد على ذلك وقد تعرفت الى نيكوديم فوميتش. كذلك رأيت ايليا بيتروفيتش واتصلت بالحارس « فورنيك » وبالسيد ساميوتوف الكسندر غريغوريفيتش أمين سر قسم شرطة الحي وأخيراً تعرفت الى باشانكا وهي فضلاً عن ذلك الباقة العطرة في هذه المجموعة وناستاسيا لا تجهل ذلك .

فغمغمت ناستاسيا وهي تضحك ساخرة :

— لقد عرفت كيف تفتنها .

ـــ هيه !.. ياناستاسيا نيكيفوروفنا !. الا تسمعين ؟

فانفجرت ناستاسيا ضاحكة وهتفت :

ـــ أيها الحيوان . لكني بيتروفنا وليس نيكيفوروفنا .

ـــ أخذنا علماً بذلك . والآن ياصديقي أردت قبل كل شيء أن أدخل الكهرباء الى هنا لكي أبدل دفعة واحدة الأفكار والآراء الخاطئة المتكاثفة، لكن لكن باشانكا انتصرت ثق ياصديقي أنني ما كنت أعتقد أنها بمثل ... بمثل هذا الكرم . هيه . ماذا تقول ؟

كان راسكولنيكوف صامتاً لا يريم رغم أنه لم يغفل لحظة واحدة عن ملاحقة رازوميخين بنظرة ثقيلة ثابتة . واستمر رازوميخين قائلا :

ـــ لا أود إضاعة الوقت بمحاضرات تافهة . لذلك أقول : إنها إنسان كأحسن ما يكون ومن كل وجهات النظر .

كان يبدو على رازوميخين أن صمت راسكولنيكوف لم يزعجه في شيء وانه يكتفي بما كانت تثيره ناستاسيا من ملاحظات على حديثه الذي بدا وكأنه يدخل على نفسها لوناً من السرور الغامض .

هتفت هذه من جديد :

ـــ يا لك من حيوان .

بينما استرسل هو وكأنه لم يسمع :

ـــ المؤلم يا صديقي أنك لم تدرك كيف تتصرف منذ البداية . لم يكن ينبغي لك أن تعاملها هكذا ! إن ذاك ـــ ماذا أقول ـــ إنه ... إنها عقلية غريبة بيد أننا سنبحث في هذا فيما بعد .

صمت قليلاً ثم أردف قائلاً :

ـــ خذ مثلاً هذه الناحية الدقيقة : كيف جعلت الحال يصل بها الى درجة

إمساك الطعام عنك ؟ وأكثر من ذلك أيضاً تلك السفتجة !.. يخيل إلي أنــك كنت فاقد الرشد عند ما وقعت عليهـــا ، بينما كان مشروع زواجك من الفتاة ناتالي إيبكورفنا لا زال ماثلاً ! أرأيت كيف أني ملم بكل شيء ؟ إنني أرى هنـا حبلاً حساساً وأنا حمار فاعذرني ! ولكن بما أننا نتكلم عن الحمـــاقات فماذا تظن ؟ ألا ترى أن براسكوفي بافلوفنا أبعد من أن تكون حيوانـاً كما يلوح للمرء للوهلة الأولى ؟

غمغم راسكو لنيكوف وهو لا يدري أيها أفضل : أن يسكت صاحبه أم أن يدعه يستمر :

ــ نعم .

فهتف رازوميخين وقد بدا عليه السرور لسماعه صوت صديقه يجيبه :

ــ أليس كذلك ؟ لكنها ليست ذكية جداً . هم ؟ لقد قلت لك أن تلك عقلية غريبة وأنا من جانبي يا صديقي لا أستطيع فهم شيء : فهي تشرف على الأربعين من عمرها ولا تعترف إلا بست وثلاثين ولها كل الحق . ثم أقسم لك بأن حكمي افتراضي بحت لا يعتمد إلا على علم « الميتافيزيك » : إن ما يحدث بيننـا هو بالنسبة إلي مسألة جبر لذلك فلست أفهم شيئاً ، وكل شيء معقـد ! فهي ــ لما رأت أنـك انقطعت عن الجامعة وخسرت الدروس والالبسة ، وأنها بعد وفاة ابنتها لم تعـــد تستطيع اعتبارك فرداً من الأسرة ــ شعرت فجأة بالرهبة ، أما أنت فانـك بدلاً من أن تستمر في حياتك كما كانت عليه في الماضي، انقلبت فجأة. ففكرت في طردك وقد أمضت زمناً طويلاً تفكر في ذلك المشروع ولكنها كانت تخاف على مالهـــا خصوصاً وانك أكدت لها بأن أمك ستدفع .

غمغم راسكو لنيكوف بصوت مرتفع واضح قائلاً :

ــ لقد كنت شديد النذالة حينما قلت ذلك . لقد أصبحت أمي أشبه بالمتسولات

وكنت أنا أكذب لكي أغريها على قبولي في المسكن واطعامي .

ـ لقد أحسنت صنعاً في هذا. انما المزعج أنها استعانت بالسيد تشيباروف وهو رجل أعمال ومستشار في المحكمة العليا . ولولاه لما جرؤت « باشانكا » على تدبير شيء ضدك وهي تلك الامرأة الخجول . لكن ذلك المستشار لم يكن خجولاً مثلها فكان أول ما سعى الى معرفته هو : هل من أمل في أن تحصل صاحبة المسكن على مالها ، فجاءه الجواب : نعم لأن أمه رغم أنهما لا تملك الا جراية قدرها مائة وعشرون روبلاً في السنة فانها ستستغني عن الطعام لتكفل ابنها روديا وان اخته على استعداد لبيع نفسها كالرقيق اذا اقتضى الأمر لتساعد أخاها. وهكذا قرر ملاحقتك . لكن ... ماذا بك ؟ أراك قد اضطربت ؟ هل أدركت الآن أنني أفهمك تماماً ؟ انه لم يكن عبثاً ذلك الحديث الذي أفضيت به الى باشانكا عندما كانت تعدك واحداً من الأسرة وقد استقيت هذه المعلومات من حديثك ذاك ... وسأقص عليك الآن ماذا وقع بالضبط .. حدث أنه بينما كان الرجل النبيل الحساس الذي هو أنت يدلي باعترافاته كان رجل الأعمال يستعد ليفوز بحصة الأسد وهذا هو السبب الذي من أجله أعطت باشانكا السفتجة برسم القبض الى تشيباروف هذا وهو بدوره طالب بالحاح أن يسدد المبلغ فلما اطلعت على سير سير الأمور أردت ارضاء لضميري أن أدلي بدلوي وهكذا أصبحت أنعم بتفاهم تام مع باشانكا وأوقفت بل وقتلت المؤامرة في مهدها مؤكداً لها أنك ستدفع دونما حاجة الى هذا التدبير . هل فهمت ما أعني يا صديقي ؟ لقد كفلتك فاستدعينا تشيباروف هذا وألقينا اليه بعشرة روبلات ثم استعدنا منه السفتجة التي لي الشرف بأن أقدمها اليك . والآن فان كلمتك هي وحدها موضع الاعتبار . خذ . هذه هي السفتجة وقد مزقتها كما ترى بما يناسب المقام .

وضع رازو ميخين الورقة الممزقة على الطاولة فنظر اليها راسكو لنيكوف

وفجأة استدار نحو الجدار دون أن يهمس بكلمة حتى أن رازو ميخين نفسه شعر بصدمة في كرامته . قال :

ـــ أرى ياصديقي أنني ارتكبت هنا نوعاً من الحماقة كما يبـــدو . بينما كنت أعتقـــد أنني أسري عنـك بثرثرتي فـاذا بي على العـكـس أثير سخطك .

قال راسكولنيكوف بعد صمت دون أن يستدير :

ـــ أهو أنت الذي لم أعرفك في بحراني ؟

ـــ نعم وحضوري كان يسبب لك نوبات وخصوصاً في المرة التي اصطحبت معي فيها زاميوتوف .

ـــ زاميوتوف ؟ أمين سر قسم الشرطة ؟ لماذا ؟

واستدار فجأة بينما تعلقت أبصاره بوجه رازوميخين :

ـــ لكن ماذا دهاك ؟ لمَ تثور ؟ كان يرغب في التعرف إليك وهو نفسه الذي عرض ذلك لأننا تحدثنا أنا وهو طويلاً عنك . ولولاه لما عرفت كل هذه الأمور. إنه غلام شجاع ، غريب من نوعه ، سريع الفهم ونحن الآن كأحسن الأصدقاء ، نلتقي كل يوم تقريباً حتى أنني غادرت مسكني ذاك وجئت اسكن هذا الحي ولقد ذهبنا مرتين عند لويز . أتذكر لويز ؟ .. لويز ايفانوفنا.

ـــ هل كنت أهذي ؟

ـــ وكيف ؟ كنت لا تملك نفسك .

ـــ ماذا قلت ؟

ـــ وماذا بعد ؟ ماذا قلت ؟ إن ما يقوله رجـل يهذي معروف والآن لندع هذا ولنهتم بما هو أجدى . ثم نهض وأخذ قبعته وأراد الانصراف .

ـــ سألتك ماذا قلت ؟

— لعمري إذا كنت تعمر ! هل أنت خائف من أن تكون كشفت سراً ؟ لا تخش : إنك لم تبح بشيء عن أسيرتك . لكنك تحدثت كثيراً عن كلب « البولدوج » وعن أقراط للأذن وسلاسل للساعات وعن جزيرة « كريستوفسكي » ثم عن حارس معين . وقد بحثت أيضاً في : نيكوديم فوميتش وإيليا بيتروفتش مساعده وأظهرت اهتماماً كلياً بطرف حذائك فكنت أبداً تطلبه بأنين قائلاً : « أعطوني قطعة النعل » حتى أن زاميوتوف نفسه بحث عنها في كل الأركان ثم أعطاك تلك القذارة بنفسه بعد أن حملها بيديه النظيفتين البيضاوين المعطرتين المزينتين بالخواتم وعندئذ فقط خمدت حدتك ولبثت أربعاً وعشرين ساعة قابضاً على تلك القذارة بيديك مطبقاً عليها حتى تعذر سحبها منك ولعلها لا زالت في في مكان ما تحت غطائك . كذلك كنت تطلب باصرار قطع سروالك وكنت تبكي وأنت تطالب بها ورحنا نتساءل عن نوع تلك القطع التي تتحدث عنها ، إنما لم نفهم غايتك . على كل حال انتهى هذا الآن والأهم أنك تملك في هذه اللحظة خمسة وثلاثين روبلاً سأحتفظ بعشرة منها وسترى بعد ساعتين ما سأكون قد عملت بها وخلال هذا الوقت سوف استشير زوسيموف الذي هو لاشك هنا منذ زمن طويل خصوصاً وان الساعة الآن قد جاوزت الحادية عشرة . أما أنت يا ناستاسيا فعليك بزيارته دائماً خلال غيبتي ولتهتمي بشأنه فتسقيه كلما طلب وتقدمي اليه ما يريد ، وسأذهب الى باشانسكا لأتحدث اليها بما ينبغي ان يكون فالى اللقاء .

خرج رازوميخين بينما راحت ناستاسيا تقول :

— انه يناديها باشانسكا ياله من مهرج !

ثم نهضت وأصاخت السمع ولم تستطع مقاومة فضولها فاندفعت تهبط السلم في

أثره لتنصت الى الحديث الذي سيدور بينه وبين سيدتها التي كانت ولا شك مفتونة به .

لم تكد ناستاسيا تخرج بدورها حتى ألقى المريض غطاءه فجأة وقفز كالمجنون مبارحاً السرير . لكن ما هي تلك المهمة ؟ ها هو ذا قد نسيها ! فراح يتمتم : « ياالهي ! ودت لو عرفت شيئاً ، شيئاً واحداً : هـــل يعرفون كل شيء أو لا يعرفون شيئاً ؟ امامهم يعرفون ويتصنعون الجهل بالأمر لتشويش أفكاري خلال مرضي ثم الانقضاض علي فجأة واطلاعي على أنهم يعرفون كل شيء منذ حين ، وأن سلوكهم ما كان الا على سبيل الخدعة ... فما العمل الآن وأنا الذي نسيت ما كنت أعتقد أنني أعرفه منذ نصف دقيقة ؟ » .

كان واقفاً في وسط الحجرة يدور بأنظاره حوله وهو فريسة هياج عصبي أليم . مضى الى الباب ففتحه وأنصت فلم يجد من يسترق السمع . وفي لحظة من صفاء الذهن اندفع الى الزاوية التي تحجب السجادة المهلهلة الثغرة التي فيهـــا ففحصها بعناية ثم أدخل يده في الثغرة باحثاً منقباً وسرعان ما أدرك أنه لم يكن يفكر في هــــذا بالضبط . تذكر أنه يسعى وراء قطع سرواله الممزقة وبطانة جيبه التي انتزعها والتي ألقاها مع قطع السروال في مكان لم يعد يذكره . ولما فتح باب المدفأة وبحث بين الرماد وجدها هناك فتأكد أنهم لم يبلغوا في البحث تلك المرحلة . بقيت قطعة النعل المتخلفة عن حذائه ! ارتمى على السرير يبحث عنهـا فوجدها . كانت خلقة متأثرة من الاحتكاك قذرة . ان زاميوتوف لا يمكـن أن يكون قد لاحظ عليها شيئاً . غمغم محدثاً نفسه : « هيـه زاميوتوف ! مكتب البوليس ! لكن لمَ استدعوني الى ذلك المكتب ؟ وأين رقعة الدعوة ؟ ؟ بهْ ! لا شك انني اخلط بين الامور فقد كان الاستدعاء امس البعيـد وليس اليوم وكنت أفحص طرف حذائي أما الآن فقد كنت مريضاً . فلمَ اذاً جاء زاميوتوف ؟

ماذا في الأمر ؟ هل يصور لي الخيال كل هذا أم انه حقيقة ؟ لا شك انه حقيقة ؟ آه . لقد تذكرت: ينبغي أن أفر . أفر بأسرع وقت .أفر تماماً ! لكن الى أين ؟ وأين ملابسي ؟ أين أحذيتي ؟ ها لقد أخذوها وأخفوها . فهمت ، ها هو معطفي لقد أفلت من انتباههم وها هو المال على الطاولة وها هي السفتجة . حمداً لله . سأحمل المال وأذهب، وسأستأجر مسكناً آخر . لن يجدوني بعد ذلك . لكن أين ذلك المكتب ؟ مكتب الاستعلامات . انهم سيكتشفونني كما اكتشفني رازوميخين . الأفضل أن افر تماماً . بعيداً الى أمريكا . وأن أسخر منهم . وينبغي أن أحمل معي السفتجة الممزقة . لعلها تنفعني هناك . وماذا أحمل ايضاً؟.. إنهم يظنونني مريضاً ولا يصدقون أنني قادر على المشي ... ها ها ها ... لقد قرأت في عيونهم أنهم يعرفون كل شيء فليس لي اذن الا ان اهبط السلم . لكن ما العمل اذا كان البيت مخفوراً ورأيتني وجهاً لوجه مع رجال البوليس ؟ ما هذا الذي هنا ؟ أهو شاي ! آه لقد بقي شيء من الجعة . نصف زجاجة منعشة ، ...

أفرغ مافي الزجاجة فملأ كأسا كبيرة تجرعها دفعة واحدة بتلذذ كأنه يطفىء النار المستعرة في صدره . ولم تمض دقيقة واحدة حتى أثرت الجعة في رأسه واعترته رعشة خفيفة لذيذة نوعاً .. فاستلقى وجذب الغطاء على نفسه وعادت أفكاره تزدحم محمومة معقدة حتى استولى عليه النعاس فدفن رأسه بغبطة في الوسادة النظيفة ، والتف بالغطاء النظيف الأنيق الذي استعيض به عن معطفه الممزق ونام نوم المحسنين .

استفاق على صوت شخص يدخل غرفته ففتح عينيه ليرى رازوميخين واقفاً على العتبة متردداً في الدخول . نهض راسكولنيكوف فجأة بقوة وراح ينظر في عيني صديقه وكأنه يحاول تذكر شيء معين فهتف رازوميخين قائلاً :

ـ كم انك مستيقظ ؟ حسناً . ها أنذا إذن . سوف أقدم لك علماً بنفقاتي
والتفت نحو السلم وصاح :
ـ ناستاسيا ! إلي بالرزمة .
سأل راسكو لنيكوف وهو يلقي حوله نظرة قلقة :
ـ كم الساعة ؟
ـ لقد نمت زمناً يقرب من ست ساعات ... لقد نمت ست ساعات طويلة وقد أقبل الليل ...
ـ رباه ! كيف استطعتُ النوم ؟
ـ وماذا بعد ؟ نم كما تشاء ! من ذا الذي يوقظك ؟ أتكون على موعد مع أحد ؟ ...

إن لدينا من الوقت ما يكفي . وأنا أنتظر يقظتك منذ ثلاث ساعات . وقد جئت مستطلعاً مرتين . فكنت في كلتيها نائماً . وذهبت مرتين الى دار زوسيّموف فلم أجده كذلك . لكن سوف يحضر . وقد اضطررت للتغيب قليلاً لأعمالي الصغيرة الخاصة لأنني كما أعلمتك أبدلت مسكني اليوم مع عمي . ألا تعرف أن لي عماً الآن ؟ لكن الى الشيطان . هذا لا يهم . لنعد الى العمل . وها نحن ... فكيف تشعر الآن أيها العجوز ؟

ـ انا على خير حال . لم أعد مريضاً يا رازوميخين . هل أمضيت زمناً طويلاً هنا ؟
ـ طبعاً طالما انني أخبرتك بأنني أنتظرك منذ ثلاث ساعات ...
ـ كلا ! أعني قبل ذلك ؟
ـ كيف قبل ذلك ؟
ـ أقصد منذ كم من الوقت جئت هنا ؟
ـ غريب . لقد حدثتك بذلك البارحة مطولاً . ألا تذكر ؟

مضى راسكو لنيكوف يفكر . كان يبدو له أن ما حدث لا يمكن أن يعدو الحلم . فلم يكن يذكر شيئاً . لذلك عاد ينظر الى رازوميخين مستفسراً فقال هذا :

ـــ هم ... لقد نسيت إذاً ... لقد بدا لي منذ حين أنك لم تكن مالكاً قواك تماماً وأعتقد أن النوم قد أفادك وأرى أن وجهك يبدو مشرقاً . فمرحى اذاً . لسوف تعمل ولسوف تذكر كل شيء اللحظة . والآن انظر يا عزيزي انظر .

وراح يزيل رباط الحزمة التي بدا مهتماً بها . وقال :

ـــ انظر يا صديقي لقد كنت شديد الاهتمام بهذه الناحية . لأنني أود الآن أن تعود رجلاً ! حسناً لنبدأ من الأعلى : أترى هذه القبعة « كاسكيت » انها رغم جمالها لم تكلفني مبلغاً كبيراً فاسمح لي أن أضعها على رأسك لتجربتها .

فدفعه راسكو لنيكوف بشيء من العنف وقال :

ليس الآن . فيما بعد .

ـــ أما هذا فلا ! يا صديقي روديا . لا تلح ! سيكون « فيما بعد » متأخراً ! ولن أنام الليل لأنني اشتريت هذه الأشياء دون معرفة مقاساتك والآن . أرني ... هاه ... انها مطابقة تماماً كما لو كان رأسك معي ! أتدري أن غطاء الرأس هو القطعة المهمة في مجموع الملابس ؟ ان صديقي تولستياكوف يضطر الى رفع قبعته البالية اذا وجد بين جمع من الناس بينما يكون الجميع محتفظين بقبعاتهم فيشكره الجميع ظناً منهم أنه شديد الاحترام ولا يعلمون أنه يخجل من ابقاء قبعته الزرية على رأسه .

والتفت الى ناستاسيا وقال وهو يضع قبعة راسكو لنيكوف العتيقة الى جانب الجديدة التي اشتراها :

— انظري يا ناستاسيا الى هاتين القبعتين الموجودتين هنـــا ، انه يطلق على هذه اسم قبعة . ولعلها تسمية مجازية . ولكن هل تعرفان كم دفعت ثمنـــاً لهذه القبعة الجديدة ؟

قالت الخادم :

— عشرين كوبيكاً على الاقل .

عشرون ؟ ويحك . ان عشرين كوبيكا اليوم لا تشتريك أنت فكيف تشتري قبعة !

لقد دفعت ثمانين كوبيكا ثمناً لها وما ذلك الا لأنها مستعملة بعض الشيء ... انما بشرط أن يعطوك بدلاً عنها في العام المقبل . قبعة دون مقـابل ! والآن لنقم بجولة في الأماكن « الواطئة » كما كنا نقول في الجامعة . أعلمـك قبل كل شيء أنني فخور بهذه السراويل (ونشر أمامه سروالاً كان في الربطة) لن تجـد فيها ثقباً ولا لطخه وهي بلون « الصدارة » وهذه من متطلبات العصر . ولا عيب فيهـا غير أن تكون أنت الشخص الثاني الذي يلبسها . لكن لا تنسى أن الأشيـاء المستعملة أحسن من الأشياء الجديدة لأنها تكون أكثر مرونة وانسجـاماً ... اسمع يا روديا انني أعتقد أن الانسان الذي يريـد دعم مركزه في الأوسـاط الاجتماعية مرغم على ملاحظة متطلبات الفصول ولمـا كنا في فصل الصيف فقـد اشتريت لك ألبسة صيفية . وفي الخريف سوف يلزمك ثوب من قمـــاش يبعث الدفء لتستطيع نزع هذه الملابس وأنا واثق أنها بانتظار الخريف ستصبح أسمالاً بالية بفضل اهمالك . والآن كم تعتقد أنني دفعت ثمنـاً لهـذا ؟ مع العلم أن شرط الاستبدال مجاناً في السنة المقبلة قائم أبداً ؟.. روبلين وخمسة وعشرين كوبيكا ! أن فيديا ييف — وهو الذي اشتريت من مخزنه هذه الثياب — يتعامل دائماً مـع زبائنه على اساس استبدال العتيق بجديد مجانـــاً . ومعنى ذلك أنك ستدفع مرة

واحدة فقط . والآن لننتقل الى الأحذية كيف تراها ! صحيح أنها تبدو مستعملة لكنها ستخدمك شهرين كاملين وهي فوق ذلك بضاعة أجنبية كان يحتذيها أحد كبار الموظفين في السفارة البريطانية وقد باعها منذ اسبوع ولم يكن قد استعملها اكثر من اسبوع ايضاً وكان الدافع على البيع الحاجة الى المال . والثمن : روبل واحد وخمسين كوبيكا . فهل تراني أجدت ؟

قالت ناستاسيا ملاحظة :

لعلها لا تطابق حجم قدميه .

هتف رازوميخين وكأنه أهين في كرامته وقال وهو يخرج من جيبه حذاء راسكو لنيكوف القديم البالي :

لا تطابق حجم قدميه ؟ اذاً ما تسمين هذا (وأشار الى الحذاء العتيق) أنا أحتاط لكل شيء . لقد عاينوا وراعوا قياس هـذه القاذورة التي كانت حذاء وبذلك أبرمت الصفقة بدقة تامـة ثم التفت الى راسكو لنيكوف وقال مردفاً :

ــ أما فيما يتعلق بالألبسة الداخلية فلقد اتفقت حول موضوعها مع صاحبة مسكنك وها هي ذي ثلاثة قمصان من القماش مع ربطات عنق مناسبة . والآن لنجمع النفقات : ثمانون كوبيكا للقبعة ، روبلان وخمسة وعشرون للثوب فيكون المجموع ثلاثة روبلات وخمسة كوبيكات ، روبل وخمسون كوبيكا للأحذية لأنها في حالة جيدة فيصبح المجموع أربعة روبلات وخمسة وخمسون كوبيكا أما الألبسة الداخلية فقد اشتريتها بالجملة بخمسة روبلات فيبلغ المجموع تسعة روبلات وخمسة وخمسون كوبيكا وتفضل بقبول الخمسة والأربعين كوبيكا الباقية ... ها أنت الآن يا روديا قد عدت جديداً . أما معطفك فهو مناسب في الوقت الحاضر ويستطيع الاحتمال بعض الزمن . خصوصاً وانه يحمل علامة « شارمر » وقد تركت لك أمر العناية بالجوارب والأشياء الباقية وتستطيع انتقاءها كيف شئت .

يبقى لديك خمسة وعشرون روبلا دون أن تنزعج من أجل ياشانكا أو أن تفكر في أجرة السكن لأنني كما قلت لك جعلت لك حسابا جارياً غير محدود . والآن اسمح لي بأن أرجوك باستبدال هذا القميص الذي ترتديه ولن أدهش اذا ما ثبت أن مرضك كله مختبئ فيه .

كان راسكو لنيكوف يسمع هذا الحديث بامتعاض وقد بدت على وجهه دلائل الاشمئزاز وكأن شراء تلك الملابس أساء اليه فقال وهو يلوح بيده :

دعني لا أريد الآن .

فهتف رازوميخين .

— هذا لن يكون ايها العجوز ! أتعتقد أنني اتلفت حذائي بالمشي لاتلقى هذا الجواب ؟ هيا ناستاسيا الشجاعة ساعديني ولسوف نتغلب على مقاومته وسنجعله يبدل ثيابه . وقد فعل !..

ادعى راسكو لنيكوف بعدئذ مستلقياً وهو صامت يفكر منتظراً خروجهما. وسأل بمرارة وانظاره نحو الجدار :

— بأي مال اشتريت هذه الحاجيات !

بأي مال ؟ اسمع هذا المزر ! بمالك ! لقد جاء موظف منذ قليل يحمله اليك! ألا تذكر ان امك ارسلته بواسطة فاكروشين ؟

— نعم لقد بدأت اذكر الآن .

نطق راسكو لنيكوف بتلك العبارة بصورة يقطر ألماً . بينما كان رازوميخين يرقبه بشيء من القلق . وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل رجل طويل القامة عريض المنكبين كان يبدو أنه يعرف راسكو لنيكوف معرفة سطحية فهتف رازوميخين بالقادم قائلا بلهجة مرحة :

— زوسيموف ها أنت ذا أخيراً .

الفَصلُ الرابعُ

كان « زوسيموف » طويل القامة ضخم الجثة ذا وجه ممتلىء شاحب نظيف جداً وشعر أشقر مائل إلى البياض منتصب على رأسه يضع على عينيه نظارات انيقة ويلمع في أصبعه خاتم ذهبي ، في السابعة والعشرين من عمره يرتدي معطفاً من الجوخ الخفيف أودع فيه الخياط عنايته وفنه ، وسراويل صيفية فاتحة اللون حتى ليحكم الانسان للوهلة الأولى أنه شديد العناية بهندامه ومظهره . كان قميصه ناصع البياض وصدارته مزينة بسلسلة ذهبية تهبط حتى اسفل بطنه يبدو متثاقل الخطى ثقيل الظل رغم المجهود الذي يبديه ليظهر بمظهر المرح وكانت العناية التي يحيط بها نفسه واضحة في كل خطوة وكل لحظة حتى أن كل معارفه كانوا يشعرون بأنه انسان ثقيل ولكنهم يتفقون مع ذلك بانه خبير في مهنته .

هتف رازوميخين :

— ياعزيزي ! لقد ذهبت مرتين الى منزلك فلم أجدك ... ها ان المريض قد استعاد حواسه .

فسأل زوسيموف مغمغماً :

— أرى ذلك أرى ذلك .. والآن كيف حالك ياراسكولنيكوف ؟

ومضى دون أن ينتظر جواباً فجلس على طرف « السرير » باسترخاء وإهمال .

قال رازوميخين :

ـــ انه لا يزال ينظر بمنظار أسود الى الأشياء ولقد اضطررنا منذ لحظة على أن نبدل له ثيابه بالقوة فكاد أن يبكي .

ـــ كان يجب ارجاء ذلك الى ما بعد طالما أنه لم يرق له ... أرني نبضك أما زال رأسك يؤلمك ؟ هم ؟...

أجاب راسكولنيكوف بلهجة يشوبها الغضب وقد نهض فجأة ولمعت عيناه ببريق خاطف :

ـــ أنا في حالة جيدة ... جيدة تماماً . وتهاوى من جديد على الوسادة مستديراً نحو الجدار .

كان « زوسيموف » يرقبه باهتمام فقال :

ـــ حسناً جداً . انه يتقدم ... هل تناول طعاماً ؟

فراح رازوميخين يعدد له أنواع الطعام التي تناوله المريض ويسأله عن الألوان التي يجب تقديمها اليه في المستقبل . فقال :

ـــ فليطعم مايشاء ... حساء .. شاي باستثناء البصل والقثاء ولحم البقر... واقطعوا عنه الدواء والعلاج وسأعوده لأراه .

قال رازوميخين بلهجة الواثق :

ـــ سوف أجعله يتنزه مساء غد وسنمضي الى حديقة « يوسوبوف » ثم إلى « الباليه دو كريستال » .

ـــ حسناً لن أعوده غداً ولن تضيره جولة صغيرة وسنرى بعد ذلك ...

ـــ مما يؤسف له أنني اليوم أقيم حفلة على بعد خطوتين من هنا ... كم وددت لو استطاع أن يشاركني فيها حتى ولو كان مستلقياً على سريره ! هل تأتي أنت يازوسيموف ؟ لا تنس انك وعدتني !

ـــ طبعاً لكنني سأكون متأخراً قليلاً . ماذا ستقدم ؟

ـ لا شيء اكثر من شاي وعرق وبعض السمك ثم الحلوى ايضاً . هـذا كل ما هناك لأن الحفل مقتصر على الاصدقاء .

ـ ومن هم ضيوفك ؟

ـ اشخاص من الحي . كلهم حـــديثو المعرفة بي باستثناء عم عجوز لي أرتبطت به مؤخراً بأسباب معينة لأنه جاء الى «بيترسبورغ» امس فقط . اننا لا نلتقي اكثر من مرة كل خمس سنوات .

ـ وماذا يعمل عمك ؟

ـ لقد كاد ان يتلف حياته كلها في احدي المقاطعات كرئيس مركز البريد وهو الآن يتقاضى راتباً تقاعديا وله من العمر خمسة وستون عاما وهو معجب بي وسيكون في الحفله قاضي التحقيق المختص بالحي «بورفير سيميونوفيتش» وهو رجل قانوني هل تعرفه ؟

ـ اهو من اقربائك ايضا ؟

ـ قريب بعيد جداً . لكن لمَ امتعضت قليلا ؟ الأنك اختلفت معـه ذات يوم تكاد الآن ان تلتهمني بنظرتك الغاضبة ؟

ـ انا لا اعلق اي اهتمام عليه .

ـ ذلك احدى اذن . وسيكون بين الموجودين طلاب واستاذ وموظف وموسيقي ثم الضابط « زاميوتوف »

ـ قل لي اذا امرت ما هي العلاقة التي تربطك او تربطه (واشار باصبعه نحو راسكولنيكوف) بواحد مثل « زاميوتوف » ؟

ـ اوه ! يالك من رجل منمص تهتم بالاسئلة المتعلقة بالمبدأ ! انك تعتمد في حياتك على مثل هذه النظريات وكأنك جبلت عليها . وبذلك لا يجرؤ المرء على ان يستغرق في السرور معك ! اما بالنسبة الي فانني ابحث قبل كل شيء عن

الرجل الطيب . تلك هي نظريتي . وزاميوتوف رجل طيب جداً .

— نعم ! ويأكل من المعالف ...

غضب رازوميخين وصاح فجأة .

— ليكن ! لا يهمني ذلك . هل امتدح نفسه أمامك بمثل هـــذا القول ؟ إن ما يهمني فيه هو أنه رجل طيب . ولو اضطر الانسان للتدقيق في كل النـاس لأخفق — ولاعجبه — في العثور على شخص ممتاز واحـد . أنا أراهن أن المدقق المتعمق لا يدفع ثمناً لشخصي بصلة واحدة ولو أضيف إليّ شخصك !

— هذا قليل ! أنا أدفع بصلتين ...

— أما أنا فواحدة فقط . قد يكون زاميوتوف خبيثاً أو سفيهاً ، غـير أنني أستطيع دائماً إيجاد الفرصة التي تمكنني من جذب شعره . إذ ينبغي أن يعمـــد المرء مع مثله الى المداراة واللطف وليس الى العنف ، لأنه يصعب إصلاح المرء بالشدة والتنكر له ، خصوصاً إذا كان خبيثاً . ينبغي أن يكون الانسان شديد الدهاء مع الخبيثين . وأنت أيها التقدمي الأحمق ، إنك لا تفهم شيئاً من هذا . أنت تحترم الطبيعة البشرية فقط ، بل وتنتقد نفسك أيضاً . مع ذلك لا بأس من أن أخبرك بأن بيننا نوعاً من العمل .

— يسرني أن أعرف ذلك العمل ...

— إنها لا زالت قضية الدهان ... أقصد دهان البيوت . لكننا سنجد طريقة لانقاذه من ورطته وأعتقد أن لا خطر عليه الآن فقد وضحت القضية وكل ما نعمله الآن إن هو الا ضرب عصفورين بحجر واحد .

— أي دهان بيوت تعني ؟

— كيف ؟ ألم أخبرك بالأمر ؟ كلا ؟ حسناً . أعتقد أنني سردت لك البداية

فقط !.. أنت تعرف حكاية العجوز المرابية أرملة الموظف ... حسناً . ان أحد الدهانين متهم بالقضية الآن .

— آه .. نعم . نعم . لقد سمعت شيئاً عن تلك الجريمة . وهي قضية استلفتت انتباهي الى حد ما وقد قرأت ما نشرته الصحف ... استمر ...

كانت ناستاسيا واقفة قرب الباب تتابع الحديث باهتمام فقالت موجهة حديثها الى راسكو لنيكوف :

— لقد قتلوا إليزابيت أيضاً . ..

فغمغم راسكو لنيكوف بصوت مختنق :

— اليزابيت ؟

— نعم اليزابيت . بائعة الثياب القديمة . أنت تعرفها جيداً . لقد كانت تتردد علينا وقد رتقت ذات مرة قميصك .

أدار راسكو لنيكوف وجهه نحو الجدار وراح يتأمل زهرة بيضاء منقوشة على سجادة الجدار الصفراء القذرة الممزقة ويعد بتلاتهـا والخطوط التي تحيط بها .

شعر أن أعضاءه قد تصلبت وكأنها لم تعد قطعة من جسمه فلم يحاول القيام بأية حركة بينما ظلت انظـاره معلقة بالزهرة البيضاء . ونظر زوسيموف بامتعـاض واضح الى ناستاسيا وقد أزعجه قولها وقال موجهاً حديثه الى رازوميخين :

— حسناً ، وماذا وقع لذلك الدهان ؟..

أدركت ناستاسيا أنه يطلب اليهـا السكوت فزفرت وصمتت بينما أجاب رازوميخين بلهجة المتفاخر :

— إن ذلك المسكين قد أتهم بالجريمة .

ـ هل أقيمت ضده الدلائل ؟ ما هي البراهين ؟

ـ مجرد شبهات وظنون . غير أن ما أخذ عليه لا يمكن أن يكون مهماً . ما كان هذا ينبغي شرحه . إنهما ظنون كتلك التي أحاطت بالآخرين : كوخ وبيستريا كوف ، اللذين أوقفا في حينه . أما كيف وقع ذلك فان الانسان ليخجل من ذكره ... ومن المنتظر أن يزورني « بيستريا كوف » اليوم ! وعلى فكرة يا روديا أنت تعرف هـــذه القضية . فقد وقعت قبل مرضك أعني قبل أن يغمى عليك في مركز البوليس حينما كانوا يتحدثون عنها هناك !

نظر زوسيّموف الى راسكولنيكوف بفضول لكن هذا لم يطرف .

ـ أتدري يا رازوميخين بأنك تبدو مولعاً في التدخل في كل الأمور ؟..

ـ المهم أن أستطيع تخليص الدهان المسكين من ورطته .

قال ذلك وهو يهوي بيده على المائدة التي كانت بجانبه وقد استبد به الحمـاس وصمت قليلاً ثم أردف :

ـ إنه ليس عاراً أن يخطىء المرء ... بل ان الخطأ مفيد لأنه يوصل الانسان الى الحقيقة ! لذلك فأنا لا أنقم على البوليس خطأه بل إن ما يزعجني في الموضوع هو استمساكهم بالخطـــأ . وأنا أميل الى بورفير رغم ذلك . والآن لننظر في الأسباب التي جعلت رجال « البوليس » يسلكون طريقاً خاطئاً : إنهم يعتمـدون على تناقض يدعون وقوعه في أقوال كوخ وبيستريا كوف . فهما قررا أنهما شاهدا الباب مغلقاً أول الامر ثم لما عادا ومعهما الحارس وجداه مفتوحاً . لذلك فقد وجب أن يتهما بالجريمة فتأمل هذا المنطق !

ـ هيا ... هيا . لا تندفع ! لم يكن لديهم غير ما عملوا . وعلى فكرة كوخ أعتقد أنني أعرف عنه شيئاً ... إنه كان يشتري من العجوز « الرهائن » التي يعجز أصحابها عن تسديد ما استلفوه عليها ،

— نعم إنه لص ! وهو يشتري أيضاً السندات المالية ! إنه فارس أعمال ! ليحمله الشيطان ! أنا لا يزعجني هذا ألا تفهم ! إن الوتيرة التي يسيرون عليها هي كل ما يثير أعصابي ... « الروتين » مع ما فيه من سخف وتضليل ... انني اعتقد أن في مقدورهم في هذه القضية على الاقل أن يتخلوا قليلاً عن أساليبهم البالية وأن يتبعوا نهجاً جديداً خاصاً . ان الملابسات « البسيكولوجية » في هـذه القضية تتطلب نهجاً خاصاً غير عادي . انهم يدعون أن لديهم « حقائق » أو ما يسمونه بالوقائع الثابتة . لكن تلك الوقائع « الثابتة » ليست كل شيء في سياق التحقيق . بل ان نصف الحل يتوقف على الطريقة التي يفهمون بها تلك الوقائع !

— يبدو أنك تفهمها خيراً منهم !

— طبعاً ... طبعاً ... اسمع هذه المعجزة التي يتذرعون بها : في صبيحة اليوم التالي للجريمة ، كانوا يستجوبون كوخ وبيستريا كوف رغم أنهما أوردا أدلة لا تقبل الجدل ، تدعم أقوالهما وتبين تصرفاتهما في ذلك اليوم المشؤوم . فوقع حادث غير منتظر . إذ تقدم شخص يدعى « دوخكين » — وهو فلاح يدير حانة تقع مقابل البناء الذي وقعت فيه الجريمة — وقدم للرئيس علبة حلي تحوي على قرط للاذن وأدلى بالاقوال التالية :

قال : « انه أول أمس مساء ، بعد الساعة الثامنة ، — لاحظ التاريخ والوقت — جاءه العامل الدهان نيكولا ، وهو من رواد حانته ، يحمل علبة صغيرة فيها قرط من الذهب باحجار لامعة صغيرة ورجاه أن يسلفه روبلين عليها . ولما سأله من أين له هذه الحلية ؟ أجابه بأنه عثر عليها على الرصيف ! فاقتنع بجوابه وأعطاه روبلاً واحداً لأنه قدر أنه اذا رفض تسليفه أي مبلغ فانه سيمضي الى سواه . وعلى ذلك فان من الافضل والحالة هذه أن يقرضه بعض المال خصوصاً

وانه سينفقه في حانته . وهكذا احتفظ بالحلية الذهبية وأعطاه الروبل وهوعازم على ابلاغ رجال الشرطة اذا اتضح انها كانت مسروقة ! » .

لا شك أنت ترى أن تلك الحكاية تجعلك تنام وأنت واقف على قـــدميك ! لأن « دوخكين » كاذب في روايته وأنا أعرفه فهو اذا كان قـد « لطش » من نيكولا حلية تساوي قيمتها ثلاثين روبلاً لقاء روبل واحـد فليس ذلك ليخبر رجال الشرطة فيما بعـد كما صرح ! ولم تقف قصته عند هـذا الحد بل انـــه تابع يقول :

« ان هذا الفلاح « نيكولا ديمـاتتبيـكس » معروف من قبلي ... فهو من مقاطعة « ريازان » التابعة لناحية « زارائيسك » وأنا شخصياً من هنـاك ولذلك أعرفه منذ أن كان طفلاً . فهو يحب الشراب رغم أنه ليس مدمناً . وأنا اعرف أنه يشتغل مع زميله « دميتري » الذي هو كذلك من بلدته . وقـد شهدته يجرع كأسين متتالين يدفع ثمنها من الروبل الذي اقترضه مني ثم يطبق على ما بقي له منه ويمضى . ولم يكن « دميتري » معه في تلك اللحظة . وفي اليوم التالي سمعنا أن آليونا ايفانوفنا وأختها اليزابيت قد قتلتا بضربات فـأس . وكنت أعرف العجوز وأختها فغمرني شك مفاجيء حول مصدر الحلية التي أتاني بها «نيكولا» وذهبت لأرى حيث يشتغل مع « دميتري » في ذلك البناء ورحت أسأل بدهاء وحذر لأعرف شيئاً عن مصدر الحلية وكان أول سؤال وجهته هو :

ـــ هل نيكولا هنا ؟

فأجابني دميتري أن نيكولا يحتفل اليوم بالشراب لأنــه عاد مساء أمس عنـد الشفق ثملاً مترنحـاً ولم يلبث معي أكثر من عشر دقائق في الدار ثم خرج من جديد ولم أره بعد ذلك فصممت على انهاء العمل وحدي .

ولما كان المسكن الذي يدهنون جدرانه في الطـابق الاول وكان يفضي الى

السلم الذي يقود الى حيث تقطن الضحيتان فقد أحتفظت بهذه الملاحظة لنفسي عازماً على الافادة منها في ربط الحوادث واستقصيت كل المعلومات من الجريمة وعدت الى داري فريسة للشكوك وفي صباح اليوم التالي شاهدت « نيكولا » داخلاً حانتي وقد خف ثمله وبدا أنه لم يأكل بعد شيئاً وقدرت أنه يستطيع فهم الحديث الذي سأوجهه اليه فلما جلس على مقعد وحيداً — ولم يكن في الحانة الا رجل آخر غريب مدمن كان نائماً في تلك اللحظة على مقعده باستثناء الفلاحين اللذين يقومان بالخدمة — اقتربت منه ودار بيننا الحديث التالي. قلت :

— هل رأيت دميتري ؟

— كلا لم أره !

— ولم تذهب الى حيث يشتغل ؟

— لم أذهب منذ أول أمس .

— ولكن أين نمت ليلتك هذه ؟

— في حي « الرمال » عند آل كولومنا .

— ومن أين جئت بذلك القرط أمس ؟

فأجاب دون أن ينظر إلي :

— عثرت عليه على الرصيف .

— هل سمعت أن في ذلك المساء بالذات وفي تلك الساعة ايضا وقع كذا وكذا على السلم الذي تشتغل في مسكن يطل عليه ؟

— كلا ! لا أعرف شيئا .

فلما قصصت عليه ما وقع كان يصغي الي وهو شاحب اللون متسع الحدقتين ، وغدا أقرب الى لون الحكك ورأيته يأخذ قبعته ويحاول النهوض فعملت على استبقائه وقلت :

ــ انتظر يا نيكولا . ألا تشرب قدحاً ؟ ثم غمزت الى احدالفلاحين مشيراً الى الباب ليقف عنده وتركت بدوري الخوان الذي كنت اقف وراءه .وفجـأة نهض نيكولا دون أن نستطيع اللحاق به وركض نحو البـاب وخرج مندفعاً ثم اختفى عنـد منعطف الطريق !.. فازدادت شكوكي وتأكد لي أنـه هو القاتل ! » .

فقال زوسّيموف بصوت خافت :

ــ ذلك واضح .

ــ انتظر واسمع النهاية : غني عن الذكر أن رجال الشرطة راحوا على قـدم وساق يبحثون عن نيكولا وانهم أوقفوا دوخكين وفتشوا منزله وحانته وكذلك فتشوا مسكن دميتري فجعلوا عاليه سافله ولم ينج منهم آل كولومنـا واستطاعوا أمس الأول القبض على نيكولا وسوقه الى السجن . وجدوه على ما يبـدو في « خان » بالقرب من مكان نسيته ويبدو أنه لما بلغ ذلك « الخان » نزع صليبه الفضي من عنقه وطلب استبداله بقـدح من العرق شربه . ولم تمض على وجوده بضع دقائق حتى شاهـدت امرأة ـ كانت تقصد الاصطبل لتحلب البقرات ـ نطاق نيكولا معقوداً الى عمود في السقف على شكل عقده سيالة ورأتـه يصعد على مقعد محطم ويحاول إدخال عنقه خلال العقدة فاستطاعت أن تطلق صيحات مذعورة هرع على أثرها عدد من الناس ولما قيل له :

ــ إذاً هذا ما كنت تريد عمله ؟

أجاب :

ـ خذوني الى دائرة البوليس لسوف أعترف بكل شيء .

وهكذا اقتادوه بموكب يليق به الى دائرة البوليس التي طلب أن يأخـذوه

اليها وهي التي في هذا الحي . وهناك راحوا يستجوبونه فعرفوا اسمه الكامل وان له من العمر اثنين وعشرين عاماً فسألوه .

ـ هل شهدت أحداً على السلم خلال الساعة كذا وكـذا بينما كنت تشتغل مع دميتري .

فأجاب :

ـ يجوز . لقد مر عدد من الناس . لكننا لم ننتبه اليهم .

س : هل سمعتما حركة ما أو ضجيجا ؟

ج : لم نسمع شيئا يلفت النظر .

س : لكن انت يا نيكولا هل قتلت وسلبت في ذلك اليوم وفي ساعـة كذا تلك العجوز واختها ؟

ج : لا علم لي بشيء من ذلك بل وما كنت اظن ان هـذا سيقع وقـد سمعت القصة من آتاناس يا فليتش للمرة الأولى . وكان ذلك في الحانة .

س : ومن اين جئت بذلك القرط الذهبي ؟

ج : لقد وجدته ملقى على الرصيف .

س : لمَ لم تذهب في اليوم التالي الى عملك كالمعتاد ؟

ج : لأنني كنت اسكر .

س : واين كنت تسكر ؟

ج : في امكنة كذا وكذا .

س : ولمَ فررت من لدن دوخكين ؟

ج : لانني كنت خائفاً .

س : وممَ كنت خائفاً ؟

ج : كنت خائفاً من المحاكمة .

س : ولمَ تخاف منها طالما أنك لست مجرما ؟ ... »

وهكـذا يا زوسيموف سواء صدقت أم لم تصدق ، ألقي عليه هـذا السؤال السطحي وبهذه العبارات بالذات . فما رأيك ؟

ـ ليس سخيفا إذا كانت القرائن موجودة واضحة .

ـ انا لا أتحدث الآن عن الأدلة بل عن السؤال . عن الطريقة التي يفهم بها هؤلاء الناس واجباتهم ! الى الشيطان كل هذا ! لقد اعتصروه بالأسئلةعصراً حتى اعترف وقال : « كلا لم أجد الحلية على الرصيف بل وجدت العلبة في المسكن الذي نشتغل فيه أنا ودميتري » ولما سألوه : وكيف حدث ذلك اجاب :

ــ كنا دميتري وأنا قد اشتغلنا طوال اليوم وكانت الساعة الثامنة حين همنا بالانصراف وإذا بدميتري يأخذ فرشاة مغموسة بالدهان فيلطخ وجهي به على سبيل المزاح ويفر . فتبعته غاضباً وأنا أصرخ كالوحش الجريح ولم أكد أبلغ الباحة حتى اصطدمت بالبواب الذي كان يرافقه بعض السادة ولا أذكر عددهم. وهنا راح البواب يسمعني حماقات حتىجاء البواب الثاني هارعاً وخرجت زوجة الأول من كوخها وراحت تدعم زوجهـا وتساعده في سبابه وكذلك كان هناك رجل وبرفقته سيدة كانا ينتظران في تلك اللحظـة على البـــاب الخارجي فراحا يوبخاني أيضاً لا لشيء إلا لأننا دميتري وأنا أحدثنا ضجيجاً وسببنا في تأخيرهما عن متابعه السير. والحقيقة أنني كنت في تلك اللحظة قابضاً على فروة رأس دميتري طارحاً إياه أرضاً منهالاً عليه بالضرب وكان دميتري بالمثل قابضاً على شعري يضرب وجهي ويركلني بساقيه دون أن نكون حانقين بل كانت القضية مجرد مزاح فقط . وتخلص مني دميـتري وانطلق إلى الشارع فهرعت وراءه لكنني لم أبلغه فعدت إلى المسكن الذي كنا نشتغل فيه لآخـــذ أدواتي التي تركتها هناك عند لحاقي بدميتري ولأرتب العدة .وعندئذ شاهدت في المشى قرب الباب بمحاذاة الجدار علبة صغيرة تعثرت بها قدمي فلمـا

انحنيت عليها متفحصاً رأيت شيئاً ملفوفاً في ورقـــة بعناية وإذا هو قرط ذهبي »

صاح راسكولنيكوف فجأة وهو يلقي نظرة وجلة شاردة مضطربة الى رازوميخين ويتناهض على يديه بمجهود عنيف :

ــ وراء الباب ؟ كانت وراء الباب ؟ وراء الباب ؟

فأجاب رازوميخين وهو ينهض عن مقعده بدوره :

ــ نعم ، وماذا في ذلك ؟ مابك ؟ ماذا أصابك ؟

فأجاب راسكولنيكوف بصوت خافت لم يبلغ مسامعه وهو يتهاوى على الوسادة مستديراً الى الجدار :

ــ لا شيء

ران السكوت عليهم جميعاً لحظة طويلة حتى قطعه رازوميخين محدثاً زوسيموف بعد ان القى عليه نظرة استفهام :

ــ لقد عاد يهذي ولا شك . انه يحلم .

فهز زوسيموف رأسه نفياً وقال :

ــ تابع حديثك . لا تلق بالاً اليه ماذا بعد ؟

ــ ماذا بعد ؟ إن الأمر واضح ، لم يكد نيكولا يرى الحلية حتى ترك كل شيء : العمل ودميتري ، وهرع إلى دوخكين يقدم له الحلية لقاء روبل يستلفه كما اتضح. لكنه اكتفى بالادعاء بأنه لقيها على الرصيف وراح بعدئذ يحتفل بحظه « السعيد ». أما فيما يتعلق بالجريمة فهو لا زال متمسكاً بأقواله من أنه لم يسمع عنها مطلقاً الا في اليوم الثالث لوقوعها ، ولما اعيد استجوابه عن سبب اختفائه طيلة ذلك الوقت كان يجيب : ــ كنت خائفاً .

وسئل عن سبب عزمه على الانتحار فقال :

ـ كنت أرددفي نفسي شيئاً

ـ ما هو ذلك الشيء ؟

ـ هو أنني سأحاكم ...، وهكذا تعود الأسئلة التي لا تنتهي . والآن ما هي استنتاجاتك مما سمعت ؟

ـ وماذا تريدني أن أستنتج ؟ هناك قرائن لا يمكن التغاضي عنها مهما بلغت تفاهتها : هناك أمر واقع ! لا أعتقد أنك تريد أن يطلق سراح ذلك الدهان .

ـ كلا ! لكنهم ألبسوه تلك الجريمة مقتنعين بصدق فراستهم .

ـ إنك تنفعل وتثور . ولكن ذلك القرط ؟ انك ولا شك توافق معي على أن ذلك القرط الذي وقع في يده في ذلك اليوم بالذات وتلك الساعة بالذات والذي هو واحد من مجموعة من الحلي اختفت كلها من صندوق العجوز ، إنك توافقني على أن وجود القرط مع نيكولا أمر مثير وأن التحقيق في هذا الموضوع عادي جداً بل واجب .

هتف رازوميخين حانقاً :

ـ كيف بلغ إليه القرط ؟ غريب الا ترى في هذه الاقوال ـ وأنت الطبيب الذي تهتم قبل كل شيء بالطبيعة الانسانية ولك من عملك ما يتيح لك ذلك بسهولة ـ صورة عن طبيعة نيكولا ؟ ألا تلمس بوضوح أن كل ما صرح به خلال استجوابه كان الحقيقة الناصعة المطلقة ؟ ثق أن القرط قد بلغ إليه بالطريقة التي أوردها : تعثرت قدمه بالعلبة فأخذها .

ـ الحقيقة الناصعة المطلقة ؟ مع ذلك ألم يعترف بأنه كذب في المرة الأولى ؟

ـ اصغ إلي بانتباه : إن البواب و « كوخ » و « بيستريا كوف » والبواب

الآخر وزوجة البواب الأول والبائعة التي كانت في الكوخ والمستشار القضائي «كريوكوف» الذي كان يترجل في تلك اللحظة من عربته ويجتاز عتبة المدخل مع سيدة ، كل هؤلاء وأعني ثمانية أو عشرة شهود يصرحون بصوت واحد أن «نيكولا» كان ملقياً «دميتري» الى الأرض مرتمياً عليه يعاركه ويضربه بينما كان الآخر يجذب شعره ويركله بشدة ، وانهما كانا مستلقين أمام الباب يعرقلان المرور وانهما استهدفا لسباب واستنكار من كل الجهات بينما ظلا «كطفلين» — كما قال الشهود تماماً — يتعاركان ويتضاربان ويتضاحكان ويتلاحقان كالأطفال الذين يلعبون في الشارع . فهل سمعت هذا ؟ والآن انتبه إلى هذه الملاحظة : كل هذا بينما وفي الطبقة الرابعة جثتان لا زالتا دافئتين لامرأتين يتهم في قتلهما وسلبهما نيكولا بالذات ، فلو أنه ارتكب أمراً كهذا ألا يقوم أمامنا سؤال بسيط وهو : كيف كانت تلك الضحكات والصيحات وذلك العبث الصبياني أمام الباب الرئيسي لذلك البناء تصدر عنه ؟ وهل تتفق مع الفأس والدم والحيلة والوحشية والمكر البادية على الجريمة نفسها ؟ كيف يقتل امرؤ منذ خمس دقائق على الأكثر ثم يمضي تاركاً وراءه جثتين ساخنتين مهشمتي الرأس وهو يعلم أن الناس سوف يكتشفون الأمر بين لحظة وأخرى وبدلاً من التواري والاختفاء يلعب مع شريكه في الجريمة — ولا بد أن يكون دميتري شريكه على أساس ذلك الافتراض — كالطفل الذي لا يحمل وزراً على ضميره ويجتذب بذلك أنظار عشرة من الشهود ليتحققوا من شخصيته . ويجمعوا على رؤيته .

— لا شك أن ذلك غريب إنه غير معقول بالطبع . لكن ...

— لا يوجد «لكن» أيها العزيز ... فاذا كان القرط الذهبي الذي وجد في تلك الساعة وفي ذلك اليوم في حوزة نيكولا يشكل قرينة جدية استناداً الى

أقوال المتهم التي اعتبرت«موضع النقد والاعتراض» فانه ينبغي الأخذ بعين الاعتبار الوقائع المؤيدة والتي تقول « انه من العبث نقض الأقوال » مع ذلك هـل ينتظر من القضاء عندنا ، وهو على ما نعهد به من اتجاه ، هل يمكن لهذا القضاء أن يعتبر هذا الدليل الذي يقوم على استحالة نفسانية «بسيكولوجية » وعلى«الاستعداد الفكري »، هل يمكن أن يعتبره أمراً مسلماً به تنهار أمامه الوقائع المادية مهما كان نوعها ؟ كلا ! لا أعتقد أن رجلاً سيشنق لمجرد عثورهم معه على حلية تخص امرأة قتيلاً . خصوصاً وانه ما كان ليعرض تلك الحلية لو أنه كان الفاعل وهنا القضية الرئيسية في الموضوع وهذا هو سبب حماسي فهل تفهم ؟

— نعم .. أرى أنك متحمس . انتظر لحظة ، لقـــد سها عني سؤال أريـد طرحـــه عليـك : ماذا يثبت أن ذلك القرط جاء من صندوق العجوز ؟

بان الانزعاج على وجه رازوميخين وقال بشيء من الامتعاض :

— لقد برهن على ذلك. لأن « كوخ » الذي تعرف على القرط دل على صاحبه الذي استلف من العجوز وأكد هذا صدق قوله.

— ليكن . بقي سؤال : ألم يشاهد احد نيكولا في الوقت الذي كان فيـه كوخ وبيستريا كوف يصعدان السلم ؟ وهـل لا يمكن التدليل على ذلك بطريقة ما ؟

فأجاب رازوميخين بأسف :

— المؤسف ان احداً لم يره حتى ولا كوخ وبيستريا كوف . فهما لم يلاحظا العمال عندما صعدا الى مسكن العجوز رغم ان شهادتهما لم تعد الآن ذات موضوع . لقد قالا : « شهدنا باب مسكن مفتوحاً ولا شك ان اعمالاً وترميمات كانت تجري

فيه ! فلم نعر ذلك التفاتاً ولسنا متأكدين تماماً ما إذا كان العمال موجودين فيه في تلك اللحظة ام لا » .

ــ هم ! وعلى ذلك فان كل ما يمكن الاستشهاد به لاظهار براءته هو ذلك العراك وتلك الضحكات التي كان يرددها وهو يصارع دميتري . ليكن . انه دليل قوي ولكن اسمح لي من جديد ان اطرح عليك سؤالاً :

ــ كيف تفسر الأمر بنفسك ؟ اقصد كيف تفسر وجود القرط في المسكن الخالي اذا كان ما قاله نيكولا بصدد عثوره عليه صحيحاً ؟

ــ كيف أفسر ؟ وما الذي يدعو للتفسير هنا ؟ ان الأمر واضح . أو على الاقل إن الطريق التي ينبغي على التحقيق أن يسير عليها واضحة تماماً . بل ويوضحها القرط نفسه : لقد ترك القاتل الحقيقي ذلك القرط يسقط منه . فقد كان في مسكن القتيل عندما قرع « كوخ وبيستريا كوف » الباب وكان قد أوصده من الداخل . وارتكب « كوخ » حماقة بمغادرته مكانه مما أتاح للقاتل فرصة التسلل من المسكن والهبوط على السلم خصوصاً وانه لم يكن أمامه طريق آخر للفرار . وعلى السلم اضطر أن يحتجب عن انظار كوخ وبيستريا كوف والبواب بالاختفاء في المسكن الخالي الذي كان دميتري ونيكولا قد تركاه منذ حين . ولا شك أنه توارى وراء الباب عندما كان البواب والزائرون يصعدون إلى الطبقة الرابعة وعندئذ نزل بهدوء في اللحظة التي كان دميتري ونيكولا يتنازعان في الشارع والباب العمومي خالياً بعيداً عن الرقابة . ولا شك أن ذلك القرط قد سقط منه حينما كان متوارياً وراء الباب دون أن ينتبه له لأنه كان منصرفاً إلى نواحي أخرى . تلك هي القضية كلها .

ــ لعمري ياعزيزي إنه تصوير بارع ومناقشة وجيهة .

— ولكن لمَ إذاً ؟ لمَ إذاً ؟

— لأن ذلك كله مرتب ببراعة ودهاء حتى ليظن أنه قصة مسرحية موضوعة .

كان رازوميخين على وشك الرد على تلك الملاحظة حينما فتح الباب ودخل انسان جديد لم يكن يعرفه أحد من الثلاثة الموجودين في الغرفة .

الفَصْلُ الخَامِسُ

كان الداخل رجلاً متصنعاً في حركاته ، متعجرفاً لا يمكن تحديد سنه على الضبط ذا سحنـــة متحفظة صارمة ... وقف على العتبة وسرح طرفه فيما حوله وبدت على وجهه امارات الدهشة العميقة المهينة وتمتم :

في أية بؤرة أرى نفسي ؟

كان يتلفظ بتلك الكلمات بنوع من الحذر المقترن بالخوف والغضب وراح يتأمل « الجحر » المنخفض الضيق الذي يأوي اليه راسكولنيكوف، ثم استدار دون أن تتبدل نظرة القلق والترفع المرتسمة في عينه ، ونظر الى راسكولنيكوف وهو مسجى دون حراك على ذلك « الديوان » الحقير وهو شبه عار من الثياب، أشعث الشعر ، قذر الوجه طويل اللحية ... وانتقل بعدئذ الى معاينة وجـــه « رازوميخين » المهمل الشعر واللحية الذي راح يحملق فيه بدوره بفضول مثير دون أن يتحرك من مكانه ، وران السكون دقيقة أعقبه تبدل في المشهد : ذلك أن الغريب شعر من « حرارة اللقاء الذي استقبـل به في ذلك « الجحر » أنه لن يتقدم قيد أنملة في الغاية التي ينشدها اذا استمر على أسلوبه المترفع الشامخ المبـالغ فيه ، لذلك فقد عدّل خطته بما يتناسب و « المقام » وقال بلهجة مهـــذبة خاليـة من التصلب ، موجهاً حديثـه الى زوسيموف وهو يتمهل في نطق الكلمات .

— روديون رامونوفيتس راسكولنيكوف ، سيدٌ كان طالباً أو على الاصح طالباً سابقاً ؟

وتحرك زوسيموف ببطء وكاد أن يجيب لو لا أن تدخل رازوميخين فجأة — وهو الذي لم يوجه الغريب اليه الحديث — وقال :

— خذ، انه مستلق على « الديوان » ولكن أنت ماذا « ينبغي لك»؟

وإزاء عبارة « ماذا ينبغي لك » التي تدل على رفع الكلفة بين المتكلمين ، كاد السيد ذي المظهر المتكلف أن يفقد وقاره ويستدير نحو المتحدث زري الهيئة لولا ان تمالك نفسه آخر الامر فاستمر يوجه الحديث الى زوسيموف الذي قال وهو يشير إلى المريض :

— هذا راسكو لنيكوف !

ثم تثاءب فاغراً فاه حتى ظهرت آخر أضراسه وبحث في جيب « صدارتـه » عن ساعته المحدودبة فأخرجها وفتح غلافها ثم أعادها الى جيبه بعد أن نظر اليهـا وعاد يتثاءب بأشد مما كان يفعل من قبل .

أما راسكو لنيكوف فكان خلال هذا الوقت لا يزال مستلقياً في مكانه دون أن ينطق بحرف واحد . كانت نظراته معلقة بوجه الغريب رغم خلوهـا من أي معنى ! كان قد تخلى منذ حين عن النظر الى تلك الزهرة البيضـاء على السجـادة المهلهلة البالية فبدا وجهه شديد الشحوب تفضح إمارات وجهه عذاباً داخلياً أليماً حتى ليخيل للناظر اليه أنه اخرج تواً من غرفة العمليات حيث أجريت له عملية جراحية استنفذت الجانب الاكبر من دمه . غير أن الوافد الجديد بدأ تدريجيـاً يثير انتباهه ثم دهشته وأخيراً حذره بل خوفه . فلما نطق « زوسيموف » بعبارة: هذا راسكو لنيكوف ، نهض فجأة كمن يجذبه « رفاص » وجلس على الديوان وقال بصوت خافت متقطع عامر بالتحدي :

— نعم أنا راسكو لنيكوف ! ماذا تريد ؟

ــ أنا بيير بيتروفيتش لوجين وأميل الى الاعتقاد بأن اسمي ليس مجهولاً منك تماماً !

غير أن راسكو لنيكوف الذي كان ينتظر أمراً مختلفاً كل الاختلاف عما وقع ، نظر اليه ـ دون أن يجيب ـ نظرة ملؤها التبلد والشرود وكأنه لم يسمع بهذا الاسم إلا للمرة الأولى ... فأعقب بيير بيتروفيتش بشيء من القلق :

ــ كيف ؟ هل يعقل انك لم تتلق حتى الآن أي نبأ ؟ !

فكان جواب راسكو لنيكوف ... كل جوابه ، أن عاد الى الاستلقاء بتمهل جاعلاً يديه أسفل رأسه ومحدقاً في السقف ! فبدا على وجه « لوجين » شيء من الانزعاج والحزن بينما كان زوسيموف ورازوميخين يتأملانه بفضول متزايد حتى اشتدت حيرته وبدت واضحة ! غمغم قائلاً :

ــ كنت أعتقد وأتوقع أن تكون الرسالة التي وضعت في البريد منذ عشرة أيام بل خمسة عشر يوماً قد . . .

فقاطعه رازوميخين فجأة بقوله :

ــ اسمع ! لمَ تبقى واقفاً هكذا بالقرب من الباب ؟ اذا كان لديك شيئاً تفسره فاجلس ! . . . وأنت يا ناستاسيا إنك تقفين هكذا على العتبة الضيقة ! تنحي يا فتاة ودعي السيد يدخل ! تقدم ... هذا مقعد لك « فتسلل » لتصل اليه !

وأزاح مقعداً فأبعده عن المائدة تاركاً فراغا يسيراً بين المائدة وركبتيه وانتظر وهو في تلك الوضعية المربكة أن « يتسلل » الزائر في ذلك الفراغ القليل ليجلس على المقعد ! كان الموقف من الدقة بحيث تعذر عليه أن يرفض العرض فبادر الى المقعد وهو ينسل في ذلك الممر الضيق ويتعثر حتى إذا ما بلغ

المقعد جلس عليه بعد أن ألقى نظرة مستريبة على رازوميخين الذي قال بصوت أشبه بالنباح :

— لمَ ترتبك ؛ إن روديا مريض منذ خمسة أيام وقد كان يهذي خلال ثلاثة أيام كاملة أما الآن فقد استعاد وعيه بل وأكل بشهية . وهذا هو طبيب يعوده وأنا صديق روديا وطالب سابق كذلك ؛ وأنا اقوم الآن بدور المربية بالنسبة اليه فلا تلق بالاً إلينا ولا يزعجك وجودنا بل استمر وتحدث بما لديك !

فقال الزائر محدثا زوسيموف دائماً :

— أشكركم ! ولكن ألا أضجر مريضك بحضوري وحديثي ؟

— على العكس بل إنك قد تسليه وترفه عنه ! وعاد يتثاءب من جديد !

كان رازوميخين يتحدث بلهجة مؤنسة صريحة محببة حتى أن بيير بيتروفيتش أبدل أخيراً سلوكه وشعر بارتياح اليه بعد انقباض . ولعل ما أكدة ذلك « الصعلوك » من أن هو الآخر طالب سابق ،أحدث أثراً طيباً في نفس الضيف لذلك فقد استمع إليه حين قال :

— آه ... لقد استعاد شعوره وامتلك حواسه منذ صباح هذا اليوم !

فقال الضيف :

— إن أمك . . .

وأفلتت حنجرة رازوميخين صوتاً « هم ! »صدرعنها بصخب حتىأن لوجين لم يتماسك أن نظر اليه متفحصا مستفسراً فقال هذا :

— إن ذلك صدر عني بشكل لا إرادي فاستمر !

فهز لوجين كتفيه وقال متابعاً :

— ان والدتك كانت قد بدأت في كتابة رسالة اليك عند ما كنت اقيم معها في المدينة هناك ، فلما وصلت الى هنـــا ، تعمدت التريث كل هـــذه الأيام

لاتأكد من أنك خلالها ستكون قد اطلعت على كل شيء ... وها إنني لدهشتي البالغة ...

فقاطعه راسكو لنيكوف فجأة وبلهجة مفعمة بروح التحدي :

ـــ أنا اعرف ... اعرف ! إنك انت « المقبل » ! انا أعرف ذلك وهذا يكفي !

شعر بيير بيتروفيتش بالمهانة لهذا الجواب فصمت وحار في معرفة مسبباته فاستغرق في الصمت دقيقة طويلة .

كان راسكولنيكوف ـــ الذي استدار نحو الزائر قليلاً ليجيب على سؤاله ـــ قد عاد فجأة يتفحصه بعينيه بفضول بيّن كما لو أنه لم يُتَحْ له ذلك في المرة الأولى أو أن شيئاً جديداً في شخصية الضيف قد أثار انتباهه. لذلك فقد رفع رأسه عن الوسادة ليتسنى له القيام بمهمة التأمل والتفحص . والواقع أن مظهر بيير بيتروفيتش العام لم يكن فيه ما يؤخذ عليه أو يستوجب إطلاق كلمة « المقبل » التي نعته بها راسكو لنيكوف خلال تصرفه البعيد عن التهذيب . كان يبدو أن بيتروفيتش لم يدع أيامه في العاصمة تمضي دون أن يستفيد منها في تجميل نفسه وإصلاح شكله بانتظار خطيبته ، الأمر الذي لم يكن غريباً بل على العكس منطقياً ومنتظراً . ولعله « هو » اعتقد أن مظهره غير مبالغ فيه لولا أن موقفه « كخطيب » على وشك الزواج جعله هدفاً للنقد والتفحص . كانت ثيابه تبدو حديثة العهد بأيدي الخياط وقد انسجمت وبدت كاملة رغم أنها لم تكن جديدة كل الجدة فلم تكن والحالة هذه لتعني أو لتفضح الهدف الذي يرمي اليه صاحبها ، لكن القبعة الأنيقة المستديرة الجديدة كل الجدة كانت تفضح تلك الغاية ، اذ كان ممسكاً بها في يده بعناية ملحوظة وقد وضع فيها زوجاً من القفازات بدا أنه يستعملها للزينة لأنها من ذلك النوع الذي يُكتفى بحمله دون تغييب اليدين فيه .

أما الثوب فكانت الألوان الزاهية تغلب فيه وتجعل لابسه يبدو أصغر سناً مما هو عليه . « فالسترة » كانت ذات لون رمادي فاتح والسراويل الصيفية زاهية وكذلك « صدارته » . أما القميص فكان ثميناً وقد تدلت منه ربطة من « الباتيست » الفاخر . كانت تلك الألبسة تبدو متفقة مع وجه بيير بيتروفيتش وقامته ، إذ كان وجهه نضراً رغم سنواته الخمسة والاربعين يعطي صاحبه سناً أصغر وقد زينه سالفان كستناويان طويلان يتكاثفان عند أسفل الفكين ويبرزان ذقناً نظيفة محلوقة بعناية . وكان شعره مرجلاً ومجعداً بعناية ليس فيه ما يبعث على النقد على عكس ما يلاحظ عند ذوي الشعر المجعد عادة وكان يكسبه شكل العروس الألماني الصميم . أما اذا كان هناك شيء مزعج يؤذي البصر في ذلك الوجه الصارم الذي لا يخلو من جمال وخطورة فانه شيء آخر لا علاقة له بالقسمات . ولما انتهى راسكو لنيكوف من معاينة وجه السيد لوجين هوى برأسه على الوسادة من جديد بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة . لم يتراجع السيد لوجين ازاء هذا التصرف المهين ، بل تمالك نفسه عازماً على التغاضي عن ذلك الشذوذ فقال يبدد السكون الذي غمر الحجرة :

— إنني شديد الأسف إذ أراك على هذه الحال ولو انني علمت أنك مريض لجئت قبل الآن ولكنك تدرك أن متطلبات العمل تشغل المرء : فلدي الآن قضية مهمة جداً أراني مضطراً بصفتي محامياً الى عرضها على مجلس الشيوخ . هذا بصرف النظر عن المشاغل الكثيرة التي تدركها وإنني أنتظر أسرتك وأقصد والدتك وأختك بين لحظة وأخرى ...

أبدى راسكو لنيكوف حركة تشير الى أنه يريد قول شيء لأن وجهه عبر عن انفعال معين فصمت بيير بيتروفيتش تاركاً له الفرصة للكلام ولما لم يتكلم أردف معقباً :

— ... من آن الى آخر . ولقد بحثت لهما عن مسكن .

فقال راسكو لنيكوف بصوت ضعيف :

— أين ؟

— غير بعيد من هنا ، في دار « باكالييف » .

فقاطعه رازوميخين قائلا :

— إنه في شارع « آسانسيون » ، « شارع الصعود » إن طبقتين منه مأجورتان لتاجر اسمه إيوستين ... لقد ذهبت الى هناك .

— نعم . وقد أخلاهما التاجر .

— إنما المزعج فيها والذي يثير الاشمئزاز أن حجراته قذرة كريهة تشبه الأكواخ وغير متناسقة وقد وقعت فيه أمور غريبة . والشيطان وحده يعرف من يسكن فيها . وقد ذهبت ذات مرة الى هناك إثر مغامرة مريبة والميزة الوحيدة هي أن الأجور فيه رخيصة .

— بالطبع . إنني لم أستطع الحصول على هذه المعلومات بسبب حداثة عهدي في المدينة غير أني استأجرت فيه غرفتين نظيفتين جداً . خصوصاً وان إشغالها المكان لن يدوم طويلاً لأنني وجدت مسكننا ... أقصد مسكننا المقبل يا راسكولنيكوف ، والاستعدادات تجري الآن فيه لترميمه وإدخال التجديد عليه . فانني أقطن في الوقت الحاضر على شكل ما في غرفة مؤثثة على بعد خطوتين من هنا عند السيدة « ليبيويشسل » في مسكن صديق شاب ، اسمه آندريه سيميو نوفيتش ليبيزيا تنيكوف وهو الذي دلني على بيت باكالييف .

نطق لوجين العبارات تبريراً للملاحظات التي ساقها رازوميخين في تعريضه بالمسكن الذي أعده لأم راسكو لنيكوف وأخته ، وشعر بامتعاض لتدخل

ذلك الشاب الماجن المستهتر . أما راسكو لنيكوف فانه لدى سماعه اسم صديق خطيب أخته غمغم وكأنه تذكر شيئاً :

— ليبزيا تنيكوف ؟

— نعم . آندريه سيميونوفيتش ليبزيا تنيكوف وهو موظف في احدى الوزارات . فهل تعرفه ؟

فأجاب راسكو لنيكوف :

— نعم ... لا ... !

— عفواً خيل إلي من سؤالك أنك تعرفه . لقد كنت ذات يوم وصياً عليه وهو شاب لطيف جداً ومنطلق في الحياة الاجتماعية ثم إنني أحب معاشرة الشباب لأن المرء يتعلم منهم أشياء جديدة .

وانتظر بيير بيتروفيتش موافقة الموجودين على ملاحظته الاخيرة فراح يجيل الطرف بينهم . سأله راسكو لنيكوف :

— ما هو الدافع على ما تقول ؟

— إنه من أكثر الدوافع أهمية . فأنا مثلاً لم أزر بيترسبورج منذ أكثر من عشر سنين لذلك فان كل التبديلات التي حصلت والتجديدات التي أدخلت وتلك الفكر النيرة الجديدة ، كل ذلك لم يبلغ المقاطعات الأخرى حتى الآن . وفي رأيي أن الانسان الذي يريد أن يتعلم وأن يساير العصر يجب عليه الاحتكاك بالجيل الجديد وانه ليسرني أن أعترف بهذه الحقيقة .

بدا السرور على وجه بيير بيتروفيتش للسؤال الذي ألقاه عليه راسكو لنيكوف وظن أنه وفق لارضائه بالجواب . غير أن هذا عاد يقول :

— لا زلت أسأل عن الدافع والعلاقة الموجبة له .

— ان سؤالك غـــير محدود فاذا لم أكن مخطئاً أستطيع القول أنني أكتشف وجهات نظر أكثر وضوحاً بل واتجاهات دقيقة وتفـاهم عملي أوسع .

فقال زوسيموف :

— هذا صحيح .

أما رازوميخين فصاح مكذباً :

— أنت تكذب ! لا يوجد هنا تفاهم عملي لأن مثل هذا التفاهم يكتسب بصعوبة ولا يسقط عفواً من السماء. اننا منذ مائتي عام تقريباً فقدنا عادة الأعمال. والافكار التي تروج في الشوارع والرغبة في العمل الصالح موجودة حقيقة ولكنها مازالت في طور التكوين .صحيح ان الانسان ليصادف بعض النبل رغم أن نظرية « إذا لم أرَ لا أكون قد أخذت » تعتبر قاعدة بين النشالين واللصوص ولكن لا يوجد تفاهم عملي في كل الاحيان لأن هذه « المعرفة » لا تسير عارية القدمين بل يلزم لها زوج من الاحذية وأنت تفهم ما أعني .

فأجاب بيير بيتروفيتش بسرور واضح :

— أنا لست من رأيك أبداً . نعم لا أنكر وجود بعض الفوضى والتطرف في الآراء إنما ينبغي للمرء أن يكون عادلاً ... ان هذا التطرف يشهد بأن القضية أخذت بحماسة وان الظروف الخارجية ليست تمامـــاً كما ينبغي أن تكون . فاذا كنا لا نعمل إلا قليلاً فذلك لأننا لم نجد بعد الوقت الكافي وأنا طبعاً لا أتكلم عن الوسائل. انني أعتقد شخصياً بأن هناك بعض ما يمكن أن يقال عنه بأنـه صنع أو « كان » : ذلك أن الافكار الجديدة النافعة قــــد انتشرت كما انتشرت بعض المؤلفات الجديدة النافعة فحلت محل الاحلام والخيـــالات التي كنا نعيش فيهـا

ونضج الأدب وتبخر عــــدد كبير من الاعتقـادات السقيمة المضرة وبالاختصار فقد انفصلنا نهائياً عن المـــاضي وباعتقادي ان ذلك ليس بالشيء القليل !

فغمغم راسكو لنيكوف قائلا :

ـــ استمر ... تبجح ... استمر في تبجحك .

فقال بيير بيتروفيتش الذي لم يسمع قول راسكو لنيكوف :

ـــ ماذا قلت ؟

غير أن راسكو لنيكوف لم يجب . وبادر زوسيموف متدخلاً يقول :

ـــ ان ما قلته لعين الصواب .

فاسترسل بيير بيتروفيتش بعد أن ألقى نظرة ودية على زوسيموف :

ـــ أليس كذلك ؟

ثم استدار الى رازوميخين وأردف بلهجة انتصار :

ـــ وأنت نفسك ! ألا توافقني على أن هناك خطوات الى الامام أو كما يقـال « مجهوداً » حتى ولو اقتصر ذلك على العلم والحقائق الاقتصادية ؟

فأجاب رازوميخين :

ـــ انها أفكار مكررة مبتذلة !

ـــ كلا ! انها ليست أشياء مبتذلة . خذ مثلاً : لقـــد قيل لي حتى اليوم : « أحبب مستقبلك » فأحببته . فماذا نجم عن ذلك ؟ لقـد نجم عنه حتى الآن أنني مزقت معطفي الى جزئين فأصبحنا كلانا عاريين عمـلا بالمثل الروسي القـائل : « عند ما يطارد المرء عدة أرانب معاً لا يصطاد واحداً منها ». أما العلم فانه يقول : « أحبب نفسك قبل الآخرين لان العالم كله مرتكز على النفعية الشخصية فعند ما لا تحبب الا نفسك فقط تقوم بأعمالك كما ينبغي ويبقى معطفك كامـلاً » والاقتصاد .

السياسي يضيف أنه كلما أكثر المرء من ابتكار أعمال خاصة في المجتمع أو بمعنى أوضح : كلما ازدادت المعاطف الكاملة ، كلما كانت المنشآت أقوى والاعمال العامة أكثر ترتيباً ونظاماً . اذن عندما اقتني ممتلكات شخصية تماماً فانني أقتنيها في نفس الوقت للجميع وينتج عن ذلك أن يفوز مستقبلي بأكثر من معطف ممزق وليس ذلك بفضل السعة الخاصة الشخصية انما بنتيجة المجهود العام . فالفكرة اذاً سهلة ولكنها وللأسف استغرقت زمناً طويلا حتى وصلت رغم ما يبدو عليها من أنها لا تستوجب لفهمها وهضمها ذكاء خاصاً ...

فقاطعه رازوميخين قائلا بشيء من الجفوة :

— عفواً ... انه ينقصني الذكاء أنا أيضاً لذلك أفضل أن نتوقف عند هذا الحد . وقد كان لي هدف عند ما بدأت هذه المناقشة وبالتالي هذه الثرثرة التي تبعث على الغثيان . ان كل هذه الافكار المبتذلة الموضوعية تثير اشمئزازي منذ ثلاث سنين حتى انني أخجل ليس فقط من التحدث عنها بل ومن سماع الآخرين يتحدثون فيها . ولا شك أنك استصوبت اطلاعنا على مدى معرفتك وأنا لا ألومك على ذلك بل أجد لك العذر . انما الغاية كانت محاولة معرفة من تكون لان في هذه الايام الاخيرة أغري عدد كبير من فرسان المال والاعمال بهذه الفكرة — ولا شك انك تعلم — حتى انهم افسدوا كل ما مدوا اليه ايديهم لاستثماره فدنسوا بذلك كل شيء ! وفي هذا الكفاية ...

احتج السيد لوجين وقال مستنكراً وهو يتصنع الأصابة بجرح في كرامته :

— سيدي لعلك لا تريد التلميح بأنني ...

فقاطعه رازوميخين بلهجة حاسمة :

ـ آه ... العفو ... العفو !... هل يمكن أن أكون فكرت في هـذا ؟ هيا كفى !...

وهكذا شعر بيير بيتروفتيتش ان من الخير له أن يتقبل هذا الرد على علاته وان يعجل بمغادرة الغرفة فقال محدثاً راسكو لنيكوف :

ـ آمل ان يصبح التعارف الذي تم بيننا الآن اكثر توثقاً في المستقبل بعد ان تكون قد ابللت من مرضك واني أتمنى لك صحة جيدة لتكون متمتعاً بقواك استعداداً للمناسبة التي لا تجهلها .

ولما لم يلتفت راسكو لنيكوف اليه هم بالنهوض بينما كان زوسيموف يتحـدث الى رازوميخين وكأن بيير بيتروفيتش غير موجود في الغرفة :

ـ أعتقد جازماً ان واحداً من زبائن العجوز قد قتلها .

فاجاب رازوميخين موافقا :

ـ لا شك ! صحيح أن بورفير لا يصرح بآرائه غير أنه يستجوب كل من أودع العجوز رهينة .

فقال راسكو لنيكوف بصوت مرتفع :

ـ يستجوبهم ؟

ـ نعم وماذا في ذلك ؟

ـ لا شيء .

واستتلى زوسيموف مستفسراً :

ـ ولكن كيف يعرفهم ؟

ـ لقد دل كوخ على بعضهم . اما الآخرون فان اسماءهم مكتوبة على الاوراق التي لفت فيهـا رهـائنهم . وهناك اشخاص جاؤوا من تلقـــاء انفسهم حينما بلغهم النبأ .

ـــ على هذا فان الذي قام بهذا العمل يكون ولا شك عديم التجربة سافلاً ! يالها من عملية !

ــ أنا واثق أنه ليس كما تقول وأن هذه هي النقطة التي تخدعكم جميعاً ! إنني أعتقد رغم ما أنا عليه من جهل وقلة تجربة، بأنه ليس من الحاذقين ولا من العريقين في الاجرام وإن هذه الجريمة هي اولى جرائمه . فلو انه كان مجرماً عريقاً ماهراً لكانت هذه النتائج غير قابلة للتصديق . أما وان المجرم غير خبير ، فاننا لستنتج أن الصدفة وحدها هي التي أخرجته من ورطته ، والصدف شـــديدة التأثير في الحيـاة ! فكر بأنه لم يكن قد تصور وجود عوائق ثم لاحظ كيف أتم الأمر : لقد أخذ أشياء تتراوح قيمتهـا بين عشرين وثلاثين روبلاً حشا بها جيوبه بينما كان في الدرج العلوي من الخزانة علبة صغيرة تحوي على الف وخمسمائة روبل من النقد الفضي باستثناء الأوراق النقدية . فهو إذاً لم يحسن إلا القتـــل وأخفق في السرقة ، ومن ذلك يستدل على أنه مبتدىء فقد أعصابه ثم انسحب ، أي أن الأمر تم بمحض الصدفة وليس بناء على تصميم وحساب دقيق !

قال بيير بيتروفيش مخاطباً زوسيموف بقصد الاشتراك في الحديث :

ــ إنكم تتحدثون على ما أعتقد عن مقتل العجوز أرملة الموظف. أليس كذلك؟

طرح هذا السؤال وهو واقف وقبعته وقفازاته في يده وكأنه أراد قبل أن يبارح الحجرة أن يلقي ببضع كلمات حكيمة ليخلف وراءه أثراً طيباً بعد أن تغلب فيه الغرور على العقل .. فأجابه :

ــ نعم هل سمعت عنها شيئاً ؟

ــ كيف لا ؟ لقد سمعت من الجيران .

ــ هل تعرف التفاصيل ؟

ــ لا أعتقد . إنما يثير اهتمامي في هــذه القضية ما يعتريها من ملابسات وما

سيعقب عنها من نتائج وكذلك المعضلة التي تتمثل في الجريمة نفسها . إنني الاحظ ان الجرائم في السنوات الخمس الأخيرة قد ازدادت بين الاوساط الدنيا ، كما وأن السلب والحرائق تكاثرت في كل مكان وأصبحت تقع دون انقطاع ، ومما يزيدني دهشة أن الاجرام بين الطبقات العليا اخذ يزداد بنسبة مماثلة حتى لكأنه يسير مع ما يحدث في الاوساط الدنيا على خطين متوازيين . فهنا مثلا طالب سابق يداهم عربة بريد على الطريق العام ، وهناك أشخاص من النيرين الواعين البارزين في الهيئة الاجتماعية يزورون الاوراق النقدية ، وقد أوقفوا في موسكو مؤخراً عصابة من المزورين كانوا يعملون في يانصيب القرض الأخير . حتى أن واحداً من المتهمين الرئيسيين يحتل كرسي التاريخ العام في الجامعة ، وفي أمكنة اخرى اغتيل أحد أمناء سر سفاراتنا في الخارج لسلبه ما معه من نقود ولأسباب اخرى أكثر سرية. فاذا كانت هذه المرابية قد قتلت بيد واحد من الطبقة العليا — لأنني أعتقد أن أبناء الطبقة الفقيرة لا يمتلكون أشياء ذهبية يرهنونها لديها — فكيف نفسر هذا الفساد الجامح الذي يسيطر من جزء كبير من محيطنا المثقف ؟

أجاب زوسيموف :

— أعتقد أن للانقلابات الاقتصادية تأثيراً كبيراً .

وقال رازوميخين معقباً :

— كيف نفسرها ؟ الواقع انها تفسر تماماً بانعدام التفاهم العملي ... ذلك الانعدام المزمن .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— حسناً ، ماذا أجاب في موسكو استاذك الجامعي عندما سئل عن سبب إصداره نقداً مزوراً ؟ أعتقد أنه قال : « إن الناس كلهم يتهافتون على الثروة والغنى بكل الوسائل وأنني أنا كذلك أردت أن أثري بسرعة . » أنا لا أذكر كلماته على

الضبط لكن فكرة الثراء العاجل بأقل التكاليف وأقل العناء هي التي تذرع بها. فقد درجت العادة بل أقول لقد اعتاد الناس حتى اليوم على لون من الحياة يقتصر على الكفاف بل إن بعضهم يعيش عالة على غيره . فلما دقت الساعة أظهر كل منهم مايستطيع عمله وما يختزنه من إمكانيات ...

— ولكن هناك دائماً الأخلاق ؟.. القوانين ! و..

وهنا فقط تدخل راسكولنيكوف بشكل غير منتظر وقال :

— ولكن ماذا يزعجك ؟ إن ذلك إلا نظريتك في حالة التطبيق !

— كيف ؟ نظريتي ؟

— اشرح نتائج ماتحدثت عنه منذ حين كمبدأ وناقشه تجد أنه ينجم عنـــه جواز قتل الناس ..

فهتف لوجين :

— رحمـاك يارب !

بينما قال زوسيموف :

— كلا إن الأمر ليس كذلك .

أما راسكولنيكوف فقد كان شاحباً وقد راحت شفته العليـا ترتعش وهو يتنفس بصعوبة زائدة بينما تابع لوجين بلهجة متعالية قائلا :

— إن هناك حدوداً لكل شيء، فالفكرة الاقتصادية ليست دعوة للقتل حتى أنه لو افترض فقط ...

فقاطعه راسكولنيكوف بصوت يهزه الغضب ويشوبه لون من السرور الآثم :

ـ أصحيح إنك قلت لخطيبتك في اللحظة التي أعربت لك عن قبولها بك أنك سعيد لأنها فقيرة وإنه من الأفضل والأصوب أن يتزوج المرء امرأة لا تملك نقيراً ليحتفظ الزوج لنفسه بالغلبة والتفوق ؟ أي أنك بذلك تستطيع دائمـــاً

التغني بفضلك عليها ؟

فصاح لوجين بصوت مضطرب وقد أعماه الغضب :

ـــ سيدي ... سيدي ... أنت تشوه فكرتي . ولكن اسمح لي أن أقول بان الشائعات التي تناهت اليك ليس لها ظل من الحقيقة وإنني أخمن أن ... بكلمة واحدة أن هذا السهم ... بكلمة واحدة أنها أمك . والى جانب ذلك فقد بدت لي رغم صفاتها الممتازة صغيرة العقلية مبالغة وخيالية في أفكارها . رغم ذلك فانني ما كنت أنتظر أو اظن أن باستطاعتها النظر الى قولي ذاك خلال منظار كهذا .

فرمجز راسكولنيكوف وهو يتناهض بمجهود عنيف وفي عينيه نظرة متوعدة وقال :

ـــ هل تعلم ؟ هل تعلم ؟

ـــ ماذا ؟ ماذا ؟

كان في عيني لوجين وهو ينطق بهذه الكلمة معنى الاستنكار والتحدي وانتظر الجواب وهو واقف وران الصمت .

فاجابه راسكولنيكوف .

ـــ اعلم أنه اذا وجدت في نفسك مرة أخرى الجرأة على التلفظ بكلمة واحدة تمس بأمي فانني سألقيك أسفل السلم ورأسك في المقدمة !

وهتف رازوميخين :

ـــ ماذا دهاك ؟

بينما كان لوجين ممتقع الوجه يعض شفته حنقاً ويقول :

ـــ اذاً هكذا . اسمع ياسيد ـ وتمالك نفسه برهة رغم أن الغضب كان يخنق صوته ـ اسمع : منذ حين لما دخلت لاحظت استقبالك البارد فجلست عامداً

لاعرف الى أي مدى تبلغ بك القحة . وقد كنت مستعداً للصفح عن كثير مما يصدر عن مريض وقريب بنفس الوقت أما الآن فانني لن أصفح أبداً .

فصرخ راسكو لنيكوف محنقاً :

ــ أنا لست مريضاً .

ــ ذلك أسوأ .

ــ اذهب الى الشيطان .

لكن لوجين كان قد خرج دون أن ينتظر هذا الوداع وقد خرج « متسللا» بين الطاولة والمقعد كما دخل بينما كان رازوميخين قد تراجع قليلاً ليسمح له قبل رحيله بمصافحة زوسيموف الذي كان يشير اليه بترك المريض دون إشـــارة ، وهكذا انسحب لوجين رافعاً بعناية قبعته الى ارتفاع كتفه في اللحظة التي كان ينحني فيها ليجتاز عتبة الغرفة وقد بدا عليه أنه محنق جداً .

قال رازوميخين وقد بدا الارتباك على وجهه :

ــ كيف تصرفت على هذا الشكل ؟

فاجابه راسكو لنيكوف صارخاً :

ــ دعوني ، دعوني جميعاً ... اخرجوا أيها السفاحون أنا لا أخاف منكم.. أنا لا أخاف أحداً ... أحداً ... اخرجوا من هنا ... أريد أن أبقى وحيداً ! وحيداً ! وحيداً ! .

فقال زوسيموف وهو يشير برأسه الى رازوميخين :

ــ هيا بنا !

ــ لكن ... هل يمكن أن ندعه هكذا .

فكرر زوسيموف بالحاح :

ـ هيا بنا ..!

ولم ينتظر بل خرج وبقي رازوميخين برهة يفكر ثم ركض يتبعه .

وبينما كان زوسيموف يهبط السلم قال لرازوميخين :

ـ لو أننا لم نخرج نزولاً عند رغبته لبلغ به الأمر أسوأ من ذلك اذ ينبغي ان لا نثيره .

ـ لكن ماذا دهاه ؟

ـ ينبغي أن يتلقى نبأ ساراً . هذا كل ما يلزمه . منذ لحظة كان متمالكاً قواه ولعلك لاحظت ان في رأسه فكرة معينة تعذبه وهذا ما اخشاه . نعم انني اخشى ذلك .

ـ يبدو ان هذا السيد بيير بيتروفيتش سيتزوج اخت راسكو لنيكوف كما استنتجت من الحديث الذي دار بينهما وان روديا قد أُطلع قبل مرضه على هذا الأمر بواسطة رسالة .

ـ نعم . وهو الشيطان الذي اتى به ولا شك في هذه اللحظة . اخشى ان يكون قد افسد كل شيء . لكن ألم تلاحظ انه لم يكن يبالي بشيء باستثناء امر واحد كان يخرجه من ذهوله وهو هذه الجريمة ؟

ـ نعم ! نعم ! لقد لاحظت ذلك بوضوح ! انه يهتم بهذه الجريمة ويفكر فيها واعتقد ان السبب راجع الى انه في ذات اليوم الذي مرض فيه ارهبوه قليلاً في دائرة البوليس وقد أغمي عليه هناك .

ـ سوف تقص علي ذلك بالتفصيل هذا المساء . وسأقول لك بعدئذ شيئاً . انه ليثير اهتمامي كثيراً ولسوف أعود لأستعلم عنه بعد ساعة . على كل حال لن يحدث ارتفاع في الحرارة .

ـ أشكرك وخلال هذا الوقت سأنتظرك عند باشانــكا وسأراقبه بواسطة ناستاسيا .

ألقى راسكولنيكوف نظرة ملتهبة تفيض بالانزعاج على الخادم التي بقيت في الغرفة . وأدركت هذه أنه يرغب اليها ان ترحل فقالت تسأله :

ـ هل تأخذ جرعة من الشاي الآن ؟

ـ كلا ! دعيني الآن أريد أن أنام ...

وبحركة تشنجية استدار الى الجدار بينما انسحبت ناستاسيا من الحجرة .

الفَصلُ السَّادِسُ

لم تكد تخرج ناستاسيا من الحجره حتى نهض واقفاً وهرع الى الباب يدفع المزلاج وراءه ثم عاد الى الرزمة التي أتى بها رازوميخين ففتحها وراح يرتدي الملابس التي كانت فيها . كان هادئاً جداً حتى ليخيل الى الناظر اليه أنه لم يكن منذ لحظات فريسة هذيان ورعب قاتلين لم يبارحاه طيلة الايام الاخيرة . شعر في تلك اللحظة بهدوء وراحة بال عجيبين فكانت حركاته دقيقة وثابتة وكأنه اتخذ فجأة قراراً حاسماً . كان يدمدم « اليوم ! اليوم بالذات... » وهو يعرف أنه ضعيف. لكن قوة روحية جبارة كانت تجعله في صحو فكري تام وتعطيه قوة وثقة .. كان يرجو أن يستطيع الصمود خوف السقوط !

ارتدى الملابس الجديدة التي أتاه بها صديقه وحدق برهة في المال الموضوع على الطاولة وهو يفكر ثم أودعه جيبه ! كان يملك خمسة وعشرين روبلا الى جانب « الكوبيكات » التي بقيت له من قيمة الملابس التي اشتراها رازوميخين . رفع المزلاج بهدوء وخرج من الحجرة وراح يهبط السلم حتى اذا ما بلغ باب المطبخ « العتيد » الذي كان أبداً مفتوحاً ألقى عليه نظرة سريعة . كانت ناستاسيا واقفة هناك محنية الظهر في « سماوَرْ » سيدتها فلم تسمع صوت خطاه خصوصاً وان فكرة فراره لم تكن لتخالج رأس أحد وهكذا لم تمض دقيقة ثانية حتى كان في الشارع .

كانت الساعة الثامنة مساء والشمس على وشك المغيب والجو خانق كأمس تماماً . لكنه راح يتنفس بشوق ولهفة وكأنه كان محروماً من الهواء ، راح

يتنفس ذلك الهواء العامر بالغبار والمرض الذي ترزح تحت وطئتها أجواء المدينة الكبرى . شعر بدوار خفيف في رأسه لكن لوناً من الحيوية الوحشية تجاوبت في أعماقه فالتمعت بها عيناه الملتهبتين وظهرت واضحة على وجهه الناحل الهضيم . كان لا يعرف أين يتجه بل أنه لم يفكر في ذلك مطلقاً . كان كل ما يهمه في تلك اللحظة هو تنفيذ الرغبة التي تصطخب في رأسه : « الفرار والانتهاء » اليوم بالذات ودفعة واحدة ... فوراً وإلا فانه لن يعود الى مسكنه لأنه « ما كان يُريد أن يحيى على ذلك المنوال ! » . لكن كيف « ينتهي » وبأية وسيلة ؟ ذلك ما لم يكن لديه أية فكرة عنه بل أنه ما كان يفكر في ذلك أبداً ! كانت تلك الفكرة تعذبه لذلك فقد كان يبعدها دائماً كلما خطرت له . انما كان يحس بأن الأمور ينبغي لها أن تنتهي على شكل من الاشكال ، مهما وقع ! كان يردد ذلك بيأس وتأكيد وثقة !

تبع الطريق التي كان يتبعها في نزهاته السابقة مدفوعاً بحكم العادة واتجه نحو « سوق العلف » ! وقبل أن يصل الى السوق ، شاهد على الرصيف أمام دكان بائع عاديات ، شاباً اسود الشعر يعزف على آلة موسيقية تنبعث منها الحاناً عاطفية شجية ترافقه فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها مرتدية ثياباً رشيقة : « تنوره » من قماش رخيص و « شال » خفيف ، وفي يديها زوج من القفازات وعلى رأسها قبعة كبيرة من القش تزينها ريشة بلون اللهب تبدو في مجموعها خلقة بالية . كانت تغني امام الدكان بصوت متصدع يشبه صرير المدأب ، منتظرة إحسانه الذي لا يتجاوز « الكوبيكين » بحال فتوقف راسكولنيكوف ينصت الى غنائها منضماً الى مستمعين أو ثلاثة مستمعين كانوا هناك ثم أخرج من جيبه قطعة من ذات الخمسة كوبيكات أودعها راحة الفتاة ... وفجأة قطعت هذه غناءها ـ وكانت قد بلغت طبقة مرتفعة جداً شديدة الحساسية مفعمة بالعاطفة ـ

وهتفت بالعازف قائلة : « كفى ! » . ثم مضت ترافقه بخطى متمايلة لتقف امام الدكان التالية !

سأل راسكولنيكوف فجأة أحد المارة وكان واقفاً باقرب منه ينصت الى المغنية المتسولة وعليه سمات المتسكعين :

ــ أتحب أغاني الشارع ؟

فبوغت الرجل لهذا السؤال بينما استرسل راسكولنيكوف يقول وكأن الامر لا يتعلق الا باغاني الشوارع وأثرها في النفوس :

ــ أما أنا فأحبها ! إنني أحب الاستماع الى الغناء على نغم هذه الآلة الموسيقية التي يحملها هذا الموسيقي المتجول خصوصاً في ليالي الخريف المعتمة الرطبة الباردة حيث تكون وجه المارة مخضرة مريضة . كما أزداد حباً للاستمتاع بهذا الغناء عند ما تتساقط الثلوج دون أن يصحبها زفيف الرياح فتلتمع مشاعل النور خلال الثلج . اترى هل تتمثل الصورة التي أصفها ؟.

غمغم السيد مذعوراً وقد أزعجه السؤال والمظهر الغريب الذي كان راسكولنيكوف يبدو فيه وقال :

ــ لست أدري ... عذراً ... ثم انسحب الى الجانب الآخر من الشارع .

استمر راسكولنيكوف ماشياً دون أن يلتفت حوله حتى وصل الى زاوية « شارع العلف » حيث كان البائع وزوجه يتحدثان مع اليزابيت منذ أيام . لكنه لم يشهدهما في تلك اللحظة . توقف برهة في المكان الذي كان البائع وزوجه يقفان فيه ذلك اليوم وراح ينظر حوله فاذا بفتى يلبس قميصاً أحمر يتثاءب أمام دكان تاجر حبوب فسأله :

ــ أتعرف الرجل الذي يقف هنا وزوجه ويتعاطيان بيع الحاجيات المستعملة انه « بورجوازي » أليس كذلك ؟

فأجاب الفتى وهو يحدج راسكولنيكوف بنظرة استغراب :

ـــ أن الوسط التجاري يضم عدداً كبيراً من الأشخاص .

ـــ ماذا يسمونه ؟

ـــ ينادونه باسمه !

ـــ لكن أنت ! ألست من زارائيك ؟ من أية مقاطعة أنت ؟

فعاد الفتى ينظر الى راسكولنيكوف باستغراب وقال :

ـــ إنني حيث أقيم يا صاحب السعادة نطلق على المنطقة اسم اقليم وليس مقاطعة ! وأخي يقيم فيه أما أنا فقد بارحته منذ زمن ولا أعرف عن أخباره شيئاً فارجو سعادتكم ان تتفضلو بقبول عذري !

ـــ أهي دكان شواء هذه التي في الأعلى ؟

ـــ بل إنها حانة وفيها منضدة « بليارد » وقـــد يرى الانسان فيهـا بعض « الاميرات » .

اتجه راسكولنيكوف نحو القسم الآخر من الساحة فشاهـــد بالقرب من منعطف هنالك جماعة من « الموجيك » كبيرة العـــدد ، فراح يحشر نفسه بين الصفوف يتفحص الوجوه . كان يشعر بدافع يحبب اليه تبادل الحديث مع الناس. لكن اولئك « الموجيك » ما كانوا يلقون بالاً اليه بل كانوا مجتمعين جماعات جماعات يتداولون في أعمالهم . توقف برهة ثم قرر المضي نحو شارع « ف ... » مخلفـاً وراءه « سوق العلف » ماراً برقاق جانبي .

كان ذلك الاتجاه مألوفاً لديه فهو يعرف تماماً أن ذلك الزقاق الذي يجتـازه ينعطف في نهايته ويؤدي الى شارع الحدائق ... وكان يشعر في الايام الاخـيرة برغبة تجتذبه الى تلك الامكنة كلمـا امتلكه الاشمئزاز « ليزيد في اشمئزازه » كما كان يقول !

أما في تلك اللحظة فقد كان خالي الذهن تماماً . كان هناك بناء كبير يحوي على عدد كبير من الحانات والمطاعم ودكاكين الشواء ، وكان بعض النسوة يخرجن بين الحين والحين يغمرهن الهناء وهن في أبهى زينة يرفلن في الثياب الغالية . كن يجتمعن في أمكنة معينة على الرصيف جماعات جماعات قرب مداخل بيوتات مرحة تشغل بعض الاقبية ! وكان يتصاعد من واحد من تلك الأمكنة صخب لطيف كان يعم وينتشر في الشارع كله وكانت أصوات القيثارة تعلو ترافقها أنغام غناء جميل والجو منعم بالبهجة والمرح . شاهد هناك عدداً من النسوة يتهافتن على المدخل مسرعات حتى أن بعضهن كن جالسات على درجات السلم واقفات على الرصيف يتحدثن ... وعلى مقربة منهن كان جندي ثمل واضعاً سيجارته في فمه يمشي مترنحاً بخطوات متمايلة وهو يصرخ شاتماً وكأنه خرج من مكان ثم نسي طريق العودة اليه . وفي الزاوية الاخرى كان صعلوك يتبادل السباب القبيحة مع آخر من طرازه بينما كان رجل مستلقياً على أرض الشارع فاقد الرشد من شدة الثمل .

توقف راسكولنيكوف أمام الجمع الأكبر من النساء وكن يتحدثن بأصوات مرتفعة وهن مرتديات أثواباً من الحرير الهندي الفاخر وفي أقدامهن أحذية من جلد الماعز وكلهن عاريات الرؤوس ! كان لبعضهن أكثر من أربعين عاماً واخريات لايتجاوزن السابعة عشرة لكنهن كن منتفخات العيون !

كان الغناء والصخب المنبعثان من ذلك المكان يجذبان لغير ماسبب واضح انتباه راسكولنيكوف . فانحنى على المدخل وهو في مكانه على الرصيف وراح يصغي حالماً متجهاً الى صوت يغني :

إن عملاقي الجميل الصغير

لايضربني لغير ماسبب !

وكان هناك وسط الضحكات والصيحات المرحة ، وقع خطى موزون كذلك

الذي يصدر عن الراقصين والراقصات على الحلبة عندما يرقصون على إيقاع لحن مثير ... وكان صوت المغني لايزال يردد تلك الاغنية وراسكولنيكوف يحس في قرارة نفسه برغبة عنيفة لسماعها وكأنها كانت غايته التي يسعى وراءهـــا ! تمتم يخاطب نفسه : « ماذا لو دخلت ؟ انهم يصخبون ويضحكون وهم سكارى فلم لا أحذو حذوهم وأثمل كخنزير !

سمع صوت سيدة يقول له :

ـــ ألا تدخل ياسيدي العزيز ؟

كان الصوت موسيقياً عذباً وكانت المتكلمة شابةفتية تفوق صويحباتها جمالاً.. فصعدها بنظرة متفرسة وهتف مجيباً :

ـــ آه ما أجملك !

ابتسمت الفتاة وقد أطربها الاطراء وقالت :

ـــ وأنت شاب جميل !

وهتفت سيدة بصوت كريه معقبة :

ـــ جميل ؟ إنه لايملك إلا العظام والجلد كمن خرج من المستشفى اليـــوم ولعله صحيح !

وتدخل أحد الفلاحين « الموجيك » وقال وهو يقترب :

ـــ يبدو أنهن من بنات « الجنرالات » رغم ذلك فانهن لا يترفعن عن حشر أنوفهن في هذه البؤر !

وقالت الفتاة :

ـــ هيا ادخل طالما أنت هنا !

ـــ سأدخل يا جميلتي !

وهبط الدرجات الى مدخل المرقص بينماهتفت الفتاةبصوت يتجلى فيهالخجل :

— إسمع ! سأكون سعيدة ياسيدي اللطيف في قضاء بضع ساعات معك لكنني الآن أشعر بشيء من الارتباك في حضرتك فلو أعطيتني يافارسي الجميل ستة كوبيكات لشربت كأساً في صحتك .

مد راسكولنيكوف يده الى جيبه وأخرجها حاملة خمسة عشر كوبيكاً أعطاها للفتاة فقالت :

— يالك من رجل طيب !

— ما اسمك ؟

إنني أدعى دوكليدا :

وهتفت واحدة من النسوة قائلة :

— يالله من اسلوب زري ! كيف تتسولين يادوكليدا بهـذا الشكل ؟ إنه ليملؤني خجلاً مميتاً .

رفع راسكولنيكوف عينيه بفضول وحدج المتكلمة بنظرة صارمة . كانت سيدة في الثلاثين من عمرها ذات وجه مشوه بالجدري تشوبه بقع زرقاء وشفتها العليا منتفخة . كان يبدو عليها الهدوء والجد وهي تتلفظ بتلك العبارة .

ابتعد راسكولنيكوف ومضى يفكر في موقفه وتصرفه ويغمغم :

— أين قرأت ياترى أن أحد المحكومين بالاعدام قال قبل تنفيذ الحكم فيه : « إذا اتيح لي ان اعيش في مكان ما على قمة صخرة دون ان يكون امامي اكثر من قدمين من المجال الحيوي الذي يفصلني عن الهاوية او على نتوء وسط محيط خضم وظلمات ابدية تهددني العواصف العاتية حتى انه يستحيل العيش إلا في مساحة لاتزيد على قدم مربعة واحدة ، ولو أن الحياة كانت مع ذلك الف عام او ابدية لاتنتهي فانني لأفضل ان اعيش بتلك الشروط القاسية على ان اموت فوراً ! الحياة ! ولا شيء إلا الحياة ! الحياة وعلى اية صورة كانت ! الحياة وحسب !؟ »

إنها حقيقة هائلة يا إلهي ! إن الانسان نذل ، ونذل أيضاً ذلك الذي يصمه بالنذالة من أجل هذا .

بلغ في مسيره باليه ده كريستال وراح يحدث نفسه قائلا :

— هيه ! قصر البلور ! منذ حين كان رازوميخين يحدثني عنه . ولكن ماذا كنت أريد ؟ نعم ، صحيح ، القراءة! لقد قال زوسيموف أنه قرأ التفصيلات في الصحف .

دخل مشرباً وسأل :

— هل لديكم صحف ؟ وسرح طرفه فيما حوله : كان المشرب أنيقاً جداً متسعاً مؤلفاً من خمس غرف تكاد تكون خالية من الزبائن وكان في أحد الاركان ثلاثة رجال يحتسون الشاي وفي غرفة ثانية أربعة أشخاص جالسين الى مائدة يحتسون « الشامبانيا » خيل لراسكولنيكوف أن أحدهم هو زاميوتوف لكنه لم يكن متأكداً نظراً لبعد المسافة مع ذلك فقد تمتم يشجع نفسه :

— وماذا يهمني أن يكون ؟

سأله النذل :

— أتريد عرقاً ؟

— كلا ! بل كأساً من الشاي . ثم ائتني بالصحف القديمة . الصحف التي صدرت منذ خمسة أيام وسأعطيك مكافأة صغيرة .

— ليكن ! ها هي ذي صحف اليوم ! أتريد كذلك قدحاً من العرق .

رفض راسكولنيكوف العرض واكتفى بالشاي والصحف وراح يبحث بينها هذه صحيفة: « إيزلر .. الآزتيك .. الآزتيك .. إيزلر .. بارتولا .. ماسيمو .. الآزتيك ... إيزلر ... يا لجهنم ! آه هذه أخيراً الاخبار المتفرقة : . إمرأة سقطت

من أعلى السلم ... تاجر اختنق بسبب الادمان على تعاطي الكحول ، حريق في « شـــارع الزمال » ... حريق في حي بيترسبورغ ... حريق آخر في حي بيترسبورغ أيضاً ... إيزلر ، ايزلر ، ايزلر ، ايزلر ... ماسيمو ... وأخـيراً ... آه :

وجد ما كان يبحث عنه فراح يقرأ بينما كانت السطور تتراقص أمام عينيـه واستطاع أن يقرأ الشرح حتى النهاية ثم أخذ يبحث كالمحموم عن الاخبار الاخيرة في العدد التالي . كانت حركاته توحي بالسرعة التي تتلهف اليها نفسه . وبينما هو يتصفح الصحف شعر بشخص يجلس بجانبه الى المائدة فلما نظر اليه وجـد أنـه زاميوتوف ! زاميوتوف بلحمه ودمه وبمظهره المعهود: الخواتم الذهبية، والسلاسل والشعر الاسود المجعـد المضمخ المفروق من الوسط و « صدارته » الانيقـــة و « الرودنجوت » المتناسق !..

كان وديعاً أو على الاقل باسماً بشيء كثير من الوداعـة . ملتمـع العينين من تأثير « الشامبانيا » هتف وكأنه دهش للقاء صديق قديم :

— كيف ؟ أنت هنا ؟ لقد أكد لي رازوميخين البارحة أيضاً أنك فاقـد الوعي ! غريب ! أتدري أنني قد زرتك مرة في حجرتك ؟

كان راسكولنيكوف متأكداً من أن زاميوتوف سيتصل به . لذلك فقـد ترك الصحف واستدار نحوه وعلى ثغره ابتسامة هـادئة تحمل معنى من معاني التبرم وقال :

— لقد أبلغت أنك زرتني وأنك حملت إلي قطعة حذائي . ولعلك لا تـدري أن رازوميخين كلف بك منذ أن ترافقتما للذهـاب الى سكن لويز ايفانوفنـا التي كنت تسعى للدفاع عنهـا ذلك اليوم . لقـــد كنت تغمز بعينك الى « الملازم

البارود » دون أن يفهم غايتك . هل تذكر ؟ كان الامر واضحاً ومفهوماً تماماً ! أليس كذلك ؟

— يا له من مسل !

— « البارود » ؟

— كلا بل صديقك رازوميخين .

— لكنك يا سيد زاميوتوف تعيش عيشة مرحة ولا يفوتك ارتياد مثل هذه الامكنة كثيرة النفقات . وعلى فكرة . من الذي دفع عنك ثمن الشامبانيا منذ حين .

— إنني أتمتع بالخيرات الكافية فلمَ تعتقد أن هناك من يدفع عني ثمن الشراب ؟

— إذن فهو يقدم اليك بدون مقابل ! إنك تستغل كل شيء ثم ضحك وأردف :

— لا بأس عليك أيها الفتى الشجاع ! لا بأس . أنا لم أقل ذلك لأثير حفيظتك إنه لمجرد « الدعابة فقط » كما كان يقول الدهان عند ما كان يتحف ميتكا أي « دميتري » بالكلمات . أتذكر ذلك ؟ انها حادثة العجوز .

— لكن أنت كيف عرفت هذا ؟

— قد أكون عارفاً با كثر مما تظن .

— يا لك من رجل تتصنع الغموض ! لا شك أنك لا زلت مريضاً . لقد أخطأت بالخروج من غرفتك .

— هل أبدو لك غريباً غامضاً ؟

— نعم ! ماذا كنت تبحث في الصحف ؟

— في الصحف ؟

ـــ توجد حوادث حريق كثيرة .

ـــ كلا ! أنا لا أهتم بحوادث الحريق !

نظر الى زاميوتوف نظرة غامضة وعادة الابتسامة الهازئة تقلص شفتيه ، ثم أضاف وهو يغمز له بعينه :

ـــ كلا ! ليست الحرائق هي التي تهمني . لكن اعترف أيها الشاب الشجـاع بانك تتزق شوقاً لمعرفة ما كنت أقرأ .

ـــ أبداً ! لم أفكر في هذا مطلقاً . ولقـد سألتلك ذلك لمجرد السؤال . ثم هـل لا يحق لي أن أطرح عليـك مثل هـــذا السؤال ؟ هل لازلت ذلك الـ . . .

ـــ اسمع انت رجل مثقف متعلم . هيم ؟

ـــ إنني أدرس لنيل الشهادة الثانية في المعهد .

نطق زاميوتوف بهذا الجواب في شيء من البلاهة .

ـــ آه الشهادة الثـانية . وانفجر راسكو لنيكوف ضاحكاً ضحكة مجنونه وهتف معقباً :

ـــ الشهادة الثانية ومع ذلك لا يخلو من الخواتم والأبهة والشعر المعنى به . يالك من « شحرور » جميل !

ذهل زاميوتوف وشعر بشيء من المهانةفتراجع قليلا وقد سيطرت عليهدهشة بالغة وقال بصوت صارم :

ـــ كم انت غريب ! أراهن على أنك لازلت تهذي !

ـــ أنا ؟ أهذي ؟ أنت واهم أيها « الشحرور » الجميل ..إذاً فاناأبدوشاذاً هذه هي الكلمة التي يجب أن تقولها .

ـــ شاذاً .

ـــ الخلاصة أنك تريد معرفة ما كنت أبحث عنه ! أنظر هذا العدد الكبير من الصحف التي طلبتها . انها تحمل الانسان على الشك . أليس كذلك ؟

ـــ حسناً ! لنقل ذلك .

ـــ وهذا ما يجعل اذنيك تنتصبان !

ـــ ينتصب ؟ ماذا ؟ كيف ؟

ـــ سأقول لك ذلك مستقبلاً . أما الآن يا عزيزي العزيز : أصرح أو بالاحرى « أعترف » . كلا ليست هذه الكلمة الفنية أيضاً لنقل « أفيد » وأنت تسجل ! تلك هي العبارة الصحيحة وعلى هـــذا « أفيد » أنني قرأت أو أنني شعرت بفضول للقراءة بل إنني كنت أبحث وإنني وجـــدت . . . وإنني جئت خصيصا من أجل ذلك ... كنت أبحث عن التفاصيل المتعلقـــة بمقتل العجوز أرملة الموظف !

واقترب بوجهه حتى كاد أن يلمس وجه زاميوتوف وهو لا يفتأ ينظر اليـه تلك النظرة المجنونة ، اما زاميوتوف فقد راح يحدق في وجهه بدوره دون أن يتحرك او أن يبتعد بوجهه عنه وبدا كل ذلك غريبـا في نظره ودام الصمت بينهما دقيقة طويلة لم يفتآ خلالها يتبادلان النظر ،وفجأة هتفـزاميوتوفـوقد نفذصبره وأعياه السكوت :

ـــ حسناً وماذا يجديني ان تكون قرأت ؟ ماذا في ذلك ؟

فأردف راسكولنيكوف بصوتـــه الهامس دون أن يتأثر بجواب زاميوتوف :

ـــ ذلك لأنني مهتم بهذه العجوز التي بسببها أغمي علي وأنا في دائرةالشرطة عند ما سمعتكم تتحدثون عنها . فهل فهمت الآن ؟

ــ وماذا بعد ؟ ماذا تريد بكلمة « هل فهمت » ؟

كان صوت زاميوتوف قد بدأ يتسم بطابع الغضب . اما راسكو لنيكوف فكان وجهه جامداً صارماً وفجأة انفجر ضاحكا ضحكة عصبية . وفي لمحة خاطفة تذكر بوضوح وجلاء الشعور الذي أحس به عند ما كان واقفا وراء ذلك الباب والفأس في يده والرتاج يهتز والزائران يصيحان ويحاولان فتح الباب وهما يشتمان . تذكر كيف أحس برغبته في شتمها وإهانتها بل وفي اخراج لسانه لها استهزاء والرغبة التي استولت عليه بالضحك ... الضحك ... الضحك المقهقه الساخر . كانت ضحكته في تلك اللحظة صورة عن تلك التي كان يرغب في إطلاقها لما كان وراء ذلك الباب . ولم يتمالك زاميوتوف نفسه فهتف :

ــ إما ان تكون مجنوناً وإما ...

ثم توقف عن متابعة الجملة وقد خطرت له فكرة ملأت رأسه :

ــ وإما ماذا ؟ وإما ... هيا ... قل ...

فأجاب زاميوتوف غاضبا :

ــ لا شيء إن كل هذا سخيف . ثم صمتا كلاهما . وعاد راسكو لنيكوف بعد تلك الضحكة المدوية ساهما مغموماً وانحنى على المائدة جاعلاً رأسه على يده وبدا كأنه نسي زاميوتوف فران الصمت فترة طويله قطعه هذا قائلا :

ــ لمَ لا تشرب الشاي ؟ لقد برد .

ــ هه ؟ ماذا ؟ الشاي ؟ ليكن !

رفع راسكو لنيكوف القدح الى شفتيه وتناول قطعة من الخبز وبعد أن ألقى على زاميوتوف نظرة بدا كأنه عاد الى الحقيقة واستعاد هدوءه فعاد الى وجهه ذلك التعبير الساخر ومضى يجرع الشاي .

قال زامبوتوف :

ــ إن الانحطاط الذي من هذا النوع أخذ يتزايد هـــذه الأيام وقد قرأت مؤخراً في « غازيت وموسكو » أن كل عصابة المزورين قد ألقي عليها القبض في موسكو . لقد كان أفرادها من علية الناس وكانوا يزورون الاوراق النقدية .

ــ آه وقع ذلك منذ زمن قـديم وقد قرأت الحادثة منذ أكثر من شهر في الصحف وفي رأيك إذاً أن هؤلاء الناس هم لصوص محتالون أليس كذلك ؟

ــ كيف ؟ أليسوا إذاً محتالين ؟

ــ هم ؟ بل إنهم أطفال مبتدئون وليسوا محتالين . تصور أن خمسين شخصاً يجتمعون لعمل من هذا النوع ! هل هذا منطقي ؟ إن ثـــلاثة أشخاص في قضية مثل هذه القضية لعدد كبير لأن طبيعة العملية تقتضي أن يكون كل منهم واثقاً وأميناً على مستقبله من نفسه . فكيف إذاً يـــأمن ألا يسترسل في الثرثرة بفعل الشراب ؟ إن كلمة واحدة تكفي عندئذ لاشعال النار في البارود . إنهم مبتدئون لأنهم عهدوا إلى اشخاص غير مأمونين بتصريف الأوراق النقدية المزورة فهل يعقل أن يكلف الانسان أول من يصادفه بمثل هذه المهمة ؟ هيا ! لنفرض أن هؤلاء المبتدئين قد نجحوا وأن كل واحد منهم قد توصل إلى تصريف مليون روبل ثم بعد ؟ هل سيستمر على ذلك مدى الحياة ؟ كلا ! ومع ذلك فان مستقبل كل واحد منهم مربوط بالآخرين .إن الانتحار أفضل من هذه النتيجة ! والأغرب من ذلك أن هؤلاء المزورين لم يستطيعوا إبدال ورقة واحدة لأن أول واحد منهم عندما استبدل الخمسة آلاف روبل كان يرتعد خوفاً . حتى أنه عد الأربعة آلاف الأولى فقط أما الألف الخامسة فقد تقبلها دون عد متلهفاً على الانسحاب وساعياً فقط الى حشرها في جيوبه وبذلك أيقظ الشبهات والشكوك فافتضحت القضية بسبب ذلك السخيف . فهل هذا مقبول ؟

فقال زاميتوف :

ـــ أما أن تكون يداه قد ارتجفتا فهو لعمري صحيح وهو يشاهَد كثيراً . هناك حالات يعجز المرء عن ضبط شعوره فيها .

ـــ ماذا تفهم من ذلك ؟

ـــ بل قل لي أنت هل كنت تستطيع السيطرة على أعصابك ؟ لو أنني كنت في هذا الموقف لما استطعت ذلك ! كيف يخاطر المرء مستهدفاً لكل تلك النتائج من أجل مائة روبل وان يتقدم بورقته المزورة إلى المصرف . تصور الى المصرف ليستبدلها ! كلا ! لو كنت في ذلك الموقف لأضعت رشدي . وأنت . أما كنت تشعر بمثل ذلك الشعور ؟

شعر راسكولينكوف من جديد برغبة عاتية تدفعه إلى السخرية من محدثه وأحس بقشعريرة باردة تكتسح ظهره . غير أنه تمالك نفسه وقال :

ـــ ما كنت لأتصرف على هذا النمط ! لو كنت في ذلك الموقف وكان على أن أبدل ورقة مزورة لتصرفت على النحو التالي : كنت أعد الألف الأولى أكثر من مرة وأنا أعاين العلامات المميزة فيها ثم كنت أبدأ بالألف الثانية فأعـــدها بعنايه وأسحب من وسط الرزمة ورقة من ذات العشرة روبلات لأعاينها على نور الشمس لأتأكد من أنها ليست مزورة ولكنت اقول معتذراً عن سلوكي : « إنني لا أثق بعد أن أضاعت إحدى قريباتي خمسة وعشرين روبلاً كانت عملة زائفة ولم تنتبه اليها » ولكنت لفقت قصة كاملة حول هذاالموضوع . وعندما أبلغ الألف الثالثة كنت أهتف : « انتظر لقد أخطأتفي عد المائة السابعة من الرزمة وأعتقد أني وقعت بمثل هذا الخطأ في الألف الثانية » وعندئذ كنت أترك الألفالثالثة لأعود إلى الثانية فأعد المائة السابعة منها وكنت أسحب أول ورقة منها تقع في يدي فأعاينهـــا ثم أعيدها إليه قائلاً : « أرجو أن تبدل لي هذه ! حتى أجعلأمين

الصندوق يسبح في عرق غزير ويحار كيف يتخلص مني . وبالطبع كنت آخر الأمر سأذهب بعد أن أفتح الباب وأستدير اليه لأعتذر ، ثم أنسحب ! » هكذا كنت أتصرف لو كنت في ذلك الوضع .

قال زاميوتوف وهو يضحك :

ـــ ها ها ... ياله من أمر بغيض ! لكن هذه ليست سوى أقوال . أما عند التنفيذ فثق أنه كان حرياً بك أن تصطدم بعثرة! دعني أقول لك رأيي : « إن أي سفاح ، وليس أنت وأنا ، لا يمكن ان يضبط اعصابه . خذ مثلاً حادثة قريبة : لقد قتلت العجوز في حيّنا ويبدو ان القاتل وحش مخيف ارتكب جريمتـــه في وضح النهار واستطاع الافلات بمعجزة مع ذلك فقد ارتعدت يداه حتى انه لم يحسن السرقة ولم يستطع الاستمرار حتى النهاية : ان الوقائع تدل عليه » .

بدا راسكولينكوف مزعوجاً بهذا القول وصاح وهو ينظر الى زاميوتوف نظرة خبيثه :

ـــ تدل عليه : إذاً حاولوا القبض عليه إن استطعتم . طاردوه .

ـــ لاتخف سوف يقبض عليه .

ـــ من ؟ أنتم ؟ أنتم الذين ستلقون القبض عليه ؟ هم! لكم ان تخدعوا انفسكم إن شئتم ! إن ما يهمكم هو ان تعرفوا ما اذا كان القاتل ينفق الآن من المال الذي سرقه ام لا . وعندئذ تقولون لأنفسكم « كان فلان من قبل بائساً فكيف ينفق الآن عن سعة ؟ لابد وان يكون القاتل ! » وعلى ذلك فان اي طفل يستطيع ان يخدعكم إذا شاء .

فأجاب زاميوتوف :

ـــ الواقع ان كل المجرمين يتصرفون على هـذا الشكل . اما من حيث القتل فانهم ينجزونه بمهارة ثم يقعون في ايدينا عند دخـــولهم او مشرب ولا شك ان

الشرطة تقبض عليهم عندما يعثرون المال الذي سرقوه ! لا يمكن ان يكونوا جميعاً دهـــاة مثلك ! من الواضح أنـك لو كنت أنت لما ذهبت الى حانة أبداً .

قطب راسكو لنيكوف حاجبيه وحدق في وجـه زاميوتوف ثم سأل بوجه متجهم :

— يبدو أنك تتوق لمعرفة الأسلوب الذي كنت أتبعه في مثل هذه الحال .

فاجاب زاميوتوف بلهجة خطيرة وصوت ثابت حتى ليخيل للناظر اليه أن وجهه اتسم كذلك بميسم الخطورة المتزايدة :

— إني أود ذلك حقاً .

— وهل تعلق عليه أهمية كبرى ؟

— جداً .

— حسناً . اليك ما كنت أعمله !

ودنا راسكولنيكوف بوجهه ثانية من وجه زاميوتوف وراح يحـــدق فيه ويتكلم بهمس جعل الآخر يشعر برعدة تسري في أوصاله. قال :

— « كنت استولي على المال والحلي ثم أخرج من المكان ودون أن أضيع دقيقة واحدة أو أن أضرب في الارض باحثاً ، كنت أقصد مكاناً منعزلاً كبستان يحيط به سور أو أي شيء من هذا القبيل بعـد أن أكون متـأكداً من وجود حجر ضخم يزن ثلاثين رطلاً مثلا في زاوية ما أو قرب الجـدار في ذلك البستان أو الباحة ، حجر يكون ملقى هناك منذ أن شيدت الدار أو الجـدران، كنت أرفع ذلك الحجر الذي ينبغي أن تكون تحته حفرة صغيرة وأودع الحلي والمـال في تلك الحفرة ثم أطمرها وأعيد الحجر الى مكانه بعد أن أسوي الارض دفعـاً لـكل تغيير يحدث وأنصرف ! وكنت سأنتظر عاماً أو عامين أو ربما ثلاثـة أعوام

ممتنعاً عن الاقتراب من تلك الاشياء وبعدئذ تستطيع أن تبحث لأن العصفور يكون بذلك قد طار .

صاح زاميوتوف بصوت قريب من الهمس وهو يبتعد فجأة عن راسكو لنيكوف :

ـ أنت مجنون .

كانت عينا راسكو لنيكوف تلتمعان ووجهه شاحباً مخيفاً وشفته العليا ترقص بعنف وكان منحنياً انحناء شديداً نحو زاميوتوف وهو يحرك شفتيه دون أن يصدر عنها صوت ما . وهكذا انقضت لصف دقيقة وهو يعقل ما يعمل لكنه لا يستطيع الكف عن ذلك العمل . كانت الكلمة الرهيبة ـ كما كان الرتاج ، رتاج ذلك الباب من قبل ـ على وشك الافلات من شفتيه ، كانت تحاول الخروج . لكنه استطاع أخيراً أن يحولها بالشكل التالي حين قال :

ـ هذا لو كنت أنا الذي قتلت العجوز واليزابيت !

أما زاميوتوف فكان ينظر اليه نظرة مروعة وقد شحب وجهه حتى حاكى لون غطاء المائدة بينما كان شبح ابتسامة يلوح على شفتيه . قال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ لكن هل هذا ممكن ؟

فألقى عليه راسكو لنيكوف نظرة شيطانية وقال بصوت بارد حازم بعد أن استعاد نشاطه الذهني :

ـ اعترف ، اعترف بأنك ظننت أنني القاتل . نعم . أليس كذلك ؟

فبادر زاميوتوف الى القول :

ـ أبداً . بل إنني الآن أبعد الناس عن الظن أو الشك .

— ها قد ضبطتك الآن ! لقد اقتنص « الشحرور » ! إنـك إذاً ظننت ذلك من قبل طالما أنك تقول : « أنك الآن أبعد الناس عن الشك » .

فصاح زاميوتوف وقد بدا عليه الانزعاج لهذه الهفوة :

— إطلاقاً ... أبداً ... إنـك انت الذي روعتني حتى جعلتني أتلفظ بهـذه الكلمات .

— اذاً إنك لم تكن تشك في أمري ! لكن عن أي شيء اذاً كنت تتحـدث لما غادرت ـ أنا ـ دائرة البوليس ؟ ولمَ راح « الملازم البارود » يستجوبني بعد أن استفقت من إغمائي ؟

نهض واقفاً وصاح بالندل قائلاً :

— ما هو حسابك ؟

— ثلاثون كوبيكاً بمجموعه ...

— حسناً اليك عشرين كوبيكا مكافأة . ثم التفت الى زاميوتوف وقال وهو يمد له يداً مرتجفة ملأى بالاوراق المالية :

— أترى كم عندي من النقود ؟ إن بينها أوراقاً حمراء وزرقاء مجموعها خمسة وعشرون روبلا . فمن أين أتتني ؟ ثم . ثوبي الجـديد ؟ من أين جاء ؟ أنت تعرف مـع ذلك أنني لا أملك دانقاً ! إنني أراهن على أنك قد استنطقت صاحبة الدار التي أسكنها . هيا ! هذا يكفي . لقـد تحدثنا كثيراً فالى اللقاء وبسرور .

خرج يهزه شعور غريب ، لون من « الهيستريا » الممزوجـة باللذة العميقة كان وجهه مربداً شديد الهزال متشنجاً كأنه أصيب بنوبه حادة وازداد اعياؤه شدة فقد شعر عقب هذه الصدمة الاولى أن قواه التي عادت اليه مثارة جداً قـد وهنت فجأة بانتهاء الصدمة واصبحت أشد ما تكون خوراً .. ولما اصبح زاميوتوف

وحده لبث جالساً في مكانه فترة غارقا في التفكير . ذلك أن راسكولنيكوف — دون أن يعي — قلب له نظرياته رأساً على عقب وجعله يتخذ قراراً نهائيا ويقول متمتما : « إن إيليا بيترفيتش وحش سمج » .

ما كاد راسكولنيكوف يفتح الباب المؤدي الى الشارع حتى التقى برازوميخين داخلا . فتوقف كل منهما على بعد خطوة من الآخر واخذا يتبادلان النظر . بدا على رازوميخين الذهول وأعقبه غضب عنيف اشتعل في وجهه والتمعت عيناه ببريق متوعد وصاح ملء فيه :

— أنت هنا اذاً ! ويحك لقد فررت من السرير ! أيها الخبيث . لقد جعلتني أبحث عنك تحت السرير وفي غرفة الغلال حتى أنني كدت أن أضرب ناستاسيا لاهمالها . ثم أين أجدك ! روديا ما معنى هذا ؟ قل لي الحقيقة ! اعترف . هل تسمع ؟

اجاب راسكولنيكوف بهدوء .

— معنى ذلك أنكم تزعجوني إزعاجاً مميتاً وأريد أن اكون وحيداً . . .

— وحيداً ! وانت الذي لا تستطيع السير ؟ ووجهك أشد شحوباً من قطعة القماش ؟ وصدرك لا يستطيع التنفس ؟ ايها الغبي ! ماذا فعلت في « قصر البلور »؟ اعترف فوراً .

غير أن راسكولنيكوف حاول الابتعاد وهو يقول :

— دعني أمر ...

جن جنون رازوميخين واطبق على كتف راسكولنيكوف بعنف وصاح :

— ادعك ؟ ادعك ؟ انت تجرأ على قول « دعني أمر » بعد ما فعلته حتى

الآن ؟ أتعرف ماذا سأفعل بك فوراً ؟ سوف اضعك تحت إبطي واربطك كحزمة محترمة ثم احملك الى مسكنك وسأغلق عليك الباب بالمفتاح .

قال راسكولنيكوف بهدوء وبصوت ساكن :

ـ اسمع يا رازوميخين . ألا ترى أنني عازف عن خدماتك ؟ اي شيء اشد صعوبة على المرء من صنع المعروف مع من لا يبالي به مطلقاً ! مع من يزعجه أن يعمل من اجله ذلك المعروف ، هيا لماذا جئت تعنى بي منذ بدء مرضي ؟ مايدريك أنه كان يسعدني ان اموت ! ألم افهمك ما فيه الكفاية اليوم ؟ إنك تؤلمني وتزعجني وتعذبني ؟ ثق بان ذلك يؤخر شفائي . لأنه يجعلني في حال دائم من الثورة والغضب . فدعني اذاً بربك . بأي حق تستوقفني عنوة ؟ ألا ترى أنني محتفظ بكل قواي الفكرية وانا أتحدث معك ؟ كيف استطيع ان احصل منك على وعد بانك لن تفرض وجودك علي وانك ستكف عن العناية بي ؟ انا عاق . ليكن ! انا مخلوق خشن ، سمج ، فظ ، ولكن بربكم ، بربكم دعوني هادئاً ، دعوني ، دعوني .

كان يتكلم بصوت هادئ وهو يخمن سلفاً نوع السم الذي كان ينثره باقواله ولم ينته من حديثه إلا وقد بلغ به الحال مبلغاً من الضعف كاد ان يكتم انفاسه تماماً كما وقع له من قبل مع لوجين . اما رازوميخين فقد فكر لحظة ثم افلت ذراع راسكولنيكوف وهو يقول بصوت حالم :

ـ حسناً . اذهب الى الشيطان .

وفجأة انتابه غضب عنيف فصاح :

ـ انتظر ، اسمع : اصرح لك : بانكم جميعاً ـ انت ومن هم على مذهبك ـ ثرثارون مساكين ادعياء حقيرون حتى انكم اذا اصبتم بألم تصرفتم تصرف الدجاجة التي وضعت بيضة للتو ! انكم تسرقون الكتّاب الاجانب حتى في هذه

الامور لانكم لا تملكون في انفسكم شيئا من الحياة الخاصة المستقلة . إن لحمكم ابيض كلحم الحوت وما يجري في عروقكم إن هو إلا حليب وليس بدم ! انا لا اصدق احداً منكم لأن همكم الأول في كل المناسبات هو تحاشي الظهور بمظهر الرجال ! اسمع قبل ان ترتحل ، اسمع ما اقول حتى النهاية . انت تعرف أن لدي الليلة اصدقاء مجتمعين في حفلة سمر اقيمها بمناسبة انتقالي للمنزل الجديد ولعلهم وصلوا الآن الى داري وقد تركت عمي هناك ليستقبلهم . فاذا كنت لست سخيفا عريقا في السخف ، او ترجمة للغة اجنبية ما ، فان من الافضل لك ان تقضي امسيتك عندي بدلاً من ان تتشرد هكذا في الشوارع . اسمع يا روديا ! انا اعرف انك ذكي وذكاؤك لا يمنع ان تكون لطيفا وعليه اذا لم تكن سخيفا فخير ماتعمله ان تأتي الى مسكني الليلة ولسوف اجد لك مقعداً مريحا جداً بل وسأضعك في سرير فاخر اذا اقتضى الامر وسيكون هناك عدد من الاصدقاء عل ذلك يرفه عنك ! وسيحضر زرسيموف كذلك . فهل تحضر ؟

— كلا .

فصاح رازوميخين وقد نفذ صبره :

— إنك مخطىء بذلك ! وما يدريك ؟ لا يمكن للمرء ان يعرف ماسيكون ؟ لقد وقع لي شخصياً ان كنت أبصق في وجه بعضهم ثم اسارع الاتصال بمن بصقت في وجهه . انك تصاب بالخجل ولكنك بذلك تعود الى حظيرة بني الانسان . لذلك لا تنسى يا روديا عنواني : دار بوتشينكوف ، الطبقة الثالثة .

— يخيل إلي يا سيد رازوميخين أنك على استعداد لتحمل كل إهانةفي سبيل خدمة شخص ومساعدته .

— انا ؟ مجنون ! لا تنسى منزل بوتشينكوف رقم (٤٧) دار الموظف بابوشكين .

ـــ لن احضر يا رازوميخين .

ـــ بل اراهن على انك ستحضر . وإلا فانك تتنكر لنفسك .

وبينما كان راسكولنيكوف يهم بمغادرة المكان دون ان يجيب وقعت عينا رازوميخين على زاميوتوف فهتف :

ـ هيه ! ان زاميوتوف هنا .

ـ نعم .

ـ هل رآك ؟

ـ لقد رآني .

ـ وتحدث معك ؟

ـ وتحدث معي .

ـ عن اي شيء ؟ هيا لتذهب الى الشيطان . لا تقل اذا كان لا يرضيك ... تذكر منزل بولشنيكوف رقم (٤٧) مسكن بابوشكين .

خرج راسكولنيكوف الى الشارع فبلغ شارع « البساتين » ودار حوله . وكان رازوميخين يتابعه بنظرات قلقة . ثم لوح بيديه دلالة على عدم الاكتراث ودخل المشرب .غير انه توقف على السلم مفكراً وغمغم:

ـــ « ليحملني الشيطان » ! انه كان يتكلم دون وعي. لكنه كان يبدو مالكا قواه . كم انا سخيف . ألا يتكلم المجانين بلهجة مماثلة للهجة العقلاء؟ ان زوسيموف نفسه يشك في ذلك على ما يبدو .

ثم ضرب جبهته بيده وقال :

ـــ ولكن ... كيف أدعه وحيداً في هذه اللحظة ؟ لا يبعد ان يلقي بنفسه الى النهر ليغرق ! لا شك أنني ارتكبت خطيئة حين تركته يــذهب . وعاد

ادراجه يلحق براسكو لنيكوف . لكن هذا كان قد اختفى . فلما أعياه البحث عاد الى « قصر البلور » ليستفسر من زاميوتوف عما وقع له معه .

اتجه راسكولينكوف نحو جسر « ايكس » ... ووقف في منتصفه مستنداً الى الحاجز وراح ينظر الى الأفق البعيد . شعر بعد مبارحته لرازوميخين انه شديد الضعف وأنه استنفذ كل قواه حتى استطاع بلوغ هـــذا المكان . أحس بحاجته الى الراحة . الى النوم في الشارع واخذ يرمق متأملاً دون وعي اشعاع الشمس الأحمر الأخير الذي يلتمع على صفحة الماء والبيوت الغارقـــة في العتمة الداهمة . وهناك على الشاطئ الأيسر كان إشعاع الشمس الغاربة ينعكس على زجاج نافذة في اعلى منزل فيجعلها تبدو ملتهبة وكأنها قطعة من الجحيم . وكانت المياه في القنال تبد قاتمة اللون فبدا على وجهه اهتمام خاص بالمـــاء وأخيراً شعر بحلقات حمراء تدور أمام عينيه وخيل اليه أن المنازل والمارة والرصيف وكل من عليه ومن حوله بدأوا يدورون وكأنهم يرقصون ثم انتفض فجأة وكأنه تخلص بصعوبة وبجهود من الاغماء الذي كاد ان يدهمـــه وشعر بشخص يقترب منه ويقف الى يمينه . كانت سيدة طويلة القامة تحجب رأسها بشال ولها وجـه اصفر هزيل تلتمع في محجريها العميقين عينان حمراوان . كانت تحدق فيه دون ان تراه لأنها كانت في حالة لاتسمح لها بتمييز الاشخاص.اقتربت تلك الامرأة من الحاجز فجأة ووضعت مرفقها عليه ثم طوحت بساقها اليمنى اولاً وأعقبتها باليسرى والقت بنفسها الى الماء فانبعث من المـــاء الكدر صدى ارتطام جسدها فيه وسرعان ما ابتلعت المياه الفريسة لتلفظها بعد قليل وتجتذبها مـع التيار ورأسهـا وساقاهـا مغموران وبدا ثوبها منتفخاً وكأنه فراش صغير . انبعثت في تلك اللحظة عشرات الأصوات صائحة :

«امرأة تختنق ، امرأة تختنق» وتهافت الناس فحشر راسكولينكوف نفسه بينهم

وسمع احدهم يقول :

— رباه انها آفروسينيوشكا !

وضاح بعضهم :

— الينا بزورق ... بزورق ...

وفي تلك اللحظة كان أحد الرتباء قد هبط السلم المؤدي الى شاطىء القنال ونزع معطفه وحذاءه ثم ارتمي في الماء ولحق بالأمرأة الغارقة فأطبق على ثوبها بيده اليمنى بينما تعلق باليسرى بالحبل الذي ألقاه اليه زميل له . وهكذا اخرجت اليائسة المنتحرة من القناة وألقيت على ارض الرصيف لتجرى لهـا الاسعافات . ولم يمض قليل حتى استعادت رشدها ففتحت عينيها وتناهضت ثم جلست واخذت تزيل عن ثيابها ما علق بها من الطمي بحركة لا ارادية دون أن تنبت بكلمة وتهافت الناس حولها وهتفت امرأة تقول :

— لقد ركبها ألف شيطان ! نعم ألف شيطان .

وراحت المتحدثة تفسر ما حدث بقولها :

— لقد حاولت في المرة الأولى شنق نفسها لولا أن أنقذت في آخر لحظة . انها جارتنا ونحن نقطن في المنزل الثاني قريباً من هنا على هذه الناصية . وقد خرجت لشراء بعض الحاجيات من البقالية وطلبت من الخادم مراقبتها . ومع ذلك فقد وقع المحذور .

لم يلبث المجتمعون ان تصرفوا وبقي « الرقيبان » يعنيان باليائسة وكان بعضهم قد الح الى وجوب سوقها الى دائرة الشرطة .

راح راسكولينكوف ينظر الى هذا الصخب باحساس غريب من اللامبالاة والجود . وشعر بالغثيان وتمتم يحدث نفسه قائلاً :

— كلا ! انه بغيض ! الماء ؟ انه لايستحق العناية . خصوصاً وانه لن يحدث

شيء فلمَ الانتظار ؟ ولكن على فكرة ، لمـــاذا بارح زاميوتوف عمله في دائرة الشرطة رغم ان الدوام يستمر حتى الساعة التاسعة ؟

أدار ظهره الى الحاجز بعد ان كانت فكرة الانتحار تراوده وألقى نظرة حوله ثم خاطب نفسه وكأنه اتخذ قراراً حاسماً :

ـــ هيا بنا ! لمَ لا ؟

ثم غادر الجسر واتجه نحو دائرة الشرطـة بقلب جامد لا احساس فيه . كان يمقت التفكير في تلك اللحظة حتى ليقال ان قلقه قد غادره وان تلك الانتفاضة التي خلقت فيه بعض النشاط فأخرجته من حجرته « لينهي كل شيء » قـد حل محلها فتور ووهن كاملان . استمر يحدث نفسه بقوله :

ـــ حسناً . ان ذلك أيضاً يعتبر مخرجاً . ثم إنني اريد الانتهاء لذلك فسأنتهي أليس ذلك بالمخرج المناسب ؟ ماذا يهم ! سيكون لي دائمـاً « قـدوم مربعة » من المساحة . مع ذلك يالها من نهاية ! هــــل يمكن أن تكون تلك هي « النهـاية » ياللشيطان ! إنني تعب وأود بجدع الأنف لو أنام أو أجلس والخجل في الموضوع ما فيه من سخف . مع ذلك ، لأنسَ كل هــــذا . إنني أحياناً أترك الحـاقات تعصف في رأسي .

كان عليه كي يصل الى دائرة البوليس ان يسير بخط مستقيم ثم ينعطف الى اليسار عند بلوغه الشارع الثاني . لكنه قبل أن يصل الى المنعطف الأول توقف برهة وراح يفكر ثم ما لبث أن سار في زقاق وانعطف بعد أن قطع شارعين ثم توقف دون ان يشعر بما يعمل ولعله اراد بتوقفه استجماع آرائه واكتساب الوقت ! كان يمشي مطرقاً ببصره الى الارض . وفجأة شعر كأنما يهمس بعضهم في اذنه . ولما رفع رأسه وجد انه قد بلغ باب ذلك « البناء » ووقف تمامـــاً أمام الباب ! كان يتحاشى منذ تلك « الليلة العتيدة » المرور بذلك المكان غير أنـ رغبة

لاتقاوم يصعب تفسيرها استبدت به فدخل البناء بعد ان اجتاز المـــدخل ثم انحرف الى السلم الأول الى اليمين وراح يصعد الدرجات المعروفة لديه والتي تقود الى الطبقة الرابعـــة . كان الظلام حالكاً والسلم ضيقاً يصعب سلوكه فكان راسكولينكوف يتوقف على كل « بسطة » وينظر حوله بفضول . شاهـــد على « بسطة » الطبقة الأولى عارضة جديدة لم تكن موجودة من قبل بينما كان مسكن الطبقة الثانية مجدداً تماماً وقد طلي بابه الموصد بالدهانفاستنتج انه قد أجر وأشغل وأن نيكولا وديمتري قد فرغا من العمل فيه . ولما بلغ الطبقة الرابعة حدث نفسه قائلاً : « هنا » !

شعر بتردد ولون من الخوف : كان باب المسكن مفتوحاً على مصراعيـــه وكانت أصوات تنبعث من الداخل فتأكد من وجود أشخاص فيه ، الأمر الذي لم يكن يتوقعه : لم يتردد طويلاً بل دخل المسكن بقدم ثابتة .

كان بعض العمال يرممونه ويجددون ما تلف منه فأذهله ذلك لانه ـ على مايبدو ـ كان يتوقع أن يراه على حاله الذي تركه عليه آخر مرة بل لعله كان ينتظر ان تكون الجثتان مسجاتين في مكانهما المعهود فاذا به تطالعه الآن غرفة ذات جدران عارية خالية من الاثاث فبدا له المشهد غريباً . تقدم نحو النافـــذة فجلس على حافتهـــا .

كان في المسكن عاملان يشتغلان . احدهما اكبر سناً من الآخر وكلاهما لم يتجاوز طور الشباب . كانا يلصقان على الجدران أوراقاً بيضاء مزينـــة بأزهـــار البنفسج وهما ينزعان الاوراق الصفراء القذرة الممزقـــة التي كانت تكسوهـــا من قبل . شعر راسكولنيكوف بغضب عنيف يستولي عليـــه وراح ينظر الى تلك الاوراق الجديدة لظرة عدائية وكأنه يأسف لـكل تلك التغييرات المحدثة .

وكان العاملان على وشك الانتهاء من عملها فكانا يرتبـــان معداتهما ويتأهبـــان

لمغادرة البناء . لذلك لم يزعجها دخول راسكولينكوف بل استمرا يتحدثان. كان أحدهما يقول :

ـــ جاءت تزورني صباح ذات يوم تتصنع عطف الكبير على الصغير وكان الوقت مبكراً جداً وهي في ابهى زينتها فسألتها : ماذا بك ؟ لمَ تظهرين هكذا ؟ فأجابت :

ـــ يا « تيت فاسيليتش » أريدأن اكون اعتباراً من اليوم لك وحدك ! .. ولكي اصفها لك أكتفي بالقول : انها تشبه « جورنال » الموضة تماماً !

فأجابه الآخر :

ـــ « جورنالات الموضة » ! انها كما تعلم عبارة عن صور ملونة تصل كل يوم سبت بالبريد من الخارج . انها تصلح لتعليم النساء كيفية ارتداء الملابس وصنعها وكذلك الرجال. انها رسوم فالرجال يصورون فيها وعليهم أجمل الثياب أما فيما يتعلق « بجناح » النساء فحدث ! انهم يصورونها بشكل جذاب جميل اولئك الماكرون حتى أنك لو أردت التضحية بكل ماتملك لما أمكنك دفع أثمان ما هو مصور فيها .

فصاح الفتى الاصغر سناً وقد اعجبه الحديث :

ـــ ما هو الشيء الذي لاتراه في ذلك « الشيء » انه حاو على كل شيء .

ـــ نعم حتى والاشياء « الاخرى » . لاتخلو منها .

نهض راسكولنيكوف ومضى الى غرفة النوم التي كانت تضم صندوق العجوز والخزانة . فبدت له الغرفة صغيرة الحجم وهي فارغة ولم يكن العاملان قد نزعا بعد ما كان على جدرانها من أوراق وكانت هناك آثار في أحد أركانها تخلفت عن دولاب « الايقونات » . نظر حوله وعاد الى النافذة . فحدجه اكبر العاملين سناً بنظرة وسأله :

ـــ ماذا تبحث هنا ؟

لم يجب راسكولنيكوف بل نهض واقفـــاً ومضى الى المدخل حيث حبل الجرس فأطبق بيده عليه وجذبه فدوى صوت الجرس ... الصوت « إياه » الذي سمعه ،صوت « التنك » . كرر القرع ثانية وثالثة ، وعادت الى مخيلته .صورة تلك اللحظة الرهيبة التي قضاها في هذا المكان فكان يرتعد كلما دوى صوت الجرس ويشعر بلون من السرور !

صرخ العامل في وجهه منفعلاً :

ـــ لكن ماذا تريد ؟ من أنت ؟

عاد راسكولنيكوف الى الغرفة الداخلية وهو يقول :

ـــ أنا أبحث عن مسكن أقطنه وقد جئت أعاين هذا !

ـــ لا يزور الناس المساكن الخالية ليلا ! ثم إنه كان عليك أن تصحب معك البواب !

سأل راسكولنيكوف وهو يتجاهل ملاحظة العامل :

ـــ لقـــد نظفوا الارض كما يبدو . هل سيدهنونهـــا ؟ ألا توجد آثار دماء ؟

ـــ أية دماء ؟

ـــ لكن العجوز وأختها قتلتا هنا وكانت هنا بحيره من الدم !

بان الانزعاج على وجه العامل وهتف :

ـــ أي نوع من الناس أنت ؟

ـــ أنا ؟

ـــ نعم !

ـــ أتريد أن تعرف أي نوع من الرجال أنا ؟ لنذهب الى دائرة الشرطة وسأعلمك هناك !

نظر العاملان الى بعضها بخوف فقال الاكبر سناً :

ـــ هيا ... لقد أزف وقت رحيلنا بل اننا قد تأخرنا . هيا يا « آليوشا » لنذهب وينبغي أن نغلق الباب .

فقال راسكولنيكوف بلا مبالاة :

ـــ حسناً لنذهب .

وخرج أولاً وراح يهبط السلم ببطء فلما بلغ الباب الخارجي هتف منادياً البواب !

ـــ هه ! « دفورفيك » !

كان عدد من الاشخاص بينهم البوابان واحدى الفلاحات وأحد الصناع بثوب منزلي ، واقفين أمام الباب يتأملون المارة . قصد راسكولنيكوف اليهمفسأله أحد البوابين :

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ هل كنت في دائرة البوليس ؟

ـــ لقد جئت للتو من هناك . ماذا تريد ؟

ـــ هل هم هناك حتى الآن ؟

ـــ نعم إنهم هناك .

ـــ وهل مساعد رئيس البوليس هناك أيضاً !

ـــ لقد كان هناك منذ لحظات . ماذا تريد ؟

لم يجد راسكولنيكوف بل لبث واقفاً بين الجماعة ساهم الفكر بينما قال اكبر العاملين سناً :

ـــ لقد جاء يتفقد المسكن الذي يشتغل فيه !

ـــ أي مسكن ؟

ـــ ذلك الذي نشتغل فيه وكان يسأل : لمَ غسلوا الدم ؟ لقد وقعت جريمة قتل هنا وقد جئت أستأجر هذا المسكن ! ثم راح يقرع الجرس حتى كاد أن يقطع حبل الجرس . ثم طلب الينا أن نذهب معه الى دائرة البوليس ليتحدث بكل شيء !

شعر البواب بشيء من القلق وراح يصعد راسكو لنيكوف ببصره وقدقطب حاجبيه ثم قال وقد اكتسب صوته طابع التهديد :

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا روديون رومانيتش راسكو لنيكوف ، طالب سابق وأقطن في دار « سشيل » بالقرب من هنا في الزقاق المجاور رقم ١٤ . اسألوا البواب إنه يعرفني !

نطق راسكو لنيكوف بتلك الاقوال وهو شاردالذهن ينظرالىالشارعالذي بدأت الظلمة تكتسحه نظرات ساهمه بلهاء .

ـــ وماذا جئت تعمل في هذا المسكن ؟

ـــ أردت أن أراه !

ـــ وماذا فيه حتى تهتم برؤيته ؟

وهنا تدخل الصانع ذي الثوب المنزلي وقال :

ـــ ماذا لو استقناه الى مركز البوليس ؟

نظر اليه راسكو لنيكوف نظرة متعالية وتأمله برهة باهتمام ثم قال بهدوء :

ـــ هيا بنا !

بينما عاد الرجل يقول مؤكداً :

ـــ ينبغى أن نذهب به الى هناك طالما أنه جاء « لهذا السبب» ينبغي أن تكون في رأسه فكرة ما !

بينما غمغم العامل :

ـــ الله يعلم اذا كان ثملاً أم لا ؟

وعاد البواب يسأل وقد علا وجهه الغضب :

ـــ ماذا تريد على الضبط ؟ لماذا جئت تزعجنا ؟

فاجاب راسكو لنيكوف بسخرية :

ـــ إنك ترتعد خوفاً من الذهاب الى دائرة البوليس !

ـــ ولم أرتعد من الخوف ؟ لمَ جئت تزعجنا ؟

وصاحت القروية :

ـــ إنه نشال حقير !

بينما قال البواب الآخر وكان رجلا ضخم الجثة يحمل في يده حلقة مفاتيح كبيرة :

ـــ إنه متسكع حتماً فلمَ تتناقش معه ؟ هيا غادرنا ... « انقلع » !

وأمسك بكتف راسكو لنيكوف ثم دفعه الى الشارع فكاد أن يسقط على الارض لكنه تحامل على نفسه ونظر بامعان الى اولئك الذين كانوا مجتمعين وابتعد!

قال العامل بدهشة :

ـــ إنه مخلوق غريب !

فاجابت القروية :

ـــ صحيح ! لقد أصبح « العالم » في هذه الايام شديد الغرابة .

وقال الصانع :

ـ كان يجب سوقه الى « القسم » .

فأجاب البواب الضخم :

ـ وما فائدة ذلك ؟ إنه متسكع نشال كما بدا لنا فلو أخذناه لسقط في الفخ ولما استطاع الخروج ...

راح راسكولنيكوف يناجي نفسه قائلا : « أأذهب أم لا أذهب ؟ » وكان واقفاً على الرصيف عند المنعطف ينظر حوله وكأنه ينتظر الجواب من أحد .غير أن الجواب ظل معلقاً ! كان كل شيء ميتاً لا يحس ولا يشعر بآلامه وعذابه ! كان كل شيء ميتاً بالنسبة اليه فقط ! وفجأة لمح على بعد مائتي خطوة من مكانه ، جمهرة من الناس ، يزداد عددها في ذلك الظلام الوافد وسمع صرخات وصيحات وأصوات متنافرة . وفي وسط الجمهرة وقفت عربة يشع منها ضوء باهت . أثار المنظر راسكولنيكوف فانعطف يميناً وراح يحث خطاه متجهاً نحو المتجمهرين . كان يبدو عليه أنه يريد الاتصال بأي كان لأنه كان اتخذ قراره النهائي: لسوف يذهب الى مركز البوليس بعد لحظات فلمَ لا يملأ عينيه من المشاهد « المبهجة » حتى ذلك الحين !

الفَصلُ السَّابعُ

كانت عربة أنيقة واقعة وسط الشارع وقد شد اليها حصانان أشملان حرونان ... وكانت العربة خالية والسائق واقفاً بجانبها وقد تخلى عن مكانه ... وكان بعضهم ممسكاً بمقاود الحصانين بينما تجمع نفر من الناس حولهما فراحت شرذمة من رجال البوليس تمنعهم من الاقتراب ! ... وكان أحد رجال الشرطة ممسكاً بمصباح في يده يلقي ضوءه على شيء ملقى على الرصيف قرب العجلات ؛ وبدا السائق مرتبكاً قلقاً اذ كان يهتف بين حين وآخر :

— يالتعاسة ! رباه يالتعاسة !

شق راسكولنيكوف طريقاً لنفسه وسط الازدحام حتى استطاع أن يبلغ مكاناً استطاع فيه معرفة سبب هذا الحشد الصاخب المضطرب ، كان على الارض، رجل ملقى على الرصيف فاقد الصواب والدم يغمر كل جسمه وقد سحقته العجلات منذ حين . كانت ثيابه بالية قديمة ولكنها تدل رغم ذلك على أن صاحبها « سيد » أو أنه كان « سيداً » ، وليس صعلوكاً وكان الدم يتفجر من جمجمته ووجه المهشمين حتى اختلطت معالمها . كان الحادث مؤلماً وكان مقدراً لضحيته الموت !

عاد السائق يصيح ذاهلاً :

— رباه ! كيف كان يمكنني معرفة ماذا سيحدث ؟ فلو أن خيولي كان تسير هدباً أو أنني لم أحذره صائحاً بكل قواي لكان الأمر ممكننا . لكني كنت اسير ببطء وتمهل وبسرعة عادية تماماً وقد شهد الناس كلهم ذلك هل اصدق ويكذب الآخرون ؟ لكن الرجل الثمل يرى « الدنيا » مشوشة في وضح النهار ! لقد رأيته

يجتاز الشارع مترنماً حتى انه كاد ان يستلقي في منتصف الطريق ، فهتفت بـــه محذراً ثلاث مرات وخففت سرعــة الجياد لكنه جاء يصطدم بهم بخط مستقيم ! إنني أعتقد أنه تعمد ذلك ، والجوادان فتيان نشيطان فكانت صيحاتي المحذرة تزيد في هياجها وهكذا وقع الحادث المؤلم .

وصاح شاهد عيان بين المتجمهرين يقول :

— إنه يقول الحق !

وأيده ثان وثالث :

— لعمري ان ما قاله هو الصدق ! لقد صرخ ينبهه ثلاث مرات متتالية !

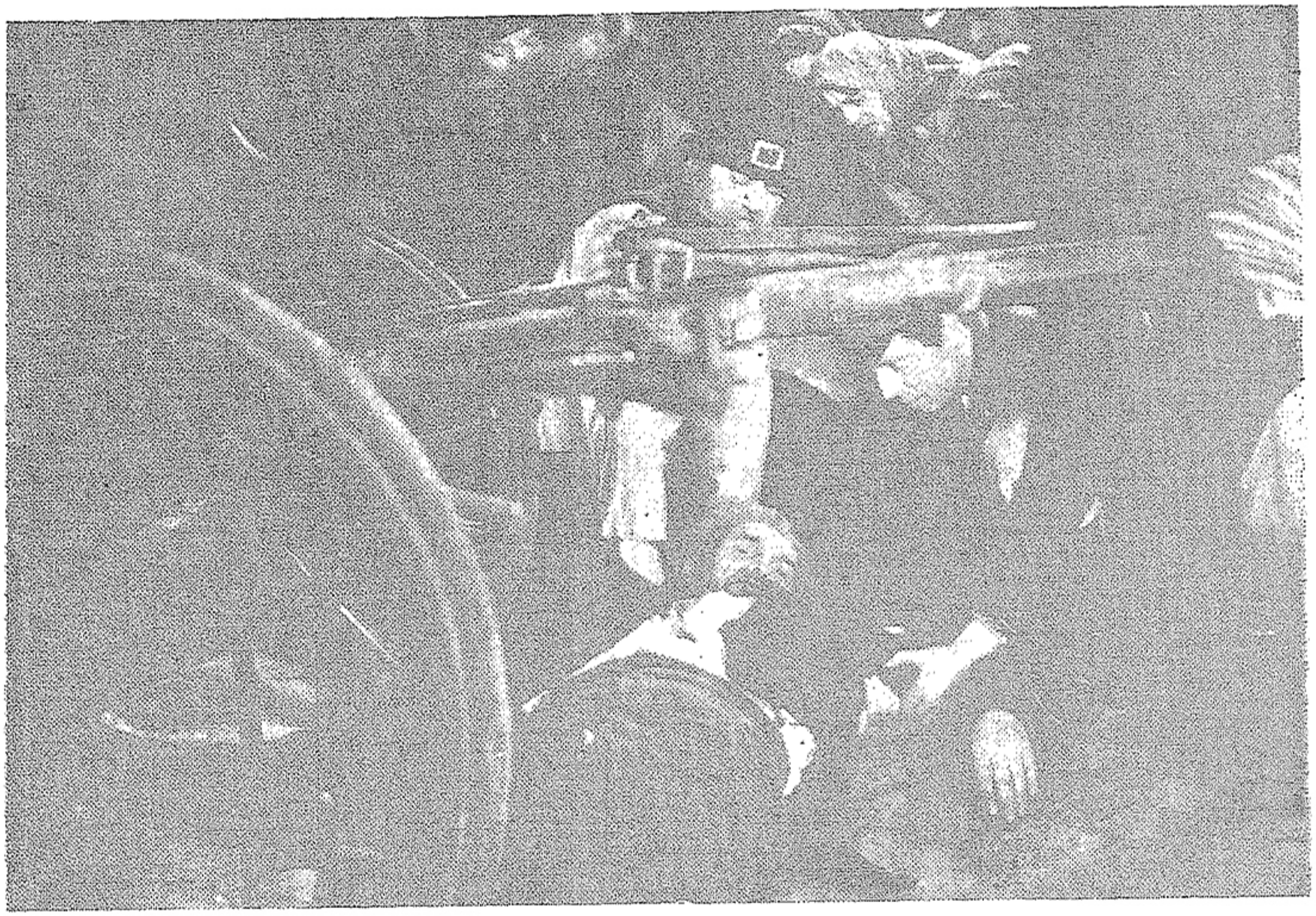
— ثلاث مرات ، ثلاث مرات ، كلنا سمعنا ذلك !

وكان يبدو على السائق أنه غير وجل لما حـدث فقد كانت أعصابه هـادئة باستثناء تلك العبارات التي لا تخلو من قلق والتي كان يرددهـا بين الحين والآخر مشفقاً على مصير الضحية ، وقد بدا أن العربة تخص بعض الأغنياء وان صاحبهـا ينتظر قدومها في مكان معين وكان رجال الشرطة مدركين تلك الحقيقة وقـــد أعاروها كل اهتمامهم . فلم يبق عليهم الا نقل المدهوس الى مركز البوليس ثم الى المستشفى دون ان يعرف اسمه . وكان راسكولنيكوف قـــد تسلل خلال ذلك الوقت حتى بات في عداد اقرب الناس الى الضحية وفجأة أضاء مصباح الشرطي وجه التعس فعرفه وهتف وهو يزيح الناس عن طريقه ليصل الى الصف الأول :

— أنا أعرفه ... أنا أعرفه ! إن موظف متقاعـــد ، المستشار مارميلادوف وهو يقطن بالقرب من هنا في دار كوزل ! عليَّ بطبيب وأنا ادفع الأتعاب !

وأخرج نقوده من جيبه وعرضها على انظار رجـــل البوليس وهو في اعلى درجات الانفعال والاضطراب ،

سر رجال الشرطة لمعرفة اسم الضحية اما راسكولنيكوف فقد اعلن عن



راسكولنيكوف يهرع لنجدة مارميلادوف

اسمه وعنوانه مجهداً نفسه كما لو كان الرجل أخاه الاكبر ساعياً الى نقله بسرعة الى داره وهو فاقد الوعي . وكان يهتف :

ـــ إنه يقطن هناك على بعد ثلاثة منازل من هنا وصاحب منزله ألماني غني : « كوزل » . لقد كان ثملا حتماً وكان قاصداً مسكنه . أنا أعرفه ... إنه مدمن وله عائله كبيرة العدد : زوجة وأولاد بين بنين وبنات . كم يلزم من الوقت لنقله الى المستشفى ؟ سأدفع للطبيب سأدفع ! يجب أن يلقى العنايه الكافية وإلا فانه سيموت قبل ان يبلغ المستشفى .

انتهز فرصة مواتية فدس في يد أحد رجال الشرطة قطعة من النقود ولما كانت تلك الاجراءات قانونية وليس فيها ما يستوجب اللوم فقد ووفق على نقل الجريح الى منزله . وهكذا سمح لبعض المتحمسين أن يساهموا في حمله وكان بناء « كوزل » على بعد ثلاثين خطوة من مكان الحادث فراحت الجماعة لشق طريقها اليه يتبعها راسكو لينكوف وهو رافع رأس الجريح بعناية دون أن يغفل عن القيام بدور الدليل .

ـــ من هنا ... اصعدوا هذا السلم ... ينبغي أن يبقى رأسه مرفوعاً ... هكذا حسناً سادفع وسأشكركم بجميلكم !

كانت زوجة « مارميلادوف » على جري عادتها كلما أتيحت لها فترة راحة تذرع غرفتها جيئه وذهاباً من النافذة الى المدفأة ومن المدفأة الى النافذة وذراعاها معقودتان على صدرها وهي تحدث نفسها كلما سنحت لها الفرصة وتخلصت من نوبات السعال . وكانت منذ حين قد أصبحت تبحث مع ابنتها البكر بوليا أحاديث تزداد عمقاً مع الزمن . وعلى الرغم من سن الفتاة المبكرة وعدم فهمها عديداً من الاشياء فانها بدأت تفهم تماماً ما تريده أمها منها . لذلك فقد كانت تصغي الى احاديثها بعناية فائقة ، وتتابعها

بعينها الكبيرتين اللتين تشعان ذكاءاً ساعية الى فهم كل كلمة تتلفظ بها أمها وادراك كل تلميح اذا خانها التصريح !

وفي تلك الاثناء . كانت بوليا تخلع ثياب اخيها قبل ان تودعه سريره فقد كان ذلك الصغير مريضاً طيلة ذلك النهار. وكان في تلك اللحظة جالساً بهدوء على مقعد منتصب الجذع صامتاً منتظراً ان يخلع عنه قميصه الذي سيغسل اثناء الليل. وكانت قدماه متجهتين نحو الباب وعلى جانبه جورباه أحداهما الى يمينه والثانيــــة الى يساره . كان يصغي الى حديث امه متسع العينين منتفخ الخدين ككل الاطفــال الصغار الذين تنزع عنهم امهاتهم ثيابهم قبل النوم ، أما الفتاة الاخرى فكانت ترتدي أسمالاً ممزقة تماماً وكانت تقف قرب الستارة منتظرة دورها . كان الباب المؤدي الى السلم مفتوحاً لأن ذلك كان الوسيلة الوحيــدة للتخلص من دخان اللفائف الذي ينبعث من الغرف الاخرى ويسبب لـكاترين ايفانوفنا سعالاً قوياً طويلاً يتداعى له صدرها المريض . وكانت كاترين ايفانوفنا قد اصبحت منـــذ اسبوع اكثر نحولاً من السابق وازدادت البقع الحمراء ظهوراً على خديها .

كانت تقول لابنتها بوليا وهي تروح وتجيء في الغرفة :

ـــ لن تصدقي بل ولن تستطيعي التصور كم كانت حياتنا سعيدة ومرموقــة لما كنا لدى « بابا » أما هذا المدمن فقد سبب لنا تعاسة لحقت بكم اكثر من سواكم لقد كان « بابا » يحمل لقباً يعادل رتبة « كولونيل » لقباً يشبه حاكم مقاطعة فلم يكن باقياً عليه الا ان يخطو خطوة اخرى حتى يصبح حاكماً حقيقياً حتى ان الناس كانوا يهرعون الى دارنا ويقولون : « اننا نعتبرك يا إيفان ميخائيليتش حاكماً لنا ! » وعندما كنت ... (وهنا انتابتها موجة سعال حادة فراحت تعاني منها حتى مرت بسلام وقالت متبرمة : ان هــذه لعنة أيامي ! ») ... عندما كنت في آخر حفلة راقصة اقيمت لدى ماريشال الاشراف لمحتني الأميرة « بزيسميلني » .

وهي التي باركتني فيما بعد عندما تزوجت اباك يابوليا ، قالت لي : « ألست انت تلك الشابة التي رقصت « بالشال » عند تخرجها من المدرسة ؟ » ...

وقطعت كاترين ايفانوفنا حديثها وقالت ملاحظة :

— ... ينبغي أن ترتقي هـــذا الخرق ... فلو أخذت ابرة وقمت بتجربة كما علمتك أمس ! انك اذا اهملتيه الآن ازداد اتساعاً غـداً ... وعادت تسعل سعالاً عنيفاً ثم رجعت بأفكارها الى حديثها الاول وأردفت :

— وقد أمّ العاصمة أحـد الامراء وهو الأمير ستشيكولزكي وكان قـــد رقص معي مرة رقصة « مازوركا » فـأراد في اليوم التالي أن يتقدم الي بعروضه لكنني أفهمته بأجمل العبارات واكثرها نعومة بأن قلبي ملك رجل آخر منـــذ بعيد ! أما ذلك « الآخر » فكان أباك يابوليـا ! وقد غضب أبوك حتى احمر عنقه لما سمع النبأ ...

وتغيرت لهجتها قليلاً وهي تقول لابنتها الكبرى :

هيا ... هل أنت مستعدة ؟ اذاً اعطني القميص والجـــوارب . .. هيا أنت « ياليدا » — البنت الأصغر — لعمري سوف تنامين هذه الليلة دون قميص . . . ضعي جواربك جانباً سأغسلها ايضاً ... رباه هذا الرجل ... صعلوك الرجال ... إنه لن يعود الليلة كما يبدو ... السكير ؟ إن قميصه لم يتبدل منذ زمن ثم انه مزقها ايضاً ... وددت لو عاد ليخلعها حتى اغسل كل هذه الثياب دفعة واحدة ... انني لاستطيع ان أغسل ليلتين متتاليتين ! رباه ! (وعاد اليهـا السعال على اشد ما يكون) ... ما هذا ؟ ...

كان هذا السؤال الأخير مبعثه الازدحام الذي شهدتـه فجأة في الممشى أمام باب غرفتها ، ثم ما لبثت أن رأت جماعة يدخلون الغرفة بحملهم ! هتفت :

— ماذا حدث ؟ ماذا بئس تحملون ؟ ياإله السماء !

سأل أحد رجال الشرطة الذي كان يتقدم الحشد :

ــ أين نضعه ؟ وراح يتلفت حوله باحثاً ... بينما دخلت الجماعة التي تحمل الجثة ، جثة مارميلادوف وهي تقطر دماً ...

هتف راسكولينكوف بلهجة المروع الحزين :

ــ ضعوه هنا على هذا الديوان ! ترفقوا بالله !

وصاح بعضهم :

ــ لقد دهس في الشارع ، وكان ثملاً ...

تسمرت كاترين ايفانوفنا في مكانها برهة وشحب لونها حتى حاكى وجوه الاموات وراحت تتنفس بصعوبة بالغة . اما ليدا الصغيرة فقد صرخت صرخة مكتومة وهرعت الى إختها الكبري بوليا تحيطها بساعديها الصغيرين مخفية رأسها وهي ترتجف واقترب راسكولنيكوف من كاترين ايفانوفنا وقال :

ــ ناشدتك الله أن تهدئي ! ألا يصعقنك الأمر ! لقد كان يجتاز الشارع حينما دهمته عربة . لكن اطمئني فلسوف يعود الى وعيه ... لقد عنيت بنقله الى هنا وقد جئت معه قبل هذه المرة تذكري ... اسوف يستعيد قواه وسأدفع النفقات !

هتفت كاترين ايفانوفنا يائسة :

ــ كنت أتوقع شيئاً كهذا ! واندفعت نحو زوجها تعنى به !

لاحظ راسكولينكوف أن تلك المرأة لم تكن من أولئك النسوة اللواتي يفقدن الوعي ازاء المصائب . رآها ترفع رأس زوجها وتضع تحتها وسادة ــ الأمر الذي لم يخطر على بال أحد ــ وتحاول نزع ثيابه ! كانت تعمل دون أن تفقد جأشها أو تضيع الوقت بالالتفات والتحسر حتى ليقال أنها نسيت نفسها في تلك اللحظة كان كل همها محصوراً في زوجها التعس فكانت تعمل وقد عضت على

شفتها السفلى لتمنع الصرخات التي تحاول الافلات من فمها . أما راسكولنيكوف فقد استطاع انتداب أحدهم للاتيـان بطبيب ! ويشاء الحظ أن يكون في البناء ذاته طبيب عجوز يقطن في الطبقة السفلى ... فراح بانتظار وصوله يقوم للاستعدادات المبدئية قال يطمئن كاترين ايفانوفنا :

— لقد ارسلت استدعي طبيباً ... سأدفع اجوره ! هل لديك بعض الماء ؟.. حسناً ... اعطني كذلك فوطـة ... منديلاً ... أي شيء ... اسرعي ... لست أدري بعد اذا كانت جراحة خطيرة ... لكنه لم يمت ... تأكدي من ذلك ... سنرى ما سيقوله الطبيب !

هرعت كاترين ايفانوفنا الى النافذة وكان هناك على كرسي تحطمت قاعـدته وعاء من الفخار مملوء بالماء استعداداً للمهمة التي كانت ستقوم بهـا في تلك الليلة : غسيل الثياب ! كانت المهمة واجبة الأداء ليلاً تقوم بها كاترين ايفانوفنا بالذات اكثر من مرتين كل اسبوع لأن الثياب التي تلبسها هي وابناؤها حتى وزوجها هي كل يمتلكون فكان من الضروري اذاً غسلها كلما اتسخت ...واختيار الليل لتلك المهمة حتى تجف صباحاً وترتديها أصحابها ! ولما كانت كاترين ايفانوفنا شديـدة الميل للنظافة فانها كانت تقوم بذلك العمل المرهق ليلاً بعد نهار طويل من السعي والعمل الشاق . وكانت تلك الأعمال ترهق قواها وتدنيها بخطى سريعة من نهايتها المرتقبة فكانت تحتملها في سبيل الابقاء على نظافة افراد الاسرة !

عزمت على حمل الاناء الكبير استجابة لرغبة راسكو لنيكوف فكادت ان تنوء بثقله، غمس راسكولنيكوف في الماء قطعة قماش وجدها وراح يغسل وجه التعس ليزيل عنه آثار الدماء ... كانت المهمة شاقة عسيرة والدماء لا تنقطع وكانت كاترين ايفانوفنا تقف على مقربة منه تتنفس بصعوبة وتضغط صدرهـا بيديها ... كانت أشد حاجة الى الاسعاف والعلاج بدورها ! وفجأة هتفت :

ــ بوليا ... اركضي الى حيث تقيم سونيا ... فاذا لم تجديها فاتركي لها خبراً كي تحضر سريعاً حال وصولها ! قولي « لها » ان أباها قد دهسته عربة وأن عليها أن تحضر الى هنا فوراً ... اسرعي ... خــذي هذا المنديل واستري به جسدك على قدر المستطاع !

وصاح أخوها الصغير ببراءة بلغته المتعثرة :

ــ « لوحي مثل التيل التايل » (روحي مثل الطير الطائر !)

كان ذلك الغلام لا يزال جالساً على كرسيه وقد عبر عن عواطفه بتلك العبارة الساذجة ثم عاد الى سكونه وجموده وراح ينظر محدقاً في أصابع قدميه الممددتين !

وخلال هذا الوقت ، اكتظت الغرفة بالناس حتى أن تفاحة إذا ألقيت فوقهم ما كانت لتجد سبيلها الى الأرض . أما رجال الشرطة فقد انسحبوا باستثناء واحد منهم فقد ظل هناك ليمنع تدفق المتجمهرين الى الغرفة . غير أن هذا التدبير لم يمنع اشتداد الزحام حتى ليقال أن كل المقيمين في ذلك البناء قد حضروا في تلك اللحظة مستطلعين . وقفوا بادىء ذي بدء أمام المدخل في الممشى غير أنهم لم يلبثوا حــتى داهموا الحجرة الحقيرة ... فصرخت كاترين ايفانوفنا غاضبة :

ــ دعوه على الأقل يموت بسلام ! أنتم تعتبرون المسألة مشهداً ينبغي التملي منه وقد احتفظ بعضــكم بلفافاتهم في « مناقيرهم » (... نوبة سعال ...) لم يبق عليكم الا أن تدخلوا الى هنا دون أن تنزعوا قبعاتــكم ... هه ... هذا واحــد قبعته على رأسه ! هيا اخرجوا ... لتحترموا الموت على الأقل !

عادت نوبة السعال تخنق صوت المسكينة بينما لبث « المتفرجون » حيث هم لم يؤثر فيهم « استقبال » السيدة لهم . صحيح انهم كانوا يرهبون بعض الشيء كاترين ايفانوفنا فانهم بسبب تلك الرهبة تراجعوا قليلا عن مدخل الغرفة لكنهم كانوا يشعرون جميعاً بذلك الاحساس الغريب : الاحساس بالسرور للنكبة الــتي

تصيب بعض الناس ! ذلك السرور العجيب الذي يغمر قلوب أقرب الناس الى المنكوب والذي لاتخلو منه نفس بشرية مهما بلغ إخلاصها وشعور الأسف والأسى الذي يعتلج فيها ! وعلت أصوات من الجانب الآخر للباب تتحدث عن المستشفى وانه ليس من اللائق إقلاق السكان وتعكير صفو بناء كامل لغير ماسبب ! وبلغت تلك العبارات مسامع كاترين ايفانوفنا فهتفت محتدمة :

ــ ماذا ؟ أليس من اللائق أن يموت المرء !

وهرعت الى الباب لتصب جام غضبها على المتجمهرين حينما اصطدمت فجأة بالسيدة « ليبيويشسل » صاحبة البناء التي بلغها النبأ فجاءت تعيد النظام إلى نصابه. كانت تلك المرأة ألمانية مشاكسة محبة للعراك . هتفت بلغتها المحطمة وهي تضرب كفاً بكف :

ــ آه يا الهي ! إن « زوجك » كان ثملاً فدهس تحت حوافر الخيل ! فالى المستشفى ينبغي أن يذهب! أناصاحبة البناء !

صاحت كاترين ايفانوفنا بلهجة الاحتقار تقول :

ــ آميلي لودفيكوفنا ... أرجو أن تفكري قبل الكلام !

كانت لهجة كاترين ايفانوفنا مشوبة دائماً بالاحتقار عندما تتحدث الى صاحبة البناء وقد نجحت باستعمالها تلك اللهجة على جعلها تقف غالباً عندحدودها فلاتحاول فرض سلطتها الخرقاء عليها . وكانت صاحبة البناء تكره أن يناديها انسان باسم أميلي لودفيكوفنا بينما كانت تلك التسمية تبهج كاترين ايفانوفنا التي لم يكن في يدها أي سلاح ينال من تلك المتغرطسة الا ذلك الاسم ! قالت صاحبة البناء :

ــ قلت لك ان اسمي ليس آميلي لودفيكوفنا وانما أميلي ايفانوفنا !

ــ أنت لست آميلي ايفانوفنا بل آميلي لودفيكوفنا . وبما أنني لست من المتقربين اليك مثل السيد ليبزياتنيكوف الذي أسمعه يضحك الآن وراء الباب

(والحقيقة أن هناك ضحكة علت في تلك اللحظة وراء الباب اثر هـــذا الحوار ضحكة من يتوقع أن تعود الامرأتان الى « تجاذب الشعر » !) أقول لما كنت لست من المتقربين منك فسأستمر على تسميتك بهذا الاسم رغم أنني لا أعرف سبب مقتك له ... انك ترين بنفسك ما أصاب « سيميون زاخاروفيتش » انه على وشك الموت فأرجوك أن تغلقي الباب وتمنعي هؤلاء المتطفلين من الدخـول ... اعملي على أن يموت بسلام ! والا فانني اقسم لك بأنني سأشكوك غداً تمامـــاً الى الحاكم العام . ان الامير يعرفني منذ طفولتي وهو يذكر سيميون زاخاروفيتش وكان يغمره دائماً بعنايته ! كل الناس يعرفون ان زوجي كان ينعم بعدد كبير من الاصدقاء الذين يستطيعون حمايته لكنه هو نفسه بكبريائه وصوناً لكرامته لما بلغت به الحال أن أصبح عبداً لتلك العادة المشؤومة ! خذي مثلا هذا السيد — وأشارت الى راسكولنيكوف — انه تطوع لمساعدتنا من تلقاء نفسه وهـــو غني وكثير المعارف وكان سيميون زاخاروفيتش يعرفه منذ طفولته ... هل اقتنعت الآن يا آميلي لودفيكوفنا !

كانت كاترين ايفانوفنا تلقي هذا « الخطاب » بطلاقة متزايدة ، غـــير أن السعال فوت عليها غرضهـــا في الاستمرار ... وفي تلك اللحظة عاد المحتضر الى صوابه وأطلق غمغمة فهرعت اليه فاذا به قد فتح عينيه اللتين لم يكن للحياة ظل فيها ورفعها الى راسكولنيكوف الذي كان واقفاً بجانبه . كان يتنفس بصعوبة شديدة تنفساً متقطعاً صادراً من أعماق صدره ولما لم يتعرف على راسكولنيكوف بان في نظرته القلق بينما كانت كاترين ايفانوفنا تنظر اليه بحزن عميق لايخلو من صرامة والدموع تنهمر من عينيها ! صاحت يائسة :

— رباه ! ان صدره مهشم ... يالدم الغزير ... ان الدم يتدفق منه ! ينبغي ان نخلع عنه ثيابه الداخلية ! استدر قليلا ياسيميون زاخاروفيتش اذا كنت تستطيع !

عرفها مارميلادوف وغمغم بصوت خافت ضعيف :

— قسيس !

السحبت كاترين ايفانوفنا الى النافذة وضغطت جبهتها على اطارهـــا الخشبي وهتفت في يأس مرير :

— أيتها الحياة المضاعفة اللعنة !

وعاد المحتضر يدمدم بعد لحظة سكون :

— قسيس !

فصاحت به كاترين إيفانوفنا :

— هلا تنتهي من هذا الكلام !..

فأطاع وصمت وفي عينيه نظرة قلقة خجلي راح يصعدها بها فعادت الى جانبه وامسكت بيده فهدأ قليلا غير ان عينيه صافحتا هيكل إبنته المفضلة « ليدي » التي كانت ترتجف مقروره في أحد الاركان وكأنها فريسة للحمى تنظر اليـه بعيني الطفل الساذج وقد أدهشته المفاجـأة ؛ غمغم يريد النطق ولكن لم يصدر عن شفتيه إلا صوتاً أجشاً :

— آ... آ...

كان يحاول الكلام ولكنه لا يستطيع فهتف بلوعة :

— ماذا بعد ؟

وعاد نظره الساهم يتعلق بابنته وغمغم باذلاً جهداً جباراً :

— عارية الاقدام ... عارية الاقدام !...

فاجابت كاترين ايفانوفنا بلهجة غاضبة :

— اصمت ؛ أنت ادرى من غيرك بسبب بقائها عارية القدمين !

وهتف راسكو لنيكوف متنفساً الصعداء :

— حمداً لله ! لقد جاء الطبيب !

دخل الطبيب وكان عجوزاً ألمانياً دقيق الجسم بادي الوساوس ، ينظر حوله بحذر وحرص . اقترب من المريض وجس نبضه ثم عاين رأسه بعناية ورفع القميص الملوث بالدم بمساعدة كاترين ايفانوفنا عن صدره . كان صدره محطماً بشاعة وقد سحق سحقاً ومزق تمزيقاً وكان عدد من اضلاعه قد تحطم وبدت لطخة كبيرة زرقاء أو سوداء مائلة للصفرة مترجرجة هي علامة خلفتها حوافر الجياد ! قطب الطبيب جبينه بينما كان رجل البوليس يقص عليه كيف وقع الحادث وكيف انتشلوه بعد ان التف ثوبه على محور الدولاب فجره معه مسافة ثلاثين خطوة . ولم يلبث أن قال بصوت منخفض موجهاً حديثه الى راسكو لنيكوف :

— إن ما يدهشني هو استعادته الرشد بعد كل هذا !

— مارأيك يا سيدي ؟

— سوف يموت تواً !

— أليس من أمل لانقاذه ؟

— أي أمل ! إنه يجود بآخر أنفاسه ! ثم إن جراح رأسه خطيرة كذلك هو ! لنستطيع مثلاً أن نقوم بعملية فصد مثلا لكنني واثق من عدم جدواها . سوف يموت حتماً خلال دقائق قليلة !

— لنجرب مع ذلك عملية الفصد !

— ليكن ! لكنني اعلمك سلفاً بعدم جدواها !

وارتفع صوت خطوات في تلك اللحظة بينما راح المجتمعون يفسحون المجال لدخول القادم ، وظهر على الباب قسيس عجوز أبيض الشعر يحمل قطعة

« المناولة(١) » رمز جسد السيد المسيح . كان احد رجال البوليس قد اصطحبه من الشارع فترك له الطبيب مكانه بعد أن تبادل معه نظرة فارغة . وراح راسكولنيكوف يرجو الطبيب بالبقاء فترة اخرى فهز هذا كتفيه وانتظر .

انسحب « النظارة » كلهم ولم يستغرق الاعتراف وقتاً طويلا بل أنه كان من المشكوك فيه أن المحتضر قد فهم شيئاً مذكوراً إذ لم يكن يستطيع النطق إلا بصوت متقطع غير مفهوم . أما كاترين ايفانوفنا فقد حملت ابنتها « ليدي » وابنها الطفل وجثت معها في احد الاركان . كانت الطفلة لا تزال ترتعد والطفل عاري الجسد جاثياً على ركبتيه على الارض العارية يرفع يده اليمنى مقلداً امه ورامياً اشارة الصليب . وكانوا جميعاً يسجدون فتصطدم جباههم بالارض وكان الطفل يجد بهذه الحركة ما يسره ! وكانت كاترين ايفانوفنا تذرف دمعاً سخياً مسترسلة في صلاة حارة راحت تستر عري طفلها وطفلتها بشال وجدته في دولاب قريب دون أن تنقطع عن الصلاة . وخلال تلك اللحظة عاد الفضوليون يفتحون الباب المؤدي الى الغرفتين الاخريين اللتين يسكنهما جماعة من الفقراء ! وبلغ من تزايد عددهم أن امتلأ بهم المشى وقد بدا أن سكان البناء كله قد اجتمعوا هناك . وكان يضيء المكان نور ضعيف خافت .

عادت بوليا ـ وقد كانت تستدعي اختها الكبرى ـ عادت بعد أن شقت لنفسها الطريق بصعوبة وسط الرخام . كانت شديدة التعب نظراً للسرعة التي أنجزت

(١) Saints Espèces ظاهرة الخمرة والخبز اللذين تحولا الى « جسد السيد المسيح » بحسب التعاليم الكاثوليكية . (المترجم)

بها مهمتها فازالت الشال الذي كانت تستر به جسمها وبحثت بعينيها عن امهـا حتى وجدتها فاتجهت نحوها وقالت :

ــ سوف تحضر فوراً ... لقد صادفتها في الشارع !

فدعتها الام الى الركوع والصلاة . وبعد برهة راحة فتاة شابة تسلل بخجل بين المتجمهرين فكان لظهورها في تلك الغرفة المفعمة بمظـــاهر البؤس دهشة بالغة . صحيح إنها لم تكن شديدة الأناقـة كما يقتضي بذلك الوسط الذي تعيش فيه : وسط الرذيلة ،لكنها كانت إذا۔ قورنت ۔بتلك الاطمار والاسمال المهلهلة التي تبدو في كل مكان ..

توقفت سونيا عند المدخل قليلا دون أن تجرأ على تخطيه . كانت تنظر بعينين ساهمتين لا تبدو فيها مخايل الادراك. نسيت ثوبها الحريري ذي اللون الصارخ الذي إشترته مستعملا والذي كان طوله يسترسل وراءها منتفخـــاً حتى ليملأ مدخل الباب ، وأحذيتها البيضاء ومظلتها التي لا نفع لوجودهـــا في ذلك الليل وتلك القبعة المضحكة الكبيرة المصنوعة من القش المزينة بريشة بلون اللهب التي كانت تظلل وجها نحيلاً شاحباً مروعـا وفماً مفتوحا وعينين اتسعتا من الرعب !

كانت سونيا في الثامنة عشرة من عمرها قصيرة القـامة هزيلة الجسم تمتاز بجمال الشقراوات ذوات العيون الزرق التي كانت منهن وكانت تنظر محدقـة في الفراش الذي أسجي أبوها عليه وفي القسيس الواقف بالقرب منه . كانت هي الأخرى منهوكة لكثرة ما جرت ...

لم تلبث أن علت همهمة بين المحتشدين وبلغ أذن سونيا بعضاً مما يقولون فاطرقت برأسها واجتازت المدخل مستجمعة شجاعتهـا ودخلت الغرفة دون ان تقترب من المحتضر . وانتهى الاعتراف و « التناول » فعادت كاترين ايفانوفنا الى

قرب زوجها . فاراد القسيس قبل أن يخرج أن يلقي بكلمات من الزاد الديني على سبيل تعزية كاترين ايفانوفنا . غير ان هـــذه قاطعته باحتداد وهي تشير الى اطفالها الصغار وقالت بجفاء :

ــ وهؤلاء ؟ ماذا سأعمل بهم ؟

فقال القس :

ــ إن الله رحيم ... فتأملي بعون العلي الأعلى ..

ــ إه إه ... إنه رحيم ولكن ليس بالنسبة الينا !

ــ سيدتي ! هذه خطيئة قاتلة !

فصرخت كاترين ايفانوفنا وهي تشير الى المحتضر :

ــ وهذا ... أليس خطيئة ؟

ــ لعل اولئك الذين تسببوا بهذا البلاء غير عامدين يعوضونك شيئاً عن فقدانك معيلك !

فصاحت كاترين ايفانوفنا بصوت خشن وهي تلوح بيدها :

ــ إنك لم تفهم قصدي ! لمَ يعطونني تعويضاً ؟ إنــه هو الذي ألقى بنفسه الى العجلات ... هو السكير ! نعم ... معيلي ! إنه لم يسبب لي إلا الآم والعنــاء ... لقد كان يحول كل شيء الى شراب ... كان يعرينــــا ليشرب ! كان ينفق في الحانة المال اللازم لاعالته أطفالنا وإعالتنا ! وها هو يموت ! فحمداً لله لقــــد تخلصنــا !

ــ من الواجب يا سيدتي أن تنفري في مثل هذه اللحظة أمام الموت ! إن مثل هذه المشاعر التي تبدينها تعتبر خطيئة ، خطيئة كبرى !

استمرت كاترين ايفانوفنا تعنى بالمريض فتسقيــه وتمسح العرق المتصبب على جسده والدم المتدفق من جراحه الذي كان يغسل وجهه أو تسوي الوسائد تحت

رأسه ثم تتحدث مع القس خلال هذه الاعمال فلما سمعت عبارته الاخيرة قفزت من مكانها واتجهت نحوه وفي عينيها بريق الغضب وقالت :

ــ آه يا أبي ! إنها ليست إلا كلمات ! مجرد كلمات ! الغفران ! لو لم تدهسه العربة اليوم لعاد الى البيت مخموراً . ولما كان لا يملك الا القميص المتسخ القذر الذي يلبسه فان عليّ أن اغسل طوال الليل لتجف الملابس صباحاً بينما هو « يشخر » ناعماً بالنوم ! كان علي أن اغسل قميصه مع قمصان الاطفال والبستهم وكنت سأجفف تلك الملابس أمام النافذة لأنهض عند الفجر وأعمل على رتق هذا وإصلاح ذاك . كذلك أمضي الليالي ... فماذا ينفع الكلام عن الغفران ؟ مع ذلك لقد غفرت !

وقطع حديثها سعال فظيع ولما هدأت أزمة السعال بصقت في منديلها ودفعته أمام عيني القس بينما ظلت يدها اليسرى قابضة على صدرها تضغط عليه بشدة . كان المنديل ملوثاً بالدماء ! أما الراهب فقد أحنى رأسه وسكت !

كان مارميلادوف خلال احتضاره لا يرفع بصره عن وجه كاترين ايفانوفنا التي عادت من جديد تنحنى عليه مواسية مخففة . كان يبدو عليه أنه يريد التحدث بشيء فكان يبذل جهداً كبيراً ويحرك لسانه فيصدر عن شفتيه كلام غير مفهوم . فهمت كاترين ايفانوفنا أنه كان يطلب اليها الصفح فهتف بصوت لا يقبل الجدل :

ــ اصمت ... لا فائدة ! لقد أدركت ماذا تريد أن تقول .

فصمت المريض المحتضر ولكنه في تلك اللحظة وقع بصره على الباب حيث كانت تقف سونيا ! كان حتى تلك اللحظة لم يلتفت الى ذلك الركن لذلك فلم يكن قد رآها .

وكانت الفتاة لا تزال واقفة حيث هي . فغمغم بصوت مختنق وهو يشير بعينيه الى حيث وقفت سونيا وقد بان الذعر في نظراته وهو يحاول النهوض !

— من هذه ؟ من هذه ؟..

فصاحت كاترين ايفانوفنا :

— ابق مستلقياً ... استلق مكانك !

لكنه بذل جهداً خارقاً وتوصل الى الاعتماد على ذراعه والتناهض قليلاً وظل لحظات يحدق في وجه ابنته بنظرة غريبة ثابتة كما لو كان لا يعرفها خصوصاً وإنه لم يكن قد شاهدها من قبل في مثل تلك الملابس . وفجأة بدا على وجهه أنه فهم وعرف أما هي ، فقد اعتراها الخجل والوهن وهي في ملابسها اللامعة البهيجة اللون . كان تنتظر باشفاق بالغ وحنان أن يحل دورها لوداع أبيها المحتضر . وانبعثت من صدر مارميلادوف أنة عميقة وعلا وجهه ألم شديد وهتف باعجوبة :

— سونيا ... ابنتي ... اغفري لي !

واراد أن يمد لها يده لكنه تخاذل وهوى على « الديوان » واحدثت تلك الحركة الفجائية هزة كان من تأثيرها أن تدحرج المسكين على الارض منكفئاً على وجهه . وهرع المجتمعون فاحتملوه واعادوه الى الفراش لكنه كان قد مات !

اطلقت سونيا صرخة ضعيفة وارتمت على أبيها وراحت تضمه الى صدرها بحنان فكانت آخر لحظاته بين ذراعيها . بينما راحت كاترين ايفانوفنا تقول :

— لقد انتهى هو ! ولكن ما العمل الآن ؟ كيف سأواريه التراب؟ واطفالي كيف سأطعمهم غداً ؟

فاقترب راسكولنيكوف وقال :

ـ أيا كاترين ايفانوفنا ، لقـــد قص على المرحوم في الاسبوع المنصرم تفصيلات عن حياته . ثقي أنه كان يتحدث عنك باحترام بالغ . وقد علمت منـذ ذلك المساء كم كان متفانياً في حبكم جميعاً وكم كان يحبك أنت يا كاترين ايفانوفنا رغم عادته التعيسة ولقـــد أمسينا أصدقاء منذ تلك الليلة . فاسمحي لي الآن أن أساهم ... أن أقدم واجباتي الاخـيرة نحو صديق راحل . هـذه عشرون روبلاً وأعتقد اذا كان الامر لن يزعجك ... انني ... سأمر ... سأمر غــداً حتماً فالوداع !

وخرج من الحجرة بخطى مسرعة وهو يشق لنفسه طريقـاً حتى وصل الى السلم . وهنـا اصطدم بـ : نيكوديم فوميتش الذي بلغه الحـادث فاراد أن يقوم بالتحقيق بنفسه . وكان راسكولنيكوف منذ حادثة البوليس لم يلتق به غير أن نيكوديم فوميتش عرفه الوهلة الاولى ! فهتف :

ـ ماذا ؟ أهذا أنت ؟

فاجاب راسكولنيكوف :

ـ لقـد مات وقـد جاء الطبيب والقس وانتهى الامر ! لا تعـذب المرأة المسكينة فهي مصدورة . طيب خاطرها اذا امكن ... وأنت ـ بعد كل هذا ـ رجل طيب .

نطق بتلك الجمله الاخيرة بلهجة ساخرة وهو ينظر في عيني رئيس البوليس! فقال هذا ملاحظاً :

ـ لكن كم أنت ملطخ بالدماء ؟

فاجاب هذا بلهجة غريبة :

ـ نعم لقد اتسخت ! أنني مغطى بالدماء !

ثم تابع طريقه وراح يهبط السلم بحركات محمومة غير مبال بحاله وقد امتلأت نفسه بإحساس استمد منه قوة غامضة ... إن ذلك الاحساس يمكن أن يكون مشابهاً لذلك الذي يعتمر عادة في نفس المحكوم عليه بالاعدام الذي يبلغه فجأة نبأ العفو عنه ! وقد التقى عند منتصف السلم بالقس الذي كان عائداً الى واجباته . فتنحى راسكولينكوف ليفسح له مجال تخطيه وتبادل معه تحية صامتة. ولم يلبث أن سمع وراءه صوت خطوات متلاحقة سريعة ، فالتفت مسرعاً ليجد الصغيرة بوليا تركض على آثاره تصيح :

— إصغ ! إصغ !

توقف منتظراً وصول الطفلة التي وقفت تلهث تفصلها عنه درجة واحدة من درجات السلم ، وكان ضوء خافت شاحب يتسلل من الباحة الى حيث وقفا . راح راسكولنيكوف يتأمل وجه الطفلة الجميل النحيل فكانت تبتسم له وهي تنظر في وجهه بمرح بريء ساذج . جاءت على ما يبدو لتنجز مهمة كانت ولا بد تحدث في نفسه أثراً بليغاً .

قالت الفتاة اللاهثة بصوت مختنق :

— اسمع يا سيد ! ما اسمك وأين تقطن ؟

فوضع راسكولينكوف ذراعيه على كتفي الطفلة وراح يتأملها معجباً بها دون أن يدرك السبب وقال :

— من أرسلك ؟

فاجابت الفتاة وهي تبتسم ابتسامة ملائكية :

— أختي الكبيرة سونيا .

— كنت أعرف أنها هي التي أرسلتك ! .

ـــ لقد أرسلتني أمي أيضاً . إذ عند ما طلبت إلي أختي أن أتبعـك قالت أمي وهي تقترب منا : إسرعي يا بوليا !

ـــ هل تحبين أختك سونيا كثيراً ؟

فقالت الطفلة بصوت يشوبه انفعـال ملحوظ وقـد أصبحت ابتسامتهـا ذات طابع جدي :

ـــ أحبها أكثر من كل شيء في الحياة !

ـــ وأنا هل ستحبينني ؟

فقربت الفتاة وجهها البريء من وجهه ومدت له شفتيها المكتنزتين بقبـــلة ساذجة ثم ضمته بذراعيهـا الناحلين بشدة بينما أسندت رأسهـــا الى كتف راسكولنيكوف وراحت تبـكي بهدوء وهي تضغط وجهها على كتفه ضغطاً متزايداً ! وراحت تغمغم :

ـــ يالأبي المسكين !

ثم رفعت رأسها بعد برهة وراحت تمسح دموعها بظهر يدها وأضافت :

ـــ ياالبلاء الذي وقع اليوم !

كانت تتحدث بتلك اللهجة الخاصة التي يعمد اليها الأطفال لما يرغبون في تقليد الكبار ، فقال راسكولنيكوف :

ـــ هل كان أبوك يحبك ؟

فأجابت بتلك اللهجة الجدية دون أن تبتسم تماماً كما يتحدث الكبار :

ـــ إنه كان يحب اختي الصغرى « ليدي » أكثر منا جميعاً . كان يحبها لأنهـا صغيرة ولأنها مريضة فكان يأتيها بالهدايا ، أما نحن فـكان يعلمنا القراءة وكان يلقنني « القواعد » و « الديانة » وكانت ماما لا تقول شيئاً لكننا كنا نعرف أنهـا مسرورة لذلك وبابا الصغير كان يعرف ذلك بالمثل . إن امي تريد أن تعلمني الفرنسية

لأن الوقت قد أزف بالنسبة إلي لأبدأ ثقافتي !

ـــ وهل تعرفين الصلاة ؟

ـــ طبعاً ... كيف لا ؟ أعرف الصلاة منذ بعيد ، وبما أنني لست صغيرة فانني أصلي لوحدي . أما لوكيا وليدي فهما يصليان بصوت عال مع أمي ويستظهرون « أحييك ياماري » وصلاة اخرى : « رباه بارك اختنا سونيا » وثالثة : « رباه اصفح عن أبينا الآخر وباركه » ... لأن أبانا الأول قد مات وكان هذا أبونا الثاني لذلك فنحن نصلي كذلك من أجل الأول !

ـــ يابوليا الصغيرة ، ان اسمي هو روديون فصلي أحياناً من أجـــلي وقولي « من أجل روديون المسكين » وليس أكثر !

فعادت الطفلة تقول بحماس وهي تعانقه بشدة بذراعيها وتضحك بحبور :

ـــ سأصلي من أجلك طيلة عمري !

أعطاها راسكولنيكوف اسمه وعنوانه ووعد بزيارتهم غداً دون تأخير فعادت الطفلة متحمسة قريرة العين ، ولما بلغ الشارع كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة فلم تمض خمس دقائق حتى كان واقفاً على الجسر في المكان الذي ألقت به العجوز بنفسها الى الماء بالذات ! غمغم منتصراً :

ـــ كفى ! كفى !... الى الوراء أيها السراب ، الى الوراء أيتهـــا المخاوف الخرقاء ! الى الوراء أيتها التصورات والخيالات ! إن الحياة موجودة ! ألست حياً في هذه اللحظة ؟ ان حياتي لم تمت بموت العجوز ... لقد أصبحت - عي - في العالم الآخر ، يكفيك أيتها العجوز ! دعي الآخرين بسلام ! لقد اكتسبت الآن العقل والنور ! الارادة ! القوة !... ولسوف نرى ! لنا نحن الاثنين الآن : ألم أقدر الابقاء على حياتي في فراغ مساحته قدمان ؟

ضحك برهة ثم أردف بلهجة متعالية كما لو أن قوة خفية كانت تتحداه :

ـــ انني الآن ضعيف جداً لكنني أعتقد بان الارتباك قد انقضى ! كنت أعرف أنه سوف يذهب عني منذ أن خرجت هذه الليلة من حجرتي. وعلى فكرة : ان بيت بوتشينكوف على قيد خطوتين من هنا وأني ما كنت لأتردد عن الذهاب الى منزل رازوميخين لما أن كان يقطن بعيداً من هنـا ... فليربح رهانه ! ليضحك قليلا وليهزأ مني ! ان القوة ضرورية وبدونها لايصل المرء الى أي شيء! ولا يمكن اكتساب القوه الا بالقوة ! ذلك مايجهله الناس !

كان يحدث نفسه بكبرياء وثقة ! ولم يلبث ان اجتـاز الجسر بخطى حثيثة . كانت الكبرياء والثقة تنميان في نفسه باطراد دقيقة فدقيقة حتى أن كل دقيقة كانت كفيلة بأن تجعل منه انساناً آخر ! كان يجهل السبب الذي أدخل هذا التبديل الكلي على نفسه ؟ كان يرى أنه يستطيع أن يعيش وأن الحياة لازالت ممكنة بالنسبة اليه ـ شأن الغريق الذي يتعلق بالقشة مؤملا بالنجاة ـ كان يرى أن حيـــاته لم تمت بموت العجوز ! فهل كان يتوق الى اتخاذ مثل هذا القرار ؟ يجوز ولكنه لم يفكر في ذلك !

تابع يقول بعد قليل :

ـــ ومع ذلك لقد طلبت الى الطفلة أن تصلي من أجلي ! هه ! أنها الصـدفة وحدها ! ولما تذكر تلك الطفلة ابتسم رغم ارادته وشعر بصفاء ذهن عميق !

غثر على منزل رازوميخين بسهولة في بناء « بوتشنكوف » اذ كان السكان هناك يعرفون جميعهم المستأجر الجديد وتطوع البواب بارشاده الى المسكن وكانت الضجة تنبعث فتبلغ منتصف السلم مما يدل على أن النقاش كان حامي الوطيس بين عدد كبير من الاشخاص . وكان المفضي الى « بسطه » السلم مفتوحاً على مصراعيـه فكانت الاصوات تسمع بوضوح كلما زاد المرء دنواً .

كانت غرفة رازوميخين واسعة كبيرة اجتمع فيها عدد من الأشخاص يناهز

الخمسة عشر . فلما بلغ راسكولنيكوف المدخل توقف قليلا وراح يراقب خادمتين منصرفتين الى « سماورين » كبيرين وعدد من الزجاجات والأطباق المملوءة بالحلوى والمقبلات ! كانت تلك الأواني كلها مقدمة من قبل صاحبة البنـاء امعاناً منها في اكرام النزيل الجديد ...

استقدم راسكولنيكوف رازوميخين فأقبل هذا مسرعاً . كان يبـدو عليه أنه أسرف في الشراب وأنه ـ على الرغم من شهرته في مقاومة تأثير الشراب ـ كان في تلك اللحظة واقعاً تحت تأثيره ! قال له راسكولنيكوف موجزاً :

ـ اسمع ! لقد جئت لأقول لك أنك ربحت الرهان وأن المرء لا يعرف في الحقيقة ماسيقع له . أما الدخول فلن أستطيعه لأنني ضعيف جـداً وأكاد أن أسقط على الأرض لذلك أقول لك مرحباً والى اللقاء بآن واحد زرني غداً .

ـ سوف أقودك بنفسي بعد اعترافك بأنك ضعيف خائر القوى !

ـ وضيوفك ؟ من هو هذا الرجل ذو الشعر الأجعد الذي ينظر نحونا ؟

ـ من ؟ ذاك ؟ علمه عند الشيطان ! لعله صديق لعمي أو لعـله دعى نفسه بنفسه . هيا سأترك عمي مع الضيوف ... إنه رجل ثمين جداً ... ويؤسفني ألا تستطيع التعرف اليه اليوم . ثم ليأخذهم الشيطان جميعاً لقد لبثت حتى الآن أعنى بهم ويلزمني الآن بعض الهواء ! لقد جئت في حينك لأنى كنت سأتعارك معهم بعد دقيقتين ! إنهم لاينطقون الا بالحمـاقات لن تستطيع أن تتصور مدى قدرة كل منهم على حشو رؤوس سامعيه بالأكاذيب ! بل أعتقـد أنك تستطيع أن تتصور ذلك . لأننا جميعاً نكذب أحيانا . وبما أننا نكذب نحن فليكذبوا هم أيضاً ! خصوصاً وأننا لن نكذب « بعدئذ » !.. إجلس قليـلا سأستدعي لك زوسيموف !

هرع زوسيموف الى راسكولنيكوف بنوع من اللهفة تفضح مافي نفسه

من الفضول الخاص غير أن وجهه مالبث أن عاد طبيعياً مشرقا . وبعـــد أن فحصه قال له :

ــ ينبغي أن تنام فوراً ... ومن الأنسب أن تأخذ شيئا هـذا المساء ، شيئا هيأته منذ قليل ... « برشامة »

فقال راسكولنيكوف :

ــ أعطني اثنتين اذا كانتا لازمتين !

وشرب المريض العلاج على الفور بينما قال زوسيموف لرازوميخين :

ــ من الخير أن تصحبه الى حجرته . وسنرى ماذا يكون غداً أما اليوم فالأمر مشجع لاباس به . لقد حدث تغيير كلي ! كلما عاش الانسان كلمـــا ازداد علما !...

قال رازوميخين لصديقه وهما يخرجان :

أتدري ماذا قال زوسيموف عندما استدعيته منـذ حين ؟ لسوف أقوله لك بحذافيره لأنهم كلهم سخفاء ! كان زوسيموف يوصيني بالتحدث اليك خـــلال الطريق لاطلق لسانك وأحمـــل له كل ماتنطق به من عبارات لأنه يعتقد ... انه يعتقد انك مجنون أو على الاقل أنك على وشك الجنون ! فهل تتصور هذا ؟ اولاً انني أعتقد انك اكثر ذكاءً منه بثلاث مرات على الاقل ! وثانياً اذا لم تكن مجنوناً فليس عليك الا أن تستهزىء بالنزوات التي تعصف في رأسه . ثالثاً : إن هذه « الكتلة من اللحم » مختص بالتشريح والجراحـة وهو مأفون بالامراض العقلية حتى ان الحديث الذي دار بينك وبين زاميوتوف قـــد قلبه رأساً على عقب !

ــ هل قص عليك زاميوتوف الحديث كله ؟

ــ كله ! وقد أحسن صنعاً فقد فهمت كل الاسباب والدوافـــع في القضية

وكذلك فهم زاميوتوف ... والخلاصة ياروديا ... الواقع هو انني في هذه اللحظة ثمل بعض الشيء لكن لا بأس ! الواقع هو أن هذه الفكرة ... انت تفهم ! ان تلك الفكرة كانت مغروسة في نفوسهم ... أتفهم ؟ اي أن أحداً ما كان ليجرأ على التصريح بها علانية لأن الحماقة فيها شديدة جداً وخصوصاً منذ أن أوقفوا ذلك الدهان ... فقد تبخر ذلك كفقاعة الصابون وتبدد نهائياً . لكن لمَ هم على مثل هذه الحماقة جميعهم ؟ لقد اغلظت القول قليلاً لزاميوتوف — وهذا بيننا ايها الصديق ارجو أن لا تتظاهر بمعرفته — ! فقد لاحظت ان زاميموف سريـــع التأثر والانفعال وقد دار بيننا الحديث الذى نوهت به لك عند لويز ! والآن فقد وضح كل شيء ... ان السبب الرئيسي في هذه الظنون كان إيليا بيتروفيتش ! فقد التقط الكرة « على الطاير » كما يقولون إثر اغمـــائك في دائرة البوليس ثم عاد وخجل من نفسه بعد ذلك لتفكيره في ذلك الافتراض ؛ هذا ما علمته !

كان راسكولنيكوف يصغي بشوق لأن رازوميخين كان متأثراً بالشراب فراح يفضح ما في نفسه ، فقال مؤيداً اتجاه صديقه :

— لقد اغمي علي ذلك اليوم لأنى كدت ان اختنق بتأثير الحراره ورائحة الدهـــان !

— انهم يجدون حتى الآن صعوبة فيتفسير تلكالبادرة ! والحقيقة أنها لم تكن رائحة الدهان وحدها هي السبب ! كانت الحرارة مرتفعة لديك منذ اكثر من شهر كما أكد زوسيموف . آه لوعلمت كماصبح هذا الخبيث زاميتوف متصاغراً الآن .. تصور انه قال لي في معرض الحديث عنك . « إنني لاأبلغ نقطة في بحره ! » انه لايقدم شعوراً طيباً تختلج به نفسه لكن الدرس ، نعم الذي القيته عليه اليوم في « قصر الكريستال » كان غاية في الكمال ! لقد اخفته بادىء ذي بدء ، أترى هذا ؟ لقد جعلته يرتعش ويرتعد في البداية ! فكر أنك جعلته من جديد يؤمن

بنظريته الاولى تلك النظرية الخرقاء البشعة ثم فاجأته دون مقدمات « بضربة من قدمك في أنفه » وأنت تقول « خذ هذه ايها العجوز ! » إنها كانت ضربة معلم ! سحقته وافنته ! لقد وجد أخيراً من يستطيع ان يساجله ويتحداه ! كم آسف لأنني لم اكن هناك ! كان ينتظرك عندي بقلق وتلهف ! وبورفير نفسه بشوق زائد للتعرف اليك !

ـــ آه ... هذا ايضاً ؟ .. لكن لم يعتبروني مجنوناً ؟

ـــ ليس كالمجنون تماماً ... اعتقد ياصديقي بأنني تحدثت اكثر مما ينبغي ان ما أذهله منذ حين هو ان ذلك الامر وحده يهمك ! والآن فقد عُرف سبب اهتمامك بعد أن اوضحت كل الملابسات . آه كم كان ذلك يقلقك وبما أن القضية كانت مرتبطة بعد ذلك بمرضك ... انا ثمل قليلاً ياعزيزي . . . لكن أترى . .. ياللشيطان ... ان له رأيه ! وانا اكرر عليك بأن الامراض العقلية تشغل اهتمامه الكلي وليس عليك أنت الا ان تهزأ بكل هذا ! ...

ـــ اسمع يارازوميخين ! سأحدثك بصراحة ! لقد جئت تواً من دار ميت انه موظف مات وقد أعطيت اسرته كل ما أملك وعلاوة على ذلك فقد عانقتني مخلوقة ... والخلاصة ان هناك مخلوق آخر ... فتاة تضع ريشه بلون اللهب . . . لكنني أهذي ... أنا شديد الضعف .. دعني أستند اليك ! أليس هذا هو السلم ؟ !

فسأل رازوميخين منزعجاً :

ـــ ما بك ؟ ماذا بك ؟

ـــ ان رأسي تدور قليلاً ... لكن هذا ليس كل ما في الأمر ! المسألة هي إنني حزين « حزين جداً كامرأة ... حقيقة ... انظر ما هذا . . . انظر ! انظر !

ــ ماذا ؟

ــ ألا ترى ؟ هناك ضوء في غرفته يظهر خلال الخصاص !

كانا قد بلغا في تلك اللحظة الى « البسطة » التي تسبق المشى الذي يقود الى غرفة راسكولنيكوف قرب باب شقة صاحبة البناء وكان يمكن لهما أن يشاهدا من مكانهما النور الذي كان يشع من غرفته . فغمغم رازوميخين :

ــ غريب ! لعلها ناستاسيا !

ــ إنها لاتحضر الى غرفتي في مثل هذه الساعة ! وفوق ذلك إنها لاشك نائمة منذ زمن ! لكن ... سيان عندي ... الوداع !

ــ ماذا تقول ؟ سارافقك ، سندخل كلانا !

ــ أنا اعرف اننا سندخل معا ولكنني اريد ان اصافحك هنا وان افترق عنك هنا .. هيا اعطني يدك .. الوداع !

ــ ما بك ياروديا ؟

ــ لاشيء .. هيا ستكون شاهداً بنفسك !

راحا يصعدان السلم ورازوميخين يتخيل ان زوسيموف على حق فيما ذهب اليه ! واعتقد انه « ازعجه بثرثرته » ولما بلغا باب الحجرة تناهى الى سمعها صوت حديث آت من داخلها فصاح رازوميخين :

ــ من هنا ؟

دفع راسكولنيكوف الباب أولاً ففتحه على مصراعيه وتوقف على العتبة وقد سحرته المفاجأة .

كانت امه واخته جالستين في حجرته على « الديوان » المعهود ينتظرانه منذ ساعة ونصف . كانتا قد امضتا كل ذلك الوقت في الانتظار وطرح الاسئلة

على نستاسيا التي راحت بدورها تسرد عليهما كل ما عرفته عن راسكولنيكوف! كانا يسألانها .

ــ لم لم يكن ينتظرنا ؟ هل كان يفكر فينا اقل من تفكيره في اي شيء آخر رغم ما بلغه ذلك اليوم عن مجيئهما ؟

فتعود ناستاسيا لتقص عليهما طرفاً من معلوماتها التي جمعتها بفضل الصدف فاذا فرغت بدت المرأتان وقد أذهلهما الخوف واستولى عليهما الهلع خصوصاً بعد ان عرفتا نبأ فراره اليوم من غرفته دون ان يعرف أحد عن وجهته شيئاً . فكانتا تهتفان بين الحين والآخر :

ــ رباه ! ماذا وقع له ؟ !

بكتا طويلاً حزناً وألماً وقد اصيبتا بجرح بليغ في عواطفهما فلما وقف على الباب في تلك اللحظة انبعثت من حناجر النسوة الثلاث صرخات رغم تفاوت الاسباب الموجبة ! واندفعت الأم والأخت نحو « الأمل » الوحيد لكنه لبث جامداً في مكانه وكأنه جثة لا روح فيها . لقد صعقته فكرة مفاجئة شديدة الوقع حتى أن ذراعه اصبحت عاجزة عن الحركة . كانت أمه وأخته تعتصرانه الى صدريهما وتقبلانه بنهم وشغف ، تبكيان وتضحكان . معاً ... فتقدم خطوة الى الامام ثم ترنح وسقط على الارض فاقداً الصواب !

تصاعدت الصيحات ونداءات النجدة والزمجرات ! واندفع رازوميخين ــ الذي كان واقفاً على المدخل ــ فأخذ المريض بين ذراعيه القويتين ومدده على السرير . وفجأة فتح هذا عينيه بينما قال رازوميخين مطمئناً الام والأخت !

ــ لا تبتئسا ... لا تخشيا ... انه اغماء بسيط ... انها حماقة ! لقد صرح الطبيب منذ قليل أن حاله قد تحسن كثيراً وأنه استعاد قواه تماماً !... اعطوني

قدح ماء ! هاه ... ها قد عاد الى وعيه ... نعم لقد أسترد الرشد !

وأخذ بيد دونيا بقسوة كادت تحطم معصمها وراح يدعوها الى الانحناء لترى بنفسها أن أخاها قد « عاد اليه صوابه » . وقد شعرت الام والاخت بفضل رازوميخين عليهما فنظرتا اليه نظرات كلها شكر وامتنان وكأنه رسول القدرة الالهية ! كانتا قد علمتا من قبل بواسطة ناستاسيا بمبلغ عناية هذا الفتى بروديا خلال مرضه ..

ــ « ذلك الرجل المبدع ! » كذلك راحت بولشيري الكسروفنا راسكولينكوف تطلق على رازوميخين خلال حديثها الودي مع ابنتها دونيا .

القسم الثالث

الفَصلُ الأوّل

استوى راسكولنيكوف جالساً على الديوان وأشار بيده الى رازوميخين ليكف عن الاسترسال في تعزية أمه وأخته والتخفيف عنها بذلك السيل من العبارات التي ما أنفك يوجهها اليها ومد الى كل منها يداً أطبق بها على يديها وراح خلال دقيقة كامله ينظر اليها بسكون ويتأملها دورياً .

روعت الام من نظرة ابنها لأنها قرأت فيها ذلك الاحساس المقبض الباعث على أشد الألم ، إحساساً يرافقه شيء ثابت ، شيء أقرب الى الجنون ، فراحت تبكي بحرقة بينما كانت الاخت آفدوتيا رومانوفنا شاحبة ترتعد يدها في يد أخيها .

قال راسكو لنيكوف بصوت متقطع هامس وهو ينظر الى رازوميخين :

ــ عودا الى مسكنكما والى الغد ! غــداً كل شيء ... هل وصلتما منذ زمن طويل ؟

فاجابت بولشيري الكسندروفنا :

ــ هذا المساء ... لقد حصل تأخير أعاق القطار ، لكن يا روديا ، لن أتركك الآن مهما كان السبب ... سأمضي الليلة هنا ... الى جانبك !

فلوح راسكو لنيكوف بيده بغضب وقال :

ــ لا تعذبيني !

وهتف رازوميخين :

ــ سأبقى بالقرب منه ، لن أتركه دقيقة واحدة وليحمل الشيطان ضيوفي !

ليصخبوا وليشتموا ما راق لهم إن عمي هناك يرأس الحفل !

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي تضغط على يديه بامتنان :

— كيف أستطيع أن أشكرك ؟

غير أن راسكو لنيكوف قاطعها قائلا بشيء من الانفعال :

— لا أريد ... لا أريد ... لا تزعجوا أنفسكم ... كفى ! اخرجوا ! .. لن أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك .

غمغمت دونيا مروعة :

— هيا بنا يا أمي الصغيرة ! لنخرج من الحجرة الآن على الاقل ! إننا نقضي عليه إذا بقينا ، ذلك واضح !

فقالت بولشيري الكسندروفنا باكية :

— لكن هل لن يتـــاح لي أن ألقي عليه نظرة أطول بعـــد فراق ثلاث سنوات ؟

عاد راسكو لنيكوف يقول :

— إنتظروا ... إنكما تقاطعانني بينما الافكار تتزاحم في رأسي ... هل رأيتما لوجين ؟

فأجابت بولشيري الكسندروفنا بصوت لم يخل من مسحة من الخجل !

— كلا ياروديا . لكنه يعرف أنناوصلنا .. لقد علمنا ياروديا أن بيير بيتروفيتش قد تفضل بزيارتك اليوم !

— نعم ! لقد غمرني بهذا الفضل ! دونيا ... لقد صرحت للوجين منذ بضع ساعات بأنني سألقي به الى أسفل السلم وطردته شر طردة !

هتفت بولشيري الكسندروفنا مرتاعة :

— روديا ... ماذا تقول ؟ هل حقيقة ... هل تقول جدياً ؟ ..

ثم توقفت عن متابعة الحديث بعد أن ألقت نظرة الى دونيا !

كانت آفدوتيا رومانوفنا تنظر الى أخيها محدقة في وجهه تنتظر نتيجة كلامه! فقد علمت هي كما علمت أمها كذلك من ناستاسيا بعضاً مما دار بين راسكولنيكوف ولوجين بقدر ما سمحت به معلومات هذه الاخيرة فكانتا غير مصدقتين. وأمضتا الوقت متلهفتين لسماع التفاصيل وهما تشعران بانفعال عنيف.

تابع راسكولنيكوف حديثه بجهد واضح قائلاً:

— دونيا ! لا إريد هذا الزواج ! ولهذا عليك أن تنتهي من لوجين غداً ولننسى اسمه نهائياً بعد ذلك !

هتفت بولشيري الكسندروفنا :

— رباه !

بينما قالت آفدوتيا رومانوفنا بصوت منفعل :

— أخي ! فكر فيما تقول ،..

بيد أنها تمالكت نفسها بعدئذ واسترسلت بصوت حان تقول :

— إنك لست في وضع مناسب الآن ... إنك متعب !

— تعتقدين بأنني أهذي أليس كذلك ؟ إعلمي أنك مخطئة !.. إنك تتزوجين وجين من أجلي ... « بسببي أنا » وأنا لا أقبل هـذه التضحية الرهيبة ... لذلك فلسوف تكتبين اليه غداً تعلمينه بفسخ الخطوبة ... سوف تقرأين لي تلك الرسالة صباحاً وسينتهي كل شيء !

صاحت الفتاة وقد شعرت بجرح في كرامتها :

— لا أستطيع عمل ذلك ! ثم بأي حق !

غير أن أمها استدارت نحوها مقاطعة وقد بان الرعب في عيونها :

— دونيا ، أنت أيضاً تنفعلين ! آه ... لنذهب ذلك أجدي !

وهتف رازوميخين قائلاً بصوت المضمور :

ـ إنه يهذي وإلا لما كان سمح لنفسه ... غداً ستنتهي هذه الأزمة ... أمـا اليوم ... ففي الحقيقة إنه طرده تماماً كما قال ! ولا شك أن الآخر انزعج لهـذا التصرف . لقد كان « يخطب » هنا وينشر معلوماته مع ذلك فقـد مضى وذنبـه بين ساقيه !

فصاحت بولشيري الكسندروفنا :

ـ إذاً ... إنه صحيح تماماً ...

بينما هتفت صونيا بصوت يذوب حناناً :

ـ الى الغد يا أخي ... هيا يا أماه ... الوداع ياروديا !

فكرر هذا قائلاً بجهد عنيف :

ـ أتسمعين يا أختاه ! أنا لا أهذي ... أن هـذا الزواج فضيحـة ورذيلة ! وإذا كنت نذلاً أنا فلا ينبغي لك على الأقل أن تكونيه ... يكفي نذل واحـد ! لكن مها بلغت نذالتي فانني سأكف عن اعتبارك أختاً لي .. إما أنا وإما لوجين.. إلسحبي !

فزجر رازوميخين :

ـ لكنك فقدت صوابك أيها الظالم !

لم يجب راسكولنيكوف ولعله لم يكن يملـك القوة على الجواب واستلقى على « الديوان » مستديراً نحو الجدار منهوك القوى ! وراحت آفدونيا رومانوفا تتطلع الى رازوميخين بفضول وعيناها السوداوان تلتمعان حتى أن رازوميخين نفسه ارتعد تحت وطأة تلك النظرة أما بولشيري الكيسندروفنا فقـد كانت شديدة الاضطراب فغمغمت تهمس الى رازوميخين قائله بيأس :

ـ لن أستطيع مبارحة المكان لأي سبب في الدنيا ! سأبقى هنـا في أي

مكان ... اصحب دونيا !

فاجابها بهمس كذلك وقد فقد السيطرة على أعصابه :

ـ نعم . . . بينما تفسدين أنت الأمر كله ! لنخرج على الأقل من الحجرة ...

أضيئي سبيلنا يا ناستاسيا ... ولما أصبحوا على السلم أضاف قائلاً بصوت منخفض :

ـ اقسم لك أنه كاد منذ حين أن يضربني ويضرب الطبيب فهل تفهمين معنى هذا ؟ الطبيب بالذات ! وقد خرج هذا لكي لا يسبب له انفعالاً عنيفاً . فلما خرجنا استطاع ـ هو ـ أن يرتدي ثيابه وأن يتسلل بينما كنت في شقة صاحبة الدار أراقب .. والآن ، لسوف يتسلل هارباً من جديد اذا أثرتماه ولعله سيحاول أن ينزل بنفسه مصيبه !

ـ آه ... ماذا تقول ؟

ـ طبعاً ... ثم لا تنسى أن أدفونيا رومانوفنا لا يمكنها أن تبقى وحيدة في بيت من ذلك النوع ! فكرا قليلا في المكان الذي نزلتما فيه ! هل لم يكن ذلك « القذر » مستطيعاً حقيقة أن يجد لكما مسكناً أفضل ... على كل حال إنكما تعرفان بأنني ثمل قليلاً ولهذا السبب تلفظت بكلمات نابية فلا تلقيا بالاً اليها !

فقالت بولشيري ألكسندروفنا بالحاح :

ـ سأذهب الى صاحبة المسكن. توسل اليها أن تعطيني انا ودونيا زاوية نمضي فيها ليلتنا هذه . لا أستطيع تركه على هذه الحال ... لا استطيع .

كانوا قد بلغوا شقة صاحب البناء وكانت ناستاسيا تنير لهم الدرجة التالية.. وكان رازوميخين منفعلاً جداً ... فقد كان منذ نصف ساعة ، ـ عندما كان يصحب راسكولنيكوف ـ يثرثر كثيراً كما شعر بذلك بنفسه لكنه كان مع ذلك

يشعر بطلاقة وبصفاء ذهن رغم كمية الكحول الهائلة التي استهلكها . اما الآن فقد كان يشعر بأنه غارق في لون من الذهول وكأن أبخرة الكحول راحت تصعد الى رأسه محدثة تأثيراً مضاعفاً . كان واقفاً بين السدتين مطبقاً على يد كل منها ساعياً لاقناعها بشتى الوسائل والحجج بلغة مدهشة فكان ـ بعد كل كلمة ـ يضغط على يديها بعنف لعله راجع إلى رغبته في مضاعفة إقناعها أو التأثير عليها . وكان بين الحين والآخر يكاد أن يفترس أفدوتيا رومانوفنا بنظراته دون أن يشعر بأي حرج . وكانت السيدتان تخلصان يديها أحياناً لشدة تألمها من إطباق تلك القبضة القوية الجبارة على أصابعها لكنه سرعان ما كان يستعيدهما ليضغط عليها بشدة أكثر من ذي قبل . ولو أنها طلبتا اليه في تلك اللحظة أن يلقي بنفسه من أعلى السلم ورأسه الى الأمام لفعل على الفور دون أن تطرف له عين !

كانت بولشيري ألكسندروفنا شديدة القلق على ابنها لكنه لم يفتها برغم ذلك أن تلاحظ أن ذلك « الفتى » يقوم بأعمال مستهجنة ويضغط على يديها بقوة لشعرها بالألم ، غير أنها لبثت تتغاضى عن هفواته البسيطة تلك ولا تنفك تعتبره « الملاك » الحارس !

أما أفدوتيا رومانوفنا فعلى الرغم من أنها لم تكن ذات عقلية منطوية وجلة ، فانها كانت مندهشة لتصرف ذلك الشاب بل وخائفة منه كلما التمعت نظرات صديق أخيها هذا لتقف على وجهها ! ولولا الثقة العمياء التي زرعتها ناستاسيا في نفسها عندما تحدثت عنه وعن خدماته لأخيها ، لفرت مذعورة تجذب معها أمها لتنجوا منه ! وكانت تعرف أنه يتعذر عليها في تلك اللحظة الافلات منه . غير أنه لم تمض عشر دقائق حتى وجدت الفتاة نفسها مطمئنة تماماً الى هذا « الرجل الرهيب » .

كان رازوميخين يمتاز بموهبة فذة في تعريف نفسه وإظهارها على حقيقتها منذ اللحظة الاولى وفي أي موقف كان ، فكان يقوم بذلك التعريف بشكل يجعل الآخرين يدركون فوراً نوع الرجل الذي يتعاملون معه . لذلك فقد راح يقول محاولاً اقناع بولشيري الكسندروفنا :

ـ محال أن تتصلي بصاحبة البناء إنها ستكون حماقة كبرى ! صحيح إنك أمه ، وانك أم مثالية لكنك إذا بقيت فلسوف تستثيرين غضبه والله يعلم ما سيحدث إسمعي ... سأحدثك عما سأعمل : « ستبقى ناستاسيا في الوقت الحاضر بالقرب منه بينما سأصحبكما الى مسكنكما لأنه من غير اللائق أن تبدوا وحدكما في الطريق هنا في بيترسبورج ... هيا ... ثم عندما أرجع من مسكنكما « سأقفز » الى هنا وأعدكما بأنني سابلغكما خلال ربع ساعة بالجديد من أنبائه . سأقول لكما كيف حاله وهو نائم أو مستيقظ الخ ... وبعدئذ ... إستمعا ... بعدئذ سأعود فوراً الى ا منزلي لأن لدي بعض المدعوين وكلهم مخمورون وسأصحب زوسيموف ـ وهو الطبيب الذي عني به ـ وهو الآن في منزلي وهو ليس ثملاً انه لم يثمل قط لأنه لايشرب ! سأعود بــه الى روديا ومن هناك سنحضر الى مسكنكما ! أي أنكما ستتلقيان خلال ساعة واحدة أخباراً عنه وستتلقيانها مني أولاً ثم من طبيب ، الأمر الذي يختلف تماماً عن رأي الشخصي . واني اقسم لكما أن أحملكما اليه فوراً اذا كانت حالته سيئة . أما اذا كانت حالته مرضية فلسوف تنامان ! وسأقضي الليل كله هنا في المشي ولن أجعله يشعر بوجودي وسأجعل زوسيموف ينام عند صاحبة البناء ليكون في متناول يدي إذا احتجت اليه ! لمن يكون أكثر نفعاً بالنسبة إليه في هذه اللحظة : أنت أم الطبيب ؟ من رأيي إنه الطبيب ! إذاً ... عودا الى مسكنكما ... أما البقاء لدى صاحبة البناء فهو مستحيل انه ولن يكون كذلك بالنسبة إلي أما أنتما فلا ... وهي لن تقبل إيواءكما لأنها ... لأنها بلهاء ...

وهي غيور تغار من أدفوتيازونوفا اذا شئت معرفة ذلك ومنك أيضاً . . . ولكن من أدفوتيازومانوفا بشكل مؤكد . إنها مخلوق جامح عنيد كأشد ما يكون الانسان عناداً ... على كل حال إنني سخيف أنا الآخر ... فلندع كل هذا تعاليا ... هل تثقان بي ؟ قولا هل تثقان بي ؟ نعم أم لا ؟

فقالت أفدوليا رومانوفنا :

— لنذهب يا أماه ، لسوف يتصرف كما وعد . . . لا تنسي أنه أعاد أخي الى الحياة من قبل وإذا قبل الطبيب حقيقه فليقضي ليلة هنا فاننا ان نأمل خيراً من هذا ...

هتف رازوميخين منفعلاً من الحماس :

— هكذا ... أنت ... أنت تفهمينني لأنك ملك ... لنذهب . ناستيا إصعدي الى أعلى فوراً والبثي بالقرب منه مع الضوء ... سأعود في غضون ربع ساعة !

لم تمانع بولشيري الكسندروفنا رغم أنها لم تقتنع تماماً وهكذا أحاط رازوميخين كلاً من رفيقتيه بذراعه وراح يجرهما هابطاً بها . بينما كانت الأم تتساءل قلقة :

— لقد كان مدبراً وخدوماً حقاً ولكن هل هو في حال « تساعده على الاستمساك بوعوده ؟ لو حكمنا على المظهر !... »

وفجأة عاد رازوميخين يقول وكأنه قرأ أفكار الأم القلقة :

— أني أفهم ما في نفسك ! إنك تفكري بأنني أبدو ثملاً ...

كان يمشي بخطى سريعة واسعة حتى أن السيدتين كانتا تلاقيان صعوبة في مجاراته في المشي . غير أنه لم يلاحظ ذلك بل راح يتابع حديثه قائلاً :

ـــ نعم . . إنها حماقـة ! أقصد إنني ثمل كالخنزير ... لكن ليس بفعل الكحول ! نعم ليست الكحول التي أسكرتني ... إنني منذ أن رأيتكما « ضرب » ذلك على رأسي . لكن هيا لا تباليا بأقوالي ... إنني أهذي ... فأنا لست جـديراً بكما ... بل إنني في أحط درجات الجـدارة بالنسبة اليكما !.. لكنني بعد أن أوصلكما الى مسكنكما سأذهب فوراً الى « القنال » وسأصب على رأسي دلوين كبيرين من الماء فيذهب كل هذا ! آه لو عرفتما كلا كما كما أحبكما ... لا تضحكا ولا تغضبا مني ! إغضبا من كل الناس إلا مني أنا ... فأنا صديقه وبالتاليصديقكما.. إنني أريد أن أكون صديقكما ... لقد شعرت بذلك شعوراً مسبقاً ... شعرت به في العام الفائت خلال زمن ما ... كلا ... لم أشعر بشيء شعوراً مسبقاً ... لقـد هبطتما إلي من السماء ! من المؤكد أنني لن أنام هـذه الليلة مطلقـاً ... إن هذا « الزوسيموف » كان يخشى منذ قليل أن يكون روديا مجنونا ... ولهذا السبب لا ينبغي إغضابه !

فصرخت الأم :

ـــ ماذا تقول ؟

وهتفت أفدوتيا رومانوفنا وقد عصف بها القلق :

ـــ هل يعقل أن يكون الطبيب نفسه قد قال ذلك ؟

ـــ نعم لقد قاله ! ولكنه ليس صحيحـاً مطلقــاً . لقد أعطـاه دواء ... مسحوقاً ... وقد رأيته وفي هذهالاثناء جئتما! آه كان من الافضل لولم تصلا اليوم لقد أحسنا صنعاً بمغادرته ولسوف يطمئنكما زوسيموف في غضون ساعة واحدة. إنه ليس ثملاً مثلي ... وكذلك لن أكون ثملا بعد ساعة . ولكن لم حشرت أنفي بكل هذه الشدة ؟ لأنهم اجتذبوني بمناقشاتهم ! يا للاوغاد ! وأنا الذي كنت قد أقسمت على عدم الدخول في منـــاقشات ! نعم كانوا يسردون على بعضهم

الا أكاذيب ولو لا قليل لرحت ضربهم ... وقد تركت عمي هناك كرئيس ! هل تصدقان ؟ إنهم جميعاً عديمي الشخصية تماماً ! إنهم جميعاً كالأطفال هدفهم أن يكونوا هم « أنفسهم » وأن لا يشبهوا واقعهم على أضيق نطاق ممكن ! هذا ما يعتبرونه أقصى درجات « المجهود » وهكذا راح كل منهم يهذي على هواه ...

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي تقاطعه بخجل :

ـ إسمع !...

لكن تلك الملاحظة ضاعفت انفعاله فهتف بصوت عال :

ـ هم ! ماذا ؟ فيمَ تفكرين ؟ أتعتقدين انني أنفعل وأثور لأنهم يقصون على بعضهم أقوالاً سخيفة فارغة ؟ أبداً ... بل إنني أحب أن يفعلوا ذلك . ان السخافات الكاذبة هي كل ميزة الانسان على بقية الحيوانات لأن الانسان يصل الى الحقيقة عن طريق الكذب . فاذا كنت انساناً فذلك لأنني أكذب . لم يحدث أن اكتشفت حقيقة واحدة دون أن تكون قد سبقت بالكذب اربعة عشر مرة ! بل مائة واربعة عشر مرة ! وليس في ذلك بالذات ما يشرف لأننا لا نعرف أن نكذب حسب ذكائنا وعقليتنا ! الصق لي كذبات شريطة أن تكون صادرة عنك تماماً فاقبلك ! لأن الكذب حسب طابع الانسان وأسلوبه أجمل من الحقيقة التي ينفخها فم أجنبي في رؤوسنا ! لأننا في الحالة الأولى نكون رجالاً أما في الحالة الثانية فنكون ببغاوات فحسب . إن الحقيقة لا تختفي بل الحياة هي التي تختفي ! ولقد رأينا وشاهدنا كيف يمكن طعن الحياة ! أين نحن الآن ؟ كلنا دون استثناء ! أين نحن جميعاً فيما يتعلق بالعلوم والثقافة والفكر والعقلية الابداعية والمثل العليا والرغبات التحررية ، والمنطق والتجربة وكل شيء آخر ... إننا لازلنا نتبع الدروس الاعدادية في المدرسة الابتدائية ! إننا نستأنس ونعجب بالمعارف التي تملأ بها

أفواهنا ممضوغة خالصة ! أليس كذلك ؟ أليس ما أقوله حقيقة ؟

كان يصيح منفعلا وهو يضغط بشدة على يدي السيدتين حتى أن بولشيري الكسندروفنا المسكينة قالت بحيرة :

ـــ آه رباه ... لا أدري !

بينما قالت أفدوتيا رومانوفنا بلهجة جدية :

ـــ نعم إنه لكذلك على الرغم من أنني لا أوافقك على كل النقاط دون استثناء !

وفجأة صرخت من الألم لشدة ما كان رازوميخين يضغط على يدها وهو يقول في ذهوله :

ـــ نعم ؟ تقولين نعم ؟ لكنك أنت ... أنت ... أنت نبع الصلاح ! نبع النقاء والعقل والكمال ... إعطني يدك إعطنيها ... وأنت إعطني يدك كذلك ! أريد أن اقبل هاتين اليدين هنا وأنا راكع على ركبتي وفي هذه اللحظة !

ثم جثا في منتصف الرصيف الذي كان لحسن الحظ خالياً من الناس في تلك اللحظة .

صرخت بولشيري الكسندروفنا بانزعاج :

ـــ ماذا تعمل ؟ أرجوك دع هذا !

واردفت دونيا التي تضحك ولكن دون انزعاج :

ـــ إنهض ... إنهض !

ـــ لن أنهض بأي ثمن إلا إذا أعطيتماني يديكما ... هكذا ... تماماً . والآن كفى ... لنذهب ؟ أنا سمج تعس غير جدير بكما وثمل ! إنني أحمر خجلاً إذ أنني لست جديراً بأن أحبكما . أما أن أنحني أمامكما خاضعاً فانه واجب على إلا إذا كنت وحشياً حقيقاً . ولذا فقد ركعت وانحنيت ! هذا هو مسكنكما وبسبب

هذا وحده ، أعترف بأن روديون كان على صواب تماماً حينما طرد صاحبكما بيير بيتروفيتش كيف سمح لنفسه أن يجملكما تسكنان في منزل كهذا ؟ إنها فضيحة ! أتعرفان أي نوع من الناس يأوون الى هنا ؟ مع ذلك فأنت خطيبته ! لأنك خطيبته أليس كذلك ؟ إذن ساصرح لك رغم ذلك بأن زوجك المقبل ليس إلا « قذراً » !

فقالت بولشيري الكسندروفنا محتجة :

— اسمع يا سيد رازوميخين ... إنك تنسى نفسك ...

فتمالك رازوميخين نفسه وقال :

— نعم نعم ... إنك على حق ! لقد نسيت نفسي ولكنكما لن تلوماني على ماقلته منذ حين لأنني تحدثت اليكما بكل صراحة وليس لأنني ... هم ... إنها كانت تكون نذالة ، وبالاختصار ليس لأنني ... هم ... ايكن ... لن يكون ذلك ولن أقوله لأنني لا أجرأ ، لكنه منذ حين ... لما دخل الى حجرة روديون فهمنا للوهلة الاولى أن هذا الرجل ليس من عالمنا ، ليس لأنه دخل علينا برأس خرجت تواً من بين يدي الحلاق وليس لأنه بادر الى نشر ما يعرف من معلومات بل لأنه جاسوس بكل معنى الكلمة ... لأنه مدقق ولأنه يهودي ومشعوذ دعي ، ذلك واضح عليه ، وأنتما تعتقدان أنه ذكي ، لكنه حيوان ، هيا هل حقيقة يمكن أن يكون « صفقة » جديرة بكما ؟ آه رباه ، أنظري يا سيدتي ... إن الاصدقاء المدعوين عندي سكارى لكنهم شرفاء ، ولقد تحدثنا بكل الترهات والسخافات لأنني أنا أيضاً أحسن التحدث بهذه الاشياء ، لسوف نتوصل يوماً الى معرفة الحقيقة لأننا في الطريق القويم ، الأمر الذي لا يبدو على بيير بيتروفيتش لأنه لا يتبع الطريق القويم ... إنني أحب أولئك الذين دعوتهم الليلة الى داري رغم أننا تناقشنا بحدة وأغلظت لهم القول بعد ذلك ... وزاميوتوف نفسه الذي أحبه دون

أن أُميل اليه لانه حيوانُ فضولي ، نعم . حتى ذلك الوحش زاميوتوف فانني أُحبه لأنه نزيه شريف يعرف مهنته .. لكن كفاني كلاماً وقد صَفح عن كل شيءٍ قيل.. أليس صحيحاً أنكما صفحتما عما قلت ؟ هيا ... لنمش ...

كانوا قد بلغوا المسكن المعد للسيدتين وراحوا يرقون السلم وهو يثرثر . ولما بلغوا أمام باب أحد المساكن هتف :

ـــ هنا ... في رقم ثلاثة وقعت فضيحة !.. لقد جئت من قبل الى هذا المكان وأنا أعرفه حق المعرفة .. أين تنزلان ؟.. في المسكن الثامن ؟ حسناً ! إغلقا عليكما الباب بالمفتاح ولا تدعا أحداً يدخل عليكما ليلاً ... سأعود في غضون ربع ساعة لأحمل لكما الأنباء الجديدة... وبعد نصف ساعة على الأكثر سأعود مرة ثانية مع زوسيموف ..سوف تريان ! الوداع ..ينبغي أن أغادركما !

ولما أصبحتا وحيدتين هتفت پولشيري ألكسندروفنا بقلق واضح :

ـــ يا إلهي يادونيا ... ماذا سيحدث ؟

فأجابت دونيا وهي تنزع قبعتها ورداءها :

ـــ لا تقلقي يا أماه ! إن الله نفسه قيض لنا هذا السيد . ثقي بأنه يمكن الاعتماد عليه رغم أنه ثمل ! وكل ماقاله وعمله من أجل أخي ...

ـــ آه يادونيا ! الله يعلم إذا كان سيعود ! كيف قبلت مغادرة روديا ! رباه! وإنني ماكنت أنتظر أن أراه على هـذا الشكل ... لقد بدا مخيفاً ... وكأنه غير راض عن مشاهدتنا ...

وانهمرت دموع المسكينة على خديها !

ـــ كلا ! إن الأمر ليس كما تتوهمين يا أماه ! إنك لم تمعني النظر لأنك كنت تبكين ! لقد زعزعه مرض خطير وهذا هو السبب في كل ماحدث !

ـــ آه ذلك المرض ! إن في الأمر شيئاً .. رباه كيف تحدث معك يادونيا !

كانت الأم تنطق بالعبارة الأخيرة وهي تحاول قراءة أفكار ابنتها في عينيها وقد سُرت بعض السرور لأن دونيا كانت تدافع عن أخيها مما يدل على أنها صفحت عما صدر عنه ! وأردفت معقبة وهي تحاول بحث الموضوع إلى النهاية :

ــ أنا واثقة من أنه سيبدل رأيه غداً ..

فقاطعتها ادفوتيا رومانوفنا بقولها :

ــ بل إنني واثقة من أنه غداً سيقول ماقاله اليوم ..

قطعت بهذه الجملة على پولشيري الكسندروفنا طريق الخوض في الموضوع الذي كانت تهيب من الخوض فيه ثم اتجهت نحوها فعانقتها بقوة وعادت تجلس على مقعد منتظرة بقلق عودة رازوميخين ! وكانت الام ترقب ابنتها بصمت وقدعقدت ذراعيها منتظرة الاخبار الجديدة . ولم تلبث هذه أن نهضت واقفة وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً مستغرقة في أفكارها . تلك كانت عادتها كلما كانت تتردد في اتخاذ قرار معين وكانت أمها في مثل تلك الظروف تتجنب إزعاجها وقطع حبل تفكيرها .

كان رازوميخين ولا شك مضحكاً في نزوته الطارئة التي استبدت به فراح يعبر عنها وهو في حالة السكر ..تلك النزوة التي أحس بها حيال أفدوتيارومانوفنا. لكن من يتأمل في تلك الفتاة وخصوصاًفي تلك اللحظة وهي عاقدة ذراعيها تتجول حزينة ساهمة في فراغ حجرتها يجد له العذر حتى ولو لم يكن ثملاً .كانت ادفونيا شخصية جذابة حسنة التكوين طويلة القوام متينة البنية واثقة من نفسها كما كان يبدو من كل حركة من حركاتها الأمر الذي كان يزيدها رقة ووداعة . كانت تشبه أخاها في تقاطيع وجهها لكن ذلك ما كان ليمنع أن تكون ذات جمال خارق. كان شعرها كستنائياً كشعر أخيها مع اختلاف طفيف ، وعيناها سوداوان لامعتان مطبوعتان بالكبرياء تنبعث منها في كثير من الأحيان رقة

خارقة ، وكانت شاحبة بغير مرض يعكس وجهها آيات العافية والاشراق . وكان فمها صغيراً وشفتها السفلى بلون أحمر صارخ تبرز قليلاً مع بروز ذقنها ، وكان ذلك « البروز » الطفيف العيب الوحيد في ذلك الوجه البديع . لكنه كان يضفي عليه لوناً من الصرامة والترفع ... وكانت أمارات وجهها تدل على الرزانة والتفكير أكثر منها على البشاشة لكن الضحكة التي كانت ترتسم على ذلك الفم الجميل كانت غاية في الجمال لأنه فم يليق به الابتسام فاذا ضحكت كانت ضحكة هادئة مرحة طافحة بالحيوية ! فكان منتظراً اذاً أن يفقد رازومنخين المتقد حيوية ، شديد الاخلاص ، رازوميخين البسيط ، النبيل القوي قوة الأبطال القدماء . الذي كان ثملاً والذي لم يسبق له أن رأى مثل هذا الجمال ، كان منتظراً أن يفقد رجل كهذا عقله ! ثم إن الصدفة شاءت ـ وكأن ذلك كان بحسب خطة مرسومة ـ أن تريه دونيا في الوقت الذي كانت فيه تطفح بالحب والفرح للقيا أخيها ولقد وجدها بعد ذلك مرتجفة الشفاه ثائرة لكرامتها إزاء اهانات أخيها فلم يبدل ذلك من الأمر شيئاً .

وكان صادقاً عندما قال ـ بينما كانوا يهبطون من حجرة راسكولنيكوف ـ إن صاحبة منزل ذلك الأخير براسكو في ايفانوفنا ستغار ليس فقط من أدفوتيا رومانوفنا بل كذلك من بولشيريي الكسندروفنا نفسها . اذ أن هذه رغم أنها كانت قد تجاوزت الثالثة والأربعين من عمرها إلا أنها كانت تبدو أصغر سناً كما هو الحال عند النساء اللاتي يحتفظن حتى أرذل العمر بصفاء ذهنهن وباحساساتهن وحرارة أجسادهن الطاهرة ! طبعاً ... إن المرأة لا يمكنها ان تحافظ على جمالها حتى سن الشيخوخة اذا لم تكن محافظة على ذلك المبدأ الوحيد .

كان شعرها قد أصبح قليلاً يغزوه اللون الابيض وقد ارتسمت على اطراف عينيها تجعدات خفيفة وضمر خداها ونحلا تحت وطأة الاحزان والآلام أما فيما عدا

ذلك فان وجهها ابث جميلاً . إنه صورة دونيا مضافاً اليها عشرون عاماً باستثناء بروز الشفة السفلى الذي لم يكن موجوداً فيها .

كانت بولشيري الكسندروفنا سيدة حساسة الى حدما خجول شديد التسامح حتى في حالات النيل من معتقداتها وآرائها ، لكنها كانت أبداً تعرف الحد الذي يجعل شرفها أو واجبها أو معتقداتها الخاصة التي تؤمن بها بشدة في منجاة من كل اجتراء مهما كانت الظروف والمناسبات .

لم تنقض عشرون دقيقة على ذهاب رازوميخين حتى سمعتا طرقتين خفيفتين على بابها ... ولما فتحتا الباب وجدتا أنه قد عاد ، ابتدرها قائلاً بعجلة :

ــ لن أدخل لأن لاوقت لدي . إنه ينام كأسعد السعداء . نوماً هادئاً وديعاً وان شاء الله سينام على هذه الصورة طيلة عشر ساعات ! إن ناستاسيا بالقرب منه وقد أفهمتها بأن لاتبارحه حتى عودتي سأذهب الآن لاقود زوسيموف وسيحدثكما بنفسه عند عودته وبعد ذلك سوف تستلقيان لتأخذا قسطكما من الراحة لأنكما مرهقتين بالتعب . انه باد عليكما !

ثم غادرهما مسرعاً بينما هتفت بولشيري الكسندروفنا بحبور :

يا له من فتى نبيل ! حاذق !

فاجابت افدوتيا رومانوفنا بشيء من اللهفة وهي تعود الى تجوالها وسط الغرفة :

ــ يبدو عليه أنه من طينة ممتازة !

لم تمض ساعة على مجيء رازوميخين حتى علت أصوات خطوات في المشى وقرع الباب من جديد . كانت السيدتان تنتظران لأنهما بدأتا تثقان بوعود رازوميخين وقد وجدتاه في هذه المرة قد نجح في اصطحاب زوسيموف معه وبدا أن هذا الأخير قد وافق بكل طيبة خاطر على ترك الحفلة ليعود راسكولنيكوف

لكنه لم يحضر إلى مسكن السيدتين بمثل هـــذه السهولة لولا إلحاح رازوميخين وخشية الطبيب منة وهو على تلك الحال .على أنه سرعان ما بد الارتياح على وجهه بعد أن لمس بنفسه مبلغ اللهفة التي اعتلجت في نفس السيدتين الفاضلتين وهما بانتظاره . وقد امضى لديها عشر دقائق بالضبط استطاع خلالها ان يقنع بولشيري الكسندروفنا ويطيب خاطرها . كانت كلماته تشهد بحسن حال المريض لكنها لم تكن خالية من بعض الحيطة متسمة بطابع الأهمية الواجب إخفاؤها على أقوال طبيب في السابعه والعشرين من عمره يُسأل في حالة خطيرة . لم يلفظ خـــلال حديثه أية كلمة خارجة عن الموضوع ولم يبدو أية رغبة في تدعيم علاقات شخصية وثيقة مع السيدتين وعلى الرغم من أنه لاحظ منذ دخوله حسن أدفونياروما نوفنا الباهر فقد عمل فـوراً على أن لايلقي أية عناية إليها لذلك فانه راح يوجه الحديث ـ كل الوقت الذي استغرقته الزيارة ـ الى بولشيري الكسندروفنا وحدها . وكان ذلك التصرف يشعره بارتياح داخلي بالغ ،

صرح ـ بان المريض كان ـ في تلك الأثناء بحالة مُرضية وان مايعانيــــه ـ حسب تشخيصه للمرض ـ ليس فقط من العوامـــــل المرضية المادية التي رافقت جسده خلال الاشهر الأخيرة بـل أيضاً بسبب عقلي خاص يمكن ايجازه بالقلق الذي ينجم عن أفكار معينة . ولما لاحظ أن أدفونياروما نوفنا كانت تستمع اليه باهتمام خاص راح يشرح بتبسط نظريته. ولماسألته بولشيري الكسندروفنا بصوتها القلق الخجول عما اذا كان ولدها يعاني من حالة معينة من حالات الجنون أجاب بضحكة هادئة صريحة بأن ذلك يعتبر مبالغاً فيه وان المريض تسيطر عليه فكرة خاصة ثابتة تسبب له نوعاً من الجنون المتصل بسبب واحـد حتى أنه راح يدرس هذا الفرع المهم من الطب دراسة خاصة وأضاف بأنه ينبغي الا يُغفلَ عن أن المريض كان حتى ذلك اليوم في بحران من الذهول وإن وصول أسرته سيخلق

في نفسه قوة ويجلب له تسرية تسبب شفاءه شريطة أن يجنب اضطرابات جديدة من نوع معين . ثم نهض بعد ذلك وحيا بشكل جمع بين الخطورة والدعة ثم خرج معرباً عن سروره بتلك الزيارة ترافقه الدعوات الصالحة التي غمرته بها السيدتان اعترافاً منها بجميله وقبل أن يغادرها قال رازوميخين وهو يتأبط ذراع زوسيموف .

ــ اسوف نتحدث غداً حديثاً أطول . أما الآن فيجب أن تناما دون تأخير ولسوف أمر بكما باكراً لأقدم لكما تقريراً جديداً .

وفي الطريق قال زوسيموف بلهجة بعيدة عن الاطراء الرخيص :

ــ يالها من فتاة ساحرة تلك الـ « آفدونيا رومانوفنا » .

فزمجر رازوميخين بانفعال وقبض على عنق زوسيموف بشدة وقال :

ــ ساحرة ؟ تقول ساحرة ؟ لو سمحت لنفسك مرة أخرى أن تعيد هذا القول مرة اخرى ... أتفهم ؟ أتفهم ؟ وراح يهزه بقوة وانفعال فهتف زوسيموف يحاول التخلص من يده :

ــ دعني أيها الشيطان الثمل !

وللتخلص منه راح يحدق في عينيه برهة ثم انفجر ضاحكاً ضحكة جنونية ذلك أن رازوميخين كان لا يزال واقفاً أمامه منفرج الذراعين غارقاً في أفكاره السوداء وفجأة ادرك حماقة عمله فقال بلهجة كئيبة .

ــ إنني حمار بالتأكيد . ولكنك أنت أيضاً تبدو حماراً ! ...

ــ لعمري ! كلا ياصديقي أنا لست حماراً ــ لأنني لا أحلم بالحماقات ! .

وراحا يمشيان دون ان يتفوها بكلمة حتى بلغا مدخل منزل راسكولنيكوف وعندئذ قطع رازوميخين الصمت وقال :

ــ إنك رجل ممتاز ولكنك ــ إضافة الى خطيئاتك الكثيرة ــ زير نساء بل

ومن اكثرهم نذالة . إنك تفكر في قراره نفسك « بقذارة » تهدهدها وتنميها لانك لاتستطيع أن ترفض لنفسك رغبة وإنني أدعو هذ التصرف بالقذارة لأنه اصدق وصف له . لقد بلغت من التخنث وحب الجنس مبلغاً لاأفهم بعده كيف تستطيع على الرغم منه أن تكون طبيباً ممتازاً مخلصا. إن كلة طبيب تسطر بالقلم فتبدو مستلقية على الورق لكنها تنهض ليلاً لتعود مريضاً ... وأرى أنك بعد ثلاث سنوات لن تنهض مطلقاً لعيادة مريض. على كل حال أن الأمر ليس هذا لقد أردت أن أقول : سوف تمضي ليلتك في مسكن صاحبة البناء ولقد أقنعتها بعد لأي بقبول إيوائك . وبذلك يتاح لك فرصة جديدة لعقد صداقات أمتن ! أليس هذا ما تفكر فيه ؟ كلا يا صديقي لا يوجد ظل من هذا . أليس كذلك ؟

ــ لكنني لم أفكر مطلقاً في ذلك .

ــ ستجد هنا ياصديقي تظاهراً بالحشمة ورصانة وخجلاً وتعففاً مصطنعاً ترافقه تنهدات وحسرات ولوعة ! أنقذني منها أتوسل إليك ! استحلفك بكل شياطين العالم . إنها مضياف بشكل عجيب وإنك لتؤدي لي خدمة جلى لن أنساها لك .

ازداد اغراق زوسيموف بالضحك وقال :

ــ حسناً إنك لست ثملاً !.. لكن ماذا أعمل ؟!

ــ ثق أنك لست في حاجة إلى إعطائها شيئاً كثيراً من نفسك ، يكفي أن تقذف في وجهها ببعض الكلمات ، أية كلمات تخطر ببالك ، يكفي أن تجلس بالقرب منها وأن تتحدث ! ثم لا تنسى أنك طبيب . فابدأ معها مثلا بأن تصف لها علاجاً معيناً وأقسم لك على أنك لن تندم . إن لديها معزفاً صغيراً وأنت تعرف أنني أغني قليلا وقد غنيت لها أغنية روسية تاريخية تلك التي مطلعها : « إنني أبكي بدموع حارة ...» ثم إنها تعبد الأغاني التاريخية ولقد بدأنا من هذه النقطة . أما أنت فانك عازف بارع ، أستاذ شبيه « روبنستين » هيا ثق بانك لن تندم .

ـــ لكن ألا تكون قد وعدتها بعض الوعود ؟ وعدا خطياً مثلا ؟ الم تعدها بالزواج منك؟

ـــ كلا ! أبداً ، أبداً ، لا شيءٌ مطلقاً من كل ذلك . إنها ليست كما تظن. لقد ظن لشيباروف ...

ـــ في هذه الحالة عليك أن تتركها .

ـــ ولكن ليس من سبيل إلى تركها هكذا .

ـــ ولِمَ لا ؟

ـــ لأنه ليس من سبيل ، هذا كل ما في الأمر . إن فيها يا عزيزي لوناً من الجاذبية .

ـــ إذاً لِمَ استهويتها ؟

ـــ إنني لم أقصد استهواءها . بل لعلني وقعت فريسة لها بحماقة . أما هي فلا فرق لديها أن أكون أنا أو ان تكون أنت طالما أنها تستطيع أن تنعم برفيق بالقرب منها . لست أدري كيف أشرح لك ذلك يا صديقي ! على فكره أنت قوي في الرياضيات ولا زلت مهتماً بهذا العلم في الوقت الحاضر . فابدأ إذا شئت بتعليمها قواعد الحساب المتممة. أنا لا أمزح أؤكد لك بأنذلك سيان لديها ولسوف تراها تتأملك وتتأوه بحسرة . خذ مثلا : إنني استبقيتها يومين متتاليين في « مخدع » الامراء البروسيين ! لأنني كنت مرغماً على التحدث بأي شيء . أتدري ماذا كانت تعمل خلال هذا الوقت ؟ لقد كانت تذوب وتتحسر ! إنما تجنب التحدث اليها عن الحب لأنها متعففة لدرجة التطرف . يكفي أن تبدو أمامها بمظهر الذي لا يطيق الابتعاد عنها وسيكون في ذلك ما يكفي ! إن مسكنها حاوٍ على شروط الراحة حتى انتظن أنك في بيتك تماماً : تقرأ أو تجلس أو تستلقي أو تكتب بل وتستطيع أن تعانقها إذا شئت على أن تبدأ بحكمة .

— ولكن ماذا أعمل بها ؟

— الحقيقة أنني لا أعرف كيف أفسر لك الموضوع لكنك سترى بنفسك أنكما صنعتما الواحد للاخر . وقد كنت فكرت فيك من قبل لأنني أعرف أنك تحب الانتهاء من علاقتك بانتهاء زيارتك ولا يزعجك أن تكون هذه النتيجة متأخرة أو متقدمة . وهنا يا عزيزي سينطبق مبدأ فراش الريش عليك ! ها إن مصيرك يناديك . إن نهاية العالم بالنسبة اليك ، المرساة ، مرفأ الأمان ، قواعد العالم واستقراره ! انك ستجد الطيور المحمرة والأفاوية و « السماور » مساء الخدمة وأنت في السرير . ستكون كالميت رغم انك حي ! وبذلك ستضرب عصفورين بحجر ...! اف ! يا صديقي كم أثرثر ! لقد آن أن تنام أما أنا فقد وضح لي من قبل أن أمضيت الليل ساهراً لذلك فسأذهب لالقاء نظرة عليه فلا تبتئس ولا تقلق مما كنت أقول لقد كانت حماقات فحسب ! ولك إن أردت أن تصعد معي أو أن تصعد بعدي لتلقي نظرة عليه شريطة أن توقظني حالاً إذا لاح لك أنه يعاني من الهذيان أو الحمى .

الفَصلُ الثّاني

استيقظ رازوميخين بعيد الساعة السابعة قلقاً كئيباً فقد شعر ذلك الصباح بأسباب عديدة تجعله يكتئب دون أن يدرك علة ذلك . لم يكن يتصور أبداً أن يستيقظ يوماً على ذلك النحو ! تذكر يوم أمس بكل تفاصيله وفهم أنه قد وقع له فيه شيء غير طبيعي وأنه أحس بشعور كان يجهله حتى تلك اللحظة ، شعور لم يكن له مثيل من قبل . كذلك فقد تأكد لديه أن الحلم الذي التمع في خيـــاله لم يكن ممكن التحقيق بل انه كان على أقصى درجة من الاستحالة حتى أن مجرد التفكير فيه كان يبعث الخجل في نفسه لذلك فقد اتجه بفكره وعقله الى الاعمال العادية التي يزاولها كل يوم لينسى ذلك الامس « مضاعف اللعنات » .

كانت تعذبه ذكريات أمس وبصورة خاصة تلك الذكرى التي تتعلق بتصرفه حيال تينك السيدتين فاطلق على ذلك التصرف اسم « تصرف الرجل الخشن القذر » ولم تكن سبب تلك التسمية حالة السكر التي كان عليها بل لأنه أهان بحماقة وعنف خطيب الفتاة أمامها منتهزاً الحاجة التي كانت فيها دون أن يعرف طبيعة العلاقات التي تربط بينها وبين ذلك الرجل . وقد سمح لنفسه أن يحكم عليه بذلك الشكل السريع الأحمق دون أن يسأله أحد رأيه فهل يمكن لفتاة مثل آدفوتيا رومانوفنا أن تربط مصيرها بمصير رجل غير جدير لمجرد حب الكسب والربح ؟ لا شك أنه ليس محروماً من المواهب ! أما قضية المسكن المؤثث فانه لم يكن ولا شك يعرف نوعه خصوصاً وإنه كان يبحث عن مسكن للسيدتين دون سابق معرفة فحكمه إذاً كان بشعاً أما حجته التي أراد أن يبرر بها تصرفه

والتي تصب اللوم كله على الشمل فانها تزيد موقفه بشاعة ولا سك . لان الحقيقة كلها كانت كامنة في الخمر هذه الحقيقة سطعت أمامه في تلك اللحظة واضحة جلية لقد أوضحت الخمرة حقيقته وبمعنى أدق « عن قذارة قلبه الغليظ الحسود » .

هل يجوز له أن يفكر بمثل ذلـــك الحلم ، هو ، رازوميخين ؟ من هو إذا قورن بتلك الفتاة الشابة ؟ أو لا يكون ذلك السكير العربيدالمتبجح؟ هل يمكن التفكير في إيجاد تقارب أكثر شذوذاً ووقاحة من هذا ؟

كان رازوميخين يحمر خجلا ويأساً من تلك الفكرة . وتذكر فجأة أنـه عند ما هبط أمس مع السيدتين من حجرة راسكولينكوف قال لهما إن صاحبة المسكن تحبه وتغار من آفدوتيا رومانوفنا ! فكان مجرد تفكيره بهـــذه العبارة يقضي عليه قضاء مبرماً لذلك فقد راح يضرب بقبضته موقـــد المطبخ ضربات عنيفة حتى ادمي يديه وحطم قرميدة . راح يغمغم وهو فريسة شعور بالخجل :

ـــ طبعاً . طبعاً ليس من وسيلة لمحو هذه الحماقات ولا للتبرؤ منها وعلى ذلك فانه لم يبق لدي مجال للتفكير ... ولسوف أمثل بين يديها دون أن أتفوه بكلمة وسأتقبل كل شيء دون منة وبسكون ولن أعتـــذر بالطبع لأن كل شيء قد ضاع !

مع ذلك فانه لما أخذ يرتدي ملابسه صرف جل عنايته اليها . لم يكن لديـه أكثر من ثوب واحد حتى ولو أنه كان يملك ثوباً آخر لما ارتداه عامداً . مـع ذلك فانه إزاء حالة ثوبه الراهنة لم يكن يستسيغ جرح شعور الآخرين بمظهره الزري خصوصاً وان اولئك « الآخرين » كانوا في حاجة اليه وانهم دعوه من تلقاء أنفسهم لزيارتهم لذلك فقد مر بالفرشاة على ثيابه بعناية أما القميص فكان غاية في النظافة لأن طبيعة رازوميخين كانت تأبى قذارة الجسد .

نهض ذلك الصباح وهو مرتبك وأخذ يغسل شعره وعنقه ويديه بقطعةمن

الصابون انتزعها من ناستاسيا ولما مر بيده على لحيته وأحس بها نامية تذكر أن براسكوفي بافلوفنا (صاحبة المنزل) تملك أمواس حلاقة ممتازة احتفظت بها منذ وفاة المرحوم زوجها زارنيستين وأنه يستطيع استعمال واحد منها . غير أنه سرعان ما استبعد الفكرة بوحشية وهو يغمغم :

ـ ستبقى لحيتي كما هي لأنهما ستفكران بأنني ما أزلتها إلا ... طبعاً ذلك ما سوف تفكران فيه وعلى ذلك فلن أزيلها لأى سبب في الوجود ! خصوصاً وانني أنا ذلك القذر الخشن الذي تفوح مني رائحة الحانات ولنفترض ... ـ لأنني في الواقع أعترف بنبلي كرجل ـ لنفترض أن ذلك النبل هو ما أتغنى به فانه في الحقيقة ليس جديراً بمثل هذا التفاخر لأن كل امرئ يجب أن يكون نبيلاً بل يجب أن يكون أكثر من ذلك . ثم ... ألست أنا كذلك مصاباً بعدد من الخطيئات لا أقول الخطيئات القذرة ولكنها خطيئات وكفى . إذاً لا يمكن أن أعاود البحث في الآمال خصوصاً وإنني لا أملك شيئاً أضعه في الكفة الأخرى لأساوي به آدفوتيا رومانوفنا ... فيا للشيطان إن الواقع هو انني سأبقى كما أنا قذراً خنزيراً عربيداً ولن أبالي بل لسوف أتصرف تصرفاً أسوأ ...

بمثل هذه الأقوال أمضى رازوميخين الوقت حتى التقى بزوسيموف الذي كان قد أمضى ليلته في مسكن براسكوفي بافلوفنا . لقد جاء هذا يلقي نظرة أخيرة على المريض فأنبأه رازوميخين بأنه نائم كحيوان « اللوار » فأوصى زوسيموف أن يترك في نومه ووعد أن يعود عند الساعة الحادية عشرة تقريباً وأضاف :

ـ المهم أن أراه في حجرته عند ما أعود . إنه مؤلم أن لا يكون للطبيب

حرية التصرف بالمريض لان شفاءه يصبح معجزة . فترى هل تعرف إذا كان عليه أن يذهب إليها أو أنها سأتيان اليه ؟

فاجاب رازوميخين وقد فهم الغاية من هذا السؤال :

— لسوف تحضران على ما أظن لأنها ستتحدثان معه عن شؤونهم العائلية ولسوف أنسحب أنا أما أنت فبوصفك طبيباً فان لك ولا شك حقوقاً أكثر .

— إنني لست طبيب الضمائر لذلك فسأحضر وأنصرف لأنني أكتفي بالعناية بالجسد .

قال رازوميخين متجهماً :

— هناك قضية تزعجني : لقد ذكرت البارحة وأنا في حالة الثمل ... لقد تحدثت بعدد كبير من الحماقات من بينها أنك تخاف أن يكون راسكولينكوف متجهاً نحو الجنون .

— لقد قلت ذلك أيضاً للسيدتين مساء البارحة .

— أنا أعرف أنني ارتكبت حماقة كبيرة فاضربني إذا شئت ولكن قل لي هل هذه الفكرة ثابتة في ذهنك ؟

— فكرة ثابتة ؟ ويحك ! إنك أنت بنفسك صورته لي بصورة المتشائم بل بصورة المهووس عند ما استدعيتني لعيادته أول مرة . والبارحة عملنا على تعكير مزاجه بل لأقل أنك أنت الذي سبب ذلك باحاديثك وقصصك المتعلقة بذلك الدهان الذي ألقي عليه القبض متهماً بقتل العجوز ... ياله من موضوع مناسب للحديث مع شخص فقد الرشد بسبب مثله ... لو أنني كنت أعرف تماماً ما وقع له في دائرة البوليس في ذلك الحين وإن أحد السفلة وجه اليه إهانة الاشتباه به . هم ... لما تلفظت البارحة بحديث كالذي سمعته . إن هؤلاء المهووسين يجعلون من النقطة بحراً حتى أن كل الخيالات تبدو لهم حقائق وعلى قدر ما أذكر فقد

اتضحت لي نصف القضية من الحديث الذي قصه علي زأميوتوف البارحة ..، إنني أذكر حالة أحد المصابين بهذا المرض وهو رجل في الاربعين في عمره كان لا يستطيع احتمال السخريه التي كان يتفوه فيها طفل في الثامنة من عمره كان معه على المائدة ، فذبحه ! ولدينا هنا تعس باسمال بالية ينهش المرض جسمه يصاب باهانة من قبل شرطي فظ ثم يصبح هدفاً لشكوك مريعة . لذلك فان هوساً من هذا النوع كان مصدره كرامته المجروحة المهدوره وهـــذا هو ولا شك محور الألم . وعلى فكرة . إنك على حق في أن زاميوتوف شاب لطيف لكنـه ، مـاذا أقول ؟ لكنه أخطأ في التحدث بمثل ذلـــك الحديث البـارحة . إنهـا ثرثرة مروعة .

ـــ ولكن لمن تحدث بها ؟ أليس لي ولك ؟

ـــ بل لبورفير أيضاً .

ـــ وماذا في الامر إذا تحدث به لبورفير ؟

ـــ على فكرة هل لك بعض التـأثير على الام والاخت ؟ إنني أفضل أن تكونا متحفظتين في الحديث معه اليوم ؟

فاجاب رازوميخين بشيء من التردد :

ـــ سيكون كل شيء على ما يرام .

ـــ لست أدري ما الذي يحفظه ضد لوجين ، السيد ذي الغنى! يبدو أنه يروق في عيني الفتاة . خصوصاً وانها لا تمتلكان نقيراً أم لا ؟ أليس كذلك ؟

هتف رازوميخين بصوت غاضب منفعل :

ـ هل يهمك هذا الامر ؟ كيف أعرف اذا كانت تملكان نقيراً أم لا ؟ سلها إذا شئت معرفة ذلك ...

ـ كم تبدو سخيفاً أحياناً !.. لا شك أنك متألم في عواطفك . الى اللقـاء . اشكر عني راسكوفي بافلونا لحسن وفادتها ، لانني ألقيت عليها تحية الصبـاح

من وراء باب حجرتها إذ أنها كانت متحجبة فيها رغم أنهـا كانت مستيقظة منـذ الساعة السابعة لكنها لم « تتنازل » بالظهور !..

كانت الساعة التاسعة تماماً حين دخـل رازوميخين بنـاء باكاليبف وكانت السيدتان بانتظاره على أحر من الجمر فقد نهضتا قبل الساعة السابعة ولبثتابانتظاره قلقتين . دخل عليهما مربد الوجه وحياهما بارتباك . الأمر الذي جعله بعد لحظات يلوم نفسه ويتهمها بأنف حماقة لأنه ما كان ينتظر اللقـاء الذي حصـل : فقد هرعت اليه بولشيري الكسندروفنا وأمسكت بيديه الاثنتين في يديها ولولا قليل لأكبت عليهما تقبلهما بينما لظار ـ هو ـ الى آدفونيا رومانوفنا بخجل وخوف فرأى على ذلك الوجه المعتز علامات من الصداقةوالاعتراف بالجميل والاحترام العميق حتى أنه ذهل تماماً وفوجىء بمالم يكن يتوقعه . كان ينتظر أن يكون هـدفاً لنظرات السخرية والاشمئزاز الواضحة والتي كان قد أعد نفسه لاحتمالهـا نظراً لشدة خجله ، غير أن مواضيع الحديث كانت كثيرة حتى أنه نسي خجله وحنـقه على نفسه وعاد على سجيته .

علمت بولشيري الكسندروفنا من رازوميخين بأن ابنها لم ينهض من نومه بعد وان كل شيء كان على مايرام . فأعربت عن ارتياحها للنبأ لأنها كانت في حاجـة قصوى ، حاجة ملحة للبحث مع رازوميخين حول هذا الموضوع . وفجأة أثيرت مسألة الافطار وعرف من ذلك أن تينك السيدتين قد انتظرتاه حتى تلك الساعة ليشاركها الطعام ، ولما قرعت آفدونيا رومانوفنا الجرس مثل أمامها خادم قـذر فأوصته بتحضير الشاي . وكما قدمه كان من القذارة بحيث يثير التقزز حتى أن السيدتين اشمأزتا منـه وأثار ذلك حفيظة رازوميخين فراح يحتج بشدة على تلك المعاملة في ذلك المسكن المؤثث غير أنه لما تذكر لوجـين صمت مكرهاً وشعر بارتباك حتى أنه تنفس الصعداء حينما هاجمتـه بولشيري الكشندروفنا بسيل

لاجارف من اسئلة .

لبث رازوميخين يتحدث ثلاثة أرباع الساعة مجيباً على أسئلة السيدة واستفساراتها ووفق ـ استناداً إلى المعلومات التي يعرفها ـ في أن يسرد على أمه وأخته الوقائع الرئيسية المهمة التي تتعلق بحياة روديون منذ عام مضى . ثم أنهى حديثه بسرد تفاصيل مرضه الاخير وغني عن الذكر أنه أغفل عامداً عدداً من الوقائع التي أعتبرها غير ذات موضوع ومنها حادثة دائرة البوليس وأسباب الاستدعاء وماتم بعدئذ . وكانت السيدتان مصغيتين اليه باقبال وتلهف حتى أنه عندما انتهى من حديثه أخطأ عندما ظن أنها قد أروي غليلها لأنه بدا عليها أن استجوابها له لمّا يبدأ بعد !

قالت بولشيري الكسندروفنا بلهفة :

ــ قل لي ... قل لي ، ماذا تفكر يا ... آه عفواً فلست أعرف اسمك حتى الآن !

ــ دميتري بروكوفيتش !

ــ حسناً يادميتري بروكوفيتش أريد أن أعرف كيف ينظر الآن إلى الامور بصورة عامة ؟ أقصد وأرجو أن تفهمني ماالعمل لأفسر لك السؤال أو لأحسن التعبير ... أقصد ماذا يحب وماذا يكره ؟ هل هو دائماً سريع الغضب ؟ ماهي رغائبه بل إذا أردت القول ماهي أحلامه إذا أمكنني طرح مثل هذا السؤال.ماهو العامل الذي يؤثرعليه تأثيراً خاصاً؟وباختصار أريد أن أعرف ..

نقاطعتها دونيا ملاحظة :

ــ آه ياأمي الصغيرة ، كيف يمكن الجواب على هذه الأسئلة دفعةواحدة ؟

ــ رباه ! ذلك لأنني ما كنت أنتظر أن أراه على هذه الصورة ... كلا أبداً ما كنت أنتظر ذلك يادميتري بروكوفيتش .

فأجاب رازوميخين :

ــ إن ذلك طبيعي ولا شك ! أنا شخصياً لم تعد لي أم بل عم يأتي لزيارتي كل عام وفي كل مرة لا يتوصل إلى معرفتي حتى ولا معرفة ظواهري ، مع ذلك فهو رجل ذكي . وأنب قد فارقت روديون منذ ثلاث سنوات وقد مرت خلالها مياه كثيرة تحت الجسور ! ماذا أقول لك ! إنني أعرف روديون منذ ثمانية عشر شهراً . إنه كئيب شرس متعجرف متكبر . ومنذ هذه الأيام الاخيرة ــ ولعله من قبل أيضاً ــ أصبح كثير الظنون كثير الهواجس . إنه كبير النفس طيب القلب . إنه لايحب التصريح بعواطفه واحساساته بل قد يرتكب أية حماقة أو أي عمل خبيث إذا كان ينجيه الافضاء بمشاعره . مع ذلك فانه ليس دائماً مهووساً لكنه بارد الطبع عديم الاحساس أحياناً لدرجة التجرد عن انسانيته حتى ليقال أن في جسده عقليتين متناقضتين تظهران على التوالي فهو أحياناً شديد الصمت والانطواء فترينه يبرم بأي شيء يزعج خلوته رغم أنه يكون خلال تلك الخلوة مستلقياً فقط ولا شيء غير ذلك ! وهو لا يميل الدعابة ليس بسبب افتقاره الى البديهة بل يبدو عليه أن وقته لايتسع لمثل هذه « الحماقات » وهو لايصغي أبداً إلى مايقال له حتى النهاية . إنه أحياناً يعزف عن أشياء تبدو شديدة الاهمية بل وتثير اهتمام كل الناس . إنه شديد الاعتداد بنفسه وأعتقد أنه على حق في ذلك الاعتداد . ثم ماذا بعد ؟.. أعتقد أن مجيئكما سوف يكون ذا تأثير ايجابي يسهل شفاءه !

هتفت بولشيري الكسندروفنا التي كانت تشعر بإيلام عنيف إثر تلك المعلومات التي راح رازوميخين يسردها على مسامعها .

ــ يا إلهي ... إن شاء الله سيشفيه وجودنا !

وأخيراً وجد رازوميخين في نفسه الشجاعة لينظر بصراحة إلى وجه

افدوتيارومانوفنا . كان ينظر اليها خلال حديثه نظرات سريعة خاطفة ثم يرتد طرفه اليه . كانت تجلس حيناً الى المائدة مصغية اليه بانتباه ثم تعود حيناً آخر الى ذرع الغرفة على جري عادتها وهي عاقدة ذراعيها متقلصة الشفتين ، ملقية بين فينة وفينة سؤالاً دون أن تتوقف أو أن تنقطع عن التفكير كان من عادتها هي الاخرى أن تصغي الى ما يقال لها حتى النهاية ! ...

كانت مرتدية ثوباً خفيفاً وقد عقدت حول عنقها منديلاً أبيض من قماش شفاف . وقد أتيح لرازوميخين أن يلحظ أن تينك السيدتين تعيشان في فقر مدقع بدلالة عديد من الشواهد ! ولو أن أفدونيارومانوفنا كانت رافلة بثياب الملكات لما أقلقه ذلك او أفزعه أما الآن فقد داهم قلبه خوف حقيقي لعل سببه راجع الى أنها كانت مكتسبة ثياباً تدل على فقرها الشديد وأنه قد فهم حقيقة حالها . لذلك فقد كان يخاف أتفه عباراته ويهاب أصغر حركاته الأمر الذي زاده ارتباكاً وهو الذي لم يكن واثقاً من نفسه .

قالت أفدونيارومانوفنا باسمة :

ـ لقد أطلعتنا على عدد من التفاصيل المثيرة المتعلقة بعقلية أخي ولقد تحدثت بنزاهة . حسناً ... كنت أظن أنك حائر في فهمه !.

ثم أضافت بعد شيء من التردد :

ـ أعتقد أن ينبغي أن تكون حوله إمرأة ما ! ...

ـ أنا لم أقل ذلك لكن ليس من المستبعد أن تكوني على صواب لولا ...

ـ لولا ماذا ؟

فأجاب رازوميخين بلهجة حاسمة :

ـ لولا أنه لا يحب احداً ولعله لن يحب أحداً أبداً .

ـ أيكون عاجزاً عن الشعور بالحب ؟

فأجابها فجأة دون ترو :

ـ هل تعرفين ياأفدونيارومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبهاً مخيفاً في كل شيء ؟ غير أنه تذكر فجأة ما قاله عن أخيها واحمر وجهه واضطرب بينما لم تتمالك أفدونيارومانوفنا عن الضحك وهي تنظر اليه . وقالت بولشيري الكسندروفنا منزعجة بعض الشيء .

ـ قد تكونا كلاكما مخطئين في حق روديا . أنا لا أتكلم عن الحاضر يادونيا ... إنما كتب بيربيتروفيتش فيهذهالرسالة وما اعتبرنا ـ أنت وأنا ـ أنه قدلايكون حقيقياً لن تستطيع ان تتصوريا « دميتري بروكوفيتش » كم هو غريب أو ماذا أقول : مفرط في الشطط ! إنني لم أستطيع أبداًأناطمئن الىعقليته منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره ولا زلت أعتقد أنه قادر على المغامرة بما لايخطر على بال أي آخر من الناس . لن أذهب بعيداً في البحث ... أتدري أنه منذ منذ ثمانية عشر شهراً سبب لي عذاباً وألماً كادا أن يوديا لي عندما قرر الزواج من تلك الامرأة ما اسمها ؟ ... إبنة تلك الـ : زارنيستين صاحبة البناء الذي يقطن فيه ؟

وسألته أفدنيارومانوفنا :

ـ هل لديك تفاصيل عن هذه القضية ؟

بينما تابعت بولشيري ألكسندروفنا تقول :

ـ أتعتقد أنه كان سيحد من دموعي وتوسلاتي ومرضي بل ولعل من فولي جافزاً برجعة عن عزمه ؟ وأن بؤسنا كان سيؤثر فيه ؟ كان قميناً بتخطي كل العقبات كأهدأ ما يكون يكون المرء . لكن هل من الممكن أن يكون لايحبنا ؟

فأجاب رازوميخين بتحفظ :

ـ لم يحدثني أبداً بشيء عن هذه القضية . غير أنني سمعت نتفاً من مدام

زارنيستين نفسها التي تعتبر كذلك ميالة للصمت وما علمته في الحقيقة من اعتبار الأمر على شيء من الغرابة !

فسألتنا معاً :

— حسناً ... ماذا علمت ؟

— إن ما علمته ليس مهماً . أنا أعرف ان السيدة « زارنيستين » كانت غير راضية عن هذا الزواج الذي كان أمراً مفروغاً منه لولا أن موت الخطيبة وحده وقف دون تنفيذه ومن جهة اخرى كان يقال أن العروس المنتظرة لم تكن على شيء من الجمال بل أنها كانت كما يؤكدون قبيحة وعليله ومضحكة غريبة لكنها لم تكن عديمة المزايا محرومة من المواهب وإلا فان ذلك العزم يكون غير مفهوم خصوصاً وإنها لم تكن تملك بائنة رغم أن « زوريون » ليس ممن يعلقون أهمية على البائنة . أما كيف تم الاتفاق على ذلك الزواج فان من العسير الحكم عليه ...

فقالت « افدونياروما نوفنا » ملاحظة :

— أنا قانعة بان تلك الفتاة كانت ذات أهلية وميزات !

واعقبت بولشيري الكسندروفنا مقررة :

— ليغفر لي الله . لكنني سررت لموتها دون أن أعرف أيها كان سيكون أكثر إيلاماً للآخر لو تم ذلك الزواج !

ثم راحت تسأل رازوميخين عن الحادث الذي وقع بين روديا ولوجين أمس وكانت لاتفتأ تصوب الى دونيا لظرات خفية ولا تخلو من تحفظ الأمر الذي أزعج هذه ازعاجاً واضحاً .

كان يبدو أن تلك الحادثة تشغل بالها أكثر من كل شيء حتى أنها كانت ترعبها وتجعلها تقشعر لهولها . فعاد رازوميخين يسرد عليها القصة بحذافيرها ولكنه أضاف اليها رأيه الشخصي فاتهم راسكولنيكوف بصراحة بأنه أهان بيتروفيتش

اهانة مبيتة ولم يلح كثيراً على تبرير فعلته بواقع المرض وقال :

ـ لقد هيأ الأمر قبل أن يسقط فريسة المرض !

فقالت بولشيري الكسندروفنا بصوت خافت وقد أدهشها أن يعبر رازوميخين هذه عن رأيه حيال بيربيتروفيتش بمثل تلك العبارات المتزنه التي يشوبها لون من الاحترام كما أدهش أفدونياروما نوفنا نفسها :

ـ وأنا أظن ذلك أيضاً .

ثم أردفت دون أن تستطيع كتم دهشتها :

ـ ذلك إذاً هو رأيك عن بيربيترفيتش !

ـ فأجاب رازوميخين بلهجة قوية متحمسة :

ـ لاأستطيع أن أكون رأياً آخر عن الزواج المقبل لابنتك . ألا إنني لاأتحدث بمثل هذا الكلام عن تأدب رخيص بل لأنني . . . لأن . . . ماذا أقول ؟ ... يكفي أن أفدونياروما نوفنا قد وقع اختيارها على هـذا الرجل . . . اذا كنت قـــد حططت من قيمته أمس فلأنني كنت ثملاً بشكل كريه وكنت كذلك فاقد العقل ... نعم كنت فاقد العقل ... كنت مجنوناً تماماً واليوم أنا في خجل شديد !

واحمر وجهه خجلاً وصمت وكذلك كان شأن أفدونياروما نوفنا ولكنها لم تقطع حبل الصمت . فقد لبثت صامتة لاتنطق بكلمة واحدة منذ أن بحث في أمر لوجين !

وكانت بولشيري الكسندروفنا في حالة من التردد الظاهر بعد إن فقدت سندهـا حيال قضية لوجين . وأخيراً صرحت بعد تردد دون أن تنقطع عن ارسال نظرات مستفسرة الى ابنتها ، بأنها في تلك اللحظة مشغولة الفكر بحادثة هامة جداً وشرعت تقول :

ـــ اصغ يا دميتري بروكوفيتش ... سأكون صريحة تماماً مع دميتري بروكوفيتش أليس كذلك يا دونيا ؟

فقالت أفدوتيا رومانوفنا بلهجة القانعة :

ـــ طبعاً يا أماه !

فبادرت بولشيري الكسندروفنا تقول وكأن حملاً ثقيلا سيزاح عن صدرها بعد اطلاع رازوميخين على احزانها :

ـــ هذا هو موجز الأمر : لقد تلقينا اليوم في ساعة مبكرة كلمة من بيير بيتروفيتش جواباً على إخطارنا إياه بوصولنا . إعلم أنــه كان عليه أن يحضر الى المحطة ليستقبلنا كما وعد . لكنه بدلاً من حضوره بالذات أرسل لنا خادماً ومعه عنوان هذا المسكن ليدلنا على الطريق أما هو ـ بيير بيتروفيتش ـ فقد أبلغنا على لسان الخادم أنه سيزورنا اليوم صباحاً . وبدلاً من مجيئه ، وصلتنا كلمة منه منه هذا الصباح ... خذ ... من الافضل أن تقرأها بنفسك . إن فيها نقطة تشغل بالي كثيراً وسوف ترى بنفسك تلك النقطة و ... قل لي بصراحة يا دميتري بروكوفيتش ، إنك تعرف عقلية روديا أكثر من أي كان وتستطيع على ذلك أن تسدينا النصح أكثر من أي كان . إنني أخطرك بان دونيا قد اتخذت قرارتها منذ اللحظة الاولى لكنني لست أدري إلى أي صف يجب أن أنحاز وقد كنت أنتظرك !

فض رازوميخين الرسالة المؤرخة في اليوم السابق وقرأ فيها ما يأتي :

« حضرة السيدة بولشيري الكسندروفنا العزيزة ، لي الشرف بأن أعلم حضرتكم بأنه على أثر موانع غير متوقعة ، استحال علي الذهاب للقياكم عند هبوطكم المدينة لذلك فقد أرسلت لهذه الغاية رجلاً حاذقاً وأراني كذلك محروماً من شرف زيارتكم غداً صباحاً بسبب أعمال مستعجلة تستوجب وجودي

في مجلس الشيوخ ولكي لاأقلق خاوتكم العائلية مع إبنكم وخلوة افدوتيا رومانوفنا مع أخيها . وسيكون لي غداً مساء في تمام الساعة الثامنة شرف زيارتكم والمثول لتقديم احترامي وتمنياتي لكم في مسكنكم . وبهذه المناسبة أسمح لنفسي أن أتوجه إليكم برجاء بل وأقول برجاء حار وهو أن لا يكون روديون رومانوفيتش حاضراً اجتماعنا المشترك نظراً لأنه أهانني بشكل خشن ودون مسببات خلال الزيارة التي قمت بها اليه أثناء مرضه وأنه عندي ـ علاوة على ذلك ـ ما أتباحث به معكم حول موضوع معين أرغب معرفة تفسيركم الشخصي له . ولي الشرف بان أخطركم سلفاً بانه إذا حصل ـ رغم طلبي ـ وقابلت روديون رومانوفيتش فانني سأجـــد نفسي مضطراً للانسحاب فوراً وسيكون لكم شأنكم ! إنني اكتب هذا تلافياً لاحتمال وجوده لأن رديون رومانوفيتش الذي كاد يبـدو مريضاً عند زيارتي له والذي استعاد صحته بعد ساعتين من ذلك ، يمكنه والحـالة هذه ـ طالمـا أنه خرج من حجرته ـ أن يأتي لزيارتكم . ولقد تأكد لي خروجـه شخصياً فقـد شهدته في مسكن أحد السكارى الذي دهسته خيول عربة فمات على أثر ذلك وقد أعطى إبنة ذلك الثمل ـ وهي فتاة مشهود لها بسوء الاخلاق في كل الاوساط ـ خمسة وعشرين روبلاً بحجة دفع تكاليف المأتم الأمر الذي أدهشني جداً لعلمي بما كابدتم من عناء حتى جمعت ذلك المبلغ ... وعلى هـذا ، ومع اعرابي عن ميلي الخـاص نحو المحترمة أفدوتيا رومانوفنا ، ارجوكم أن تتقبلوا توكيدات اخلاصي واحترامي العميق .

خادمكم المتواضع

« ب . لوجين »

ولما فرغ من تلاوتها سألته بولشيري الكسندروفنا وهي على وشك البكاء :

ـ ماذا أعمل الآن يا دميتري بزوكوفيتش ؟ ما العمل ؟ كيف أستطيع أن

أطلب الى روديا التخلف عن الحضور ؟ لقد كان البارحــــة يلح بقوة على فسخ الخطوبة وها أنه يُطلب إليّ اليوم أن لا أستقبل ابني ! ولسوف يحضر عامداً اذا بلغه الامر ... فماذا سيحدث عندئذ ؟

فاجاب رازوميخين بهدوء :

ـــ إعملي بما قررته أفدوتيا رومانوفنا !

ـــ رباه ! إنها تقول ... الله أعلم بكل ما تقوله دون أن تفسر لي نواياهــا ... بحسب قولها إنه أجدى ، كلا ليس أنه أجدى بل انه ينبغي حتمــاً أن يأتي روديا هذا المساء في الساعة الثامنة وأن يلتقيا كلاهما !... أما أنا فلم أرغب في اطلاعه على هذه الرسالة ، كنت أفضل أن أستعمل اللباقة والاستعانة بك لمنعه عن الحضور . لأنه ســريع الغضب ... ثم أنني لست أفهم مـــــاذا يعني بذلك « السكير الميت » ولا أدري عن أية فتاة يبحث ولا كيف أعطى تلك الفتاة كل ماله الذي ...

فاضافت أفدوتيا رومانوفنا متمتمةً !

ـــ الذي سبب لك تدبيره منتهى العناء يا أماه !

فاجاب رازوميخين بصوت حالم :

ـــ لم يكن البارحة متمالكاً نفسه ! لو أنك علمت « اللعبة » التي شرع فيهــا البارحة في أحد المشارب رغم أنه انتهى منها على خير ما يرام ... هم !... لقـــد حدثني مساء البارحة بينما كنا عائدين الى داره عن ثمل ميت وعن فتاة ... لكنني لم افهم شيئاً من حديثه . والحقيقة أنني كنت البارحة ...

ـــ الأفضل يا أماه أن تذهبي بنفسك اليه ! وهناك أؤكدلك سنرى على الفور ماذا ينبغي أن نعمل .

ثم ألقت نظرة على ساعة ذهبية جميلة ذات ميناء لامع معلقة الى سلسلة دقيقة من الذهب من صنع « فينا » تحيط بعنقها ، وهتفت :

ــ رباه ! لقد أزف الوقت ... انها قد تجاوزت العاشرة .

قدر رازوميخين في سره أن تلك الساعة قد تكون « هدية الخطوبة » لانها كانت على تناقض فظيع مع الثياب والزينة !

وهتفت بولشيري الكسندروفنا بروع :

ــ آه ... لقد أزف الوقت ...لقد أزف الوقت ! سوف يظن أننا غاضبتان منذ أمس ! اذا وجد أننا لم نصل بعد ! آه يا الهي !

كانت قد أخذت « لفحتها » الطويلة فألقتها على كتفيهـا ووضعت قبعتها على رأسها متعجلة بينما كانت دونيا تعد نفسها كذلك . كانت قفازاتها القديمة مثقوبة ولاحظ رازوميخين ذلك . غير أن الفقر البين الذي كان يبدو على ثيابها كان يعطيها طابعاً خاصاً من الكرامة كما يحدث غالباً لأولئك الذين يعرفون كيف يلبسون الثياب الرخيصة . كان رازوميخين يشمل دونيا بنظرة إعجـاب ويحس بالكبرياء لمجرد تفكيره في مرافقة تلك الفتاة . كان يفكر : « ان هذه الملكة التي اضطرت الى رتق جوربها في سجنها لا تبدو أقل روعة وعظمة منها في أجمل أيام مجدها وتتويجها ! » .

هتفت بولشيري الكسندروفنا :

ــ رباه ... هل كان يخطر لي ببال أبداً أن أتهيب لقاء ولدي وعزيزي الأعز روديا كما اتهيب في هذه اللحظة ؟ إنني خائفة يادميتري بروكوفيتش !

فقالت الفتاة وهي تعانقها :

ــ لا تخشي شيئاً يا أماه ؛ أتـكلي عليه ! إنني أثق به أنا !

فصاحت المسكينة ملتاعة :

ــ رباه ! وأنا أيضاً اثق به مع ذلك فانني لم أنم الليل كله !

وخرج ثلاثتهم من المنزل ! وتابعت الأم :

ـــ اتعرفين يا دونيا أنني ما كدت أغمض عيني هذا الصباح حتى حلمت بجأة « بمارت بيتروفنا » ! كانت مرتدية ثياباً بيضاء من رأسها الى قدميها وقـد اقتربت مني وأخذت بيدي وراحت تهز رأسها وهي ترمقني بنظرات صارمة كما لو كانت توجه إلي لوماً ... هل هو فـأل خير ؟ آه يا الهي يا دميتري بروكوفيتش إنك لا تعرف بعد أن « مارت بيتروفنا » قد ماتت !

ـــ كلا ... لم أكن أعرف ذلك ! من هي مارت بيتروفنا ؟

ـــ لقد ماتت بجأة ... وتصور أن ...

فقاطعتها دونيا قائلة :

ـــ فيما بعد يا أماه ! إنه لا يعرف من هي تلك الـ : مارت بيتروفنا !

ـــ آه ! انك لا تعرفها ... كنت أظن أنك على علم بسياق الأمر .. اعذرني يا دميتري بروكوفيتش إن عقلي في هذين اليومين مضطرب تماماً ! حقيقة إنني أعتبرك ملكاً سماوياً أرسل لمساعدتنا ! ولهذا السبب عملت على أن تطلع على كل مشاكلنا ... إنني أعتبرك كواحد من الاسرة فلا تنزعج اذا كنت أتكلم هكذا. رباه ! ماذا أصاب يدك اليمنى ؟ انها مجروحة !

فاجاب رازوميخين وهي يشعر بالسعادة تغمره :

ـــ نعم ... لقد تسببت لها بهذا الألم !

ـــ إنني أتحدث بصراحة أكثر من المعتاد حتى أن دونيا تنبهني أحياناً ... لكن يا إلهي ... أي حجر هذا يقطن فيه ! هل مستيقظ الآن ؟ وهذه الامرأة ، صاحبة مسكنه تعتبر ذلك حجرة ! إسمع ... إنـك تقول بأنـه لا يحب الافصاح عن مشاعره ولعلني أزعجه بضعفي وتلهفي . ألا تبين لي يا دميتري بروكوفيتش السبيل الذي أسلكه حياله ؟ كيف أعامله ؟ أنت تدري بأنني أسير كالضائعة !

ـــ لا تكثري عليه بالاسئلة اذ رأيته يقطب حاجبيه ! وعلى الاخص لاتسأليه كثيراً عن صحته إن ذلك يؤذيه !

ـــ آه يا دميتري بروكوفيتش ! ان مركز الام عسير جداً ! ها وقد وصلنا الى هذا السلم ... السلم الرهيب !

فقالت دونيا وهي تلاطف أمها وفي عينيها بريق يضيء وجهها !

ـــ أماه انك شاحبه ، هدئي نفسك يا عزيزتي ... إنها لسعادة بالنسبة اليه أن يراك مع ذلك فانك تعذبين نفسك !

وقال رازوميخين :

ـــ سأرى أولاً اذا كان قد استيقظ !

راحت السيدتان تصعدان بهدوء ورازوميخين في المقدمة حتى اذا بلغوا المشى الذي تطل عليه شقة صاحبة البناء لاحظتا أن بابها موارب وأن عينين سوداويين لامعتين ترقبانها في الظلام . فلما التقت النظرات ، اغلق الباب بعنف شديد حتى أن بولشيري الكسندروفنا كادت أن تلقي صيحة رعب !

الفَصلُ الثّالِثُ

هتف زوسيموف بمرح وهو يرى السيدتين :

— إنه على ما يرام ... على ما يرام !

كان زوسيموف جالساً في المكان الذي جلس فيه أمس : على ركن الديوان، بينما كان راسكولنيكوف جالساً على الركن الآخر قبالته ، في كامل ثيابه وقد اغتسل ورجل شعره بعناية الأمر الذي لم يشرع بمثله منذ زمن بعيد ! وامتلأت الحجرة فجأة فاستطوعت ناستاسيا أن تتسلل في أثر السيدتين فلبثت هناك لتصغي الى الحديث . كان راسكو لنيكوف في حالة حسنة إذا قورنت بحالته أمس — لكنه كان شاحباً جداً تكسو وجهه مسحة من العبوس والشرور حتى يخيل الى من يراه لأول وهلة أنه جريح عاني منذ حين ألماً جسمانياً عنيفاً . كان شعره منتصباً وشفتاه متقلصتين ونظراته ملتهبة . وبدا قليل الكلام عبوساً وكأنه يعتزم مرغماً أداء دوراً أسند اليه ... وكان لون من الاكتئاب يرافق أحياناً حركاته فلم يكن ينقصه في حالته تلك إلا عصابة تحيط بذراعه أو رباط من « التافتا » على اصبعه ايتم له التشابه مع رجل مصاب« بدحاس » مؤلم جداً أو بجرح في يده أو أي شيء من هذا القبيل .

أضاء وجهه العبوس الشاحب لحظة لدى دخول أمه وأخته فاضاف ذلك الضياء على وجهه مسحة من الألم تركزت في الشرور الكئيب الذي كان يلاحظ بوضوح على محياه ! لكن البريق ما لبث ان خبا فوراً وبقي الألم وحده حيث كان . ولاحظ زوسيموف الذي كان يسهر على مريضه بانتباه عظيم لايستطيعه الا الطبيبُ الشاب،

ان لوناً من العزم الخفي الشاق ارتسم في عيني المريض لدى دخول أمـــــه وأخته وكأنه مقدم على احتمال عذاب جديد ، بدلاً من الابتهاج الذي كان ينبغي أن يشعر به عادة في مثل تلك الحال .

كذلك لاحظ أثناء الحديث الذي تبودل بين المريض وذويه أن كل كلمـــــة كانت كفيلة بإثارته ونكء جراحـه . لكنه دهش بذات الوقت لرؤيته مريضه مسيطراً على اعصابه ضابطاً عواطفه بينما كان بالأمس – وهو المريض بالهوس – على استعداد طيب للانفعال والغضب لأتفه كلمة !

قال راسكولنيكوف وهو يعانق أمه وأخته بود – الأمر الذي تهللت له أسارير بولشيري الكسندروفيا – :

— نعم ... إنني اشعر الآن بأنني شفيت تقريباً ولست أقول هذا « كأمس » .

ونظر الى رازوميخين وحياه بأن ضغط على يده بحرارة قلبية !

شرع زوسيموف يقول وقـــد أرضاه وصول الزائرين لأنه خـلال الدقائق العشرة الفائته استنفذ كل الموضوعات التي يمكنه أن يتحدث بهـا الى المريض :

— لقد دهشت بنفسي عندما وجدته على هذا الحال واذا استمر الامر كذلك أربعة أيام أخرى فسيعود تماماً الى سابق عهده كما كان منذ شهر أو اثنين أو ثلاثة أشهر أيضاً . لأن هذا المرض الذي يعاني منه، كان كامناً فيه منذ زمن بعيد !

ثم اضاف مبتسماً ابتسامة متحفظة كما لو كان يخشى اثارة المريض :

— ألا توافقني على أنك ساهمت في زيادة مرضك بخطئك ؟

فأجاب راسكولنيكوف ببرود :

— يجوز أن يكون كذلك !

وتابع زوسيموف حديثه فقال :

ـــ أقول ذلك لأن شفاءك حالياً بات الجانب الاوفى منـه متوقفاً على تصرفك الشخصي . وبما ان الحديث قد اصبح ممكناً معك الآن فانني أود ان الفت نظرك الى ضرورة معاينة الاسباب المبدئية أو على الاصح الاسباب الموجبـة التي سببت حالتك المرضية وعندئذ ستشفي وإلا فان المرض سيكون باطراد وازدياد! أما هي تلك الاسباب الأولية فذالك ما أجهله لكنك تعرفها تمامــــاً . ولا أشك ـ وأنت الذكي ـ في أنك لاحظت نفسك ودرست حالتك . وانني أظن بأن بداية مرضك تتفق مع خروجك من الجامعة لذلك لايجب أن تظل دون عمل يشغلك وسيكون للعمل الذي يهدف الى غاية معينة موضوعة شأن بعيد في شفائك .

ـــ نعم ... نعم ... إنك على حق تماماً ... ولسوف أعود بأسرع ما يمكن الى الجامعة وعندئذ يسير كل شيء على ما يرام تماماً كما لو كان على عجلات ...!

كان زوسيموف يهدف من وراء القاء ذلك النصح الحكيم الى احداث بعض الأثر في نفس السيدتين . لذلك فانه دهش حينما لاحظ على وجـــــه محدثه عندما رفـــــع بصره اليه لوناً من السخرية الواضحة لم يدم الا لحظة ! . أما بولشيري الكسندروفنا فقد راحت تشكر زوسيموف بصورة خاصة على زيارته التي قام بها الى مسكنها مساء أمس ، فسأل راسكولنيكوف مكتئباً .

هل ذهبت اليكما البارحة ؟ انكما اذاً لم تناما رغم سفركما الطويل !

ـــ آه يارروديا ... لقد وقع كل ذلك قبل الساعـة الثانية واننا ـ دونيا وأنا ـ لاننام قبل هذه الساعة من كل ليلة .

فأردف راسكولنيكوف وقد عاد فجأة الى عبوسه واطرق برأسه الى الارض:

ـــ وانا ايضاً لست ادري كيف اشكرك . لأننا اذا اسقطنا من حسابنـــا قضية الأجر ـ واسمح لي ان الح الى هذا ـ فانني لست ادري كيف استحق كل

هذه العناية من جانبك ... في الحقيقة إنني لاافهم بل وانه ليؤلمني ان اجهل سبب هذه العناية لذلك تراني احدثك بصراحة !

فاجاب زوسيموف بابتسامة مغتصبة :

ـ هيا ... لاتثر نفسك ! لك أن تفترض أنك أول عميل من عملائي ! ثم إن الطبيب لما يكون في بدء حياته العملية فانه « يدلل »زبائنه الاول وكأنهم أبناؤه بل أنه قد يعجب أحياناً بأحدهم وأنا كما تعلم لم تفسدني كثرة الزبائن !

ـ كذلك أتحدث عن هذا ـ وأشار برأسه الى رازوميخين ـ رغم أنه لم يلق مني إلا المشاكل والسباب !

فهتف رازوميخين قائلا :

ـ لعمري إنها حماقات جديدة ! أرى أنك اليوم ترزح تحت عبء الاحساسات العاطفية !

ولو أن رازوميخين كان أكثر دقة وحذقــاً لعرف أن صديقه لم يكن أبداً تحت تأثير الاحاسيس العاطفية بل على العكس . غير أن هـذه الملاحظة التي غابت عنـه لم تفلت من « أفدوتيا رومانوفنـا » التي كانت ترقب أخـاها بقلق !

أردف راسكو لنيكوف وكأنه يستظهر درساً حفظه ذلك الصباح :

ـ إنني لا أكاد أجرأ على التحدث عنك يا أماه ! لقد فهمت اليوم مبلغ العذاب الذي سببته لك بانتظار عودتي .

ومد يده فجأة الى اخته بسكون دون أن ينطق بحرف واحـــد . وكانت ابتسامته في تلك اللحظة معبرة عن شعور مخلص . فبادرت دونيا الى يد أخيها الممدودة وضغطت عليها بحرارة وسرور واعتراف بالجميل . كانت تلك المرة الاولى

التي توجه بها الى اخته بالحديث منذ تنافرهما امس . فطفح وجه الام بالسعادةوهي ترى ذلك الوفاق الصامت النهائي بين الاخت وأخيها .

وهمس رازوميخين وهو يتحرك بعنف على مقعده وكله استعداد للاسترسال :

ـ آه ! هذا ما أحبه فيه ! إن لديه من هذه الحركات المؤلسة ...!

بينما كانت الأم تناجي نفسها قائلة :

ـ ويالها من حركة موفقة جميلة ! ياله من تصرف نبيل ! إنه بذلك قد وضع بلباقة حداً لسوء التفاهم الذي نشب بينه وبين اخته بتلك اليد التي مدها إليها في هذه اللحظة ! ولقد نظر اليها محدقاً ... يا لهما من عينين جميلتين ... بل كم أن وجهه جميل ! إنه أفضل من دونيـا في مجموع شخصه ! لكن يا الهي ... يا له من ثوب ذلك الذي يرتديه ! إنه بشع ... إن أجير أتاناس ايفانوفيتش أحسن ثيابـا منه ! آه ... كم أتوق الى الارتماء على عنقه وتقبيله والبكاء من الفرح ! لكنني أخاف ... إنه مختلف تماماً عما عهدته ... رباه ! مع ذلك فهو يتكلم بحنان لكنني خائفة ! رباه لم أنا خائفة !

وفجأة هتفت تجيب على ملاحظة ابنها :

ـ آه يا روديا ! لا يمكن أن تتصور حالنا أنا ودونيا ! كنا تعيستين ! أمـا الآن وقد انتهى كل شيء وانتهى تماماً وعدنا سعداء من جديد فانني استطيع أن أحدثك بالخبر ! تصور أننا فور مبارحتنا للحافلة هرعنا الى هنا لنعانقك فـاذا بتلك المرأة تخبرنا ـ آه ... هذا أنت ... يا مرحباً يا ناستاسيا ـ أقول فاذا بهذه المرأة تخبرنا بانك كنت مريضاً بالحمى الساخنة وإنك قد فررت من عناية الطبيب وأنت في بحرانك وانهم يبحثون عنك في الشارع وفي كل مكان !.. لن يستطيع تصور ما سبب لنا هذا الخبر ! لقد تصورت فوراً موت الملازم الاول بوتانتشيكوف

وهو من معارفنا القدماء وعلى أصدقاء أبيك . إنـك لا تذكره يا روديا ! إن ذلك الملازم المسكين كان كذلك مصاباً بالحمى الساخنة وكان قد خرج الى الباحة حيث سقط في الجب ولم ينتشل منه إلا غداة اليوم التالي . لاشك أننا نبالغ في تصوير خطورة حالتك ! ولقد فكرنا في استدعاء بيير بيتروفيتش باسرع ما يمكن لينجدنا لأنك تعرف بأننا وحيدتان ... وحيدتان تماماً ! ..

لفظت الام هذه الاقوال بصوت منتحب ضعيف . غير أنهـا تذكرت فجأة أن موضوع بيير بيتروفيتش كان موضوعاً خطراً لا يجدر الاسترسـال فيه رغم انهم كانوا « جميعاً في تلك اللحظة بسعادة تامة » لذلك فقـد توقفت فجأة عن متابعة حديثها . بينما غمغم راسكولنيكوف مجيباً وقد علا وجهه الشرود والذهول حتى ان دونيا لظرت اليه بحيرة بالغة .

قال :

ــ نعم ... نعم ... إن ذلك كله لا يدعو للاسف ولا شك ! آه ! ماذا كنت اريد ان اقول كذلك ؟

وابدى مجهوداً كبيراً لجمع شتات ذكرياته ثم اضاف :

ــ آه ... نعم ... ارجو يا أماه وأنت يا دونيا ان لا يـذهب بكما الظن الى أنني لم اكن مصمماً على زيارتكما اليوم قبل الآخرين فتعتقـدان بانني كنت انتظر مجيئكما اولاً ..

فهتفت بولشيريي الكسندروفنا دهشة :

ــ لتكن يا روديا ! لم تقول ذلك ؟

بينما راحت دونيا تفكر وتناجي نفسها بقولها : « هل يعتقد أنـه مرغم على الاجابة على اسئلتنا ؟ إنـه يتصنع السلام ويطلب الصفح وكأنه يقوم بسخرة او يستذكر درساً » !

وعاد راسكولنيكوف يقول :

ــ انني لم اكد استيقظ حتى عزمت على الذهاب اليكما لكن موضوع الثياب أعاقني . لأنني كنت قد نسيت أن اطلب الى ناستاسيا البارحة ان تغسل هذا الدم ... ولقد غسلته اليوم ولما اكد انتهي من ارتداء ملابسي !

سألت بولشيري الكسندروفنا مذعورة :

ــ الدم ؟ اي دم ؟

ــ لا شيء يا اماه فلا تقلقي ! إن هذا الدم جاءني البارحة بينما كنت اسير شارد الفكر وانا في بحراني اذ اصطدمت بشخص جريح .،. إنه موظف !

فقاطعه رازوميخين قائلاً :

ــ في بحرانك ؟ ولكنك تتذكر كل شيء !

فاجابه راسكو لنيكوف بصوت يتضح فيه القلق :

ــ صحيح إنني اذكر كل شيء بأدق تفاصيله . ولكن لم عملت هذا ؟ لم ذهبت الى هناك ؟ لم قلت كذا ؟ إنني لا استطيع تفسير السبب بوضوح !

فتدخل زوسيموف وقال :

ــ إن هذه الحالة معروفة تماماً . إن هذه التصرفات تنجز عادة بشكل شخصي وبراعة مدهشة اما عن سببها واما عن مبدئها فانه يبدو غريبا ويتوقف على عدد من الاحاسيس المرضية تشبه الحلم !

بينما كان راسكو لنيكوف يحدث نفسه قائلاً : «إنني لجدير إذ يعتبرونني مجنوناً او على وشك الجنون» !

والحت دونيا وهي تنظر الى الطبيب بشيء من الكآبة :

ــ ألا تكون الحال كذلك بالنسبة للاشخاص العاديين قوام صحتهم ؟

فأجابها :

ـ إن ملاحظتك لا تخلو من الدقة لأننا جميعنا تقريبا نكون غالباً مرضى بعقلنا مع الفارق الباقي بان المرضى هم اشد مرضاً منا وهذا مالا يمكن التغاضي عن ملاحظته في هذا الموضوع . ولا يمكن ايجاد رجل واحد موزون تماماً الا بين عشرات او مئـــات الالوف من الرجال . مع ذلك ليس هـــذا الواحد موجوداً دائماً .

وازاء كلمة « منحرف العقل » التي تلفظ بهـــا زوسيموف وهو يثرثر في موضوعه المفضل ، ـ وقد أفلتت منه دون روية ـ اكفهرت الوجوه . وكان راسكولنيكوف جالساً وغارقاً في تفكير عميق حتى ليبدو أنـــه لايلقي بالاً الى ما حوله وقد علت شفتيه ابتسامة غريبة باهتة . كان مستغرقاً في مناجاة نفسه !

وهتف رازوميخين مبادراً :

ـ لقد قاطعتك في حديثك ... ماذا وقع لذلك الرجل المدهوس ؟

فأجاب راسكولنيكوف وكأنه استفاق من حلم :

ـ ماذا ؟ آه نعم ! لقد ساعدت على نقله الى مسكنه فتلوثت بالدم . وعلى فنكرة يا أماه ! لقد علمت البارحة أمراً لا يُغتفر والحقيقة أنني لم اكن مالكاً لقواي العقلية ! لقد أعطيت البارحة كل المال الذي ارسلتيه إلي الى زوجتــه لتنفق على دفنه . إن المرأة المسكينة قد ترملت وهي مصدورة ولها ثلاثة أولاد صغار جياع ولا شيء في منزلهم . ولها أيضاً ابنة ... لعلك أنت بنفسك كنت ستعطين ذلك المال اليهم لو علمت بالأمر ... على كل حال لم يكن لي أي حق في أن أعمل ما عملت واني أعترف بذلك خصوصاً واني أعرف مبلغ ما احتملت من عناء لتدبير ذلك المبلغ ! إذ أنه لكي يساعد المرء آخر ينبغي قبل كل شيء أن يكون له الحق

والا : « موتوا أيها الكلاب اذا كنتم غير راضين ! »(١)

ثم ابتسم وأضاف :

ـــ أليس كذلك يادونيا ؟

فأجابت هذه بلهجة جدية :

ـــ كلا إنه ليس كذلك !

فتمتم وهو ينظر اليها بشيء من الضغينة تقريباً وقد ابتسم ابتسامة هادئة :

ـــ باه ... هاها ! أنت أيضاً ... لديك بعض النوايا ... كان يجب أن أتوقع ذلك .. حسناً ... إن ذلك يرفع من شأنك وذلك أفضل . . . وعلى هـــذا انك ستمضين في عزمك الى حد ما .. : إذا لم تتخطيه فانت تعيسة واذا تخطيتيه لعلك تصبحين بالمثل تعيسة !

ثم ثار وقد أسف أن استسلم لانفعاله وعواطفه وقال بلهجة جافة مضطربة :

ـــ كنت أريد أن أقول فقط بأني أطلب صفحك ياأماه ...

فقالت الام تغمرها السعادة :

ـــ دعك من هـــذا يارودينا أنا واثقة من أن كل ما تعمله إن هؤلاء أفضل ما يعمل !

فأجابها وهو يبتسم ابتسامة باهتة :

ـــ لاتكوني مطلقه الثقة بهذا الصدد !

واعقب ذلك صمت ... كانت المحادثة كلها واضحة الهدف كذلك الحال في ذلك التفاهم الصامت وطلب الصفح . كان الموجودون يشعرون بأن المحادثة لم تبلغ هدفها . وكان راسكولنيكوف يخاطب نفسه بقوله : « يعتقد أنهم يخـــافونني حقيقة » وينظر الى امـــه واخته نظرات مختلسة . والحقيقة أن بولشيري

---

(١) إن هذا النص موجود باللغة الفرنسية في النص الروسي .

الكسندروفنا كلما أمعنت في الصمت كلما كانت تبدو أشد خوفاً وهلعاً وخطرت له فكرة فغمغم يناجي نفسه قائلاً : « يمكن القول انني كنت أحبهم غيابياً » !

صاحت بولشيري الكسندروفنا وهي تنهض من مكانها بانفعال :

ــ هل تعرف ياروديا ؟ لقد ماتت مارت بيتروفنا !

ــ أية مارت بيتروفنا ؟

ــ آه يا الهي مارت بيتروفنا السيدة سفيدريكايلوف، لقد حدثتك عنها مطولا في رسالتي الاخيرة !

ــ آه ... آه ... نعم لقد تذكرت ... إذن لقد ماتت !

ثم اضاف بعد ان انتفض فجأة وكأنه استيقظ من غفلته :

ــ صحيح هل يعقل أن تكون ماتت ؟ مم ماتت ؟

وشجع فضوله بولشيري الكسندروفنا فقالت مسترسلة :

ــ تصور انها ماتت ميتة مفاجئة ! تماماً في ذلك اليوم الذي ارسلت لك فيه رسالتي الأخيرة ... تصور ذلك الرجل المخيف ، إنه على ما يبدو كان سبب موتها! يقال أنه كان يضربها بوحشية !

فسأل أخته قائلاً :

ـ هل كانا يعيشان هكذا ؟

ــ كلا على العكس كان يظهر ازاءها بمظهر الصبور المهذب وأحياناً كان كثير التسامح حيال عقلية زوجته . ولقد استمر هذا الحال سبع سنين ! لعله أخيراً فقد الصبر !

ـ إنه اذن لم يكن مخيفاً بهذه الصورة طالما أن الأمر دام سبع سنين ؟ يبدو يادونيا أنك تعذرينه !

ـ كلا انه شخص كريه بغيض حتى انني لاأستطيع ان أتصور مخلوقاً اكثر بغضاً منه !

نطقت دونيا بهذه الجملة وهي مضطربة ولم تلبث ان قطبت حاجبيها واستغرقت في تفكير عميق ! بينما بادرت بولشيري الكسندروفنا تتمم حديثها قائلة :

ـ لقد وقع لها ذلك في صبيحة ذلك اليوم وبعده أمرت أن تجهز عربتها لتذهب الى المدينة بعد الطعام كما كانت عادتها في مثل تلك الاحوال . ثم تناولت طعامها بشهية زائدة كما قيل !

ـ شهية زائدة بعد « علقة » ساخنة !

إنها عادة عندها ! وبعد أن انتهت من طعامها ذهبت فوراً لتأخذ حماماً كي لاتؤخر رحلتها . انك تلاحظ أنها كانت تعنى بنفسها كثيراً بالاغتسال. انلديهم نبعاً من الماء البارد كانوا يغتسلون فيه يومياً . لكنها في ذلك اليوم لم تكد تدخل في الماء حتى صعقت بالسكتة القلبية !

فقال زوسيموف :

ـ إن ذلك لايدهش مطلقاً !

ـ وهل ضربها بعنف ؟

فقالت دونيا :

ان هذا عديم الاهمية !

وفجأة قال راسكولنيكوف بعد أن تنحنح قليلاً وبدا الانفعال على صوته :

ـ هم ! ... مافائدة نقل مثل هذه الاقاصيص ؟ ...

فأجابته المسكينة ببساطة :

ـ ذلك لأنني ياعزيزي ما كنت أعرف عم أتحدث !

فقال بابتسامة عريضة :

ـ ماذا ؟ هل تخافون مني كلكم ؟ حتى أنتم !

فقالت دونيا وهي تنظر في عينيه بصرامة :

— الواقع أنه كذلك . إن أمي كانت وهي تصعد السلم لاتفتأ ترسم إشارة الصليب لشدة رعبها !

فتقلص وجه الشاب كما لو كان فريسة للتشنجات العصبية بينما تمتمت بولشيري الكسندروفنا باضطراب :

— آه.. ماذا تقولين يادونيا ؟ لاتغضب أرجوك ياروديا ! لم قلت هذا يادونيا ؟ آه ياروديا إنني وأنا في القطار في طريقي إلى هنا كنت أحدث نفسي باننا سنجد أشياء كثيرة نتحدث بها الى بعضنا عندما نلتقي . وكنت شديدة السعادة حتى أنني لم أشعر بمسافة الطريق ... إنني سعيدة الآن أيضاً ... لست على حق يادونيا ... إنني سعيدة ياروديا ومجرد رؤيتك تكفي لكي أكون سعيدة !

فغمغم مضطرباً :

— كفى يا أماه !

ودون أن ينظر اليها ضغط على يدها وقال :

— سيكون لنا الوقت لنتحدث !

لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى شحب لونه واضطرب وشعر من جديد بذلك الاحساس المريع تلك البرودة القاتلة تكتسح نفسه . وقد شعر من جديد بأنه نطق منذ حين بكذبة بشعة مخيفة ! ليس لأنه لن يجد مستقبلا مجالا للتحدث بصراحة كما قال لأنه لن يستطيع أبداً أن « يتكلم » عن أي شيء ومع أي كان ! وكان لتأثير هذه الفكرة الأليمة أثراً عنيفاً حتى أنه كاد أن ينسى نفسه تماماً . فنهض من مكانه ومضى نحو الباب دون أن ينظر إلى أحد ! فهتف رازوميخين وهو يقبض على ذراعه :

— ماذا تعمل ؟

فعاد إلى مكانه وراح ينظر حوله بسكون ! كان الجميع ينظرون اليه مأخوذين ! هتف فجأة :

— آه ... إنكم مملون جميعكم ...قولوا لي شيئاً ! لمَ تلبثون هكذا ؟ هيا تحدثوا سوف نتحدث ... لقد اجتمعنا ومع ذلك فلا نقول شيئاً ... هيا قولوا شيئاً على الأقل ...

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي ترسم إشارة الصليب على صدرها :

— حمداً لله ؟ لقد ظننت أن ماحدث البارحة سيتكرر اليوم !

وسألت آفدونيا رومانوفنا بشيء من التحفظ :

— ماذا بك يارودیا ؟

فأجاب :

— لاشيء ... لقد تذكرت حماقة ! ثم انفجر ضاحكاً فجأة !

غمغم زوسيموف بعد أن نهض واقفاً :

— حسناً إذا كانت حماقة فانها أفضل لأنني كنت على وشك الافتراض ... وعليه ... إنني يجب أن أذهب ولعلني أعود إذا وجدتك !

ثم حيا وخرج فقالت بولشيري الكسندروفنا ملاحظة :

— ياله من رجل ممتاز !

فأمن راسكولنيكوف على قولها فجأة بلهجة حماسية لم تكن معهودة فيه :

— نعم إنه رجل كريم ممتاز مثقف مهذب ذكي ! لم أعد أذكر أين قابلته قبل مرضي ... أعتقد بأنني قابلته في مكان ما ...

ثم أشار إلى رازوميخين وأضاف وهو يوجه الحديث إلى أخته مبتسماً :

— وهذا أيضاً رجل ممتاز ! هل يروق لك يادونيا ؟

فأجابت هذه :

ـ جـــداً .

فاحمر وجه رازوميخين من الخجل وهتف وهو ينهض من مكانه بانفعال :

ـ يواه !... ياللہ...

فضحكت بولشيري الكسندروفنا بهدوء بينما انفجر راسكولنيكوف بضحكة صاخبة !

ـ إلى أين تذهب يارازوميخين ؟..

ـ إنني مشغول أنا الآخر !..

ـ بل إنك غير مشغول فابق ! ألأن زوسيموف قد ذهب صار ينبغي لك أن تذهب ؟ كلا لاتذهب ! لكن كم الساعة الآن ؟ أهو الظهر ؟ .. آه ما أجمل هذه الساعة يادونيا ! لكن لم أنتم صامتون ؟ إنني وحدي أتكلم بينكم !

فقالت دونيا مشيرة إلى الساعة :

ـ إنها هدية من مارث بيتروفنا !

وأضافت بولشيري الكسندروفنا :

ـ إنها ثمينة جداً !

ـ آه ! آه ! إنها أكبر حجماً مما ينبغي أن تكون عليه ساعة سيدة !

فصرخت دونيا قائلة :

ـ إنني أحب هذا الشكل !

بينما راح رازوميخين يحدث نفسه وقد استبد به سرور لايعرف له سبباً :

ـ « إنها ليست إذن هدية من خطيبها ! »

وألمح راسكولنيكوف قائلا :

ـ كنت أعتقد أنها هدية من لوجين !

ـ كلا ... إنه لم يقدم بعد أية هدية إلى دونيا !

وقال لأمـــه فجأة بصوت ينم عن الألم والعذاب حتى أنها تأثرت للهجته تأثيراً كبيراً :

ـ آه أتذكرين ياأماه أنني كنت عاشقاً أنا الآخر وانني كنت سأتزوج !

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي تتبادل نظرة مع دونيا ورازوميخين :

ـ آه ياصديقي ! نعم اذكر !

ـ م ! ... نعم لكن ماذا كنت أقص عليكم ؟ إنني لا أذكر حتى هـذا ...

ثم استعاد لهجته الحالمة وتابع وهو مطرق الرأس بعينيه المتألمتين :

ـ كانت فتاة فريسة المرض تحب الاحسان الى المعوزين ولا تفكر الا في الدير ! وذات يوم انخرطت في البكاء وهي تتحدث عن هذه الاشياء ! نعم . نعم... انني اذكر ذلك انني اذكر تماماً ... لقد كانت تميل في شكلها الى القباحـــة . ولست أدري حقيقة لم تعلقت بها في ذلك الحين وأظن أن بسبب مرضها الدائم . حتى انني اعتقد بأنني كنت سأزداد حباً لها ولو أنها كانت عرجاء أو محـــدودبة الظهر ... ثم ابتسم ابتسامة ساهمة وأردف :

ـ ان هذا يشبه هذيان الربيع ...

فقالت دونيا بانفعال :

كلا ... ان ذلك لم يكن يشبه هذيان الربيع فحسب ...

فنظر بانتباه الى اخته متضايقاً ... لكنه لم يسمع كلماتها أو أنه لم يفهمها ... ثم نهض وهو في أعمق الشرود واقترب من امه فعانقها وعاد الى جلسته !

قالت بولشيري الكسندروفنا بحنان ! .

ـ انك لازلت تحبها إلى الآن !

ـ من ؟ الآن ؟ آه نعم ... انك تتحدثين عنها ! كلا ! كل شيء قد غدا الآن في العالم الآخر بالنسبة الي ... إنه شيء عريق في القدم ! وكل ما يحيط بي يبدو

وكأنه يقع في مكان آخر غير هـــذا المكان !

ونظر اليهم بانتباه شديد وقال مسترسلاً :

ـ خذي مثلاً ... أنت ! انني انظر اليك كما لو كنت على بعد ألف مرحلة ! لكن الشيطان يعرف لم نتحدث عن كل هذا ! ...

ثم أضاف بشيء من التحدي :

ـ لكن لم تسأليني ؟ ...

وصمت فجأة وراح يقرض أظافره باسنانه وقد استغرق في تأملاته من جديد!

قالت بولشيري الكسندروفنا لتقطع الصمت الذي ران عليهم :

ـ ياله من مسكن لعين ياروديا ! قبر حقيقي ! أنا واثقة من أن نظيرك يدين بنصف مسبباته الى هذا المسكن !

فعاد يقول بشرود :

ـ مسكني ؟ آه نعم إنه لذو أثر بعيد فيما تذكرين ! ولقد فكرت بذلك بنفسي لكنك لو تعلمين قد أعربت عن فكرة غريبة جداً ياأماه !

قال ذلك وهو يتصنع ضحكة غريبة . كاد لو لا قليل أن يشعر بأن هذا الاجتماع وهاتين القريبتين اللتين يراهما بعد فراق ثلاث سنوات واللهجة البنوية التي تصطبغ بها هذه المحادثة لعدم وجود حديث عام يتلهون به ، كاد أن يشعر بأن هذا كله بات لا يحتمل . لكنه كان يعرف أن هناك أمراً مستعجلاً ينبغي أن ينتهي منه بشكل من الاشكال ! لقد فكر في الأمر واتخذ أهبته منذ الصباح عندما استيقظ وقد ابتهج لأن تلك « القضية » قد خطرت على باله فبدت وكأنها وسيلة صالحة للافلات من هذا الجو الثقيل !

قال مبتدئاً حديثه بلهجة خافتة صارمة :

ـ اليك الامر الذي افكر فيه يادونيا ! بالطبع انني اعتذر اليك عما وقـــع

البارحة لكنني اعتقد أن من واجبي ان اذكرك بأنني لن أبدل خطة مسيري في صددها . فأما انا وأما لوجين . انني قد أكون انساناً مكروهاً بغيضاً لكنك لاينبغي ان تكوني كذلك . يكفي انسان واحد من هذا القبيل ! فاذاتزوجت من لوجين فانني سأكف على الفور عن اعتبارك اختاً لي !

هتفت بولشيري الكسندروفنا بصوت يائس كئيب :

ــ روديا ! روديا ! ها قد عدنا الى فصل البارحة بالذات ! لم تصف نفسك دائماً بالشخص البغيض الكريه ؟ لا أستطيع احتمال ذلك ... البارحة أيضاً تصرفت على هذا النحو !..

وقالت دونيا بلهجة ثابتة رصينة وصوت ليس أقل جفناءً من صوت أخيها :

ــ أخي ! إن كل هذا مرده خطيئة من قبلك ! وقد فكرت في الأمر البارحة واكتشفت موضع الخطأ ! ان كل ذلك مبعثه أنك تعتقد ـ على ما يبدو لي ـ بأنني أضحي بنفسي في سبيل شخص ما . والأمر على عكس ذلك تماماً فانا اتزوج بكل بساطة لأنني لا أستطيع العيش وحيدة دون عناء كبير وانه من البديهي أن أكون سعيدة اذا استطعت أن اكون بعد ذلك مفيدة لذوي لكن قراري لم يكن قائماً على هذا السبب ومن أجله !

غمغم راسكولنيكوف يحدث نفسه : «انها تكذب ! يا للمتكبرة ! انهالاتريد الاعتراف بأنها تقوم بدور المحسنة في هذه القضية ! آه من العقليات المنحطة انها تحب كما لو كانت تكره ! كم أشمئز من هذه العقليات وأمقتها ! »

واسترسلت دونيا تقول :

ــ وبالاختصار إنني أتزوج بيير بيتروفيتش لأنني افضل أخف الضررين !

وأنا على استعداد لتنفيذ كل ما ينتظره مني بكل أمانة لذلك فانني لا أخدعه ! لمَ تضحك ؟

كان وجه دونيا قد اصطبغ بلون الاقحوان وكانت عيناها تلتمعان من الغضب .

سأل راسكو لنيكوف وهو يضحك ضحكة مسمومة :

ــ اذن ، ستنفذين كل شيء !

ــ الى حد ما ! إن الطريقة والاسلوب الذي تبعهما بيير بيتروفيتش لخطوبته دلتاني على ما يريد ! صحيح انه يقدر نفسه تقديراً كبيراً لكنني أعتقد بأنه سوف يقدرني كذلك ... لماذا تضحك أيضاً ؟

ــ وأنت لماذا تتلونين من جديد ؟ أنت تكذبين يا أختاه ، انك تكذبين حسب خطة مرسومة ولمجرد عناد نسائي ! انك ترتبين الأشياء أمامي على طريقتك . انك لن تستطيعي الميل الى لوجين . لقد رأيته وتحدثت اليه وعلى ذلك فانك تبيعين نفسك لقاء بعض المال وإذن فانك تتصرفين تصرفاً مرذولاً وانه ليسعدني أن تكوني على الاقل لا زلت تحسنين الاحمرار من الخجل .

صاحت دونيا بانفعال غاضبة :

ــ إن هذا غير صحيح ، إنني لا أكذب ! لن اتزوجه قبل ان اقتنع بأنه يقدرني ويتمسك بي . لن اتزوجه قبل أن أتأكد بجلاء بأنني أستطيع أن أميل اليه ولحسن الحظ لسوف استطيع قطع الشك باليقين اليوم بالذات . ان هذا الزواج ليس فضيحة كما تدعي ولكن لنفرض جدلاً انك على صواب وانني كنت مصممة على ارتكاب مثل هذه الفضيحة ألا تكون قسوة من قبلك اذ تحدثني بهذا الشكل ؟ لم تتطلب مني بطولة ، لعلك أنت لا تستطيع القيام بمثلها ان هذا

لاستبداد إنه لقسوة . وإنني اذا كنت اسبب تعاسة لكائن ما فانني سأكون أنا ذلك الكائن . إنني لم أقتل انساناً بعد ... مابك تنظر إلي ؟ لماذا اشتد شحوبك الى هذا الحد ؟ روديا ماذا بك ؟ روديا عزيزي ؟..

صرخت بولشيري الكسندروفنا :

— رباه ! لقد دفعت به الى اقصى الاحتمال ... إلى الاغماء .

— كلا كلا ... يا للحماقة ... انه لا شيء ... لقد شعرت بدوار بسيط في رأسي انه ليس إغماء . إنكم لا تفكرون إلا في الاغماءات ... هم ! نعم ... ماذا كنت أريد أن أقول ؟ نعم : كيف تستطيعين قطع الشك اليوم ومعرفة ما إذا كنت ستحبنيه وكان ... سيحبك . أليس هذا ما كنت تتحدثين به ؟ لقد قلت على ما أظن اليوم أم تراني اسأت السمع ؟.

فقالت دونيا :

— أعطيه كتاب بيير بيتروفيتش يا أماه .

مدت بولشيري الكسندروفنا الرسالة الى ابنها بيد مرتعشة فأخذها بفضول زائد لكنه قبل أن يفضها حملق في وجه دونيا بدهشة وقال ببطء كمن خطرت بباله فكرة جديدة :

— غريب انني أتساءل لم انفعل ! لم كل هذا الاحتجاج ! تزوجي بمن تشائين .

نطق بهذه الكلمات وكأنه يخاطب نفسه غير انه تفوه بهـا بصوت مرتفع حتى انه استمر لحظة طويلة ينظر الى اخته مرتبكاً .واخيراً فض الرسالة وعلى وجهه مسحة من الدهشة والاستغراب وراح يقرأها بعناية ويعيد تلاوتها وكانت بولشيري الكسندروفنا في قلق مقيم حتى أن جميع الحاضرين كانوا يتوقعون

انفجاراً مفاجئاً . وبعـــد لحظة تأمل شرع راسكو لنيكوف يقول وهو يعيد الرسالة الى أمه :

ـــ إنه مدهش ! إنه محام وله عملاؤه وحديثه نفسه على شيء من التصنع مع ذلك فانه يكتب كالأميين !

فسرت همهمة عامة واستغراب لأن أحداً لم يكن يتوقع هـذا منه . واعترض رازوميخين بلهجة حاسمة يقول :

ـــ إنهم جميعاً يكتبون على هذا المنوال !

ـــ هل قرأت الرسالة ؟

ـــ نعم !

فقالت بولشيري الكسندروفنا مفسرة وقد علا وجهها الخجل :

ـــ لقد أطلعناه عليها يا روديا ... لقد ... سألناه النصح منذ قليل ..

فقاطعها رازوميخين قائلاً :

ـــ إنه إنشاء قضائي ! هكذا يحررون حتى الآن المعاملات القضائية !

ـــ نعم قضائي ! قضائي بالضبط . انشاء رجال القانون ! إنـــه ليس إنشاء الاميين تماماً لكنه ليس كذلك انشاء أدبياً ، إنه كتابة رجل أعمال !

فقالت أفدونيا رومانوفنا ملاحظة قد آلمتها لهجة أخيها في الحديث :

ـــ إن بيير بيتروفيتش لا يخفي أنه تلقى ثقافة قليلة بل انه يفخر لأنـه شق طريقه لوحده .

ـــ حسناً إنه اذا كان فخوراً فلا شك أن هناك ما يستحق الافتخـار وأنا لا أقول العكس ! لقد غضبت على ما يبدو يا اختـاه لأنني لم استخلص من هـذه الرسالة كلها الا ملاحظة طائشة وتعتقدين بأنني أتعمد التحدث بهذه السخـافات لايلامك الا فاعلمي بأنه على العكس ! فقد بدت لي هذه الملاحظة المتعلقة بالاسلوب

واعتقد أن هذه الملاحظة ليست غير ذات موضوع في وضعنا الحاضر . لان هناك العبارة : « وسيكون لكم شأنكم » الواردة في هذا الكتاب والتي تعتبر غنية جداً بالمعاني والوضوح . ثم هناك التهديد بانسحابه فوراً اذا أنا جئت . إن هذا التهديد بالذهاب يعادل التهديد بهجركم فوراً رغم أنه هو الذي استدعاكما الى بيترسبورج . فماذا تقولين ؟ هل لهذه العبارة المهينة الصادرة عن لوجين وقع مماثل لو انها صدرت مثلا عن هذا (واشار الى رازوميخين) أوعن زوسيموف أو عن أي كان منا ؟

فاجابت دونيا بانفعال :

— كلا . لقد فهمت تماماً بان تلك العبارة انما صدرت عن حسن نية وسذاجة فحسب . واعله ليس سيد قلمه ! لقد كان تحليلك لاسلوبه صحيحاً بل وانني لم أكن أتوقع ...

— ان التعبير راجع الى الاسلوب لأنه في الاسلوب القضائي لا يستطاع التعبير بشكل آخر . ولعله كان أكثر خشونة مما اراد أن يكون . مع ذلك أظن انني سأخيب أملك قليلاً : ان في هذا الرسالة تعبيراً آخر ، هجاء بحقي ، هجاء وضيعاً ! لقد أعطيت البارحة مالاً الى أرملة مسلولة رازحة تحت وقر الفاقة لنفقات الدفن وليس « بحجة نفقات الدفن » واعطيته الى الارملة وليس « في يد الفتاة » التي قال عنها انها « ذات سلوك شائن معروف » . لقد رأيت تلك الفتاة البارحة لأول مرة ! إنني أرى في كل هذا حاجة ملحة الى تشويه مركزي وغمري بالشوائب أمامكما . كل هذا معبر عنه بذلك الاسلوب القضائي أي أنه يفضح بصراحة نواياه ويؤيد لوناً من التهافت الساذج ! إنه رجل ذكي لكنه لا يكفي أن يكون المرء ذكياً ليتصرف بذكاء . أن ما أقول يرسم حقيقة الرجل !

ولا أعتقد أنه يقدرك كثيراً انني أقول لك ذلك في مصلحتك فقط لأنني أتمنى لك كل خير !..

لم تجب دونيا ، فقد كانت متخذة قرارها منذ الصباح ولا تنتظر الا حلول المساء . أما بولشيري الكسندروفنا فقد سألت ابنها بلهجة زادت كآبتها . اللهجة « العملية » التي طغت على الحديث :

ـ اذن يا روديا ؟ ماذا قررت ؟

ـ ماذا تقصدين بكلمة « ماذا قررت » ؟!

ـ أنت ترى ان بيير بيتروفيتش يطلب أن لا تكون حاضراً عندنا هذا المساء وأنه قال بانه سينسحب اذا جئت . وعلى هذا فهل ... ستحضر ؟

ـ لا شك أنه ليس لي أن أقرر مثل هذا الأمر . ان القرار لكما في الدرجة الاولى فاذا كان مطلب بيير بيتروفيتش لا يسيء اليكما وبالدرجة الثانية لا يسيء الى دونيا فلكما شأنكما . وأنا سأتصرف كما يروق لكما !

كانت لهجته مشوبة بالجفاء . لذلك بادرت بولشيري الكسندروفنا الى القول :

ـ لقد قررت دونيا وانا أؤيدها تماماً في قرارها ...

وقالت دونيا :

ـ لقد قررت أن أرجوك بالحاح أن تكون حاضراً عندنا هذا المساء في الموعد المحدد من قبله . فهل ستحضر ؟

ـ سأحضر !

ثم استدارت الى رازوميخين وقالت :

ـ وأنت أيضاً . انني ارجوك أن تحضر الينا في الساعة الثامنة ... أماه انني ادعوه بالمثل !

فاضافت بولشيري الكسندروفنا :

ـ بديع ! يا دونيا . هيا ليكن كما قررت ! وسيكون في ذلك راحة لي لأنني لا أحب الكذب والخداع . الخير لنا أن نقول الحقيقة كلها ... فاغضب اذا شئت الآن يا بيير بتروفيتش !

الفَصلُ الرابعُ

في تلك اللحظة فتح الباب بهدوء ودخلت الحجرة فتاة راحت تجيل الطرف حولها بوجل. فالتفتوا جميعاً نحوها بدهشة وفضول . لم يعرفها راسكو لنيكوف أول الأمر . كانت تلك الفتاة هي صوفي سيميو نوفنا مارميلادوف . كان قـــد رآها أمس للمرة الاولى ولكن في لحظة ووسط وثيـــاب معينة حتى انطبعت في خاطره صورة عنها تختلف عما رآها عليه في تلك اللحظة . فقد رأى أمامــه فتاة مرتدية ثياباً متواضعة بل فقيرة تبدو صغيرة السن تماماً وكأنها طفلة ذات حركات متحفظة مناسبة ووجه بشوش تبدو عليــه امارات فزع خفيف . كانت مرتدية ثوبا بسيطاً صغير يصلح لكل المنـــاسبات ، وقبعة فات وقتها وفي يديهـــا ـ كالأمس ـ مظلتها . ولما وجدت الغرفة مليئة بالناس زاد ارتباكها حتى بلغ مرتبة الخجل فاطرقت برأسها بل وحاولت كذلك أن تنسحب !

هتف راسكولنيكوف والدهشة البالغة مرتسمة على وجهه :

ـ آه ... أهذا أنت !

وفجأه ارتبك هو الآخر . راح يفكر في تلك اللحظة في أن أمـــه واخته ـ بسبب رسالة لوجين ـ كانتا تعرفان وجود فتاة معينة « سمعتها الفاسدة مرموقـة علناً » وقد كان منذ حين يحتج على افتراءات لوجين ويصرح بأنه شاهد تلك الفتاة للمرة الاولى في ذلك المساء وها هي ذي قد وصلت الى مسكنه وحيدة ، وتذكر كذلك بانه لم يستنكر عبارة « ذات سلوك سيء مشهود » ! مرت كل هـــذه الافكار في رأسه كلمحة خاطفة وبشكل غامض. لكنه لما تأملها بانتباه وجد انهـا

فتاة مسكينة مذعورة لدرجة شعر معها بالاشفاق عليها رآها تحاول الانسحاب شعر فجأة بما يقلقه فهتف يقول بعد أن القى عليها نظرة أوقفتها :

ـ لم اكن انتظرك مطلقاً ... ارجو ان تتلطفي بالجلوس . إنك تأتين ولا شك من جانب كاترين ايفانوفنا ... العفو ... ليس هنا بل هنا ... اجلسي هنا .

كان رازوميخين عند ما دخلت سونيا يشغل قرب الباب واحداً من الكراسي الثلاثة الموجودة في حجرة راسكو لنيكوف وكان قد نهض ليفسح لها مجالا للدخول . فلما دعاها راسكولنيكوف الى الدخول والجلوس أشار اليها أول الأمر بالجلوس على « الديوان » حيث اعتاد زوسيموف أن يجلس ثم تذكر فجأة أن « الديوان » كان شيئاً أليفاً بعيداً عن الكلفة خصوصاً وأنه يستخدمه بدلاً من السرير ، فعاد وأبدل رأيه وأشار إلى « كرسي » رازوميخين ودعاها إلى الجلوس عليه بينما أشار إلى رازوميخين بالجلوس في المكان الذي كان يحتله زوسيموف من قبل . فجلست حيث أشار مضطربة من الفزع ونظرت إلى السيدتين بارتباك . كان يُرى على وجهها بوضوح أنها تستنكر وجودها إلى جوارها . ولما فكرت في هذه الناحية امتلكها جزع عنيف حتى أنها نهضت فجأة وقالت بصوت مضطرب تحدث راسكولنيكوف مغمغمة :

ـ أنا ... إنني جئت من أجل دقيقة واحدة فاعذروني إذا كنت أزعجتكم . لقد جئت من قبل كاترين ايفانوفنا التي لم يكن لديها أحد ترسله إلاي . لقد كلفتني كاترين ايفانوفنا بأن أرجوك بالحاح للحضور غداً صباحاً للمساهمة في الجناز الذي سيقام بعد إقامة القداس في « سانت ميتروفان » ومن ثم أن تأتي إلى دارنا ... إلى دارها لتناول قطعة ...

إنها تأمل أن توليها هذا الشرف وقد كلفتني بأن أحمل اليك هذه الاقوال !

وصمتت أخيراً بعد أن ازداد ارتباكها . فنهض راسكولنيكوف بدوره ووقف مضطرباً كذلك لايحير جواباً وأخيراً أجاب :

ــ سأسعى بالطبع ... بالطبع ... أرجو أن تتفضلي بالجلوس ... إن لدي ما أقوله لك . أرجوك . قد تكونين على عجلة من أمرك ، لذلك أرجو أن تجلسي وأن تمنحيني دقيقتين .

وقدم إليها « كرسياً » فجلست وعادت من جديد تلقي نظراتها المفعمة بالخجل ، التائهة في التأمل على السيدتين وأخيراً خفضت بصرها فجأة ! أما راسكولنيكوف فقد غدا وجهه الشاحب أحمر اللون وقد التمعت عيناه ببريق مضيء ! بدا كأنه مضطرب تماماً مبلبل الأفكار . وأخيراً قال بلهجة حازمة :

ــ اماه ! هذه صوفي سيميونوفنا مارميلادوف ابنة ذلك التعس مارميلادوف الذي دهس مساء أمس أمام عيني والذي حدثتك عنه !

فنظرت بولشيري الكسندروفنا إلى سونيا ثم أغمضت عينيها قليلا ، لأنها لم تستطع أن تمتنع عن الاتيان بهذه الحركة التي ترضي كبرياءها رغم النظرة الملحة المتحدية التي كان يسلطها ابنها « روديا » عليها . أما دونيا فقد صوبت عينيها إلى وجه الفتاة المسكينة مباشرة وراحت تتأملها باستغراق وجدوعلى وجهها أمارات الاستفهام . وحاولت سونيا أن ترفع عينيها إلى السيدتين عند سماعها هذا التقديم لكن ذلك زادها حيرة واضطرابا .

واسترسل راسكولنيكوف موجهاً حديثه إلى سونيا :

ــ وددت أن أسألك كيف مر هذا اليوم عندكم ؟ عسى أن لايكون قد حصل لكم أي ازعاج من قبل رجال الشرطة مثلا !

ــ كلا ... لقد انتهى الأمر بسلام . خصوصاً وأن أسباب الوفاة كانت واضحة جداً لذلك فانهم لم يزعجونا غير أن المستأجرين غير راضين !

ـ لماذا ؟

ـ لأن الجثة باقية وقتاً طويلا والطقس حار الآن والرائحة ... حتى أننا اليوم في ساعة صلاة الغروب سننقلها إلى المدفن بانتظار الغد في الكنيسة ! وقد رفضت كاترين إيفانوفنا بادىء الأمر ولكنها بدأت ترى الآن انلاوسيلة غير هذه !

ـ إذن فان الدفن سيكون اليوم !

ـ إنها ترجوك أن تشرفها لحضور الطقوس غداً ثم العودة إلى البيت لتناول الطعام الجنائزي !

ـ أتقدم طعاماً أيضاً ؟

ـ نعم . طعام خفيف . وقد كلفتني بأن أشكرك جزيل الشكر على المساعدة التي قدمتها لنا البارحة . ولولاك لما كنا نستطيع إيجاد مايسد نفقات الدفن .

وفجأة راح ذقنها وشفتاها ترتجف لكنها بذلت جهداً كبيراً حتى تمالكت روعها وهي لما تزل شاخصة بأبصارها إلى الأرض !

راح راسكولنيكوف ينظر اليها أثناء الحديث بانتباه . كانت ذات وجه صغير بائس نحيل شاحب وقسمات غير متناسقة . كانت تقاطيع وجهها قريبة من شكل الزوايا في تدانيها بذلك الأنف المدبب الصغير وذقنها البارزة . ولم يكن يمكن اطلاق لقب جميلة عليها ولكنها بالمقابل كانت ذات عينين زرقاوين صافيتين اذا انفعلتا فان وجهها يكتسب طابعاً جميلا طيباً طهوراً حتى ليشعر المرء بانجذابه اليها رغم إرادته . ثم أن وجهها وكذلك شخصها كله ما كان محروماً من بعض الميزات وكانت على الرغم على بلوغها الثامنة عشرة تبدو طفلة أصغر سناً من حقيقتها حتى أن الطفولة كانت لتشاهد بوضوح خلال بعض حركاتها المضحكة !

هتف راسكولنيكوف وهو يتابع الحديث بالحاح واهتمام :

ـ لكن كيف استطاعت كاترين ايفانوفنا أن تقوم بكل هذا رغم قلة

الامكانيات التي في يدها ؟ كيف تقدم مع ذلك وجبة طعام خفيفة ؟.

ــ ستكون الجنازة بسيطة وسيكون كل شيء بسيطاً وعلى هذا الشكل لن يكلف كل هذا شيئاً كثيراً . لقد عملنا حساباتنا منذ قليل أنا وكاترين ايفانوفنا وهي تتمسك كثيراً بهذه المسألة خصوصاً وأنه لا يمكن الاستغناء عن ذلك لأنه نوع من العزاء بالنسبة اليها . إنها هكذا ، وأنت تعرفها !

ــ إنني أفهم ... إنني أفهم! لاشك!.. ماذا بك تنظرين هكذا إلى غرفتي ؟ إن أمي كانت تقول منذ قليل بأنها تشبه القبر !

ــ لقد أعطيتنا البارحة كل ماتملك !

افلتت هذه العبارة من شفة الفتاة فجأة واطلقتها بصوت يشبه همساً مبحوحاً سريعاً وعادت تطرق برأسها الى الارض وعادت شفتاها وذقنها الى الارتجاف ... لقد شعرت منذدخولها بالفقر الذي يخيم على مسكن راسكولنيكوف وقد أدهشتها هـــذه البادرة لذلك فان تلك الكلمات انطلقت من فمها دون وعي فصمتت . بينما التمعت عينا دونيا ونظرات بولشيري الكسندروفنا الى سونيا نظرة باشة ! واخـيراً قالت الام وهي تنهض :

ــ روديا ... لسوف نتناول الطعام معاً حتماً ... لنذهب يادونيا اما انت ياروديا فانك تحسن صنعاً اذا قمت بجولة تستريح بعدها وتعال الى مسكننا باسرع ما يمكن اخش ان نتعبك !

فقال وهو ينهض بحركة متهافتة :

ــ نعم . نعم . ساذهب ! ثم عندي بعض العمل !

فهتك رازوميخين وهو ينظر الى راسكولنيكوف بدهشة :

ــ لكنكم لن تأكلوا كل واحد على حده ! ماذا بـ ...

ــ سأحضر نعم سأحضر بالطبع . اما انت فابق ! فابق ! ابق دقيقة . انكما

لستما بحاجة اليه الآن اليس كذلك ياماه ؟ ام لعلي احرمكما منه ؟

ـــ آه كلا كلا .. وانت يادميتري بروكوفيتش سوف تحضر لتناول الطعام معنا ! ارجوا ان تتفضل بالحضور !

والحقت دونيا تقول :

ـــ تعال ارجوك !

فانحنى رازوميخين ووجهه طافحاً بالبشر ! وانقضت فترة شعر الموجودون خلالها بنوع من الارتباك الغريب . فقالت الام تقطع الصمت :

ـــ الوداع يارروديا بل الى اللقاء ! لا احب كلمة الوداع ! الوداع ناستاسيا ! يالهي لقد قلت الوداع مرة اخوي !

همت بولشيري الكسندروفنا بأن تحيي سونيا كذلك لكنها لم توفق لذلك فقد عجلت بالخروج من الحجرة وكانت سونيا تنتظر دورهاللخروج فمرت افدوتيا رومانوفنا من أمامها على اثرامها لكنها انحنت تحييها تحية مؤدبة ارتعدت لها سونيا وسلمت بدورها مذعورة مرتبكة بينما اكتست قسماتها بمسحة من الآلم غمرتها كلها كما لو ان التفاته افدوتياْ رومانوفنا وتأدبها وقــد احدثا في نفسها تعذيباً اليماً !

وخرج راسكولنيكوف الي الممشى وهو يقول :

ـــ الوداع يادونيا ... اعطني يدك !

فالتفتت دونيا نحوه وقالت بصوت عذب لم يخل من الاضطراب:

ـــ لكنني اعطيتها لك فهل نسيت ؟ لقد صافحتك !

ـــ حسناً صافحيني مرة ثانية !

وضغط على اصابعها بشدة بين يديه بينما ابتسمت لهواحمرت خجلاً ثم اسرعت تسحب يدها وهي تشعر بسعادة غامرة لاتعرف لها سبباً ! وعاد رسكولنيكوف الى

سونيا وقال لها بوجه مشرق :

ــ هيا ... هذا حسن ! ليرحم الله الاموات وليدع الاحياء يعيشون أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ إنه لكذلك!

ودهشت سونيا للاشراقة المفاجئة التي سطعت على وجه راسكولنيكوف فنظرت اليه لحظات صامتة وتذكر ـ هو ـ خلال هذا الصمت كل ما حدثه به المرحوم ابوها عن هذه الفتاة بصورة مفاجئة !

لما بلغت بولشيري الكسندروفنا الشارع مع أبنتها هتفت :

ــ رباه يادونيا ... انني الآن سعيدة جداً لأننا خرجنا حتى ليخيل الي ان حملا ثقيلاً قد ازيح عن صدري هل كنت أظن البارحة وانا في القطار أن امراً كهذا سيسرني ؟

ــ اذكرك مرة اخرى ياأماه بأنه لا يزال مريضاً . هل يعقل ان لاتكوني قد لاحظت ذلك ؟ لعل الحزن لفراقة عنا كل هذه المدة هو الذي ادى بـــه الى المرض ! ينبغي ان يكون المرء متسامحاً وانه ليستحق ان يصفح عن اشياء كثيرة تصدر عنه !

فأجابت بولشيري الكسندروفنا بلهجة غاضبة مقاطعة ابنتها :

ــ ولكنك أنت لم تكوني متسامحـــة يادونيا ! لعلك لاتعرفين يادونيا بأنني كنت انظر اليكما كليكما ! انك صورة عن أخيك تماماً بل ولك مثل مزاجـــه انكما كلاكما سويداويان ، كلاكما شرسان سريعا التأثر والانفعال . شديدا الازدراء نبيلان ... كلاكما نعم ! لأنه لا يمكن أن يكون أنانياً فـــاذا ترتائين يادونيا ؟ ما رأيك ؟ عندما افكر انه سيكون عندي مساء يكف قلبي عن الضرب !

ــ لاتبتئسي ياأماه ولسوف يحدث مايجب أن يحدث !

فقالت بولشيري الكسندروفنا برعونة وسذاجة :

ـــ دونيا فكري قليلاً في اي موقف نحن ؟ ماذا سيحدث اذا انسحب بيير بيتروفيتش ؟

فقالت دونيا بلهجة خافتة مشمئزة :

ـــ سيكون عندئذ عديم الشرف !

وعادت بولشيري الكسندروفنا تقول متعجلة :

ـــ لقد احسنا صنعاً بخروجنا في هـذه اللحظة . ان عملاً مستعجلاً كان يستدعيه ! إنه على الأقل سيتحرك قليلاً وسيستنشق قليلاً من الهواء ... ان المرء ليختنق في حجرته لكثرة الحرارة ! لكن أين يستنشق الانسان في هذه المدينة؟ ان الشوارع تشبه غرفاً محرومـــــة من نوافذ ياربّاه ! يالها من مدينة ! انتظري ! احذري .. آه حقيقة اننا مبلبلتا الخواطر ... اني اخاف كذلك من تلك الفتاة !

ـــ أية فتاة يا اماه ؟

ـــ لكن رباه ... من هذه الـ : صوفي سيميونوفنا ... تلك التي حضرت اليه منذ لحظات !

ـ لم تخافين منها ؟

ـ اني اشعر شعوراً مسبقاً يادونيا ! الم تلاحظي ماذا حدث عند دخولها ؟ اكاد اعتقد ان النقطة الرئيسية كامنة فيها ! ولك ان تصدقيني أم لا !

فهتفت دونيا مستنكرة :

ـ ابداً انك دائماً تتبعين شعورك المسبق ! انه لايعرفها الا منذ البارحـــــة ولم يستطيع التعرف عليها للوهلة الاولى منذ قليل عندما دخلت !

ـ حسناً سترين ! إنها تقلقني . سترين ! كم روعت منها ! لقد كانت تنظر الي بتينك العينتين حتى اني ما كنت استطيع التمالك الا بصعوبة . هـــــل تدكرين كيف قدمها الينا ؟ ان الامر يبـــــدو غريباً ذلك لأنه يقدمها لنا ـ لي ولك ـ

بعد ان كتب الينا بيير بتروفيتش عنهما ما كتب . وعلى هذا فانه يحبها ! أو أنها غالية عليه !

ـ ان المرء يكتب أشياء كثيرة . لقد كتبعنا نحن و حكي عنا الشيء الكثير أم تراك قد نسيت ؟ انني متأكدة من جانبي بأنها فتاة مدهشة وان كل ما قيل عنها ان هو الا لغوا !

ـ ليتقبل الله !

فاضافت دونيا بلهجة حاسمة :

أما بيير بيترفيتش فانه تمام مرذول !

فاحنت بولشيري الكسندروفنا رأسها وتوقف الحديث عند هذا الحد !

وفي الحجرة قال راسكو لنيكوف وهو يقود رازوميخين الى النافذة :

ـ سأخبرك عن الأمر الذي أردت التحدث به اليك !

بينما بادرت صوفي سيميو نوفنا تقول وهي تنحني محاولة الخروج :

ـ سأقول اذن لكاترين ايفانوفنا انك ستحضر !

ـ سنتكلم بعد قليل ياصوفي سيميو نوفنا . ليس لدينا أسرار نخفيها . انك لاتزعجيننا أحب أن اقول لك كلمتين اخريين ...

ثم استدار الى رازوميخين وقال :

ـ أليك القضية : انك تعرفه أليس كذلك . . . ما اسمه ؟ بورفير بيتروفيتش .

فاجاب رازوميخين باهتمام بالغ :

ـ لا شك إنه أحد أقربائي . ماذا تريد منه ؟

ـ تلك القضية ... أنت تعرفها ... أقصد الجريمة ! كنت تقولها البارحة انه يحقق فيها الآن !

فاجاب رازوميخين وهو يحملق بعينيه :

— نعم ... ماذا بعد ؟

— وانـه استجوب الاشخـــاص الذين أودعوا لدى تلك العجوز بعض الرهائن ... حسناً ... اني شخصياً رهنت عندها بعض الحاجات . أشيـاء غير ذات قيمة في مجموعها : خاتم صغير قدمته إلي أختي عند ما غادرتها الى بيترسبورغ والساعة الفضية التي كانت لأبي . إن هاتين الحاجتين لا تساويان اكثر من خمسة أو ستة روبلات ولكنني أتمسك بها لأنها ذكريات . فماذا ينبغي أن أعمل الآن ؟ أنا لا أريد أن تضيع هذه الاشياء وخصوصاً الساعة . إنني كنت ارتعد منذ قليل خشية أن تسألني أمي عنها عند ما تحدثنا عن ساعة دونيا . انهـــا الاثر الوحيد الباقي لأبي ولسوف تمرض أمي ان هي ضاعت ! إن النساء دائماً هكذا ... فعلمني ماذا أعمل ؟ أنا أعرف أنه يجب أن أقـدم افادة ولكن أليس من الاحسن أن نعلم بورفير شخصياً بذلك ؟ هم ماذا تعتقـد ؟ إنني أحب أن أنهي هـــذه القضية باسرع ما يمكن . ولسوف ترى أن أمي ستفكر في سؤالي عن اخبـار السـاعة قبل موعد الطعام !

فهتف رازوميخين وقد اضحى فريسة اضطراب غير طبيعي :

— لا لزوم للجوء الى البوليس ان الذهاب الى بورفير هو الصواب . آه ! كم أنا سعيد ! ثم لم لا أكون سعيداً ؟ لنذهب فوراً إنه على قيد خطوتين من هنا ولسوف نجده حتماً .

— ليكن ... لنذهب .

— ولسوف يكون مسروراً جداً بالتعرف اليك ! لقد حدثته عنك كثيراً وفي مناسبات عديدة ، والبارحة كان آخر حديث لنا ... وعلى هذا فانك كنت

تعرف العجوز ؟ ها ها ... كم يرتبط الامر الآن بشكل مـدهش ! آه ! نعم ... صوفي ايفانوفنا ...

فصحح راسكولنيكوف قوله :

— بل صوفي سيميونوفنا ... انه صديقي رازوميخين يا صوفي سيميونوفنـا ! انه شاب ممتاز !

فقالت صوفي دون أن تنظر الى رازوميخين لشدة خجلها :

— اذا كنتما ستخرجان ...

فقال راسكو لنيكوف :

— نعم لنذهب ! سأمر بدارك اليوم يا صوفي سيميونوفنا فقط خبريني أين تقطنين .

لم يكن يبدو عليه الارتباك تماماً لكنه كان يقول هـــذه الكلمات بلهجة محمومة وهو يختلس النظر الى وجه الفتاة . فاعطته سونيا عنوانهـا وهي تحمر من الخجل . ثم خرجوا ثلاثتهم معاً . سأل رازوميخين :

— ألا تغلق بابك بالمفتاح ؟

فاجاب راسكولنيكوف :

— أبداً ... مع العلم بانني منذ عامين وأنا أفكر أبداً في شراء قفل ! سعـداء هم الذين لا يملكون ما يخفونه بالمفتاح أليس كذلك ؟

كانت جملته الاخيرة هذه موجهة الى سونيا وكان وجهه هاشاً باشاً ، ولمـا بلغوا الباب الخارجي توقفوا برهة . فقال راسكولنيكوف مخاطباً سونيا بشكل يشعر منه بانه يريد أن يقول لها شيئاً آخر :

— ستذهبين من اليمين أليس كذلك يا صوفي سيميونوفنـا ؟ ولكن كيف استطعت اكتشافي ؟

كان يحاول عبثاً أن ينظر في عينيها الصافيتين الهادئتين ... فاجابت :

ــ ولكنك أعطيت عنوانك أمس الى بوليا !

ــ بوليا ؟ آه نعم ! بوليا ... إنها تلك الصغيرة ... انها اختك ؟ وعلى هـذا فقد أعطيتها عنواني !

ــ هل نسيت ذلك ؟

ــ كلا إنني أتذكر جيداً !

ــ ثم إنني كنت قد سمعت أبي المرحوم يتحدث عنك ما كنت أعرف اسمك. وهو نفسه كان يجهله . والآن فقد جئت ... وعند ما علمت اسمك البـــارحة ... سألت اليوم : هل يقطن هنا السيد راسكولنيكوف ؟ لأنني ما كنت أعرف انك أنت كذلك تقطن في غرفة مؤثثة ! الوداع لسوف أقول ذلـــك لكاترين ايفانوفنا !

شعرت بسرور بالغ وهي تبتعد أخيراً ... فمضت مطرقـــة الرأس وهي تحث خطاها لتبلغ المنعطف القريب الذي يبعـد عشرين خطوة عن مكان وقوفها كي تختفي عن أبصارهما ولكي تصبح وحيـدة أيضاً ! وعنـد ما اتصل الى المنعطف ستسير مسرعة دون أن تبالي بأحـد أو أن تنظر حولهـا ... ولسوف تفكر وتتذكر وتستعيد في ذهنها كل كلمة قيلت ! كل مناسبة !. انها لم تشعر من قبل أبداً بشعور من هذا القبيل ! لقد شعرت بعالم جديد يخلق فجـــأة في روحها بشكل غامض غير واضح . وتذكرت فجـأة أن راسكولنيكوف يود زيارتهـا هذا اليوم بالذات بل لعله يحضر تواً . فراحت تنغنم مغمغمـة القلب وكأنها تحـاول تهدئة طفل صغير !

ــ رباه ... المهم أن لا يحضر اليوم ! رباه ... غرفتي ... تلك الغرفة ! السوف ... يراها ! آه يا رب !

لذلك ونظراً لحالة الاضطراب التي كانت تعـانيها فانها لم تلاحظ طبعـاً أن سيداً لم تـكن تعرفه ، راح يتبعها خطوة فخطوة . لقد رافقها دون أن تشعر منذ أن رآها تخرج من الباب العام عندما كان رازوميخين وراسكولنيكوف واقفين معها يتبادلون بضع كلمات على الرصيف . وقد مر ذلك السيد في تلك اللحظـة بهم وانتفض لجـأة حينما سمع طرفـاً من حديث سونيا وكانت تقول : « لقد سألت : هل يقطن هنا السيد راسكولنيكوف ! » فنظر بسرعة ولكن بانتباه الى الاشخاص الثلاثة وبصورة خاصة الى راسكولنيكوف الذي كانت تتحدث سونيا اليه . ولم تدم نظرته تلك الا لحظة خاطفة وقـد وقعت دون أن يتوقف عن السير . فلمـا ابتعد راح يهدئ من خطاه ويبطئ في سيره كما ولو كان ينتظر أحـداً . لقد كان ينتظر سونيا وقد شاهد الاشخاص الثلاثة يتبادلون كلمات الوداع ورأى سونيـا تسير في اتجاهه لتعود الى منزلها . فهتف يغمغم محدثاً نفسه : « هه ! أين تسكن اذن ؟ لقد رأيت هذا الوجه من قبل في مكان ما » .

كان يحاول استنهاض ذاكرته لتسعفه بما نسيته . فلمـا وصل الى المنعطف مضى الى الجانب المقابل واستدار الى الخلف فرأى سونيا تتبعه في ذلك الطريق بالذات دون أن تلحظ شيئاً . ولما تجاوزته راح في اعقابهـــا سائراً على الرصيف المقابل دون أن يدعها تغيب عن ناظريه ، واستمر بعيداً عنهـا حتى قطعـا خمسين خطوة تقريباً وعندئذ عاد الى الرصيف الاول حيث كانت تسير فلحق بها وسـار وراءها مباشرة مخلفاً بينهما مسافة خمس خطوات فقط .

كان رجلا في الخمسين من عمره ميـالاً الى الطول متين البنية مرتدياً ثيابـا أنيقة ثمينة ومناسبة، له مظهر « البورجوازي » المحترم ! وكان يحمل في يمنـاه عصا جميلة كان يقرع بها الرصيف مع كل خطوة ويلبس قفازات جديدة ولا يبدو على مظهره ولون بشرته أنه من بيترسبورغ . ولم يكن المشيب قـــد خط بعد

سطورة طويلة على شعره الاشقر الكثيف . أما لحيته فكانت كثة ومشذبة ذات لون أشقر فاتح يشبه لون شعر الرأس ! وكانت له عينان زرقاوان ذات لظرة باردة ملحة حالمة وشفتان حمراوان . فكان بمجموعه رجلاً محتفظاً بشبابه احتفـاظاً مدهشاً يبدو أصغر سناً من حقيقته .

اشرفت سونيا على القناة وكان الغريب على بعد متساو وعلى رصيف واحد ، فنظر اليها متأملاً ولاحظ أنها ساهمة مفكرة . فلما بلـغ مسكنه دخلت سونيـا من الباب العمومي فحذا حذوها وهو في دهشة من الامر . وبلغت سونيا الباحة فانعطفت الى اليمين حيث السلم الذي يؤدي الى مسكنهـــا فغمغم السيد الغريب بكلمة تشعر بدهشته وراح يصعد السلم على أثرها فلما بلغت الطبقة الثالثة سارت في المشى وقرعت الباب التاسع وعليهلوحة نقش عليهاهـذا الاسم: كابرناؤوموف خياط ! دهش الغريب لتلك المصادفة العجيبة وراح يقرع بدوره الباب الثـامن وكان البابان على بعد ست خطوات الواحد عن الآخر .

نظر اليها الغريب وقال مبتسماً :

ـ انك تقطنين لدى كابيرناؤوف ؟ لقد خاط لي البارحـــة « صداراً » ! انني أقطن هنا بجانبك عند السيدة رسليش ، جرترود كارلوفنـا ! مـا أدهش الصدف !

فنظرت اليه سونيا بانتباه بينما راح يتابع حديثه قائلاً بلهجة مرحة :

ـ اننا جاران . لقد حللت في بيتر سبورغ منذ أمس الأول ... هيـا ... يسرني لقاؤك !

لم تجب سونيا كان بأبها قد فتح فتسللت الى حجرتها وقد شعرت بانها تخجل من شيء ما وترهب منه !

* * *

كان رازوميخين شديد الحماس وهو في طريقه مع راسكولنيكوف الى مسكن بورفير ! وكان يهتف مكرراً :

ـــ يا صديقي العجوز ! ان ذلك عين الكمال ! انني سعيد ... انني سعيد !

وبينما كان راسكو لنيكوف يفكر في نفسه قائلا : « ما الذي يسعدك ؟ » كان صديقه مستمراً في حديثه يقول :

ـــ كنت اجهل انك أنت أيضاً قد استلفت من تلك العجوز لقاء أشياء رهنتها آه ... هل ذهبت اليها اقصد متى ذهبت اليها لآخرة مرة ؟

غمغم راسكولنيكوف في سره يقول : يالك من ساذج سخيف ! ثم توقف برهة وكأنه يفكر في سؤال صديقه وقال :

ـــ متى ؟ لقد ذهبت اليها قبل موتها بثلاثة أيام على ما أعتقد . ثم انني لا أريد أن أستعيد هذه الاشياء الآن لأنني لا أملك إلا روبلاً واحداً تبقى لي بسبب ذلك الهذيان الملعون الذي أصابني أمس !

كان يتحدث عن تلك الاشياء بلهجة تعبر عن عناية خاصة بها . وكذلك فقد نطق بكلمة « الهذيان » بلهجة شديدة الاغراء ! فبادر رازوميخين الى القول :

ـــ هيا ... نعم ... نعم . اذن هو السبب في أنك ... لقد أدهشتني على الاكثر اقوالك أثناء هذيانك ... انك ما كنت تفتأ تتحدث عن سلاسل وخواتم ! نعم نعم ! لقد وضح كل شيء الآن !

راح راسكو لنيكوف يناجي نفسه بقوله : « أن تلك الفكرة مغروسه إذن في عقولهم ! هذا الرجل مثلاً ... إنه على استعداد للتضحية بنفسه من أجلي وهو سعيد لأنه وجد تفسيراً معقولا للسبب الذي دفعني الى التحدث عن الخواتم

في الحلم ؛ إن الفكرة إذن قد رست في رؤوسهم جميعــاً ! » ثم سأل صديقه بصوت مرتفع :

ــ لكن هل نجده في مسكنه ؟

فاسرع رازوميخين يجيب :

ــ سوف نجده ... سوف نجده . انه شاب ممتاز يا صديقي وسترى ! إنــه أخرق بعض الشيء وأقصد أنه يسير مع الدنيا . ولكنني لم أنعتـه بالأخرق من أجل هذا ... إنه فتى ذكي بل أنه شديد الذكاء ولكن لديه اتجاهاً خاصاً في عقله. إنه حذر ماجن ومتشكك ... يروق له أن يسخر ولكن ليس لدرجة «التهريج» وأخيراً الاسلوب القديم وأقصد أسلوب الاعتماد على الواقع المادي ... لكنه يعرف عمله تماماً بل إنه ضليع فيه ... لقد حقق في العام الماضي في قضية قتل كانت كل الآثار فيها ضائعة . وهو يرغب في التعرف اليك بشوق زائد !

ــ ولمَ يرغب في ذلك الى هذا الحد ؟

ــ ليس ... لأنه لكن ألا ترى السبب؟ إنني في هذه الايام الاخيرة ـ بينما كنت مريضاً ـ تحدثت اليه كثيراً عنك ولقد أصغى إلي بانتبــاه ولما علم بانك طالب حقوق وأنك لم تتمكن من متابعة دروسك لاسباب خارجة عن طاقتك قــال : يا للأسف ! ومن ذلك استنتجت ... وأقصد من كل الأشياء مجتمعة وليس من هذا فحسب . البارحة زاميوتوف ... أفهمني يا روديا .. قــد أكون ثرثرت البارحة كثيراً عنــد ما كنت ثملا وكنت أرافقك الى الدار ... لذلك فانني اخشى أن تكون مغالياً ...

ــ ماذا تريد أن تقول ؟ أنهم يعتبرونني مجنوناً ؟ ولكن قد يكون ذلك صحيحاً !

واغتصب ضحكة صامتة :

ـــ نعم ... نعم ! أو بالأحرى لا ... بواه ! هيا ... ان كل ما قلته وما بعده كله كان سخيفاً وبتأثير الشراب !

فصاح راسكو لنيكوف يقول وقد همّ أن يندفع من الغضب :

ـــ لكن لمَ تعتذر ؟ ان كل ذلك يقتلني في النهاية !

ـــ انني اعرف ... انني أفهم ! ثق بانني افهم . حتى انــــه من المخجـل التحدث فيه !

ـــ اذن ! طالما أن التحدث فيه مخجل فلنكف !

وصمت الصديقان وكان رازوميخين يفيض حمـــاسة الامر الذي كان راسكولنيكوف يلاحظه باشمئزاز وكان كذلك مكتئباً مما سمعه للتو من رازوميخين عن بورفير ، فراح ينـاجي نفسه قائلاً وهو يشعر بشحوب وبخفقان شـديد في قلبه :

ـــ ينبغي أن ألقي الرماد في عيني هذا أيضاً ! إن ذلك طبيعي تماماً ، ولكن « أن لا ألقي بشيء مطلقاً » سيكون طبيعياً أكثر ... نعم أن أرغم نفسي على عدم ألقاء شيء في عينيه ! كلا ! لأنني إذا أرغمت على ذلك فلن يكون الأمر طبيعياً تماماً حسناً سنرى كيف تسير الامور ... ترى هل أحسن صنعاً بالذهاب الى هناك أم لا ؟ ان الفراشة تطير من تلقاء نفسها نحو الشمعة ، انني أشعر باضطراب في قلبي وان ذلك لفأل سوء . »

قال رازوميخين :

ـــ انه في هذا المنزل الرمادي .

استمر راسكو لنيكوف في حديثه مع نفسه :

ـــ « هنـا أمر حيوي جـداً : هل يعرف بورفير بزيارتي الى منزل تلـك الساحرة أمس أم لا ... وعن سؤالي عن الدم ! ينبغي أن أعرف ذلـــك بلمحة

خاطفة منذ البداية ، نعم حال دخولي والا ... فلسوف أعرف اذا كنت سأخسر نفسي ! »

وخاطب رازوميخين فجأة وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :

ــ على فكرة . لقد لاحظت يا صديقي انك منذ هذا الصباح في اضطراب غير عادي فهل هذا صحيح !

فقال رازوميخين منكراً :

ــ اي اضطراب ؟

ــ هيا ... يا عزيزي ان ذلك لا يمكن حجبه ! لقد كنت منذ لحظات جالساً على مقعدك كما لم تفعل أبداً من قبل . كنت جالساً على حافة المقعد تماماً وكنت تنتفض من ارتعادة تشنجية فلا تقر لك قرار وكنت تغضب حيناً لتعود فجأة الى اتخاذ سحنة هادئة . كنت تحمر أحياناً خصوصاً لما دعوك الى تناول العشاء ... لقد احمر لونك حتى جذور شعرك !

ـ ان هذا غير صحيح ! انك تكذب ! لمَ تقول هذا ؟

ـ الحقيقة انك خجول كالتلميذ الصغير ! يا للشيطان ها انك تعود الى الاحمرار !

ــ يا لك من قذر بعد ذلك !

ــ لكن لم كل هذا الخجل يا روميو ! انتظر ... لسوف أقوله في مكان ما اليوم هاهاها ! لسوف اجعل ماما تضحك اليوم ، وشخصاً آخر !

فصاح رازوميخين وقد خرج عن طوره وشعر ببرودة الرعب :

ـ اسمع ... اسمع ! انني أتحدث جدياً الآن ! ماذا سيحدث بعد ذلك؟ياللشيطان هل قدرت ؟ ماذا ستذكر لها ... أنا ؟ يا عزيزي ... اوف ... يالك من قذر !

ـ آه لقد أصبحت كوردة في الربيع تماماً ... كم يليق بك هذا ... لو كنت

تدري ! روميو بطول ستة أقدام ... حسناً لقد اغتسلت اليوم وقلمت أظافرك هم ؟ هذه الاشياء لم تشاهد فيك من قبل ! يا الهي العظيم ! وقد تطيبت... اخفض رأسك قليلاً !

ـ خنزير !

فانفجر راسكولنيكوف ضاحكاً بعنف كاد أن يفقده السيطرة على أعصابه. وهكذا تخطى عتبة مسكن بورفيربيتروفيتش وهو يضحك . وهذا ما أراده راسكولنيكوف : لقد كان يمكن استماع ضحكته من داخل المسكن وقدامتد ذلك الجذل والحبور الى داخل الممشى !

وغمغم رازوميخين وهو يقبض على كتف راسكولنيكوف :

ـ ولا كلمة هنا وإلا كسرت لك « بوزك » !

الفَصلُ الخَامِسُ

كان راسكولنيكوف قد دخل الشقة وعلى وجهه علامات من يبذل جهداً ليمتنع عن الانفجار من الضحك وجاء وراءه رازوميخين منقلب السحنة من الغضب ، احمر كالورد ، كالابله المقنع ، وكان وجهه وشكله يحملان طابعاً يثير السخرية في تلك اللحظة ، ويفسر تفسيراً معقولاً سبب تهلل رفيقه .

انحنى أمام صاحب المسكن قبل أن يقدّم اليه . ومد يده اليه مبدياً جهداً واضحاً ليكبت عواطفه ويطرد عن نفسه ذلك المرح كي يستطيع على الأقل التلفظ بالكلمتين او الثلاث كلمات اللازمة في مثل هذه المقابلة . وكان صاحب البيت واقفاً وسط الحجرة يفحص زائريه بنظره ... ولم يكد راسكولنيكوف يتخذ شكلاً جدياً ويغمغم ببضع كلمات حتى وقعت عيناه فجأة على رازوميخين وعندئذ لم يعد باستطاعته الثبات . وهكذا انطلقت الضحكة الحبيسة بقوة تبررها شدة الكبت الذي كانت تعانيه . وكان للغضب العنيف الذي استقبل به رازوميخين تلك الضحكة أثراً بعيداً في اعطاء ذلك المشهد طابع المرح الطبيعي الحقيقي . ولقد ساهم رازوميخين في ذلك ـ وكأنه كان متعمداً ـ فزمجر وهو يلوح بيده :

ــ آه ... الى الشيطان ...

وارتطمت يده بمائدة صغيرة كان عليها قدح من الشاي فطوحت بها معاً الى الارض واحدث هذا الارتطام فرقعة عالية . فهتف بور فيريبتروفيتش بلهجة وديعة :

ــ لكن لم تحطيم الكراسي ايها السادة انكم تسببون خسارة للدولة !

كان راسكولنيكوف يضحك ملء رئتيه ناسياً يده في يد صاحب الدار لكنه كان ينتظر الوقت الذي ينبغي له فيه ان يسحبها بسرعة وبشكل طبيعي للغاية. اما رازوميخين فقد اشتد جزعه اثر سقوط المائدة وتحطم القدح فراح يتأمل في اجزائه المتناثرة ثم انسحب مهزوماً حانقاً باتجاه النافذة حيث وقف مستديراً بوجهه اليها ينظر خلالها الى لاشيء وهو منقلب السحنة. وكان بورفير بيتروفيتش يضحك وهو يتلهف الى مزيد الضحك ولكنه كان ينتظر تفسيراً لهذه الحالة. وفي ركن من الغرفة كان زاميتوف يجلس على كرسي فلما دخل الزائران تناهض وانتظر فاغر الفم وقد حيره المشهد وجعله متحذراً يرقبه بفضول خاص. وكان لوجود زاميوتوف - وهو ما لم يكن يتوقعه - وقع مزعج في نفس راسكولنيكوف الذي فكر في نفسه قائلاً: « وهذه مسألة ينبغي اخذها بعين الاعتبار ! » ،

شرع راسكولنيكوف يفسر سبب هذا الموقف مبدياً خجله:

- ارجو ان تعذرني ... فان رازوميخين ...

فقاطعه بورفير قائلاً:

- العفو لقد ادخلتما السرور على نفسي ! ولقد دخلتما بلطف زائد ...

ثم اشار الى رازوميخين وقال:

هه ! هل يرفض حتى القاء التحية !

- عجيباً ... لست ادري لم َ غضب مني. لقد قلته له في الطريق أنه يشبه « روميو » ولقد اثبتت له ذلك ... ولست اعتقد أن هناك شيئاً آخر ! ...

فهتف رازوميخين محنقاً دون أن يستدير:

- خنزير !

فقال بورفير ضاحكاً:

ـــ ينبغي ان تكون لديه المبررات الكافية حتى يغضب من كلمة صغيرة بسيطة!

فصرخ رازوميخين :

ـــ هاأنتذا « تتنفذلك » ياقاضي التحقيق ! هيا ليحملكم الشيطان !

ثم استدار وهو يضحك وقد غمر البشر وجهه واقترف نحو بور فيربيتروفيتش وكأنه شيئاً لم يحدث ومد اليه يده وقال :

ـــ احييك بسرور ! والآن الى العمل . هـــذا صديقي روديون رومانيتش راسكولنيكوف .

اولاً باعتباره سمع كثيراً بك فقد اراد ان يتعرف بك ثم ان لديه عملاً صغيراً يود انهاءه معك . هه ! زاميوتوف ! اية صدفة جاءت بك الى هنا ؟ انكما متعارفان اذن ؟ منذ متى وانتما على علاقات ...

وناجى راسكولنيكوف نفسه متسائلاً : « ما معنى هـذا » أما زاميوتوف فكان مرتبكاً قليلاً لكنه تغلب اخيراً على ارتباكه وقال بلهجة ودية :

ـــ البارحة ... لقد تعارفنا عندك !

ـــ اذن انها « العناية » التي هيأت كل شيء . لقد كان في الاسبوع الماضي يلح كثيراً ليقدم اليك يابورفير لكنكما لم تعودا بحاجـة الي لأجري ذلك بينكما ! ... أين سجايرك ؟

كان بورفير بيتروفيتش في ثيابه المنزلية : معطف منزلي ، قميص نظيف جداً ، وحذاء خفيف مثني الكعب ؛ وكان في الخامسة والثلاثين من عمره بقامـــة فوق الوسط ممتلىء الجسد منتفخ الكرش قليلاً حليق الشارب قصير السالفين ، قصير الشعر ، ذي رأس كبير مستدير ينتهي بنتوء غريب عند القفا ، منتفخ الوجـــه مدوره ، أفطس الأنف قليلاً ، اصفر اللون كالمرضى ممتلئاً حيوية ودعابة ، تقرأ على قسماته سلامة النفس لولا عينيه السماويتين اللون « كالماء الصافي » المغطاتين

١٠

بأهداب تكاد أن تكون بيضاء ، والابنة كانتا تطرفان باستمرار وكأنه يشير بهما اشارات معينة الى شخص ما . كانت نظرة عينيه تتناقض مع مجموع شخصيته التي كانت تختزن لوناً من الانوثة تقريباً فكانت تلك النظرة تعطيه مظهراً جدياً رزيناً غير ذلك الذي يصافح العين للوهلة الاولى .

ولما علم بأن الزائر يود انهاء قضيته معه رجاه بالحاح أن يجلس على الأريكة وجلس هو على الجانب الآخر منها مبدياً اهتماماً زائداً ومنتظراً أن يبدأ الضيف بعرض موضوع القضية . ولعل مثل هذا الاهتمام البالغ من قبل شخص مجهول يبدو مربكاً وفي غير موضعه خصوصاً إذا كان مايود المرء عرضه تافهاً لا يستحق مثل هذا الاهتمام . غير أن راسكولنيكوف راح يضع كلمات موجزة ومسبوكة يوضح قضيته بدقة وجلاء أدخلا على نفسه السرور واستطاع خلالها أن يمعن النظر في بورفير . وكان بورفير بيتروفيتش بدوره لا يرفع بصره عن محدثه بينما كان رازوميخين جالساً قبالتهما أمام المائدة الصغيرة « اياها » يتابع بصبر نافذ وانفعال موضوع القضية فكانت أبصاره تنتقل على التناوب من وجه هذا إلى وجه ذاك وبالعكس بشكل يتعدى الحد الطبيعي . حتى أن راسكولنيكوف لم يتمالك نفسه أن قال في سره : « سخيف ! » .

قال بورفير مجيباً بلهجة ممهدة :

— ينبغي أن تتقدم بافادتك إلى الشرطة . ستقول أنك بعد أن علمت بكذا وكذا وأقصد جريمة القتل ، فانك ترغب بدورك باعلام قاضي التحقيق المواجه بهذه القضية بأن الأشياء كذا وكذا تخصك وأنك تود استعادتها . أو . . .

فعاد راسكولنيكوف يقول وهو يحاول جاهداً أن يبدو بمظهر شديد الخجل :

— الواقع أنني في هذه اللحظه لست غنياً وحتى هذه الأشياء التافهة فانني لن أستطيع ... أقصد ... أريد في الوقت الحاضر أن أثبت بأن هذه تخصني

لكنني عندما سأحصل على مال ...

فأجابه بورفير بيتروفيتش مبدياً بروداً إزاء التصريح المتعلق بالناحية المادية :

— لا بأس . ثم إنك تستطيع – إذا كنت تريد أن تكتب إلي مباشرة بهذا المعنى : بعد أن علمت بكذا وكذا وباعتبار أن الأشياء كذا وكذا تخصني فأرجو..

سأل راسكولنيكوف بلهجه متهافتة مظهراً بذلك عنايته المجددة بالناحية المالية:

— هل يمكن كتابة هذا الطلب على ورق عادي ؟

— آه ... على أي ورقة تريد !

ونظر بورفير بيتروفيتش اليه نظرة فيها سخرية واضحـــة وطرف بعينه كما لو كان يشير بذلك إلى أن يفهم القصد المستتر ! ولعل راسكولنيكوف أخطأ في التصور لأن تلك الحركة كانت سريعة كالبرق .. كان على استعداد ليقسم بأن بورفير غمز له بعينه لسبب يعلمه الشيطان ! كان في الأمر شيء ! فغمغم يخاطب نفسه : « أنه يعرف ! » ومرت هذه الفكرة في خاطره بسرعة الصاعقة! فأردف بشيء من الارتباك :

— أعذرني إذا أزعجتك بحماقات كهذه . إن هـــذه الأشياء تساوي خمسة روبلات في مجموعها لكنها غالية على نفسي بسبب الذكرى التي تحملها وإنني أعترف بأنني روعت عندما علمت ...

فقال رازوميخين بلهجة لا تدع مجالاً للشك في براءة نيته :

- هه !... انك من أجل هذا إذن أبديت تلك الدهشة لما تحـــدث اليك زوسيموف البارحة وهو يثرثر بأن بورفير يستجوب أصحاب الأشياء المرهونة !

كانت الملاحظة شديدة الوقع على راسكولنيكوف فنظر إلى رازوميخين نظرة تشتعل بالغضب لكنه تمالك أعصابه على الفور فقال مجيباً وقد سيطر على غضبه ببراعـــة :

ياعزيزي أعتقد أنك تسخر مني . إنني أعترف باهتمامي الزائد بهذه الأشياء التي تبدو لعينيك « قذارات » لكن لامحل في هذا لاعتباري أنانياً مهووساً بالأشياء التافهة لأن هذه الأشياء لاتبدو أبداً في نظري « قذارات » . لقد قلت منذ لحظة أن تلك الساعة الفضية التي لاتساوي أكثر من فلسين كانت الأثر الوحيد الذي بقي لي من أبي . إسخر مني كما تشاء ...

ثم خاطب بورفير معقباً :

— خصوصاً وأن أمي قدوصلت وأنها إذا علمت ـ وعادهنا يخاطب رازوميخين يحاول أن يظهر صوته مضطرباً ـ نعم إذا علمت بأن تلك الساعة قد فقدت فانها ستنهار إلى أقصى درجات اليأس وأقسم لك ! هكذا النساء !

فقال رازوميخين بحرارة :

— لكن الأمر ليس كما تقول ! لقد ترجمت فكرتي ترجمة سيئة ... لقد أردت أن أقول العكس تماماً .

وكان راسكولنيكوف يخاطب نفسه مغمغماً بقلق : « هل بدوت طبيعياً ؟ هل كان ذلك موفقاً ؟ ألم أبالغ ؟ لماذا قلت « هكذا النساء ! »

سأله بورفير لسبب من الأسباب :

— وهكذا إذن فقد وصلت أمك !

— نعم !

— ومتى كان ذلك ؟

— البارحة مساء !

صمت بورفير وبدا كأنه يرتب أمراً ثم أضاف بلهجة هادئة باردة :

— إن أشياءك لايمكن أن تضيع بأي حال . أضف إلى ذلك أنني كنت أنتظرك منذ طويل .

ومد يده بمنفضة السجاير إلى رازوميخين الذي كان يلقي بزماد سيجارته على السجادة دون إشفاق! وبدا كأنه لم يتلفظ بشيء مهم بينما شعر راسكولنيكوف بانتفاضة ... غير أن بورفير لم يبد عليه ان ينظر اليه بسبب انشغاله بسيجارة رازوميخين!

هتف رازوميخين :

— ماذا ؟ كنت تنتظره ؟ انك اذن كنت تعرف بأن له أشياء « هناك » .

وفجأة التفت بورفير بيتروفيش الى راسكولنيكوف وقال .

— ان اشياءك كلها : الساعة والخاتم ، وجدت « عندها » ملفوفة في الورقة وكان اسمك مكتوباً بوضوح عليها بالقلم وكذلك التاريخ الذي اودعت فيه تلك الاشياء لديها !

فتضاحك راسكولنيكوف بغباوة وقال وهو يجهد ان ينظر بثبات في عينيه :

— كيف تسنى لك ان تكون مدققاً بهذا القدر ؟

لكن لم يتمالك ان اردف معقباً :

— انني اذ ابدي مثل هذه الملاحظة فذلك لأنني ولا شك كنت واحداً بين عدد كبير من الراهنين مما يجعل تذكرهم جميعاً على شيء من الصعوبة وارى انك على العكس تتذكرهم جميعاً في دقة متناهية و ... و ...

وناجى نفسه بقوله : « حيوان ! رعديد ! لم أضفت هذا ! » .

أجاب بورفير بشيء من السخرية :

— ذلك لأن كل الراهنين قد اصبحوا الآن معروفين من قبلي حتى انك الوحيد الذي لم تتقدم بعد بطلب أسترداد .

— لم أكن متمالكاً صحتي تماماً !

— نعم . لقد سمعتهم يقولون ذلك . بل وقد سمعت انك تعرضت لبعض

المضايقات وانك تبدو الآن أيضاً شاحباً .

فقاطعه راسكولنيكوف بخشونة وغضب :

ـ أنا لست شاحباً أبداً على العكس إنني على خير ما يرام ...

كان يعصف بين جنبيه غضب عنيف لم يكن يستطيع له ضبطاً وكبتاً . وكان يفكر في سره : « ان هذا الغضب سوف يجعلني ابتلع الطعم ! لكن ماذا بين أيديهم حتى يعذبونني على هذا النحو ؟ »

وعاد رازوميخين يقول :

ـ است تماماً على خير ما يرام . انها طريقة للكلام فحسب . لقد كان حتى أمس غائباً عن وعيه تقريباً . هل تصدق يا بورفير إنه كان أمس لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه فلم نكد ندير له ظهورنا ـ زوسيموف وأنا ـ حتى ارتدى ملابسه وتسلل دون ضجة ولا صخب ومضى تائهاً لست أدري إلى أين حتى منتصف الليل وهذا ـ وأكرر القول ـ في كامل الهذيان ! فهل تستطيع أن تتصور مثل هذا الأمر ؟ انه أمر يثير الفضول !

فقال بورفير وهو يهز رأسه بحركة نسوية :

ـ باه ! هل يكون قد عمل ذلك أثناء « الهذيان الكامل » !

فقال راسكولنيكوف وهو فريسة لغضب متزايد :

ـ إن هذا فظيع ... لا تصدق كلمة مما يقول ! ثم انك لا تصدق شيئاً .

لكن بورفير لم يبد عليه أن أصغي الى تلك التكلمات الغريبة .

وعاد رازوميخين يقول بحماس فجائي :

ـ كيف اذن استطعت الخروج لو لم تكن تهذي ؟ لم خرجت ؟ وماذا كانت غايتك ؟ ولم خرجت متسللاً ؟ هيا ... هل تزعم انك كنت حينئذ في كامل قواك ؟ انني أستطيع الآن أن أحدثك بصراحة بعد أن زال كل خطر !

خاطب راسكولنيكوف بورفير وقـــد ارتسمت على فمه ابتسامة هـازئة فيها تحد وقح :

— لقد قتلني من الضجر البارحـــة ولقد فررت لافتش عن مسكن آخر استأجره كي لا يستطيع اكتشاف مكاني ولقد أخـــذت كل ما معي من نقود . ولقد رآهـا السيد زاميوتوف ! هيـــا ... يا سيد زاميوتوف هل كنت متمالكاً قواي البارحة أم انني كنت أهذي ؟ ان لك الآن الـكلمة الفصل في هذا الموضوع .

كان يود من صميم قلبه لو فتك في تلك اللحظة بزاميوتوف لأن نظرته وسكوته كان يسببان له ازعاجاً كبيراً .

فاجاب زاميوتوف مصرحاً بجفاء :

— رأيي انك كنت تتكلم باسلوب رصين بل وفي منتهى الحذق مع ذلك فقد كنت سريع الغضب مفرطاً فيه !

ورد بورفير بيتروفيتش بلهجة من يفحم خصمه بالرأي فقال :

— لقد أبلغني اليوم نيكوديم فوميتش أنه صادفك البارحة في ساعة متأخرة جداً في مسكن موظف دهسته الجياد !

فهتف رازوميخين :

— حتى ولو لم تكن الا قضية هذا الموظف لكانت كافيـــة ! هيا ... ألم تتصرف كالمجانين في مسكن ذلك الموظف ؟ لقد أعطيت آخر ما معك الى أرملته لتقوم بدفع نفقات المأتم . فلو كنت تريد مساعدتها بتعقل لأمكنك مثلاً اعطاؤها خمسة عشر أو عشرين روبلاً على الأكثر ولكنت احتفظت بثلاثـــة لنفسك لكنك قذفت بكل روبلاتك الخمسة والعشرين !

ـــ لعلني عثرت على كنز ما إذ ما يدريك إنني استسلمت لمثل هذا السخاء لهذا السبب ! خذ مثلاً . إن السيد زاميوتوف لا يجهل إنني عثرت على كنز !

ثم خاطب بورفير بيتروفيتش بشفتين مرتعدتين قائلاً :

ـــ أرجو أن تعذرنا لأننا ضيعنا من وقتك نصف ساعة ونحن نحدثك باشياء على هذا القدر من التفاهة . اننا نزعجك أليس كذلك ؟

ـــ عفواً أرجوك . بل العكس ! ليتك تعلم مبلغ ما تستأثره من اهتمامي ! إنه لممتع أن يرقبك المرء وأن يسمعك تتحدث وأعترف بأنني سررت جداً لأنك قررت آخر الامر أن تتقدم بطلب استرداد !

قال رازوميخين :

ـــ لكنك تستطيع على الاقل أن تقدم لنا الشاي ! إن حلقي جاف !

ـــ فكرة رائعة ! ولسوف نشرب الشاي كذلك. لكن ألا تتناول شيئاً آخر قبل الشاي ؟

ـــ هيا اذهب ! ..

وخرج بورفير بيتروفيتش ليأمر باعداد الشاي بينما كانت الافكار تتزاحم في رأس راسكولنيكوف وتصطخب ! لقد كان في حالة هياج وانفعال هائلين ! كان يخاطب نفسه قائلا : « الأدهى في الموضوع إنهم لا يحاولون التستر أو الخداع ولا يرتبكون مطلقاً ! كيف يتحدث عني الى نيكوديم فوميتش وهو لا يعرفني ! أرى انهم لا يحاولون التستر على إنهم ماضون على أثري كالكلاب ! إنهم يقذفون في وجهي بما في رؤوسهم بصراحة !.. لكن ماذا دهاكم ؟ امضوا بصراحة مباشرة بدلاً من اللعب معي لعبة القط والفأر ! إنها قلة أدب يا بورفير بيتروفيتش ولعلني أستطيع كذلك أن لا أسمح لك بها !. لسوف أنهض وأصفعك بالحقيقة كلها وألقيها في « بوزك » وسترى كم احتقرك ! ثم تمالك بمجهود واسترسل : « ولكن ماذا

يكون لو انها كانت محض تصورات من قبلي ؟ ثم مجرد سراب ! ماذا يحدث لو إنني كنت مخدوعاً من الاول حتى الآخر وإنني أنفعل لافتقـاري الى التجربة وحاجتي الى أمكانية الاضطلاع بهذا الدور الكريـه ؟ لعله قال كل ذلك دون سوء نية ! إن كل مواضيعهم ليس فيها شيء غير عادي ! لكن لا شك إن هناك شيئاً وراء كل هذا ! نعم لا شك . نعم ! لمَ قال مثلاً بكل بساطة « عندهـا » . لماذا أضاف زاميوتوف قائلاً إنني كنت أتحدث « بدقة » ؟ ثم لمـا يحدثني بتلك اللهجة ؟ نعم ... إنها اللهجـة ! إن رازوميخين كان حاضراً معي فلمَ إذن لايشك في شيء ؟ إنه لا يشك في شيء ذلك الأخرق !.. آه ... هـا هي ذي الحمى من جديد ... هل غمز لي بورفير بعينه منذ لحظات أم لا ؟ لقد كان ذلك ولا شك فظيعاً ... لمَ يغمز لي بعينه ؟ هل يريدون ارهـاق أعصابي والدفع بي الى آخر درجات الاحتمال ؟ إما أن يكون وهمـاً وإما أن يكونوا عارفين كل شيء ! حتى زاميوتوف نفسه يبدو مهيناً في تصرفه ! لكن هل هو مهين حقـاً ؟ لعله أمضى الليل مفكراً ... كنت أعرف أنه سيفكر ! إنه هنـا كما ولو كان في منزله ! مع ذلك فهذه هي المرة الأولى يتقابلان فيها ! إن بورفير لا يعتبره كزائر إنه يـدير له ظهره وهو جالس . إنهما متفقان ! لقد اتفقا على « موضوعي » ! لا شـك إنهما كانا يتحدثان عني عنـد ما وصلت . لكن هل يعرفان إنني ذهبت الى ذلك المسكن مؤخراً ؟ آه ... سوف أعرف ذلك بسرعـة . عند ما قلت إنني فررت لأفتش عن مسكن جديد لم يعر هذه الجملة التفـاتا ... نعم ، لقـد تصرفت ببراعة إذ حشرت قضية المسكن الجديد لأن ذلك قـد يفيدني في المستقبل . . ! في حـالة هذيان ... فكر قليلاً هاهاها ! إنه لا يجهل شيئاً مما وقع أمسية البارحة ثم يجهل وصول أمي ! آه تلك الساحرة ! لقد كتبت التـاريخ بالقلم ! إنك تكذب ! لن استسلم لأن هذه ليست بعد أدلة ... إنها سراب ، أهذا ما تسمونه « الوقائع»

والادلة ؟ إن زيارة المسكن نفسها ليست دليلا إنهسا تفسر بالهذيان ، انني اعرف ماذا يجب أن أقول لهم ... لكن هل يعرفون بما تم في ذلك المسكن ؟ لن أذهب قبل أن أتأكد من الأمر ، لكن لمَ جئت ؟ حسناً ... ها إنني على وشك الاسترسال في الغضب ، إن ذلك وحده يشكل دليلاً . بوه، كم أناسريع الغضب، لكن لعل ذلك أفضل... سابقي في دوري كالمريض !.. اسوف يرهقني..ليجعلني أفقد السيطرة على أعصابي ... لم جئت ؟ »

مرت كل هذه الافكار في رأسه بسرعة البرق الخاطف... وفي تلك اللحظة عاد بورفير بيتروفيتش بادي الانشراح وقال مخاطباً رازوميخين ببشاشة :

— يا عزيزي ... لقد كان رأسي ... بعـــد حفلتك أمس ، ولا زلت حتى الآن مبلبلاً .

— طبعاً لأن الأمر كان يستحق الاهتمام . ولقد تركتكم مساء أمس في أدق المواقف، من منكم انتصرا خيراً ؟

— شخصي الضعيف بالطبع . لقد ركبوا جميعهم أراءهم السخيفـة وراحوا يركضون بها مسرعين .

فقال رازوميخين موجهاً حديثه الى راسكولنيكوف :

— تصور يا روديا انهم بدأوا النقاش حول هذه النقطة : « هل ثمة هنـاك جرائم أم لا . » لقد كانت فظيعة جداً تلك السخافات التي صدرت عنهم في ذلك النقاش .

فقال راسكولنيكوف بصوت حالم :

— انها مع ذلك مسألة اجتماعية من أكثر المسائل شيوعاً .

فاعترض بورفير قائلا :

— إن المسألة لم تكن محدودة على هذه الصورة .

فابدى رازوميخين موافقته وقد استسلم للتحمس على عادته وقال :

— لم تكن تماماً كما قلت ، صحيح ، انتبه يا روديا ... اسمع واعطني رأيك انني ألح على سماع رأيك ، وقد كنت أغلي في جلدي البارحة بانتظار حضورك ، وقد أخطرتهم بانك ستحضر ، إن وجهة نظرهم معروفة وهي : الجريمة هي استنكار ضد التنظيم الاجتماعي السيء . هذا فقط ولا عذر آخر يقبلونه .

فصاح بورفير بتروفيتش :

— لقد كذبت !

وكان بادي التيقظ لا ينفي يضحك وهو يرقب رازوميخين الامر الذي زاد في اثارة هذا الاخير .

فقاطعه رازوميخين وهو يتقد كشعلة نار :

— أي عذر آخر غير مقبول ! ... انا لا اكذب ! لسوف أضع أمام عينك كل كتبهم انهم لا يعترفون الا على ان كل شيء يصدر عن « الوجـــود الفاسد الوسط » ولا شيء غير هذا ... تلك هي جملتهم المفضلة ومن ذلك يستنتجون أنه إذا عمد الى اعادة المجتمع فان الجرائم ستختفي ! خطوة واحـــدة فقط . . . لأنه ليس ينبغي عندئذ ما يحتج الانسان عليه ولسوف يجد الجميع انفسهم عادلين بمثل لمح البصر ! اما الطبيعة فليس لها حساب ! ان الطبيعة نفسها قد القي بها الى الباب ! لأنهم لا يتقبلونها ! انهم لا يعتقدون ان هذه الاشياء مردها الى الانسانية التي تتطور حسب الامتداد التاريخي « بشكل عنيف حي » بحيث سيمكنها اخيراً من تشكيل مجتمع خاضع للقـانون مجتمع طبيعي ! بل انهم يؤمنون بالعكس ... يؤمنون بلون أو نظام اجتماعي ينبعث من دماغ رياضي . يستطيع بلهجة واحـدة ان ينظم الجنس البشري كله وان يجعله عادلاً وغير قابل للخطأ وانه أفضل من أي نظرية لتطور حيوي وأفضل من كل النظريات التاريخية والحية . ومن أجل

هذا تراهم بغريزتهم يكرهون التاريخ لأنه : « ليس فيه الا تشويهات وحماقات » على حد قولهم ! ولهذا السبب أيضاً يكرهون أعظم الكراهية التطور « الحيوي» للحياة : غذاء الروح « الحية » ! ان الروح الحية لها متطلباتهـا ، ان الروح الحية لاتخضع بشكل آلي ، ان الروح الحية متشكلة بطبعها ، ان الروح الحية مبدعـة فاذا ماتت فانه لايمكن ان نصنع واحدة من المطاط « كاتشوك » وهي بالطبع لن تكون حية لتكون وديعة تخدم ولا تتمرد ! كل هـذا لكي نصل الى حيث قادونا لتؤمن بعدد من القرميد مقسم الى ممـاشي وغرف يطلقون عليها اسم « الفالانستري (١) » ان هذا المأوى جاهزة عندهم ولم يبق الا الطبيعة التي لاتتفق واياه . فهي تريد الحياة : انها لم تنته بعد من سنة التطور الحيوي وترى انه لم يحسن الوقت بعد لتدفن ! ان من المستحيل ان يقوم المرء . بقفزة فوق الطبيعة مستعيناً بالمنطق فقط ، ان المنطق يكشف عن ثلاث نقاط بينما هناك الملايين ! فلنحذف اذن تلك الملايين من النقاط لنقصر على مسألة الرفاه وحدها ... انها اسهل الطرق لحل المعضلة ! انه امر عظيم .الوضوح حتى ليغري المرء بالاستسلام اليه !:لن تكون هناك حاجة الى التفكير ، طبعاً ان الأمر الرئيسي هو انه لم تعد هناك حاجة الى التفكير ! كل اسرار الطبيعة يمكن ان تحصر وتحشر في ورقتين مطبوعتين !

فقال بورفير ضاحكاً :

— هاها ! ... هاهو ذا قد انحل عقاله ! بالانفجار !اقبضوا على ذراعه ! .. تصور ياراسكولنيكوف انه كان على هذه الحال أمس وكان هـذا الانفجار يقع في غرفة وحيدة تدوي فيها خمسة او ستة اصوات معاً والا وهي ، انه كان قبل ذلك قد اغرقنا في الشراب فتصور الموقف الآن ! كلا ياصديقي ... انك على خطأ .

---

(١) مسكن الوحدة الاشتراكية !

انَّ « الوسط » على جانب عظيم في الجرائم : انني أؤكد لك ذلك !

ـــ وانا أعرف أيضاً أنه ذو تأثير كبير لكن قل لي بربك : ذلك الرجل الذي في الأربعين من عمره والذي ينتهك عرض فتاة في العاشرة من عمرها . هل هو الوسط الذي جعله يميل الى ذلك ؟

فأجاب بورفير بلهجة جدية مدهشة :

ـــ بالمعنى الصحيح للكلمة ، يجوز أن نقول أنه الوسط . ان انتهاك عرض فتاة يمكن ان يفسر بوضوح تحت تأثير « الوسط » .

كاد رازوميخين ان يثور من الغضب فقال مزمجراً :

ـــ حسناً ... اذا شئت « سأثبت » لك فوراً أنه اذا كانت اهدابك بيضاء فان ذلك سببه ان برج جرس « سان جان كلماك » يرتفع الى علو مائتين وثلاثين قدماً . ولسوف اثبت لك ذلك بوضوح ودقة والتدريج بل وبشكل متحرر من المذاهب الدينية . لسوف استطيع فهل تقبل الرهان ؟

ـــ اقبل . انني في شوق الى معرفة الوسيلة التي ستستخدمها لتصل الى ذلك الاستنتاج .

فصرخ رازوميخين :

ـــ هيا ... انك لاتحسن الا التلاعب بالالفاظ يا للشيطان ! ثم قفز من مكانه وقام بحركة فيها معنى التحدي وقال :

ـــ هل يستأهل التحدث معك كل هذا العناء ؟ انه يلجأ الى هذا بناء على خطة مرسومة ! انك لاتعرفه بعد يارودينا . لقد كان البارحة يؤيدهم لا لشيء الا ليزيد في هياجهم وجنونهم . والله يعلم ما هي النقاط التي استخلصها البارحة . أما هم فقد كانوا يهتزون طرباً لسماعه ... إنه قادر على السخرية خمسة عشر يوماً متتالية ! لقد اوهمنا في العام الماضي بأن في نيته ـ لسبب ما ـ ان يدخل في سلك

الكهنوت ولقد أستمر شهرين يسخر منا على هذا الشكل . وحديثاً خطر يساله أن يوهمنا بأنه سيتزوج وإن كل شيء قد اعد للحفلة . حتى أنه أوصى على ثوب جديد . ولقد رحنا نهنئه ولم يكن ينقصه الا . . . الزوجة الموعودة. كان كل شيء سرابا .

ـــ ان هذا غير صحيح ! لقد أوصيت على الثوب أولاً . ولقد خطر لي أن أسخر منكم قليلاً عندئذ والفكرة نبتت في رأسي من الثوت الجديد .

فسأل راسكولنيكوف باهمال :

ـــ هل حقيقة انك محب للسخرية الى هذا الحد ؟

ـــ هل كنت تعتقد أنني لم أكن ساخراً ... حسناً انتظر لسوف اصطادك أنت الآخر . ها ها ها ...! كلا ... لسوف اقول لك الحقيقة وعلى فكره كل هذه المسائل : الجريمة والوسط والفتيات الصغيرات ، لقد تذكرت في هذه اللحظة مقالاً كتبته أنت بعنوان « جريمة » أو أي عنوان آخر مماثل ، لااذكره ! ان هذا المقال اثار اهتمامي ولقد كنت مجدوداً اذ قرأته منذ شهرين في جريدة « الباروك بيريوديك » (الكلمة الدورية) .

ـ مقالي ؟ في هذه الجريدة ؟ آه صحيح لقد كتبت مقالاً منذ ستة أشهر عندما خرجت من الجامعة لكنني ارسلته الى « الباروك هيبدومادير » . . . (الكلمة الاسبوعية) .

ـ حسناً ولكنه آل الى جريدة (الكلمة الدورية) :

ـ لكنهم لم ينشروها في ذلك الحين لأن تلك الجريدة قد توقفت عن الصدور ...

ـ صحيح لقد توقفت عن الصدور ولكنها انضمت الى الجريدة الاخرى ولهذا السبب ظهر مقالك منذ شهرين في الجريدة الاخيرة . ألم تكن تدري بذلك ؟

كان راسكولنيكوف يجهل هذا التفصيل فاسترسل بورفيربيتروفيتش :

ـ انك تستطيع استغلال مقالك مادياً ... ياللعقلية الغربية التي عندك ! أنك تعيش في وحدة عجيبة حتى انك لاتلاحظ الاشياء التى تهمك أهمية وثيقة ... ان هذه ملاحظة دقيقة !

فهتف رازوميخين :

ـ مرحى ياروديا ، وأنا أيضاً كنت أجهله ... لسوف أهرع اليوم بالذات الى مكتب القراءة لأطلب هذا المقال ! لقد مضى على ظهوره شهران ؟ أي تاريخ على على الضبط ؟ حسناً هـــذا لا يهم لسوف أبحث . . . تلك هي نكتة طيبة ! ولا يعترف بهـا !

ـ ولكن كيف استطعت ان تعرف بان المقال لي وانا لم أوقع علية الا بالاحرف الأولى ؟

ـــ مجرد الصدفة ! كان ذلك منذ أيام وقد عرفته بواسطة المدير الذي لي به بعض الصلة . لقد اجتذب مقالك كل اهتمامي .

ـــ اذكر انني كنت أحلل فيه الحـالة النفسية لقـاتل خلال كل مراحل جريمته .

ـــ وكيف ! لقد كنت تبرهن على أن ارتكاب الجريمة ترافقـه دائماً حالة مرضية ! إنها وجهة نظر مبتكرة ، جديدة تماماً ! لكن ليست هـذه الناحية من المقال هي التي استلفتت انتباهي ... هنالك فكرة ما أوردتها في نهاية المقال ولسوء الحظ إنك لم تعن بايضاحها عناية جيدة بل اقتصرت على التلميح اليها تلميحـــاً غامضاً . والخلاصة ـ اذا كنت تذكـر ـ فانه بحسب فكرتك تلك فانه سيكون هناك بعض الأشخاص الذين يستطيعون أعني لا يستطيعون فحسب بل إن لهم كل الحق في أن يرتكبوا أي لون من الاعمال المخلة ومن الجرائم وأن القانون بالنسبة اليهم لا وجود له !

ابتسم راسكولنيكوف لذلك التفسير الاختياري الغادر لفكرته بينما هتف رازوميخين بشيء من الخوف :

ــ كيف ؟ ماذا ؟ الحق في ارتكاب الجريمة ؟ لعلك تقول أن ذلك أيضاً نتيجة « لتأثير الوسط » ؟

فقال بورفير بيتروفيتش :

ــ كلا كلا ... إنه ليس هذا تماماً . المسألة هي أنه في مقاله قسم الناس الى نوعين : مخلوق « عادي » ومخلوق « غير عادي » وفرض على « أولئك » أن يعيشوا مطيعين دون أن يعطيهم الحق في تجاوز القانون وخرقه لأنهم كما ترى مخلوقات عاديون أما الآخرون فان لهم الحق في ارتكاب كل الجرائم وخرق كل قانون لمجرد كونهم مخلوقات غير عاديين ! أليست هذه فكرتك أم تراني مخطئاً ؟

فغمغم رازوميخين :

ــ كيف ذلك ؟ لا يعقل أن تكون كذلك !

بينما عاد راسكولنيكوف من جديد الى ضحكته الساخرة . فهم للوهلة الاولى الهدف الذي يقصده بورفير وعرف ما يريد أن ينتزع منه ! كان يذكر مقاله لذلك فقد قبل التحدي . فشرع يقول ببساطة واعتدال :

ــ ليس الامر كذلك تماماً . غير انني أعترف على كل حال بانك فسرت فكرتي « بامانة » تقريباً بل لنقل إنك فسرتها بأمانة تامة ! (لقد كان يسره الاعتراف بان تلك الفكرة قد فسرت بأمانة). إنما الفرق كل الفرق هو في أنني لا ألح أبداً على أن يكون الاشخاص غير العاديين مدعوين الى ارتكاب كل الاعمال المخلة وفي كل مناسبة كما فسرت الامر . لو كان ذلك صحيحاً لحذفت المراقبة المقال ولمنعته ! لقد برهنت أو أبرزت ببساطة أن الرجل غير العادي ولنقل المتفوق له الحق ــ ولا أقصد الحق الرسمي ــ بل أنه له الحق شخصياً أن يسمح لوجدانه

بتخطي ... بعض العقبات وبصورة خاصة في الحالات التي يقتضيها تنفيذ فكرته التي يتوقف عليها انقاذ الجنس البشري كله .

إنك تزعم ان مقالي كان ينقصه الوضوح وأنا على استعداد لتفسيره لك في حدود الممكن ! إنني لا أخطئ إذا افترضت ان تلك هي رغبتك كما يبدو ! حسناً ... انني رهن أوامرك :

« إنني أرى ان اكتشافات كيبلر(١) ونيوتن مثلاً إذا قدر لها لسبب من الاسباب أن لا تتم إلا بتضحية حياة رجل أو عشرة رجال أو أكثر من المائة رجل الذين أرادوا مثلاً أن يحولوا دون ظهورها أو أن يعترضوا سبيلها ، فان لينوتن عندئذ الحق بل ان من واجبه أن « يزيح » هؤلاء العشرة أو المائة من الرجال لينهي اكتشافاته الى البشرية ! غير أن ذلك لا يعني بالمقابل ان لينوتن - بموجب هذا - الحق في أن يفتك بكل من يريد أو أن يسرق كل يوم في الاسواق !

ثم انني أذكر انني شرحت هذه الفكرة في مقالي بما يلي :

ان كل - ولنسمهم - المنشئين ، البناة ، المشرعين لخير الانسانية ، ابتداءً من أقدم القدماء منهم من : ليكورك (٢) Lycurgue

---

(١) فلكي الماني ولد عام ١٥٧١ وتوفي عام ١٦٣٠ ، اخرج عدة مؤلفات هامة أهمها « قوانين كيبلر » التي استطاع نيوتن بفضلها استنباط نظرية الجاذبية . - المترجم - .

(٢) ليكورك : شخص اعتبر مشرع سبارتا ، طاف في بلاد كثيرة وعاد بتجاربه وملاحظاته فوضع قوانين وطنه . عاش - بحسب الاسطورة - في القرن التاسع قبل الميلاد . - المترجم -

وسولون(١) Solon ونابوليون الخ ... كلهم كانوا قتــلة رغم أنهم بدون ذلك ما كانوا ليستطيعوا ابداع قانون جديد . فقد عمدوا جميعهم الى فسخ القوانين القديمة التي كانت مقـدسة من قبل المجتمع وموروثـة عن الاقدمين . واضطروا لبلوغ غاياتهم أن يهدروا الدم فلم يتراجعوا عند ما أصبح ذلك الدم — رغم انـه كان دم بريء أحياناً يسفح فداءً للعقيدة السابقة — يسهل مهمتهم . وينبغي كذلك أن نلاحظ أن معظم هؤلاء المحسنين وبنـــات الانسانية كانوا وحوشاً دمويين بصورة خاصة . ومن هنا نستنتج إنهم جميعاً — ولا أقول الكبار منهم — كانوا مستعدين بطبيعتهم لأن يكونوا قتلة على شكل ما لمجرد انهم كانوا أعلى من الوسط أي لمجرد أن أتوا بشيء جديد ! كان عسيراً عليهم أن يرتفعوا عن الوسط بغير هذا الاسلوب ولم يكونوا ايرتضوا البقاء فيه وذلك نظراً لاستعـدادهم الطبيعي . واني أرى انه كان من واجبهم أن لا يبقوا في الوسط . والخلاصة انك ترى أنـه لا يوجد شيء جديد جداً حتى الآن في كل هذا !

أما فيما يتعلق بتقسيمهم الى اشخاص عاديين وغير عاديين فانني أوافقـك على انها فكرة غير مدروسة تماماً لكنني لم اذكر ارقامـاً دقيقة . وأنا لا أؤمن إلا بوجهة نظري الرئيسية . وهي تقوم على اساس ان المخلوقات بحسب قوانين الطبيعة ينقسمون « بصورة عامة » الى قسمين : القسم الاول وهم المرؤوسون ، اولئـــك الذين لا يصلحون الا ليكونوا « مادة » تصلح فقط للتزاوج واكثار النسل ، أما القسم الثـــاني ، فهم الموهوبون الذين أعطوا ميزة النطق في وسطهم « بكلمة

---

(٣) مشرع أثينا وواحد من حكماء اليونان السبع ٦٤٠ — ٥٥٨ قبل الميلاد كان ذو فضل عميم على مواطنيه من الناحية التحريرية . — المترجم —

من جريدة » . هناك ولا شك تقسيمات ثانوية عـــديدة جداً ولكن الخطوط الايضاحية لهذين القسمين حاسمة تماماً . القسم الاول أي قسم « المـادة » تضم في عدادها أولئك المحافظين بالفطرة ، المطيعين الخاضعين الذين يسرهم ان يحيوا في الطاعة ، فهم ـ على ما أرى ـ مدعوون الى الطاعـــة لان ذلك هو مصيرهم الذي لايجدون اية غضاضة فيه . أما القسم الثاني ، المنشئون ، فانهم جميعاً يخرقون القانون ، كلهم مدمرون أو أن لديهم استعداداً ليكونوا كذلك ، بحسب ميزاتهم واستعداداتهم . فجرائم هؤلاء الرجال هي ولا شك تابعة لارائهم واهـــدافهم ومتعددة الاشكال ، غير أن معظمهم يتطلبون بواسطة وسائل متفرقـة متعددة ، تهديم الحاضر باسم شيء افضل . فاذا اقتضى الأمر واحداً منهم ان يمر فوق جثة أو نهر من الدماء فانه ـ بحسب وجهة نظري ـ ان يقرر بكل راحة ضمير المرور فوق ذلك النهر من الدماء في سبيل فكرته وبموجبها فقط ـ ولاحظ هذا الشرط ـ

لقد قلت في أن مقالي ان الرجال لهم الحق في يقتلوا على هذا الاساس وفي هذا الاتجاه . انك تذكر باننا بدأنا بحثنا من نقطة قضائية (شرعية) . ثم انـه ليس هناك من الاسباب ما يدعو الى كثير من الاستفسار ! لأن سواد الشعب ـ غالباً ـ لا يعترف لهؤلاء بهذا الحق بل انه يعذبهم ويقتلهم ـ على شكل من الاشكال ـ وهو في هذا يعمل استناداً الى حقه لأن السواد الأعظم من الشعب ولنقل « المجموعة » تنجز بهذا العمل مهمتها كمجموعة محافظة رغم ان تلك المجموعة بالذات ترفع عادة في الاجيال المقبلة التماثيل لأولئك الذين عـذبتهم وقتلتهم ، وتحرق البخور أمام تماثيلهم باكية (على شكل من الاشكال أيضاً) . رغم هـذا كله فان القسم الأول هو القسم السيد ، سيد الحاضر دائمـــاً ، وأما القسم الثاني فانه سيد المستقبل ! فاولئك يحافظون على زيادة الكمية العددية في العالم وهؤلاء يحركون العالم ويوجهونه نحو الهدف . ولهؤلاء كل الحق في الحياة . وبكلمة موجزة فان لـكل

في نظريتي حقا متساوياً وستبقى الحرب سجالاً ابداً ، حتى ايجاد أورشليم جديدة! فهل تجد كلامي واضحاً ؟

ـــ هكذا اذن تؤمن باورشليم جديدة !

فاجاب راسكو لنيكوف بصوت حازم :

ـــ انني اؤمن ...

كان راسكولنيكوف خـــلال الوقت الذي استغرقه شرح نظريته مطرقاً بعينيه الى الارض شاخصاً يبصره الى نقطة ما على السجادة .

ـــ و ... هل تؤمن بالله ؟ اعذرني اذا سألتك هذا السؤال المتطفل ...

فكرر راسكولنيكوف قوله وهو يرفع عينيه الى بورفير :

ـــ اؤمن !

ـــ وهل تؤمن بقيام اليعازار ؟

ـــ انا ... انني اؤمن ! لمَ تطرح علي هذه الأسئلة !

ـــ هل تؤمن بذلك حرفياً ؟

ـــ حرفياً ...

ـــ اسمح لي ان أعود اذن مجدداً الى ما كنت تقوله ... انه لمجرد الفضول . ألا تجـــد أن هناك بعضاً من السادة لا يرسلون دائماً الى الموت والعذاب بل على العكس ....

ـــ تقصد انهم يشهدون نتيجة اعمالهم في حياتهم ؟ آه نعم ! ان بعضهم يبلغ هذا الظفر في حياته ! لكن في هذه الحالة ...

ـــ انهم هم أنفسهم الذين يرسلون الآخرين الى الموت ؟

ـ عندما يقتضي الأمر ذلك فان غالبيتهم تنهج على هذا الشكل . ان ملاحظتك لاتخلو من الدقة !

ـأشكرك . لكن قل لي كيف يمكن التميز بين الرجل العادي والرجل غير العادي ؟ هل يلدون وفي أجسادهم علامات مميزه ؟ اريد أن اقول انه ينبغي هنا بعض التحديد أو على الآقل علامات خارجية مميزة ! ارجو ان تعذر هذا الاهتمام الطبيعي في الموضوع لدى رجل عملي حسن القصد . لكن أردت أن أقول : هل ينبغي هنا أن ُيلبس مثلاً لون خاص من الثياب أو أن يُحمل طابع خاص مميز ؟ لأنه ـ واعتقد انك توافقني ـ اذا بقي الأمر مختلطاً فان أي رجل عادي من هـذه الفصيلة سوف يعتقد انه يمت الى الفصيلة المفضلة وعندئذ لسوف يعمل « حـذفاً » و « ازاحة » في العوائق كما شرحت بجلاء وصفاء منذ قليل . وعندئذ ...

ـ صحيح ! ان هذا يحدث غالباً ! ان هذه الملاحظة اكثر دقةمن الاولى.

ـ اشكرك .

ـ العفو ! لكن أرجو أن تلاحظ بأن الخطأ لا يمكن وقوعه في هذه الحالة الا من فصيلة الرجال العاديين كما أسميتهم اذ أنهم على الرغم من انحرافهم النظري نحو الطاعة فان عدداً منهم ـ بفعل ميل طبيعي لاتخلو منه حتى البقرة ـ قد يميل الى اعتبار نفسه من الرجال المتقدمين « الهدامين » ويستمرون في البحث عن « الكلمة الجديدة » الأمر الذي يؤدونه باخلاص عميق وإنه ليحدث بينهم غالباً أن لا يلاحظوا أولئك الذين يمكن تسميتهم « بالمبدعين » فيحتقرونهم وكأنهم أشخاص متأخرون ذو تفكير منحط . لكنني أرى أنه لن يكون في ذلك خطر شديد فلا تبتئس لأنهم غالباً لا يقطعون شوطاً بعيداً ! صحيح أنه يجوز في بعض الحالات أن يتعرضوا للجلد بسبب اندفاعهم ليعـــادوا الى أمكنتهم ، ولكن ليس اكثر من هذا خصوصاً وإنهم ليسو في حاجة إلى من يتكفل بجلدهم . فهم على استعداد لاعطاء أنفسهم السوط لأنهم اشخاص شديدوالتمسك بالاخلاق والمثل حتي أن بعضهم يؤدي تلك « الخدمـــة » الى البعض الآخر هـذا إذا لم يقم بها بنفسه . ثم

إنهم يحتملون عدا عن هذا عقوبات علنية عديدة تجعلهممتحفظين حذرين والخلاصة لا أجد سبباً لقلقك ... ذلك هو القانون .

ـ حسناً . لقد طمأنتني من هذه الناحية على الاقل ولكن هناك بلاء آخر قل لي أرجوك . أهم عديدون أولئك الذين يحق لهم ذبح الآخرين أقصد أولئك «غير العاديين » ؟إنني بالطبع على استعداد الانحناء أمامهم لكنك لاتستطيع إلاأن توافقني بأن كثرتهم تحدث رعباً في النفس وبرودة في الظهر .

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة مماثلة :

ـ لاتكتئب من أجل هذا أيضاً إذ أنه على العموم لاتوجد كثرة من الرجال الذين لديهم « فكرة جديدة » أو الذين يستطيعون النطق بشيء « جديد » إنهمقلة بشكل غريب . إنما هناك شيء واحد واضح ذلك هو أن نظام ولادة الأشخاص في كل هذه الفصائل والاقسام ينبغي أن يكون موضحاً بشكل دقيق لايقبل الخطأ بواسطة قانون طبيعي وهذا القانون ـ كما لاشك يعتقد ـ هو في الوقت الحاضر مجهول . لكنني أؤمن بوجوده وبأنه سيصبح معروفاً في المستقبل ! إن على هذه الارض كتلة هائلة من الناس لم تخلق إلا لتنجب للعالم رجلاً واحداً يملك شيئاً قليلا من الاستقلال . وهي ـ هذه الكتله ـ تجهد نفسها في سبيل ذلك بحسب نظام تطوري غامض حتى الآن وبواسطة اشتباكمعينفي الأصول والانواع. أما أولئك الرجال الذين هم على درجة عالية من الاستقلال فانهم لا يخلقون إلا بمعدل واحد إلى عشرة آلاف والنسبة هنا فرضية ، أما الأرفع مكانة من هؤلاء فواحد إلى مائة ألف . والعباقرة موزعون بين ملايين من الرجال العاديين أما أولئك العباقرة العظام الذين هم تاج الجنس الانساني فانهم واحد الى ألف مليون بل ولعل العالم ينتهي قبل أن يولد واحد من هذا النوع . والخلاصة إنني لم أنظر في تلك البوتقة التي يصنع فيها كل هؤلاء . لكن هناك ولا شك

من هم على هذا القرار . وينبغي أن يكون هناك قانون محدود وعندئـذ لن يكون للصدفة وجود .

هتف رازوميخين :

ــ رباه ! لا شك أنكما تمزحان ! هل أنتما في سبيل الهزء على بعضكما ؟ هل تتحدث جدياً يا روديا ؟ . .

ران السكوت ورفع راسكو لنيكوف الى صديقه وجهاً شاحباً حزيناً ولم يجب والى جانب ذلك الوجه الهادىء المتألم بدا لرازوميخين أن لهجة بورفير كانت تحمل تحدياً صريحاً واستثارة غريبة و « قلة أدب » .

وعاد رازوميخين يقول :

ــ حسناً ياعزيزي . إذا كان كل هذا جدياً فانك على حق ولا شك إذ تقول أن ليس في هذا شيء جديد وإنه يشبه ما قرأناه وسمعناه ألف مرة بيد أن الجديد كل الجدة فيهذا الموضوع والذي لايمكن أن يكون لسواك والذي أنظر اليـــه برهبة هو تقريرك بأنه من الحق إهراق الدم بكل « راحة ضمير » . الأمر الذي تقرره ــ واسمح لي أن أقول ــ بكل تعصب إن في ذلك على ما أعتقـــد الفكرة الرئيسية لمقالك : ذلك السماح بسفك الدم « بكل راحة ضمير » ... يبدو لي أكثر فظاعة مما لو كان سماحاً رسمياً قانونياً .

فاجاب بورفير :

ــ صحيح تماماً . إنه أشد فظاعة .

وصرخ رازوميخين منفعلاً هائجاً :

ــ كلا لقد شططت كثيراً سوف أقرأ ... لقد شططت كثيراً لا يمكنك أن تفكر في هذا ... اسوف أقرأ المقال ..!

فاجاب راسكولنيكوف مهدئاً صديقه :

— لا يوجد شيء في المقال من هذا كله . إن ما فيه ليس إلا مجرد تورية .

فقال بورفير على الفور :

— نعم نعم . أستطيع الآن تقريباً . أن أرى بوضوح الطريقة التي تتصور بها جريمة ... أرجو أن تعذر إلحاحي فانني أرهقك كثيراً وإنني لجد آسف ... لكن أرى أنك منذ قليل طمأنتني كثيراً فيما يتعلق بالاختلاط الذي يمكن أن يقع بين الفئتين لكن هناك مع ذلك بعض الحالات التي تقلقني خشية أن تخرج هي الأخرى الى الخير العملي . لنفرض مثلاً أن رجلاً أو شاباً تصور أنه ليكرك - مستقبلاً بالطبع - وأنه راح فوراً يزيل العقبات التي تعترض سبيل القيام بمهمته فيحدث نفسه بقوله : « يجب علي أن أنجز مهمة شاقة طويلة وعليه يجب أن تزود هذه المهمة بالمال » وعندئذ يأخذ في تدارك ذلك المال وأنت ولا شك تتصور الآن بأي شكل . فاذا تقول في ذلك ؟

لم يكد بورفير يبلغ هذه النقطه من حديثه حتى صدرت عن زاميوتوف وهو في زاويته حركة تلفت النظر غير أن راسكولنيكوف لم يُمنّ حتى بالالتفات اليه بل أجاب بلهجة هادئة :

— ينبغي أن أعترف بأن حالات كهذه قابلة الوقوع . إن السخفاء والمغرورين هم غالباً الذين يبتلعون هذا الطعم وبصورة خاصة الفتيان الشباب .

— أرى أنك قد فهمت الأمر . وعندئذ ؟

فتضاحك راسكولنيكوف وقال :

— وعندئذ ؟ إنها ليست خطيئتي . إن ذلك واقع وسيقع دائماً .

ثم أشار الى رازوميخين وقال :

— انظر الى هذا لقد قال لي منذ قليل بانني سمحت باراقة الدم ولكن هل

المجتمع غير محمي بالنفي والسجون و « اللبانات » وقضاة التحقيق حماية كافية ؟ لمَ الاكتئاب إذاً ؟ « سيروا في أثر السارق » ...

— وإذا قبضنا عليه ؟

— يكون قد استحقها عندئذ .

— إنك منطقي على الأقل . ولكن ماذا بصدد وجدانه ؟

— وماذا يهمك من هذا ؟

— إنه سؤال أملاه شعور إنساني .

— على ذلك الذي يمتلك وجداناً أن يتعذب إذا كان يعترف بخطئه . إنه عقاب إضافة إلى عقاب الأشغال الشاقة .

فسأل رازوميخين وهو يقطب حاجبيه :

— لكن ... الرجال العباقرة . أولئك الذين أعطي لهم حق القتل لا ينبغي لهم أن يتألموا مطلقاً حتى ولو أراقوا الدم . أليس كذلك ؟

— لمَ هذه الكلمة « لا ينبغي لهم » ؟ ليس هناك سماح ولا منع . ليتألم ذلك الذي يشفق على ضحيته ؛ إن الألم إجباري بالنسبة لضمير كبير وقلب عميق . إن على الرجال العظام — على ما يبدو — أن يتألموا على الأرض ألماً شديداً .

نطق راسكولنيكوف بهذه العبارات الاخيرة وهو ساهم وبلهجة فريدة لم تصدر منه منذ بدء الحديث . ورفع عينيه ونظر إلى محدثيه وعلى وجهه مسحة من الاستغراق ثم أخذ قبعته في يده . كان هادئاً جداً بالنسبة للطريقة التي دخل بها أول مرة منذ قليل وكان يشعر بذلك شخصياً فنهض الحاضرون جميعاً وقال بورفير بيتروفيتش بلهجة من يختتم حديثاً :

— سواء شتمتني أم لم لشتمني وسواء غضبت أو لم تغضب فان ذلك كان

أقوى من أن أستطيع كبته . وإنني ـــ إذا سمحت ـــ لازلت أحتفظ بسؤال صغير رغم أنني أضايقك : أحب أن أعرض فكرة صغيرة خشية أن أنساها .

فاجاب راسكو لنيكوف بلهجة خطيرة وهو شاحب الوجه :

ـــ حسناً ، قل فكرتك الصغيرة ... ووقف أمام قاضي التحقيق وقفة المنتظر .

ـــ حسناً ... الحقيقة أنني لست أدري كيف أعبر عن رأيي بالشكل الأفضل ... إنها فكرة قريبة من المجون ... فكرة « بسيكولوجية » ... أردت أن أقول : عند ما كنت تدبج مقالك ، ألم يحدث مثلاً أن اعتبرت نفسك رجلا غير طبيعي تحمل « كلمة جديدة » في المعنى الذي تفهمه ؟ ألم يحدث ذلك ولو لفترة وجيزة ؟

فاجاب راسكولنيكوف باحتقار :

ـــ محتمل جداً .

ولم يتمالك رازوميخين نفسه آنئذ من إظهار انفعاله بالحركة بينما أضاف بورفير بيتروفيتش :

ـــ لئن كان كذلك . ألا يمكن أن تكون ـ بسبب إصلاح بعض العثرات الشخصية أو التخلص من الارتباك أو مثلاً لزيادة سرعة سير الانسانية إلى الامام ـ أردت أن أقول ألم يحدث لك لهذه الاسباب أن تكون قد قررت تخطي العقبة ؟ مثلا القتل والسرقة ؟

وفجأة غمز بعينه اليسرى وضحك ضحكة مكتومة كما وقع منه منذ قليل تماماً. فاجاب راسكولنيكوف بلهجة احتقار متعالية وبتحد :

ـــ لو أنني اجتزت العائق لما كنت أحدثك عن اجتيازي له بالطبع .

ـ طبعاً كلا ! إن شيئاً واحداً يثير اهتمامي في كل هذا وهو طريقة تفسير مقالك من وجهة نظر أوربية بحته .

راح راسكو لنيكوف يخاطب نفسه بقوله : « بوه ! إن الغاية واضحة تماماً» ثم أجاب بصوت مرتفع قائلا :

ـ اسمح لي أن ألفت نظرك إلى أنني لا أعتقد في نفسي انني نابليون حتى ولا أي شخص من هذا الطراز وعلى ذلك وبما أنني لست واحداً منهم فانني لا أستطيع إعطاءك جواباً مقنعاً عن الطريقة التي أسلكها .

فاجابه بورفير بلهجة أليفة جداً :

ـ هيا واسمح لي ! مَن منا في روسيا الان لا يعتقد نفسه نابليوناً ؟

كان في تلك الجملة شيء خاص واضح يمكن إدراكه من اللهجةالتي قيلت بها خصوصاً حينما قال زاميوتوف دون أن يبارح زاويته :

ـ أوليس نابليوناً « مستقبلاً » ذلك الذي ذبح في الاسبوع الماضي آليونا إيفانوفنا ؟

صمت راسكولنيكوف وحدق في وجه زاميوتوف بنظره حازمة ثابتة بينما اشتد انفعال رازوميخين ... لقد بدأ هذا يلاحظ منذ لحظة قصيرة أن في الجو شيئاً لذلك فقد أخذ يجيل فيمن حوله نظرة غاضبة وقد خامره الشك فيما ينتوون ومضت دقيقة من سكون مخيف استدار راسكو لنيكوف بعدها يحاول الخروج .

هتف بورفير بوداعة وهو يمد يده بتودد عظيم :

ـ أتذهب إذن ! لقد كنت سعيداً جداً جداً بالتعرف إليك . أما فيما يتعلق بطلب الاسترداد فلا تشكن في أنه لن يكون ذا نتيجة مرضية . فقط اكتب في المعني الذي بينته لك أو من الافضل أن تأتي لزيارتي بنفسك يوماً ما ولنقل غداً

مثلا وسأكون هنا في الساعة الحادية عشرة ولا شك أننا سنرتب كل هـــذا وسنتحدث ... وباعتبارك واحداً من الذين كانوا آخر من ذهبوا الى « هنـاك » فعلك إذاً تستطيع أن تحدثنا بشيء ...

كان بورفير يتحدث ببراءة الطفل . لكن الغاية لم تفت على راسكو لنيكوف فقال بجفاء :

ـــ إنك تريد استجوابي رسمياً متخذاً كل الاجراءات المرعية ؟

ـــ لمَ بالله ؟ أنا لا أرى داعياً لذلك في الوقت الحاضر . إنك لم تحسن فهمي ألا فاعلم انني لا أترك فرصة تسنح لي تفلت مني . وإني تحدثت حتى الآن مع جميع الذين أودعوا أشياء قيد الرهن ولقد استطعت اقتطاف بعض الدلالات من أقوال بعضهم وعلى ذلك فانك الاخير . وعلى فكرة لقد تذكرت . يا للرأس التي أحملها !

وانفجر ضاحكاً بسرور عميق واستدار نحو رازوميخين وأضاف :

ـــ إنك تذكر ذلك الـ « نيكولاشكا » الذي صدعت أذني بشأنه . حسناً إنني أعرف شخصياً بل إنني متأكد (وهنـا استدار الى راسكولنيكوف) أن هذا الفتى بريء لكن ما العمل ؟ لقد اضطررنا إلى ازعاج ميتكا أيضاً والآن هذا ما كنت أود أن أقوله : « عند ما صعدت السلم آنـذاك ... اسمح لي ... ألم يكن ذلك حوالي الساعة الثامنة ؟

ـــ حوالي الساعة الثامنة !..

لكن راسكولنيكوف شعر فجأة باستياء من نفسه لأنـه كان يستطيع أن لا يجيب بتلك الاجابة .

ـــ إذاً عند ما كنت تصعد السلم حوالي الساعـة الثـامنة ، ألم تر في الطبقة الثانية وفي مسكن مفتوح الباب ، أتذكر ؟ ألم تر عاملين أو على الاقل واحـداً

منها ؟ لقد كانا في ذلك الحين يطليان الجدار ، فهل لاحظتها ؟ إن هـــذا عظيم الأهمية بالنسبة اليها !

فاجاب راسكولنيكوف بلهجة من يبحث في ذاكرته :

ـــ عمال دهان ؟

كان يستجمع كل وجوده ويتألم عظيم الألم وهو يحـاول أن يكتشف مكان الفخ المنصوب في هذا السؤال . وفجأة افتضح الشرك فعرفه واسترسل يجيب :

ـــ كلا ! إنني لم أر أحـداً كما إنني لم ألاحظ وجود مسكن مفتوح البـاب لكنني شاهدت في الطبقة الرابعة موظفاً يخلي مسكنـه . وكان مسكنه قبـالة مسكن آليونا إيفانوفنا . نعم إنني أذكر ذلك بشكل واضح جـداً . لأن بعض الجنود كانوا ينقلون الاثاث واضطروني الى الالتصاق بالجدار كي يتاح لهم المرور. أما العمال الذين تتحدث عنهم فانني لا أذكر وجودهم وأعتقد أنه لم يكن هنـاك مسكن مفتوح أبداً ، كلا ! لم يكن ...

وهتف رازوميخين كما لو أنه فهم الأمر فجأة :

ـــ لكن ماذا دهاك ؟ إن العمال كانوا يدهنون في يوم الجريمة بالذات . أمـا هو فقد كان هناك قبل ذلك ! فما هو السؤال الذي تسأله ؟

هتف بورفير وهو يضرب جبهته بيده :

ـ هيه ! لقد اختلط علي الأمر ... ليحملني الشيطان ... إن هـذه القضية تفقدني العقل .

ثم استدار نحو راسكولنيكوف وقال وكأنه يعتذر :

ـــ إننا نهتم جداً بمعرفة ما إذا كان أحد قد شاهد ذنيك العـاملين حوالي الساعة الثامنة في ذلك المسكن . ولقد أجهدت نفسي في محادثتنا هذه حتى اختلط علي الأمر ولعلك تدرك ذلك .

فاجابه رازوميخين بلهجة ناقمة :

ـ كان ينبغي أن تكون أكثر انتباهاً .

نطق رازوميخين بهذه الكلمات بينما كان صديقه وراء باب المسكن الخارجي ورافقهما بورفير بيتروفيتش اليه ببشاشة فائقة غير أنهما كانا عابسين منفعلين حتى استمرا يمشيان في الشارع بضع خطوات قبل أن ينبث أحدهما بكلمة وبعدئـذ فقد تنفس راسكولنيكوف الصعداء ...

الفَصلُ السَّادِسُ

كان رازوميخين قلقاً مشتت الفكر يحاول بكل قواه أن ينقض استنتاجات راسكولنيكوف فكان يقول ويقرر : « لا أظن ذلك ، لا أظن ذلك » وكانا في تلك الأثناء قد بلغا منزل باكالييف الموثث حيث كانت بولشيري الكسندروفنا تنتظرهما منذ زمن طويل . وكان رازوميخين يتوقف في حمى النقاش بين لحظة وأخرى وهو فريسة اضطراب وانفعال كبيرين سببهما ذلك الحديث الصريح الذي سمعه منذ لحظات والذي لا يخلو من شك قريب من الاتهام. وكان راسكولنيكوف يجيبه بضحكة باردة حائرة :

ـــ حسناً ! لا تصدق ! إنك حسب عادتك لا تلاحظ شيئاً أما أنا فانني كنت أزن كل كلمة .

ـــ ذلك لأنك كثير الشك ولهذا السبب كنت تزن الكلمات . هم ! في الحقيقة ـ وأعترف لك ـ إن لهجة بورفير كانت غريبة وعلى الأخص ذلك الصعلوك «زاميوتوف» إنك على حق أما ما هو السبب فذلك ما لا أعلمه لكن لمَ ؟ لمَ ؟

ـــ لعله غير رأيه أثناء الليل .

ـــ لكن على العكس ، على العكس ، .. إذ لو أن هذه العرجاء كانت تحوم في رؤوسهم لكانوا عملوا ما في وسعهم لاخفائها بكل الوسائل ... كانوا أخفوا لعبتهم بانتظار الوقوع على آثار أخرى ولكنهم الآن يمضون في طريقهم بصفاقة ودون أية حيطة !

ـ لو كانت لديهم وقائع ، أقصد وقائع حقيقية أو على الأقل شكوك ترتكز على شيء من الصحة لعملوا ما في وسعهم على إخفاء لعبتهم مؤملين الاستزادة من الأدلة بل لعمدوا منذ أمد طويل الى اجراء تفتيش . لكن ليس لديهم دليل واحد إن كل هذا خيالي بحت لا رأس له ولا ذنب ولا يستند على شيء ولذلك فانهم يجهدون أنفسهم بالنيل مني بالصفاقة . ولعله هو نفسه ساخط لعدم وجود الأدلة لذلك لم يستطع كبت التحدي فأعلنه . ويجوز أيضاً أن تكون لديه بعض النوايا الخفية فهو رجل زكي كما يبدو واعله كذلك أراد أن يخيفني بتصنع المعرفة ... ان ذلك عنده مسألة نفسانية يا عزيزي . وإنني لأجد أن التماس التفاسير أمر مناف لذلك فلندع الأمر حيث هو ...

ـ ولكن ذلك مهين ، مهين ، إنني أفهمك ... لكني سأعترف لك بوضوح طالما أننا نتحدث بصراحة ـ وإنني لسعيد إذ بلغنا هذه المرحلة ـ أعترف لك بانني منذ زمن طويل لاحظت هذه الفكرة عندهم ولكنها كانت بالطبع لا تقوم على أية قائمة . لقد كانت في دور التلميح . أما وإنها قد رسخت في فكرهم ـ حتى ولو كانت على تلك الصورة البدائية ـ فان ذلك أكثر مما يطاق ! كيف يجرؤون على السماح لأنفسهم بالأخذ بمثل هذه الفكرة ؟ وفي أي ركن مظلم كانت مختفية ؟ ليتك تعلم درجة الغضب التي بلغتها بسبب ذلك !... هوذا طالب فقير يثقله العوز والهوس على وشك الانهيار تحت وطأة مرض مؤلم بلغ حد الهذيان، أو لعله كان تحت وطأة المرض فعلاً ـ لا حظ هذا ـ وهو مع ذلك نفور من الناس مملوء بالكرامة ذو وجدان من هذا المستوى ، عاش خلال ستة أشهر منعزلاً في حجر لا يرى أحداً ، يتقدم هذا الطالب إلى دائرة البوليس ـ بناء على دعوة ـ مرتدياً أسماله وفي قدميه حذاء سقط نعله وهناك يعرض لاهانات أمام أولئك الرجال القذرين ويحشر تحت أنفه بفجأة طلب استعادة مبلغ من المال عليه أن يدفعه الى المحامي

القضائي تشيباروف . وتكون رائحة الدهان الخانقة متصاعدة في الغرفة التي تبلغ حرارتها ثلاثين درجة بميزان ريئيمور والهواء خانق بسبب احتشاد الجمع المزدحم هناك ، فيسمعهم يتحدثون عن مصرع شخص كان البارحة عنده أضف الى ذلك الجوع الذي كان ينهش أحشاءه فكيف لا يغمى عليه بعد ذلك ؟ مع ذلك تراهم يبنون نظريتهم على أساس ذلك الاغماء . ألا ليحملهم الشيطان . إنني أعرف أن هذا مزعج مثير لكنني لو كنت في مكانك يا روديا لا نفجرت ضاحكاً رغم أنوفهم جميعاً بل ولعلمت خيراً من ذلك : كنت بصقت في أفواههم واستهزأت بهم لأنه يجب معاملتهم على هذا الشكل وبذلك أنتهي منهم ، لنبصق عليهم ولنتشجع! إنه لخجل .

غمغم راسكولنيكوف يناجي نفسه قائلا : « إنه يحسن عرض القضية » . ثم قال بصوت مرتفع تشوبه المرارة :

ـــ البصاق عليهم ؟ لكنني سوف أعرض غداً للاستجواب ! فهل يجب أن أصل لدرجة تقديم تفاسير اليهم ؟ إنني ناقم على نفسي لأنني أسففت البارحة إذ تحدثت الى زاميوتوف في ذلك المشرب .

ـــ ليحملهم الشيطان . سأذهب بنفسي الى بورفير وثق أنني سأعامله تماماً كما أعامل قريباً . لسوف أجعله يفرغ ما في جعبته . أما زاميوتوف ...

قال راسكولنيكوف يخاطب نفسه حينما بلغ صديقه هذه المرحلة : « وأخيراً فهم ! » بينما استمر هذا مسترسلاً بانفعال وقد قبض على كتف راسكولنيكوف بيده :

ـــ انتظر ، انتظر . لقد نطقت بحماقة منذ قليل . نعم لقد فكرت . إنك نطقت بحماقة ! أين تجد تلك الخطة الغادرة ؟ لقد قلت أن السؤال المختص

بالعاملين كان خطة غادرة ففكر قليلا وقل لنفسك أنك لو كنت ارتكبت « هذا » بالفعل فهل كان يعقل أن تسمح لنفسك بالاسترسال لدرجة الاعتراف بمشاهدة أولئك الذين كانوا يشتغلون في المسكن ويدهنونه ؟ على العكس . كنت لا تعترف برؤية شيء حتى ولو كنت قد رأيت إذ من الذي يشهد ضد نفسه ؟

فقال راسكولنيكوف الذي كان يتابع تلك المحادثة باشمئزاز واضح :

— لو أنني قد عملت « هذا » لكنت قلت حتماً بانني شاهدت العمال والمسكن .

— ولكن لمَ التحدث عن أشياء تعتبر ضد المتحدث ؟

— ذلك لأن أبناء الشعب وحدهم أو على الاصح المبتدئين تماماً المحرومين من كل تجربة هم أولاء الذين ينكرون دراكاً عندما يُسألون. أما الرجل الذكي المتدبر فانه لا يتأخر عن الاعتراف ـ ضمن حدود الممكن ـ بكل الوقائع المادية التي لا يمكن إزاحتها غير أنه يفسر تلك الوقائع بشكل ما ويرتبها حسب هواه ثم يعطيها معنى غير منتظر ويقدمها تحت ضوء جديد . وقد كان بورفير ينتظر تماماً أن أسقط في الشرك وأن أجيب بأنني شاهدت العاملين بقصد إعطاء أقوالي لوناً من الحقيقة وأن أرضي عن نفسي بالتفسير الذي أكون قد أعطيته .

— لكنه كان سيجيبك فوراً بان العاملين لم يكونا موجودين في اليوم الاسبق وإنك على هذا الاساس قد ذهبت الى هناك في يوم الجريمة تماماً ولكان سيوقفك فوراً .

— إنه كان يعتمد على أنني لن أجد فسحة من الوقت للتفكير وإذاً على أن

أتهافت على إعطاء جواب يبدو قريباً الى الحقيقة . كذلك كان ينتظر أن أكون قد نسيت بأن العمال ما كانوا هناك في اليوم الاسبق .

ـ لكن كيف يمكن على النسيان ؟

ـ على أسهل وجه .. في الواقع إن الاشخاص الاذكياء يسقطون رغم ذكائهم بسبب تفاصيل تافهة كهذه إذ أن المرء كلما ازداد مكراً زاد اعتقاده بأنه لا يمكن لسؤال تافه بسيط أن يسبب سقوطه . إن بورفير ليس غبياً كما تظن .

ـ لعمري ! إذا كان قد تعمد ذلك فانه يكون خبيثاً .

لم يتمالك راسكولنيكوف نفسه من الابتسام ، وبدا سروره من تقديم ذلك التفسير واقباله عليه غريبين في تلك اللحظة وهو الذي كان منذ قليل يشعر باشمئزاز شديد من تلك المحادثة فعزا ذلك الشعور الى الغاية التي كان يهدف اليها في تلك اللحظة . وراح يسائل نفسه : « هل تذوقت فعلاً بعضاً من هذه الاسئلة؟» ولم يلبث أن شعر فجأة بقلق وكأن فكرة غير منتظرة . فكرة مقلقة بدأت تراوده فراح قلقه يتزايد .

كان في تلك اللحظة قد بلغ منزل باكلييف فقال فجأة لصديقه :

ـ أدخل أنت وسأعود أنا بعد قليل .

ـ إلى أين تمضي ؟ ها قد وصلنا !

ـ لدي ما أعمله وإنه لواجب . وسوف أعود في غضون نصف ساعة . أخبرهم بذلك .

ـ افعل ما تشاء ! لكنني سأصحبك .

فهتف راسكولنيكوف بصوت منفعل مفعم بالمرارة :

ـ ماذا ؟ أتريد أنت أيضاً أن تعذبني ؟

وأشفع قوله هذا بنظرة يائسة جمت ذراعي رازوميخين الذين كان قــد رفعها الامساك به يسقطان الى جانبه ولبث لحظات واقفــاً أمام مدخل البـاب ينظر الى راسكولنيكوف الذي كان يمشي بخطى حثيثة باتجـاه الشارع الذي يقطن فيه .

راح رازوميخين يصرف على أسنانه ويقبض يديه بعنف وقوة ويقسم في سره ليعتصرن بورفير كما يعصر الليمون ثم صعد الى حيث بولشيري الكسندروفنا ـ التي كانت قد بدأت تقلق لغيابها ـ ليطمئنها .

بلغ راسكولنيكوف منزله وقـد غمر العرق صدغيه وهو يتنفس بصعوبة فصعد السلم مسرعــاً ودخل غرفته ثم أغلق بابها من الداخل بالمزلاج . وهرع بحركات مروعة الى الزاوية التي كانت سجادة الجدار تخفي الثغرة الكامنة وراءها والتي كان أودع فيها « الاشياء » من قبل فدفع يده فيها وراح خلال عـدة دقائق يبحث فيها بعناية فائقة وينظر بين الشقوق وخلال كل الثنيات . فلما لم يجد شيئاً ، نهض مطمئناً . تصور منذ حين حينما بلـغ منزل با كاليبف ، أن أي شيء كقطعة سلسلة أو زر أو الورقة التي كانت تلك الاشياء ملفوفة فيهـا والتي كانت تحمل تأشيرات مكتوبة بخط يد العجوز ، أي شيء من هـذا القبيل يمكن أن يكون قد سقط منه أو تخلف في الثغرة كان يشكل ـ اذا وجد خلال التفتيش المرتقب ـ دليلا جرمياً يدينه بما لا سبيل الى التملص منه ، فلما اطمـأن الى خلو المكان منهـا ، استغرق في لون من الشرود وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة مـذعورة وغير ارادية ... وأخيراً حمل قبعته وغادر الغرفة .

كانت الافكار تتزاحم في رأسه وتصطخب وهكذا راح يهبط السلم ساهما حتى بلغ الباب العمومي . فسمع صوتاً خشناً يقول :

ـ خذ ! هاهو ذا !

فرفع رأسه مستطلعاً : كان البواب واقفاً أمام كوخه يشير الى رجل قصير القامة يبدو عليه أنه صانع متواضع . كان يلبس ثوباً يشبه « الرودنكوت » وصدارة فيخيل للناظر اليه عن بعد أنه قروي . وكان يضع على رأسه قبعة قذرة ويمشي محني الظهر قليلا حتى لكأنه كان أحدباً . ومن النظر الى وجهه المجعد النحيل ، يبدو أنه قد تجاوز الخمسين . كانت عيناه غائرتين في محجريها فيها شيء من القسوة والشراسة والاستياء .

اقترب راسكولنيكوف من البواب وسأل :

ـ ماذا هناك ؟

فألقى عليه الرجل القصير نظرة من الاسفل وراح يتأمله بعناية وتمهل ثم أدار له ظهره ببطء وابتعد دون أن ينطق بحرف واحد وبلغ الشارع .

هتف راسكولنيكوف :

ـ ماهذا ؟ ماذا هناك ؟

فاجاب الحارس :

ـ هذا شخص جاء يسألني عما اذا كان طالب ما يقطن في هذا البناء . ولقد نطق باسمك وسأل عن اسم صاحبة مسكنك وعندئذ هبطت أنت، فذهب هو، وأنت ترى كيف كان ذهابه !

دهش البواب قليلاً لتصرف الرجل ولبث برهة يفكر ثم استدار هو الآخر ودخل كوخه . أما راسكولنيكوف فقد اندفع في أثر الرجل فاذا به يمشي في الجانب الآخر من الشارع بخطى متزنة بطيئة بادي التفكير وقد تعلقت نظراته بالارض . فتبعه وراح خلال بعض الوقت يتأثر خطاه وأخيراً حاذاه ونظر الى وجهه نظرة جانبية ولحظه الآخر فوراً فألقى عليه نظرة سريعة ثم عاد إلى إطراقه .

مشيا هكذا جنباً الى جنب طيلة دقيقة كاملة دون أن ينطقا بكلمة واحدة وأخيرا غمغم راسكو لنيكوف بصوت مكتوم:

— لقد سألت عني لدى البواب.

فلم يجب الرجل حتى ولم ينظر اليه وعاد الصمت من جديد فاختنق صوت راسكولنيكوف ووجد صعوبة في إخراج الكلمات وهو يقول:

— غريب! لقد جئت تسأل عني ثم اذا بك تصمت فما معنى هذا؟

رفع الرجل رأسه هذه المرة وحدج راسكولنيكوف بنظرة عدائية متوحشة وتمتم بصوت منخفض واضح بيّن المخارج:

— قاتل!...

كان راسكولنيكوف يمشي الى جانب الرجل القصير فشعر فجأة بساقيه تتخاذلان تخاذلاً مريعاً وأحس ببرودة تسري في ظهره وقد توقف قلبه عن الخفقان لحظة وكأنه انتزع دفعة واحدة. غير أنه استمر في سيره جنباً الى جنب مع ذلك الرجل يخيم عليهما الصمت. قطعا كذلك حوالي مائة خطوة لم ينظر الرجل خلالها اليه وأخيراً غمغم راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يسمع:

— لكن! ماذا تقول؟ ماذا؟ من هو القاتل؟

فاجاب الآخر بصوت واضح وبلهجة أعنف من الاولى:

— أنت القاتل!

وومضت على وجهه ابتسامة تفيض بحقد منتصر ثم نظر الى وجهه الشاحب وعينيه المتبلورتين نظرة ثابتة. كانا قد بلغا ملتقى طرق فسار الرجل في واحد منها دون أن ينظر حوله بينما لبث راسكولنيكوف مسمراً في مكانه يتابعه بعينيه فترة طويلة. فرآه يلتفت وراءه بعد قطعه خمسين خطوة لينظر اليه بينما ظل هو في مكانه جامداً لا يتحرك.

لم يكن راسكولنيكوف في وضع يسمح له بتمييز الأشياء بوضوح لكنه خيل اليه للمرة الثانية أن ذلك الغريب قد التفت من جديد ونظر اليه وابتسم ابتسامته الباردة الحاقدة المنتصرة .

عاد راسكولنيكوف أدراجه بخطى بطيئة متعثرة متخاذل الساقين مرتعداً من الرعب ولما بلغ مسكنه ألقى بقبعته على المائدة ولبث واقفاً بجانبها زهاء عشر دقائق وأخيراً مضى إلى السرير خائر القوى واستلقى عليه وهو يرسل زجرة أليمة فأغمض عينيه ولبث مستغرقاً في خواطره نصف ساعة كاملة .

لم يكن يفكر في شي باستثناء بعض الخواطر أو على الأصح نتف الخواطر التي كانت تعرض له دون ترتيب ولا تسلسل . وجوه أشخاص كان قد رآهم في طفولته أو لقيهم في مكان ما مرة واحدة فلم تعد تخطر له بعدها على بال ، قبة جرس كنيسة « ب » ... منضدة « بليار » في مشرب وبالقرب منها ضابط ما... رائحة سيكار في دكان تبغ في قبو ... سلم حانة ، سلم مظلم جداً تجري المياه الآسنة عليه وقد انتثرت في أرجائه قشور البيض بينما ارتفع من هناك قرع أجراس ربانية ...

كانت هذه الأشياء تتعاقب في مخيلته كالاعصار العنيف فكان بعضها محبباً إلى نفسه يتمسك به لكنه كان سرعان مايتبخر وعلى العموم كان في دخيلته شيء يثقل عليه ثقلاً غير شديد وكان يحس أحياناً بشيء من الراحة ولم تكن القشعريرة التي اكتسحت جسمه قد غادرته بعد . لكنها لم تعد بالنسبة اليه شيئاً مزعجاً .

سمع خطوات رازوميخين المتلاحقة فأغمض عينيه وتصنع الاغفاء وفتح رازوميخين الباب وظل واقفاً لحظة على العتبة ثم دخل بهدوء إلى الغرفة واقترب بحذر من « الديوان » وتناهى إلى سمعه همس ناستاسيا وهي تقول :

ـــ لاتزعجه . دعه ينم ملء عينيه ولسوف يأكل فيما بعد .

وصوت رازوميخين يجيب :

صحيح !

ثم خرجا بهدوء وأغلقا الباب ومرت على ذلك نصف ساعة أخرى فتح راسكولنيكوف عينيه بعدها وعاد يستلقي على ظهره من جديد عاقداً يديه تحت رأسه :

« من يكون ؟ من هو ذلك الرجل الذي انبعث من تحت الارض ؟ أين كان وماذا رأى ؟ لقد رأى كل شيء مافي ذلك شك! أين كان إذاً آنئذ ومن أين كان يراقب ؟ لمَ لم يظهر على مسرح الحوادث إلا الآن ؟ همْ ! وتلك الحلية التي وجدها « نيكولاي » وراء الباب ! هل كان ذلك ممكناً أيضاً ؟ أدلة جرمية ؟ إن نقطة تدرس بعناية يمكن أن تتحول إلى دليل يبلغ في حجمه مبلغ أهرامات مصر. هل يعقل أن تكون ذبابة كانت طائرة هناك فرأت كل شيء ؟ ؟ »

كان راسكولنيكوف يفكر في كل هذا والرعشة الباردة المتجمدة كامنة في جسمه وفجأة أحس بالاشمئزاز العميق من الضعف الجسدي البالغ الذي كان عليه . وتابع تفكيره بابتسامة ويأس مريرين :

« كان ينبغي أن أفكر في ذلك ! ثم كيف جرؤت ـ أنا الذي كنت أشعر شعوراً مسبقاً بما سيحل بي ـ كيف جرؤت على أخذ فأس وتلطيخ نفسي بالدم ؟ لقد أردت معرفة ذلك مسبقاً ! إيه ! لكنني كنت أعرفه من قبل ».

كان أحياناً يتوقف طويلاً أمام فكرة طارئة ويقول :

إن هؤلاء الناس لم يُصنعوا هكذا . إن « السيد » الحقيقي الذي يسمح له بكل شيء يضرب (طولون) بالمدافع وينظم مذبحة في باريس «وينسى» جيشاً كاملاً في مصر و « ينفق » نصف مليون رجل في معركة موسكو ثم ينسحب من الميدان بلغز في « فيلنا » إن « هذا » عند موته تقام له التماثيل وكل شيء إذاً

مسموح له . كلا إن هؤلاء الرجال ليسوا من لحم ودم بل إنهم من « البرونز ».

وجاءت فكرة أخرى على هامش هذه المسألة كادت أن تضحكه :

« نابليون ، الاهرامات ، واترلو ، وعجوز قذرة فانية أرملة مسجل كلية مرابية كريهة ، صندوقها مغلف بالجلد الأحمر وموضوع تحت السرير ! كيف يمكن أن يبتلع المرء هذا ؟ حتى ولو كان بورفير بيتروفيتش ؟ كيف سيهضمه ؟ إن الذوق السليم ليعترض عليه . فهل كان نابليون ليزحف تحت سرير امرأة عجوز ؟ هيا اصمت أيها القذر ! »

كان يشعر تارة أنه فريسة هذيان فأصبح تحت تأثير رعب محموم :

« لنفرض أن العجوز كانت ضحية خطيئة فان المسألة ليست هنا إذ أنهـا لم تكن إلا لوناً من التشويش ، ولقد أردت أن أجتاز «العائق» بسرعة إنه ليس مخلوقاً بشرياً ذلك الذي قتلته . بل هو المبدأ ، المبدأ ، ولقد قتلته كما يجب أما عن المرور فوقه فانني لم أستطيع . نعم لقد لبثت عاجزاً عن المرور وكل ما استطعت عمله هو القتل وحتى هذا فانني لم أحسن عمله كما يبدو !

المبدأ ؟ لمَ أهان رازوميخين السخيف الاشتراكيين منذ برهة ؟ إنهم رجال أعمال نشيطون . إنهم يهدفون إلى « السعادة العالمية » ... كلا . كلا . لقد أعطيت لي الحياة مرة واحدة ولا أريد أن أنظر تلك « السعادة العالمية » أريد أن أعيش بنفسي وإلا فان من الأفضل ألا أعيش . ماذا بعد ؟ كل ما في الأمر أني لم أرغب في أن أمر أمام أم متلهفة مشوقة قابضاً على روبلي في جيبي بانتظار « السعادة العالمية » إنهم يقولون إنني أحمل حجري للمساهمة في بناء تلك السعادة وذلك كاف لأحصل على هدوء القلب » .

ها ها ! لم إذاً نسيتوني ؟ ليس لي الا حياة واحـدة أريد أن أعيشها أنا الآخر ؟ ... ثم انفجر ضاحكاً وقال ! لست إلا هواماً في دنيا الجمال الخلقي .

نعم هواماً ! وعاد يضحك ضحكته المخبولة وبدت له الفكرة جميلة . متمسك بهـا بسرور حتى يمحصها ويتسلي باستعراضها على مختلف زواياها ويخاطب نفسه قائلاً :

لو أنني ناقشت الموضوع أولاً على اعتباري مثالة فقط او هوام ، ثم لأنني ثانياً: أزعجت « القدرة » خـــلال شهر كامل وأنا أشهدها بأنه لن يكون ما قررت الأخذ به من أجل الجسد أو اللذة والسرور بل إنه في سبيل هدف جميل فتان.. ها ها ! وفي المرحلة الثالثة على اعتبار أنني وضعت لنفسي مبـــدأ التنفيذ بأدق ما يمكن من العدالة ملاحظاً في تنفيذ عملي الوزن والمقياس والرياضيات:فانني انتقيت من كل موبقات العالم اكثرها ضرراً ولما قتلته كنت مقرراً في نفسي أن آخـذ منه ما يلزمني للقيام بخطواتي الاولى لا اكثر ولا أقل . (والباقي كان سيذهب الى الدير طبقاً لمــا ورد في وصيتها ! ها ها !) نعم نعم . . . إنني لست اكثر من هوام !

وصرف على أسنانه واضاف :

ـ ذلك لأنني قد أكون شيئاً أحقر وابشع من ذلك ولأنني من قبل كنت اشعر بأنني سأقول ذلك لنفسي عندما أقتلها . فهل هناك شيء يمكن أن يقارن بهذا الرعب ؟ آه يا للدناءة ويا للنذالة ! آه ... آه ... كم أفهم « النبي » المتطي حصاناً الذي يهز بيده سيفاً ! الله يريد فاستسلم وأطع أيها المخلوق « الرعـديد » ! إنه على حق ! إنه على حق هو ـ النبي ـ عندما يكون تحت امرته في مكان ما من الشارع « بطارية » مدفعيه ممتازة تضرب الشرير والطيب دون أن يتنازل بابداء تفسير ! أطع أيها المخلوق الرعديد واحترس من أن « تريد » لأن الارادة ليست من عملك! آه لن أغفر ابداً أبداً لتلك العجوز اللعينة ! » .

أخضل شعره بالعرق وارتجفت شفتاه وفارقها رواؤهما ! وشخص ببصره الى الجامد الى السقف ! واردف :

« كم كنت أحب امي وأختي فكيف حدث أن رحت أكرههما الآن ؟ نعم ! إنني اكرههما حسياً ولا أستطيع احتمالهما قريبتين مني ! منذ حين اقتربت من امي وعانقتها ... إنني أذكر ذلك . كنت أعانقها وافكر في موقفها لو كانت تعلم ... ! هل أستطيع أن أروي لها الأمر ! ؟ سيكون عملاً طيباً مني ... م ! ينبغي أن تكون مثلي تماماً ... »

ثم استجمع أفكاره بمجهود جبار كما لو كان يناضل للتخلص من الهذيان الذي كان يدهمه واضاف :

« العجوز ! اعتقد أنني سأقتلها مرة اخرى إذا عادت ! مسكينة اليزابيت ! لم وجدت هناك ؟ غريب ! اني لا اكاد أذكرها كما لو أنني لم اقتلها ! اليزابيت ! سونيا ! ايتها الفتيات المسكينات المتواضعات الوداعات ذوات العيون الطافحة بالطيبة والنبل . ايتها المخلوقات الغريزة ! لماذا لايبكين ؟ لم لايشتكين ؟ انهن يجردن أنفسهن من كل شيء وينظرن بهدوء وعذوبة ! سونيا . . . سونيا . . . سونيا الهادئة ! » وفقد الذاكرة !

وبدا له غريباً ان لايذكر كيف وجد نفسه في الشارع . كان المساء قد حل وتقدم شوطاً ... وتكاثف الظلام والقمر يلتمع بنور يزداد قوة ! لكن الجو كان خانقاً بشكل ملحوظ. وكانت جماعة من الناس تسير في الشارع والعمال المتعبون المكدودون عائدين الى دورهم أماالآخرون فكانوا يتنزهون ! وكانت هناك رائحة كلس وغبار وماء آسن . وكان راسكولنيكوف يسيرحزيناً مشغول الفكر وهو يتذكر أنه خرج من البيت لغاية ما وان عليه أن يقوم بعمل عاجل لكنه نسي طبيعة ذلك العمل .

وفجأة توقف عن السير اذ رآى في الجانب الآخر من الشارع رجلاً على الرصيف يشير اليه بيده ! فاجتاز الطريق ليبلغ اليه لكن الرجل استدار فجأة

وعاد يمشي كما لو أنه لم يكن مشغولاً بشيء . كان مطرق الرأس لاينظر وراءه ، ولايبدو عليه أنه نادى راسكولنيكوف. وتساءل راسكولنيكوف قائلاً : « لكن ماذا ؟ لقد ناداني ! » وراح يتعقبه ! فلم يقطع عشر خطوات حتى عرفه ! كان وهو الرجل القصير الذي تحدث معه منذ حين وكان يرتدي ثيابه تلك ويبدو محدودباً كما رآه اول مرة !

تبعه راسكولنيكوف عن بعد وقد ازدادت ضربات قلبه وسلكا شارعاً جانبياً دون ان يلتفت الرجل نحوه ! فتساءل راسكولنيكوف قائلاً : « ترى هل يعرف إنني على آثاره ؟ » وفجأة اجتاز الرجل مدخلاً عمومياً يؤدي الى بناء كبير . فاتجه راسكولنيكوف بسرعة نحو المدخل وراح يمعن النظر . فهل كان ذلك الرجل ينظر اليه وهل كان يناديه لاشك لأنه عندما تقدمه في الدخول التفت نحوه واشار له بيده . فتبعه راسكو لنيكوف على الفور لكنه لم يجده حيث كان ! كان قد اختفى ! قدر راسكو لنيكوف انه لاشك ولج اقرب مدخل الى حيث كان يقف . وكان هناك سلم قريب يقع الى اليمين فاندفع راسكولنيكوف صاعداً وما ان ارتقى طبقتين حتى كان صوت الخطوات البطيئة المتزنة يصل الى اذنيه بوضوح .والغريب في الأمر ان ذلك السلم لم يبد غريباً في عينيه . هذه نافذة الطبقة الاولى . كان ضوء القمر يتسلل خلالها حزيناً غامضاً... وهذه الطبقة الثانية من البناء ... هـه ! هذا هو المسكن الذي كان العاملان يشتغلان فيه ! كيف لم يتعرف على المنزل قبل أن يدخله ؟

كانت خطوات الرجل قدخفتت في تلك اللحظة فقدر راسكولنيكوف أنه توقف واختبأ في مكان ما وسرعان ما ارتقي السلم وثباً الى الطبقة الثانية . وراح يسأل نفسه عما اذا كان يجب أن يتابع الصعود ! ... يالسكون المخيف ! وعاد الى السلم يرتقيه !

اصبح وقع خطواته الشخصية يخيفه ويرهبه ! فهتف :

— رباه ما أشد الظلام ! ان الغريب ولاشك مختبيء في مكان ما ... في احدى الزوايا ! آه ان المسكن الذي يطل على السلم مفتوح الباب !

فكر قليلاً ثم دخل ! كان المدخل معتماً جداً وخالياً لااحد فيه حتى وكأن المسكن كان خالياً . فسار على أطراف قدميه متجنباً اصدار أي صوت ودخل « الصالون » فاذا بضوء القمر يغمره وينيره بشدة . كان كل شيء كما عهده من قبل ، المقاعد والمرآة والديوان اصغر والصور في اطاراتها ! وكان القمر كبيراً ذا لون احمر كالنحاس يطل بنوره القوي من النافذة ! فكر راسكولنيكوف « بان هذا السكون مبعثه القمر لأنه ـ أي القمر ـ كان يحاول حل بعض المعميات » !

توقف برهة وانتظر طويلاً وكان قلبه يزداد اضطراباً كلما ازداد القمر هدوء حتى انه شعر بالم جسماني من تأثير وجيب قلبه المرتفع . وكان السكون يخيم ابداً . وفجأة تناهت الى سمعه قرقعة جافة كما لو ان بعضهم قد وطأ غصناً جافاً ثم عاد السكون من جديد ! بينما دندنت ذبابة مـذعورة وراحت تحوم حتى اصطدمت بزجاج النافذة وهي تطن طنيناً اليماً ، وفي تلك اللحظة ، شاهد في الزاوية بين الخزانة الصغيرة والنافذة ، شيئاً يشبه معطفاً نسائياً كان معلقاً الى الجدار . فراح يفكر قائلاً :

— لماذا بقي هذا المعطف هنا ؟ انه لم يكن في هذا المكان من قبل !

واقترب بهدوء وقد خمن ان بعضهم مختبأ وراءه . وفي حذر بالغ ، ازاح بيده المعطف فرأى وراءه مقعداً وعلى ذلك المقعد في الزاوية تماماً جلست العجوز منطوية على نفسها منخفضة الرأس لدرجة لم يتمكن معها من تمييز وجهها . مع فقد تأكد بأنها هي هي ! وهتف يناجي نفسه قائلاً :

ـــ انها خائفة !

وبهدوء زائد خلص فأسه من الانشوطه التي ربطها بهـا ثم ضرب العجوز بالفأس على جمجمتها ضربةوكررها ثانية ! لكنها ـ ولشديد استغرابه ـ لم تترنح تحت قوة الضربتين . فانحنى عليها يفحصها عن قرب لكنها أحنت رأسهـا أكثر فاكثر وبعد ذلك انطوت حتى وصل رأسها الى الأرض ونظرت اليه من قدميه الى رأسه ونظر هو بدوره اليها ثم تسمر في مكانه !

كانت العجوز جالسة على كرسيها تضحك ! كانت تتلوى بضحكة مكتومة تسعى بكل جهدها الى أخفائها حتى لا يسمعها . وفجأة خيل اليه أن باب غرفـة النوم قد فتح وان هناك وراءه من يضحك ساخراً منه ويهمس ! فامتلكه غضب جامح وراح ينهال على العجوز ضربـاً بكل قوته ولكن الضحكات والهمسـات كانت تزداد كلما انهال ضرباً بالفأس حتى غدت مسموعة واضحة . وكانت العجوز خلال ذلك تضحك ملء فمهـا ! فاراد أن يفر لكن مدخل المسكن كان قـــد أصبح مزدحماً بالناس بينما كان الباب المؤدي الى السلم مفتوحـــاً على مصراعيه وكان الممشى ودرجات السلم كلها مزدحمة بالاشخاص أيضاً فلم يكن يرى منهم إلا رؤوساً متقاربة ! وكانوا جميعاً ينظرون ولكنهم كانوا يحـــاولون الاحتجـاب وينتظرون صامتين !.. فانقبض قلبه ورفضت ساقاه الحركة وكأنها قـد اتخذتـا جذوراً في الارض فاراد الصراخ و ... استيقظ !

استرد انفـــاسه بصعوبة وبدا له ـــ لشديد استغرابه ـــ إن الحلم لا يزال مستمراً فقد كان باب غرفته مفتوحاً وعلى العتبة وقف رجل لم يكن قـــد رآه أو عرفه من قبل وكان الرجل ينظر اليه نظرة ثانية . فلم يكد راسكولنيكوف يفتح عينيه قليلاً حتى عاد واغمضها . كان مستلقياً على قفـاه دون حراك . فراح يتسـاءل ! « أهو الحلم الذي لا زال مستمراً أم ماذا ؟ » وعاد من جـديد يختلس

نظرة خلال أهدابه .

كان الغريب لا يزال واقفاً في مكانه يرقبه . وفجأة اجتاز عتبة الحجرة باحتراس وأغلق الباب وراءه بعناية ثم اقترب من المائدة وانتظر دقيقة دون أن يفارقه بنظره وأخيراً جلس بهدوء على مقعد بالقرب من « السرير » ووضع قبعته الى جانبه واتكأ بيديه الاثنتين على مقبض عصاه وترك ذقنه ترتكز على يديه. كان يبدو عليه استعداده للانتظار الطويل فراح راسكولنيكوف يرتقبه خلسة بقدر ما سمحت له الظروف بالمراقبة . كان الرجل مسناً قوي البنيان ذا لحية كثيفة شقراء أقرب الى البياض .

انقضت عشر دقائق وكان ضوء النهار لا يزال يضيء الحجرة غير أن المساء كان يقترب مسرعاً . وكان السكوت المطبق يخيم على الغرفة فلا حركة على السلم ولا في أي مكان اللهم الا طنين ذبابة كبيرة كانت ترتطم بزجاج النافذة أثناء طيرانها . فلم يستطع راسكولنيكوف احتمال هذا الموقف أكثر مما احتمل. لذلك فقد نهض فجأة وجلس في مكانه على الديوان وقال :

ـــ حسناً ! تكلم ! ماذا تريد ؟

فاجاب الغريب بلهجة مضحكة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وديعة وقال :

ـــ لعمري لقد كنت متأكداً من أنك غير نائم واثقاً من انك تخاتلني فحسب اسمح لي أن أقدم نفسي اليك : اركاد إيفانوفيتش سفيدريكايلوف !

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

تقدم في :

المؤلفات الكاملة

للكاتب العالمي الكبير

مكسيم جوركي

قصته الخالدة

في طلب قوتي

بين الناس

حلقة من ذكريات الاديب العالمي الكبير عن حياته

- قصة صراع بين الخير والشر في نفس خيرة تطمح الى السعادة .
- مرآة صادقة لمخلوقات حية من لحم ودم .
- حياة ولد يطمح الى المعرفة ، فيقيم الناس في وجهه العراقيل .

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

تنقل الى اللغة العربية

أثراً عظيماً من روائع الاديب الانساني الفرنسي الكبير

هنري باربوس

الكاتب الذي يسيل نثره شعراً رقيقاً وموسيقى عذبة وصوراً فاتنة

في

يســـــوع

- مؤلف يرمي الى المعلم الأكبر من وجهة نظر جديدة .
- كتاب سيجد فيه كل انسان ، مهما تكن عقائده ، مادة للتفكير ، وناراً تلهب عواطفه .
- أثر سيحتل مكانة رفيعة في المكتبة العربية ويكون له ثروة كبيرة .

نيقولاس جوجول

النفوس الميتة

- قصة الانسان الروسي في العهد القيصري .
- قصة المجتمع الروسي المتفسخ قبل الثورة البروليتاريه
- شخصيات نموذجية عن الاقطاع المتوحش .
- صورة صادقة عن الشعب الذي تمرد وحطم الاغلال .

مع دراسة كافية للقصة عند جوجول وتحليل طريقته في نقده الساخر للمجتمع الاقطاعي في عهد القيصرية



تقدمه :

دار اليقظة العربية بدمشق

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

تقدم :

من روائع الانتاج الفكري الالماني المعاصر :

جندي الرايخ

للكاتب الالماني المعاصر :

اودون دى هورفات

ليس بهذا الكتاب حاجة إلى تقريظ ، إنه يعرف كيف يذود عن نفسه بنفسه »
الناقد بيرهال — في مقدمة الكتاب

— « جندي الرايخ » خير كتاب يُهدى الى الامم العربية المناضلة ، النازعة الى قمة تتسنمها تحت الشمس !

— فهو نبراس تستنير به كل أمة تواقة إلى المجد نزاعة الى الغلبة والسؤدد .

— صفحات رائعات تصور رسالة الجندية المثلي ومفاهيم الوطنية الخالصة .

— « جندي الرايخ » مثل أعلى للتفاني والتضحية في سبيل الوطن .

— كتاب يمثل روح العصر الحديث ، في شكوكه واضطرابه وتخبطه بين الواقع والاوهام .

— « جندي الرايخ » سجل خالد للوطنية الالمانية المثالية .

دوستويفسكى

الأعمال
الأدبية
الكاملة
٩

الجريمة والعقاب

٢

ترجمة : الدكتور سامى الدروبى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
المطبعة الثقافية

إهـــــــداء2005

الكاتب الإعلامي/ فاروق خورشيد

القاهرة

أعمال دوستويفسكي الأدبية
٩

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي



دوستويېفسكي

الجريمة والعقاب

٢

« الجريمة والعقاب » nakazanié (Prestouplénié)

ظهرت في مجلة « الرسول الروسي » في اعداد سنة ١٨٦٦ ، من كانون الثاني (يناير) الى كانون الأول (ديسمبر) ، المجلدات من ٦١ الى ٦٦ .

الجزء الرابع

الفصل الأول

تساءل راسكولنيكوف مرةً أخرى : « هل يمكن أن يكون هذا استمراراً لحلمى ؟ » • وأخذ يتفرس فى الزائر الذى لم يكن يُنتظر ، أخذ يتفرس فيه محاذراً مرتاباً • ثم قال أخيراً ، بصوت عالٍ ، وقد استولى عليه اضطراب كبير وحيرة شديدة :

ـ سفدريجايلوف ! ولكن هذا مستحيل ، مستحيل •

ولم يبد أن هذه الصيحة قد أثارت استغراب الزائر •

ـ جئت اليك لسببين ، أولهما رغبتى فى أن أتعرف اليك شخصياً ، لأننى أسمع عنك مديحاً كثيراً منذ مدة طويلة • والثانى أننى أتجرأ فآمل أن لا ترفض مساعدتى فى أمر يتصل رأساً بأختك آفدوتيا رومانوفنا • فاننى اذا لم أعتمد الا على نفسى ، ولم يوص بى أحد ، لا يكون لى أمل كبير فى أن ترضى آفدوتيا رومانوفنا بأن تستقبلنى ، لأنها تسىء الظن بى• أما اذا عاونتنى أنت •••

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً :

ـ لا تعوّل على معاونتى •••

ـ انهما لم تصلا الا أمس ، أليس كذلك ؟ اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال •

لم يجب راسكولنيكوف •

ـ وصلتنا أمس • أعرف ذلك • وأنا نفسى لم أصل الا أمس الأول• اليك ما أريد أن أقوله لك فى هذا الصدد يا روديون روماتوفتش. اننى لا أرىَ داعياً الى تبرئة نفسى ، ولكن أرجو أن تأذن لى بالقاء هذا السؤال : ما هو الذنب العظيم الذى اقترفته أنا ، اذا نحن أردنا أن نحكم فى الأمر حكماً سليماً مبرأً من الغرض ؟

ظل راسكولنيكوف يلزم الصمت •

ـ أليس ذنبى هو أننى لاحقت فى بيتى فتاةً لا تملك عن نفسها دفاعاً ، وأننى « أسأت اليها بعروض دنيئة » ؟ هذا هو ذنبى ، أليس كذلك ؟ هأنت ذا ترى أننى أسبق غيرى الى وصف ذنبى • ولكن أرجو أن تسلّم معى بأننى أنا أيضاً انسان ، وأنه ما من انسان * ••• أقصد أننى أنا أيضاً يمكن أن أُفتن وأن أهوى (وهذا ما يحدث طبعاً بدون ارادتنا) • فمتى سلّمت معى بهذا أمكن عندئذ تفسير كل شىء تفسيراً طبيعياً الى أبعد الحدود • ان السؤال الوحيد الذى يجب طرحه هو السؤال التالى : أأنا شيطان أم ضحية ؟ فماذا لو كنت ضحية ؟ لعلنى حين عرضت على الفتاة التى ألهبت هواىَ أن تسافر معى الى أمريكا أو الى سويسرا كنت أشعر نحوها بأسمى عواطف الاحترام ، وأننى كنت فوق ذلك أظن أننى أحقق السعادة لنا كلينا ! ما العقل الا خادم الأهواء ! وهكذا كنت أسىء الى نفسى مثلما كنت أسىء اليها •••

قاطعه راسكولنيكوف يقول باشمئزاز :

ـ ليست هذه هى المسألة • فسواء أكنتَ مخطئاً أم كنت مصيباً ، فأنت تثير الاشمئزاز • لذلك لا أريد أن أعرف شيئاً عنك ، بل أطردك ، وما عليك الا أن تنصرف !

انفجر سفدريجايلوف يقهقه على حين فجأة •



سفدريجايلوف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ثم قال وهو يضحك ضحكاً صريحاً :

ـ يظهر أن مخادعتك ليست بالأمر السهل • كنت أريد أن أعمد في معاملتك الى الحيلة والمكر ؟ أما وأنك وضعت اصبعك على النقطة الحساسة ، فسوف •••

ـ دعك من هذا الكلام ! انك لتمكر وتحتال حتى في هذه اللحظة!

فقال سفدريجايلوف مردداً وهو ما يزال يقهقه :

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ ولكن أليست هذه « حرباً مشروعة » ؟ أليس هذا مكراً « مسموحاً به » ؟••• لكنك قطعت علي طريق الكلام مع ذلك • مهما يكن من أمر ، فما كان لهذه المزعجات كلها أن توجد ، لولا حادث الحديقة • ان مارتا بتروفنا •••

ـ مارتا بتروفنا ! يقال انك أرسلتها الى العالم الآخر ، مارتا بتروفنا •••

كذلك قاطعه راسكولنيكوف بفظاظة • فأجاب سفدريجايلوف قائلاً :

ـ أسمعت عن هذا أيضاً ؟ كيف كان يمكن أن لا تسمع عنه على كل حال ؟ أما سؤالك فانني لا أدري حقاً بم أجيبك عنه ، رغم أن ضميري مرتاح كل الارتياح من هذه الناحية • ولا يذهبن بك الظن خاصة الى أن هناك أي أمر أخشاه • ان كل شيء قد جرى على نظام كامل وترتيب تام ووضوح مطلق : لقد أثبت الفحص الطبي أن الوفاة كانت بسكتة قلبية ناشئة عن الاستحمام بعد وجبة ثقيلة تجرعت المتوفاة أثناءها ما يقرب من زجاجة خمر كاملة !••• ولم يمكن اكتشاف أي شيء آخر ••• لا ، ليس هذا ما يقلقني • ولكنني قد تساءلت طوال الرحلة في القطار : ألم أساهم في هذه النازلة مع ذلك بعض المساهمة ،

باحداث اضطراب نفسي أو شيء من هذا القبيل • على أنني انتهيت الى أن هذا أيضاً مستحيل •

أخذ راسكوليكوف يضحك ، وقال له :

ـ هناك ما يدعوك الى القلق حقاً •

ـ ولكن لماذا تضحك ؟ فكّر قليلاً : انني لم أضربها بالسوط الا ضربتين اثنتين ••• ضربتين لم تخلّفا أثراً • لا تحسبني رجلاً مستخفاً مستهتراً ، أرجوك ! أنا أعرف أن سلوكي كان دنيئاً ، الخ • ولكنني أعلم أيضاً أن دلائل « الاهتمام » هذه لم تكن تسوء مارتا بتروفنا • كانت مارتا قد وجدت نفسها منذ ثلاثة أيام مضطرة الى أن تقبع في البيت • لم يكن قد بقي أي سبب يدعوها الى الظهور في المدينة ، بعد أن أغرقت جميع الناس بقراءة تلك الرسالة (لا شك أنك سمعت عن قراءة تلك الرسالة أيضاً) • وها هما ضربتا السوط تنزلان عليها من السماء • فكان أول هم لها أن تقرن الخيل بالعربة ••• لست في حاجة الى أن ألفت نظرك الى أن بعض النساء يشعرن بلذة قوية حادة حين تُلحق بهن اهانة ، مهما يكن غضبهن منها • بل ان جميع الناس يعرفون هذا النوع من العواطف: فالنوع الانساني يحب الاهانات كثيراً ، هل لاحظت هذا ؟ ولكن النساء يحببنها حباً خاصاً ، حتى ليمكن أن يُقال انهن لا يمكن أن يعشن بغير اهانات أو اساءات •

خطر ببال راسكولنيكوف في لحظة من اللحظات أن ينهض وأن ينصرف ليختم الحديث • ولكن نوعاً من الفضول بل ونوعاً من الحساب قد صدّاه عن ذلك ، فسأل في ذهول :

ـ هل تحب الضرب كثيراً ؟

فأجابه سفدريجايلوف بهدوء :

ـ لا كثيراً جداً . فأنا ومارتا بتروفنا ، مثلاً ، لم تكد تتضارب قط . كنا نعيش دائماً في وفاق ووئام ، وكانت راضية عنى فى جميع الأحيان . ولم أعمد الى استعمال السوط ، طوال السنين السبع التى عشناها معاً ، الا مرتين اثنتين (هذا اذا استثنينا مرة ثالثة مشتبهة) : فأما المرة الأولى فبعد زواجنا بشهرين ، أى منذ وصولنا الى الريف ، وأما المرة الثانية والأخيرة فمنذ مدة قصيرة كما تعلم . وأنت تظن مع ذلك أننى شيطان رجيم ، اننى رجل من دعاة الرجعية وأنصار العبودية !... هيء هيء !... بالمناسبة : هل تتذكر يا روديون رومانوفتش ذلك الفتى ـ لقد نسيتُ أنا أسمه ! ـ الذى لُطِّخ بالوحل على مرأى من الناس ، منذ بضع سنين ، فى عهد « النقد المفيد » * ، لأنه ضرب بالسوط امرأة ألمانية فى قطار ؟ هل تتذكر ؟ أظن أن ذلك حدث فى نفس السنة التى وقعت فيها الفاحشة التى تحدثت عنها مجلة « العصر » * (لا شك فى أنك تتذكر المحاضرة العامة عن « ليالى مصر » ، ألا تتذكرها ؟ آه .. العيون السوداء ! أين أنت يا أيام شبابنا الذهبية ؟) . فاليك رأيى : أنا لم أؤيد طبعاً فعلة الرجل الذى ضرب المرأة الألمانية بالسوط ، لأنه لا مجال هنا للاستحسان حقاً ... ولكننى لا أستطيع أيضاً أن أمتنع عن التصريح بأن المرء يصادف فى بعض الأحيان « ألمانيات » يبلغن من قوة الاستفزاز أنه ما من « تقدمى » ، فيما يخيَّل الىَّ ، يستطيع أن يسيطر على نفسه ازاءهن

سيطرة كاملة وأن يكون مسئولاً عن سلوكه معهن . ان أحداً لم يعالج المسألة عندئذ من هذه الزاوية . ومع ذلك فهذا هو الأسلوب الوحيد الذي يجب أن تعالج به هذه المسألة معالجة تتصف بالانصاف .

قال سفدريجايلوف هذه الكلمات ، وعاد يضحك فجأة . واتضح لراسكولنيكوف أن الرجل يبيّت مشروعاً ثابتاً .

قال له راسكولنيكوف :

ـ أغلب الظن أنك لم تكلم أحداً منذ عدة أيام ، هه ؟

ـ هذا صحيح تقريباً . ماذا ؟ هل يدهشك أن تراني ليّن الطبع ؟

ـ بل يدهشني أن أراك مسرفاً في لين الطبع ؟

ـ ألأنني لم أستأ من فظاظة أسئلتك ؟ أهذا هو السبب ؟ ولكن علام أستاء ؟

ثم أضاف سفدريجايلوف يقول معبراً عن سذاجة تثير الاستغراب :

ـ أنت سألتني ، وأنا أجبتك !

ثم تابع يقول وقد لاح في وجهه التأمل :

ـ أنا لا أكاد أهتم بشيء . وفي هذه اللحظة خاصة ، لا يشغلني أي شاغل . لك أن تظن أنني أسعى الى خطب ودّك ، لا سيما وأن لي شأناً مع أختك ، كما سبق أن أعلنت لك ذلك . ولكنني أقول لك بصراحة انني أشعر بضجر شديد وسأم قوي ، ولا سيما منذ ثلاثة أيام ، حتى لقد أحسست من لقائك ببهجة ... لا تزعل يا روديون رومانوفيتش اذا أنا

صارحتك بأنك تبدو لى غريباً غرابة رهيبة . لك أن تزعم ما تشاء ، ولكن فيك شيئاً ما ، ولا سيما فى هذه اللحظة ، ليس فى هذه اللحظة نفسها ، بل الآن على وجه عام ... هيًّا ! سأكف عن الكلام ، سأكف عن الكلام ، لا تقطب حاجبيك هكذا .. لست دباً الى الحد الذى تظن..

ـ قد لا تكون دباً البتة ! بل انه ليبدو لى أنك تنتمى الى مجتمع راق جداً ، أو أنك على الأقل تعرف عند الضرورة كيف تسلك سلوك رجل ينتمى الى المجتمع الراقى .

أجاب سفدريجايلوف يقول بلهجة جافة ، بل بلهجة فيها شيء من التعالى :

ـ لا يهمنى رأى أحد ، لذلك لا يقلقنى أن أسلك سلوك لص . ولعل هذا هو الثوب الذى يسهل ارتداؤه أكثر مما يسهل ارتداء أى ثوب آخر فى أجوائنا ومناخنا ... ولا سيما اذا كان بالمرء ميل طبيعى الى ذلك ...

أضاف سفدريجايلوف هذه الجملة الأخيرة وقد أخذ يضحك من جديد .

ـ سمعت أنك تعرف ناساً كثيرين هنا . فلست بمن يمكن أن يسمى رجلاً « بغير علاقات » ، كما يقال ، فما مجيئك الىَّ اذا لم يكن لك هدف محدَّد !

استأنف سفدريجايلوف كلامه ، فقال دون أن يجيب عن السؤال الرئيسى :

ـ صدقت . اننى أعرف ناساً كثيرين . وقد التقيت حتى الآن بعدة

أشخاص أثناء هذه الأيام الثلاثة التى قضيتها هنا ، فتعرفتهم ، وتعرفونى فيما يخيّل الىّ • اننى ارتدى ثياباً حسنة ، أليس كذلك ؟ وأبدو رجلاً لا يعوزه شيء • أنت تعلم أن قوانين الاصلاح الزراعى لم تمسسنا بسوء * ولما كانت أملاكى غابات ومراعى فى الدرجة الأولى ، فالموارد مستمرة•• ولكننى لن أذهب الى أولئك الناس • لقد كنت أضجر منهم حتى فى الماضى ••• وأنا منذ أخذت أطوف هنا ، لم أعقد صلةً بأحد ••• أهذه مدينة ؟ كيف أمكن أن تنشأ مدينة كهذه المدينة ؟ هلاّ شرحت لى هذا ، من فضلك ! هى مدينة موظفين وطلاب من جميع الأنواع ! حقاً ان أشياء كثيرة قد فاتتنى حين كنت أتسكع هنا منذ ثمانى سنين• وقد أصبحت الآن لا أعوّل الا على التشريح ، شهد الله •••

ـ أى تشريح ؟

ـ أما هذه النوادى ، وهذه المطاعم التى تسمى مطاعم دوسو *، وهذه الحلقات ••• أما جميع مشاريع التقدم هذه ••• ففى وسعها أن تستغنى عنى • ثم أية لذة يمكن أن يجدها المرء فى الغش ؟

كذلك تابع سفدريجايلوف كلامه دون أن يعبأ بالسؤال الذى أُلقى عليه •

ـ هل كنت تغش أيضاً ؟

ـ كيف لا أغش ؟ كنا منذ ثمانى سنين جماعةً من أناس محترمين نحاول أن نقتل الوقت ، وكنا ـ لاحظ هذا ! ـ على جانب عظيم من رقىّ الآداب • وكان بيننا شعراء ، ورأسماليون ••• ان الناس الذين هم على جانب عظيم من رقىّ الآداب هم على وجه العموم ، عندنا ، فى مجتمعنا

الروسى ، أوغاد ••• لا شـك أنك لاحظت ذلك ، هـه ؟ ومنذ أقمت فى الريف انمـا عزفت عن هـذا • غير أننى قد أوشـكت ، قبـل ذلك الأوان ، أن أودع فى السجن ، لديون علىّ ، وذلك بسبب يونانى صغير من نيجين * ، وفى ذلك الوقت انما ظهرت مارتا بتروفنـا ، فساومت ، ثم فدتنى بثلاثين ألف روبل (كان مجموع الديون التى علىّ سبعين ألف روبل) • وتزوجنا زواجاً شرعياً • وسرعان ما أخـذتنى الى عندها فى الريف ، كما يؤخذ كنز من الكنوز • كانت أكبر منى سناً بخمسة أعوام• وكانت تحبنى كثيراً • لاحظت أنها احتفظت طوال حياتها بالسند المالى الذى وقعته لاسم شخص آخـر ، من أجل أن تستخدمه ضدى عند اللزوم ، بحيث تدمّرنى متى حاولت أن أتحرك من تحت النير • أوه ! ما كانت لتتردد فى أن تفعل ذلك ! ان تناقضات كثيرة تجتمع لدى النساء ، أليس كذلك ؟

ـ ولولا ذلك السند لكنت هربت ، هه ؟

ـ لا أعرف بماذا أجيبك • كان السند لا يضايقنى كثيراً • لم أكن أشتهى أن أذهب الى أى مكان • ومارتا بتروفنا قد اقترحت علىّ السفر الى الخارج مرتين ، حين لاحظت ضجرى • ولكن علام السفر ؟ كنت قد سافرت الى الخارج قبل ذلك ، فلم أشعر هنالك بارتياح • ليس هذا هو الأمر تماماً ••• ولكن كان ثمة شمس تشرق ، وكان ثمة خليج نابولى، وكان ثمة البحر ••• فكنت أنظر ، فأشعر بحزن شديد • والأنكى من هذا أن المرء يكون عندئذ حزيناً حقاً • لا ، لا ، ان البقاء فى البلاد أفضل من ذلك • هنا على الأقل يستطيع المرء أن يتهم الآخرين بكل شىء ، وأن يبرىء بذلك نفسه • قد أحب أن أسافر الآن راضياً الى القطب الشمالى ،

لأن « خمرتي فسدت » * ، فأصبحت أكره أن أشرب ، بينما الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أفعله هو أن أشرب .. لقد جربت هذا .. بالمناسبة : يقال ان بيرج * سيسافر يوم الأحد القادم من حديقة يوسوبوف على منطاد ، وانه يقبل أن يحمل ركاباً بأجر ، هل هذا صحيح ؟

ـ ماذا ؟ تسافر في منطاد ؟

ـ أنا ؟ لا ... وانما قلت هذا هكذا ...

كذلك جمجم يقول سفدريجايلوف ، كما لو كان يفكر في السؤال الملقى فعلاً .

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « الى أين يريد أن يصل من هذا كله ؟ » .

وتابع سفيدريجايلوف كلامه فقال حالماً شارد الفكر :

ـ لا ، كان السند لا يزعجني . فأنا الذي كنت لا أحب أن أترك الريف . ثم ان مارتا بتروفنا قد ردت الي السند منذ سنة تقريباً ، بمناسبة عيدي ، حتى لقد أضافت اليه مبلغاً محترماً . كانت تملك ثروة ، هه ؟ قالت لي : « هأنت ذا ترى مدى ثقتي بك يا آركادي ايفانوفتش ». أؤكد لك أن هذا ما قالته لي . لا شك في أنك لا تصدق أن هذا ما قالته لي. اعترف بأنك لا تصدق ! ولكن يجب أن تعلم أنني كنت قد أصبحت مالكاً محترماً . وكنت معروفاً جداً في المنطقة . وكنت أستحضر كتباً أيضاً . شجعتني مارتا بتروفنا على ذلك في أول الأمر ، ولكنها خشيت بعدئذ أن تجهدني القراءة .

ـ يبدو أنك كنت قد سئمت كثيراً من مارتا بتروفنا ، أليس كذلك؟

ـ أنا ؟ ربما ! هذا جائز جداً • قل لى بالمناسبة : هل تؤمن بعودة الأرواح ؟

ـ أية أرواح ؟

ـ الأرواح العائدة • ما هذا السؤال ؟

ـ وأنت ، هل تؤمن بذلك ؟

ـ نعم ولا ، اذا شئت • أقصد اننى لا أؤمن بها تماماً ؟

ـ هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

ألقى سفيدريجايلوف على راسكولنيكوف نظرة خاصة • ثم قال له وقد انعقف فمه بابتسامة غريبة :

ـ ان مارتا بتروفنا لا يفوتها أن تزورنى •

ـ كيف ؟ تزورك ؟

ـ نعم ، زارتنى حتى الآن ثلاث مرات • فأما المرة الأولىففى يوم دفنها نفسه ، عشية رحيلى ، بعد العـودة من المقبرة بسـاعة • وأما المرة الثانية فأمس الأول ، أثناء السفر ، قبيل طلوع الصباح ، فى محطة مالايا فيشيرا * • وأما المرة الثالثة ، فمنذ ساعتين ، فى مسكنى ، فى الغرفة التى أقيم بها • كنت وحدى •

ـ وكنت ••• يقظاً ؟

ـ يقظاً كل اليقظة • ولقد كنت يقظاً فى المرات الثلاث جميعاً • تأتى ، فتكلمنى دقيقة ، ثم تنصرف خارجة من الباب • حتى ليخيـّل الىّ أننى أسمع خطواتها •

قال راسكولنيكوف فجأة :

ـ لماذا كنت أقدّر أنه لا بد أن يكون قد حدث لك شىء من هذا القبيل ؟

ثم دُهش من أنه قال هذا الكلام .

كان راسكولنيكوف منفعلاً انفعالاً شديداً . سأله سفيدريجايلوف مذهولاً :

ــ حـ .. قاً ؟ كنت تقدّر ذلك ؟ حقاً ؟ ألم أقل لك ان بيننا شيئاً مشتركاً ؟ هه ؟

أجابه راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

ــ لم تقل لى شيئاً من ذلك قط !

ــ ألم أقل لك ذلك ؟

ــ لا !

ــ غريب . خيّل الىّ أننى قلته لك . منذ قليل ، حين دخلت عليك ، فرأيتك مضطجعاً مغمضاً عينيك متظاهراً بالنوم ، قلت لنفسى فوراً : « هذا هو ! هذا هو بعينه » .

صاح راسكولنيكوف يسأله :

ــ ماذا تقصد بقولك : « هذا هو بعينه » ؟

ــ ماذا أقصد ؟ بصراحة : لا أدرى !

بهذا أجاب سفيدريجايلوف متمتماً ، مرتبكاً ارتباكاً صادقاً .

وساد الصمت دقيقة. وكان كل من الرجلين ينظر فى عينى الآخر؟

هتف راسكولنيكوف يقول غاضباً :

ــ ذلك كله سخف . وماذا تقول لك حين تزورك ؟

ــ هى ؟ تصوّر أنها تكلمنى فى أتفه السفاسف . والانسان يبلغ من غـرابة الطبع أن هذا بعينـه هو ما يغضبنى . حين زارتنى فى المرة الأولى ، كنت متعباً كما تعلم : القداس ، صلاة الجنازة ، الموكب ، المأدبة. وكنت وحيداً فى حجـرة مكتبى ، وكنت أدخن سيجاراً . ها هى ذى

تدخل ، فتقول لى : « أبسبب هذه المشاكل كلها اذن انما نسيتَ يا آركادى ايفانوفتش أن تعبيء اليوم ساعة الجدار فى المطبخ ؟ » وكنت أنا الذى أتولى تعبئة ساعة الجدار تلك فى كل أسبوع فعلاً ، منذ سبع سنين ، فاذا نسيت أن أفعل ذلك ، ذكرّتنى به. وفى الغد ، كنت فى طريقى الى هنا. ودخل القطار ، عند الفجر ، الى محطة من المحطات . كنت محطماً من التعب . وكانت عيناى محتقنتين من شدة النعاس ، لأننى لم أكن قد نمت تقريباً طوال الليل . أمرت لنفسى بفنجان شاى . وهأنا ذا أرى مارتا بتروفنا تجلس الى جانبى وفى يديها ورق لعب . قالت لى : « هل تحب، يا آركادى ايفانوفتش ، أن تعرف مايقوله ورق اللعب فى أمر سفرك ؟ ». كانت مارتا بتروفنا خبيرة جداً فى فن التنبؤ بواسطة ورق اللعب . لن أغفر لنفسى ما حييت اننى لم أقبل اقتراحها . لقد هربت مذعوراً . صحيح أن الجرس قد رنّ فى تلك اللحظة مؤذناً بسير القطار . واليوم، بينما كنت جالساً أشعر بثقل فى معدتى بعد غداء رديء جيء الىّ به من المطعم ، وفيما أنا أدخّن سيجاراً ــ اننى ما ان أجلس حتى أدخّن ــ دخلت علىّ مارتا بتروفنا على حين بغتة ، متزينةً بأجمل زينة ، مرتدية ثوباً جديداً من حرير أخضر طويل الذيل جداً ، وقالت لى : « يومك سعيد يا آركادى ايفانوفتش ! هل ثوبى الجديد يوافق ذوقك ؟ ما كان لآنيسكا أن تستطيع صنع ثوب كهذا الثوب » . (آنيسكا * خياطة فى القرية كانت فى الماضى من الأقنان وقد تعلمت الخياطة بموسكو ، فتاة حلوة جداً) . وأخذت مارتا تتبختر أمامى . أنعمت النظر فى ثوبها ، وتفرست فيها بانتباه ، وجهاً لوجه ، ثم قلت لها : « حقاً لا داعى يا مارتا بتروفنا ، الى أن تكلفى نفسك عناء المجيء الىّ لتحدثينى فى مثل هذه الترّهات ! » فقالت لى : « آه !... رباه !... هل صار حراماً علىّ حتى أن أزعجك ؟ » ، فقلت لها عندئذ لأغيظها : « أريد يا مارتا بتروفنا أن أتزوج

مرة ثانية » ، فقالت لى : « هذا شأنك أنت يا آركادى ايفانوفتش • ولكن ليس من اللائق كثيراً أن تتزوج مرة ثانيـة بعد دفن زوجتـك فوراً • وهبك اخترت اختياراً موفقاً ، فان الزواج لن يسعدكما لا أنت ولا هى ، وستكونان أضحوكة الشرفاء من الناس ، هذا كل شيء ! » • قالت ذلك ثم خرجت حتى لكأننى كنت أسمع حفيف ذيل ثوبها • سخف ، أليس كذلك ؟

سأله راسكولنيكوف :

ـ قل لى : أليست هذه أكاذيب تلفقها تلفيقاً ؟

فأجابه سفيدريجايلوف شارد الفكر كأنه لم يلاحظ فظاظة السؤال:

ـ يندر أن أكذب •

ـ وقبل ذلك ، هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

ـ مرةً واحدة فى حياتى ، منذ ست سنين • كان عندى خادم اسمه فيلكا * • فما ان تمَّ دفنه حتى صحت أقول ذاهلاً : « يا فيلكا ، هات غليـونى ! » • فاذا هو يدخـل ، فيمضى قُدُماً الى الخـزانة التى كانت تُصفُّ فيها غلايينى • كنت جالساً فقلت لنفسى : « هو يفعل ذلك لينتقم منى » • ان مشاجرة عنيفة كانت قد شبت بينى وبينه قبل موته بقليل• قلت له : « كيف تجرؤ أن تمثل أمامى بكمٍ مثقوبة عند الكوع ؟ اخرج من هنا أيها الحقير ! » • فاستدار على عقبيه ، وخرج ، ثم لم يرجع بعد ذلك قط ! لم أقل عن هذا الأمر كلمةً واحدة لمارتا بتروفنا • أردت فى لحظة من اللحظات أن أقيم قداساً على روحه ، ولكننى ترددت بعد ذلك •

ـ هلم استشر طبيباً !

ـ لست فى حاجة اليك حتى أعلم أننى مريض ، وان أكن لا أعرف ما هو مرضى حقاً • وفى رأيى أن صحتى خير من صحتك خمس مرات•

أنا لم أسألك هل تؤمن بظهور الأرواح العائدة وانما سألتك هل تؤمن أو لا تؤمن بوجود الأرواح العائدة .

صاح راسكولنيكوف يقول بنوع من الغضب :

ــ لا ، لا يمكن أن أؤمن بوجودها فى حال من الأحوال !

جمجم سفيدريجايلوف يقول كمن يخاطب نفسه ، وهو ينظر الى جانب ، مائل الرأس قليلاً :

ــ ماذا يقال لك عادة ؟ يقال لك : « أنت مريض ، وكل ما تراه اذن ليس الا نتيجة هذيانك » . ولكن هذا يعوزه المنطق الدقيق الصارم. أنا أسلّم بأن الرؤى لا تظهر الا للمرضى ، ولكن هذا يبرهن على أن الرؤى لا يمكن أن تظهر الا للمرضى ، دون أن يبرهن على أن الرؤى لا وجود لها فى ذاتها .

قال راسكولنيكوف ملحاً مهتاجاً :

ــ لا وجود لها حتماً !

فتابع سفيدريجايلوف كلامه قائلاً وهو يلفت عينيه نحو راسكولنيكوف ببطء :

ــ لا ؟ أنت تؤمن بأنها لا وجود لها ؟ ولكن اذا فكّرنا فى الأمر على النحو التالى (ساعدنى ، من فضلك) : الأرواح العائدة أجزاء من عوالم أخرى هى بداية هذه العوالم ان صح التعبير . والانسان السليم المعافى ليس فى حاجة بطبيعته الى أن يراها ، لأن الانسان السليم المعافى ينتمى الى هذه الحياة الدنيا كل قبل كل شىء ، وعليه اذن أن يحيا هذه الحياة الأرضية وحدها ، فى سبيل النظام والانسجام . ولكن ما ان يمرض هذا الانسان ، ما ان يختل النظام الأرضى والطبيعى فى جسمه حتى تتجلى على الفور امكانية عالم آخر ، وكلما ازداد مرضه ازدادت اتصالاته بذلك

العالم الآخر ، فاذا مات انتقل الى ذلك العـالم الآخر رأسـاً • » • اننى أجرى هذا التفكير منذ زمان طويل • فاذا كنت تؤمن بالحيـاة الآخرة ، كان فى امكانك أيضاً أن تؤمن بهذا الاستدلال الذى أجريه •

قال راسكولنيكوف :

ـ أنا لا أؤمن بالحياة الآخرة •

وظل سفيدريجايلوف حالماً شارد الفكر • ثم قال فجأة :

ـ هه ! ••• ماذا اذا لم يكن فى الحياة الآخرة الا عناكب أو أشياء من هذا القبيل ؟!•••

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انه مجنون ! » •

وتابع سفيدريجايلوف كلامه :

ـ نحن نتصور الأبدية دائماً على أنها فكرة لا نستطيع أن نفهمها ، على أنها شيء ضخم ، ضخم ! ولكن لماذا تكون شـيئاً ضخماً بالضرورة ؟ تصوَّر فجأة أنه ليس هنـاك ، بدلاً من هذا كله ، الا حجرة صغيرة ، الا شيء يشبه حمَّاماً فى قرية ، يملؤه الدخان وتنتشر العناكب فى جميع أركانه ، وتصـوَّر أن هذا هو الأبدية كلهـا • أنا مثلاً انما تبـدو لى الأبدية فى هذه الصورة أحياناً •

صاح راسكولنيكوف يقول منزعجاً :

ـ هل يمكن ، هل يمكن حقاً أن لا يكون فى ذهنك تصور أبعث على العزاء وأقرب الى الصدق ؟

أجاب سفيدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامة غير محدَّدة :

ـ أقرب الى الصدق ! هل تعلم ؟ لو كان الأمر بيدى لصنعت الأمور على هذا النحو نفسه !•••

حين سمع راسكولنيكوف هذا الجواب العجيب الشاذ شعر ببرد مفاجىء يسرى فى جسمه •

ورفع سفيدريجايلوف رأسه ، وحدّق اليه بنظرة ثابتة ، ثم انفجر ضاحكاً ، وهتف يقول :

ـ لا ، لا ، ان أمرنا لعجيب حقاً ! منذ نصف ساعة فقط ، لم نكن قد التقينا بعد ، وكنا نعد نفسينا عدوين • وبيننا ، عدا ذلك ، مسألة لم نخرجها الى النور بعد ، ومع هذا تركناها واسترسلنا فى هذا النوع الغريب من الأدب • هل كذبت عليك حين قلت لك اننا ثمرتا أرض واحدة ؟

قال راسكولنيكوف وقد ثارت أعصابه ثورة شديدة :

ـ من فضلك : قل ما تريد أن تقوله بغير ابطاء ، واذكر لى السبب الذى دفعك الى تشريفى بهذه الزيارة ••• ذلك أننى ••• مستعجل •• يجب أن أخرج •••

ـ طيب ، طيب ••• ان أختك آفدوتيا رومانوفنا ستتزوج السيد لوجين ، السيد بطرس بتروفتش لوجين ، أليس كذلك ؟

ـ ألا يمكن أن تتحاشى كل سؤال يتعلق بأختى ، وأن لا تذكر اسمها ؟ اننى لا أفهم كيف تجرؤ أن تذكر اسمها بحضورى ، اذا صحّ أنك أنت سفيدريجايلوف حقاً !

ـ ولكن كيف لا أذكر اسمها وقد جئت من أجل التحدث فى أمرها ؟

ـ طيب • تكلم • ولكن أسرع !

ـ أنا على يقين من أنك قد كوّنت رأياً فى السيد لوجين (الذى يمت الىّ بقربى مصاهرة) ، اذا كنت قد رأيته ولو مدة نصف ساعة ،

أو كنت قد جمعت عنه بعض المعلومات الدقيقة . هذا رجل لا يصلح زوجاً لآفدوتيا رومانوفنا . فى رأيى أن آفدوتيا رومانوفنا انما تضحى فى هذا الأمر تضحية كبيرة وطائشة فى سبيل ... فى سبيل أسرتها . لقد بدا لى ، بعد كل ما سمعته عنك ، أنك ، من جهتك ، سيسرك كثيراً أن لا يتم هذا الزواج ، شريطة أن لا يُساء الى أختك . وأنا الآن ، بعد أن عرفتك شخصياً ، مقتنع بهذا أكثر من اقتناعى به فى أى وقت مضى .

قال راسكولنيكوف :

ـ هذا كله سذاجة من جانبك ... معذرة ... أردت أن أقول ان هذا كله وقاحة من جانبك .

ـ هل تقصد بذلك أننى أدافع عن مصلحتى ؟ لا تقلق يا روديون رومانوفتش ! لو كنت أتكلم فى سبيل مصلحتى ، لما كنت صريحاً هذه الصراحة ، فما أنا غبى غباوة كاملة على كل حال . بالمناسبة : سأكشف لك عن أمر سيكولوجى غريب ! منذ قليل ، حين كنت أبرّر الحب الذى أحمله لآفدوتيا رومانوفنا قلت عن نفسى اننى أنا ضحية . ألا فاعلم أننى لا أشعر الآن بأى حب ، لا أشعر الآن بأى حب البتة ، حتى اننى استغرب أنا نفسى كيف شعرت فى الماضى فعلاً ...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً :

ـ مصدر ذلك كله ما كنت فيه من فراغ ، وما فُطرت عليه من فسق وعهر ...

ـ حقاً ! أنا رجل عاطل داعر . ولكن أختك ، من جهة أخرى ، لها من المزايا والحسنات ما جعلنى لا أستطيع أنا نفسى أن أمتنع عن أن أتأثر بعض التأثر ... ولكن ذلك كله لم يكن الا لغواً وعبثاً ... أنا أدرك هذا الآن .

ـ وهل تدركه منذ مدة طويلة ؟

ـ بدأت أدركه منذ بعض الوقت ، ولكنني لم أقتنع به اقتناعاً مطلقاً الا أمس الأول ، تقريباً فى نفس الدقيقة التى وصلت فيها الى بطرسبرج. وحتى في موسكو كنت ما أزال أتصور أننى آت من أجل أن أخطب آفدوتيا رومانوفنا وأن أفرض نفسى منافساً للسيد لوجين .

ـ اغفر لى مقاطعتك ... ولكن أرجوك ... رحماك ... ألا تستطيع أن توجز وأن تنتقل رأساً الى الكلام عن الغرض من زيارتك ؟ اننى مستعجل ... يجب أن أخرج .

ـ بكل سرور . حين وصلت الى هنا عازماً على القيام ... برحلة، أردت أولاً أن أتخذ بعض الاجراءات . لقد أبقيت أولادى عند خالتهم. وهم أغنياء لا حاجة بهم الىّ . وأى أب أنا لهم على كل حال ؟ لم أحمل معى الا المال الذى أهدته الىّ مارتا بتروفنا منذ سنة . هذا يكفينى . معذرة ، اننى أصل الى الوقائع بسرعة شديدة . اننى قبل سفرى الذى قد يتم على كل حال ، أريد أن أفرغ من السيد لوجين . ليس يعنى هذا أننى أكرهه كرهاً يبلغ هذا المبلغ من القوة ، ولكنه هو السبب في الشجار الذى وقع بينى وبين مارتا بتروفنا ، حين علمت أنها دبّرت أمر هذا الزواج . اننى أرغب الآن أن ألقى آفدوتيا رومانوفنا بواسطتك ، وبحضورك اذا شئت ، بغية أن أشرح لها أولاً أنه ما من خير يمكن أن تتوقعه من السيد لوجين ، بل وأن هناك شروراً كبيرة يجب أن تتوقعها منه ؛ وأن أطلب منها ثانياً ، بعد التماس غفرانها عن المتاعب التى سببتها لها ، أن تأذن لى أن أقدم اليها عشرة آلاف روبل فى سبيل أن أسهّل لها القطيعة مع السيد لوجين ، وهى قطيعة أحسب أنها لن تسوءها اذا هى تصورت امكانها .

صاح راسكولنيكوف يقول وقد تجاوز ذهوله حنقه :

ـ ألا انك لمجنون فعلاً ، ألا انك لمجنون فعلاً . كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام ؟

ـ كنت أعلم أنك ستطلق صيحات عالية وصرخات شديدة . ولكننى أحب أن أقول لك أولاً اننى على كونى لا أملك ثراءً كبيراً ، أستطيع التصرف فى هذه العشرة آلاف روبل . بتعبير آخر : ان هذا المبلغ ليس بالمبلغ الذى لا غنى لى عنــه ، فاذا لم تقبله آفدوتيا رومانوفنــا ، فسأنفقه انفاقاً أشد غباوة وحماقة . هذه أولى . وأما الثانية فهى أن ضميرى مرتاح كل الارتيــاح : اننى أقدم هــذا المال دون أى حســاب . صــدّق أو لا تصدّق ، ولكنكما ، أنت وآفدوتيا رومانوفنا ، ستدركان هذا فيما بعد . الحقيقة أننى سببت بعض المتاعب وبعض الازعاجات فعلاً لأختك الصغيرة المحترمة ، واذ كنت أشعر بندامة صادقة وأعانى من عذاب الضمير ، فاننى أرغب من كل قلبى لا أن أكفّر عن خطيئتى ، فأقدم لأختــك تعويضــاً مالياً ، بل أن أكون ، بكل بساطة ، نافعاً لها فى أمر من الأمور على نحو من الأنحاء ، لأننى على كل حال لست بالانسان الذى لا يمتاز الا باقتراف الشر . ولو كان فى عرضى هذا جــزء من مليون جــزء من حســاب ، لما قدمته بمثل هذه الصراحة كلها . ثم اننى ما كان لى أن أقدم اليها عشرة آلاف روبل فحسب ، بينما كنت أعرض عليها أكثر من ذلك منذ خمسة أسابيع . أضف الى ذلك أن من الجائز جداً أن أتزوج احدى الفتيات فى وقت قريب كل القرب ، وهذا ينفى عنى كل شــبهة فى اضــمار أى شر لآفدوتيا رومانوفنا . وأقول فى الختام ان آفدوتيــا رومانوفنــا ، اذا هى تزوجت السيد لوجين ، ستتقاضى هذا المبلغ نفسه ولكن من جيب آخر ... لا تزعل يا روديون رومانوفتش ... بل احكم على الأمر بنفســك فى هدوء وسكينة .

وكان سفيدريجايلوف ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، هادئاً كل الهدوء ، ساكناً كل السكينة .

قال راسكولنيكوف :

ـ أرجو أن تقف عند هذا الحد من الكلام ، لأن ما قلته حتى الآن هو على كل حال زاخر بوقاحة لا تغتفر .

ـ أبداً . من يسمعك يظن أن الانسان لا يمكن أن يصنع بأخيه الانسان الا شراً في هذا العالم الأرضي ، وأنه لا يجوز أن يفعل له أي خير ، وذلك كله باسم عادات سخيفة وآراء باطلة . ألا ان هذا لمضحك حقاً . هل اذا مت مثلاً ، فأورثت أختك الصغيرة في وصيتي هذا المبلغ نفسه ، هل ترفض أختك قبوله حتى في هذه الحالة ؟

ـ جائز جداً أن ترفضه .

ـ لا ! ودعنا من هذا على كل حال . المهم أن عشرة آلاف روبل مبلغ جميل ! ومهما يكن من أمر ، فانني أرجوك أن تطلع آفدوتيا رومانوفنا على هذا الحديث .

ـ لا ، لن أطلعها عليه .

ـ في هذه الحالة سأكون مضطراً يا روديون رومانوفتش أن أسعى بنفسي الى الحصول على موعد منها ، وقد يزعجها هذا .

ـ واذا أطلعتها على هذا الحديث ، ألن تسعى بنفسك الى الحصول على هذا الموعد ؟

ـ لا أدري بماذا أجيبك . انني أود كثيراً أن أراها مرة .

ـ لا تعوّل على هذا !

ـ خسارة . على أنك لا تعرفني . أفليس من الجائز أن تتوثق العلاقات بيننا ؟

ـ أأنت تظن حقاً أن العلاقات بيننا قد تتوثق ؟

أجاب سفيدريجايلوف وهو ينهض ويتناول قبعته :

ـ لم لا ؟ ليس معنى هذا أننى أحرص هذا الحرص كله على أن أزعجك هنا ... حتى اننى لم أكن أعوّل على أن ... رغم أن هيئتك قد لفتت نظرى كثيراً فى هذا الصباح ...

سأله راسكولنيكوف فى قلق :

ـ أين رأيتنى فى هذا الصباح ؟

ـ رأيتك بمحض مصادفة ! ما يزال يخيّل الىّ أن فيك شيئاً قريباً منى كل القرب . ولكن لا تقلق أى قلق ، ما أنا بالرجل المزعج : لقد استطعت أن أتفاهم مع غشاشين ؟ ولم أضجر الأمير سفرباى الذى يمت الىّ بقربى بعيدة والذى هو سيد من كبار السادة ؟ وتسنى لى أن أكتب فى « ألبوم » مدام بريلوكوفا بضعة أسطر عن « مادونا » رافائيل ★، وعشت سبع سنين متصلة غير منقطعة مع مارتا بتروفنا ؟ وقضيت قبل ذلك ليالى بكاملها فى عمارة فيازمسكى ★ بميدان « سوق العلف » ؟ وقد أطير بالمنطاد مع بيرج ...

ـ رائع . فاسمح لى الآن أن أسألك أأنت تزمع القيام برحلتك قريباً ؟

ـ أى رحلة ؟

ـ عجيب ! الرحلة التى حدثتنى عنها منذ قليل .

ـ رحلة ؟ آ ... نعم ... رحلة ... فعلاً .. لقد حدثتك عن رحلة ... ولكن هذه مسألة واسعة جداً ... ليتك تعرف عن أى شىء تسألنى !

كذلك أضاف فجأة وهو يضحك ضحكة رنانة قصيرة . ثم أردف:

ـ قد أتزوج بدلاً من القيام بتلك الرحلة : هناك خطيبة تُقترح عليَّ .

ـ هنا ؟

ـ نعم .

ـ متى اتسع وقتك لأن ...

ـ أود كثيراً مع ذلك أن أرى أختك آفدوتيا رومانوفنا . انني أسألك جاداً أن تؤدي لي هذه الخدمة . هيًّا ... الى اللقاء مرة أخرى. آ ... نسيت ... قل لأختك اللطيفة يا روديون رومانوفتش ان مارتا بتروفنا قد أورثتها في وصيتها ثلاثة آلاف روبل . هذه هي الحقيقة دقيقةً . لقد اتخذت مارتا بتروفنا هذه الاجراءات قبل موتها بأسبوع ، اتخذتها بحضوري . وفي وسع آفدوتيا رومانوفنا أن تقبض هذا المبلغ في غضون أسبوعين أو ثلاثة .

ـ تقول ... هذه هي الحقيقة ؟

ـ نعم هذه هي الحقيقة . أرجوك أن تبلغها اياها . هيًّا ... الى اللقاء مرة أخرى . هل تعلم أنني أسكن قريباً جداً منك ؟

قال سفيدريجايلوف ذلك واتجه نحو الباب ؛ وفيما هو يجتاز العتبة ، التقى برازوميخين !

الفصل الثانى

كانت الساعة قريبة من الثامنة : أسرع الاثنان نحو عمارة باكالايف ليصلا قبل لوجين •

وسأل رازوميخين صاحبه منذ أصبحا فى الشارع :

ـ قل لى : من ذلك الرجل ؟

ـ هو سفيدريجايلوف ، ذلك الملاّك الذى أهينت أختى فى منزله حين كانت تعمل عنده مربية • وقد اضطرت أن تنصرف بسبب ملاحقاته الغرامية : طردتها زوجته مارتا بتروفنا • ومارتا بتروفنا هذه قد اعتذرت لدونيا بعد ذلك ثم ماتت فجأة منذ مدة قصيرة ؛ وعنها انما كان يجرى الحديث منذ قليل • لا أدرى لماذا أنا خائف من هذا الرجل • لقد وصل الى بطرسبرج بعد دفن زوجته فوراً • هو رجل غريب جداً ؛ يخيّل الىّ أنه عازم أمره على تدبير مكيدة خبيثة • لكأنه يعرف شيئاً ما ••• يجب أن نحمى دونيا منه ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك ، هل تسمع ؟

ـ نحميها منه ؟ ولكن أى أذى يستطيع أن يلحقه هذا الرجل بأفدوتيا رومانوفنا ؟ على كل حال ، أشكر لك يا روديا أنك تقول لى هذا الكلام • لسوف نحميها • أين يسكن ؟

ـ لا أدرى •

ـ لماذا لم تسأله ؟ خسارة ! سأعرف ذلك على كل حال •

سأله راسكولنيكوف بعد فترة صمت :

ـ هل رأيته ؟

ـ طبعاً • لاحظته ، لاحظته جيداً •

وألح راسكولنيكوف سائلاً :

ـ هل رأيته رؤية واضحة ، مميَّزة ؟

ـ نعم ، وأتذكره تذكراً واضحاً مميَّزاً• لو رأيته بين ألف شخص لعرفته • انني أملك ذاكرة الوجوه •

وصمتا من جديد •

وجمجم راسكولنيكوف يقول :

ـ هم ••• ذلك أنني ••• ذلك أنني ••• هل تعلم ؟ لولا ذلك ••• لكان يمكن أن أظن ••• ما أزال أظن ••• أن ذلك لم يكن الا أضغاث أحلام •

ـ عمَّ تتكلم ؟ لست أفهم بوضوح •

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً وهو يلوي فمه بابتسامة :

ـ اسمع : لما كنتم تقولون جميعاً انني مجنون ، فقد تصورت منذ قليل انني قد أكون مجنوناً بالفعل ، وأن ما رأيته لم يكن الا شبحاً •

ـ ما هذا الذي تقوله ؟

ـ من يدري ؟ لعلني مجنون مع ذلك ، ولعل كل ما جرى في الآونة الأخيرة انما جرى في خيالي وحده !

ـ روديا ! هل شوشوا عقلك من جديد ؟ ولكن ماذا قال لك هذا الرجل ؟ لماذا جاء ؟

لم يجب راسكولنيكوف . وفكّر رازوميخين لحظة . ثم بدأ يتكلم فقال :

ـ طيب ، اسمع تقريري : لقد جئت اليك ، فوجدتك نائماً . ثم تغدينا ، ثم ذهبت الى بورفير . كان زاميوتوف عنده . أردت أن أبدأ الحديث ، ولكن ذلك لم يثمر . لم أستطع أن أتكلم كما كان ينبغي أن أتكلم . لم يفهما شيئاً ؛ كانا لا يستطيعان أن يفهما شيئاً ؛ ولكنهما لم يظهرا أي ارتباك . جذبت بورفير الى النافذة وأخذت أتكلم ، ولكن هذا لم يثمر أيضاً . كنت أنظر الى جهة ، وكان هو ينظر الى جهة أخرى. وأخيراً وضعت قبضة يدي تحت بوزه ، وقلت له انني سأحطم له بوزه على الطريقة العائلية . فلم يزد على أن نظر الىّ . عندئذ بصقت على الأرض ، وانصرفت . هذا كل شيء . ما أغبى هذا كله ! أما زاميوتوف فلم أبادله كلمة واحدة . ومع ذلك اعتقدت أنني أفسدت الأمر كله ، الى أن تراءت لي فجأة ، وأنا أهبط السلم، فكرة وضعت بلسماً على قلبي. قلت لنفسي : لماذا نصدّع رأسينا ، أنا وأنت ؟ لو كان هناك خطر يتهددك ، لو كان هناك شيءٌ حقاً ، لما قلت كلمة واحدة . ولكنك لا شأن لك في هذا الأمر كله . ما شأنك أنت وهذا الأمر ؟ أنت لا علاقة لك بهذا الأمر . فما عليك اذن الا أن تستخف بهم ، أن تبصق عليهم . ولسوف ترى أننا نحن الذين سنضحك عليهم ونستهزئ بهم . لو كنت في مكانك لأخذت أضللهم وأغرّر بهم ! ما أشد ما سيشعرون به من خجل وعار فيما بعد ! ابصق على هذا الأمر كله ، لماذا لا تبصق عليه ؟ قد نستطيع في المستقبل أن نضربهم أيضاً . ولكن فلنضحك الى أن يحين ذلك الحين !

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

ـ طبعاً ، طبعاً !

ولكنه قال بينه وبين نفسه : « ما عساك قائلاً فى الغد ؟ » •

شىء غريب : ان راسكولنيكوف لم يكن قد تساءل مرة واحدة حتى الآن « ما عسى يفكر فيه رازوميخين حين يعلم الحقيقة » • فلما خطرت هذه الفكرة بباله الآن حدّق الى صديقه بنظرة ثابتة • أما ما رواه له رازوميخين عن زيارته لبورفير فانه لم يهتم به كثيراً : ان أموراً كثيرة قد جرت بعد تلك الزيارة !•••

وفيما كانا يعبران الدهليز التقيا بلوجين • لقد وصل لوجين فى الساعة الثامنة تماماً ، ولكنه ظل يطوف مدة طويلة قبل أن يهتدى الى الغرفة ، وها هم أولاء الثلاثة يدخلون معاً ، ولكن دون أن ينظر أحد منهم الى أحد ، ودون أن يحيى أحد منهم أحداً • دخل الشابان أولاً ، وتلبث بطرس بتروفتش فى حجرة المدخل قليلاً من باب اللباقة ، وخلع هنالك معطفه • وتقدمت بولشيريا ألكسندروفنا الى لقائه عند عتبة الغرفة فوراً • وكانت دونيا أثناء ذلك الوقت تحيى أخاها •

دخل بطرس بتروفتش ، وسلّم على السيدتين بلطف ومودة ، رغم أنه قد اصطنع مزيداً من الوقار والكبرياء • على أنه كان يبدو مرتبكاً بعض الارتباك ، لم يسيطر على نفسه سيطرة تامة بعد • وأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا التى كانت تبدو مرتبكة هى أيضاً ، أسرعت تُجلس الجمع كله حول المائدة المستديرة التى كان عليها سماور يغلى ماؤه • فكان مكانا دونيا ولوجين متقابلين ، وكان مكانا رازوميخين وراسكولنيكوف أمام بولشيريا الكسندروفنا ، فأما رازوميخين فالى جانب لوجين ، وأما راسكولنيكوف فالى جانب أخته •

خيّم الصمت برهة من الوقت • وأخرج بطرس بتروفتش من جيبه ، بغير تعجل ، منديلاً من قماش الباتيسته تفوح منه روائح عطر ، وتمخط كما يتمخط رجل يحس أن كرامته قد أهينت ، فهو عازم لذلك

على أن يطالب بايضاحات ، ولكنه ظل محافظاً على بشاشة هيئته • كان قد خطر بباله وهو فى حجرة المدخل أن لا يخلع معطفه ، وأن ينصرف فوراً ليعاقب السيدتين معاقبة قاسية ، وليفهمهما الوضع كله • ولكنه لم يعزم أمره على انفاذ هذه الفكرة التى خطرت بباله • ثم ان هذا الرجل يكره الأمور التى يعوزها اليقين الثابت ، وهناك نقطة لا بد من ايضاحها : لئن خالفت هاتان السيدتان أوامره صراحة ، فلا بد أن هناك سبباً دعا الى ذلك ، فالأفضل أن يعرف هذا السبب بسرعة ، وفى وسعه بعدئذ أن يعاقب عقاباً قاسياً ما دام يملك أن يعاقب •

قال يخاطب بولشيريا ألكسندروفنا بلهجة رسمية :

ــ أرجو أن تكونا قد قمتما برحلة مريحة •

ــ نحمد الله يا بطرس بتروفتش !

ــ يسرنى أن أعرف هذا • ألم تتعب آفدوتيا رومانوفنا أيضاً ؟

أجابت دونيا قائلة :

ــ أنا شابة وقوية فلا أتعب • أما ماما فقد تحملت مشقة كبيرة •

ــ ما العمل ؟ ان طرقنا الوطنية تمتد مسافات كبيرة • ان « أمنا روسيا » كما يقال ، واسعة كثيراً ••• أما أنا فانني ، رغم رغبتى القوية ، لم أستطع أن آتى الى المحطة لاستقبالكما • آمل مع ذلك أن يكون كل شيء قد تمّ بدون مزعجات •

فأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تقول بنبرة خاصة :

ــ لا يا بطرس بتروفتش ! لقد لقينا مزعجات كثيرة ، وشعرنا بضيق شديد • ولولا أن الله أرسل الينا دمترى بروكوفتش بالأمس ، اذن لضعنا •

ثم أضافت تعرّف لوجين بدمترى بروكوفتش :

ــ هذا دمترى بروكوفتش .

فدمدم لوجين يقول وهو يلقى على رازوميخين نظرة مواربة خالية من المودة :

ــ ولكن ... سبق لى أن سُررت ... أمس ...

ثم قطب حاجبيه وصمت .

نستطيع أن نصف بطرس بتروفتش على وجه العموم بقولنا انه ينتمى الى تلك الفئة من الناس التى تبدو فى المجتمع لطيفة ودوداً ، أو قل تبدو متطلعة الى اللطف والمودة ، ولكن ما ان يسؤها شىء حتى تفقد على الفور وسائلها ، فاذا هى تشبه أكياساً من دقيق أكثر مما تشبه فرساناً مرحين يزخرون نشاطاً ويحظون باعتبار الناس عامة .

وساد صمت شامل من جديد . فراسكولنيكوف مصرٌ على السكوت اصراراً عنيداً ، وآفدوتيا رومانوفنا لا تريد أن تتكلم قبل أن تحين اللحظة المناسبة ، ورازوميخين ليس عنده ما يقوله . وهكذا شعرت بولشيريا ألكسندروفنا بنذر الخطر . فلجأت الى آخر ما تملك من موارد ، فبادرت تقول :

ــ ماتت مارتا بتروفنا ، هل تعرف هذا ؟

ــ أعرفه طبعاً . علمت به منذ أخذت تسرى الشائعة ... وأزيدك علماً فأقول ان آركادى ايفانوفتش سفيدريجايلوف قد أسرع يجىء الى بطرسبرج بعد دفن امرأته فوراً . هذه هى على كل حال الأخبار الدقيقة التى وصلتنى .

قالت دونيا تسأل بصوت خائف قلق ، وهى تبادل أمها نظرة سريعة :

ــ الى بطرسبرج ؟ الى هنا ؟



بطرس بتروفتش لوجين

ـ نعم • ولا شك في أن له نيات يضمرها ، اذا نحن نظرنا الى استعجاله السفر ، والى الأحداث التى سبقت هذا السفر على وجه العموم•

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ رباه ! هل من الممكن أن لا يدع دونيتشكا مرتاحة هنا أيضاً ؟

ـ يخيَّل اليَّ أنكما يجب أن لا تبالغا فى القلق ، لا أنت ولا آفدوتيا رومانوفنا ، على شرط أن ترغبا طبعاً فى أن تتحاشيا كل صلة به • أما أنا فسأكون يقظاً ساهراً ، وسأبادر منذ الآن الى استطلاع محل سكناه •

وتابعت بولشيريا ألكسندروفنا كلامها فقالت :

ـ آه يا بطرس بتروفتش ! انك لا تعرف مدى ما أحدثته فى نفسى من خوف ورعب • اننى لم أره فى حياتى الا مرتين ، ولكنه بدا لى مريعاً ، مريعاً ! أنا واثقة بأنه هو سبب موت مارتا بتروفنا !

ـ يصعب القطع برأى فيما يتعلق بهذه النقطة • أنا أملك معلومات دقيقة محددة • لست أنكر أنه قد عجَّل مجرى الأمور بما أحدثته الاهانة فيها من أثر نفسى ان صح التعبير • أما عن سلوك الرجل وعن أخلاقه عامةً فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة • لا أدرى هل أصبح الآن غنياً ، ولا أدرى كم أورثته مارتا بتروفنا على وجه الدقة ، ولكننى سأعرف هذا بعد مدة لن تطول • ومهما يكن من أمر ، فمما لا شك فيه أنه ، وقد أصبح يملك مالاً ، سوف يستأنف فوراً ، هنا ببطرسبرج ، طراز الحياة التى كان يعيشها فى الماضى • هذا انسان هو أكثر أشباهه انحلال خلق ، وفساد طبع • وهناك أسباب قوية تدعونى الى الاعتقاد بأن مارتا بتروفنا التى شاء سوء حظها أن تُفتتن به وأن تحرره من ديونه منذ ثمانى سنين ، قد خدمته فى ميادين أخرى : فبفضل جهودها وحدها ، وبفضل تضحياتها انما استطاعت أن تخنق فى المهد قضيةً اجرامية وحشية

فظيعة كان يمكن أن تؤدى به الى سيبريا • ذلك هو هذا الرجل اذا كنت تحرصين على معرفته !

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ آه ! رباه !

وكان راسكولنيكوف يصغى بانتباه •

سألته دونيا بلهجة قاسية رصينة :

ـ هل صحيح حقاً أن لديك معلومات دقيقة عن ذلك ؟

ـ أنا انما أكرر ما سمعته بنفسى من فم المرحومة مارتا بتروفنا مختوماً بخاتم السر • يحسن أن نلاحظ أن هذه القضية تظل من وجهة النظر القانونية غامضة غموضاً شديداً • فى ذلك الوقت كانت تعيش هنا ـ ويظهر أنها ما تزال تعيش الى الآن ـ سيدة أجنبية اسمها ريسليش، وهى مرابية صغيرة لها عدا ذلك أعمال أخرى • ولقد كان السيد سفيدريجايلوف على صلات حميمة سرية بهذه المرأة منذ زمن طويل • وكانت تعيش معها فتاة تمت اليها بقرابة بعيدة ، فتاة صغيرة فى الخامسة عشرة من عمرها أو فى الرابعة عشرة ، كانت صماء خرساء ، وكانت السيدة ريسليش تمحضها كرهاً لا حدود له ، وتلومها على كل لقمة خبز تأكلها ، حتى لقد كانت تضربها ضرباً خالياً من أية شفقة انسانية • وفى ذات يوم وُجدت الفتاة مشنوقة فى الطابق الذى يقع تحت سقف المنزل• وقد انتهى التحقيق الى أن الفتاة ماتت منتحرة ، فطويت القضية بعد اتمام الاجراءات المعتادة • غير أن وشاية جاءت بعد ذلك تقول ان الطفلة قد اعتدى عليها السيد سفيدريجايلوف اعتداء مشيناً قاسياً • صحيح أن هذا كله ظل يكتنفه الغموض ، فان الوشاية قد صدرت عن ألمانية أخرى هى امرأة سيئة السمعة لاتوحى بأية ثقة• ولم تتبع ذلك أية اجراءات : فبفضل

جهود مارتا بتروفنا وبفضل مالها بقي كل شيء في حدود الشائعة • غير أن هذه الشائعة كانت بليغة الدلالة • ولا شك أنك سمعت يا آفدوتيا رومانوفنا ، حين كنت عندهم ، كلاماً عن قصة خادم اسمه فيليب مات منذ ست سنين على أثر معاملات سيئة ، في العهد الذي كانت فيه القنانة ما تزال قائمة •

ــ بل لقد سمعت أن فيليب هذا مات منتحراً •

ــ تماماً ، ولكنه أُجبر على الانتحار ، أو قولي دُفع اليه ، بتأثير نظام الازعاجات والاضطهادات التي كان يمارسها السيد سفيدريجايلوف•

قالت دونيا بخشونة :

ــ لم أكن أعرف ذلك • ولكنني سمعت قصة غريبة جداً تروى أن فيليب هذا كان فتى مصاباً بمرض الوسواس ، وأنه كان نوعاً من فيلسوف قابع في البيت • كان الناس يقولون عنه ان قراءاته هي التي ذهبت بعقله ، وانه انتحر هرباً من سخريات السيد سفيدريجايلوف ، لا من ضرباته • ومهما يكن من أمر فان السيد سفيدريجايلوف ، كان طوال مدة اقامتي عندهم ، يعامل الخدم بحضوري معاملة حسنة ، حتى لقد كان هؤلاء يحبونه ، رغم أنهم يتهمونه في الواقع بأنه كان السبب في موت فيليب •

قال لوجين وهو يلوي فمه بابتسامة ملتبسة المعنى :

ــ أرى يا آفدوتيا رومانوفنا أنك أصبحت تميلين فجأة الى التسامح • هذا رجل ماكر فعلاً ، وهو الى ذلك مغو داعر • أليست مارتا بتروفنا ، التي ماتت تلك الميتة الغريبة ، دليلاً محزناً على ذلك ؟ أنا انما أردت أن أساعدكما بنصائحي ، أنت وأمك ، لأنني أتنبأ بمحاولات جديدة سيقوم بها وأنتما تجهلانها • واني من جهتي لعلى اقتناع جازم بأن

هذا الرجل سيودع في السجن يوماً من الأيام بسبب ديون . ان مارتا بتروفنا التي كانت لا تفكر الا في أولادها لم يكن في نيتها حتماً ، في يوم من الأيام ، أن تورثه مبلغاً ضخماً من ثروتها ، واذا أورثته شيئاً مع ذلك، فان هذا الميراث لا يمكن أن يكون الا مبلغاً زهيداً « عارضاً » ، وهذا المبلغ الزهيد لن يكفي صاحبه الذي عُرف بعادات خاصة الا سنةً واحدة في أكثر تقدير .

قالت دونيا :

ـ بطرس بتروفتش، أرجوك، لا تتكلمن عن السيد سفيدريجايلوف! ان الكلام عنه يؤلمني .

وقال راسكولنيكوف فجأة ، خارجاً بذلك عن صمته أول مرة :

ـ جاء اليَّ منذ قليل .

فاذا بصيحات التعجب تتعالى في جميع الجهات ، واذا بجميع الوجوه تلتفت اليه . وانفعل حتى بطرس بتروفتش .

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال :

ـ جاء اليَّ منذ ساعة ونصف ، بينما كنت ما أزال نائماً . دخل ، فأيقظني ، وعرفني بنفسه . كان منطلقاً مرحاً ، وكان يأمل جازماً أن تنعقد بيني وبينه صلات . وقد ألحَّ خاصةً على أن يلقاك يا دونيا ، وطلب مني أن أكون وسيطاً له في تهيئة هذا اللقاء . هناك عرض يريد أن يبسطه لك . وقد ذكر لي ما هو هذا العرض . ومن جهة أخرى أبلغني رسمياً أن مارتا بتروفنا قد اتسع وقتها ، قبل وفاتها بثمانية أيام ، أن تورثك في وصيتها ثلاثة آلاف روبل ، وهو مبلغ تستطيعين أن تقبضيه يا دونيا في أقرب فرصة .

هتف بولشيريا الكسندروفنا تقول وهى ترسم اشارة الصليب :

ــ الحمد لله ! صلىّ لها يا دونيا صلىّ لها !

قال لوجين :

ــ هذا صحيح .

وقالت دونيا مستطلعة :

ــ هيه ، وبعد ذلك ؟

ــ بعد ذلك قال انه هو نفسه ليس غنياً ، وان الثروة كلها قد آلت الى أولاده الذين بقوا الآن عند خالتهم . ثم أضاف انه قد نزل فى مكان ما ، غير بعيد عن بيتى ، ولكننى لا أدرى أين يقع مسكنه على وجه الدقة ، ولا سألته عن ذلك على كل حال .

سألت بولشيريا ألكسندروفنا مرتاعةً :

ــ ولكن ماذا يريد ، ماذا يريد أن يعرض على دونيا ؟ هل قال لك ماذا يريد أن يعرض عليها ؟

ــ نعم ، قال لى .

ــ فما الذى يريد أن يعرضه عليها ؟

ــ سأذكر فيما بعد .

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم صمت وعاد يشرب الشاى .

فأخرج بطرس بتروفتش ساعته ونظر فيها ، ثم قال :

ــ اننى مضطر الى أن أترككم حتماً ، فهنــاك عمــل ملح مستعجل ينادينى .

وأضاف يقول وهو يتحرك لينهض مظهراً بعض الانزعاج :

ــ وبذلك لن أضايقكم .

فقالت دونيا :

ـ ابق يا بطرس بتروفتش ! ألم تكن تنوى أن تقضى السهرة معنا ؟ ألم تكتب أيضاً أنك تريد أن تناقش ماما ؟

فقال بطرس بتروفتش بوقار شديد :

ـ هذا صحيح يا آفدوتيا رومانوفنا .

وجلس ، لكنه ظل ممسكاً قبعته بيده ، وتابع يقول :

ـ كنت أريد فعـلا" أن أناقشـك وأناقش أمك المحترمة فى أمور خطيرة جداً . ولكن كما أن أخاك لا يستطيع أن يشرح أمامى شيئا عن عروض السـيد سـفيدريجايلوف ، كذلك لا أريد أنا ولا أسـتطيع أن أشرح شيئاً أمام ... أشخاص آخـرين ... فى أمور هى على درجـة عظيمة جـداً من خطورة الشـأن !... ثم ان احـداً لم يكترث اطلاقاً برجائى الملح ...

واكتسى وجه لوجين تعبيراً عن المرارة ، وصمت فى وقار ورصانة.

قالت دونيا :

ـ أنا وحدى السبب فى أن رغبتك فى أن لا يحضر أخى حديثنا لم تـُحقـّق . لقد كتبت تقول ان أخى أهانك ، وأنا أرى أنه يجب ايضاح الأمور بأقصى سرعة ، وأن عليكما أن تتصالحا . اذا كان روديا قد أهانك حقاً ، فانه يكون من « واجبه » أن يعتذر لك ، و « سوف يفعل » ذلك..

فسرعان ما استرد بطرس بتروفتش ثقته ، فقال :

ـ يا آفدوتيا رومانوفنا ، هناك أمور لا يمكن أن ينساها المرء مهما يبلغ من حسن الطوية وصدق الرغبة . ان لكل شىء حدوداً لا يمكن أن يتجاوزها أحد دون أن يعاقب عليها ، ومتى تجـاوزها كانت العودة الى الوراء مستحيلة استحالة كاملة .

قاطعته دونيا تقول بشيء من نفاد الصبر :

ـ ليس هذا تماماً ما كنت أكلمك فيه . افهمْ جيداً أن مستقبلنا يتوقف الآن على نقطة واحدة : هل يمكن ايضاح هذا الأمر كله وتسويته بأقصى سرعة أم لا ؟ انني أنبّهك بصراحة ، منذ البداية ، الى أنني لا أرى لنا أي مخرج آخر ، فاذا كنت تحرص عليّ أي حرص فيجب أن تنتهي هذه القصة في هذا اليوم نفسه مهما يكلف الأمر . أعود فأكرر أن أخي سيعتذر لك اذا هو كان مخطئاً .

قال لوجين وقد ازداد اهتياجه شيئاً بعد شيء :

ـ يدهشني يا آفدوتيا رومانوفنا أن تطرحي المسألة هذا الطرح . انني على ما أكنه لك من اعتبار عظيم ، ومن حب كبير ان صح التعبير ، أستطيع جداً أن لا أحب فرداً من أفراد أسرتك . وانني على تطلعي الى أن أسعد بزواجك أستطيع جداً أن لا أقبل تحمل واجبات لا تتفق مع..

قاطعته دونيا تقول مندفعة :

ـ مهلاً مهلاً ! دعك من فرط الحساسية هذا يا بطرس بتروفتش. ولتكن ذلك الرجل الذكي النبيل الذي رأيته فيك دائماً والذي أحب أن أراه فيك . لقد وعدتك وعداً صريحاً ، وأنا خطيبتك . فلتثق بي اذن في هذه القضية ، ولتكن على يقين من أنني أستطيع أن أقضي في الأمر محايدةً غير متحيزة . ان وقوفي موقف الحكم يدهش أخي مثلما يدهشك . وحين دعوته اليوم ، بعد تلقي رسالتك ، الى حضور لقائنا هذا حتماً ، فانني لم أقل له شيئاً عما أنتويه . ألا فافهم أنني سأكون مضطرة الى أن أختار أحدكما وأترك الثاني اذا أنتما لم تتصالحا . ان المسألة مطروحة على هذا النحو ، من جهتك ومن جهته على السواء . فلا أستطيع ولا ينبغي لي أن أُخدع في أمر اختياري . أنت ترى أن عليّ أن أقطع

صلتي بأخي ، وهو يرى أن عليّ أن أقطع صلتي بك . فأنا أريد وأستطيع أن أعرف في هذه اللحظة أهو أخ لي حقاً ، وأستطيع أن أعرف أيضاً أأنا عزيزة عليك حقاً ، أستطيع أن أعرف هل أنت تحترمني ، هل أنت زوج لي حقاً .

قال لوجين منزعجاً :

ـ يا آفدوتيا رومانوفنا ، ان أقوالك هذه زاخرة بالمعاني في نظري، بل في وسعي أن أقول انها جارحة جداً اذا نحن نظرنا الى الوضع الذي يشرفني أن أحتله بالنسبة اليك . فبغضّ النظر عن طريقتك الغريبة المثيرة هذه في الموازنة بيني أنا وبين ... شاب مغرور ، فانني أرى أنك تتصورين امكان تراجعك عن الوعد الذي قطعته لي . فأنت تقولين « أنت أو هو » ، مبرهنةً بذلك على ضعف شأني عندك ، وقلة قيمتي في نظرك . ألا فاعلمي أنني لا أستطيع أن أقبل هذا ، نظراً للعلاقات التي بيننا ، و ... الالتزامات التي تربطنا .

صرخت دونيا وقد احمر وجهها من الغضب احمراراً شديداً :

ـ كيف تقول هذا الكلام ؟ لقد وضعتُ مصلحتك في منزلة أثمن ما ملكت حتى الآن ، وضعتها في منزلة كل ما كان حتى الآن حياتي « كلّها » ، وهأنت ذا تشكو فجأة من ضعف شأنك عندي وقلة قيمتك في نظري ! ...

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة حاقدة ، وغضب رازوميخين غضباً شديداً .

ولكن بطرس بتروفتش لم يشأ أن يدرك ذلك الاعتراض ، وأن يفهم ذلك الدليل ، حتى لقد كان يغدو أشدّ شراسة وأميل الى المشاجرة

عند كل كلمة جديدة ، فكأنه يجد لذة فى أن الأمور قد صارت الى هذه الحال .

قال متفخماً :

ـ ان حب رفيق الحياة ، ان حب الزوج يجب أن يتغلب على حب الأخ . ومهما يكن من أمر ، فأنا لا أرضى أن أوضع فى ميزان واحد مع ... وعلى كل حال ، ورغم أننى قد أعلنت صراحة منذ لحظة أننى لا أستطيع ولا أريد أن أعرض ، بحضور أخيك ، جميع الموضوعات التى تشغل بالى ، فاننى أحب أن أحاسب أمك المحترمة على نقطة أساسية تجرحنى كثيراً .

قال ذلك ثم التفت يخاطب بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ ان ابنك قد أهاننى أمس بحضور السيد رازودكين (أو السيد ... هذا اسمك ، أليس كذلك ؟ معذرة .. لقد نسيت اسمك ـ كذلك قال لرازوميخين وهو يحييه تحية متلطفة ـ) ، أقول ان ابنك قد أهاننى أمس بحضور هذا السيد مشوهاً فكرة سبق أن عبرت لك عنها فى حديث حميم جرى بينى وبينك أثناء احتساء فنجان من القهوة ، اذ قلت اننى أرى أن الأفضل من وجهة نظر الحياة العائلية أن يتزوج الرجل فتاة فقيرة عرفت مصاعب الحياة وعانت قسوة المعيشة بدلاً من أن يتزوج فتاة ذاقت مباهج اليسر والرخاء والدعة ، لأن ذلك يكفل السعادة ، بل ويضمن الأخلاق أيضاً . ولكن ابنك قد تعمد أن يضخم دلالة هذه الأقوال تضخيماً جعلها سخيفة ، فاتهمنى بأبشع التهم ، ونسب الى أسوأ الأهداف والخطط ، مستنداً فى ذلك الى رسالتك أنت فيما أظن . لسوف يسعدنى كثيراً يا بولشيريا ألكسندروفنا أن تقنعينى بأن الأمر لم يكن كذلك ، فيحمل الى هذا طمأنينة كبيرة وراحة عظيمة . اذكرى لى الكلمات التى

عمدت الى استعمالها لنقل أقوالى والتعبير عن آرائى فى الرسالة التى بعثت بها الى روديون رومانوفتش !

قالت بولشيريا ألكسندروفنا مجمجمة :

ـ لا أتذكر . لقد نقلتها على نحو ما فهمتها أنا نفسى . لا أدرى كيف أعادها لك روديا ... لعله بالغ قليلاً ...

ـ ما كان ليستطيع أن يبالغ لولا ما أوحيت به اليه .

قالت بولشيريا ألكسندروفنا فى وقار :

ـ يا بطرس بتروفتش ، الدليل على أننا ، أنا ودونيا ، لم نؤول أقوالك تأويلاً سيئاً جداً ، هو وجودنا كلتينا « هنا » .

قالت دونيا مؤيدة محبذة :

ـ أحسنت يا ماما !

فقال لوجين مستاءً :

ـ اذن أنا المخطىء !

فبادرت بولشيريا ألكسندروفنا تضيف قولها متشجعة :

ـ اسمع يا بطرس بتروفتش ، انك لا تبرح تتهم روديون ، وقد كتبت أنت نفسك فى حقه أشياء غير صحيحة .

ـ لا أذكر أننى كتبت أى شىء غير صحيح .

قال راسكولنيكوف بلهجة لاذعة ، حتى دون أن يلتفت نحو لوجين :

ـ كتبتَ أننى وهبتُ بالأمس مالاً لا لأرملة الموظف الذى داسته الخيل ـ وهذه هى الحقيقة ـ بل لابنته (التى لم أكن قد رأيتها فى الواقع قبل الأمس يوماً) . كتبتَ ذلك لتوقع بينى وبين أهلى ، ولتزرع فى

قلوبنا الشقاق ؟ ومن أجل تحقيق هذا الغرض أضفت غمزات دنيئة تقدح في سلوك فتاة لا تعرفها . فهذا كله ليس فيه الا نميمة وحقارة .

أخذ لوجين يرتجف من فرط الغضب ارتجافاً شديداً وقال :

ــ معذرةً أيها السيد ، لئن أفضت في الكلام ، في رسالتي ، عن أعمالك وصفاتك ، فانما فعلت ذلك تلبيةً لطلب أمك وأختك اللتين رجتاني أن أعلمهما عن أحوالك وعن الأثر الذي تحدثه في نفسي . أما رسالتي فانني أتحداك أن تجد فيها سطراً واحداً يشتمل على غير الصدق، أي بتعبير آخر أن تبرهن لي على أنك لم تبدد مالك ، وأن تبرهن لي على أن تلك الأسرة ، مهما تكن فقيرة بائسة ، ليس بين أفرادها أحد ساقط .

ــ أما أنا فأرى أنك رغم كل وقارك لا تساوي اصبع تلك الفتاة المسكينة التي ترميها بالحجر ...

ــ معنى هذا أنك لن تتردد عن جمعها بأمك وأختك ؟

ــ فعلتُ هذا ، ان كنت تحرص على أن تعلم ذلك . أجلستها الى جانب أمي ودونيا في هذا اليوم نفسه .

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تنادي ابنها :

ــ روديا !

واحمرت دونيتشكا . وقطب رازوميخين حاجبيه . وابتسم لوجين ابتسامة مسمومة فيها احتقار . وقال يخاطب دونيا :

ــ احكمي بنفسك يا آفدوتيا رومانوفنا : هل من سبيل الى تفاهم ؟ آمل أن تُحل هذه القضية الآن ، وأن توضَّح مرة واحدة الى الأبد . أما أنا فانني انسحب حتى لا أعكر عليكم صفو هذا الاجتماع العائلي اللطيف ، وحتى تتناقلوا أسراركم بحرية .

قال ذلك وهو ينهض ويتناول قبعته . ثم واصل كلامه قائلاً :

ـ ولكننى أسمح لنفسى وأنا أنصرف بأن ألفت نظركم الى أننى آمل أن لا أُجبر فى المستقبل على تحمل مثل هذه اللقاءات بل قولوا على تحمل مثل هذه الفضائح . واليك أنت خاصةً يا بولشيريا ألكسندروفنا المحترمة جداً انما أتقدم بهذا الطلب ، لا سيما وأن رسالتى قد بعثتُ بها اليك أنت ، لا الى أى شخص آخر غيرك .

انزعجت بولشيريا ألكسندروفنا وقالت :

ـ أنت تعد نفسك سيداً لنا يا بطرس بتروفتش ؟ لقد شرحت لك دونيا ، مع ذلك ، الأسباب التى جعلتنا لا نلبى رغبتك . لقدْ كانت نياتها حسنة . ثم انك حين تكتب الىَّ انما تكتب بلهجة من يلقى أوامر . فهل يجب أن نعد كل رغبة من رغباتك أمراً من الأوامر واجب التنفيذ ؟ ألا ان عكس هذا هو ما ينبغى أن يكون . فأنت أنت الآن من يجب عليه أن يلتزم غاية الرقة واللطف فى معاملتنا ، لأننا محضناك ثقة كاملة فتركنا كل شىء فى سبيل أن نجىء الى هنا ، حتى صرنا منذ الآن خاضعتين لمشيئتك ، واقعتين تحت سلطانك .

ـ ليس هذا صحيحاً كل الصحة يا بولشيريا ألكسندروفنا ، لاسيما وأنكم ستقبضون ، كما أُبلغتم ذلك منذ قليل ، مبلغ ثلاثة آلاف روبل أورثتكم اياها مارتا بتروفنا فى وصيتها . يبدو لى أن هذا المبلغ قد جاء فى أوانه ، كما يدل على ذلك ما تصطنعينه من لهجة جديدة فى مخاطبتى .

هذا ما أضافه لوجين بصوت حانق .

فقالت دونيا مهتاجة غاضبة :

ـ فى وسع المرء حقاً ، حين يسمع قولك هذا ، أن يفترض أنك كنت تعوّل على فقرنا وعوزنا ...

ــ على كل حال ، لم يبق فى امكانى الآن أن أعوّل على هذا الفقر وهذا العوز ؛ وأنا خاصةً لا أريد أن أعرقل اطلاعكم على العروض السرية التى عرضها أركادى ايفانوفتش سفيدريجايلوف على أخيك ، والتى أرى أن لها عندك شأناً كبيراً ، حتى لقد تسرك كثيراً .

صاحت بولشيريا الكسندروفنا :

ــ آه ! يا رب !

وأصبح رازوميخين لا يطيق البقاء جالساً على كرسيه .

سأل راسكولنيكوف أخته :

ــ ألا تشعرين الآن بالخجل يا أختى ؟

فقالت دونيا :

ــ نعم ، أشعر بالخجل .

ثم صرخت وقد اصفر وجهها من الغضب اصفراراً شديداً ، صرخت تقول لبطرس بتروفتش :

ــ بطرس بتروفتش ! اذهب من هنا !

لم يكن يبدو على بطرس بتروفتش أنه كان يتوقع هذه الخاتمة . لقد أسرف فى الاعتزاز بنفسه ، وبقوته ، وأسرف فى الاعتماد على ضعف ضحيته . وهو حتى الآن لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه .

شحب وجهه ، وتشنجت شفتاه . ثم قال :

ــ اذا اجتزت الآن هذا الباب يا آفدوتيا رومانوفنا ، مودّعاً بكلمات كهذه الكلمات ، فاعلمى أننى لن أرجع قط . يجب أن تفكّرى فى هذا . وليس من عادتى أن أنكل عن أقوالى .

صاحت دونيا تقول وهى تنهض عن مكانها بوثبة واحدة :

ـ يا للوقاحة ! ألا تعلم أننى لا أريد أن ترجع قط ؟

ـ ماذا ؟ أهكذا اذن ؟

بهذا هتف لوجين الذى لا شك فى أنه ظل حتى تلك اللحظة لا يتصور أن نهاية كهذه النهاية ممكنة ، فاذا هو الآن يفقد كل سيطرته على نفسه ، ويتابع كلامه قائلاً :

ـ هكذا اذن ؟ ولكن هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أن فى وسعى أن أحتج ؟

فتدخلت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ ما الذى يسمح لك بأن تقول لها هذا الكلام وأن تخاطبها بهذه اللهجة ؟ ثم كيف يكون فى وسعك أن تحتج ؟ أتظن أننى أرضى أن أزوج بنتى رجلاً مثلك ؟ هيا اذهب ! اتركنا الى الأبد ! ألا اننا نحن الذين أثمنا حين تورطنا فى قضية غير شريفة ؟ وأنا الآثمة أكثر من أى شخص آخر ...

ـ ولكنك ، يا بولشيريا ألكسندروفنا ، قد ربطتنى بالوعد الذى قطعته لى ، وتنكلين عنه الآن . ثم ... ثم ... ثم اننى قد جُررت الى تكبد نفقات ...

ان هذا الادعاء الذى يدعيه بطرس بتروفتش يبلغ من المطابقة لطبعه والاتفاق مع خلقه أن راسكولنيكوف الذى كان قد شحب لونه شحوباً شديداً بسبب غضبه وبسبب الجهود التى كان يبذلها لكبح جماح نفسه ، لم يطق عندئذ صبراً ، فانفجر يضحك ضحكة صاخبة معربدة .

وخرجت بولشيريا ألكسندروفنا عن طورها ، فأخذت تصرخ سائلة :

ـ نفقات ؟ أية نفقات ؟ أتراك تقصد نفقات شحن حقيبتنا ؟ ولكن



رازومیخین

موظف القطار قد شحنها لك بالمجان ! ثم ما هذا الكلام الذى تقوله عن الارتباط ؟ أنحن الذين ربطنـاك اذن ؟ ألا فلتتذكر يا بطرس بتروفتش أنك أنت الذى ربطتنـا ، بل أنت الذي كبّلتنا تكبيلاً ، كبّلت أيدينـا وأرجلنا ...

قالت آفدوتيا رومانوفنا لأمها متوسلة :

ــ كفى يا أمى كفى ! أرجوك !

والتفتت الى بطرس بتروفتش فقالت له :

ــ هلاّ ذهبت ، من فضلك ، يا بطرس بتروفتش !

فقال بطرس بتروفتش وقد فقد سيطرته على نفسه :

ــ أنا ذاهب ، غير أن هناك كلمةً أخيرة أحب أن أقولها : يبدو أن أمك نسيت نسياناً تاماً أننى قررت أن أتخذك زوجة لى حين كانت سمعتك مضغةً فى جميع الأفواه . وأحسب أننى اذ خالفت رأى الناس ورددت اليك حسن السمعة كان فى وسعى أن انتظر تعويضـاً فى أقل تقدير ، بل وأن أطالب بمكافأة . آه ... لقد كانت عينـاى مغمضتين حتى هذه اللحـظة ! انتى لأدرك الآن أننى قد تصرفت تصرفاً طائشـاً حين لم أقم أىَّ وزن للشائعات التى كانت تلوكها الألسن عنك ...

صرخ رازوميخين يقول وهو يثب عن كرسيه ويستعد للعراك :

ــ انه يريد أن أهشِّم له رأسه !

وقالت دونيا :

ــ أنت رجل دنىء سافل !

وهتف راسكولنيكوف يقول وهو يصد رازوميخين :

ــ لا كلمة ، ولا حركة !

ثم اقترب من لوجين ، وقال له تحت أنفه بصوت أجش لكنه واضح :

ــ هيًّا اخرج . اياك أن تقول كلمةً واحدة ، والا ...

فتأمله بطرس بتروفتش بضع لحظات شاحبَ الوجه متقبضَ القسمات من الكره ، ثم استدار وخرج .

قلَّما حمل قلب انسان من الحقد على انسان مثلما حمل قلب هذا الرجل من الحقد على راسكولنيكوف . لقد عدَّه مسئولاً عن كل شيء .

ولكن يجب أن نذكر أنه منذ الآن ، أثناء هبوطه السلَّم ، كان يتخيَّل أنه لم يخسر القضية ، وأن الأمور فيما يتعلق بالسيدتين ما يزال يمكن تدبيرها .

الفصل الثالث

إن النقطة الأساسية هي أن بطرس بتروفتش كان حتى آخر دقيقة لا يصدّق أن الأمور ستنتهي هذه النهاية . لقد تفاخر وتعاظم وتبجح الى أبعد حدود التفاخر والتعاظم والتبجح، وكان لايتصور حتى امكانية أن تستطيع امرأتان بائستان الخروج على طاعته والتحرر من سلطانه . ان غروره وثقته بنفسه ورضاه عن ذاته وكبرياءه ، ان هذا كله قد ساهم كثيراً في ترسيخ ذلك الاقتناع لديه . هو رجل بدأ من الصفر ، وتعوّد أن يعجب بنفسه اعجاباً شديداً ، وأن يقدر ذكاءه وكفاءاته قدراً عظيماً ، حتى لقد كان في بعض الأحيان ، حين يخلو الى نفسه ، يتأمل وجهه في المرآة مدة طويلة ، فرحاً كل الفرح . على أن الشيء الذي كان يحبه في الدرجة الأولى ، وينزله في المقام الأول من الاحترام ، انما هو المال الذي استطاع أن يجنيه بفضل عمله وبفضل وسائل أخرى أيضاً . ألم يكن هذا المال يتيح له أن يتعامل تعامل الند والند مع أناس أعلى منه مقاماً وأرفع منزلة ؟

وحين ذكّر دونيا ، بمرارة ، أنه قد قرر أن يتزوجها رغم الشائعات المؤسفة التي كانت تجري بين الناس في حقّها ، فانما كان يتكلم صادقاً كل الصدق؛ حتى لقد كان يشعر بأعمق الاستياء من نكرانها هذا الجميل. على أنه حين خطب دونيا كان مقتنعاً كل الاقتناع بسخف جميع تلك الشائعات ، التي حرصت مارتا بتروفنا نفسها على أن تدحضها ، والتي

أصبحت لا تتناقلها الألسن فى المدينة الصغيرة منذ مدة طويلة ، بعد أن أعاد الناس الى دونيا اعتبارها ، وأصبحوا يحبونها حباً شديداً . وما كان له على حال أن ينكر أنه كان عالماً بهذه الأشياء كلها حين الخطبة . ومع ذلك كان يحس أنه قد منّ على الفتاة بفضل عظيم حين ارتضى أن يرفعها الى مستواه ، حتى لقد كان يعدُّ هذا عملاً بطولياً من جانبه . وحين زار راسكولنيكوف كان يشعر أنه انسان محسن ، وكان يتوقع أن يقطف ثمرات عمله الخيّر ، وأن يسمع من راسكولنيكوف أجمل آيات الشكر وأعظم عبارات الثناء والمديح . لذلك كان بطرس بتروفتش ، أثناء هبوطه السلّم ، يشعر بأنه انسان لم يُفهم حق فهمه ، ولم يقدر حق قدره ، وأنه أهين اهانة بالغة .

أما دونيا فقد أصبحت ضرورة لا غنى عنها لحياته . حتى لقد بات لا يستطيع أن يتصور امكان العدول عنها . لقد حلم بالزواج منذ مدة طويلة ، منذ بضع سنين ، وكان حين يحلم بهذا الزواج ينتشى سكراً ، ويعدُّ له العدة ويجمع من أجله المال . كان يتخيل ، فى قرارة قلبه ، فتاة فاضلة فقيرة (لا بد أن تكون فقيرة) ، فتاة فى ريعان الصبا وغضارة الشباب ، على جانب عظيم من الحسن والجمال ، تنتمى الى أسرة كريمة ، وتنعم بتربية حسنة ، ولكنها مروّعة خائفة بسبب نوازل كثيرة ألمّت بها ، فلا بد أن تخضع له خضوعاً كاملاً ، وأن تذعن لمشيئته اذعاناً تاماً ، وأن تظل ترى فيه ، طوال حياتها ، الرجلَ الذى أحسن اليها وأنعم عليها ، فتقدسه تقديساً ، وتمحضه نفسها مخلصةً ، ولا تنتمى الى أحد سواه . ما أكثر المشاهد الجميلة والصور اللذيذة التى تراءت لخياله حول هذا الموضوع المغرى الممتع ، فى اللحظات التى كانت تهدأ فيها نفسه قليلاً حين يخلد الى الراحة من أعماله ! وها قد أوشك هذا الحلم الذى هدهد خياله طوال تلك السنين ، ها قد أوشك أن يتحقق : ان جمال آفدوتيا رومانوفنا

وحسن تربيتها قد اذهلاه ، وان وضعها السيء وحالتها اليائسة يحضانها عليها ويشدانه اليها كثيراً ؛ بل ان فيها شيئاً يفوق ما كان يأمله : ان الفتاة على جانب عظيم من الكبرياء والشمم ، والنشاط والقوة ، والعفة والفضيلة، وهي أوسع منه ثقافة وأغزر علماً (كان هو يشعر بهذا) ، وان انسانة كهذه الانسانة هي التي ستحتفظ له طول حياتها بشعور الامتنان وعاطفة العرفان ، وهي التي ستمحي أمامه من فرط احترامها له وتقديسها اياه ، فليس عليه الا أن يأمر حتى تطيع !.. وقد شاءت المصادفات بما يشبه العمد والقصد ، أن يقرر صاحبنا ، قبيل لقياها بقليل ، وبعد تأجيلات كثيرة ، أن يغير ميدان عمله وأن يقتحم مجالاً أوسع ، وأن يشق لنفسه طريقاً في ذلك المجتمع الراقي الذي طالما شدته اليه أحلامه. كان صاحبنا قد قرر أن يجرب حظه في بطرسبرج . وهو يعلم حق العلم أن للنساء دوراً عظيماً في هذا المجال ، وأن فيهن نفعاً كبيراً . ان الفتنة التي تشع من امرأة أخاذة فاضلة مثقفة يمكن أن تجمل حياته ، وأن تجتذب اليه مودة الناس ، وأن تحيطه بهالة من المهابة والسحر ...

ولكن ها هو ذا كل شيء ينهار الآن دفعة واحدة ! لقد نزلت عليه هذه القطيعة المفاجئة نزول الصاعقة . هذه مهزلة فظيعة ، هذا سخف رهيب ! انه لم يزد على أن « تبجح » قليلاً ، ان وقته لم يتسع لأن يقول كل ما في نفسه ؛ لقد كان يمزح ، لقد اندفع بعض الاندفاع ... هذا كل شيء ... فكيف ينتهي الأمر هذه النهاية الخطيرة ؟!... انه يحب دونيا على كل حال ، يحبها بطريقته الخاصة ... لا ، لا ، يجب اصلاح كل شيء غداً ، غداً ... لا بد من معالجة الأمور ، لا بد من مداواة الأمور ، ولا بد خاصة من احباط أعمال ذلك الغر الوقح الذي كان سبب البلاء كله .

وتذكر رازوميخين وهو يشعر بالضيق والانزعاج أيضاً ، لكنه

لم يلبث أن أسرع يطمئن نفسه من هذه الناحية • قال يحدث نفسه ساخراً : « لا ينقصنى الا هذا ••• لا ينقصنى الا أن أوازن بينى وبينه ، أن أضع نفسى فى مستواه ! » •

ان الشخص الذى كان لوجين يخشاه حقاً انما هو سفيدريجايلوف الخلاصة : ان هموماً كثيرة كانت تنتظره •

•• •• •• •• •• •• •• •• •• •• •• •• •• •• ••

•• •• •• •• •• •• •• •• •• •• •• •• •• •• ••

قالت دونيا وهى تعانق أملها وتقبلها :

ـ لا بل أنا المذنبة ، أنا المذنبة ! لقد استسلمت لاغراء ماله ؟ ولكننى أقسم لك يا أخى أننى لم أكن أتخيله رجلاً دنيئاً الى هذا الحد من الدناءة • ولو قد كشفت حقيقته من قبل لما استسلمت لاغراء أى شىء فى هذا العالم ! لا تتهمنى يا أخى !

فتمتمت بولشيريا ألكسندروفنا تقول دون شعور ، كأنها لما تدرك ما جرى بعد :

ـ الله خلّصنا منه ! الله خلّصنا منه !

وكانوا جميعاً مبتهجين مغتبطين ، حتى لقد انطلقوا بعد خمس دقائق يضحكون • غير أن دونيا كان يشحب لونها من حين الى حين ، وكانت تقطب حاجبيها حين تتذكر ما عانته فى هذه الآونة الأخيرة• ماكان لبولشيريا ألكسندروفنا أن تعتقد فى يوم من الأيام أنها يمكن أن تُسَرَّ لحادث كهذا الحادث • كانت فى ذلك الصباح نفسه ما تزال تتصور أن القطيعة مع لوجين شقاء كبير ومصيبة عظيمة ! أما رازوميخين فكان يشعر بسعادة قصوى• انه لا يجرؤ بعدُ أن يظهر فرحته اظهاراً كاملاً ، ولكنه

كان يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه كمن انتابته حمى • لكأن قلبه قد تخلص من عبء ضخم وحمل ثقيل • سيكون فى وسعه بعد اليوم أن يقف عليهما حياته ، وأن يضع نفسه فى خدمتهما• وما أكثر مايستطيع أن يفعله منذ الآن ! على أن رازوميخين كان يطرد من ذهنـه مشـاريع المستقبل خائفاً من خياله •

راسكولنيكوف وحده ظل جالساً فى مكانه متجهم الوجه تقريبـاً ، حتى ليكاد يكون ذاهلاً شـارد الفكر • انه وهو الذى ألحَّ أكثر منهم جميعاً على أن يُطرد لوجين ، يبدو الآن أقلَّهم اهتماماً بما جرى• وقدَّرت دونيا ، رغم ارادتها ، أنه ما يزال يؤاخذها ويحقد عليها• وكانت بولشيريا ألكسندروفنا تتأمله خائفة وجلة •

سألته دونيا وهى تقترب منه :

ـ ماذا قال لك سفيدريجايلوف ؟

وصاحت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ آ ••• نعم ••• نعم ••• ماذا •••

فرفع راسكولنيكوف رأسه ، وقال :

ـ انه يصرُّ على أن يهـدى اليك عشرة آلاف روبل ، وقد أعرب عن رغبته فى أن يراك مرةً أخرى بحضورى •

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ أن يراها ؟ مستحيل •• لا يمكن أن يتم هذا بحال من الأحوال• وكيف يجرؤ أن يقدم اليها مالاً ؟

عندئذ روى راسكولنيكوف (بغير قليل من الجفاف) ما جرى بينه وبين سفيدريجايلوف من حديث ، مغفلاً ذكر ماقصه عليه سفيدريجايلوف

من أن مارتا بتروفنا قد ظهرت له بعد موتها ، وذلك حتى لا يبتعد عن الموضوع ، ولاشمئزازه من قول أية كلمة زائدة •

سألته دونيا :

ـ بماذا أجبته ؟

ـ قلت له أولاً انني لن أذكر لك كلمة واحدة عن طلبه • فأعلن لى عندئذ أنه سيسعى بجميع الوسائل الى أن يحصل منك على موعد • وقد أكد لى أن العاطفة الجامحة التي كان يشعرَ بها نحوك لم تكن الا هوى طارئاً ، وأنه أصبح الآن لا يشعر نحوك بأية عاطفة • كل ما يريده هو أن لا تتزوجى لوجين • على أن أقواله كلها كانت غامضة مضطربة مبهمة •

ـ ما رأيك فى هذا الرجل يا روديا ؟ ما هو الانطباع الذى أحدثه فى نفسك ؟

ـ أعترف بأننى لم أفهم حق الفهم • انه يقدم عشرة آلاف روبل ، ثم هو يزعم أنه ليس غنياً • يصرِّح بأنه سيسافر الى مكان لا أدرى أين هو ، ثم يبدو بعد عشر دقائق كأنه نسى ما قاله • وفجأة يذكر أيضاً أنه سيتزوج ، وأنهم قد وجدوا له خطيبة ••• أغلب الظن أنه يخفى خططاً معينة قد تكون سوداء • ولكن لا محل لأن نفترض أنه يبيِّت لك نيات سيئة ، والا لما عمد الى أسلوب يبلغ هذا المبلغ من الحماقة • ولقد تكلمت باسمك فرفضت ما عرضه من مال عرضاً قاطعاً باتاً بطبيعة الحال • مهما يكن من أمر ، فقد بدا لى انساناً غريب الأطوار ••• حتى لقد رأيت فيه أعراض جنون • ولكن ربما أكون مخطئاً• على أن موت مارتا بتروفنا لا بد أن يكون قد خلّف فى نفسه أثراً كبيراً •

ــ رحمة الله عليها ! لسوف أظل أصلى لها دائماً ، دائماً . ما الذى كان يمكن أن نصير اليه ، أنا ودونيا ، لولا هذه الثلاثة آلاف روبل ؟ رباه ! لقد هبطت علينا هذه الأموال من السماء ! آه يا روديا ! فى هذا الصباح كان كل ما بقى لنا من مال هو ثلاثة روبلات ، ولم يكن قد بقى علينا الا أن نرهن ساعة دونيا بأقصى سرعة ، حتى لا نطلب مالاً من هذا الرجل قبل أن يخطر بباله أن يعرضه علينا من تلقاء نفسه .

بدا على دونيا أن عرض سفيدريجايلوف قد أدهشها وأذهلها . فبقيت واقفة ، ساكنةً مفكّرة .

قالت فى دمدمة وهى ترتعش :

ــ ان فى ذهنه أمراً رهيباً !

ولاحظ راسكولنيكوف هذا الرعب الشديد . فقال لدونيا :

ــ أظن أنه سيتاح لى أن ألقاه أكثر من مرة .

وهتف رازوميخين قائلاً بلهجة قوية :

ــ لا تخافوا ، سوف نراقبه مراقبة دقيقة . لن يغيب عن بصرى . لقد اذن لى روديا بذلك . قال لى هو نفسه منذ قليل : « عليك أن تحمى دونيا » . هل تأذنين لى بهذا أنت أيضاً يا آفدوتيا رومانوفنا ؟

ابتسمت دونيا ، ومدّت اليه يدها ، ولكن وجهها حافظ على تعبيره عن الهم والقلق . وكانت بولشيريا ألكسندروفنا تنظر اليها وجلة مرتاعة. غير أن الأمل فى الحصول على الثلاثة آلاف روبل كان قد هدأ روعها وطمأن نفسها .

وبعد ربع ساعة كانوا قد انهمكوا فى محادثة حامية . وحتى راسكولنيكوف ، الذى لزم الصمت ، كان يصغى بانتباه . كان رازوميخين يتكلم فى اسهاب وحرارة كأنه يلقى خطاباً :

ـ لماذا ، لماذا تسافران ؟ ما عساكما تعملان فى مدينتكم الصغيرة الكريهة تلك ؟ أنتم هنا قد اجتمع شملكم ، وكل واحد منكم محتاج الى الآخر ، محتاج اليه اشد الاحتياج . ابقيا بعض الوقت على الأقل . أما أنا فاقبلونى صديقاً ، اقبلونى شريكاً . وانى لأؤكد لكم أننا سننشىء مشروعاً ممتازاً . اسمعوا : سأعرض عليكم مشروعى بأدق تفاصيله . لقد وافتنى هذه الفكرة منذ الصباح ، قبل أن يحدث شىء مما حدث الآن ... اليكم الموضوع : ان لى عماً (سأعرّفكم به ، هو شيخ لطيف جداً محترم جداً) ... وهذا العم يملك رأس مال قدره ألف روبل ، ويعيش من راتب تقاعدى يفى بحاجاته . وهو ما برح منذ سنتين يلح علىّ أن أقترض منه هذا المبلغ بفائدة قدرها ستة فى المائة . اننى أدرك حيلته : فكل ما يريده هو أن يساعدنى . فى العام الماضى لم أكن محتاجاً الى هذا المبلغ ، أما فى السنة الحالية فاننى لا أنتظر الا وصول عمى لأطلبه منه . فاذا أضفتم ألف روبل من عندكم الى هذه الألف روبل كان معنا ما يكفينا لبدء المشروع ، فنكون شركاء . فما هو ذلك المشروع ؟ » .

هنا طفق رازوميخين يشرح مشروعه ، فأفاض فى الكلام على أن جميع أصحاب المكتبات ودور النشر عندنا أناس يجهلون مهنتهم ، وأن الوضع العام لهذا السبب مؤسف جداً ، وأكدّ أن المنشورات الجيدة تباع بسهولة ، وأنها ربما درّت أرباحاً طائلة . كان رازوميخين يحلم أن يصبح ناشراً ، منذ أن بدأ يعمل لحساب غيره منذ سنتين بفضل معرفته ثلاث لغات أجنبية (رغم أنه أعلن لراسكولنيكوف قبل ستة أيام أنه « ضعيف » * فى الألمانية ، والحق أنه لم يزعم له ذلك الا ليشجعه على أن يقبل ترجمة نصف ما كان هو بصدد ترجمته ، وعلى أن يأخذ الثلاثة روبلات سلفةً : لقد كذب ، ولم ينطل كذبه على راسكولنيكوف) .

وتابع رازوميخين كلامه قائلاً بحرارة وحماسة :

ــ فلماذا ، نعم لماذا ندع الفرصة تفلت منا مع اننا نملك لها أحسن وسيلة للنجاح ، أعنى رأس المال ؟ صحيح أنه سيكون علينــا أن نعمل كثيراً ، ولكننا سوف نعمل ، تعملين أنت يا آفدوتيــا رومانوفنا ويعمــل روديون وأعمــل أنا . ان نشر بعض الكتب يدرّ أرباحــاً طيبــة ، وان ما سيعيننا وما سيكون مصدر قوتنا ، هو أننا سنحسن اختيار الكتب التى يجب أن تُترجَم . ســوف نترجم ، وننشر ، ونتابع فى الوقت نفســه دراستنا . اننى أستطيع أن أكون الآن نافعاً ، لأننى حصّلت خبرة واسعة. لقد سلخت ســنتين كاملتين فى العمــل مع الناشرين ، فأصبحت أعرف شئون النشر معرفة تامة. صدقونى اذا قلت لكم ان الأمر أيسر مما تظنون. فلماذا ، لماذا لا ننتهز الفرصة التى تعرض لنا ؟ اننى أعرف كتابين أو ثلاثة كتب لم أحدث عنها أحداً قط ، ويكفى أن أعرض فكرة نشرها حتى أجنى من ذلك مائة روبل عن كل كتاب ؛ بل هنالك كتاب آخــر لا أبيع فكرة ترجمته بخمسمائة روبل ! ولا يمكن أن يتردد هؤلاء الناشرون الحمقى أىّ تردد اذا أنا ذكرت لهم أسماء تلك الكتب ! أما الجانب المادى من المشروع ، أعنى الطباعة والورق والبيع وما الى ذلك ، فانكم تستطيعون أن تعتمدوا علىّ فيــه كل الاعتمــاد . اننى أعرف هذه الأمور معــرفة عميقة . وســوف نبــدأ بداية متواضــعة ، ولكننا سنوسّع المشروع فى المســتقبل . ومهما يكن من أمر فســوف نجنى ما يســدّ حاجاتنا ويفى بنفقاتنا .

كانت عينا دونيا تسطعان . قالت :

ــ ان ما تقوله يعجبنى كثيراً يا دمترى بروكوفتش !

وتدخلت بولشيريا ألكسندروفنا فقالت :

ــ أنا لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً بطبيعة الحال . قد يكون هذا كله حسناً جداً ، الله أعلم ... ولكن ... من جهة أخرى ... طبعاً ...

حين يشرع المرء في شيء ما ، فانه يسير قليلاً في المجهول !... على كل حال سيكون علينا حتماً ، اذا نحن قرونا المضي في هذا المشروع ، أن نمكث هنا ولو بعض الوقت .

ونظرت الى راسكولنيكوف .

سألته دونيا :

ـ ما رأيك أنت يا أخي ؟

فأجاب راسكولنيكوف :

ـ رأيي أن فكرته ممتازة . ولكن لا ينبغي لنا ، بعد ، أن نفكر في انشاء دار نشر كبيرة . يجب علينا أن نكتفي بأن ننشر في البداية خمسة أو ستة كتب مضمونة النجاح . أنا نفسي أعرف كتاباً سيُباع حتماً . أما عن كفاءة رازوميخين ، فيجب أن تكونوا مطمئنين . لسوف يعرف كيف يكفل لمشروعه النجاح . على كل حال ، سيتسع وقتنا للكلام في هذا الموضوع مرة أخرى ...

صاح رازوميخين يقول :

ـ مرحى ! والآن اسمعوا : توجد هنا ، في هذا المنزل نفسه ، شقة صغيرة يؤجرها أصحابها الذين أجّروكم هذه الغرفة . انها شقة مستقلة لا تتصل بباقي الغرف . هي مفروشة . وليس أجرها باهظاً . فيها ثلاث حجرات . خذوها موقتاً. سأمضي أرهن ساعتك غداً ، فأجيئكم بالمال ، ثم يُدبَّر كل شيء . الأمر الأساسي هو أن تستطيعا أن تعيشا كلتاكما هنا ، ومعكما روديا ... ولكن الى أين أنت ذاهب يا روديا ؟

سألت بولشيريا ألكسندروفنا ابنها مرتاعةً :

ـ كيف يا روديا ؟ أأنت ذاهب ؟

وصاح رازوميخين يسأله مستنكراً :

ــ أفي مثل هذه اللحظة تذهب ؟

وكانت دونيا تنظر الى أخيها بدهشة تمازجها ريبة • كان راسكولنيكوف ممسكاً قبعته يتهيأ للخروج • وقال بلهجة غريبة :

ــ لكأنكم حقاً ستدفنونني ، أو لكأنكم تودعونني الى الأبد على الأقل •

وكان يبتسم ، لكن ابتسامته لا تشبه الابتسام في شيء • وأضاف يقول :

ــ ومن يدري على كل حال ؟ لعلنا نلتقي الآن آخر لقاء فعلاً !

كان راسكولنيكوف قد تصوّر هذه الفكرة بينه وبين نفسه ، فاذا هي تخرج من فمه من تلقاء ذاتها على غير ارادة منه •

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ــ ماذا أصابك يا روديا ؟

وسألت دونيا أخاها بلهجة غريبة :

ــ الى أين أنت ذاهب يا روديا ؟

فأجاب متهرباً كأنه غير واثق بما يريد أن يقوله :

ــ نعم ، لا بد أن أذهب •••

غير أن قراراً وحشياً ضارياً كان يُقرأ في وجهه الشاحب • وتابع كلامه :

ــ أقصد ••• حين جئت الى هنا ••• كنت أريد أن أقول لك يا أماه ، ولك أنت أيضاً يا دونيا ، ان من الأفضل لنا أن نفترق بعض الوقت • أنا أحس بأنني مريض ، أنا لست هادىء البال ، سأرجع في

المستقبل ، حين ••• حين يصبح ذلك فى الامكان • لن أنساكم ، وسأظل أحبكم ••• دعونى ، دعونى وحيداً ! ذلك ما كنت قد قررته • وقد قررته واعياً كل الوعى ، مدركاً كل الادراك !••• أريد أن أكون وحيداً مهما يحدث لى ، سواء أهلكت أم لم أهلك ! انسونى نسياناً تاماً ، ذلكم أفضل ••• لا تسألوا عنى ، لا تستطلعوا أخبارى • سوف أجىء من تلقاء نفسى متى وجب أن أجىء ••• أو سوف أدعوكم الىّ • ولعل كل شىء سيُبعث بعثاً جديداً حينذاك • أما الآن فاعدلوا عن رؤيتى وتنازلوا عن لقائى اذا كنتم تحبوننى ، والا شعرت نحوكم بكره وبغض• اننى أحس بهذا ••• وداعاً !

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ رباه ! يا رب !

كانت الأم والأخت مرتاعتين ارتياعاً لا سبيل الى مغالبته • وكذلك كان رازوميخين •

قالت الأم المسكينة تتوسل الى ابنها :

ـ روديا ، روديا ! فلنتصالح يا روديا ! فلنعد كما كنا !

استدار راسكولنيكوف ببطء ، واتجه نحو الباب ، فأدركته دونيا ، وهمست تقول له مشتعلةَ العينين استياءً واستنكاراً :

ـ أخى ، ماذا تفعل بأمنا !

فألقى عليها نظرة ثقيلة • وتمتم يقول بصوت خافت كأنه لا يعى ما أراد أن يقول وعياً تاماً :

ـ ما هذا بشىء ، سأرجع ، سأرجع •••

وخرج •

هتفت دونيا تقول :

ــ انسان خالٍ من الاحساس ! أنانى فظيع !

ــ بل هو مجنــون ، لا خالٍ من الاحســاس ! لقــد فقد عقله ، كيف لا ترين هذا ؟ أنت الخالية من الاحساس ...

كذلك دمدم رازوميخين هامساً فى أذن الفتــاة بعاطفة قوية وهو يضغط يدها ضغطاً عنيفاً . ثم هتف يقول لبولشــيريا ألكسـندروفنا التى أصبحت أقرب الى الموت منها الى الحياة .

ــ سأرجع حالاً !

وأسرع يخرج من الغرفة .

كان راسكولنيكوف ينتظره فى آخر الدهليز . وقال له :

ــ كنت أعرف أنك ســتهرع الىَّ لتلحق بى . عــد اليهما ، وابق معهما . وكن عندهما غــداً ... وكن عندهما دائماً ... قد أرجع اذا استطعت ... وداعاً !

وابتعد دون أن يمد اليه يده مصافحاً .

غمغم رازوميخين يقول مرتبكاً أشد الارتباك ، حائراً أبلغ الحيرة :

ــ ولكن الى أين تذهب ! ماذا بك ؟ ما الذى أصابك ؟

فتوقف راسكولنيكوف مرة أخرى .

ــ أقول لك مرة أخيــرةً الى الأبد : لا تســألنى عن شىء ، فليس عندى ما أجيبك به ... ولا تأت الىَّ ! قد أرجع أنا الى هنا .. دعنى.. أما هما فلا تتركهما ... هل تفهم ؟

كان الظلام يسود الدهليز . وكان الشــابان قريبين من مصباح . لبثا قرابة دقيقــة ينظر كل منهمــا فى صاحبه صامتاً . ســـوف يتذكَّر راسكولنيكوف هذه الدقيقة طوال حيــاته . ان النظرة الحارة الثابتة التى تصدر عن عينى راسكولنيكوف كان يبدو أنها تزداد عنفــاً وقوة فى كل

لحظة ، وكانت تنفـذ الى أعمـاق نفس رازوميخين ، وتغوص في قرارة وجدانه . ارتعش رازوميخين فجأة . كأن شيئاً غريباً قد مرّ بينهما ... هي فكرة تتسلل خفية ، تندس خلسةً ، ولكنها فظيعة ، رهيبة ، جهنمية ، سرعان ما فهمها هذا وذاك !... اصفرّ وجه رازوميخين اصفرار الموت !

قال راسكولنيكوف فجأة وقد تقلص وجهه وتقبض تقبضاً أليماً :

ــ هل فهمت الآن ؟

ثم أضاف :

ــ ارجع الى هناك . عد اليهما .

قال ذلك ثم استدار بحركة عنيفة ، ومضى ...

لن أصف ما جرى في ذلك المساء عند بولشيريا ألكسندروفنا . لن أصف كيف رجع رازوميخين الى المرأتين ، كيف هدّأ روعهما ، كيف أكّد لهما أن من الواجب أن يُترك روديا للراحة بعد المرض ، وكيف حلف لهما أن روديا سيرجع لا محالة ، وأنه سيأتي يزورهما ، بل وأنه سيجيء اليهما كل يوم ، وانمـا يجب أن لا يُزعَج الآن لأنه في حـالة عصبية شـديدة ، وأنه ، هو رازوميخين ، سيمضي اليه ، ليسـهر عليه ، ويعتني به ، ويجيئه بطبيب حاذق ، بأحسن طبيب في المدينة ، بل بعدد من الأطباء يفحصونه في آن واحد .

الخلاصة أن رازوميخين قد أصبح للمـرأتين ، منذ ذلك المسـاء ، ابناً وأخاً .

الفصل الرابع

اتجه راسكولنيكوف رأساً نحو المنزل الذى تسكن فيه صونيا قرب القنـاة • هو منزل من طابقين ، هو مبنى قديم مطلى بلون أخضر •

استطاع أن يعثر على البواب وأن يحصل منه على معلومات موجزة مقتضبة أتاحت له مع ذلك أن يصل الى مسكن الخياط كابرناؤموف • لمح فى ركن من الفنـاء مدخل سلّم ضيق مظلم ، فصعد أخيراً الى الطابق الأول ، ودخل الرواق الذى يدور حوله • وفيما هو يطوّف فى الظلام متسائلاً أين عسى يكون باب كابرناؤموف ، فتح على حين فجـأة بابٌ يقع على مسـافة ثلاث خطوات منه ، فتشبث بهذا الباب على غير ارادة منه •

ـ مَنْ هنا ؟

كذلك يسأل صوت امرأة مضطرب •

فأجاب راسكولنيكوف :

ـ هذا ••• هذا أنا ••• جئت لأراك !

واجتاز الباب الى حجرة المدخل الصغيرة • كان فى الحجرة كرسى خاسف وُضعت عليه شمعة صغيرة فى طبق متقعف من نحاس •

هتفت صونيا تقول بصوت ضعيف :

ـ أهذا أنت ؟ رباه !

ووقفت في مكانها كالمتسمرة .

ـ من أين الدخول الى غرفتك ؟ من هنا ؟

ألقى راسكولنيكوف عليها هذا السؤال ، ثم مضى ينتقل الى الغرفة محاولاً أن لا ينظر الى صونيا .

ونبعته صونيا بالشمعة بعد دقيقة ، فوضعتها في مكانها ، ووقفت أمامه بالغة من شدة القلق والرعب لهذه الزيارة التي لم تكن متوقعة ان الاضطراب الذي اجتاح نفسها واستولى عليها كان اضطراباً لا يمكن وصفه . واحمر وجهها الشاحب فجأة ، حتى لقد صعدت الى عينيها دموع . كانت تشعر بخجل وخزي وسعادة في آن واحد ...

تحول راسكولنيكوف عنها بسرعة ، وجلس على كرسي موضوع قرب المائدة . لقد تسنى له بنظرة واحدة أن يفتش الغرفة كلها .

هي غرفة واسعة سعة كافية ، لكن سقفها واطيء جداً . انها الغرفة الوحيدة التي أجَّرها كابرناؤموف . وهي تتصل بمسكنه بباب في الجدار الأيسر . وعلى الجهة اليمنى ، يوجد في الجدار باب آخر ، يظل مقفلاً بالمفتاح دائماً ، ويفضي الى شقة أخرى . ان الغرفة تشبه أن تكون سقيفة ، لها شكل مضلّع رباعي غير منتظم ، فمنظرها لهذا السبب يؤذي البصر . ان حائطاً ذا نوافذ ثلاث تطل على القناة ، يقطعها قطعاً موارباً ، فاحدى الزوايا ، وهي زاوية حادة جداً ، تغور في آخر الغرفة ، فلا يستطيع المرء أن يميز هنالك شيئاً في ضوء الشمعة الضئيل الضعيف . أما الزاوية الأخرى فهي منفرجة انفراجاً كبيراً . ولا يكاد يوجد في الغرفة أثاث . هناك سرير في الركن الأيمن ، وهناك الى جانب السرير كرسي أقرب الى الباب . وعلى طول الحائط نفسه ، قبالة الباب المؤدي الى الشقة الثانية ، توجد مائدة من خشب أبيض ، يغطيها غطاء أزرق ، وبقربها كرسيان من قش . وفي حذاء الحائط المقابل ، على مقربة من

الزاوية الحادة ، تقبع منضدة صغيرة غير مدهونة ، وكأنها تائهة فى الفضاء. ذلك كل ما تضمه الغرفة . أما ورق الجدران فأصفر مهترىء مدخّن مسودّ فى الأركان . لا بد أن الغرفة تكون شديدة الرطوبة فى الشتاء . ان الفقر يخطف البصر ، حتى ان السرير لم يكن له ستارة .

كانت صونيا تنظر صامتةً الى زائرها الذى كان يتفحص الغرفة بانتباه يبلغ من الشدة وبهدوء يبلغ من القوة أنها أخذت ترتعد رعباً آخر الأمر ، كأنها واقفة أمام قاض سيتوقف عليه مصيرها كله .

قال لها دون أن يرفع عينيه :

ـ اننى أصل فى ساعة متأخرة جداً ... أليست هى الحادية عشرة ؟

فدمدمت صونيا تقول :

ـ نعم .

ثم أسرعت تضيف ، كأن ذلك خروج لها من المأزق :

ـ نعم نعم ، هى الحادية عشرة ... منذ قليل دقت ساعة أصحاب البيت . هى الحادية عشرة فعلاً ...

قال راسكولنيكوف متجهم الوجه :

ـ أجىء اليك الآن آخر مرة . وقد لا أراك بعد اليوم قط .

قال لها ذلك مع أن هذه هى المرة الأولى التى يزورها فيها .

سألته :

ـ أأنت مسافر ؟

ـ لا أدرى ... سيتقرر كل شىء غداً .

ـ اذن لن تذهب غداً الى عند كاترين ايفانوفنا ؟

وكان صوت صونيا يختلج .

ـ لا أدرى ••• كل شىء رهن بالغد ••• بصباح الغد • ثم ان المسألة ليست هذه : لقد جئت لأقول لك ان •••

ورفع اليها نظرة حالمة ، فأدرك فجأة أنه جالس ، على حين أنها ما تزال واقفة أمامه •

قال لها بصوت تبدل على حين فجأة ، فأصبح فيه رقة وعذوبة ومودة :

ـ لماذا تبقين واقفة ؟

فجلست • وظل يتأملها فترة دقيقة ، ظل يتأملها بمحبة ، بعاطفة ، بما يشبه أن يكون شفقة • ثم قال لها :

ـ ما أشد نحولك ! ما هذه اليد ؟ انها لتكاد تكون من هزالها شفافة ! أصابعك أصابع ميت •••

فأجابته قائلة :

ـ هكذا كنت دائماً •

ـ حتى حين كنت تقيمين مع أهلك ؟

ـ نعم •

ـ نعم نعم ••• هذا طبيعى •••

كذلك قال بلهجة متقطعة • ان تعبير وجهه ونبرة صوته قد تبدلا من جديد فجأة • ونظر مرة أخرى حواليه •

ـ أمن أسرة كابرناؤموف استأجرت هذا ؟

ـ نعم •

ـ هل يقطنون وراء هذا الباب ؟

ـ نعم ••• لهم غرفة كهذه •

ـ هل يعيشون جميعاً فى غرفة واحدة ؟

ـ نعم ، يعيشون جميعاً فى غرفة واحدة .

قال راسكولنيكوف متجهم الهيئة :

ـ لو كنت أعيش فى مثل هذه الغرفة لشعرت فى الليل بخوف .

فأجابت صونيا ، وكأنها لم تثب الى رشدها بعد ، ولا جمعت شتات أفكارها :

ـ أصحاب البيت لطاف جداً . وجميع الأثاث ، جميع الأثاث لهم هم . انهم طيبون جداً ، وكثيراً ما يأتى أولادهم الى عندى .

ـ هم تأتاءون ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ... هو يتـأتىء ويعـرج . وامرأته أيضـاً . بل قل انها لا تتأتىء ، ولكن كأن الكلمات لا تريد أن تخرج من فمها . انها طيبة جداً . كان هو قناً . ولهما أولاد . الكبير وحده يتأتىء .. أما الآخرون فهم عليلون فحسب ... لكنهم لا يتأتئون .

ثم أضافت تسأله مدهوشة بعض الدهشة :

ـ كيف عرفت أنت هذا ؟

ـ أبوك قص عليّ كل شىء . قال لى كل شىء عنك ... وحكى لى أيضاً كيف خرجت فى الساعة السادسة من الصباح لتعودى بعد الساعة الثامنة ، وكيف ركعت كاترين ايفانوفنا أمام سريرك .

اضطربت صونيا . ثم دمدمت تقول مترددة :

ـ رأيته اليوم رؤية واضحة مميّزة .

ـ مَنْ ؟

ـ أبى . كنت سائرة فى الشارع ، غير بعيد عن هنا ، عند الناصية ،

فى نحو الساعة العاشرة ، فتراءى لى أنه يسير أمامى . لكأنه هو حقاً . حتى لقد خطر ببالى أن أسرع الى كاترين ايفانوفنا ...

ـ كنت تتجولين ؟

فقالت صونيا بصوت متقطع ، وقد اضطربت من جديد ، وخفضت عينيها :

ـ نعم .

ـ هل كانت كاترين ايفانوفنا تسىء معاملتك حتى لتكاد تضربك حين كنت تعيشين معهم ؟

صاحت صونيا تقول وهى تنظر الى راسكولنيكوف نظرة فيها مايشبه الذعر :

ـ لا ، لا ، ما هذا الذى تقوله ؟

ـ أأنت تحبينها اذن ؟

ـ هى ؟ أظن ...

كذلك قالت صونيا بلهجة شاكية ، وصوت بطىء ، ضامةً يديها بحركة تنم على الألم . وواصلت كلامها تقول :

ـ ليتك ... ليتك تعرفها ! انها كالطفلة تماماً . عقلها مضطرب اضطراباً تاماً ... لقد قاست فى حياتها آلاماً كثيرة ... ومع ذلك ، ما أذكاها ! ما أكرمها ! انها طيبة جداً ! أنت لا تعرف ، أنت لا تستطيع أن تعرف ! آه !...

قالت صونيا هذه الكلمات بحزن شديد . كان الألم يهصر قلبها ، فكانت تلوى يديها من فرط الكمد ، واحمرّ خداها من جديد ، حتى صارا بلون الأرجوان . كان العذاب يُقرأ فى عينيها . واضح أن وتراً حساساً جداً قد مُسّ الآن فى نفسها ، وأنها ترغب رغبة قوية فى أن

تعبر عن شيء ، في أن تتكلم ، في أن تدافع عن كاترين ايفانوفنا • ان نوعاً من شفقة حارقة لا ينطفيء أوارها يرتسم الآن على قسمات وجهها •

وتابعت كلامها تقول :

ـ تضربني ؟ هي تضربني ؟ ما هـذا الكلام الذي تقـوله ؟ وهبها ضربتني ! أي ضير في ذلك ؟ انك لا تعرف شيئاً ، لا تعرف شيئاً البتة ! هذه انسانة تعيسة شقية بائسة ••• وهي مريضة ••• انها تنشد العدالة ••• انها تسعى الى العدالة ••• هي طاهرة نقية • انها من شدة اقتناعها بأن العدالة لا بد أن توجد في كل شيء ، تطلب العدالة في كل شيء • قد يعذبونها تعذيباً شديداً ثم هي لا تقترف أي ظلم يجافي العدالة • انها لا تفهم أن لا يسود العدل حيـاة البشر ، وهي لذلك تغضب كما يغضب طفل ، كما يغضب طفل ! انها امرأة عادلة ، عادلة •••

ـ وما الذي ستصيرين اليه ؟

كذلك سألها راسكولنيكوف ، فألقت عليه نظرة مستفهمة• قال لها :

ـ سيبقون على ذراعيك • صحيح أنك كنت قبل الآن تحملين كل شيء على ذراعيك ، وأن أباك كان يجيء اليك أنت ليطلب مالاً « يـُذهب به سكره » • ولكن ما الذي سيحدث الآن ؟

قالت صونيا بحزن :

ـ لا أدري •

ـ هل يبقون هناك ؟

ـ لا أدري • ان أجر المسكن لم يـُدفع ، ويظهر أن صاحبة البيت قد أرادت اليوم أن تطردهم ؛ فأعلنت كاترين ايفانوفنـا أنهـا لن تمكث دقيقة واحدة •

ـ لماذا تتعاظم هذا التعاظم ؟ أعليك تعتمد ؟

ـ لا تتكلم هكذا ، لا •••

ثم استأنفت تقول وقد اضطربت من جديد ، أو قل اهتاجت من جديد ، كما يفعل طائر من طيور الكنارى أو غيرها من الطيور :

ـ نحن نشترك فى كل شىء ، أنا وهى •••

ثم أضافت تسأله وقد ازدادت حماسة وحرارة :

ـ ماذا تريد لها أن تكون ؟ آه ••• ما أكثر ما ذرفت من دموع ، ما أكثر ما ذرفت من دموع فى هـذا اليوم ! ان عقلهـا مضطرب ، ألم تلاحظ أنت هذا اذن ؟ نعم ، عقلها مضطرب ، عقلها مختل : تارةً تقلق كطفلة صغيرة من أجل أن يكون كل شىء على ما يرام غداً ، من أجل أن يكون على المائدة مقبِّلات ••• ومن أجل أن تضم المأدبة كل ما ينبغى أن تضمه من أطعمـة ؛ وتارةً تلوى يديها كمـداً وحسرة ، وتبصق دماً ، وتذرف دموعاً ، وتدق رأسها بالحائط من فرط اليأس • ثم ما تلبث أن تتعزى من جـديد ، واضـعةً أملها فيـك ، قائلة أنك الآن سـندها ، وانها ستقترض مالاً من أحد الناس ، لتعود بى الى مسقط رأسنا ، فننشىء هناك مدرسةً لبنات الأسر النبيلة أكون أنا مفتشـة فيها ، ونبـدأ عندئذ حياة جديدة كل الجدة • وهى فى هذه الحالة تأخـذ تقبلنى وتضمنى الى صدرها وتواسينى وتعزينى • آه ما أقوى ايمانها باحلامها هذه ، ما أقوى ايمانها بهذه الأحـلام ! هل يمكننا أن نعارضها ؟ مستحيل !••• اليومَ قضت النهـار كله فى مسـح الأرض وغسـل الملابس وترقيع الثياب • ورغم ضعفها الشـديد صـعدت الى غرفتها بطشت ، فما ان وصلت حتى كانت أنفاسـها قد تقطعت ، وحتى خارت قواها فلم تملك الا أن تتهاوى على سريرها مهدودة • وفى هذا الصباح ذهبنا كلتانا الى السوق من أجل أن نشترى أحذية لبوليتشكا ولينيا ، لأن أحذيتهما قد تمزقت تمزقاً تاماً ،

ولكن لم يكفنا ما كان معنا من مال ، رغم جميع حساباتنا ، لأنها اختارت أحذية جميلة لطيفة ، فهى صاحبة ذوق كما تعلم ، فما كان منها الا أن أجهشت تبكى ، هنالك ، فى وسط الدكان ، أمام الباعة . لقد بكت لأن ما معنا من مال لم يكن كافياً . حقاً كان منظرها يثير أعمق الألم ...

قال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مرة :

ـ يفهم المرء بعد هذا أن تعيشى هذه الحياة التى تعيشينها ...

فهتفت صونيا تقول :

ـ ولكن هى ، هى ، ألا ترثى لحالها ؟ ألا تشفق عليها ؟ أنا أعلم أنك وهبت لها آخر قرش تملكه ، مع أنك لم تكن قد رأيت شيئاً بعد . فماذا لو كنت قد رأيت كل شيء ؟ آه ! يا رب ! كم من مرة ، كم من مرة أبكيتها . ألا اننى لأشعر بالخزى والعار ! لقد أبكيتها حتى قبل موت أبى بأسبوع ! نعم ، كنت قاسية ، قاسية ! كم من مرة تصرفت هذا التصرف ! آه ... ما أشد ما أشعر به اليوم من خزى وعار حين أتذكر هذا !

كانت صونيا تلوى يديها حسرةً وهى تتكلم ، من فرط ما كانت تحس به من ألم .

قال لها راسكولنيكوف :

ـ أأنت القاسية اذن ؟

ـ نعم أنا القاسية ، أنا ...

وعادت تتابع كلامها وهى تبكى ، فقالت :

ـ جئت أزورهم فى ذلك اليوم ، فقال لى المرحوم : « اقرئى لى يا صونيا ، فاننى أحس صداعاً فى رأسى ... اقرئى لى هذا الكتاب » . هو كتاب أعاره اياه آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف الذى يسكن فى

هذا المنزل ويقتنى كتباً عجيبة ! قلت له : « آن لى أن أذهب » ، ولم أشأ أن أقرأ له ، لأننى قد أتيت الى عندهم خاصةً من أجل أن أُرى كاترين ايفانوفنا ياقات صغيرة : كانت اليزابت السمسارة قد جاءتنى بياقات وأكمام جميلة جداً ، جديدة كل الجدة ، تزينها رسوم حلوة ، مع أنها بخسة الثمن ، وقد أُعجبت كاترين ايفانوفنا بها كثيراً ، فجربتها على نفسها فوجدتها جميلة ، جميلة جداً . فقالت لى : « صونيا ، اهديها الىّ ، أرجوك » . نعم هذا ما قالته لى : « أرجوك » ، لأنها هامت بها هياماً جنونياً . ولكن ما عساها تصنع بها ؟ ما حاجتها اليها ؟ المهم أنها أخذت بها ، هكذا ، لأنها تذكّرها بالعهود الجميلة الماضية ! ان كاترين ايفانوفنا تنظر فى المرآة ، فتعجب بنفسها ، وليس عندها ثوب تلبسه ، ليس عندها ثوب واحد ، ليس عندها شىء البتة ، منذ سنين عدة ! وهى لا يمكن أن تطلب من أحد شيئاً فى يوم من الأيام ، لأنها شديدة الاباء والكبرياء ، وتؤثر على ذلك أن تعطى ما بقى عندها . ومع ذلك طلبت منى أن أعطيها تلك الياقات الصغيرة ، لأنها وجدتها جميلة جداً . ولم أشأ أنا أن أحرم نفسى منها ، فقلت لها : « فيم تنفعك هذه الياقات يا كاترين ايفانوفنا ؟ » . نعم ، ذلك ما قلته لها . آه ... ما كان ينبغى أن أقول هذا الكلام بحال من الأحوال ! ألقت علىّ عندئذ نظرة ينفطر لها القلب ... عبّر وجهها عندئذ عن حزن فظيع ... لأننى رفضت أن أعطيها الياقات ... وشعرت أنا بألم شديد من رؤيتها على تلك الحال ... ليست الياقات هى التى أحزنتها ، وانما أحزنها رفضى أنا ... لقد رأيت ذلك واضحاً كل الوضوح . آه ... ليتنى أستطيع أن أرجع الى وراء ، وأن أستردّ كل ما أفلت من لسانى ! آه ... اننى ... ولكن ماذا ؟ لا بد أن هذا كله لا يعنيك فى شىء !

سألها راسكولنيكوف :

ـ أأنت عرفت اليزابت السمسارة ؟

فأجابته مدهوشة بعض الدهشة :

ـ نعم ... هل عرفتها أنت أيضاً ؟

قال راسكولنيكوف بعد صمت ، دون أن يجيب عن سؤال دونيا :

ـ كاترين ايفانوفنا فى آخر درجات مرض السل ، وستموت قريباً ...

ـ لا ، لا ، لا تقل هذا الكلام .

قالت صونيا ذلك ، وتناولت يديه على غير شعور منها ، كأنها تتوسل اليه أن لا يحدث هذا الأمر .

قال راسكولنيكوف :

ـ ولكن الأفضل أن تموت !

فأخذت صونيا تردد مروعة تائهة العقل زائغة النظرات :

ـ لا ، ليس هذا أفضل ، ليس هذا أفضل ...

ـ والأولاد ، ما أنت صانعة بهم عندئذ ، ما دمت لا تستطيعين أن تأخذيهم الى بيتك وأن تضميهم اليك ؟...

ـ آه ... لا أدرى ...

بذلك هتفت صونيا يائسة وهى تمسك رأسها بيديها . كان واضحاً أن هذه الفكرة قد وافتها غير مرة ، وأن راسكولنيكوف لم يزد على أن أيقظها .

وعاد الفتى يلح فى السؤال بغير رحمة فيقول :

ـ وماذا اذا مرضت أنت فنقلت الى المستشفى قبل موت كاترين ايفانوفنا ؟ ما الذى سيحدث عندئذ ؟

ــ آه ... ما هذا الذى تقوله ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ ذلك مستحيل.

وتقبّض وجه صونيا على رعب فظيع وذعر رهيب .

وتابع راسكولنيكوف القاء أسئلته وهو يبتسم ابتسامة لا رحمة فيها :

ــ مستحيل ؟ كيف ؟ لا شىء يكفل لك أن لا تمرضى . فما الذى سيحدث لهم حين تمرضين ؟ سيصيرون فى الشارع ، وستمضى هى تسعل وتستجدى وتدق رأسها بالحائط كما تفعل اليوم بينما الأولاد يبكون . ثم تتهاوى ، فتُنقل الى قسم الشرطة ، ثم الى المستشفى ، فتموت . أما الأولاد ...

ــ لا ، لا ، لن يأذن الله بهذا .

ذلك ما أفلت من لسان صونيا بعد لحظة بصوت مختنق . كانت قد استمعت لكلامه صامتةً تنظر اليه مروّعة ، ضامةً يديها فى ضراعة خرساء كأن كل شىء متوقف عليه .

نهض راسكولنيكوف وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . وانقضت دقيقة . كانت صونيا واقفة ، متهدلة الذراعين ، خافضة الرأس ، تعانى ألماً شديداً وعذاباً رهيباً .

سألها وهو يتوقف أمامها فجأة :

ــ وما من وسيلة لادخار أى مال للأيام السود ، أليس كذلك ؟

فدمدمت تجيبه :

ــ طبعاً ... لا ...

ثم أضاف ساخراً :

ــ ولكن هل حاولت ؟

ــ حاولت .

ــ ولم تفلح المحاولة ؟ طبعاً لم تفلح ! لا داعى الى السؤال •••

وعاد يسير فى الغرفة • وانقضت دقيقة أخرى • قال :

ــ وسيكون مصير بوليتشكا كمصيرك حتماً •

فهتفت صونيا تقول بصوت قوى ، طائش ، كأنها طُعنت بخنجر :

ــ لا ، لا ، هذا مستحيل • ان الله ، ان الله لن يسمح بمثل هذا السقوط !

ــ دعيك من هذا الكلام ! انه يسمح بمثله وأكثر •

فردّدت صونيا تقول خارجةً عن طورها :

ــ لا ، لا ، ان الله سيحميها !

أجاب راسكولنيكوف بفرح خبيث :

ــ ولكن قد لا يكون هناك اله !

ثم ضحك ونظر اليها •

عندئذ تشوه وجه صونيا تشوهاً فظيعاً ، وسرت فى قسماتها رعدة من تشنج • وألقت على راسكولنيكوف نظرة زاخرة بعتب قوى ولوم شديد ، وأرادت أن تقول شيئاً ، ولكن لم توافها كلمة واحدة ؛ وفجأة انفجرت تنشج نشيجاً مراً ، نشيجاً مراً جداً ، وهى تغطى وجهها بيديها •

قال راسكولنيكوف بعد صمت :

ــ تقولين ان كاترين ايفانوفنا قد فقدت عقلها ، ولكننى أرى أنك أنت نفسك قد فقدت عقلك •

وانقضت خمس دقائق • كان راسكولنيكوف يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، دون أن يتكلم ، ودون أن ينظر اليها • واقترب منها أخيراً •

كانت عيناه تسطعان • أمسك كتفيها بيديه ، وأنعم النظر الى وجهها الغارق فى الدموع • كانت نظرته جافة ، ملتهبة ، حادة • وكانت شفتاه تختلجان اختلاجاً قوياً جداً • وانحنى فجأةً بحركة سريعة ، فسجد أمامها ، وقبّل قدميها • تراجعت صونيا مروّعة كأنها ترى مجنوناً • والحق أن هيئته كانت هيئة مجنون •

تمتمت تقول شاحبة الوجه ، منقبضة الصدر انقباضاً أليماً :

ــ ماذا تفعل ؟ ما هذا الذى تفعله ؟ أأمامى أنا تسجد ؟

فسرعان ما نهض ، وقال لها بلهجة وحشية :

ــ أنا لا أسجد أمامك أنت •••

ثم ابتعد نحو النافذة • وأضاف يقول بعد لحظة وهو يعود الى قربها :

ــ اسمعى : لقد قلت منذ قليل لرجل كان يهينك انه لا يساوى طرف اصبعك ••• واننى قد شرّفت أختى حين أتحت لها اليوم أن تجلس الى جانبك •

هتفت صونيا تقول مرتاعة :

ــ آه ••• ما هذا الذى قلته ؟ هل قلته أمامها ؟ جلوسها الى جانبى يشرّفها ؟ ولكننى ••• ولكننى أعيش فى العار ! آه ••• ما هذا الذى قلته ؟•

ــ أنا لم أقل ذلك مفكراً فى العار والخطيئة ، وانما قلته مفكّراً فى عذابك العظيم •••

ثم أضاف يقول فى حماسة :

ــ أما أنك خاطئة فهذا صحيح • وخطيئتك الكبرى هى أنك

ضحيت بنفسك وأهلكت نفسك « سدى » • نعم ، انه لأمر فظيع ، انه لأمر فظيع أن تعيشى كما تعيشين ، فى الوحل الذى تكرهين ، عالمةً أنت نفسك أنك بهذا لا تساعدين أحداً ، ولا تستطيعين أن تنقذى أحداً (يكفى المرءَ أن يفتح عينيه) •

ثم قال خارجاً عن طوره :

ـ ولكن قولى لى أخيراً : كيف يمكن أن يجتمع فى نفسك مثل هذا العار ومثل هذه الحطة مع أنبل العواطف وأقدس المشاعر ؟ ألا انه ليكون أقرب الى العدل كثيراً ، وأقرب الى العقل كثيراً ، أن تلقى بنفسك فى الماء منكّسة الرأس ، وأن تنتهى من هذا الوضع مرةً واحدة الى الأبد !•••

سألته صونيا بصوت ضعيف ، وهى ترفع نحوه نظرتها الأليمة :

ـ وما عسى يصيرون اليه ، هم ، اذا أنا فعلت ذلك ؟

غير أن هذه الفكرة التى أوحى اليها راسكولنيكوف لم يبدُ أنها أدهشتها • وألقى عليها راسكولنيكوف نظرة خاصة •

لقد قرأ راسكولنيكوف فى نظرة الفتاة كل شىء • ان تلك الفكرة كانت تراودها اذن • لعلها من يأسها قد فكرت تفكيراً جاداً ، مرات كثيرة ، فى امكان وضع حد لحياتها آخر الأمر ، وبلغت من جدّ التفكير فى هذا أن النصيحة التى أسداها اليها راسكولنيكوف لم تثر فى نفسها أية دهشة تقريباً • حتى أنها لم تلاحظ قسوة الكلمات التى قالها لها (لقد فاتها طبعاً معناها الحقيقى، ولم تدرك الزاوية الخاصة التى كان راسكولنيكوف ينظر منها الى موضع العار ، وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك) • ولكن راسكولنيكوف أدرك ادراكاً تاماً مدى ما كانت تقاسيه من عذاب بسبب وضعها الشائن ، وأدرك ادراكاً تاماً أنها تعانى هذا العذاب منذ مُدة طويلة •

وتساءل راسكولنيكوف : « ما الذى أمكن أن يمنعها حتى الآن من انفاذ عزمها على التخلص من حياتها ؟ » . وعندئذ فقط انما أدرك حقاً قيمة هؤلاء اليتامى فى نظر صونيا ، وقيمة هذه المسكينة كاترين ايفانوفنا المصدورة ، شبه المجنونة ، التى تدق رأسها بالحيطان .

ولكن هذا لم يمنعه أن يدرك ادراكاً واضحاً كذلك أن صونيا ، بحكم طبعها وبحكم تربيتها ، لا يمكنها مع ذلك أن تستمر على أن تحيا هذه الحياة ؛ حتى انه ليحيّره ويدهشه أن يرى صونيا تبقى فى هذا الوضع طوال هذه المدة دون أن تُجنّ هى أيضاً بعد أن لم تسعفها شجاعتها فتنتحر غرقاً فى الماء . صحيح أنه كان يفهم أن وضع صونيا ليس الا حادثة طارئة فى المجتمع ، حادثة طارئة لكنها ليست وحيدة وا أسفاه ! ليست وحيدة البتة ، ولا هى استثنائية ! غير أن كون هذه الحادثة طارئة ، بالاضافة الى ما بقى للفتاة من تربيتها الماضية ، وبالاضافة الى ماضيها كله ، كان خليقاً بأن يقتلها منذ الخطوات الأولى التى قطعتها على هذا الطريق الدنىء الذى سلكته . فما الذى كان يبقيها على هذا الطريق اذن ؟ ليس هو حب الدعارة قطعاً ، فان هذا العار كله (ذلك أمر يراه المرء واضحاً) لم يزد على أن مسّها مساً خفيفاً بحكم طبيعة الأشياء ، أما قلبها فلم تتسلل اليه قطرة واحدة من رذيلة . ان راسكولنيكوف يرى هذا كله : لقد كانت صونيا واقفةً أمامه على حقيقتها ...

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « هناك ثلاثة طرق تنفتح أمامها : أن تلقى بنفسها فى القناة ، أن تصير الى ملجأ للمجانين ... أن تندفع فى الدعارة التى تخبل العقل وتجمد القلب . » . ان هذه الفكرة الأخيرة هى التى ينفر منها راسكولنيكوف أكثر مما ينفر من الفكرتين الأوليين ، ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح شكاكاً رياباً منذ الآن ، وهو الى ذلك شاب ، وهو الى ذلك ذو فكر مجرد ، والفكر المجرد

قاس ، لذلك لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن الاعتقاد بأن هذا الافتراض الثالث ، أعني افتراض الدعارة هو أقرب الافتراضات الى الصدق ...

ولم يلبث أن هتف يتساءل بينه وبين نفسه : « ولكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ هل يمكن أن تغوص نفس ما تزال طاهرة نقية ، هل يمكن أن تغوص فى هذا المستنقع واعيةً شاعرة ؟ هل بدأ هذا الغوص في المستنقع القذر فعلاً ؟ هل من الجائز أنها لم تستطع أن تحتمل حياة كهذه الحياة حتى الآن الا لأن الرذيلة لا تبدو لها كريهة حقيرة الى هذا الحد ؟ » فلما وصل راسكولنيكوف من تساؤله الى هنا ، هتف يقول كما فعلت صونيا منذ قليل : « لا ، لا ، ان الشيء الذى صدّها عن اغراق نفسها فى القناة حتى الآن انما هو فكرة « الخطيئة » ، وكذلك « هم » ... ولئن لم تجن حتى الآن ... ولكن من ذا الذى يزعم أنها لم تجن حتى الآن ؟ أصحيح أنها ما تزال تملك عقلها ؟ هل يمكن أن يتكلم أحد كما تتكلم هى ، وأن تفكر كما تفكر ، اذا كان ما يزال سليم العقل ؟ هل يستطيع المرء أن يبقى أمام الهوة على هذا النحو ، أن يبقى هذا البقاء أمام المستنقع القذر الذى أخذ يغوص فيه ، وأن يحرك يده فى الوقت نفسه باشارة تنم على العجز ، وأن يسدّ أذنيه كلما حُدّث عن الخطر ؟ أليس معجزةً من المعجزات أنها تنتظر ؟ نعم ، لا شك فى ذلك . ولكن أليست هذه علامات جنون ؟ » .

وتلبث راسكولنيكوف على هذه الفكرة فى اصرار وعناد . ان حلاً كهذا يرضيه أكثر من أى حل آخر . وأخذ يتفحص الفتاة بانتباه شديد .

سألها :

ـ اذن أنت تصلين لله يا صونيا ؟

لم تجب صونيا ، وكان واقفاً أمامها ينتظر جوابها •

ودمدمت صونيا تقول مسرعة بقوة عنيفة ، وهى تلقى عليه نظرة مختلسة ساطعة :

ـ ما الذى يمكن أن أصير اليه ان لم أؤمن بالله ؟

وتناولت يده ، وضغطتها بيدها ضغطاً قوياً •

قال يحدث نفسه : « نعم ، تلك هى الحقيقة » •

وسألها ليجبرها على الكلام :

ـ وماذا يفعل الله من أجلك ؟

فلبثت صونيا صامتة مدة طويلة ، كأنها لا تستطيع أن تجيب • وكان الانفعال يهز صدرها الضعيف • وهتفت تقول له أخيراً وهى تنظر اليه بقسوة وغضب :

ـ اسكت ، لا تسألنى عن شىء بعد الآن • أنت لا تستحق أن •••

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه مردداً فى عناد واصرار : « تلك هى الحقيقة ، تلك هى الحقيقة • » •

ودمدمت صونيا تقول بسرعة وهى تخفض عينيها من جديد :

ـ الله يفعل كل شىء !

وبعاطفة جديدة كل الجدة ، بعاطفة غريبة تشبه أن تكون مرضاً ، كان راسكولنيكوف يتفرس فى هذا الوجه الصغير ، النحيل ، الشاحب، غير المتسق ، المتكسر الزوايا ، ويتفرس فى هاتين العينين الزرقاوين الرقيقتين العذبتين الحلوتين اللتين تستطيعان مع ذلك أن تسطعا بلهيب قوى



صـــونيا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وأن تعبرا عن عاطفة تبلغ هذا المبلغ كله من القســوة والقوة والعنف ؟ ويتفرس فى هذا الجسم الضــاوى الهزيل الذى ما يزال يرتجف استياءً وغضباً ••• فكان كل شيء يبدو له غريباً مزيداً من الغــرابة شــيئاً بعد شيء ، حتى ليكاد يكون مستحيلاً • وكان يردد قائلاً لنفســه : « هذه مخلوقة ضعيفة العقل ، هذه مخلوقة ضعيفة العقل • » •

وكان على المنضدة كتــاب لاحظه راســكولنيكوف عدة مرات حين مروره أمام المنضــدة • فها هو ذا يتناول الكتــاب الآن وينظر فيه • انه الانجيل باللغة الروسية : كتاب مجلَّد ، عتيق مهترىء •

صاح يسأل صونيا من آخر الغرفة :

ــ من أين هذا الكتاب ؟

وكان ما يزال واقفاً فى مكانه نفســه على بعد ثلاث خطوات من المائدة •

فأجابته صونيا على مضض دون أن تنظر اليه :

ــ جيء الىَّ به •

ــ من جاءك به ؟•

ــ اليزابت • كنت قد طلبته منها •

قال راسكولنيكوف بينه وبين نفسه : « اليزابت ! ما أغرب هذا ! »، ان كل شيء هنا يبدو له غريباً عجيباً أكثر فأكثر ، من لحظة الى أخرى• وقرَّب الكتاب من الشمعة وأخذ يتصفحه •

وسألها فجأة :

ــ أين يجيء ذكر لعازر ؟

فظلت صونيا مطرقةً الى الأرض بعناد ولم تجبه . وكانت واقفة غير بعيد من المائدة وقفةً مواربة .

ـ أين الحديث عن قيام لعازر ؟ * أرنيه يا صونيا .

فألقت نظرة مواربة . ودمدمت تقول له بقسوة دون أن تقترب منه :

ـ لست تبحث عنه فى موضعه . انه فى الانجيل الرابع .

قال لها :

ـ ابحثى عنه واقرئيه لى يا صونيا .

ثم جلس ، ووضع كوعيه على المائدة ، وأسند رأسه الى يده ، لافتاً عينيه ، متجهم الهيئة ، متهيئاً للاصغاء ، قائلاً لنفسه : « بعد ثلاثة أسابيع ، سأكون الفرسخ السابع * ، فيما أظن ، اللهم الا أن يحدث لى ما هو شر من ذلك » .

دنت صونيا من المائدة مترددة ، بعد أن استمعت لطلب راسكولنيكوف فى شك وريب . وتناولت الكتاب مع ذلك .

سألته وهى تنظر اليه من فوق المائدة بطرف عينها :

ـ ألم تقرأه اذن من قبل ؟

وكان صوتها يزداد قسوةً شيئاً بعد شيء . أجابها راسكولنيكوف :

ـ قرأته منذ زمن طويل ... فى أيام الدراسة .

ـ وفى الكنيسة ، ألم تسمعه ؟

ـ لا أذهب الى الكنيسة . هل تذهبين أنت الى الكنيسة أحياناً كثيرة ؟

تمتمت صونيا تقول :

ــ لا ... لا

فابتسم راسكولنيكوف .

ــ فهمت . وأغلب الظن أنك لن تحضرى دفن أبيك فى الغد أيضاً ، أليس كذلك ؟

ــ بل سأحضر ... لقد ذهبت الى الكنيسة فى الأسبوع الماضى أيضاً . وأقمت قداساً .

ــ لمن ؟

ــ لاليزابت . لقد قُتلت بساطور .

توترت أعصاب راسكولنيكوف مزيداً من التوتر . وأخذ يشعر بدوار .

ــ هل كنت صديقة لاليزابت ؟

ــ نعم ... كانت اليزابت امرأة صالحة... وكانت تجىء الىَّ... نادراً ... لم يكن فى وسعها أن تزورنى أكثر من ذلك . وكنا نقرأ معاً ... وكنا نتحدث ... سترى الله * ...

ترجَّعت هاتان الكلمتان المستمدتان من الكتب ترجعاً غريباً فى نفس راسكولنيكوف . وقال لنفسه : « وهذه معلومات جديدة ! أحاديث سرية بين اليزابت وصونيا ... بين مخلوقتين كلتاهما ضعيفة العقل ! هنا يصبح المرء نفسه ضعيف العقل ... بالعدوى !... » .

وهتف يقول لها بالحاح وحنق :

ــ اقرئى !

ولكن صونيا ما تزال مترددة . كان قلبها يخفق خفقاناً شديداً .

لكأنها لا تجرؤ أن تقرأ له . وكان هو ينظر اليها معذباً ، قائلاً لنفسه : « يا للمجنونة المسكينة ! » .

تمتمت تقول له بصوت خافت ، كأنها مقطوعة الأنفاس :

ــ ما حاجتك الى ذلك وأنت لا تؤمن ؟

فأجابها يقول مصراً :

ــ بل اقرئي ! أريد أن تقرئي ! أما كنت تقرئين لاليزابت ؟...

فتحت صونيا الكتاب ، ووجدت العبارات المطلوبة . كانت يداها ترتجفان ، وكان صوتها مختنقاً . حاولت مرتين أن تبدأ القراءة ، ولكنها لم تفلح فى نطق الكلمة الأولى . ثم قرأت أخيراً :

« وكان انسان مريضاً ، وهو لعازر ، من بيت عنيا ... » * .

ولكن صوتها اختلج وتحطم منذ الكلمة الثالثة ، كما يتحطم وتر مشدود . لقد انقطع تنفسها . وكان قلبها يدق دقاً عنيفاً جداً .

أدرك راسكولنيكوف بعض الادراك لماذا لم تعزم صونيا أمرها على أن تقرأ له ، فكان كلما ازداد ادراكاً لهذا ، ازداد الحاحاً فى طلب القراءة بفظاظة وغضب. كان يرى رؤية واضحة لماذا يشق عليها ويحز فى نفسها أن تكشف عما يخصها « هى » ، وأن تبوح به . أدرك أن هذه العواطف هى « سرها » فعلاً ، ربما منذ مراهقتها ، منذ الوقت الذى كانت تعيش فيه مع أسرتها بين أب شقى وزوجة أب جعلها الحزن مجنونة ، قرب أطفال جياع ساغبين ، فى بيئة لا ترتفع فيها الا صرخات مسعورة وملامات متصلة لا تنقطع . ولكنه كان يعلم فى الوقت نفسه ــ هو واثق من هذا ــ أنها على تألمها الشديد وخوفها القوى تحس رغم حزنها وخشيتها برغبة جارفة مؤلمة فى أن تقرأ ، وفى أن تقرأ له « هو » ، من أجل

أن يسمع ، ومن أجل أن يسمع « الآن » خاصةً ، « مهما يحدث بعد ذلك » . كان راسكولنيكوف يقرأ هذه الرغبة فى عينى الفتاة ، وكان يدركها من اهتياج أعصابها .

تحاملت صونيا على نفسها ، وبذلت جهداً كبيراً ، فكبحت التشنج الذى ألمَّ بحلقها فقطع صوتها منذ بداية الآية الأولى ، وتابعت قراءة الاصحاح الحادى عشر من انجيل يوحنا ، ووصلت الى الآية التاسعة عشرة :

« وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا الى مرثا ومريم ليعزُّوهما عن أخيهما . فلما سمعت مرثا أن يسوع آتٍ لاقته . وأما مريم فاستمرت جالسةً فى البيت . فقالت مرثا ليسوع : يا سيد ، لو كنتَ ههنا لم يمت أخى . لكننى الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله اياه ».

هنا توقفت صونيا عن القراءة مرةً أخرى ، وهى تشعر بالخجل من أن صوتها يختلج وأنه سيتحطم من جديد ... ثم تابعت القراءة :

« قال لها يسوع : سيقوم أخوك . قالت له مرثا : أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة ، فى اليوم الأخير . قال لها يسوع : أنا القيامة والحياة . من آمن بى فسيحيا ولو مات . وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت الى الأبد. أتؤمنين بهذا ؟ » .

استردت صونيا أنفاسها بجهد عنيف وألم شديد ، وأخذت تقرأ بصوت واضح ولهجة قوية كأنها تعترف بايمانها هى نفسها على رءوس الأشهاد :

« قالت له مرثا : نعم يا سيد . أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله ، الآتى الى العالم . » .

وأوشكت صونيا أن تتوقف عن القراءة ، ولكنها رفعت عينيها «اليه» بحركة قوية ، فسرعان ما ثابت الى نفسها ، واستمرت تقرأ . كان راسكولنيكوف يصغى الى القراءة ساكناً جامداً ، دون أن يلتفت ، واضعاً كوعيه على المائدة ، ناظراً الى جانب . وبلغت صونيا الآية الثانية والثلاثين :

« فلما أتت مريم الى حيث كان يسوع ورأته ، خرّت عند رجليه قائلةً : يا سيد ، لو كنتَ ههنا لم يمت أخى . فلما رآها يسوع تبكى واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب . وقال : أين وضعتموه ؟ قالوا له : يا سيد ، تعال وانظر . بكى يسوع . فقال اليهود : انظروا كيف كان يحبه . وقال بعض منهم : ألم يكن يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟ » .

كان راسكولنيكوف قد التفت نحوها وأخذ ينظر اليها منفعلاً مضطرباً . نعم ، صدق ظنه ! لقد كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً وتعانى من حمى حقيقية . انه توقع ذلك . وكانت تقترب من الآيات التى تروى المعجزة العظيمة الكبرى ، فكان شعور بالانتصار يجتاح نفسها . ان صوتها يرن رنين معدن . ان الفرح والظفر يترجعان فى نفسها ويشدان ازرها . واختلطت الأسطر أمام عينيها ، واضطرب بصرها ، لكنها كانت تعرف ما تقرؤه على ظهر القلب . انها حين قرأت الآية الأخيرة : « ألم يكن يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟ » ، قد خفضت صوتها ، معبّرةً بحماسة ملتهبة عن شك واستياء أولئك اليهود العمى الذين سيركعون بعد قليل كمن نزلت عليهم صاعقة ، وسيجهشون باكين ، وسيؤمنون . قالت لنفسها : وهو ، « هو » ايضاً ، الأعمى ، الذى لا يؤمن ، هو أيضاً سيسمع ، وهو أيضاً سيؤمن ،

نعم ، نعم ، سيؤمن ، سيؤمن فوراً ، حالاً . فكان هذا التوقع يجعلها ترتعش فرحاً . وتابعت قراءتها :

« فانزعج يسوع أيضاً في نفسه وجاء الى القبر . وكان القبر مغارة وقد وضع عليه حجر . قال يسوع : ارفعوا الحجر . قالت له مرثا أخت الميت : يا سيد ، قد أنتن لأنه هنا منذ أربعة أيام . . » .

أبرزت صونيا في قراءتها كلمة « أربعة » . وتابعت تقرأ :

« قال لها يسوع : ألم أقل لك ان آمنت ترين مجد الله . فرفعوا الحجر ، ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال : أيها الأب ، أشكرك لأنك سمعت لي . وأنا كنت أعلم أنك تسمع لي في كل حين . ولكن لأجل هذا الجمع الواقف حولي قلت هذا ، ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني . ولما قال يسوع هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هلمَّ خارجاً . فخرج الميت ... »

قرأت صونيا هذه الكلمات الأخيرة بصوت قوي ظافر ، وكانت ترتجف وترتعش كأنها ترى المشهد بعينيها .

« ... ويداه ورجلاه مربوطة بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل . فقال لهم يسوع : حلّوه ودعوه يذهب » .

« فكثيرون من اليهود الذين جاءوا الى مريم ومرثا ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به . . » .

لم تمض صونيا في القراءة الى أبعد من هذا . لقد عجزت عن ذلك . فطوت الكتاب ونهضت بحركة قوية نشيطة ، ودمدمت تقول بصوت قاس متقطع :

ـ هذا كل ما يُروَى عن قيام لعازر .

وتجمدت فى مكانها مشيحة وجهها ، كأنها تستحى أن ترفع عينيها نحو راسكولنيكوف . وكانت ما تزال ترتجف من الحمى .

كان عقب الشمعة التى ذابت فى الصحن المتعقف منذ مدة ، تلقى ضياء ضعيفاً على القاتل والمومس وقد ضمتهما قراءة « الكتاب الخالد » فى هذه الغرفة البائسة .

وانقضت خمس دقائق أو تزيد .

ونهض راسكولنيكوف ، واقترب من صونيا ، وقال لها فجأة بصوت قوى وقد اكفهر وجهه :

ـ انما جئت لأحدثك فى أمر بعينه .

فنظرت اليه صونيا صامتة . وكان وجهه يفصح عن عزيمة وحشية قال :

ـ تركت اليوم أهلى : أمى وأختى . فلن أذهب اليهما بعد الآن . لقد قطعت صلتى بهما قطيعة تامة .

فسألته صونيا مصعوقة :

ـ لماذا ؟

ان اللقاء الذى تم بينها وبين أم راسكولنيكوف وأخته منذ قليل قد ترك فى نفسها أثراً خارقاً ، رغم أنها لم تستطع أن تحدده . فلما سمعت نبأ هذه القطيعة شعرت بما يوشك أن يكون رعباً وذعراً .

أضاف راسكولنيكوف يقول :

ـ لم يبق لى سواك . هلمى نسافر معاً . لقد جئت اليك . نحن ملعونان كلانا ، فلنسافر معاً !

وكانت عيناه تسطعان . قالت صونيا لنفسها هي أيضاً : « ان هيئته تدل على أنه مجنون » .

وسألته مرتاعةً :

ـ نسافر الى أين ؟

وتراجعت متقهقرة على غير ارادة منها . قال لها :

ـ أنَّى لي أن أعرف ! كل ما أعرفه أن الطريق الذي سنقطعه واحد . أنا واثق بهذا ، ولا أعرف شيئاً سواه . وان هدفنا واحد أيضاً .

كانت تنظر اليه ولا تفهم . كل ما كانت تدركه هو أنه انسان شقي شقاء رهيباً ، شقي الى غير نهاية .

وأضاف راسكولنيكوف يقول :

ـ ما من أحد منهم يستطيع أن يفهم ما تقولينه . أما أنا فقد فهمتك . أنا في حاجة اليك . ولهذا السبب انما جئتك .

تمتمت صونيا قائلة :

ـ لست أفهم ...

ـ ستفهمين في المستقبل . ألم تفعلي مثل الذي فعلت أنا ؟ أنت أيضاً خرقت القانون ، أنت أيضاً ... أنت أيضاً دمَّرت حياةً ... هي حياتك طبعاً ، ولكن ما الفرق ؟ كان يمكنك أن تعيشي بروحك . ولسوف ينتهي بك المطاف في المستقبل الى قرب « سوق العلف » .. ولكنك لن تستطيعي أن تحتملي ذلك ، فان بقيت « وحيدة » فسوف تفقدين عقلك مثلي . انك منذ الآن أشبه بمجنونة . فلماذا لا نسافر اذن معاً ، لماذا لا نتبع طريقاً واحداً ؟ فلنسافر !

تمتمت صونيا تقول وقد هزتها كلمات راسكولنيكوف هزاً غريباً قوياً :

ـ لماذا ، لماذا تقول هذا الكلام …

ـ لماذا ؟ لأن بقائي على هذه الحال أصبح مستحيلاً . هذا هو السبب . لا بد للمرء آخر الأمر من أن يبكي ، بدلاً من أن يصرخ قائلاً كطفل صغير : « الله لن يسمح بهذا » . قولي لي : ما الذي سيحدث اذا اقتادوك غداً الى المستشفى ؟ ان الأخرى قد فقدت عقلها ، وهي مصابة بداء السل ، وستموت قريباً . والأولاد ؟ هل يمكن أن لا تضيع بوليتشكا هي أيضاً ؟ ألم ترى هنا ، في نواصي الشوارع ، أطفالاً أرسلتهم أمهاتهم في طلب الصدقات ؟ لقد عرفت أنا أين تعيش هذه الأمهات ، وفي أي ظروف تعيش . ان الأطفال لا يمكن أن يبقوا في أمثال تلك الأماكن أطفالاً . في أمثال تلك الأماكن يصبح الطفل الذي عمره سبع سنين ، يصبح داعراً أو لصاً . والأطفال مع ذلك هم صورة المسيح ، « لهم ملكوت الرب » * ؛ لقد أمر الرب باحترامهم وحبهم . هم انسانية المستقبل …

ردّدت صونيا تقول وهي تلوي يديها ألماً وتجهش باكيةً بكاء هسترياً :

ـ ما العمل اذن ؟ ما العمل اذن ؟

ـ ما العمل ؟ نحطّم مرةً واحدة كلّ ما يجب تحطيمه ، ولا شيء غير ذلك . نتحمل العذاب . ماذا ؟ ألا تفهمين ؟ سوف تفهمين في المستقبل ! الحرية والسيطرة ، السيطرة خاصة ! السيطرة على جميع المخلوقات المرتجفة ، على كل هؤلاء النمل .. ذلك هو الهدف ! تذكري هذا ! تلك هي وصيتي لك . لعل هذه آخر مرة أكلمك فيها . اذا لم

أجيء غداً ، فستعلمين كل شيء بنفسك ، فاذكرى حينئذ كلماتى . قد تفهمين معناها فى يوم من الأيام ، بعد سنة ، ولكن اذا جئت غداً ، فسأقول لك من الذى قتل اليزابت . وداعاً !

ارتعشت صونيا ذعراً . وسألته وهى ترمقه بنظرة متوحشة :

ـ أأنت تعرف حقاً ... من الذى قتلها ؟

ـ أعرف ذلك ، وسأقوله لك ... لك وحدك ! لقد وقع اختيارى عليك . لن أجيء اليك لاستغفرك ؟ وانما لأحدثك ببساطة . لقد اخترتك منذ مدة طويلة لأحدثك ، اخترتك منذ اللحظة التى كلمنى فيها أبوك عنك ، وكانت اليزابت ما تزال حية . وداعاً ! لا تناولينى يدك ! الى الغد ! .

وخرج . كانت صونيا تنظر اليه وكأنها تنظر الى مجنون ، ولكنها كانت هى نفسها أشبه بمجنونة ، وكانت تشعر بذلك . وكانت تحس بدوار .

تساءلت : « رباه ! كيف يعرف من الذى قتل اليزابت ؟ ما معنى هذه الأقوال ؟ فظيع ، فظيع !... » . ولكن لم يخطر ببالها « أن .. ».. لم يخطر ببالها هذا فى لحظة من اللحظات ، لم يخطر ببالها فى أية لحظة من اللحظات ! وقالت تحدث نفسها : « لا بد أنه شقى ، لا بد أنه شقى شقاء رهيباً ! ترك أمه وأخته . لماذا ؟ ماذا جرى ؟ ما نياته ؟ ماذا قال لى ؟ لقد لثم قدمىَّ وقال لى ... قال لى ... نعم .. قال لى ذلك بوضوح .. قال لى انه أصبح لا يستطيع أن يحيا بدونى .. آه ... رباه !...

قضت صونيا الليل كله فى حمى وهذيان . فتارةً تنهض بوثبة واحدة فتأخذ تبكى وتلوى يديها ألماً ، وتارة تهوى الى نوم محموم

فترى فى الحلم بوليتشكا وكاترين ايفانوفنا واليزابت وقراءة الانجيل .. وتراه هو ... هو ... بوجهه الشاحب ، وعينيه المتقدتين ، يلثم قدميها، ويبكى ... آه ... يارب !...

وراء الباب ، وراء ذلك الباب نفسه الذى يفصل غرفة صونيا عن شقة جرترود كارلوفنا ريسليش ، كانت توجد غرفة وسيطة ، خالية منذ مدة طويلة ، هى جزء من شقة السيدة ريسليش، وكانت السيدة ريسليش تريد أن تؤجرها ، كما تدل على ذلك اللافتة الموضوعة على باب مدخل العمارة ، والأوراق الصغيرة الملصقة على زجاج النوافذ التى تطل على القناة . وقد اعتادت صونيا أن تعد هذه الغرفة خالية" غير مسكونة . غير أن السيد سفيدريجايلوف كان قد التصق بالباب فى هذه الغرفة الخالية ، فأصغى الى كل الحديث الذى جرى بين صونيا وراسكولنيكوف ، حتى اذا خرج راسكولنيكوف لبث هو لحظة" يفكر ، ثم رجع سائراً على رءوس الأصابع الى غرفته المتصلة بهذه الغرفة الخالية ، فتناول كرسياً وجاء يضعه برفق وهدوء على الباب المؤدى الى غرفة صونيا . لقد شاقه الحديث الذى جرى بين الفتاة وبين راسكولنيكوف كثيراً ، ورأى أنه جدير بأن يُسمع وأن يحفظ ؟ وبلغ من شدة اعجابه بهذا الحديث ورضاه عنه وابتهاجه به أنه حمل الكرسى وجاء يضعه على الباب حتى لا يضطر فى المرة القادمة التى قد يكون الغد موعدها — من يدرى ؟ — أن يزعج نفسه بالبقاء واقفاً طوال ساعة كاملة . هكذا سيتاح له أن يجلس جلسة مريحة ، فتكون متعته من جميع النواحى كاملة .

الفصل الخامس

في الغد ، في الساعة الحادية عشرة تماماً ، حين وصل راسكولنيكوف الى قسم الشرطة ، ودخل على مكاتب مفوّض التحقيقات ، وطلب مقابلة بورفير بتروفتش ، أدهشه أنه طُلب اليه أن ينتظر . لقد انقضت عشر دقائق على الأقل قبل أن يُستدعى ، وكان يتنبأ أن يُستقبل فوراً .

ظل واقفاً في وسط قاعة الانتظار ، بينما كان يذهب ويجيء من حوله أناس لا يبدو عليهم أنهم يكترثون به أي اكتراث . وفي الغرفة المجاورة التي يدل مظهرها على أنها غرفة مكتب ، كان يجلس عدد من الكتبة عاكفون على الكتابة ، وكان واضحاً أن أحداً منهم لا يعرف من راسكولنيكوف هذا وما الذي يعمله هناك .

وكان راسكولنيكوف يُجيل على ما حوله نظرةً قلقة فيها ارتياب ، متسائلاً : ترُى ألا يوجد هنا ، على مقربة منه ، شخص سرّي ما ، جاسوسٌ ما ، مكلف بمراقبته ، وبمنعه من الخروج اذا هو أراد أن يخرج ؟ ولكن لا ... لم يكن ثمة شيء من هذا القبيل . لم يكن ثمة الا مستخدمون صغار ، غارقون في أعمالهم الصغيرة ، وأشخاصٌ آخرون ، لكن هؤلاء الأشخاص الآخرين كانوا هم أيضاً لا يهتمون به ، ويدعون له أن يتنقل حراً على ما يشاء له هواه . وها هي ذي فكرة تنبت في ذهنه

وتترسخ ترسخاً ما ينفك يزداد عمقاً : لو كان ذلك الشخص اللغز الذى لقيه بالأمس ، لو كان ذلك الشبح الذى ظهر له من تحت الأرض ، لو كان يعلم كل شيء ، لو كان قد رأى كل شيء ، أفكان يترك له ، هو راسكولنيكوف ، أن ينتظر هذا الانتظار هادئاً ؟ أفكانوا يصبرون عليه حتى الساعة الحادية عشرة ، حتى الساعة التى ارتأى فيها أن يجيء من تلقاء نفسه ليدلى بافادته ؟ اذن لم يش به ذلك الرجل بعد ... او أنه هو أيضاً لا يعرف شيئاً معيناً (وكيف كان يمكن أن يرى أى شيء على كل حال ؟) . واذن لم يكن كل ما حدث له بالأمس ، هو راسكولنيكوف ، الا سراباً ، الا رؤيا ضخّمها خياله المهتاج المريض . ان هذا الاكتشاف كان قد فرض نفسه على راسكولنيكوف منذ أمس ، فى لحظة هى من أعنف لحظات شعوره بالخطر ومن أقوى لحظات احساسه باليأس .

وفيما كان راسكولنيكوف يفكر فى هذا كله مرةً أخرى ، وفيما كان يتهيأ لكفاح جديد ، شعر فجأة بارتعاش ، فغلت نفسه غلياناً شديداً اذ تصور أنه انما يرتعش خوفاً ، لأنه سيقف أمام بورفير بتروفتش الكريه . ان أفظع شيء هو أن يلقى هذا الرجل من جديد . انه يكرهه كرهاً لا حدود له ، كرهاً ليس له نهاية . وكان يخشى أن يؤدى به هذا الكره ، على نحو من الأنحاء ، الى أن يفضح نفسه . وبلغ غضبه من القوة أنه أوقف ارتعاشه فوراً . وأعدّ راسكولنيكوف نفسه لأن يدخل على الرجل هادئاً كل الهدوء ، وحلف ليبقينّ صامتاً الى أبعد حدود الصمت ، يفتح عينيه وأذنيه ويسيطر فى هذه المرة على مزاجه المهتاج المريض ، مهما يحدث من أمر ...

وفى اللحظة التى اتخذ فيها راسكولنيكوف هذا القرار ، دُعى الى الدخول على بورفير بتروفتش .

كان بورفير بتروفتش عندئذ وحيداً فى غرفته . انها حجرة لا هى

بالكبيرة ولا هي بالصغيرة ، تضم مكتباً كبيراً موضوعاً أمام ديوان مغطى بقماش مشمع ، وتضم منضدة ، وخزانة في ركن من الأركان ، وعدة كراسي من خشب أصفر تقشر طلاؤه ؛ وهذا كله من أثاث الادارة • وفي الجدار الذي يقع في آخر الغرفة ، أو قل في الحاجز الذي يقع في آخر الغرفة ، يوجد باب مغلق : فلا بد اذن أن وراء هذا الحاجز حجرات أخرى •

فما ان أُدخل راسكولنيكوف حتى أغلق بورفير بتروفتش ذلك الباب الذي كان قد دخل منه ، وبقي الرجلان وحيدين •

استقبل مفوَّض الشرطة زائره طلق المحيَّا متودداً متحبباً في ظاهر الأمر ؛ ولم يستطع راسكولنيكوف الا بعد عدة دقائق أن يدرك من بعض العلامات أن بورفير بتروفتش مرتبك بعض الارتباك ، فكأنه أُزعج أثناء قيامه بمهمة سرية •

بدأ بورفير بتروفتش يتكلم وهو يمد الى راسكولنيكوف يديه فقال :

ـ آ ••• عزيزي ••• هأنت ذا اذن ••• في نواحينا ... تفضل... اجلس يا عزيزي ! ولكن لعلك لا تحب أن أخاطبك بقولي يا عزيزي ، «فقط» ، هكذا ! ••• لا تحسبْ هذا نوعاً من رفع الكلفة وعدم التحرج، أرجوك ••• ولكن لماذا لا تجلس ؟ اجلس هنا ، على الديوان •••

جلس راسكولنيكوف دون أن يحوِّل عنه عينيه •

وقال يحدث نفسه مرتاباً : « في نواحينا ••• اعتذارات عن رفع الكلفة وعدم التحرج ••• هذا التعبير الفرنسي « فقط » ••• صحيح أنه مدَّ اليَّ يديه ، لكنه لم يناولني لا هذه ولا تلك منهما ، بل سحبهما في الوقت المناسب ••• » •

كان كل من الرجلين يرقب صاحبه ويرصده ، ولكن ما ان تلتق نظراتهما حتى يحوّلاها بسرعة كومض البرق .

قال راسكولنيكوف :

ـ جئتك بالعريضة الصغيرة ... فى موضوع الساعة ... اليك هى . أهكذا يجب أن تُحرَّر أم علىَّ أن أعيد كتابتها ؟

ـ ماذا ؟ أى عريضة ؟ آ ... نعم ، نعم ، اطمئن ، هذا هو المطلوب تماماً .

كذلك قال بورفير بتروفتش بسرعة كأن أمراً ما كان يستحثه ، ثم تناول الورقة وألقى عليها نظرة خاطفة . وواصل كلامه بذلك التعجل نفسه فقال مؤكداً :

ـ ذلك هو المطلوب تماماً . لا يجب أكثر من هذا ...

ووضع الورقة على مكتبه . ثم بعد دقيقة ، بينما كان يتكلم فى أمر آخر ، تناول الورقة من جديد ومضى يرتّبها فى درج المنضدة .

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال :

ـ قلت لى بالأمس ، « فيما يخيَّل الىَّ » ... انك تودُّ ... أن تستجوبنى .. رسمياً .. عن علاقاتى ... بالمرأة القتيل ...

وأسرع راسكولنيكوف يقول لنفسه : مؤنباً : « عجيب ... لماذا أضفت جملة « يخيَّل الىَّ » هذه ؟ » .

ثم أسرع يقول لنفسه على الفور : « ولكن لماذا أقلق هذا القلق كله من قولى « يخيَّل الىَّ » ؟ .

وشعر فجأة بأن هذا الاتصال وحده ببورفير بتروفتش ، وهذه

الكلمات وهذه النظرات المتبادلة وحدها قد كانت كافيةً لأن تحدث في نفسه ارتياباً شديداً ... وأن هذا كله خطر ، خطر خطراً رهيباً ، فقال لنفسه مقرعاً : « غلط ، غلط ، سأفضح أمرى من جديد » .

جمجم بورفير بتروفتش يقول :

ــ نعم ، نعم ، اطمئن ... ليس الأمر بمستعجل ... ليس الأمر بمستعجل البتة ...

وكان بورفير بتروفتش يقول هذا الكلام وهو يدور حول المكتب طولاً وعرضاً ، ولكن دون ما هدف فيما يبدو ، كأنه لا يعرف ما الذى كان يجذبه نحو النافذة ، ثم يجذبه نحو مكتبه ، ثم يجذبه نحو النافذة فالمكتب من جديد .

وكان وهو يسير يتحاشى نظرة راسكولنيكوف الريّابة ، ولكن كان فى بعض الأحيان يتوقف فجأة ، فيحدّق الى محدّثه وجهاً لوجه . انه لمشهد غريب ، مشهدُ هذا الرجل القصير السمين ، المدوَّر ككرة ، الذى كان كأنه يتدحرج من هنا وهناك ، ثم يعود يثب على الفور من جميع الجدران ، وجميع الأركان .

ــ أمامنا متسع من الوقت ، أمامنا متسع من الوقت ... هل تدخّن ؟ هل تملك ما ... اليك سيجارة (قال ذلك وهو يفتح علبة سجائره) .. انني استقبلك هنا ، ولكن شقتي هناك ، وراء هذا الحاجز . أنا أسكن على نفقة الدولة ، ولكنى أسكن مؤقتاً فى خارج الدائرة كما تعلم ... نعم ، ذلك أن هناك اصلاحات صغيرة وجب اجراؤها هنا ، وقد أوشكت الآن أن تنتهى . شىء عظيم أن يسكن المرء على نفقة الدولة ، هه ؟ شىء عظيم جداً . ما رأيك ؟ هه ؟

أجابه راسكولنيكوف وهو يلقى عليه نظرة تشبه أن تكون ساخرة:

ـ نعم ، شىء عظيم جداً !

فردّد بورفير بتروفتش هذه العبارة وكأنه أصبح يفكر فجأة فى شىء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف :

ـ شىء عظيم جداً ، شىء عظيم جداً ...

وأضاف بما يشبه أن يكون صراخاً ، وهو يحدّق الى راسكولنيكوف متوقفاً أمامه :

ـ نعم ، شىء عظيم جداً .

ان هذه الطريقة الحمقاء السخيفة فى ترداد هذه العبارة (أن السكنى على نفقة الدولة شىء عظيم جداً) تناقض بعض المناقضة ما كان قاضى التحقيق يرمى به راسكولنيكوف من نظرة جادة ، متأمّلة ، ملغزة. ولكن ذلك لم يزد على أن فاقم غضب راسكولنيكوف ، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فاذا هو يتحدى تحدياً فيه غير قليل من الطيش ، فيسأل بورفير بتروفتش فجأة ، وهو يلقى عليه نظرة تكاد تكون وقحة ، حتى لكأنه يجد فى وقاحته هذه لذة ومتعة :

ـ هل تعلم أن هناك ، فيما يقال ، قاعدةً قضائية ، أسلوباً قضائياً يمكن أن يستخدمه جميع قضاة التحقيق ، هو أن يتحدث أحدهم أولاً فى أمور تافهة سخيفة أو حتى فى أمور هامة لكنها غريبة عن الاستجواب كل الغرابة ، وذلك من أجل أن يطمئن الشخص الذى يستجوبه ، أو قل من أجل أن يسهّيه ، من أجل أن ينوّم انتباهه ، ثم اذا هو يهوى على رأسه فجأة بالسؤال الحاسم الخطير الرهيب ؟ أليس هذا

صحيحاً ؟ يظهر أن هذا الأسلوب قد طُبق حتى الآن تطبيقاً دقيقاً ، وروعى مراعاة تامة .

ـ اذن ، اذن ، أنت تظن أننى انما حدثتك عن المساكن التى تقدمها الدولة على نفقتها ، من أجل أن ... هه ؟

قال بورفير بتروفتش ذلك ، وغضّن جفنيه وطرف بعينه وبان فى وجهه تعبير عن مرح ومكر ، وامحت تجاعيد جبينه الدقيقة ، وتضيقت عيناه الصغيرتان ، وتمددت أخيراً قسماته، فحدّق الى عينى راسكولنيكوف وانفجر يضحك ضحكاً عصبياً طويلاً يهزّ جسمه كله . وأراد راسكولنيكوف أن يحمل نفسه على مجاراته فى الضحك ، فهمّ أن يضحك هو أيضاً ، ولكن بورفير بتروفتش حين رأى راسكولنيكوف يوشك أن يشاركه ضحكه ، انتابته نوبة مسعورة من ضحك بلغ من القوة أن وجهه احمر احمراراً شديداً ، فتغلب اشمئزاز راسكولنيكوف عندئذ على تعقله ، فأمسك عن الضحك، وقطب حاجبيه، ونظر الى بورفير بتروفتش طويلاً ، نظرة كارهة حاقدة ، وظل لا يحوّل عنه بصره الى أن انتهى بورفير من ضحكه المصطنع المفتعل . والحق أن الرجلين كليهما لم يلتزما جانب الحكمة والتبصر والتعقل : فأما بورفير فكان كمن يسخر من زائره صراحةً ، وأما راسكولنيكوف فقد استقبل ذلك الضحك بكره شديد ، وهو كره لم يظهر على القاضى أنه ضاق به أو انزعج منه على كل حال . وذلك أمر لفت انتباه راسكولنيكوف : لقد أدرك راسكولنيكوف أن بورفير لم يكن مرتبكاً أى ارتباك منذ قليل ، وأنه هو الذى وقع

فى الفخ ، وأن هناك أمراً يجهله ولا شك ، أمراً مبيّتاً مخبأً سينصب على رأسه بعد لحظة ...

لذلك انتقل الى الجد قُدُماً ، فنهض متناولاً قبعته ، وبدأ يتكلم فقال بلهجة جازمة غير أن فيها اهتياجاً قوياً :

ـ يا بورفير بتروفتش ، لقد أعربت أمس عن رغبتك فى أن ترانى من أجل أن تستجوبنى (أبرز راسكولنيكوف كلمة « تستجوبنى » هذه) ، وهأنا ذا قد جئت ، فان كنت فى حاجة الى أن تعرف شيئاً ما ، فاستجوبنى ، والا فاسمح لى أن أنصرف . ليس فى وقتى متسع . هناك أمور تنادينى ... يجب علىّ أن أحضر دفن ذلك الموظف الذى داسته الخيل أمس ...

وأضاف يقول :

ـ وقد سمعت أنت عن الحادثة التى وقعت له ...

ولكنه سرعان ما ندم على أنه أضاف هذه الجملة فازداد من ذلك غضبه ، وتابع كلامه فقال :

ـ لقد تعبت من هذا كله ، تعبت ، هل تفهم ؟ تعبت منذ زمن طويل ... ولعل ذلك أحد الأسباب التى جعلتنى مريضاً ...

وشعر مرةً أخرى بأن الجملة التى أضافها عن مرضه ليست فى محلها أيضاً ، فتابع يقول رافعاً صوته :

ـ الخلاصة ... استجوبنى من فضلك ... أو دعنى أنصرف فوراً . ولكن اذا استجوبتنى فيجب أن يتم الاستجواب وفقاً للأصول

المطلوبة والقواعد المتبعة ، وبغير ذلك لا أسمح لك به . لذلك أودّعك الآن فليس علينا أن نجتمع فى خلوة .

صاث بورفير بتروفتش يقول مغيّراً لهجته ووضعه على حين فجأة، منقطعاً عن الضحك دفعةً واحدة :

ـ عجيب ! ماذا جرى لك ؟

ثم أردف يقول :

ـ اطمئن ، أرجوك ...

وكان يذهب ويجيء مهموم البال. وفجأةً طلب الى راسكولنيكوف أن يجلس ، وقال له :

ـ لدينا متسع من الوقت ، لدينا متسع من الوقت ، وهذا كله لاقيمة له البتة . بالعكس : أنا مسرور جداً من أنك جئت الينا أخيراً ! اننى استقبلك كما يُستقبل ضيف . أما عن ذلك الضحك اللعين ، فاعذرنى يا عزيزى روديون رومانوفتش ... هذا هو اسمك ، أليس كذلك ؟ روديون رومانوفتش ... ان ملاحظتك المرهفة قد أثارت فى نفسى مرحاً شديداً ... حقاً انه ليتفق لى أحياناً أن أتواثب ككرة من المطاط طوال نصف ساعة . اننى سريع الى الضحك . حتى اننى أخشى أن أصاب بنوبة قلبية . ولكن لماذا لا تجلس ؟ هلاّ جلست ! أرجوك أن تجلس يا عزيزى ، والا اعتقدت أنك زعلان !

كان راسكولنيكوف صامتاً يصغى ويلاحظ ، وما يزال مقطّب الحاجبين من الغضب . وقد جلس ، لكنه ظل ممسكاً قبعته بيده .

وتابع بورفير بتروفتش كلامه وهو ما يزال يتجول فى الغرفة ، ويتحاشى نظرة ضيفه ، فقال :

ـ سأذكر لك شيئاً يا عزيزي روديون رومانوفتش ، لأعطيك فكرةً عن طبيعتي . أنا رجل ما أزال عازباً كما ترى ، فأنا اذن لا أعاشر الناس ولا أختلف الى المجتمع كثيراً ، وأنا اذن رجل غامض ، مجهول . وأنا عدا ذلك انسان مكتمل التكوين ، متعظّم الجسم ، متخدر الاحساس ، و ... و ... هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أنه عندنا ، أقصد عندنا في روسيا ، ولا سيما في أوساطنا البطرسبرجية ، ما ان يلتق شخصان ذكيان ـ مثلنا نحن ، أنا وأنت ، ان صح التعبير ـ حتى نرى هذين الشخصين عاجزين طوال نصف ساعة عن العثور على كلمة واحدة يقولها أحدهما للآخر ؟ ان كلاً منهما ينظر الى صاحبه ككلبين من خزف ، وان كلاً منهما يخشى صاحبه ويخاف منه . ان لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه ، السيدات مثلاً ... أو أفراد المجتمع الراقي .. أفراد الطبقة العليا ... نعم ، ان لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه ، « ذلك واجب لا مفرّ منه » * . ولكن أفراد الطبقة المتوسطة .. الأفراد الذين هم مثلنا ... يكونون دائماً مرتبكين صموتين ... أعني منهم أولئك الذين يفكّرون . فما سبب هذا يا عزيزي ؟ هل الاهتمامات الاجتماعية هي التي تعوزنا ، أم نحن أناس شرفاء جداً فلا يريد أحدنا أن يخدع صاحبه ؟ لا أدري ... فما رأيك أنت ؟ ولكن هلاّ تركت قبعتك ! لكأنك تريد أن تنصرف فوراً . هذا مؤسف . أما أنا فمسرور حقاً ...

ترك راسكولنيكوف قبعته ، ولكنه ظل صامتاً متجهم الوجه يصغي بجد ورصانة الى ثرثرات بورفير بتروفتش المفككة ، متسائلاً بينه وبين نفسه : « أيريد حقاً أن ينوّم انتباهي بهذا السيل المتدفق من اللغو التافه السخيف ؟ » .

وواصل بورفير بتروفتش كلامه يقول :

ــ لست أقدم لك قهوة ، فليس هذا بالمكان المناسب . ولكن لماذا لا تحب أن تجالس صديقاً طيباً مدة خمس دقائق ... لتسليه قليلاً .. هذا عدا واجبات الوظيفة كما تعلم ... وأرجوك خاصةً يا عزيزى أن لا تزعل اذا رأيتنى على هذه الحال أسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ... معذرةً يا عزيزى ... اننى أخشى كثيراً أن أزعلك ... ولكن لا بد لى من شىء من الرياضة ... اننى جالس دائماً .. ويسرنى كثيراً أن يتاح لى الآن أن أمشى قليلاً خلال خمس دقائق ... هى البواسير يا عزيزى ... وأنا أريد دائماً أن أعالجها بالتمارين الرياضية .. يقال ان رجالاً من مستشارى الدولة ، رجالاً من كبار موظفى الدولة ، يقفزون على الحبل كل يوم على نظام مطرد ، ويجدون فى ذلك لذة . نعم ، ان العلم هو الذى يطالب بهذا فى أيامنا ... أما التزاماتى هنا ، أما هذه الاستجوابات وهذه الشكليات كلها التى جئتَ على ذكرها ، فعليك أن تعلم حقاً يا عزيزى روديون رومانوفتش أن هذه الاستجوابات كثيراً ما تحيّر القاضى أكثر مما تحيّر المتهم ... كما ألمعتَ أنت الى ذلك بكثير من رهافة الملاحظة ونفاذ البصيرة (لم يكن راسكولنيكوف قد ألمع الى شىء من هذا البتة) . نعم ، ان المرء ليرتبك ، ان المرء ليرتبك حقاً ، وتختلط عليه الأمور . وهذا يتكرر هو نفسه دائماً ، يتكرر هو نفسه دائماً ، على وتيرة واحدة ، كقرع الطبل .. نغمة واحدة .. على أننا موعودون الآن باصلاحات ، فستتغير اسماؤنا * على الأقل . هىء هىء هىء !... أما عن أساليبنا القضائية ــ على حدّ تعبيرك الظريف الفكه ــ فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة . قل لى من فضلك : أىُّ متهم لا يعرف ، ولو كان أجهلَ فلاح ، أن المحقق انما يبدأ بمحاولة تنويمه (على حدّ تعبيرك المناسب الموفّق) ، بأن يلقى عليه أسئلة لا تمت الى الموضوع بصلة ، ثم يهوى على رأسه بالموضوع كأنه يهوى عليه بساطور ...

هيء هيء هيء ••• تعبيرك الموفق أيضاً ••• هيء هيء !••• اذن لقد ظننتَ فعلاً أنني حين حدثتك عن مسألة السكنى على نفقة الدولة انما كنت أريد ••• هيء هيء ! يا لك من فتى مليء بالسخرية ! لا ، لن أفعل شيئاً من هذا • آ ••• بالمناسبة ••• ان كلمة تستدعي كلمة أخرى ، وان فكرة تستحضر فكرة ثانية ••• لقد أشرتَ ، منذ قليل ، الى أصول الاستجواب وقواعده ، كما تتذكر ••• أشرتَ الى الشكل الذي يجب التقيد به في الاستجواب • ولكن قل لي :- ما هو الشكل ؟ ان الشكل ، في كثير من الأحيان ، لا يكون له أي معنى • ورب حديث ودي أنفع كثيراً من استجواب يتقيد فيه المحقق بالشكل ، ويلتزم فيه القواعد والأصول • طبعاً ••• لا يمكن أن يختفي الشكل اختفاء تاماً ، في وسعك أن تطمئن من هذه الناحية • ولكن ما الشكل في حقيقة الأمر ؟ ليس ينبغي للشكل أن يعرقل عمل قاضي التحقيق في كل لحظة • ان مهنة قاضي التحقيق فنٌّ حر ان صح التعبير ••• أو هي شيء يشبه أن يكون ••• هيء هيء !•••

توقف بورفير بتروفتش ليسترد أنفاسه • كان يتكلم متدفقاً كالسيل ، فتارةً يقذف عبارات جوفاء لا معنى لها دون كلل أو ملل ، وتارةً يدس كلمة صغيرة أشبه بلغز ، ليعود بعد ذلك فوراً الى هذره التافه ولغوه السخيف • وكأن كمن يركض في الغرفة ركضاً ، هازاً ساقيه القصيرتين السمينتين مزيداً من الهز ، واضعاً يده اليمنى وراء ظهره ، محركاً يده اليسرى باشارات تتناقض مع أقواله تناقضاً غريباً. ولاحظ راسكولنيكوف فجأة أنه قد توقف أثناء جريه السريع مرتين أو ثلاثاً أمام الباب ، وبدا عليه أنه يصيخ بسمعه لحظة. تساءل راسكولنيكوف: « أهو ينتظر شيئاً ؟ » •

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال مرحاً وهو يلقى نظرة فيها طيبة أرعشت الشاب وأثارت شكوكه وريبه :

ــ الواقع أنك على حق تماماً حين تسخر من اجراءاتنا القضائية... هيء هيء ... ان أساليبنا ــ بعضها لا كلها طبعاً ــ توهم بأنها مستوحاة من سيكولوجيا عميقة ، مع أنها فى حقيقة الأمر مضحكة تماماً ، بل هى فى كثير من الأحيان عقيمة ، ولا سيما عند التقيد بالشكل تقيداً دقيقاً . ولكن ... فلنعد الى مسألة الشكل هذه نفسها : لنفرض أننى مكلف بالتحقيق فى قضية ، وأننى أعرف أو قل أعتقد اننى أعرف أن الجانى هو فلان أو فلان ... أنت تتهيأ لمهنة القضاء يا روديون رومانوفتش ، أليس كذلك ؟

ــ نعم ، كنت أدرس القانون .

ــ طيب ، هذا اذن مثال صغير يمكن أن يفيدك فى المستقبل ، ان صح التعبير . آ ... لا يذهبن بك الظن الى أننى أريد أن ألقنك دروساً أنت الذى تكتب مقالات عن الاجرام . لا ، فانما أنا أضرب لك هذا المثال من حيث هو واقعة . لنفرض أننى ظننت أن فلاناً أو فلاناً من الناس هو الجانى . فعلام أُقلق فلاناً أو فلاناً قبل اللحظة المناسبة ، حتى ولو ملكت أدلةً عليه ؟ صحيح أننى قد أضطر أن أعتقل فلاناً بأقصى سرعة ، ولكن فلاناً الآخر الذى ليس له ذلك الطبع نفسهُ ، قد أتركه يتجول فى المدينة ، هه ؟ أحسب أنك لا تفهم عنى تماماً ، لذلك سأعرض لك الأمر بمزيد من الوضوح . لنفرض أننى قبضت عليه قبل الأوان ، أفلست أمنحه بذلك نوعاً من عون نفسى ؟ هيء هيء ! أيضحكك هذا الكلام ؟ (ان راسكولنيكوف لم يخطر بباله قطُّ أن يضحك . كان جالساً ، كازاً شفتيه ، لا يحوّل عن عينى بورفير بتروفتش نظرته المتقدة الملتهبة) .

هذا هو الأمر رغم ذلك ، ولا سيما مع بعض الأفراد . نعم نعم ، الأفراد متنوعون تنوعاً كبيراً ، ولا بد من تنويع الأسلوب بتنوع هؤلاء الأفراد . قد تقول لى ان هناك اثباتات ... طيب : لنسلّم بأن هناك اثباتات ! ولكن الاثباتات يا عزيزى تكون فى أكثر الأحيان ذات حدّين ، وانا قاضى تحقيق ، فعندى اذن نواحى ضعف ، أعترف لك بذلك . أنا أتمنى أن يكون دليلى قاطعاً صارماً كاستدلال رياضى ، كبرهان رياضى . أنا فى حاجة الى برهان بديهى كقولك ان اثنين واثنين أربعة ، أو الى شىء يشبه أن يكون برهاناً رياضياً فى وضوحه وجلائه . فاذا اعتقلتُ الشخص قبل الأوان ، فانى مهما يكن اقتناعى قوياً بأنه هو الجانى ، أحرم نفسى بذلك من الوسائل التى ستحمله على الكشف عن نفسه كشفاً أتم . لماذا؟ لأننى أكون قد ألزمته بوضع معيَّن ان صح التعبير ، أى أكون قد حددته فطمأنته من الناحية النفسية ، فيفلت منى ويدخل فى قوقعته ، لعلمه بأنه اعتقل وانتهى الأمر . يقال ان الناس الأذكياء فى سيباستوبول ، بعد معركة ألما * رأساً ، قد خافوا كثيراً فى أول الأمر من أن يهاجمهم العدو فوراً وأن يستولى على سيباستوبول فى الحال . فلما رأوا أن العدو قد آثر القيام بحصار على الأصول ، فبدأ يحفر الخندق الأول ، سُرُّوا سروراً عظيماً واطمأنوا اطمئناناً كبيراً . فبذلك يطول الأمر شهرين أو أكثر ، لأن الانتهاء من حصار على الأصول لا بد له من وقت . ما بالك تضحك أيضاً ؟ أما تزال لا تصدقنى ؟ أنت على حق ، من وجهة نظرك ، على حـ .. ق ! هذه حالات خاصة ، وأنا أوافقك كل الموافقة . ان الحالة التى أعرضها لك الآن حالة خاصة تماماً . ولكن يجب علينا يا عزيزى روديون رومانوفتش أن تعلم حق العلم أن الحالة العامة التى تلائمها جميع الأصول القضائية وجميع الأنظمة ، والتى على أساسها تُحسب هذه الأنظمة وتُسجَّل فى الكتب ، لا وجود لها ، وذلك لسبب بسيط هو

أن كل فعل (ولنفرض أنه جريمة) سرعان ما يتحول الى حالة خاصة ، بل الى حالة خاصة جداً لا تشبه فى شىء أىّ فعل آخر • وفى بعض الأحيان تعرض حالات غريبة مضحكة فى نوعها • ففى تلك الحالات أدع الشخص وحيداً ، لا أزعجه ، لا أعتقله ، ولكنه اذا علم أننى فى كل ساعة ، بل فى كل دقيقة ، أعرف كل شىء ، وأننى أراقبه ولا تغمض عينى عنه ؛ اذا أصبح فريسة ارتياب مستمر وخوف متصل ، فيميناً ليأخذنّه عندئذ دوار ، وليأتينّ من تلقاء نفسه • وقد يحدث أيضاً أن ينساق الى اقتراف شىء لا يقل وضوحاً عن كون اثنين واثنين أربعة ، شىء يمكن أن يوصف بأنه ذو طابع رياضى • وتلك هى المتعة واللذة فى الأمر • يمكن أن يحدث هذا لفلاح بسيط ، ويمكن أن يحدث لرجل من أشباهنا ، لرجل ذكى عصرى مثقف • ذلك أنه أمر هام جداً يا عزيزى أن نعرف الاتجاه الذى تطور فيه شخص من الأشخاص • ثم ان هناك الأعصاب ، الأعصاب ، أتراك نسيت الأعصاب ؟ الأعصاب هى الضعيفة الآن ، هى المريضة ، هى المستثارة • وما قولك فى الاهتياج ؟ ان اهتياجاً كثيراً قد تجمع وتراكم فى الناس ! وأؤكد لك أن هذا بعينه مصدر للمعلومات لا ينضب ! فهل يضيرنى اذن أن أترك الرجل يتجول فى المدينة حراً طليقاً ؟ ألا فليستمر على التجول • اننى لا أعترض على هذا أى اعتراض • فأنا أعلم ، مهما يحدث ، أنه «فريستى الصغيرة» ، وأنه لن يفلت منى ! الى أين عساه يهرب ؟ الى الخارج ؟ قد يهرب بولندى الى الخارج ، أما « هو » فانه لن يهرب ، لا سيما وأنه تحت بصرى وسمعى ، واننى اتخذت الاحتياطات اللازمة • أتراه يفر الى آخر البلاد ؟ ولكن فى آخر البلاد لا يعيش الا فلاحون ، لا يعيش الا روس حقيقيون ، أما هو الذى تثقف ثقافة حديثة ، فانه يؤثر السجن على أن يجاور أجانب كفلاحينا ••• هىء هىء ••• على أن هذا كله أماديح

على الهـامش . ما الهـرب ؟ أمر شـكلي صرف . ليس هذا هو الشيء الأساسي . فالرجل لن يهرب ، لا لأنه لن يعرف الى أين يذهب فحسب ، بل هو لن يهرب لأسباب «سيكولوجية» أيضاً .. هيء هيء .. تعبير موفق جداً ، هه ؟ لا ، لا ، انه لن يهرب ، وذلك بفعل قـانون طبيعي ، حتى ولو عرف الى أين يذهب ! أما رأيت فراشة تحوم حول شمعة ؟ ألا انه سيدور حولي دوران الفراشة حول الشمعة . ستأخذ تثقل عليه الحرية ، وسيأخذ يفكر ، وسيرتبك ؟ سيقع في شباك ينسجها هو نفسه ، سيخلق لنفسه خوفاً رهيباً . بل انه سيهيىء لي مهزلة رياضية يبدعها هو ، مهزلة من نوع « ٢ + ٢ = ٤ » ،شريطة أن أدع له فرصـةً بطبيعة الحـال . وسيظل ، بغير انقطاع ، يحوم حولي على دوائر ما تنفك تضيق ، ثم اذا هو يسـقط في فمي دفعةً واحـدة ، فأبلعـه ، وما ألذّ هذا ! هيء هيء ، ما رأيك ؟

لم يجب راسكولنيكوف . ظل جالساً ، شاحب الوجه ، جامداً ، ما ينفك يحدّق الى وجه بورفير بتروفتش بانتباه ثابت .

حدث نفسه يقـول متجمداً من الرعب : « هذا درس رائع ... ليست الحكاية اليوم حكاية الهرة تعبث بالفأرة كما كانت بالأمس . لا ، ليست قوته هي ما يريد اليوم أن يظهره لي في غير طائل ، أو أن يوحي اليّ به ... هو أذكى من أن يفعل ذلك . ان له الآن هدفاً آخر ، فماهو هذا الهدف ؟ دعك يا صاحبي ، غباءٌ ما تفعل ، سخافات ... أنت تحاول أن تخيفني ... أنت تمكر وتحتال ... ليس لديك أي دليل . ورجل الأمس لا وجود له . أنت تحـاول أن تربكني وأن تشـوشني وأن تثير أعصابي سلفاً حتى تهوى عليّ بالضربة المفاجئـة متى انهدت قواي ... ولكن خاب فألك ، ولسـوف تطيش ضربتك فما تصيب هـدفاً ، نعم ، سوف تطيش ضربتك ... ولكن ما باله يوحي اليّ بما يجب أن أعمله !

الى هذا الحد ، ليس الأمر طبيعياً !... أهو يعوّل على أعصابى المريضة ؟ لا ، لا يا صاحبى ، لقد أخطأ ظنك ، وعمى بصرك ... ومهما تكن قد أعددت من شيء ... طيب ، سنرى ماذا ما أعددت !... »

واستجمع راسكولنيكوف قواه كلها ، يستعد لمواجهة نازلة رهيبة مجهولة . ودّ فى بعض اللحظات لو ينقض على بورفير بتروفتش فيخنقه فى الحال . انه منذ دخوله قد خشى أن يشعر بمثل هذا الغضب . وهو يشعر الآن بأن فمه جاف ، وبأن قلبه يخفق خفقاناً شديداً ، وبأن الزبد يتقاطر على شفتيه. ومع ذلك قرر أن يصمت ، وأن لا يقول كلمة واحدة قبل أن يحين الحين . أدرك أن هذه هى الخطة المثلى فى ظرف كظرفه ، فهو بذلك يتجنب فضح نفسه بكلامه ، وهو بذلك أيضـاً يثير أعصـاب محدّثه بصمته ، فلعل محـدّثه هو الذى سيفضح نفسـه ويكشف عن نياته اذ يتكلم . ذلك ما كان يأمله راسكولنيكوف على الأقل .

اسـتأنف بورفير كلامه بمـزيد من المرح ، حتى لقد كان ينقنق تلذذاً ، فقال وهو ما يزال يدور فى الغرفة :

ـ لا ، أنت لا تصدقنى . أرى أنك لا تصدقنى . تظن أننى أمطرك بأمازيح صغيرة تافهة . وانك لعلى حق طبعاً . فان الله نفسه قد وهب لى مظهراً جسمياً لا يمكن أن يثير لدى الآخرين الا خواطر مضحكة . أنا مهرّج ! ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك ، بل أن أكرره على مسامعك ، يا عزيزى روديون رومانوفتش : يجب عليـك أن تعـذر الشيخ الذى يكلمك . أنت شاب ، أنت فى زهرة العمر ان صحّ التعبير ، وأنت لذلك تقدر الذكاء الانسانى قدراً كبيراً كسائر الشباب . ان حدة الفكر وحجج العقل المجردة تفتنك . أنت على وجه العمـوم تشـبه « المجلس الحربى الأعلى » * الذى كان بالنمسا فى الماضى ، هذا اذا صدق حكمى فى الشئون العسكرية : ان أعضاء هذا المجلس هم الذين سحقوا نابوليون وأسروه ،

فى خططهم التى وضعوها على الورق • نعم ، انهم فى مكاتبهم ، قد هيأوا كل شىء ، ورتبوا كل شىء ، بدقة كاملة ، ونظام رائع • ذلك ما فعلوه على الورق • أما فى الواقع فان قائدهم الجنرال ماك هو الذى استسلم مع جيشه كله ••• هىء هىء هىء ••• أننى أرى ، يا عزيزى روديون رومانوفتش أنك تسخر منى ، لأننى أنا المدنى أضرب أمثلة مستمدة من التاريخ الحربى • ولكن ما حيلتى ؟ هذه نقطة الضعف فىّ ، اننى أحب فن الحرب ، وأبلغ من حبه أننى أقرأ جميع ما يتصل بالحرب من قريب أو بعيد • لا شك أننى خطأت اختيار مهنتى فى هذه الحياة • كان علىّ أن أعمل فى الجيش • هذا حق • لو عملت فى الجيش ، فلعلنى لا أصبح قائداً عظيماً مثل نابوليون ، ولكننى أصبح « ميجر » ناجحاً ••• هىء هىء هىء ••• الخلاصة ••• ما دمت الآن بسبيل أن أقول لك الحقيقة عن هذه « الحالة الخاصة » ، فان الواقع والطبيعة ، يا سيدى العزيز ، هما من الأمور الهامة جداً • نعم ، صدّق شيخاً مثلى • اننى أتكلم جاداً لا هازلاً يا روديون رومانوفتش (حين قال بورفير بتروفتش هذا الكلام ، فانه وهو الذى لا يكاد يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، قد غدا أشبه بشيخ فعلاً ؟ حتى ان صوته تغير ، وظهره تحدب) • ثم اننى رجل صريح • ألست رجلاً صريحاً ؟ ما رأيك ؟ أظن أن هذا واضح • الخلاصة : أنا أقول لك هذا كله مجاناً ، لا أطلب جزاء ولا شكوراً • فلأكمل كلامى : أن يكون المرء ذكياً فتلك ميزة لامعة فى رأيى • ان الفكر زينة الطبيعة ان صح التعبير ، وهو عزاء الحياة • وما أكثر ما يستطيع الرجل الذكى أن يعمد اليه من حيل • فكيف تريد لقاضى تحقيق مسكين أن لا يتوه وأن لا يضل فى شعاب هذه الحيل ، ولا سيما اذا كان خياله نفسه يضلله لأنه انسان كسائر البشر ؟ ولكن الطبيعة نفسها تهب الى نجدة قاضى التحقيق المسكين،

فتخرجه من الارتباك وتنقذه من المأزق . وذلك هو البلاء ، وذلك هو ما ينساه شبابنا « الذكى » الذى « يتخطى جميع الحواجز » (على حد التعبير الذى استعملته أنت بالأمس فى كثير من الرهافة والمكر) . قد يعمد صاحبنا الى الكذب ـ أنا أتكلم طبعاً عن شخص من الأشخاص دون تعيين ، عن « حالة خاصة » ، عن رجل مجهول ـ وقد يكذب كذباً فيه غاية البراعة والمكر . وقد يظن عندئذ أنه سينتصر ، أنه سيقطف ثمرات مكره ، ولكن هاهو ذا يغمى عليه فجأة فى اللحظة الحرجة الخطرة ! لنسلّم بأن علينا أن نحسب حساب مرضه . فكثيراً ما يشعر المرء باختناق حين يوجد فى غرفة فاسدة الهـواء . ولكن صاحبنا يكون مع ذلك قد قدّم الينا قرينة من القـرائن . صحيح أنه ذرّ الرماد فى العيـون بكثير من الحذق والبراعة ، ولكنه لم يحسب حساب الطبيعة الى درجة كافية وذلك هو الفخ ! وفى مرة أخـرى ينسـاق مع ذكائه المتوقد ، فيأخـذ يعبث بالشخص الذى يشتبه فيه ؟ فيُشحب لونه عمـداً كأنما ليتسـلى ، ولكن شحوبه لا يخلو عنـدئذ من عنصر طبيعى فكأنه شحوب حقيقى ، وهذه قرينة أخرى يقدمها . وهبه استطاع أن يخدع محدثه فى تلك اللحظة ، فان محدثه لا بد أن يرجع عن خطئـه فى الليـل . نعم ، هكذا تجرى الأمور فى كل خطوة . ثم انه يبادر هو نفسه الى السبق ، فيأخذ يتدخل فى أمور لا يسـأله أحد عنها ، ويثرثر دون انقطاع فيما كان يحسن به أن يسكت عنه وأن لا يتكلم عليه ، ويسترسل فى تلميحات والماعات . نعم ... يجيء من تلقاء نفسه ويأخذ يطرح أسئلة : « لماذا لم يُعتقل حتى الآن ؟ » الخ . هيء هيء ... وهذا يمكن أن يقع حتى لأذكى رجل ، يمكن أن يقع لعالم نفسى ، يمكن أن يقع لأديب . ان الطبيعة مرآة ، ان الطبيعة أصفى مرآة ، فيكفى المرء أن ينظر فيها . نعم ، هذا هو الأمر .

ولكن ما بالك تصفر اصفراراً شديداً يا روديون رومانوفتش ؟ هل ينقصك هواء ؟ أأفتح النافذة ؟

هتف راسكولنيكوف يقول :

ــ لا ، لا تزعج نفسك !

ثم انفجر يضحك وهو يكرر قوله :

ــ أرجوك ، لا تزعج نفسك !

وقف بورفير أمامه ، وانتظر قليلاً ، ثم انطلق يضحك هو نفسه ضحكاً مجلجلاً . فنهض راسكولنيكوف قاطعاً ضحكه الهستري فجأة ، وقال بصوت قوى متميز ، رغم أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه المصطكتين :

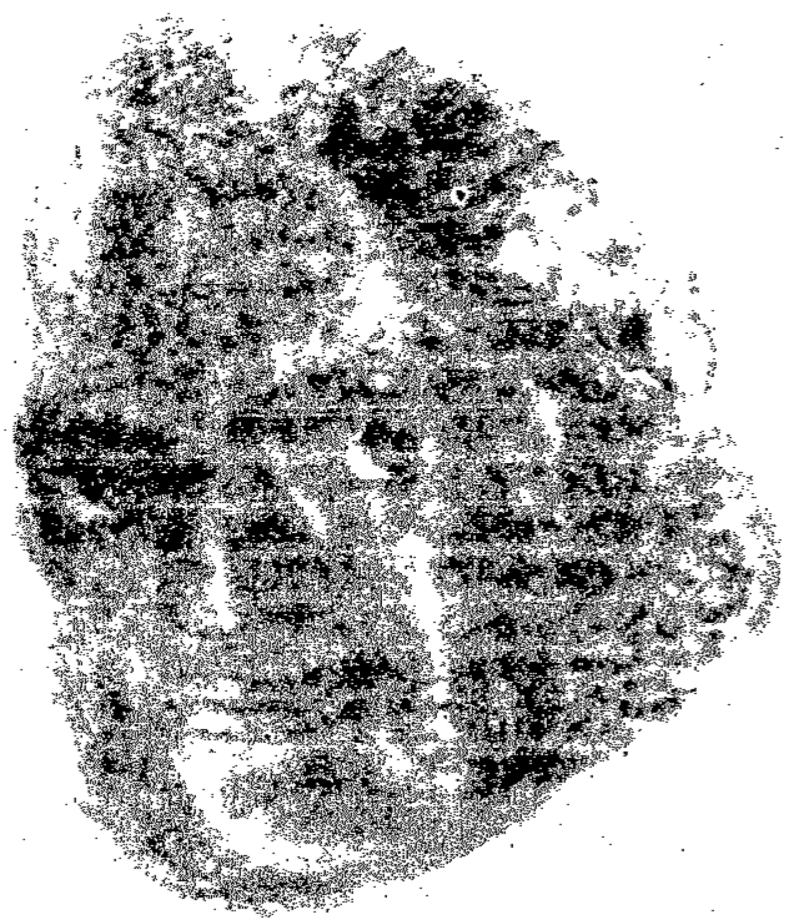
ــ يا بورفير بتروفتش ، انني أرى أخيراً بوضوح أنك تشتبه فيّ وتنسب اليّ مقتل العجوز واختها اليزابث . واني لأعترف لك من جهتي بأنني قد سئمت هذا الأمر وضقت به منذ مدة طويلة . فان كنت تعتقد أن من واجبك أن تلاحقني ملاحقة قانونية فلاحقني ، وان كنت تعتقد أن من واجبك أن تعتقلني فاعتقلني ، ولكنني لا أسمح لأحد أبداً بأن يضحك عليّ وأن يعذبني هذا التعذيب .

وأخذت شفتاه ترتجفان ، وسطعت عيناه غضباً ، ودوّى صوته دوياً قوياً بعد أن كان حتى ذلك الحين مكظوماً . قال يصرخ بكل قواه ، وهو يضرب المكتب بقبضة يده :

ــ لا ، لن أسمح بهذا أبداً ، هل تسمع يا بورفير بتروفتش ؟ لن أسمح بهذا أبداً !

فصاح بورفير بتروفتش يقول مرتاع الهيئة :

ــ آه .. يا رب !.. ماذا هنالك ؟ عزيزى روديون رومانوفتش ، صديقى ، ماذا أصابك ؟



قاضي التحقيق ، بورفير بتروفتش

بريشة الفنانة السوفياتية ألكسندرا كورساكوفا

فصرخ راسكولنيكوف يردّد مرة اخرى قوله :

ـ لن أسمح بهذا أبداً !

فدمدم بورفير بتروفتش يقول بارتياع ويكاد يلصق وجهه بوجه راسكولنيكوف :

ـ طيب ، طيب ، اخفض صوتك ! والا قد يسمعون فيجيئون ، فما عسى نقول لهم اذا جاءوا ؟ هلاّ فكرت في هذا !

فكان راسكولنيكوف يردّد بطريقة آلية وقد أخذ يهمس هو أيضاً :

ـ لن أسمح بهذا أبداً ، لن اسمح بهذا أبداً !

فاستدار بورفير وهرع الى النافذة يفتحها بسرعة شديدة ، قائلاً :

ـ ليدخل شيء من هواء . وأنت تحسن صنعاً يا عزيزي اذا شربت قليلاً من الماء ، فهذه نوبة ...

وأسرع نحو الباب يريد أن يطلب الماء ، غير أن ابريقاً ملآن كان يوجد هنالك في ركن من أركان الغرفة ، فدمدم يقول وهو يركض نحو الابريق :

ـ اشرب يا صديقي العزيز ، فعسى أن يحسن اليك شرب قليل من الماء .

دُهش راسكولنيكوف أشد الدهشة من هذا الذعر بل ومن هذا العطف اللذين أظهرهما له بورفير بتروفتش ، فوقف فاغر الفم يلاحظ صاحبه باستطلاع شديد . ولكنه رفض الماء .

قال بورفير بتروفتش :

ـ روديون رومانوفتش ، عزيزي ! لسوف تفقد صوابك ان أنت أصررت هذا الاصرار ، أؤكد لك ... خذ ... اشرب ... اشرب ولو جرعةً واحدة .

واستطاع أن يحمله على تناول الكأس . وأوشك راسكولنيكوف أن يحمل الكأس الى شفتيه بطريقة آلية ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه فجأة ، فعاد يضع الكأس على المائدة باشمئزاز .

قال بورفير بتروفتش وهو يظهر كثيراً من الملاطفة والمراعاة ، ولكنه ما يزال محتفظاً بالقلق والاضطراب :

ـ نعم ، هذه نوبة حقاً ! ... هأنت ذا قد عدت الى مرضك القديم. رباه ! هل يمكن أن لا يدارى المرء نفسه الى هذا الحد ؟ لقد جاءنى دمترى بروكوفتش أيضاً ، أمس ... أنا أوافق ... أوافق على أن لى طبعاً سيئاً ... أتكلم ... وأتكلم ... وهذه هى النتائج التى تستخرجانها من كلامى !.. رباه ! نعم ، جاءنى أمس ، مساءً ، بعدك ، وتعشينا ، وتكلم ، وتكلم ، فلم أفعل الا أن أرفع ذراعى الى السماء ! بالمناسبة ، يخطر ببالى الآن هذا السؤال : أتراك أنت أرسلته ؟ ولكن اجلس يا عزيزى ! هلاّ جلست ! اجلس ، ناشدتك الله !...

أجاب راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

ـ لا ، لم أرسله أنا ... ولكنى علمت أنه جاء اليك ، وكنت أعرف سبب مجيئه أيضاً ...

ـ كنت تعرف سبب مجيئه ؟

ـ نعم ، كنت أعرف سبب مجيئه ، فماذا تستنتج من ذلك ؟

ـ يا عزيزى روديون رومانوفتش ، هل تظن أننى أجهل أى عمل من أعمالك ؟ اننى أعرف كل شىء ، اننى مطلع على كل شىء ! أنا أعرف مثلاً أنك ذهبت « تستأجر تلك الشقة » عند هبوط الليل ، وأنك شددت حبل الجرس ، وأنك ألقيت أسئلةً عن الدم ، وأنك حيّرت العمال

والبوابين . انني أفهم حق الفهم الحالة النفسية التي كنت عليها . ولكنني أؤكد لك أنك بهذه الطريقة ستفقد عقلك حتماً ، أحلف لك !.. سوف يستولي عليك الدوار . ان الغضب الذي أثارته فيك الاساءات ، اساءات القدر أولاً واساءات رجال الشرطة بعد ذلك ، ان هذا الغضب ، مهما يكن غضباً نبيلاً ، يغلي غلياناً شديداً في نفسك ، وأنت لذلك تمضي الى هنا وهناك ، لتجبر الناس ، ان صح التعبير ، على أن يصغوا اليك ، ولتحملهم على الانتهاء من هذه المسألة دفعةً واحدة الى الأبد . نعم ، لأنك قد ضقت بجميع هذه السخافات ، وسئمت جميع هذه الشبهات . أليس هذا صحيحاً ؟ ألم أدرك حالتك النفسية ؟... ولكنني أقول لك انك بهذه الطريقة لن تفقد عقلك أنت وحدك ، وانما ستجعل صديقنا رازوميخين يفقد عقله أيضاً . انه « أطيب » كثيراً من أن يُقحم في مثل هذه الأمور ، وأنت تعلم ذلك حق العلم . انك أنت مريض ، أما هو فانسان طيب ، وسيلتصق مرضك به ... سأقص عليك هذا حين تهدأ يا عزيزي ... ولكن ما بالك لا تجلس ؟ اجلس يا عزيزي ناشدتك الله ! ارجوك ، استرح ، ان وجهك منقلب ... هلاَّ جلست !...

جلس راسكولنيكوف . لقد انقطع ارتجافه ، ولكن جسمه كله كان يحترق من الحمى . وكان يصغي الى بورفير بتروفتش الذي يتحرك حوله بكثير من المودة والصداقة ، كان يصغي اليه بدهشة ذاهلة وانتباه شديد . ولكنه كان لا يصدّق كلمة واحدة مما كان يقوله قاضي التحقيق ، رغم أنه كان يميل ميلاً غريباً الى التصديق . ان الأقوال المفاجئة ، غير المتوقعة ، التي قالها بورفير عن الشقة قد صعقته صعقاً : « كيف ؟ أهو يعرف حتى حكاية الشقة هذه ؟ ويتحدث عنها هو نفسه ؟ » .

تابع بورفير كلامه فقال بسرعة :

ـ نعم ، فى حولياتنا القضائية حالة تشبه هذه الحالة تقريباً ، حالة سيكولوجية مرضية ، كالحالة الراهنة . اتهم رجل نفسه بارتكاب جريمة قتل . يا لها من قصة ! لقد اخترع عالماً بكامله من الأوهام ، وقدّم وقائع ، ووصف ظروفاً شابك بعضها ببعض ! لماذا ؟ لأنه ، على غير ارادة منه اطلاقاً ، كان مسئولاً بعض المسئولية عن جريمة القتل تلك ـ بعض المسئولية فقط ـ فلما عرف أنه قد أمدّ الفاعلين بسبب دفعهم الى ارتكاب جريمة القتل ، استولى عليه قلق شديد وخوف رهيب ، وأخذ يرتكب حماقات ، وأخذت تتراءى له أخيلة وأوهام ، واختلطت فى عقله الأمور ، واستطاع أن يقنع نفسه بأنه هو القاتل . ولكن محكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً ، فبُرِّىء المسكين ، وجعل تحت الوصاية . شكراً لمحكمة النقض ! آ ... آ ... طبعاً يا عزيزى ... من الممكن جداً أن يصاب المرء بحمى حارة حين تكون أعصابه جانحة الى الاهتياج هذا الجنوح ، وحين يذهب فى الليل يشد أجراساً بل ويسأل عن آثار دماء ... ان هذه السيكولوجيا قد تعلمتها من الممارسة العملية . حتى لقد يحدث لانسان فى مثل هذه الحالات أن يرغب فى القاء نفسه من النافذة أو من برج ناقوس . هذا احساس له اغراء شديد . هو المرض يا روديون رومانوفتش ، هو المرض ! أنت قد أسرفت فى اهمال معالجة مرضك ! كان عليك أن تستشير طبيباً خبيراً ، لا صاحبك السمين البسيط ذاك ! هو الهذيان يا صاحبى ! كل شىء مردّه عندك الى الهذيان !

أخذت الغرفة كلها تدور أمام عينى راسكولنيكوف ، لحظة .

« هل يمكن أن يظل يكذب حتى الآن ؟ مستحيل ، مستحيل ، ومع ذلك ... » . ان هذه الفكرة الأخيرة قد روّعت راسكولنيكوف ، وكان يحس مدى ما تدفعه اليه من حنق مسعور ، وكان يحس أيضاً أن هذا الغضب يمكن أن يفقده عقله .

صاح يقول وهو يركّز جميع قوى عقله من أجل أن ينفذ الى لعبة بورفير :

ــ أنا لم أكن أهذى ! كنت أملك نفسى تماماً ، أملك نفسى تماماً ، أملك نفسى تماماً ، هل تسمع ؟

ــ نعم ، أسمع وأفهم . أمس أيضاً قلتَ انك لم تكن تهذى ، حتى لقد ألححت على هـذه النقطة . كل ما يمكن أن تقـوله ، أنا أفهمه . هىء هىء !... ولكن اصغ الىّ قليلاً يا عزيزى الشـهم ، يا عزيزى الطيب روديون روماتوفتش . هبنا سلّمنا بهذا ... لو كنت أنت الجانى حقاً ، لو كنت أنت الجانى فعلاً ، أو لو كان لك أى شأن فى هذه القضية المشئومة ، أكنت تلح هذا الالحاح على أنك لم تكن تهذى ، وعلى أنك فعلت ما فعلت واعيـاً كل الوعى ؟ أهـذا ممكن ؟ فى رأيى أنك كنت ستعمد عندئذ الى نقيض ذلك تماماً ! لو كنت تشعر بأنك الجانى ، أفما يكون الأفضل عندئذ أن تلحّ ، خلافاً لذلك ، على أنك انما فعلت مافعلت وأنت فى حالة هذيان ؟ أليس كذلك ؟

كان فى هذا السؤال مكر . ارتد راسكولنيكوف الى الوراء مستنداً الى ظهـر الأريكـة ؛ ومال بورفير بتروفتش نحـوه صـامتاً ، فأخـذ راسكولنيكوف يحدّق اليه مدهوشاً متحيراً .

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال :

ــ كلمة أخرى عن السيد رازوميخين ، أقصد عن مسألة كونه أتى الىّ من تلقاء نفسه أو بتحريض منك . لقد كان من الأفضل لك أن تقول انه جاء من تلقاء نفسه وأن تنكر أن يكون قد جاء بتحريض منك ، ومع ذلك أراك تلح على أن تذكر أنه جاء الىّ بتحريض منك .

لم يكن راسكولنيكوف قد ألحّ على هذا فى وقت من الأوقات .

وشعر بقشعريرة تسرى فى ظهره • ثم قال بصوت ضعيف بطىء وقد تقبضت شفتاه على ابتسامة أليمة :

ـ ما تزال تكذب •

ثم أضاف يقول شاعراً هو نفسه بأنه أصبح لا يزن كلمـاته كما يجب أن يزنها :

ـ أنت تريد أن تبيّن لى من جديد أنك ترى مكرى رؤية واضحة، وأنك تعرف كل أجوبتى سـلفاً • أنت تحـاول أن تخيفنى ، أو أنت تسخر منى لا أكثر •

وفيما كان يقول له هذا الكلام ، ظل يحدّق اليه ، ثم اذا بعداوة لا حدود لها تسطع فى عينيه ، فهتف يقول :

ـ أنت لا تفعل شيئاً غير أن تكذب • انك تعلم حق العلم أن خير خطة يتبعها مجرم هو أن يذكر بعض الحقائق فى حدود الامكان ، وأن لا يخفى ما لا حاجة الى اخفائه • أنا لا أصدّقك !

قال بورفير ضاحكاً ساخراً :

ـ ما أحذقك ! ان المرء لا يعرف حقـاً من أى طرف يمسكك • هذه اذن فكرة ثابتة عندك ! أنت اذن لا تصدقنى ؟ ولكننى أؤكد لك أنك تصدقنى ، وأنك صدّقتنى حتى الآن بعض التصديق ، وسأفعل مايجعلك تصدقنى تصديقاً كاملاً ، لأننى أحس نحوك بعاطفة صادقة حقاً ، ولأننى أتمنى لك الخير مخلصاً •

أخذت شفتا راسكولنيكوف ترتجفان •

وتابع بورفير بتروفتش كلامه يقول وهو يمسك ذراع راسكولنيكوف امساكاً رفيقاً ، بمودة وصداقة ، فوق الكوع قليلاً :

ـ نعم ، أتمنى لك الخير ، ثق بهذا ... وأقول لك مرةً أخيرة ان عليك أن تعتنى بصحتك . من أجلك انما جاءت أسرتك ، فكّر فى هذا ولا تنسه ! يجب عليك أن تهدىء روع أهلك ، وأن تظهر لهم عاطفة ومحبة ، ولكنك لا تزيد الآن على أن تروّعهم ...

ـ ما شأنك أنت وهذا ؟ ثم من أين علمته ؟ وفيم يهمك ويعنيك ؟ أنت اذن تراقبنى ، وأنت تحرص على أن أعرف هذا !

ـ اسمع يا عزيزى ، أنا انما حصلت على هذه المعلومات كلها منك أنت ، منك أنت ! ألست تلاحظ اذن أنك من شدة ثورة أعصابك أول من يقصُّ كل شىء ، علىَّ وعلى الآخرين ؟ ولقد عرفت أيضاً ، فى مساء أمس ، تفاصيل شائقة جداً ، من السيد رازوميخين ، دمترى بروكوفتش رازوميخين . لقد قاطعتنى الآن ، ولكننى أقول لك انك رغم رهافة فكرك قد أفقدك شكك وحذرك القدرة على ادراك الأشياء ادراكاً سليماً . انظر مثلاً فى مسألة الجرس تلك التى أتينا على ذكرها منذ قليل ، والتى هى واقعة هامة جداً ، ثمينة جداً (هى كذلك بلا جدال) : طيب ، لقد أطلعتك بنفسى على هذه الواقعة ، أفلا تستخرج أنت من هذا شيئاً ؟ هل كنت أفعل ذلك لو كنت أرتاب فيك أى ارتياب ؟ بالعكس ، فلو كنت أرتاب فيك حقاً ، لكان علىَّ أن أنوّم مخاوفك ، وأن لا أدعك ترى أننى على علم بهذه الواقعة ، وأن أوجّهك فى اتجاه آخر تماماً ثم أهوى عليك بها فجأة كأنها ضربة مطرقة (على حد تعبيرك) . لو كنت أرتاب فيك أقل ارتياب لأخذت ألقى عليك أسئلة كهذه الأسئلة : « قل لى أيها السيد : ما الذى ذهب بك الى شقة المجنى عليها ، فى الساعة العاشرة من المساء ، بل فى الساعة الحادية عشرة تقريباً ؟ لماذا شددت حبل الجرس ؟ ولماذا ألقيت أسئلةً عن الدم ؟ لماذا حاولت بعد ذلك أن تحيّر البوابين ، وأردت أن تقاد الى قسم الشرطة ؟ » كان ينبغى لى ، وفقاً للأصول المتبعة ،

أن انتزع منك افادة ، ثم أن أفتش منزلك ، وربما أن أعتقلك . ولكننى فعلت خلاف ذلك تماماً . واذن فانا لا أشتبه فيك أى اشتباه . حقاً لقد فقدتَ القدرة على ادراك الأشياء ادراكاً سليماً ، فأنت لا ترى شيئاً ... أكرر لك هذا !...

ارتجف راسكولنيكوف من قمة الرأس الى أخمص القدمين ، وبلغ من قوة الارتجاف أن بورفير بتروفتش قد اضطر أن يلاحظ ذلك .

وصاح راسكولنيكوف يقول بمزيد من القوة :

ـ أنت لا تفعل شيئاً غير أن تكذب . لست أفهم نياتك ، ولكنك تكذب ، تكذب . منذ قليل لم تكن تكلمنى بهذا المعنى . لا يمكن أن يخطئنى ظنى . أنت تكذب !

استأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال متحمساً ، على احتفاظه بهيئة المرح والسخرية ، دون أن يبدو عليه أى اكتراث بما قد يكون رأى راسكولنيكوف فيه :

ـ أنا أكذب ؟ أنا أكذب ؟ عجيب كلامك ! كيف تصرفت أنا معك منذ قليل ، أنا قاضى التحقيق ؟ لقد أوحيت اليك أنا نفسى بالوسائل التى تستطيع أن تدافع بها عن نفسك ؟ لقد عرضت عليك أنا نفسى تلك السيكولوجيا كلها : « المرض ، الهذيان ، عنت الاهانات ، الكآبة ، رجال الشرطة ... » ، الخ الخ . هىء هىء هىء ! ومع ذلك أسارع فأقول لك ان جميع حجج الدفاع السيكولوجية هذه ، وجميع أساليب التملص هذه ، وجميع هذه الأعذار والتعلات ليست قوية متينة ، حتى انها ذات حدين . فاذا أنت تعللت « بالمرض والهذيان » واذا أنت قلت « انك قد راودتك هلوسات ، وانك أصبحت لا تتذكر شيئاً » ، فان كلامك هذا كله يكون جميلاً ، ولكن المرء يستطيع أن يسألك عندئذ : لماذا تراودك هذه

الأحلام وهذه الهلوسات وحدها دون غيرها ؟ ذلك أن من الممكن أن تكون أحلامك وهلوسـاتك غير هذه تماماً ، أليس كذلك ؟ ما رأيك ؟ هيء هيء هيء !...

رشقه راسكولنيكوف بنظرة فيها كبرياء واحتقار . ثم قال بصوت قوى وهو ينهض فيصدم بورفير قليلاً :

ــ باختصـار يا بورفير بتروفتش : أريد أن أعرف أأنت تعـدنى مبـرأً من كل شـبهة أم لا ؟ تـكلم يا بورفير بتروفتش ، تكلم كلاماً واضحاً ، بسرعة ، حالاً !

هتف بورفير بتروفتش يقول بمرح وسخرية ودون أى ارتباك :

ــ حقـاً انك لمتعب !... ما حاجتك الى أن تعـرف هذا ، الى أن تعـرف هذا كله ، مع أن أحداً لم يبـدأ حتى فى أن يقلق راحتك أى اقلاق ؟ يا لك من طفل ! لسان حالك يقول : « أريد أن ألعب بالنار ! ». فلماذا ، لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب كله ؟ هلاّ شرحت لى الأسباب التى تدفعك الى أن تلقى علينا هذه الأسئلة كلها ؟ هه ؟

صاح راسكولنيكوف حانقاً :

ــ أكرر لك أننى أصبحت لا أطيق أن أحتمل ...

ــ أن تحتمل ماذا ؟ عدم اليقين ؟

كذلك قاطعه بورفير . فصرخ راسـكولنيكوف قائلاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده من جديد :

ــ كفى سخرية ! لا أستطيع ! هل تفهم ؟

ــ اخفض صوتك ، اخفض صوتك ، والا سمعوك ! اننى أنبهك الى هذا جاداً . حذار ! لست أمزح !

كذلك قال بورفير متمتماً ، ولكن تعبير وجهه قد اختلف الآن عما كان عليه منذ قليل ، حين كان أشبه بتعبير وجه امرأة مروّعة . بالعكس : هو الآن « يلقى أوامر » . انه قاسى الهيئة ، مقطب الحاجبين ، فكأنه عدل دفعةً واحدة عن جميع الأسرار وجميع الالماعات الملتبسة . ولكن ذلك لم يدم الا لحظة .

اضطرب راسكولنيكوف ، وأوشك أن ينـدفع فى نوبة غضب جديدة ، ولكن الشىء الغريب أنه خضع فى هذه المرة أيضاً للأمر الذى صدر اليه ، فخفض صوته .

وهمس يقول من جديد :

ـ لن أرضى بأن أُعذب هذا التعذيب ...

لقد أدرك ، وهو يشعر بألم يمازجه كره ، أنه لا يستطيع الا أن يخضع لهذا الأمر القاطع . ولكنه ازداد من ذلك غضباً وحنقاً . وأضاف يقول :

ـ اعتقلنى ! فتش بيتى ! ولكن اتبع الأصول والقواعد بدلاً من أن تعبث بى هذا العبث !... ليس من حقك أن ...

فقاطعه بورفير قائلاً وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرة نفسها ، مع تظاهره بالسرور من رؤية راسكولنيكوف :

ـ ما هذا الكلام يا عزيزى ؟ انا انما دعوتك بغير كلفة ، دعوتك كما يدعو صديق صديقه .

ـ لا أريد صداقتك ، لا أريدها ، أنا أبصق عليها ، هل تسمع ؟ انظر : هأنا ذا أتناول قبعتى وأنصرف . فما عساك تقول الآن اذا كان فى نيتك أن تعتقلنى ؟

وتناول راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب .

فقال بورفير مقهقهاً وهو يمسك ذراعه من جديد ، فوق الكوع قليلاً ، ويوقفه قرب الباب :

ـ ولكن ألا تريد أن أطلع عليك بمفاجأة صغيرة ؟

كان مرح بورفير يزداد ازدياداً واضحاً ، وكان مزاحه يظهر ظهوراً أقوى ، فانتهى ذلك الى اخراج راسكولنيكوف عن طوره . فقال وهو يتجمد في مكانه فجأة ، وينظر الى بورفير مذعوراً :

ـ أية مفاجأة صغيرة ؟ ماذا تعني ؟

ـ المفاجأة الصغيرة قابعة هناك ، وراء هذا الباب ، هيء هيء هيء ! حتى لقد أقفلت عليها بالمفتاح ، مخافة أن تهرب .

قال بورفير ذلك وهو يومىء بيده الى الباب المغلق في الحاجز ، الباب المفضي الى شقته .

فقال راسكولنيكوف وهو يقترب من الباب ويريد أن يفتحه :

ـ ماذا ؟ أين ؟

ولكن الباب كان مقفلاً بالمفتاح فعلاً .

قال بورفير :

ـ الباب مقفل . اليك المفتاح !

وناوله مفتاحاً أخرجه من جيبه .

زأر راسكولنيكوف يقول وقد أصبح لا يسيطر على نفسه :

ـ أنت تكذب ! أنت لا تفعل غير أن تكذب ! أنت تكذب أيها المهرج اللعين !

قال راسكولنيكوف ذلك وهجم على بورفير ، فتراجع بورفير نحو الباب ، ولكن دون أن يظهر عليه أى رعب • وقال :

ــ ولكن ، يا عـزيزى روديون رومانوفتش ، لست تسـتطيع أن تفضح نفسك أكثر مما تفضح نفسك بهذا • لقد خرجتَ عن طورك • لا تصرخ ، والا استدعيت رجالى !

ــ أنت تكذب ! لن يحدث شيء ! استدع رجالك ! لقد كنت تعلم أننى مريض ، فأردت أن تهيج أعصابى وترهقنى ارهاقاً يدفعنى الى أن أفضح نفسى ! تلك كانت غـايتك • لا ••• لا بد لك من وقائع ! أريد وقائع ! لقد فهمتُ الآن كل شيء • أنت لا تملك وقائع ، أنت لا تملك الا افتراضات تافهـة سخيفـة حقيرة ، هى افتراضات زاميوتوف ! كنتَ تعرف طبعى ، فأردتَ أن تخرجنى عن طورى لتفقدنى بعد ذلك صوابى بقســاوسـة ونواب ••• ألست تنتظرهم هم ؟ ماذا تنتظر ؟ أين هم ؟ ائت بهم !

ــ أى نواب تعنى يا عزيزى ؟ ما هذا الكلام العجيب ؟ يا لأفكارك هذه ما أغربها ! ليس فى وسـعى ، من باب « التقيد بالشـكل ومراعاة الأصول » ، على حد تعبيرك ، ليس فى وسعى أن ••• انك تجهل أصول الاجراءات القانونية يا عزيزى ! ولكنك سترى ••• سوف نتقيد بالشكل ونراعى الأصول •

بهذا جمجم بورفير ، وكان أثناء ذلك يصيخ بسمعه صوب الباب•

وفعلاً ، سُمعت فى تلك اللحظة ضجة فى الغرفة المجاورة •

هتف راسكولنيكوف يقول :

ــ آ ••• ها هم أولاء يجيئـون ! لقـد اســتدعيتَهم ، لقد كنت

تنتظرهم ، لقد كنت تعوّل عليهم ... طيب ... ائت بهم جميعاً الى هنا ... ائت بالنواب ، وبالشهود ، وبجميع من تشــاء ... ائت بهم ! أنا مستعد ، مستعد !

غير أن حادثاً غريباً قد وقع حينــذاك ، حادثاً يبلغ من البعــد عن التوقع والتنبؤ فى سياق الأمور أنه لا راسكولنيكوف ولا بورفير بتروفتش كان يمكن أن يتصور خاتمة كهذه الخاتمة .

الفصل السادس

كيف تصور راسكولنيكوف المشهد حين تذكره في المستقبل :

ان الضجة التى سُمعت من وراء الباب قد ازدادت بسرعة شديدة ، ثم شُقَّ الباب قليلاً .

فصاح بورفير بتروفتش يسأل غاضباً :

ـ ماذا هنالك ؟ ألم أنبهكم مع ذلك ؟

فلم يحصل على جواب ، ولكن كان واضحاً أن أشخاصاً كثيرين كانوا يقفون وراء الباب يحاولون أن يصدُّوا أحد الناس عن اقتحامه .

فسأل بورفير بتروفتش متوجساً :

ـ ماذا هنالك ؟

فأجابه أحد الأصوات قائلاً :

ـ جيء بالمعتقل نيقولا .

فصرخ بورفير قائلاً وهو يهرع نحو الباب :

ـ لا داعي الى ذلك ! اذهبوا ! يمكن الانتظار ! من الذى جاء به الى هنا ؟ ما هذه الفوضى ؟

فبدأ ذلك الصوت نفسه يتكلم فقال :

ــ ولكنه ...

غير أن الرجل لم يلبث أن انقطع عن الكلام فجأة .

ان صراعاً حقيقياً قد نشب فى ثانيتين ؟ وبدا أن أحداً من الناس كان يُصدّ بالقوة عن الدخول ، ثم اذا برجل شاحب الوجه جداً يقتحم غرفة بورفير بتروفتش .

ان مظهر هذا الرجل كان فى أول الأمر غريباً كل الغرابة . كان شاخصاً ببصره الى أمام ، ولكن لا يبدو عليه أنه يرى أحداً . وفى عينيه يسطع عزم وحشى ، ولكن شحوباً كشحوب الموتى يغشى وجهه فى الوقت نفسه ، كأنه قد اقتيد الى المقصلة . وشفتاه بيضاوان بياضاً تاماً ، وهما تختلجان قليلاً .

هو رجل ما يزال شاباً ، يرتدى ثياب عامل ، متوسط الطول ، نحيل الجسم ، قد قُصّ شعره على صورة صحن ، وقسمات وجهة دقيقة قاسية .

وكان يحتشد على الباب مستطلعون كثيرون ، وكان بعضهم يحاول أن يدخل .

ان هذا المشهد الذى وصفناه الآن لم يدم الا دقيقة واحدة .

قال بورفير بتروفتش مدمدماً من بين أسنانه ، منزعجاً أشد الانزعاج ، خارجاً عن طوره :

ــ اذهب ! لم يحن الحين بعد ! انتظر حتى أستدعيك ! لماذا أسرعتم فى المجىء به هذا الاسراع كله ؟

ولكن نيقولا جثا على ركبتيه . فهتف بورفير بتروفتش يقول مذهولاً :



نيقولا ، الدهان

بريشة الفنانة السوفياتية ألكسندرا كورساكوفا

ـ ماذا دهاك ؟

فقال نيقولا فجأة ، بصوت مختنق لكنه قوى :

ـ أنا الجانى ! هذه جريمتى ! أنا القاتل !

فخيم صمت مطبق خلال عشر ثوان ، حتى لكأن جميع الحضور قد جمدوا • وحتى الحارس سقطت يداه ، وتراجع نحو الباب تراجعاً آلياً ، ولبث هناك ساكناً لا يتحرك •

وهتف بورفير بتروفتش يسأل نيقولا بعد أن خرج من ذهوله القصير :

ـ ماذا هنالك ؟

فكرر نيقولا بعد صمت قصير :

ـ أنا ••• القاتل !

ـ كيف ؟ أنت ؟ من ذا قتلت ؟

ـ آليونا ايفانوفنا وأختها اليزابت ايفانوفنا • قتلتهما بضربات ساطور •••

وأضاف يقول فجأة :

ـ كنت قد فقدت عقلى •••

وصمت مرة أخرى ، وكان ما يزال راكعاً •

بدت علائم التفكير على بورفير بتروفتش بضع لحظات، ولكنه استرد نشاطه وحماسته فجأة ، فأومأ للحضور بحركة من يده أن اخرجوا • فأسرعوا يطيعون أمره ؛ وأُغلق الباب من جديد • وبعد ذلك ، نظر بورفير بتروفتش الى راسكولنيكوف الذى كان واقفاً فى ركن من الغرفة يتأمل نيقولا زائغ الهيئة • وهم أن يكلمه ، ولكنه أمسك فجأة ،

وتفرس فيه ، ثم أسرع ينتقل ببصره الى نيقولا ، ثم الى راسكولنيكوف ، ثم الى نيقولا مرةً أخرى .

لا يدري المرء ما هو ذلك الغضب الذى استبد ببورفير بتروفتش على حين فجأة ، فاذا هو يهجم على نيقولا فيقول له بلهجة تشبه أن يكون فيها كره :

ــ لماذا تجيء تقول لى منذ الآن انك كنت قد فقدت عقلك ؟ أنا لمَّا أسألك بعد أكنت قد فقدت عقلك أم لا ! قل : أأنت الذى قتلت ؟

قال نيقولا :

ــ نعم ، أنا الذى قتلت . أصرِّح بذلك .

ــ هيه ... وبماذا قتلت ؟

ــ بساطور كنت قد حملته .

ــ ألا انك لمتعجل حقاً . وحدك ؟

لم يفهم نيقولا السؤال .

ــ هل قتلتهما وحدك ؟

ــ نعم . ميتكا برىء . لم يشارك فى الجريمة أية مشاركة .

ــ لا تتعجل هذا التعجل كله فى الكلام عن ميتكا . هيه ... ولكن كيف فعلت ، كيف فعلت لتنزل السلَّم ؟ لقد رآكما البوابون كليكما .

أجاب نيقولا متعجلاً ، كأنه يريد أن يفرغ من الأمر بأقصى سرعة :

ــ انما ركضت عندئذ ... مع ميتكا ... دفعاً للشبهات .

هتف بورفير بتروفتش يقول :

ـ هذا هو الأمر ، هذا هو الأمر .

وجمجم يقول بينه وبين نفسه :

ـ انه يكرر ما لُقّن من كلام .

ولمح راسكولنيكوف فجأةً من جديد .

أغلب الظن أنه قد بلغ من شدة اهتمامه بنيقولا أنه كان قد نسي وجود راسكولنيكوف لحظة من الزمان . وها هو ذا قد تذكره الآن فجأة ، حتى لقد اضطرب .

قال لراسكولنيكوف وهو يرتمي نحوه :

ـ روديون رومانوفتش ، عزيزي ، معذرة . ليس في امكانك أن تبقى هنا ، أرجوك ... حقاً لم يبق لك هنا شأن ... وأنا نفسي ... يا للمفاجأة !.. أرجوك ...

قال له ذلك وهو يتناول ذراعه ، ويشير له الى الباب .

طبيعي أن راسكولنيكوف لم يكن قد أدرك بعدُ ماذا جرى ، ولكنه قد استرد ثقته . فقال يخاطب بورفير بتروفتش :

ـ لكأنك لم تكن تتوقع هذا .

فأجابه بورفير :

ـ ولا كنتَ تتوقعه أنت يا عزيزي ! انظر كيف ترتجف يدك !

ـ وأنت أيضاً ترتجف يا بورفير بتروفتش !

ـ نعم ، أنا أيضاً أرتجف ... لأنني لم أكن أتوقع هذا .

وكانا قد وصلا الى الباب. وكان بورفير ينتظر خروج راسكولنيكوف نافد الصبر .

قال راسكولنيكوف فجأة :

ـ وأين المفاجأة الصغيرة ؟ لماذا لم تطلع علىّ بها ؟

قال بورفير بتروفتش مقهقهاً :

ـ انه يتكلم ويتكلم وما تزال أسنانه تصطك ! هيه ! انك لا تخلو من سخرية . هيَّا ، الى اللقاء !

ـ أحسب أن من الأفضل أن تقول : « الوداع » !

فغمغم بورفير بتروفتش يقول متقبِّض الشفتين كأنه يبتسم :

ـ كل شيء مرهون بارادة الله ، كل شيء مرهون بارادة الله .

لاحظ راسكولنيكوف وهو يجتاز المكاتب أن أنظاراً كثيرة كانت تحدّق اليه . وفى حجرة المدخل أتيح له أن يرى فى وسط الجمهور بوابى « تلك » العمارة اللذين اقترح عليهما فى ذلك المساء أن يقتاداه الى قسم الشرطة . كانا واقفين ، وكأنهما ينتظران شيئاً ما . لكنه ما ان صار فى السلم حتى سمع وراءه صوت بورفير بتروفتش من جديد . فلما التفت رآه قد أدركه وهو يلهث لهاثاً قوياً .

ـ كلمة ، كلمة لا أكثر يا روديون رومانوفتش . فيما يتعلق بكل ما حدث ستجرى الأمور على مشيئة الله ، ولكن ما يزال علىّ ، من باب التقيد بالشكل ومراعاة الأصول ، أن ألقى عليك بعض الأسئلة . لهذا سنلتقى مرةً أخرى ، أليس كذلك ؟

قال بورفير بتروفتش ذلك ووقف أمامه مبتسماً . ثم أردف يقول مرةً أخرى :

ـ أليس كذلك ؟

فى وسع المرء أن يفترض أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما ، ولكن من الواضح أنه لم يستطع ذلك .

كان راسكولنيكوف قد اطمأن اطمئناناً تاماً ، وأصبح يشعر برغبة قوية فى التفاخر :

ـ وأنت أيضاً ، يا بورفير بتروفتش ، لا تؤاخذنى على ما بدر منى منذ قليل . لقد اندفعت بعض الاندفاع ...

فعاد بورفير بتروفتش يقول بلهجة يكاد يكون فيها فرح :

ـ لا قيمة لهذا ... لا قيمة لهذا ... أنا أيضاً سيء الطبع ... أعترف بذلك ، اعترف بذلك . ولكننا سنلتقى من جديد ، ان شاء الله. سنلتقى أكثر من مرة .

قال راسكولنيكوف :

ـ وسنتعارف تعارفاً نهائياً . أليس كذلك ؟

فقال بورفير بتروفتش مؤيداً :

ـ نعم ، سنتعارف تعارفاً نهائياً .

قال ذلك وهو ينظر الى راسكولنيكوف فى جد ورصانة ، رغم أنه يغمز بعينه . وأضاف يسأله :

ـ أأنت ذاهب الآن الى عشاء عيد ميلاد ؟

ـ بل الى عشاء جنازة .

ـ نعم نعم ، عشاء جنازة ! راع صحتك .. الصحة أهم شيء ، هه ؟

أجابه راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم :

ـ لا أدرى حقاً يا بورفير بتروفتش ما الذى يجب أن أتمناه لك.

ولكنه التفت فجأة ، فأضاف يقول وهو يقابل بورفير وجهاً لوجه :

ـ انني أتمنى لك نجاحاً كبيراً . ولكن ما أسخف وظيفتك !

وكان بورفير يهمُّ أن ينصرف ، ولكنه ما ان سمع هذا الكلام حتى سأل ناصباً أذنيه :

ـ وظيفتي سخيفة ؟ لماذا ؟

ـ دعك ... دعك !

لا شك في أنك عذَّبت هذا المسكين نيقولا عذاباً شديداً ، عذاباً سيكولوجياً ... على طريقتك ... الى أن اعترف . لا شك في أنك ظللت تحققه ليلاً نهاراً بقولك : « أنت القاتل ، أنت القاتل » . والآن وقد اعترف ستمضي تحققه بنغمة أخرى قائلاً له : « أنت تكذب . لست أنت القاتل . لا يمكن أن تكون أنت القاتل . لقد دُفعت الى التظاهر بأنك أنت القاتل ، ولكن ... » . فكيف لا تكون وظيفتك سخيفة والحالة هذه ؟

ـ هيء هيء هيء !.. اذن لقد لاحظتَ منذ قليل ما قلته أنا لنيقولا من أنه « يردِّد ما لُقن » ؟

ـ كيف لا ألاحظ ذلك ؟

ـ ها ... انك لحاضر الذهن حقاً ! انك تلاحظ كل شيء ! ان لك فكراً فكهاً حاداً ! لقد عرفت كيف تضرب على وتر السخرية. هيه ... يقال ان جوجول كان ، بين سائر الكتاب ، هو الذي يملك هذه الموهبة الى أقصى درجة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، جوجول .

ـ صحيح . هو جوجول . الى اللقاء !

عاد راسكولنيكوف الى بيته رأساً . وكان قد بلغ من شدة الارهاق والاعياء أنه ما كاد يصل حتى ارتمى على ديوانه ، فمكث عليه ربع ساعة لا لشيء الا ليستريح ويستجمع شتات أفكاره . لم يحاول حتى أن يعلل سلوك نيقولا . كان مذهولاً مشدوهاً . كان يرى في اعتراف نيقولا شيئاً يثير الدهشة ويبعث على الاستغراب ، شيئاً لا يستطيع على كل حال أن يدرك معناه وأن ينفذ الى كنهه . ولكن النتائج لم تلبث أن تبدت له واضحة جلية : ان كذب هذا الاعتراف لا بد أن يظهر ، ولا بد أن يعودوا اليه ويتشبثوا به من جديد . على أنه سيبقى حراً الى أن يحين ذلك الحين . فينبغي له حتماً أن يقوم بشيء ما ليضمن سلامته ، لأن الخطر متربص به فلا يمكن تفاديه !

لا يمكن تفاديه ؟ الى أي حد ؟ وأخذ الموقف يتضح . فحين تذكّر راسكولنيكوف ، « على وجه الاجمال » ، المشهد الذي جرى بينه وبين بورفير ، لم يستطع أن لا يرتجف خوفاً . صحيح أنه لا يعرف أهداف بورفير بعد ، ولا يستطيع أن يدرك جميع حساباته . ولكنه قد اكتشف جزءاً من لعبته ، وما من أحد يستطيع كما يستطيع راسكولنيكوف أن يفهم مدى الخطر المتربص به من « اللعبة » التي حاولها بورفير . لقد أوشك راسكولنيكوف أن يفضح نفسه فضحاً تاماً بأن يقدم لبورفير وقائع ثابتة . كان بورفير يعرف ما يتصف به راسكولنيكوف من اندفاع مرضي ، وقد نفذ الى حقيقة طبعه منذ أول نظرة ، فكان يسير بخطى واثقة مطمئنة ، وان يكن قد أسرف في التعجل بعض الاسراف . صحيح أن راسكولنيكوف قد تورّط في كلامه مع بورفير ، ولكنه لمّا يقدّم له « وقائع ثابتة » . فليس هناك حتى الآن الا ظنون وتخمينات . ولكن هل كان يرى الموقف على حقيقته ؟ ألم يكن مخطئاً البتة ؟ ما هي النتيجة المعينة المحدّدة التي كان بورفير يسعى اليها اليوم ؟ هل كان قد دبّر

شيئاً لهذا اليوم نفسه ؟ ما عسى يكون هذا الشيء على وجه الدقة ؟ أكان يتوقع شيئاً ما ؟ كيف كانا سيفترقان منذ قليل لولا أن نزلت ، بفضل نيقولا ، تلك النازلة التى لم تكن فى الحسبان ؟ كان بورفير قد اكتشف كل لعبته تقريباً • صحيح أنه قد أسرف فى التعجل بعض الاسراف ، ولكنه قد اكتشف لعبته على كل حال (أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف فى أقل تقدير) • ولو كان يملك معلومات أخرى لما قصَّر فى اظهارها والاستناد اليها • ثم ما هى تلك المفاجأة التى ألمع اليها ؟ أكانت هذه مزاحة ؟ وهل لهذه المزاحة من معنى أم هى ليست بذات معنى ؟ هل فى باطنها شيء يشبه أن يكون قرينة قاطعة أو واقعة ثابتة ؟ هل يرتبط هذا برجل الأمس ؟ وأين اختفى ذلك الرجل ؟ أين هو اليوم ؟ ذلك أنه اذا صدق أن بورفير يملك شيئاً اثباتياً ، فلا يمكن أن لا يكون هذا الشيء ذا علاقة برجل الأمس •

ظل راسكولنيكوف جالساً على سريره ، مائلاً الى أمام ، واضعاً كوعيه على ركبتيه ، دافناً وجهه فى يديه • وما يزال ارتعاش عصبى يهز جسمه كله • ونهض أخيراً ، فتناول قبعته ، ولبث يحلم خلال لحظة ، ثم اتجه نحو الباب •

ان نوعاً من احساس تنبؤى كان يقول له انه فى هذا اليوم على الأقل يستطيع أن يعد نفسه فى أمان • وشعر فجأة بشيء من فرح : أراد أن يذهب الى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة • كان قد فات أوان حضور الدفن طبعاً ، ولكنه يستطيع أن يصل الى المأدبة فى حينها ، فيرى هنالك صونيا فوراً •

توقف ، وفكَّر ، وظهرت على شفتيه ابتسامة مريضة • وقال يردد بينه وبين نفسه :

ـ اليوم ! اليوم ! فى هذا اليوم نفسه يجب ...

وفى اللحظة التى همَّ فيها أن يفتح الباب ، فُتح البـاب من تلقاء نفسه فجأة . ارتعش راسكولنيكوف ، وتراجع الى الوراء بوثبة . كان الباب ينفتح ببطء ورفق . وظهر شكل انسانى ، هو شكل الرجل الذى خرج بالأمس « من تحت الأرض » .

وقف الرجل على العتبـة ، ونظر الى راســكولنيكوف صامتاً ، ثم تقدم فى الغرفة خطوة . هو اليوم كما كان بالأمس حزين الوجه جداً ، وها هو ذا يزفر زفرة كبيرة بعد لحظة قصيرة . ليس يعوزه الا أن يُسند خده على راحة يده ، وأن يميل برأسه الى جانب حتى يشبه امرأة عجوزاً كل الشبه .

سأله راسكولنيكوف كالمجنون :

ـ ماذا تريد ؟

فلزم الرجل الصمت لحظةً أخـرى ، ثم انحنى أمامه فجـأة حتى كاد يلامس الأرض ، بل لقد لمس الأرض بيده اليمنى على كل حال .

صاح راسكولنيكوف يسأله :

ـ ماذا تفعل ؟

فقال الرجل بصوت خافت :

ـ أنا مذنب !

ـ ما ذنبك ؟

ـ أننى راودتنى أفكار شريرة خبيثة !

ونظر كل منهما الى الآخر . وتابع الرجل كلامه فقال :

ـ كنتُ منزعجاً . فلما جئتَ أنت فى ذلك اليوم ، ولعلك كنت

عندئذ فى حالة سكر ، فطلبت من البوابين أن يقتادوك الى قسم الشرطة، وألقيت أسئلة عن الدم ، آلمنى أن أرى أنهم لم يكترثوا بالأمر ، وعدوك سكران لا أكثر ، وبلغت من شدة الألم أننى أرقت فلم أستطع الى النوم سبيلاً . واذ حفظت عنوانك ، فقد جئت مساء أمس أسألك ...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً وقد بدأ يفهم ويدرك :

ـ من الذى جاء ؟

ـ أنا ، أنا الذى أسأت اليك .

ـ أأنت اذن من تلك العمارة ؟

ـ نعم ، ولقد كنت عند الباب الكبير مع الآخرين ، ألا تتذكر ؟ لى هنالك دكان صغيرة ، منذ زمن طويل . أنا أعمل فى اصلاح الفراء ، وأقوم بعملى فى بيتى . والأمر الذى آلمنى خاصة ...

تذكر راسكولنيكوف تذكراً واضحاً ، على حين فجأة ، كل المشهد الذى جرى أمس تحت الباب الكبير . فقال لنفسه : حقاً كان هنالك ، عدا البوابين ، أشخاص عدة بينهم نساء . وتذكر أيضاً أن صوتاً من الأصوات قد اقترح اقتياده الى قسم الشرطة . انه لم ير وجه الرجل الذى تكلم حينذاك ؟ ولو قد رآه لما كان فى وسعه أن يتعرفه على كل حال. ولكن راسكولنيكوف يتذكر أنه التفت نحو الرجل وأجابه .

هذا هو اذن تفسير ليلة الأمس تلك المروعة ! وأفظع ما فى الأمر أنه كاد يضيع نفسه فعلاً بسبب حادثة « تافهة » الى هذا الحد من التفاهة . ان هذا الرجل لا يستطيع اذن أن يروى شيئاً آخر غير ذهابه الى الشقة وسؤاله عن الدم . معنى هذا أن بورفير أيضاً لا يملك أى دليل قاطع ، لا يملك أية واقعة ثابتة ، عدا ذلك « الهذيان » ، عدا تلك « السيكولوجيا ذات الحدين » . هو لا يتصور اذن واقعة أخرى

(ولا يجب عليه أن يتصور ، لا يجب عليه ، لا يجب عليه) •• ما الذى كان يمكن أن يصنعوه به اذن ؟ كيف كان يمكن أن يربكوه وأن يورّطوه فى الاعتراف ولو اعتقلوه ؟ وينتج عن هذا اذن أن حادثة ذهابه الى الشقة لم يعلم بها بورفير بتروفتش الا منذ قليل ، وكان قبل ذلك يجهلها •

هتف راسكولنيكوف يسأل الرجل فجأة وقد ومضت فى ذهنه فكرة مباغتة :

ـ أأنت بنفسك قلت اليوم لبورفير ••• اننى ذهبت الى هناك ؟

ـ بورفير ؟

ـ نعم ، قاضى التحقيق •

ـ صحيح • قلت له ذلك • فلأن البوابين لم يذهبوا اليه فى ذلك اليوم ، ذهبتُ اليه أنا •

ـ اليوم ؟

ـ قبلك بدقيقة واحدة • وقد سمعت كل شىء ، كل شىء ، سمعت كيف كان يعذبك ؟

ـ أين ؟ كيف ؟ متى ؟

ـ منذ قليل ، هناك ، عنده ، وراء الحاجز • بقيت هنالك طول الوقت •

ـ كيف ؟ أأنت « المفاجأة الصغيرة » اذن ؟ ولكن كيف تمّ هذا ؟ قل !

بدأ الرجل يتكلم فقال :

ـ حين رأيت البوابين لا يريدون أن يطيعونى ، ويرفضون أن

يذهبوا الى قسم الشرطة بحجة أن الوقت متأخر ، وأن قاضى التحقيق سيؤاخذهم على أنهم لم يجيئوا اليه بسرعة أكبر ، تضايقت كثيراً ، وأرقت طول الليل ، وحصلت على معلوماتى • فلما حصلت عليها ، ذهبت الى قسم الشرطة فى هذا الصباح • فى المرة الأولى لم يكن القاضى هناك ، فرجعت بعد ساعة ، فلم أستقبل • وفى المرة الثالثة قبلونى • رويت للقاضى الأشياء كما وقعت ، فأخذ يركض فى الغرفة وهو يلطم صدره بقبضة يده ، ويقول : « ماذا تفعلون معى يا عصابةً من قطاع الطرق ؟ لو قد عرفت هذا لأرسلت جنوداً يجيئوننى به ! » • وبعد ذلك خرج راكضاً ، ونادى أحداً ، فأخذ يكلمه فى ركن • ثم عاد نحوى ، وأخذ يلقى علىّ أسئلة ويشتمنى • لا منى كثيراً • وقصصت أنا عليه كل شىء ، وذكرت له أيضاً أنك بالأمس لم تجرؤ أن تجيبنى ، وقلت له انك لم تعرفنى • عندئذ عاد يجرى فى الغرفة ويلطم صدره • كان يركض ركضاً ، وكان غاضباً ••• ومنذ ذكر له أنك أتيت ، قال لى : « أسرع ، اختبىء وراء الحاجز ، وابق هنالك بدون حراك ، مهما تسمع » • وحمل الىّ بنفسه كرسياً ، وأغلق علىّ الباب قائلاً : « قد استدعيك » • ولكن حين جىء بنيقولا ، صرفنى بعد أن صرفك فوراً• وقال لى: « سأستدعيك مرةً أخرى لأستجوبك » •

ـ وهل استجوب نيقولا أمامك ؟

ـ صرفنى بعد أن صرفك فوراً ، وأخذ يستجوب نيقولا •

توقف الرجل عن الكلام ، وانحنى مرةً أخرى ، ولامست احدى أصابعه الأرض مرةً أخرى ، وقال :

ـ اغفر لى وشايتى والاساءة التى ألحقتها بك •

فأجابه راسكولنيكوف :

ـ الله يغفر لك !

وبعـد أن نطق الرجل بذلك الكلام انحنى مرة ثالثـة ، ولكنه لم ينحن فى هذه المرة حتى الأرض ، بل حتى الحزام فقط ، ثم استدار على عقبيه ببطء وخرج من الغرفة •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « كل شيء ذو حدين ، كل شيء هو الآن ذو حدين » • ثم غادر الغرفة هو أيضاً ، وقد أصبح واثقاً بنفسه أكثر من أى وقت مضى •

قال وهو يهبط السـلم ويبتسم ابتسـامة سـاخرة : « الآن سنتابع الصراع » • وكانت الابتسامة الساخرة موجهة ضد نفسه فى هذه المرة : كان يتذكر عندئذ « جبنه » ، بكره واحتقار •

الجزء الخامس

الفصل الأول

غداة اليوم المشئوم الذى جرت فيه المناقشة الحادة بين بطرس بتروفتش وبين دونيا وبولشيريا ألكسندروفنا ، استيقظ بطرس بتروفتش من نومه وثاب الى صوابه ، فأدرك ممتعضاً أكبر الامتعاض ، أنه مضطر الى أن يقبل ، قبولَه لواقع راهن حاسم ، الأمرَ الذى كان يبدو له بالأمس حادثة تشبه أن تكون خيالية مستحيلة رغم حدوثها فعلاً . ان الأفعى السوداء ، أفعى الأنانية الجريحة المهانة ، قد ظلت تعض قلبه طوال الليل . فما ان نهض عن فراشه حتى أسرع ينظر الى وجهه فى المرآة . لقد كان يخشى أن يكون قد أصيب أثناء نومه بازدياد فى افراز الصفراء . غير أن كل خطر من هذه الناحية كان ، حتى الآن على الأقل ، قد تمّ تفاديه . فلما تأمل فى المرآة وجهه النبيل الأبيض المتعجّن قليلاً منذ بعض الوقت ، عزّاه وواساه أن يتصور أنه لا بد واجد فى مكانٍ ما خطيبةً قد تشوقه أكثر مما شاقته دونيا . ولكنه لم يلبث أن رجع عن وهمه ، فبصق بصقة قوية من شدة غضبه ، فأثار ذلك ابتسامة خرساء لكنها ساخرة فى شفتى صديقه الشاب آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف الذى يسكن معه . ولم تغب هذه الابتسامة عن نظر بطرس بتروفتش الذى أسرع يحقد عليه بسببها مزيداً من الحقد بعد أن وقعت بينه وبينه فى الآونة الأخيرة أمور كثيرة أخذها عليه وسجّلها له . وتضاعف غضبه وحنقه حين قدّر فجأة أنه ما كان ينبغى

له أن يطلع آندره سيميونوفتش على نتائج المقابلة . هذه خطيئة ثانية يرتكبها منذ الأمس بشدة الاندفاع ، وفورة الغضب ، وتسرع البوح...

وشاءت المصادفات طوال ذلك الصباح ، كأنما عن قصد وعمد ، أن تنصب عليه المزعجات تلو المزعجات ، وأن تلاحقه المنغّصات بعد المنغّصات . فحتى في مجلس الشيوخ كان ينتظره اخفاق في القضية التي كان يعالجها . وقد أحنقه خاصةً مالكُ الشقة التي استأجرها بطرس بتروفتش استعداداً لزواجه المرتقب ، وأصلحها على نفقته هو . فان مالك الشقة هذا ، وهو رجل من رجال الحرف أصاب بعض الغنى ، وأصله ألماني ، قد رفض رفضاً قاطعاً أن يفسخ بنداً واحداً من بنود عقد الايجار ، وأصرّ على أن يدفع له بطرس بتروفتش كامل الغرامة المنصوص عليها في العقد عند فسخ العقد ، رغم أن بطرس بتروفتش كان سيسلمه الشقة بعد أن جُدِّدت تجديداً شبه تام . وهذا نفسه حدث في متجر الأثاث ، فان صاحب المتجر لم يشأ أن يرد اليه روبلاً واحداً من المبلغ الذي دفعه له عربوناً على شراء الأثاث ، رغم أن قطعةً واحدةً من قطع الأثاث لم تكن قد وصلت الشقة بعد . قال بطرس بتروفتش لنفسه صارفاً بأسنانه : « لن أتزوج مع ذلك خصيصاً من أجل أثاث ! » . وفي الوقت نفسه ومضت في ذهنه فكرة يائسة من جديد ، فتساءل : « أمن الممكن حقاً أن يكون كل شيء قد ضاع ، أن يكون كل شيء قد ضاع ضياعاً حاسماً ؟ ألا أستطيع مع ذلك أن أقوم بمحاولة جديدة ؟ » . وتراءت له صورة دونيتشكا الفاتنة الأخاذة ، فتمزق قلبه حسرةً ولوعةً من جديد ، وعانى عذاباً أليماً خلال دقيقة ، فلو كانت الرغبة وحدها في قتل راسكولنيكوف كافيةً لقتله ، لرغب تلك الرغبة على الفور .

وقال لنفسه وهو يعود الى غرفة ليبزياتنيكوف كاسف البال مكتئب النفس حزيناً : « من أخطائي أيضاً أنني لم أعطهم مالاً ! شيطان يأخذني !

ما بالى تصرفت تصرف يهودى ؟ ولم يكن هذا مع ذلك عن بخل وشح ، وانما أنا أردت أن أبقيهم فى حالة الحاجة والعوز ، حتى أجعلهم يعدوننى منقذا ومخلّصاً ... آه ... لو أننى أعطيتهم خلال هذه المدة ... ألفاً وخمسمائة روبل مثلاً ، لاعداد جهاز العرس ... لو أننى قدمت هدايا صغيرة ، لو أننى قدمت أنواعاً من تلك العلب الصغيرة واللوازم الضرورية والمجوهرات والأقمشة وسائر تلك الأشياء التافهة التى يجدها المرء فى متجر كنوب أو فى المتجر الانجليزى * بأثمان بخسة ، لو أننى فعلت ذلك لجرت الأمور مجرى أوضح ، ولقامت المسألة على أسس أقوى وأوطد . ما كان لدونيا عندئذ أن تفسخ الخطوبة بمثل ذلك الاستخفاف. ذلك شأن هذا النوع من الناس : يعتقدون أنهم مضطرون حتماً عند فسخ الخطوبة الى ردّ الهدايا والمال جميعاً . فلو كنت قد قدمت اليهم هدايا ومالاً لعزّ عليهم ولشق عليهم أن يردّوا ... ثم ان ضميرها كان سيعذبها اذا هى فكرت فى فسخ الخطوبة : كانت ستقول لنفسها : كيف؟ أأطرد على حين فجأة رجلاً كان كريماً لطيفاً فى جميع الأوقات ؟ هم ... لقد ارتكبت خطأً فاحشاً . » . ثم أسرع بطرس بتروفتش ينعت نفسه بأنه غبى وهو يصرف بأسنانه من جديد ــ بينه وبين نفسه طبعاً .

فلما وصل الى هذه النتيجة عاد الى بيته وقد ازداد الشر والحنق فى نفسه أضعاف ما كانا عليه عند خروجه منه . وقد لفتت انتباهه الاستعدادات التى كانت قائمة فى غرفة كاترين ايفانوفنا للمأدبة الجنازة . كان قد سمع عن هذه المأدبة منذ الأمس كلاماً غامضاً ، حتى لقد كان يخيّل اليه أنه يتذكر أنه دُعى الى هذه المأدبة ، ولكنه لاستغراقه فى همومه الخاصة لم ينتبه الى اى شيء عداها . وأسرع يستطلع مدام ليبفكسل التى كانت أثناء غياب كاترين ايفانوفنا فى المقبرة منهمكةً حول المائدة ، وكانت تهمُّ أن تنهض ، فعرف أن المأدبة ستكون فخمة وأن جميع

المستأجرين مدعوون اليها ، حتى الذين لم يعرفوا منهم المتوفى ، بل وحتى آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف ، رغم اشتجاره حديثاً مع كاترين ايفانوفنا ، وأنه هو نفسه ، بطرس بتروفتش ، ليس مدعواً فحسب ، بل هو الى ذلك يُنتظر حضوره بفارغ صبر ، لأنه بين سائر المستأجرين أعلاهم شأناً وأعظمهم قدراً . وقد دُعيت أيضاً آماليا ايفانوفنا بكثير من الاحترام والاحتفال ، رغم ما وقع بينها وبين كاترين ايفانوفنا في الماضي من حوادث طارئة مؤسفة ، وهي الآن لهذا السبب سيدة المنزل وربة البيت ، ولا يخلو ذلك من أن يُحدث لها لذة ومسرة . وهي فوق هذا كله ، رغم ارتدائها ثياب الحداد ، تتبختر بثوب من حرير ، جديد أنيق رشيق ، مزدان بزخارف كثيرة ، تبدو فخورة به متباهية معتزة .

هذه الوقائع كلها وهذه المعلومات كلها أوحت الى بطرس بتروفتش بفكرة ما ، فلما دخل غرفته أو قل غرفة آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف كان مشغول البال بتلك الفكرة ، ذاهلاً بها عمّا عداها . ذلك أنه قد عرف أن راسكولنيكوف أحد المدعوين .

لسبب من الأسباب قضى آندره سيميونوفتش ذلك الصباح كله في غرفته . وكانت قد قامت بين هذا السيد وبين بطرس بتروفتش علاقات غريبة لكنها طبيعية على كل حال : كان بطرس بتروفتش يحتقر ليبزياتنيكوف ويكرهه أشد الكره ، تقريباً منذ اليوم الذي أقام فيه عنده ؛ ومع ذلك كان يبدو عليه في الوقت نفسه أنه يخشاه بعض الخشية . لقد نزل عند آندره سيميونوفتش منذ وصوله الى بطرسبرج ، لا بسبب البخل الشديد فحسب ـ رغم أن هذا هو الدافع الرئيسي في حقيقة الأمر ـ بل لسبب آخر أيضاً . انه ، وهو في الريف ، قد سمع عن ربيبه اليتيم آندره سيميونوفتش ، أنه شاب تقدمي متطور ، بل وأنه يلعب دوراً هاماً لدى بعض الفئات الغريبة التي أصبحت أشبه بالأساطير . فتأثر بطرس بتروفتش

بهذه الصورة التي قامت في ذهنه عن صاحبه . ان هذه الفئات القوية ، العالمة بكل شيء ، التي تحتقر جميع الناس ، وتفضح جميع الناس ، كانت توحي اليه منذ مدة طويلة برهبة خاصة هي رهبة غامضة على كل حال. لا شك أنه لاقامته بالأقاليم لم يستطع أن يكوّن لنفسه فكرة دقيقة (حتى ولا تقريبية) عن شيء « من هذا النوع » . كل ما هنالك أنه سمع ، كسائر الناس ، أنه يوجد ، في بطرسبرج خاصةً ، أناس يسمون تقدميين أو عدميين أو مصلحين * ، الخ ، ولكنه كان ، ككثير من الناس ، يضخّم دلالة هذه الألفاظ ومعناها ، حتى ليشوّهها تشويهاً عجيباً . وهو منذ بضع سنين انما يخشى « التشهيرات » العامة أكثر مما يخشى أي شيء آخر . نعم ، ذلك هو الأساس الرئيسي الذي تقوم عليه مخاوفه المتصلة المتزايدة ، ولا سيما حين يحلم بنقل مركز نشاطه وأعماله إلى بطرسبرج . بهذا المعنى نستطيع أن نقول انه كان « مروّعاً » حقاً كما يُروَّع الأطفال الصغار في بعض الأحيان . انه قبل هذه الآونة ببضع سنين ، قد شهد في الريف ، وكان ما يزال في بداية مزاولته مهنته ، حالة رجلين من أصحاب التأثير والنفوذ أصابتهما تلك التشهيرات العامة فنالت منهما بقسوة شديدة . وقد دافع هو عن ذينك الرجلين فكانا يحميانه ويرعيانه بعد ذلك . فأما احدى القضيتين فقد انتهت بالرجل الذي ناله التشهير الى الفضيحة والجرسة ، وأما القضية الثانية فكانت لصاحبها مصدر كثير من المتاعب والنكد . ذلكم هو السبب الذي جعل بطرس بتروفتش يحرص منذ وصوله إلى بطرسبرج على أن يوضح لنفسه الأشياء ، وأن يفهم الأحوال ، وأن لا تفوته المبادرة اذا اقتضى الأمر ذلك ، في سبيل أن ينال الحظوة لدى « أجيالنا الشابة » . وكان يعوّل في هذا على آندره سيميونوفتش . وعلى هذا النحو انما استطاع ، مثلاً ، حين التقى براسكولنيكوف ، أن يقول بضع عبارات منمقة جاهزة مستمدة من غيره.

وهو لم يلبث ، بطبيعة الحال ، أن اكتشف فى آندره سيميونوفتش شخصاً عادياً تافهاً غراً الى أبعد الحدود . ولكن ذلك لم يغيّر رأيه ، ولبث قلقاً غير مطمئن . انه على وجه الاجمال لا شأن له بهذه الأفكار كلها (التى كان آندره سيميونوفتش يقرع بها أذنيه ، ويصدّع بها رأسه)، وانما كانت له غاية معينة وهدف محدّد : كان يريد أن يعرف ، بأقصى سرعة ، « ماذا » حدث هنا و « كيف » حدث ؟ هل هؤلاء الناس أقوياء لهم حول وطول ، وسلطان ونفوذ ؟ هل عليه هو أن يخشى شيئاً ما ؟ أتراه يوشى به اذا هو شرع فى هذا الأمر أو ذاك ؟ واذا وُشى به ، فما هى النقاط التى ستكون محل الوشاية وموضع التنديد والتشهير ؟ بل أكثر من ذلك : ألا يستطيع المرء ، اذا هم كانوا أقوياء ذوى سلطان ، أى يتسلل اليهم بطريقة أو بأخرى وأن يغشهم ويضللهم ؟ أهذا ضرورى حقاً أم لا ؟ أليس فى وسع المرء ، بواسطتهم ، أن يهيىء لنفسه نجاحاً فى عمله وتقدماً فى مهنته مثلاً ؟ بايجاز : كانت مئات من الأسئلة تلقى نفسها عليه .

وكان آندره سيميونوفتش هذا ، وهو مستخدمٌ فى مكان ما بمثابة موظف ، كان رجلاً هزيلاً بائساً عليلاً ؛ وهو قصير القامة ، أشقر شقرةً غريبة ، له على جانبى خديه لحيتان يبدو مزهواً بهما زهواً شديداً . وهو فوق ذلك يشكو من أوجاع فى عينيه دائماً على وجه التقريب . واذا كان طبعه رخواً فان أحاديثه تدل على غرور يبلغ فى بعض الأحيان حد الغطرسة الوقحة ، وذلك يتنافى مع شكله وقامته تنافياً مضحكاً .

على أنه كان عند آماليا ايفانوفنا يُعدُّ من أحسن المستأجرين ، لأنه كان لا يشرب ، ولأنه كان يدفع أجر غرفته فى موعده على نظام مطرد لا يتخلف . غير أن آندره سيميونوفتش كان رغم جميع هذه المزايا



ليبزيا تنيكوف

بريشة الفنانة السوفياتية ألكسندرا كورساكوفا

رجلاً غبياً في حقيقة الأمر . ان العاطفة الهوجاء هي التي ربطته بالآراء التقدمية و « أجيالنا الصاعدة » . انه واحد من تلك الفئة الكبيرة من الأغبياء والفاشلين الذين لا يفوتهم أبداً أن يتعلقوا على الفور بالأفكار التي يعرفون أنها رائجة رواج « الموضة » ، والذين يفسدون ويشوّهون كل ما يستعملونه ، ولو كان تعلقهم به صادقاً مخلصاً .

ثم ان ليبزياتنيكوف ، رغم أنه مسالم الى أبعد حدود المسالمة ، قد أخذ من جهته يضيق ذرعاً بصاحبه بطرس بتروفتش الذي كان في الماضي وليّ أمره والوصيّ عليه ، حتى أصبح لا يطيق احتمال مساكنته في غرفته. ونشأ بين الرجلين كليهما نفورٌ متبادل من تلقاء نفسه . لقد أخذ آندره سيميونوفتش يلاحظ ، رغم غبائه ، أن بطرس بتروفتش يسخر منه ويضحك عليه ويحتقره ، وأنه ليس في حقيقته ما يحب أن يبدو . وكان آندره سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فورييه وداروين ، ولكن بطرس بتروفتش أصبح يحلو له ، ولا سيما في الأيام الأخيرة ، أن يصغي الى كلامه ساخراً مستهزئاً ، حتى لقد أصبح يمضي في ذلك الى حد اهانته . وانما نشأ ذلك عن أن بطرس بتروفتش قد اكتشف بغريزته أن ليبزياتنيكوف ليس رجلاً غبياً فحسب ، بل أنه أيضاً رجل متبجح ليس له أية علاقات هامة في بيئته ، وأنه لم يسمع بعض الأفكار الا على نحو غير مباشر ، وأنه فوق ذلك كله ليس على شيء من المقدرة في مجال « الدعاية » ، لأنه يضطرب في الكلام ويرتبك في الحديث ، فلا يستطيع كثيراً أن يشهّر بأحد أو بشيء . وفي هذه المناسبة يجب أن نشير عابرين الى أن بطرس بتروفتش كان خلال تلك الأيام العشرة (ولا سيما في البداية) قد استقبل ، برضى وارتياح ، الأماديح التي كان يكيلها له آندره سيميونوفتش ، حتى ولو كانت غريبة جداً ، أو قل على الأقل انه لم يكن يرفضها أو يعترض عليها . كان يصمت مثلاً حين

ينسب اليه آندره سيميونوفتش أنه ينتوى أن يعاون قريباً ، بل قريباً جداً ، فى انشاء « كومون » جديدة فى مكان ما بشارع ميشتيانسكايا (شارع البورجوازيين) أو حين ينسب اليه أنه ينوى أن لا يمنع دونيا من أن تتخذ لها عشيقاً ولو شاء لها هواها أن تفعل ذلك منذ الشهر الأول بعد الزواج ؟ أو حين ينسب اليه أنه لن يعمّد الأولاد الذين سيولدون له ، الخ. كان بطرس بتروفتش ، على عادته ، لا يُنكر المزايا التى تُنسب اليه ، حتى لقد كان يسمح بأن تكال له أماديح من ذلك النوع ، فالى هذا الحد كان يحب أن يُمدح .

ان بطرس بتروفتش الذى بدّل هذا الصباح عدداً من السندات لبعض الأسباب ، جالسٌ الآن الى المنضدة يراجع عدّ حزم الأوراق المالية . وهذا آندره سيميونوفتش الذى لم يكد يملك مالاً فى يوم من الأيام يتجول فى الغرفة ويتظاهر بأنه ينظر الى حُزم الأوراق المالية بغير اكتراث ، بل وباحتقار . ولكن بطرس بتروفتش لم يكن يستطيع أن يصدّق أن آندره سيميونوفتش ينظر الى هذه الحزم بغير اكتراث حقاً . وكان آندره سيميونوفتش من جهته يتصور بكثير من المرارة أن بطرس بتروفتش ربما كانت تدور فى رأسه تلك الفكرة ، وربما كان يجد فيها لذة ، وربما كان يريد أيضاً ، بعرض هذه الأوراق المالية ، أن يسخر من صديقه الشاب ، وأن يذكّره على هذا النحو بكل تفاهته ، وبكل الفرق بينهما وبكل المسافة التى تفصلهما .

وقد وجده فى ذلك اليوم أكثر حدةً ، وأقل انتباهاً منه فى أى وقت مضى ، رغم أنه هو آندره سيميونوفتش قد اندفع يشرح نظريته المفضّلة فى ضرورة اقامة « كومون » جديدة من نوع خاص . ان الملاحظات القصيرة التى كان يرسلها بطرس بتروفتش مع انشغاله بتنقيل الكرات على أسلاكها فى جهاز العدّ ، كانت تتسم بسخرية واضحة

وتتصف بقلة الكياسة . ولكن آندره سيميونوفتش ، هذا الداعية من دعاة « الأفكار الانسانية » ، كان ينسب اعتكار مزاج بطرس بتروفتش الى الأثر الذى أحدثه فى نفسه فسخ الخطبة ؛ وكان يحترق شوقاً الى التعرض لهذا الموضوع بأقصى سرعة ، لأنه يريد أن يدلى فى هذا الصدد ببعض الآراء التقدمية التى قد تواسى صديقه المحترم ، والتى « لا بد » أن تكون نافعة فى تطوره المقبل .

قاطع بطرس بتروفتش صاحبه فى أهمّ موضع من حديثه سائلا على حين فجأة :

ـ ما مأدبة الجنازة هذه التى تُهيّأ عند تلك ... الأرملة ؟

فأجابه آندره سيميونوفتش باستغراب قائلاً :

ـ كأنك لا تعلم ! لقد حدثتك عن أمر هذه المأدبة أمس ، حتى لقد شرحت لك آرائى فى هذا النوع من الاحتفالات . ثم اننى قد سمعت أنها دعتك أنت أيضاً . وقد كلمتها أنت نفسك بالأمس .

ـ ما كنت أتوقع أن تبدد هذه الغبية التى صارت شحاذة ، ما كنت أتوقع أن تبدد فى سبيل حفلة عشاء كل المال الذى أخذته من ذلك الغبى الآخر ... أقصد راسكولنيكوف ! لقد دُهشت منذ قليل حين مررت بمسكنها . استعدادات عظيمة ! حتى الخمر لا ينقص هذه المأدبة !

وتابع بطرس بتروفتش كلامه يريد أن يجرّ الحديث الى غاية لا يعرف المرء ما هى :

ـ دُعى أشخاص كثيرون ... الشيطان وحده يعلم ...

ثم أضاف يسأل فجأةً وهو يرفع رأسه :

ـ ماذا ؟ تقول اننى مدعو أيضاً ؟ متى دعيت ؟ لا أذكر أننى دُعيت!

على أنني لن أحضر . ما عساني فاعلاً هناك ؟ كل ما في الأمر أنني قلت لها بالأمس ، عابراً ، ان في وسعها أن تحصل ، لأنها أرملة موظف معوزة ، على معونة يساوي مقدارها مرتبات سنة . أتراها دعتني لهذا السبب وحده ؟ هيء هيء !...

قال ليبزياتنيكوف :

ـ أنا أيضاً لا أنوي أن أحضر .

ـ آمل ذلك . فقد ضربتها ضرباً مبرِّحاً بيديك ، فمن الطبيعي جداً أن يعذبك ضميرك اذا أنت فكرت في الذهاب الى عندها .

سأله ليبزياتنيكوف بقوة وحرارة وقد احمر وجهه :

ـ من ذا ضربت ضرباً مبرحاً ؟ عمن تتكلم ؟

ـ عن كاترين ايفانوفنا طبعاً . لقد ضربتَ كاترين ايفانوفنا منذ شهر ؟ أو هذا ما سمعته أمس على الأقل . انظروا الى رجال المبادىء والعقائد هؤلاء ! هذه طريقتهم في حل قضية المرأة ! هيء هيء هيء !

وكأنما خففت هذه الكلمات عن بطرس بتروفتش ، فعاد ينهمك في حساباته .

وصاح ليزياتنيكوف يقول بلهجة حانقة مغتاظة ، وكان لا يطيق أن يذكّره أحد بتلك القصة :

ـ ما هذه الا حماقات ونمائم . ما هكذا جرت الأمور ، وانما جرت الأمور على نحو آخر تماماً ! لم يطلعوك على الواقع كما حدث . هذه أقاويل ، هذه أقاويل لا أكثر ! أنا انما دافعت عن نفسي فحسب ! فهي التي هجمت عليّ مكشِّرة عن أنيابها منشبةً مخالبها ، فما زالت بي حتى

تنفت لى لحيةً بكاملها ! أحسب أن من حق كل انســـان أن يدافع عن نفسه . ثم اننى لا أسمح لأى مخلوق أن يعمد فى معاملتى الى العنف ، وذلك ايماناً منى بمبدأ لا أحيد عنه ، لأن العنف استبداد . فماذا كان يجب علىّ أن أفعل ؟ أأبقى أمامها مبســوط الذراعين ؟ كل ما فعلته هو أننى دفعتها عنى .

كان لوجين ما يزال يقهقه بوحشية :

ـ هىء هىء هىء !...

ـ أنت تسعى الى مشاجرتى ، لأنك معتكر المزاج . وهذه حماقات لا شأن لها بقضية المرأة اطلاقاً ، اطلاقاً . لقد فهمتَ الأمر مقلوباً . اننى لأعتقد أنه متى اعترف المرء بأن النساء مساوية للرجال فى كل شىء ، حتى فى باب القــوة (كما يؤكَّد هذا منذ الآن) ، فقــد وجب الابقــاء على المساواة فى هذه الحالة أيضاً . طبعاً ... أنا قلت لنفسى بعد ذلك ان أمثال هذه المسائل ينبغى أن لا تُطرح أصلاً ، لأن المنازعات ما ينبغى أن توجد ، حتى انها ستكون فى مجتمع المستقبل أموراً لا يمكن تصورها ، وانه لشىء غريب ، تبعاً لذلك ، أن ننشد المساواة فى مشاجرة . أنا لست غبياً الى الحد الذى ... رغم أن المشاجرات ما تزال قائمةً طبعاً بانتظار ذلك ... أعنى أن المشاجرات ستزول فى المستقبل ، لكنها ما تزال الى اليوم موجودة ... هوه ! ان المرء ليرتبك حين يكلمك ، وتختلط عليه الأمور ... مهما يكن من أمر فليس هذا هو السبب فى اننى لن أحضر العشاء . وانما أنا أمتنع عن حضوره تقيداً بالمبدأ ، حتى لا أشارك فى هذه العادة السخيفة من العادات الاجتماعية ، أعنى مأدبة الجنازة . نعم ، ذلك هو السبب . على اننى قد أحضر المأدبة ، ولو لأضحك منها ، واستهزىء بها ... من المؤسف أنه لن يكون هنالك قس ، والا لما فوّت على نفسى فرصة الحضور .

ـ أي أنك كنت ستجلس الى مائدة النـاس لتبصق بعـد ذلك فى الأطباق ، ولتبصق أيضاً على أولئك الذين دعوك ؟ أليس كذلك ؟

ـ ليس الأمر أمر بصاق بل أمر إحتجاج • أنا ان فعلت ذلك فانما أفعله لتحقيق أهداف مفيدة • ففى وسعى بهذا أن أنفع التقدم وأن أنفع الدعاية نفعاً غير مباشر • ان على كل انسان أن يساهم فى تنمية الدعاية ، وكلما فعل ذلك على نحو قاطع كان هذا أجدى • ان فى امكانى أن أبذر الفكرة ، أن ألقى البذرة • ومن هذه البذرة ستخرج حقيقة • فيم أسيء اليهم اذا أنا فعلت ذلك ؟ قد يشعرون فى أول الأمر طبعـاً بأن اساءةً لحقتهم ، ولكنهم سيرون بعد ذلك هم أنفسهم أننى كنت نافعاً لهم • انظر الى قضية المرأة تيربيفا عندنا (المرأة التى تنتمى الآن الى الكومون) ••• لقد تركت أهلها واستسلمت لرجل ، فأخذوا عليها أنها كتبت الى أبويها قائلةً انها أصبحت لا تريد أن تعيش فى الأوهام الاجتماعية ، وانها تؤثر الزواج الحر • لقد قال الناس عندئذ ان تصرفها ازاء أبويها كان فيه كثير من الغلظة ، وانها كانت تستطيع أن تراعيهما وتداريهما ، وكانت تستطيع على الأقل أن تستعمل فى رسالتها أسـلوباً أرق • أما أنا فأرى أن هذا الكلام كله سخف ، وان على المرء أن لا يستعمل أسلوب الرقة أبداً • بالعكس : لا بد من الاحتجـاج ••• وانظر الى المـرأة فارنتس : لقـد عاشت مع زوجها سبع سنين ، ثم تركته وتركت ولديها ؟ وفى الرسالة التى بعثت بها اليه لم تتحرج من شرح رأيها بوضوح تام ، فقالت : « أدركت أننى لن أستطيع أن أكون سـعيدة معك فى يوم من الأيام • ولن أغفر لك ، ما حييت ، أنك أخفيت عنى أن هنـاك تنظيماً آخـر للمجتمع على أساس الكومون • لقد عرفت ذلك حديثاً من رجـل عظيم استسلمت له وسأنشيء معه كوموناً • أقول لك هذا بصراحة ، لأننى أعتقد أنه ليس من الأمانة ولا من الشرف فى شيء أن أكذب عليك وأن أخدعك • دبّر

أمورك على النحو الذي يرضيك ، ولا تأمل أن تراني عائدة اليك ... انك متخلف مسرف في التخلف . أتمنى لك أن تكون ســـعيداً . . . هكذا انما ينبغي أن تُكتب أمثال هذه الرسائل .

ـ أليست تيربييفا هذه هي تلك التي قلت لي انها الآن في زواجها الحر الثالث ؟

ـ لا بل هي في زواجها الحـر الثـاني اذا نحن أحسـنا النظر في الأمور . وهبها في زواجها الحر الرابع أو الخامس ، فأي ضير في هذا ؟ لئن أسفت يوماً على موت أبويَّ فانما أسـفت على ذلك في هذا اليوم . حتى لقد اتفق لي مراراً أن قلت لنفسي : لو كان أبواي حيين لعرفت كيف أحتج عليهمـا ! نعم ، لو كانا حيين لفعلت ذلك عامداً ، فأظهرتهمـا على آرائي ، وأدهشتهما أيما ادهاش ! حقاً انني أتمنى لو أراهما حيين ... حقاً انه ليؤسفني أنهما ماتا !

قاطعه بطرس بتروفتش قائلاً :

ـ لتستطيع أن تدهشهما ؟ هيء هيء ! ... طيب ... افعل مايحلو لك ... ولكن قل لي : أنت تعرف بنت المتوفى طبعاً ، تلك الفتاة الصغيرة النحيلة ، فهل صحيح ما يقال عنها ؟

ـ ما قيمة هذا ؟ في رأيي ، أعني في قناعتي الشخصية أن وضعها هو الوضع الطبيعي للمرأة . لم لا ؟ أقصد ... « يجب أن نميِّز » .. لا شك أن وضعها هذا ليس في المجتمع الحالي وضعاً طبيعياً ، لأنه ناشيء عن اضطرار واكراه ، أما في المجتمع المقبل ، فسيكون وضعاً طبيعياً تماماً ، لأنه سينشأ عن اختيار حر . ثم ان هذه الفتاة من حقها ، الآن أيضاً ، أن تعيش كما تعيش . انها تتألم ، وألمها هو رأس مالها ان صحَّ التعبير ، ففي وسعها أن تتصرف فيه على النحو الذي تشاء . صحيح أن رءوس

الأموال هذه لن يبقى لها في مجتمع المستقبل علة وجود ، ولكن دور البغي سيتخذ دلالة أخرى ، وسيتم تنظيمه تنظيماً عقلياً • ولنرجع الآن الى شخص صوفيا سيميونوفنا : انني أرى أن سلوكها هو في هذه الأزمنة احتجاج قوي مجسَّد على نظام المجتمع ؟ وأنا لهذا السبب احترمها احتراماً عميقاً ، بل أكثر من ذلك انني أغتبط لرؤيتها على هذه الحال•

ـ لكنني سمعتُ أنك قد طردتها من هذا البيت •

اعترت ليبزياتنيكوف حالة غضب شديد عنيف ، وزأر يقول :

ـ هذه أيضاً نمائم ! ان الأمور لم تجر على هذا النحو ، لم تجر على هذا النحو قط ! حقاً انها لم تجر على هذا النحو ! ان كاترين ايفانوفنا هي التي اخترعت كل شيء ، لأنها لم تفهم شيئاً • أنا لم أحاول في يوم من الأيام أن أحظى بصوفيا سيميونوفنا : كنت أكتفي بتثقيفها بعيداً عن كل مصلحة بريئاً من كل غاية ؟ كنت أحاول أن أنمي فيها روح الاحتجاج • لم أكن في حاجة الا الى احتجاجها وحده • ثم ان صوفيا سيميونوفنا نفسها قد أدركت حق الادراك أنها أصبحت لا تستطيع أن تقيم هنا في مسكن مفروش •

ـ هل كنت تدعوها الى الاشتراك في الكومون ؟

ـ أنت لا تجيد الا السخرية ، ولكنك تخطيء هنا خطأً فادحاً •• اسمح لي أن أقول لك ذلك !••• انك لا تفهم من أمر الكومون شيئاً • في الكومون ، لا وجود لهذا الدور • وانما نُظمَّت الكومون من أجل أن لا يكون لهذا الدور وجود • في الكومون سيتغير هذا الدور تغيراً تاماً ، فما هو غبي هنا سيصبح ذكياً هنالك ، وما يبدو هنا في الظروف الحالية مخالفاً للطبيعة سيصبح هنالك طبيعياً • كل شيء مرهون بالبيئة

التي يعيش فيها الانسان . كل شيء تحدده البيئة ، والانســان في ذاته لا شأن له . أما صوفيا سيميونوفنا فان علاقاتي بها ما تزال طيبة ، وهذا دليل على أنها لم تعددني في يوم من الأيام عدواً أو مسيئاً . نعم ، انني أحاول الآن أن أجتذبها الى الكومون ، ولكن لأسباب أخرى تماماً . لماذا تضحك ؟ اننا نريد أن ننشيء كوموناً خاصة بنا ، ولكننا نريد أن ننشيء هذه الكومون على أسس أوسع من الأسس السابقة . لقد مضينا في اعتقاداتنا الى مدى أبعد ، وأنكرنا أشياء أكثر ، فلو خرج دوبروليوبوف من قبره لتشاجرت معه حتمـاً ، ثق بذلك ! أما بيلنســكي فلو خــرج من قبره لأبدته ابادة ! * وأنا الآن مستمر في تنشئة صــوفيا سيميونوفنا . ان لها طبيعة طيبة حسنة ، حسنة جداً !

ـ هيّا ! انك تستفيد من هذه الطبيعة الطيبة الحسنة ! هيء هيء !..

ـ أنا ؟ لا ، لا ! بالعكس ...

ـ بالعكس ؟ أأنت تقول هذا الكلام ؟

ـ في وسعك مع ذلك أن تصدقني . ما هي الأسباب التي يمكن أن تدفعني الى اخفاء الحقيقــة عنك ؟ هلاّ أجبتني من فضلك ؟ نعم ، هناك ظاهرة غريبة : لكأنها معي متحرجة ، وجلة ، بل وخجلة !

ـ وأنت أثناء ذلك مستمر في تنشئتها ! هيء !... تبرهن لها على أن أنواع الحياء هذه كلها ما هي الا غباوات وبلاهات !...

ـ لا ، لا !... آه ... ما أغلظ وما أغبى تأويلك هــذا لكلمــة « التنشئة » ، اعذرني ! ألا انك اذن لا تفهم شيئاً على الاطلاق ! آه ... يا رب !... ما أشد تخلفك حتى الآن !... نحن ننشد حرية المرأة ، وأنت ليس في رأسك الا ... اذا تركنا جانباً مسألة العفة بوجه عام ، وهي شيء لا جــدوى منه في ذاته ، بل هي شيء سخيف أيضــاً ، فانني

أقبل تحفظها معي كل القبول : فما دامت هذه ارادتها فمن حقها أن .. طبعاً ، اذا قالت لي في ذات يوم : « أنا أريدك » ، فسأعد ذلك حظاً سعيداً ، لأن هذه الفتاة تعجبني كثيراً . أما الآن ، الآن على الأقل ، فربما كان لا يوجد أحد يعاملها بمثل ما أعاملها أنا به من لطف ومداراة ومراعاة . انني انتظر وآمل ، هذا كل شيء .

ـ الأفضل أن تقدم اليها هدية صغيرة . أراهن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالك ، أليس كذلك ؟

ـ أنت لا تفهم شيئاً ، سبق أن قلت لك ذلك ! صحيح أنها مومس، ولكن المسألة ليست هنا ، ليست هنا البتة ! أنت تحتقرها ، لا أكثر ولا أقل . انك بالاستناد الى واقعة مخلة بالشرف في رأيك ، تابى على كائن انساني أن ينظر اليها نظرة فيها روح انسانية . ألا انك تجهل حتى طبيعتها ! ان هناك شيئاً واحداً آسف له ، هي أنها منذ زمن قد انقطعت عن القراءة انقطاعاً تاماً ، وأصبحت لا تستعير مني أي كتاب . كانت قبل ذلك تستعير مني كتباً . ومما يبعث على الأسف أيضاً أنها رغم كل ما تملكه من طاقة كبيرة ، ورغم كل ما تتصف به من عزم على الاحتجاج ـ لقد سبق أن برهنت على ذلك مرة ـ لا يبدو فيها قدر كاف من الاستقلال ، قدر كاف من ... من السلبية ، قدر كاف من التأهب للتحرر نهائياً من أوهامها الاجتماعية ... وسخافاتها . ومع ذلك فهي تفهم بعض المسائل فهماً رائعاً . لقد أدركت أكمل الادراك مسألة تقبيل اليد ، مثلاً . لقد أدركت أحسن الادراك أن الرجل حين يقبل يد المرأة انما يعدها أدنى منه منزلة وأقل قدراً . لقد ناقشنا هذه المسألة عندنا ، فسرعان ما ناقشتها معها . وقد أصغت الي باتنباه شديد أيضاً حين كلمتها عن النقابات العمالية في فرنسا . وأنا الآن بسبيل أن أشرح

لها مســألة حرية دخول الغرف على نحــو ما ستُطرح هذه المســألة في المستقبل •

ــ ما هذه المسألة أيضاً ؟

ــ لقد أثيرت فى الآونة الأخيرة هذه المسألة : هل من حق عضــو فى الكومون ، رجلاً كان أو امرأة ، أن يدخل غرفة عضو آخر ، رجلاً كان أو امرأة ، فى أية ساعة من الســاعات ••• وقد تقرر أن له هذا الحق •

ــ غريب ! ماذا لو كان العضو ، الرجل أو المرأة ، مشغولاً فى تلك الساعة بتلبية حاجة طبيعية ؟ هيء هيء !•••

غضب آندره سيميونوفتش ، وصاح يقول مبغضاً :

ــ آه ••• هأنت ذا تعود الى هذه المسألة ! ان الأمر الهام فى نظرك انما هو هذه « الحاجات » اللعينة ! ألا اننى لأحقد على نفسى لأننى تكلمت أمامك عن هذه الحاجات اللعينة ! شيطان يأخذك ! هذه عثرتك وعثرة جميع أشــباهك • وأنكى ما فى الأمر أنهم يلقــون بهذا على رأسك قبل أن يعرفوا ما هى المسألة • كأن ذلك من حقهم ! وكأن فى ذلك ما يدعو الى الفخر والاعتزاز ! آ ••• لقد ســبق أن قلت غير مرة ان هذه المســألة ما ينبغى أن تُعرض أمام أغرار مبتدئين الا بعد أن يتم اكتسابهم وضمهم الى المذهب • بتعبير آخر : ما ينبغى أن يعالج هذه المسألة الا انسان تطور تطوراً كافياً وتحققت له تنشــئة مناســبة • ثم قل لى : ما الذى تراه فى المراحيض من شىء مخجل الى هذا الحد محتقر الى هذه الدرجة ؟ اننى مستعد لأن أنظف ما تشاء من مراحيض • وصدّقنى اذا قلت لك ان هذا لا ينطوى على أى تضحية من جهتى • ذلك عمل كغيره من الأعمال ، بل انه لأكبر كثيراً من عمل رجلٍ مثل رافائيل أو بوشكين ، لسبب بسيط هو أنه أكثر نفعاً * •

ـ وأكثر نبلاً ، أكثر نبلاً ، هيء هيء !...

ـ ما معنى كلمة « النبل » هذه ؟ اننى لا أفهم أمثال هذه التعبيرات حين يكون الأمر أمر وصف نشاط انسانى . « أكثر نبلاً ! » . هذه ترهة ، هذه سخافة ، هذا وهم اجتماعى بالٍ أرفضه وأحتقره . الشىء النبيل هو الشىء « النافع » للانسانية . ذلك هو الشىء النبيل حقاً . أنا لا أفهم الا كلمة واحدة ، وهذه الكلمة هى : « النافع » . اضحك ما شاء لك هواك أن تضحك ، فذلك هو اعتقادى !

كان بطرس بتروفتش يتمطى . لقد انتهى من حساباته وأخذ يرتّب ماله . ولكنه أبقى جزءاً من هذا المال على المائدة ، لا يدرى أحد لماذا .

ان مسألة المراحيض هذه كانت ، رغم تفاهتها ، سبباً لمشاجرات عدة بين بطرس بتروفتش وصديقه الشاب . والغباء فى الأمر أن آندره سيميونوفتش كان يغضب فعلاً ، أما لوجين فما كان يرى فى هذا الا فرصة للتسلية والاسترخاء . وكان في تلك اللحظة خاصة يشتهى أن يُغيظ ليبزياتنيكوف .

ـ بسبب اخفاقك مساءَ أمس انما أنت معتكر المزاج الى هذا الحد اليوم .

بهذا الكلام أفلت أخيراً لسان ليبزياتنيكوف الذى كان رغم كل « استقلاله » ورغم كل روح « الاحتجاج » لديه ، لا يجرؤ فى العادة أن يعارض بطرس بتروفتش معارضة صريحة ، وكان على وجه العموم يلتزم فى معاملته ما ألف أن يلتزمه فى معاملته منذ شبابه من كياسة وأدب واحترام .

وقد قاطعه بطرس بتروفتش قائلاً بتعالٍ وامتعاض :

ـ قل لى : هل تستطيع أو هل أنت على قدر كاف من حسن الصلة وعمق المودة مع الفتاة المذكورة بحيث يمكنك أن ترجوها أن تأتى الى هنا حالاً ؟ أظن أنهم لا بد أن يكونوا قد عادوا الآن جميعاً من المقبرة. لقد سمعت وقع أقدام ، و ... أودُّ لو أرى هذه الفتاة .

سأله ليبزياتنكوف مدهوشاً :

ـ ولكن لماذا ؟

فأجابه :

ـ هكذا ... يجب أن أكلمها . اننى مسـافر بين يوم ويوم ، وأحب أن أنقل اليها ... فى وسعك أن تحضر حديثنا على كل حال ، بل ذلك أفضل ، والا فقد تتخيل ما لا يعلمه الا الله !...

ـ لن أتخيل شيئاً البتة . وانما أنا ألقيت سـؤالى هكذا ... فاذا كنت فى حاجة الى أن تراها فلا أسهل من احضارها . أنا ذاهب لأجيئك بها . وثق اننى لن أزعجك .

وعاد ليبزياتنيكوف مع صـونيا فعـلاً بعد خمس دقائق . دخلت صونيا مدهوشة أشـدَّ الدهشـة ، خجلة وجلةً الى أقصى حـد ، على عادتهـا . انها خجلة وجلة دائمـاً فى مثل هذه الأحوال . كانت منـذ طفولتها تخشى التعرف الى أناس جدد ، وتخاف من الوجوه الجديدة ، وقد تفاقم هذا الميل عندها مزيداً من التفاقم الآن .

استقبلها بطرس بتروفتش استقبالاً « لطيفاً مهذَّباً » ، ولكنه أضاف الى هذا الاستقبال ، والحق يقال ، نوعاً من المزح والألفة يليقان ، فى رأيه ، برجل يبلغ ما يبلغه هو من جد ووقار واحترام ، حين يعامل مخلوقة شابة الى هذا الحد ، « شائقة » الى هذه الدرجة ، بمعنى من المعانى .

وأسرع بطرس بتروفتش «يطمئن» صونيا سيميونوفنا ، ويُجلسها أمام المائدة قبالته. جلست صونيا وألقت نظرةً حولها ــ على ليبزياتنيكوف، وعلى المال الموضوع على المائدة ، ثم على بطرس بتروفتش فجأةً من جديد • ومنذ تلك اللحظة لم تحوّل بصرها عنه ، كأن شيئاً ما كان يشدها اليه •

اتجه ليبزياتنيكوف نحو الباب ، فنهض بطرس بتروفتش ، وأمسك ليبزياتنيكوف وهو يدعو صونيا باشارة من يده الى أن تبقى جالسة • وقال يسأل صاحبه همساً :

ــ هل راسكولنيكوف ذاك هناك ؟ هل جاء ؟

فأجابه ليبزياتنيكوف :

ــ راسكولنيكوف ؟ نعم ، هو هناك • فماذا ؟ نعم ، هو هناك • وصل منذ قليل ، رأيته • فماذا ؟

ــ أطلب منك ملحاً أن تبقى معنا ، أن لا تتركني في خلوة مع هذه ••• الفتاة • هذه قضية لا قيمة لها ، ولا يعلم الا الله ما عسى يُستنتج منها اذا ••• لا أريد أن يمضي راسكولنيكوف يتقول « هناك » ••• هل تفهم الى ماذا أشير ؟

أجاب ليبزياتنيكوف وقد أدرك الأمر :

ــ أفهم ، أفهم • نعم ، أنت على حق • في قناعتي الشخصية أنك تضخّم الأخطار تضخيماً كبيراً ••• ولكنك مع ذلك على حق • طيب• سأبقى • سأمكث هنا ، قرب النافذة ، حتى لا أضايقك ••• في رأيي أنك على حق ••

عاد بطرس بتروفتش نحو الأريكة ، وجلس قبالة صونيا ، ونظر

اليها بانتباه ، ثم لم يلبث أن اصطنع هيئة فيها كثير من الوقار والجد حتى لتكاد تكون نظرة قاسية ، وهو يقول لها بينه وبين نفسه « لا تخطرن ببالك الخواطر يا جميلة ! »

اضطربت صونيا وفقدت كل سيطرة لها على نفسها . وبدأ بطرس كلامه فقال بلهجة فيها كثير من الجد ، ولكنها لهجة متوددة في الوقت نفسه :

ــ أرجوك أولاً أن تتكرمي يا صونيا سيميونوفنا ، فتعتذري عني لأمك المحترمة ... أليست كاترين ايفانوفنا بمثابة الأم لك ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

كان يبدو على بطرس بتروفتش أنه يضمر أحسن نيات الصداقة . فأسرعت صونيا تجيبه مروّعة مذعورة :

ــ نعم ، حقاً ، هي لي بمثابة الأم .

ــ فاعتذري لها عن أنني لا أستطيع ، بسبب ظروف مستقلة عن ارادتي ، أن أجيء الى عندكم فآكل المعجّنات ... أقصد أن أشارك في مأدبة الجنازة ، رغم الدعوة اللطيفة التي وجهتها اليّ .

ــ سأقول لها هذا ، فوراً ...

قالت صونيا ذلك ونهضت مسرعة .

فقال بطرس بتروفتش وهو يمنعها من القيام ، ويبتسم لسذاجة الفتاة وجهلها بالمواضعات الاجتماعية :

ــ ليس هذا كل شيء « بعد » . انك لتجهلينني اذن ، يا صونيا سيميونوفنا اللطيفة جداً ، اذا كنت تتصورين انني لسبب يبلغ هذا المبلغ

من التفـاهة ولا يتعلق الا بى أنا ، يمكن أن أسـمح لنفسى بأن أزعج شخصاً مثلك . ان لى هدفاً آخر تماماً .

عادت صونيا تجلس بسرعة شديدة. وأخذت الأوراق المالية وأنواع العملة الباقية على المائدة تتراقص أمام عينيها من جديد ، فسرعان ما أشاحت وجهها عنها بقوة ، ونظرت الى بطرس بتروفتش . لقد لاح لها فجأة أنه عار رهيب عليها أن تنظر الى مال ليس مالها ، لا سيما « وهى ما هى » . تلبث بصرها فى أول الأمر على النظارة ذات الاطار الذهبى ، التى كان بطرس بتروفتش يمسكها بيده اليسرى ، وتلبّث فى الوقت نفسه على الخاتم الجميل جـداً ، الضخم جداً ، المزدان بحجر أصفر ، السـاطع فى الأصبع الوسطى من تلك اليد نفسها . ولكنها حوّلت بصرها فجأة ، واذ لم تعرف الى أين توجه عينيها ، حـدّقت بهمـا الى عينى بطرس بتروفتش لا تحركهما يمنة ولا يسرة .

وبعد فترة من صمت تابع بطرس بتروفتش كلامه بلهجة فيها مزيد من الجد أيضاً :

ـ أتيحت لى أمس فرصة تبادل بضع كلمات مع المسـكينة كاترين ايفانوفنا ؛ فأدركت من تلك الكلمات القليلة وحدها أن كاترين ايفانوفنا تعيش فى حالة منافية للطبيعة ، ان صح التعبير .

فقالت صونيا مؤيدة :

ـ نعم ... فى حالة منافية للطبيعة .

ـ أو فى حالة مرضية اذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح .

ـ ، نعم ، اذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح ... نعم ... هى مريضة .

ـ هذه هي المسألة ••• وقد هزتني مشاعر انسانية ومشاعر عطف ان صح التعبير ، فوددت لو أنفعها في شيء ما ، لأنني أتنبأ بالمصير الشقي البائس الذي ستئول اليه لا محالة • يُخيَّل اليّ أن الأُسرة التعيسة كلها قد أصبحت تعتمد عليك وحدك •

سألته صونيا فجأة :

ـ اسمح لي أن أسألك ••• هل صحيح أنك كلمتها أمس عن امكان الحصول على معاش تقاعد ؟ •••• لقد قالت لي أمس انك مستعد لأن تتولى القيام بالمساعي اللازمة من أجل أن تحصل لها على هذا المعاش• فهل هذا صحيح ؟

ـ غير صحيح البتة ، بل هو أيضاً سخف • كل ما فعلته هو انني أشرت الى جواز الحصول على نجدة موقتة يمكن أن تُدفع لأرملة موظف مات أثناء الخدمة ـ وهذا لا يتحقق طبعاً الا اذا كان هنالك أناس يرعون هذه الأرملة ويحمونها ـ ولكنني أعتقد أن أباك لم يستوف عدد السنين المطلوبة في الوظيفة ، حتى انه في الآونة الأخيرة فقد صفة الموظف • ومعنى ذلك ، باختصار ، أن الأمل الصغير الذي كان يمكن أن يراودنا يضعف في هذه الأحوال مزيداً من الضعف ، لأن حق أبيك في التعويض لا وجود له ••• بالعكس ••• فما أغرب أن تفكر أمك منذ الآن في معاش !••• هيء هيء هيء ! يا للسيدة المتعجلة !••

ـ نعم ••• هي •• معاش •• لأنها سريعة التصديق •• وطيبة•• وهي لأنها طيبة ، تظن أن ••• وتصدّق ••• ثم ان فكرها قد خلق هكذا • نعم •• معذرة ••

كذلك قالت صونيا مشوشة وهي تنهض من جديد لتنصرف •

قال بطرس بتروفتش :

ـ اسمحى لى ! ... انك لم تسمعى بعدُ كل شىء .

فجمجمت صونيا تقول :

ـ نعم ، لم أسمع بعدُ كل شىء .

وعادت صونيا تجلس مرة ثالثة وقد بلغت ذروة الارتباك والاضطراب .

وتابع بطرس بتروفتش كلامه فقال :

ـ اننى ، وقد رأيت الحالة التى هى فيها مع ولدين بائسين ، رغبت، كما سبق أن قلت لك ذلك ، فى أن أكون نافعاً لهـا بمقدار ما تتيحه لى وسائلى ، نعم بمقدار ما تتيحه لى وسائلى لا أكثر من ذلك . فمن الممكن مثلاً أن ننظم اكتتاب تبرعات ، أو حتى أن ننظّم سحب يانصيب ، أو أى شىء آخر من هذا القبيل ... كما يحدث هذا فى حالة كهذه الحالة بين الأقارب أو حتى بين أجانب يريدون أن يهبوا الى مساعدة أناس نزلت بهم مصائب الدهر . فعن هذا المشروع انما أودت أن أحدثك . انه مشروع ممكن التحقيق .

تأتأت صونيا تقول محدقةً الى بطرس بتروفتش فى عناد واصرار:

ـ نعم ، ذلك شىء حسن جداً ... جزاك الله خيراً ...

ـ الأمر ممكن ، ولكن ... سنتكلم عن هذا فيما بعد ... بل يمكننا أن نبدأ منذ اليوم . على كل حال سنلتقى فى هذا المساء ، وسنتفق. سنرسى الأسس ، كما يقال . تعالى الىَّ هنا فى نحو الساعة السابعة ... وسيحضر آندره حديثنا فيما آمل ... غير أن هناك أمراً يجب أن نبرزه ابرازاً خاصاً منذ الآن. ومن أجل هذا الأمر ياصونيا سيميونوفنا انما أبحت لنفسى أن أزعجك باستدعائك الى هنا . فى رأيى أن المال الذى سنجمعه يجب أن لا نضعه بين يدى كاترين ايفانوفنا نفسها ، حتى ان فى ذلك

خطراً . ومأدبة هذا المساء دليل واضح على ذلك : أن كاترين ايفانوفنا وهي لا تملك لقمة تضعها تحت ضرسها غداً ، ولا تملك حذاءين تنتعلهما فتقي نفسها السير حافية ، لا تحجم اليوم عن شراء خمرة الروم الجامايكي بل والنبيذ الماديري والقهوة ، اذا لم يخطيء ظني . لقد رأيت هذا كله عابراً . وغداً يقع كل شيء على عاتقك أنت ، ويكون عليك أن تقدمي لهم حتى خبزهم اليومي ، وذلك أمر لا يُعقل ! لهذا أرى أن ينظم اكتتاب التبرعات بحيث لا تتمكن الأرملة المسكينة من أن ترى حتى لون المال ان صح التعبير ، وبحيث لا يطلع على الأمر أحد غيرك أنت . ألست على حق ؟

ــ لا أدري ! ... في هذا اليوم وحده انما هي .. ذلك لا يحدث الا مرةً واحدة في الحياة ... انها شديدة الرغبة في أن تكرم ذكرى الراحل ... وهي ذكية جداً . على كل حال ، افعلْ ما تراه مناسباً .. وسأكون ... وسيكونون جميعاً ... وسيجزيك الله عن ذلك خير الجزاء ... واليتامى ..

لم تكمل صونيا جملتها ، وأجهشت باكية .

قال بطرس بتروفتش :

ــ فكّري جيداً فيما قلته لك . والآن أرجو بانتظار ذلك أن تقبلي عن أمك هذا المبلغ مشاركةً مني في اكتتاب التبرعات . واني لآمل خاصةً أن لا يُذكر اسمي في هذه المناسبة . يؤسفني أن أعبائي الكثيرة لا تسمح لي بالتبرع بأكثر من هذا المبلغ ...

قال بطرس بتروفتش ذلك ومدّ الى صونيا ورقة مالية بعشرة روبلات عُني بطيّها طياً دقيقاً . فتناولت صونيا الورقة المالية محمرّة الوجه خجلاً ، ثم نهضت بوثبة واحدة ، ودمدمت ببضع كلمات ،

واستأذنت بالانصراف مسرعةً اسراعاً شديداً . فشيَّعها بطرس بتروفتش حتى الباب بأبهة وجلال . وخرجت آخر الأمر من الغرفة متعجلةً عصبيةً مرهقةً ، وعادت الى كاترين ايفانوفنا وهى على حال من الاضطراب الشديد .

طوال المدة التى استغرقها هذا المشهد كان آندره سيميونوفتش ، الذى لم يشأ أن يقطع عليهما الحديث ، كان يبقى ساكناً قرب النافذة تارة ، أو يسير فى الغرفة تارةً أخرى . فلما خرجت صونيا اقترب من بطرس بتروفتش فجأة ، ومدَّ اليه يده يصافحه برصانة ووقار ، قائلاً له :

ــ لقد سمعت كل شىء و « رأيت » كل شىء (ألحَّ آندره سيميونوفتش على كلمة « رأيت » هذه الحاحاً خاصاً) . هذا عمل نبيل ، أقصد هذا عمل انسانى ! لقد أردت أن تتحاشى كل تعبير عن الشكر والامتنان ، لاحظتُ أنا ذلك . صحيح أننى من ناحية المبدأ أعارض كل احسان أو بر ، لأن الاحسان أو البر لا يستأصل الشر بل يبقيه ويغذيه ، ولكننى لا أملك مع ذلك الا أن اعترف بأننى تأملت عملك بشىء من الرضى والمسرَّة واللذة . نعم نعم ، أعجبنى عملك .

جمجم بطرس بتروفتش يقول متأثراً بعض التأثر ، متأملاً ليبزياتنيكوف فى شىء من الحذر والريب :

ــ هذه كلها أمور تافهة !

ــ لا ، ليست أموراً تافهة ! ان رجلاً جُرح جرحاً حاداً كما جُرحت أنت بإساءة الأمس ، ثم هو قادر فى الوقت نفسه على أن يفكر فى شقاء الآخرين وبؤسهم ، ان رجلاً كهذا الرجل ــ رغم أنه بتصرفه على هذا النحو يرتكب خطأً من الناحية الاجتماعية ــ جدير بالتقدير

خليق بالاحترام . الحق أنني لم أكن أتوقع هذا منك يا بطرس بتروفتش ، لا سيما وأن آراءك ... آه ... ما أشد الحرج الذي ماتزال تسببه لك هذه الآراء ! ما أشد تأثرك مثلاً بقضية الأمس تلك ! (بهذا هتف آندره سيمونوفتش الطيب ، وقد شعر نحو بطرس بتروفتش بمودة ومحبة على حين فجأة) ولكن لماذا ، لماذا حرصت هذا الحرص كله على ذلك الزواج « الشرعي » ، يا بطرس بتروفتش ، النبيل جداً ، اللطيف جداً ، ما حاجتك الى هذه « الشرعية » في الزواج ؟ اضربني ان شئت ، ولكنني أشعر بسعادة حين أتذكر أن هذا الزواج لم يتم ، وأنك حر ، وأنك لم تمت بعدُ موتاً تاماً بالنسبة الى الانسانية . نعم ، أشعر بسعادة حين أتذكر ذلك . هأنت ذا ترى أنني أصارحك بما في قلبي .

أجاب لوجين من أجل أن يقول شيئاً ما :

ـ اذا كنت أحرص على الزواج ، فلأنني لا أريد أن ينبت لي قرنان ، وأن أربي أولاد الآخرين ، كما يحدث في الزواج الحر الذي تدعون اليه .

ضرب آندره سيميونوفتش الأرض بقدمه كحصان المعركة سمع صوت البوق ، وسأل صاحبه متحمساً :

ـ الأولاد ؟ قلتَ الأولاد ؟ انني أسلِّم بأن الأولاد يثيرون مشكلة اجتماعية هامة جداً ، ولكن مسألة الأولاد ستُحل بطريقة أخرى تماماً . ان بعضهم يمضي الى حد انكار الأولاد انكاراً تاماً ، كما ينكر كل إشارة الى الأسرة على كل حال . وسنتحدث عن مشكلة الأولاد فيما بعد . أما الآن فلنتقف على مسألة القرنين هذه ، لأنني أحبها حباً خاصاً . ألا فاعلم ان هذا التعبير السيء المستمد من لغة الفرسان ، المستعار من كلام رجال مثل بوشكين ، سوف يُنبذ من معاجم المستقبل نبذاً تاماً . ما هذه القرون

التى تتحدثون عنها ؟ هه ! لماذا تتحدثون عن قرون ؟ نعم ، هناك قرون . ولكن الزواج الحر هو الذى لن يكون فيـه قرون ! ليست القرون الا نتيجة طبيعية للزواج الشرعى . انها الاقتصاص منه ان صح التعبير . انها الاحتجاج عليه . وبهذا المعنى يمكن أن نصفها بأنها ليس فيها حتى شىء من مذلة . فلو اضطررت يوماً أن أتزوج زواجاً شرعياً ـ وهذا افتراض مستحيل ـ لكان يسرنى ويسعدنى أن ينبت لى قرنان من تلك القرون التى تتحدثون عنها . سوف أقول عندئذ لزوجتى : « ياصديقتى ، أنا حتى هذه اللحظة لم أزد على أن أحببتك ، أما الآن فاننى أضيف الى الحب احتراماً ، لأنك عرفت كيف ترفعين احتجاجاً » . أتضحك ؟ أنت تضحك لأنك لا تملك من القوة ما يمكنـك من التحـرر من الأوهـام الاجتماعية . أنا أفهم أن يمتعض الزوج من خيـانة زوجته فى الزواج الشرعى ، ولكن هذا بعينه انما هو النتيجة البائسة لواقعة هى أيضاً بائسة ، بالنسبة الى الطرفين كليهما . أما حين يحمل الرجل قرنين صراحة ، كما هى الحال فى الزواج الحر ، فان القرنين ينعدم عندئذ وجودهما ان صح التعبير ، ويصبح من غير الممكن تصـورهما ، ويفقدان حتى اسم القرنين ؛ بل ان فى وسـعى أن أقول ان امرأتك تبرهن لك بذلك على مدى احترامها لك ، لأنها حكمت عليك بأنك لا تستطيع أن تحول بينها وبين سعادتها ، وبأنك متطور متقدم الى الحد الذى يمنعك من الانتقام منها بسبب أنها اتخذت لها خليلاً جديداً . يميناً انه ليخطر ببالى أحياناً اننى اذا تزوجت ـ زواجاً حراً أو زواجاً شرعياً ، سيان ـ فلربما أجىء لامرأتى بعشيق متى تأخرت عن اتخاذ عشيق من تلقاء نفسها . ولأقولن لها عندئذ : « يا صديقتى ، أنا أحبك ، ولكننى أريد بالاضافة الى ذلك أن تحترمينى . اننى أحرص على هذا . اليك عشـيقاً ! » . ألست على حق ؟ ألست على حق ؟

كان بطرس بتروفتش يصغي اليه ضاحكاً ، ولكن دون أن يبدى كثيراً من الاهتمام ، حتى انه لم ينتبه الى الكلام الا قليلاً ، لأنه كان يفكر فى شيء آخر تماماً ، وقد لاحظ ليبزياتنيكوف ذلك آخر الأمر .

لقد كان بطرس بتروفتش يعانى اضطراباً شديداً ، فكان يفرك يديه ويمعن فى التفكير .

ذلك كله تذكره آندره سيميونوفتش فيما بعد ، وفهمه .

الفصل الثاني

يصعب علينا أن نحدد ، على وجه الدقة ، الأسباب التي أنبتت في دماغ كاترين ايفانوفنا المختل فكرة مأدبة الجنازة هذه . لا بد أنها أنفقت على هذه المأدبة قرابة عشرة روبلات من العشرين روبلاً التي أخذتها من راسكولنيكوف لانفاقها على احتفالات الدفن . لعل كاترين ايفانوفنا كانت تعتبر نفسها مضطرة الى تكريم ذكرى الراحل تكريماً «لائقاً» ، حتى يعلم جميع المستأجرين ، ولا سيما أماليا ايفانوفنا ، أن « الراحل لم يكن أدنى قيمة منهم ، بل ربما كان أعلى كثيراً » ، وأنه ما من أحد منهم يحق له بعد اليوم أن « يُدل » بنفسه ، حين يفكّر فيه . ولعلها كانت تنقاد خاصة « لزهو الفقراء » ذاك الذي يدفع كثيراً من البؤساء بمناسبة بعض الاحتفالات التي لا يستطيعون التملص منها بسبب عاداتنا المتأصلة ، الى أن يبذلوا آخر ما يملكون من قوى وآخر ما يملكون من مال ، حتى لا يكونوا « دون الآخرين » وحتى لا « يحكم عليهم » الآخرون . ومن الجائز جداً كذلك أن تكون كاترين إيفانوفنا في ذلك الظرف بعينه ، أي في اللحظة التي بدا فيها أن الجميع هجروها ، قد أرادت أن تبرهن لجميع أولئك « المعوزين » الذين هم المستأجرون ، أنها امرأة تعرف كيف تعيش وكيف تستقبل ، وأنها نشأت لتحيا طرازاً من الحياة مختلفاً عن هذا الطراز كل الاختلاف ، وأنها تربّت في « منزل نبيل ، منزل ارستقراطي ، منزل كولونيل » ، وانها اذن لم تُخلق لتتولى

بنفسها كنس الأرض وغسل أسمال الأولاد في الليل . ان اندفاعات الزهو والصلف والغرور هذه تستبد أحياناً بأشد الناس فقراً ، وتستبد بأناس مهجورين ليس لهم أحد ، ولا يندر أن نرى هذه الاندفاعات تستحيل في بعض اللحظات الى حاجات حقيقية ، حاجات ماسة قوية . ثم ان كاترين ايفانوفنا ليست من تلك النساء اللواتي يُجندلن بسهولة : فمهما تكن الظروف رهيبة ، فلا شيء يمكن أن « يجهز » على عزيمتها وأن يهدّم ارادتها . ثم ان صونيا كانت على حق حين قالت ان دماغ أمها قد أخذ يختل قليلاً قليلاً . الواقع أن الأمر لم يتضح بعد ، ولكن لا شك أن كاترين ايفانوفنا قد تحمّلت من المحن منذ بعض الوقت ، ولا سيما في السنة الأخيرة ، ما لا بد أن يكون له أثر في عقلها . ثم ان مرض السل يهيىء المصاب به لاضطراب الملكات العقلية متى بلغ مرحلة معينة .

لم تكن « الخمور » كثيرة جداً ولا متنوعة جداً ، ولم يكن هناك خمرة ماديرية ، فتلك مبالغة . ومع ذلك كان ثمة خمرة : نبيذ وفودكا وروم وبورتو . وكان هذا كله من أنواع رديئة طبعاً ، ولكن مقاديره كانت كافية . وقد هيأوا ، بالاضافة الى حلوى الأرز التقليدية ، صنفين أو ثلاثة أصناف من الطعام (منها فطائر) أُعدّت في مطبخ أماليا ايفانوفنا . وحُضّر سماوران لمن يريدون أن يشربوا الشاي أو يحتسوا « البنش » بعد الوجبة . ان كاترين ايفانوفنا هي التي تولّت بنفسها شراء الأشياء ، يساعدها في ذلك أحد المستأجرين وهو بولندي رث مسكين لا يعلم الا الله لماذا يسكن عند السيدة ليفكسل . ان هذا البولندي لا يكف عن السعي هنا وهناك ماداً لسانه (كأنه كان يحاول أن يلفت الانتباه خاصةً الى هذا الأمر) ؛ وهو في كل لحظة ، بأي مناسبة وبغير مناسبة ، يخف الى كاترين ايفانوفنا ، ويلاحقها الى السوق ، ويغدق

عليهـا لقب « السـيدة الليوتنانة » بغير حساب ، الى أن ضاقت به ونفـد صبرها عليه ، مع أنها كانت قد أعلنت في أول الأمر أنها لولا هذا الرجل لضاعت • لقد كان من طبع كاترين ايفانوفنا أن تضفي أجمل الألوان على على أول شخص تلقاه ، وأن تغرقه بالمدح الى أن يشعر بحرج وخجل ، وأن تنسب اليه مزايا لا وجود لها في الواقع ــ ولكنها تعتقد هي بوجودها صادقة غير مرائية ــ ثم اذا « بأوهامها تتبدد » ، واذا هي تخاشنه وتغلظ له القول ، واذا هي آخر الأمر تطرد ذلك الشخص نفسـه الذي كانت تقدسه تقديساً منذ ساعات قليلة • ان لها طبعاً مرحاً ميالاً الى التسامح ، ولكنها بسبب أنواع المصائب وصنوف الاخفاق التي تلاحقت عليها أخذت « تطالب » في كثير من الحدة والمرارة أن يعيش جميع الناس حياة هدوء وفرح ، وأن لا يجـرؤ أحد أن يعيش على غير هذا النحو ؟ فاذا حدث أيسر نشـاز أو أقل فشـل خرجت عن طورها • فهي بعد أن تكون قد هدهدت نفسـها بأقوى الآمال وأجمـل الأماني وأسـطع الأخيلة وأبهى الأوهام تأخذ ، في لحظة واحـدة ، تلعن الأقدار وتشتم الدهر ، وترغي وتزبد ، وتعصف وترعـد ، وتخـرب كل ما يقع تحت يدها ، وتضرب برأسها الجدران •

وقد اكتسبت آماليا ايفانوفنا ، هي أيضـاً ، على حين فجأة ، قيمـة عظيمة وشأناً كبيراً في نظر كاترين ايفانوفنا ، لا يدري أحد لماذا ••• فأصبحت كاترين تقدر آماليا قدراً عظيماً وتحترمها احتراماً هائلاً ••• ولكن لعل مردّ ذلك الى المأدبة التي تريد كاترين أن تقيمها ، والى أن آماليا قد عرضت من تلقاء نفسها أن تشارك في اعداد هذه المأدبة : لقد تعهدت آماليا بنصب المائدة ، وتقديم المفرش ، وتأمين الصحون ، الخ ، وتعهدت باعداد الطعام في مطبخها • حتى ان كاترين ايفانوفنا نفسـها ،

حين ذهبت الى المقبرة ، قد خولتهـا كل السـلطات ، وفوّضتها فى كل أمر ؛ والحق أن كل شيء قد أُعدّ على أحسن وجه ، وهيئت المائدة تهيئة لا مأخذ عليها . صحيح أن الصحون والشوكات والسـكاكين والكئوس الكبيرة والصغيرة ، والفناجين ، كانت مختلفة غير متجانسة ، من مصـادر شتى وأنواع متباينة ، لأنها استعيرت من مستأجرين مختلفين ، ولكن كل شيء كان فى الساعة المحددة قد وُضع فى مكانه ، حتى ان آماليا ايفانوفنا التى كانت تشعر بأنها قامت بواجبها ونهضت بمهمتها على خير وجه ، والتى كانت تتحلى بثوبها الأسود وتضع على رأسها قبعة تزينها أشرطة صغيرة جديدة ، قد أخذت تستقبل المدعوين ، عند عـودتهم من المقبرة ، بشيء من الافتخار والاعتزاز . وهـذا الاعتزاز ، رغم أنه مشروع ، قد سـاء كاترين ايفانوفنا، لايدرى المرء لماذا ! فكانت كاترين تقول لنفسها : «لكأننا لم نكن لنستطيع أن نعد المائدة بدون آماليا ايفانوفنا ! » . وكذلك ساءتها القبعة ذات الأشرطة الجديدة. فكانت تقول لنفسها: « تُرى ألن تتباهى هذه الألمانية بأنها مالكة البيت ، وبأنها تفضلت وتنازلت فساعدت سكان بيتها المساكين من باب البر والاحسـان ؟ ان المـائدة ، فى منزل والد كاترين ايفـانوفنا الذى كان كولونيلاً وكان شـبه حاكم ، كانت تُعدّ أحيـاناً لأربعين ضيفاً ، وما كان لامرأة مثـل آماليـا ايفـانوفنا أو قولوا آماليـا لودفيجوفنا أن تُقبل هنالك فى المطبخ ! » . واشتد أزر كاترين ايفانوفنا بهذه الخاطرة ، فاكتفت مؤقتاً بأن تظهر لآماليا ايفانوفنا شـيئاً من الفتـور والبرود . وهناك ظرف مزعج آخر ساهم بعض المسـاهمة فى احنـاق كاترين ايفانوفنا : وهو أن المستأجرين الذين دُعوا الى الجنازة لم يكد يشترك أحد منهم فى الموكب ، عدا البولندى الذى شيّع جثمان المتوفى الى المقبرة . أما المأدبة أو قل وجبة الطعام الخفيفة فان الفقراء والتافهين

وجدهم هم الذين حضروها ، حتى ان بعضهم قد جاء اليها بثياب هي خرق رثة وأسمال بالية : أي أن الاحتفال لم يكن فيه على وجه الاجمال شيء من أبهة، لكأن المتقدمين في السن وأهل الجد والوقار من المستأجرين قد تعاهدوا فيما بينهم على أن يمتنعوا عن الحضور . من ذلك مثلاً أن بطرس بتروفتش لوجين ، وهو الذي يمكن أن يقال انه أعلاهم قدراً وأرفعهم شأناً ، لم يحضر المأدبة ، مع أن كاترين ايفانوفنا قد أعلنت جهاراً منذ العشية للجميع (لآماليا ايفانوفنا وبوليتشكا وصونيا والبولندي) أن بطرس بتروفتش رجل من أنبل الناس وأكرمهم ، وأنه ذو صلات عالية ، وأنه غني جداً ، وأنه كان صديقاً لزوجها الأول، وانه قد سبق أن استُقبل في منزل أبيها ، وأنه لذلك قد وعد ببذل جميع المساعي من أجل أن تحصل على معاش تقاعدي كبير .

يجب أن تذكر هنا أن كاترين ايفانوفنا اذا اتفق لها أن أطرت شيئاً من الأشياء ، كعلاقات عالية أو ثروة طائلة ، فانها تفعل ذلك دائماً مبرأة من المصلحة منزهة عن المنفعة ، لا يدفعها اليه أي حساب شخصي، وانما هي تفعله بنوع من كرم فياض وحماسة دافقة ، لا ترجو الا لذة مدح أحد الناس واضفاء قيمة كبيرة عليه .

وكما امتنع لوجين عن حضور المأدبة ، امتنع كذلك عن حضورها ـ ربما من باب « الاقتداء به » ـ ذلك الوغد المشئوم ليبزياتنيكوف . « ماذا يظن نفسه ؟ نحن ما دعوناه الا شفقة عليه وبراً به ، نحن مادعوناه الا لأنه يسكن في نفس الغرفة التي يسكن فيها بطرس بتروفتش الذي هو من معارفنا وأصحابنا ، فكان من المحرج لنا أن لا ندعوه ... » . وهناك سيدة وابنتها (والابنة متقدمة قليلاً في السن) لم تلبيا الدعوة أيضاً . ان هاتين المرأتين ، رغم أنهما لا تسكنان عند آماليا ايفانوفنا الا منذ أسبوعين ، قد شكتا عدة مرات من الضجة والصرخات الآتية من

غـرفة أسرة مارميلادوف ، ولا سيما حين كان المتوفى يعـود الى البيت سكران ، وهذا أمر قد وصل الى مسامع كاترين ايفانوفنا طبعاً عن طريق آماليا ايفانوفنا ، وذلك حين هددتها هذه ، أثنـاء تشـاجرها معها ، بأنها ستطردها من البيت هي وأسرتها ، صارخةً بأعلى صوتها أنهم « يزعجون جيراناً نبـلاء لا يرقون هم الى مسـتوى نعالهم » • ولقد قررت كاترين ايفانوفنـا ، عامـدةً ، أن تدعو هـاتين المرأتين اللتين « لا ترقى هي الى مستوى نعليهما ! » ، وكانت تحـرص على دعوتهما حرصاً خاصـاً لأنها كانت اذا اتفق أن التقت باحـدى هاتين المرأتين تراها تشيح عنها وجهها باحتقار • قالت كاترين ايفانوفنا لنفسها : « بهذا تعرفان أننا نمضي بالنبل الى حدِّ نسيان الاساءات والإهانات ، وسيكون في وسعهما بهذه المناسبة نفسها أن تدركا أن كاترين ايفانوفنا لم تألف أبداً أن تعيش في ظروف كهذه الظروف • • » • وكانت تنـوى أن تشرح لهما هذه الحقيقـة على المـائدة ، وأن تحـدثهما كذلك عن منصب « الحاكم » الذى كان يحتله المرحوم أبوها ، وربما استطاعت كذلك أن تُسمعهما بطريقة غير مباشرة أنه لا داعي لأن تشيحا بوجهيهما حين تلقيانها ، وأن هذه الحركة حركة غبية •

وقد غاب عن المأدبة أيضاً رجلٌ ضخم الجسم يقـولون انه ليوتنان كولونيل (وهو في حقيقته كابتن محال على التقاعد) ؛ ولكن عُلم أنه « طريح الفراش » من فرط السكر منذ الليلة البارحة •

الخلاصـة أنه لم يحضر المأدبة الا هؤلاء : البولنـدى ؛ وموظف هزيل قميء يرتدى فراكاً وسخاً وينشر رائحة كريهة ؛ ورجل آخـر عجوز قصير أصم يكاد يكون أعمى ، كان في الماضي يشغل وظيفة فيادارة البريد لا يدرى أحد ما هي ، وهناك مجهول يدفع عنه أجرة غرفته عند آماليا ايفانوفنا منذ مدة طويلة لا يدرى أحـد لماذا ؛ وقد جاء الى المأدبة

ليوتنان متقاعد سكران لم يكن في حقيقة أمره الا موظفاً في ادارة التموين ، وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً سفيهاً في كل لحظة ، ولا يرتدي صديرة فتصوروا قلة الحياء وفرط الوقاحة ، يا للعار ! وقد جاء رجل آخر فجلس الى المائدة رأساً حتى دون أن يحيي كاترين ايفانوفنا ؛ وجاءت في النهاية « شخصية » أخرى تلبس ثوب المنزل لأنها لا تملك غيره رداءً . ولكن ذلك قد بلغ من الخروج عن حدود اللياقة أنه أمكن اخراج الرجل بجهود متضافرة قامت بها آماليا ايفانوفنا والبولندي . ثم ان البولندي قد اصطحب رجلين بولنديين آخرين لا يذكر أحد أنهما سكنا عند آماليا ايفانوفنا في يوم من الأيام ، ولا لقيهما أحد في هذا المنزل يوماً على الأقل .

ذلك كله أزعج كاترين ايفانوفنا ازعاجاً شديداً فتساءلت تقول : « أمن أجل « هؤلاء » اذن قمنا بهذه الاستعدادات كلها ؟ » .

ومن أجل أن يتسع المكان كانوا قد اضطروا الى العدول عن اجلاس الأولاد الى المائدة ، فلقد كان الأولاد يكادون يشغلون وحدهم كل الغرفة . لذلك أقيمت لهم مائدة خاصة في ركن بآخر الغرفة على صندوق ، وأُجلس الولدان الأصغران على دكة ، وعُهد الى بوليتشكا ، بصفتها الكبرى ، أن تراقبهما وأن تطعمهما وأن تمخطهما ، « كما يُفعل بأولاد أسر راقية » .

الخلاصة أن كاترين ايفانوفنا قد اضطرت ، راضيةً أو كارهة ، أن تستقبل جميع هؤلاء الناس ، فاستقبلتهم بمزيد من الوقار والرصانة ، بل وبشيء من التعالي والعجرفة ، حتى لقد ألقت على بعضهم نظرة فيها قسوة خاصة ، ثم دعتهم أن ينتقلوا الى المائدة وقد ظهرت في هيئتها معاني الاحتقار والازدراء . وقد اعتقدت ، لسبب أو لآخر ، أن آماليا ايفانوفنا

هى المسئولة عن غياب المدعوين المرموقين ، فكانت تخاطبها بلهجة بلغت من الوقاحة أن آماليا ايفانوفنا سرعان ما لاحظت ذلك ، فاستاءت أشد الاستياء ، وأضمرت أكبر الضغن • ان بداية كهذه البداية لا تبشر بخير •

وجلس الجميع أخيراً الى المائدة •

كان راسكولنيكوف قد وصل فى لحظة العودة من المقبرة تقريباً • فسعدت كاترين ايفانوفنا أقصى السعادة ، أولاً لأنه بين سائر المدعوين « الرجل المثقف الوحيد » الذى سيحتل بعد سنتين ، كما يعرف الجميع ، كرسى استاذ جامعتنا ؛ وثانياً لأنه ما ان وصل حتى بادر يعتذر لها بكثير من الاحترام عن أنه لم يستطع أن يشارك فى الجنازة رغم رغبته الشديدة وحرصه الكبير •

ومنذ تلك اللحظة لم تتركه كاترين ايفانوفنا ؛ فقد أجلسته الى يسارها (وكانت آماليا ايفانوفنا قد جلست الى اليمين) ، ورغم مشاغلها المتصلة من حيث هى ربة البيت ، ورغم السعال الرهيب الذى كان يقطع كلامها ويخنقها فى كل لحظة ، والذى كان يبدو أنه تفاقم مزيداً من التفاقم منذ يومين ، فانها لم تنقطع عن التحدث الى راسكولنيكوف ، وعن أن تفضى اليه همساً بكل ما كان يعتلج فى قلبها ، ولا سيما باستيائها الشديد من اخفاق المأدبة • على أن ضحكاً مجلجلاً كان يعقب ذلك الاستياء فى كثير من الأحيان ، ضحكاً لا تستطيع أن تكظمه ، وهو ضحك على المدعوين وعلى صاحبة البيت خاصة •

ـ ذلك كله انما سببه هذه المرأة الشريرة ! (كانت كاترين ايفانوفنا تقول ذلك وتومىء لراسكولنيكوف بحركة من رأسها الى صاحبة البيت آماليا ايفانوفنا) • انظر اليها ! انها تحملق بعينيها ؛ هى تعلم أننا نتكلم عنها ، ولكنها لا تستطيع أن تفهم ، ان عينيها تخرجان من رأسها !

هؤ ... هؤ !... بومة حقـاً ! هأ هأ هأ ! هيء هيء هيء ! وما الذى تريد أن تبرهن لنـا عليه بقبعتها هذه ؟ هيء هيء هيء ! هل لاحظت أنها تريد أن تظهرني أمام الملأ جميعاً بمظهر محميتها ، وأن تبيّن أنها انما تشرّفني اذ تحضر هذا العشاء ؟ لقد طلبت منها ، لاعتقادي بأنها انسـانة لائقة ، أن تدعو أناساً محترمين ، وأن تدعو خاصةً أولئك الذين عرفوا زوجي الراحل . فانظر بمن جاءتني : لقد جاءتني بمهرّجين وصعاليك قذرين ! انظر الى ذاك الرجل الذى لم يغسل وجهه ! حقاً انهم لقطيع حيـوانات تمشى على قدمين ! وما قولك بهـؤلاء البولنديين الصـــغار ؟ هأ هأ هأ ! هيء هيء هيء ! ما من أحد سبق أن رآهم هنا ، لا ولا رأيتهم أنا هنا ، في يوم من الأيام ! فلماذا اذن جاءوا ؟ هل تستطيع أن تقول لى لماذا جاءوا ؟ ما أعظم هدوءهم في جلوسهم واحـداً الى جانب واحـد ! ما أظرفهم ! هيه ، يا « سيد » ! (كذلك نادت أحدهم فجأة ناطقة كلمة « سيد » باللغة البولندية) هل أخذت فطائر ؟ خذ مزيداً ، واشرب بيرة ، اشرب بيرة ! واشرب فودكا ! ألا تريد أن تشرب فودكا ؟ ــ انظر اليه ، لقد نهض بوثبة واحدة ، وها هو ذا يحيي منحنياً إنحناءً شـديداً ... انظر ... انظر ! مساكين ... لا بد أنهم جائعـون جـداً ! لا بأس ! فليأكلوا ! هم لا يحـدثون ضجة على الأقل .. ولكن .. ولكن ... لا أكتمك أنني أخشى أن يأخذوا ملاعق الفضـة وهي لصـاحبة البيت . يا آماليا ايفانوفنا (كذلك نادت صاحبةَ البيت فجأةً بصوت عالٍ تقريباً) ... انني أنبهك منذ الآن الى أنني غير مسئولة اذا هم سرقوا ملاعقك !

وسُرت كاترين ايفانوفنا من قولتها هذه ، فأخذت تضحك ضحكاً جنونياً ، ثم عادت تومىء برأسها الى صاحبة البيت قائلة لراسكولنيكوف :

ــ انها لم تفهم ! في هذه المرة أيضاً لم تفهم ! ما تزال فاغرة الفم ، محملقة العينين ، جوّالة الطرف ! انظر اليها ، انظر ! هي بومة حقاً ،

بومة ••• قلت لك انها بومة ••• ولكن بأشرطة جديدة ! هأ هأ هأ !••

وهنا استحال ضحكها الى سعال لا يطاق ، استمر خمس دقائق• تلطخ منديلها بالدم ، وظهر العرق على جبينها كحبات اللؤلؤ ؟ أرت راسكولنيكوف بقعة الدم فى صمت ، وما ان استردت أنفاسها حتى دمدمت تقول له وقد تخضبت وجنتاها بحمرة قانية وبلغت أقصى الاضطراب :

ـ انظر مثلاً : لقد عهدت اليها بمهمة دقيقة جداً هى أن تدعو تلك السيدة وابنتها • هل تعرف من أعنى ؟ فكان عليها فى مثل هذه الحالة أن تتصرف بكثير من الكياسة والفن والحذق ، ولكنها لم تحسن التصرف ، فاذا بتلك الحمقاء الأخرى ، اذا بتلك المخلوقة القروية ••• ذلك أنها ليست فى الواقع الا أرملة ميجر جاءت الى هنا تسعى الى الحصول على معاش تقاعدى ، فهى تنتظر فى حجرات الدخول متنقلة متسكعة هنا وهناك ، متبرجة مثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ رغم أنها فى الخمسين من عمرها (هذا معروف) ••• اذا بتلك المخلوقة لا تتنازل أن تجىء ، بل ولا ترسل كلمة اعتذار ، كما يليق بالمرء أن يفعل فى مثل هذه الأحوال اذا كان على شىء من الأدب والتهذيب ! وبطرس بتروفتش ، اننى لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يجىء هو أيضاً ! ولكن أين صونيا ؟ أين ذهبت ؟ آ ••• ها هى ذى أخيراً ! أين كنت يا صونيا ؟ غريب منك أن تكونى قليلة التقيد بالمواعيد حتى فى يوم جنازة أبيك • افسح لها مكاناً الى جانبك يا روديون رومانوفتش • هذا مكانك يا صونيتشكا ! اغرفى لك طعاماً ! خذى سمكاً بالبالوظة ، فهذا أحسن الطعام • سنجيئك بفطائر فوراً • والأولاد ، هل غرف لهم طعام ؟ هل أصبتم من كل شىء يا بوليتشكا ؟ هىء هىء هىء ! طيب ، عظيم ! كونى هادئة عاقلة يا لينيا !

وأنت يا كوليا لا تهزز ساقيك هكذا ! ابق جالساً كما يجب أن يجلس ولد من أسرة محترمة . ماذا تقولين يا صونيتشكا ؟

أسرعت صونيا تنقل اعتذارات بطرس بتروفتش ، محاولةً أن تتكلم بصوت قوى حتى يسمع جميع الضيوف كلامها ، ومستعملةً أرقى التعابير ، حتى تلك التى كان يصطنع استعمالها بطرس بتروفتش ، بعد أن تُجمِّلها مزيداً من التجميل أيضاً . وأضافت الى ذلك قولها ان بطرس بتروفتش قد رجاها أن تبلغ أمها أنه سيجىء متى أتيحت له الفرصة ليتحدث فى الأعمال على انفراد ، وليتفق على الاجراءات الواجب اتخاذها فى المستقبل ، الخ ، الخ ...

كانت صونيا تعلم أن هذا قد يهدِّىء كاترين ايفانوفنا ، ويدغدغ غرورها ، ويرضى كبرياءها خاصة .

وجلست الى جانب راسكولنيكوف بعد أن حيَّته بسرعة ، ونظرت اليه نظرة مستطلعة . على أنها طوال ما بقى من وقت كان يلوح عليها أنها تتحاشى أن تنظر اليه وأن تكلمه . كانت تبدو ذاهلة ، رغم أنها لم تحوِّل عينيها عن كاترين ايفانوفنا وأنها كانت تحاول أن تتنبأ برغباتها . ولم تكن صونيا ولا كاترين ايفانوفنا تلبسان ثياب الحداد ، لأنهما لا تملكان ثياب حداد : كانت صونيا ترتدى ثوباً كستناوياً قاتماً ، وكانت كاترين ايفانوفنا ترتدى ثوباً من قماش هندى ذى خطوط داكنة ، وهو الثوب الوحيد الذى تملكه .

وقد أحدثت اعتذارات بطرس بتروفتش أحسن الأثر . فبعد أن أصغت كاترين ايفانوفنا الى كلام صونيا برصانة ووقار ، سألت عن صحة بطرس بتروفتش بلهجة فيها تلك الرصانة نفسها وذلك الوقار نفسه . ثم لم تبطىء ، فأسرعت « توشوش » راسكولنيكوف قائلة بصوت قوى ان

رجلاً يبلغ من جلال القدر ما يبلغه بطرس بتروفتش لا يليق أن يقع بين أفراد قطيع كهذا « القطيع العجيب من الناس » ، مهما يكن اخلاصه للأسرة ، ومهما تكن روابط الصداقة التى كانت تربطه بالمرحوم أبيها .

ثم أضافت تقول بصوت يكاد يكون عالياً :

ـ من أجل ذلك ترانى ، يا روديون رومانوفتش ، أشكر لك شكراً خاصاً أنك لم تحتقر دعوتى ولم ترفض حضور مأدبتى رغم هذه البيئة وهذا الجو . وانى لأعتقد على كل حال أن صداقتك القوية للمرحوم زوجى هى التى حملتك وحدها على أن تفى بالوعد .

وهنا شملت المدعوين مرةً أخرى بنظرة فيها كبرياء ووقار ، ثم رفعت صوتها فجأة تسأل الشيخ الأصم الجالس الى الطرف الآخر من المائدة « هل يريد مزيداً من الشواء وهل سكبوا له شيئاً من خمرة البورتو » . فلم يجب الشيخ ولبث مدة من الزمن لا يفهم ما كان يُسأل عنه رغم أن جيرانه حاولوا أن يشرحوه له ضاحكين . كان فاغر الفم ينظر حواليه فى كل جهة ، فكان ذلك يثير مزيداً من الضحك والمرح .

ـ يا للغبى الأبله ! انظر ! ولماذا جىء به الى هنا ؟

وتابعت كاترين ايفانوفنا كلامها تخاطب راسكولنيكوف :

ـ أما بطرس بتروفتش فقد كنت دائماً أمحضه ثقة كاملة .

والتفتت فجأة نحو آماليا ايفانوفنا فألقت عليها نظرة قاسية مروّعة ، وأردفت تقول صارخة :

ـ هو لا يشبه طبعاً هاتيك النساء السافلات اللواتى ما كنّ ليُقبلن عند أبى حتى خادمات فى المطبخ ، واللواتى اذا ارتضى زوجى الراحل أن يشرّفهن باستقبالهن فانه ما كان ليفعل ذلك الا من فرط طيبة قلبه .

صاح موظف التموين قائلاً وهو يفرغ فى جوفه كأس الفودكا الثانى عشر :

ـ نعم ، كان يحب أن يشرب ••• هذا صحيح ••• كان يحب مجالسة الزجاجة حباً كثيراً !•••

أجابت كاترين ايفانوفنا باندفاع شديد :

ـ نعم ، كان لزوجي هذا الضعف ، ولكنه كان رجلاً طيباً نبيلاً ، يحب أسرته ويحترمها • ان عيبه الوحيد هو أن هذه الطيبة نفسها كانت تدفعه الى أن يثق بأناس فاسدين وأن يركن اليهم ••• الله يعلم مع من كان يعاقر الخمرة ••• مع رجال لا يساوون نعلى حذاءيه ! تصور يا روديون رومانوفتش أننا وجدنا فى جيبه ديكاً صغيراً من حلوى ! كان لا ينسى أولاده حتى حين يأخذ منه السكر كل مأخذ !

صرخ موظف التموين السابق يسأل :

ـ ديكاً صغيراً ؟ هل قلت ديكاً صغيراً ؟

أبت كاترين ايفانوفنا أن تتنازل فتجيبه ، وها هى ذى تغرق فى نوع من أحلام اليقظة ، وتتنهد • ثم استأنفت كلامها مخاطبة راسكولنيكوف:

ـ لعلك تظن ، كما يظن جميع الناس ، أننى أسرفت فى القسوة عليه • ولكن هذا غير صحيح • لقد كان يعتبرنى ، كان يعتبرنى كثيراً ، كثيراً • ما كان أنبل روحه وأطيب نفسه ! ولكم كنت أشفق عليه ، فى بعض الأحيان ! كان يتفق له أن يجلس فى ركن من الأركان ، ويأخذ ينظر الىّ من ركنه ذاك ، فأبلغ من الشفقة عليه عندئذ أننى أود لو ألاعبه ، ولكنى كنت أقول لنفسى : « لو دللته فسوف يسكر من

جديد ، • لم يكن يمكن صدّه عن الشراب وردعه عنه الا باظهار شىء من القسوة •

زأر موظف التموين السابق يقول وهو يصب لنفسه كأساً جديداً من الفودكا :

نعم ، كان يُشدُّ له شعره ! حدث هذا مراراً !

أجابت كاترين ايفانوفنا تقول بلهجة قاطعة ، وهى تتجه الى موظف التموين :

ـ ان أمثال هؤلاء البلهاء لا يستحقون أن يُشدَّ لهم شعرهم فحسب ، بل يستحقون أيضاً أن يُستقبلوا بضربات مقشة ! ولست أتكلم الآن عن الراحل •••

والتهبت البقع الحمر فى وجنتيها مزيداً من الالتهاب ، وارتفع صدرها ، ولم يبق الا دقيقة واحدة حتى يمكن أن تثير كاترين ايفانوفنا شجاراً فاضحاً • وكان كثيرون يضحكون مقهقهين ، كان كثيرون يجدون فى ذلك لذة ومتعة • أخذوا يستثيرون الموظف ويحرضونه ، هامسين له بأشياء فى أذنه • كان واضحاً أنهم يريدون أن يصبوا على النار زيتاً •

بدأ الموظف كلامه فسألها :

ـ اسمحى لى أن أسألك عمَّن كنت تتكلمين اذن ••• على كل حال ، لا بأس ••• فما هذه كلها الا ترهات ! أرملة ، أرملة مسكينة ! أنا أغفر وأعفو وأصفح ! دعونا •••

قال ذلك وجرع كأساً أخرى من الفودكا •

ظل راسكولنيكوف جالساً يصغى بصمت واشمئزاز • لم يكد

يلمس الطعام الذى كانت كاترين ايفانوفنا لا تنقطع عن ملء صحنه به ، بل انه لم يتظاهر بأنه يأكل الا من أجل أن لا يزعجها • وكان يحدّق الى صونيا ولا يحوّل عنها بصره • ولكن صونيا كانت تزداد قلقاً وهماً، انها توجس ، هى أيضـــاً ، أن المأدبة لن تنتهى بسـلام ، فكانت ترقب الاهتياج المتزايد عند كاترين ايفانوفنا ، خائفةً وجلة • وكانت تعلم ، فيما تعلم ، أنها ، هى صـونيا ، السببُ الرئيسى للاحتقـار الذى حمل المرأتين الجديدتين على أن ترفضا دعوة كاترين ايفانوفنا • لقد علمت من آماليا ايفانوفنا نفسها أن أم الفتاة مضت الى حد الاستياء من توجيه الدعوة اليهمـا ، وتسـاءلت : « كيف يمكننى أن أُجلس ابنتى الى جانب تلك «الآنسة» ؟ وكانت صونيا تقدّر أن كاترين ايفانوفنا قد وصل الى مسامعها شىء من هذا الكلام ؛ وان اهانة يلحقها أحد بصونيا لهى أشد وقعاً فى نفس كاترين ايفانوفنا من اهانة تُلحَق بها هى أو بأولادها أو بأبيها ، فهذه اهانة قاتلة ، وصونيا تعلم أن كاترين ايفانوفنا لن يهـدأ لها بال قبل أن « تبرهن لهاتين المرأتين التافهتين على أنهما كلتيهما » ، الخ الخ ! وشاءت المصادفات ، بما يشبه العمد ، أن ينقل أحدهم الى صـونيا صحناً فيـه قلبان من لبِّ خبز أسـود يخترقهما سهم • فاحمـرت كاترين ايفانوفنا غضباً ، وأسرعت تقول بصوت عال ان المسئول عن ارسال هذا الصحن ليس الا « حماراً سكران » ، لا أكثر ولا أقل •

وكانت آماليـا ايفـانوفنا ، من جهتها ، توجس أن نازلةً ستقع ، وتشعر عدا ذلك بأن موقف كاترين ايفانوفنا يهينها الى أعماق قلبها ، فمن أجل أن تغيّر الجوّ السىء الذى يسود الحفـل ، ومن أجل أن ترفع قدر نفسها فى نظر الناس فى الوقت ذاته ، أخذت على حين فجـأة تروى أن شخصاً من معارفها اسمه « كارل ، وهو مساعد صيدلانى » ، قد استأجر عربة فى الليل ، فأراد الحوذى أن « يقتله ، فأخذ كارل يتوسل اليه أن

لا يفعل ، وضمّ يديه باكياً ، وبلغ من الرعب أن قلبه كاد يثب من مكانه » • وكان فى نطق آماليا لكنة ألمانية واضحة ، فقالت لها كاترين ايفانوفنا ، وهى تبتسم ، ان عليها أن لا تروى نوادر روسية • فازداد استياء آماليا ايفانوفنا ، فردّت عليها تقول بلغة تخالطها ألفاظ ألمانية ، وتسودها لكنة ألمانية ، ان أباها البرلينى كان « رجلاً خطير الشأن جداً ، وانه كان يتجول واضعاً يديه فى جيبيه دائماً • » • ولم تطق كاترين ايفانوفنا الساخرة صبراً ، فانطلقت تضحك ضحكاً صاخباً مجنوناً ، فكان على آماليا التى نفد صبرها أن تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تنفجر •

وعادت كاترين ايفانوفنا توشوش راسكولنيكوف بما يشبه المرح قائلة :

ـ يا للعجوز الأنيقة ! أرادت أن تقول ان أباها كان يتجول واضعاً يديه فى جيبه ، فاذا سمع المرء كلامها أمكن أن يظن أنها تريد أن تقول ان أباها كان ينبش جيوبه دائماً ! هىء هىء هىء ! هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أن جميع هؤلاء الأجانب فى بطرسبرج ، ولا سيما الألمان ، الذين يتقاطرون علينا من كل حدب وصوب ، هم جميعاً أغبى منا • انظر بنفسك : هل يمكن أن يروى أحد أن « كارل ، مساعد الصيدلانى ، كاد يثب قلبه من مكانه » ، وأن هذا الأبله قد « ضمّ يديه باكياً » ، بدلاً من أن يوثق الحوذى ؟ آه ! يا للغبية الحمقاء ! هى تتخيل أن قصتها مؤثرة جداً • انها لا تدرك مدى ما فى هذه القصة من سخافة وبلاهة ! فى رأيى أن هذا الموظف السكّير أذكى منها كثيراً ! ان المرء يرى على الأقل أنه ترك كل عقله فى قاع كأسه ، أما الآخرون فهم جادّون جداً ؟ يبلغ غاية الاضحاك !••• انظر كيف تُجيل عينيها وتديرهما ! انها غاضبة ، انها غاضبة ! هأ هأ هأ ! هىء هىء هىء !

واذ انشرحت كاترين ايفانوفنا هذا الانشراح ، أسرعت تندفع

فى سرد طائفة من التفاصيل ، فأعلنت أنها بفضل معاش التقاعد الذى ستحصل عليه ، سوف تفتح مدرسة داخلية للبنات النبيلات فى مدينة « ت ... » التى وُلدت فيها . ولم تكن كاترين ايفانوفنا قد أطلعت راسكولنيكوف على مشروعها هذا . لذلك أخذت تشرح هذا النبأ شرحاً مستفيضاً ، وأخذت تصف الحياة الرائعة التى ستعيشها وصفاً مسهباً . ولا يدرى أحد كيف وُجدت بين يديها ، على حين فجأة ، «شهادة المديح» تلك التى سبق أن تحدث عنها المرحوم مارميلادوف الى راسكولنيكوف حين ذكر له فى أول لقاء بالخمارة أن زوجته كاترين ايفانوفنا قد رقصت ، فى يوم تخرجها من المدرسة الداخلية ، رقصة الشال ، « أمام الحاكم وشخصيات أخرى » . كان واضحاً أن الغرض من ابراز هذه الشهادة هو أن تثبت أن كاترين ايفانوفنا من حقها أن تفتح مدرسة داخلية ؟ ولكن كان الغرض من ابرازها أيضاً وخاصة هو أن تُخرس تينك المرأتين الفاسدتين اذا هما قبلتا الدعوة وأن تبرهن لهما برهاناً قاطعاً على أن كاترين ايفانوفنا تنتمى الى أسرة نبيلة ، بل يمكن القول انها تنتمى الى أسرة ارستقراطية ، فهى ابنة كولونيل ، وهى أفضل كثيراً من « أولئك النسوة المغامرات اللواتى ازداد عددهن ازدياداً كبيراً فى الآونة الأخيرة » . وسرعان ما دارت الشهادة بين أيدى المدعوين السكارى ، وذلك أمر حاذرت كاترين ايفانوفنا أن تعترض عليه أى اعتراض ، لأن الشهادة كانت « تنص نصاً صريحاً » على أن كاترين ايفانوفنا هى فعلاً بنت مستشار قضائى ، أى بنت كولونيل تقريباً . وقد تحمست كاترين ايفانوفنا فأفاضت فى الكلام على جميع تفاصيل الحياة الجميلة الهادئة التى تنتظرها فى مدينة «ت...» ، وتكلمت عن الأساتذة الذين ستدعوهم الى التدريس فى مدرستها ، وتكلمت عن شيخ محترم هو السيد مانجو الذى علّمها اللغة الفرنسية حين كانت تلميذة فى المدرسة الداخلية ، والذى ينهى الآن أيامه فى مدينة

« ت••• » ، ولا شك أنه سيقبل أن يدرّس فى مدرستها بأجور معقولة. وجاءت أخيراً على ذكر صونيا ، فقالت ان « صونيا ستذهب هى أيضاً الى مدينة ت ••• ، وانها ستنفعها هنالك فى أمور كثيرة » • ولكن حين قالت كاترين ايفانوفنا هذا الكلام ، خنق أحدهم ضحكةً عند الطرف الآخر من المائدة • فتظاهرت كاترين بأنها لم تسمع الضحكة ، ورفعت صوتها لتعدد المزايا الأكيدة التى تتحلى بها صوفيا سيميونوفنا ، وأضافت أن صونيا سيميونوفنا « جديرة بأن تساعدها ، لما تمتاز به من رقة وعذوبة ، وصبر ودأب ، وتضحية وبذل ، ونبل نفس وحسن تربية » • ثم ربتت على خديّ صونيا ، ونهضت تقبلها بحرارة مرةً أولى فمرةً ثانية •

واحمر وجه صونيا احمراراً شديداً • ثم ما نبثت كاترين ايفانوفنا أن أجهشت باكية على حين فجأة وهى تقول « انها ليست مخلوقة بلهاء بائسة محطمة الأعصاب ، وانها قد نفد صبرها وبارحتها قواها ••• وان المأدبة قد انتهت فليسكب الشاى ! » •

وكانت آماليا ايفانوفنا قد أضناها وأهلكها أنها لم تستطع أن تشارك فى الحديث ، حتى ان احداً لم يستمع لها ولم يصغ الى كلامها ، فقامت فى تلك اللحظة بمحاولة أخيرة• استجمعت شجاعتها ووجّهت الى كاترين ايفانوفنا ، رغم ما توجسه فى قرارة نفسها من قلق وخشية ، ملاحظةً هى من أعمق الملاحظات وأشدها جرأة ، اذ قالت لها انه سيكون عليها فى المدرسة الداخلية أن تعنى عناية خاصةً بغسيل البنات (قالت كلمة الغسيل بالألمانية) ، و « أن تستخدم لهذا الغرض سيدة محترمة » ، وان عليها كذلك أن لا « تدع لأية فتاة أن تقرأ روايات فى الليل سراً » • وكانت كاترين ايفانوفنا ثائرة الأعصاب مهدودة القوى ، ناهيك عن ازعاجات المأدبة ، فسرعان ما انفجرت تتهجم على آماليا ايفانوفنا قائلةً لها انها تقول « سخافات وحماقات » وانها لا تفهم شيئاً من شىء : فالاهتمام

بالغسيل هو فى مدرسة من المدارس الداخلية النبيلة لا يقع على عاتق المديرة بل هو من اختصاص المحاسبة • أما قراءة الروايات فان الاشارة اليها هى فى حد ذاتها أمر غير لائق ، لذلك يحسن بآماليا ايفانوفنا أن تصمت فلا تقول شيئاً •

اصطبغ وجه آماليا ايفانوفنا بحمرة شديدة من فرط الاستياء ، فقالت غاضبة ان « نياتها حسنة » وانها لا تريد لها الا « خيراً كثيراً » رغم أنها منذ مدة طويلة لم تقبض منها أى مال (قالتها بالألمانية) من اجرة المسكن • فسرعان ما ردتها كاترين ايفانوفنا الى مكانها ، اذ قالت لها انها تكذب فى ادعائها أنها « تريد لها الخير » ، لأنها فى الليلة البارحة نفسها ، بينما كان المتوفى ما يزال راقداً على المائدة ، جاءت تعذبها بمسألة أجرة المسكن هذه • وحالف التوفيق آماليا ايفانوفنا فى الرد فقالت لها أنها « دعت السيدات ، ولكن تلك السيدات لم يجئن ، لأن تلك السيدات سيدات محترمات لا يمكن أن يلبين دعوة سيدة غير محترمة » • فأسرعت كاترين ايفانوفنا تلح فوراً على أن آماليا ايفانوفنا ليست مؤهلة لأن تفصل فيما هو محترم وفيما هو ليس بمحترم ، لأنها هى نفسها غير محترمة • ولم تحتمل آماليا ايفانوفنا هذه الشتيمة ، فسرعان ما أعلنت أن « أباها البرلينى » (قالتها بالألمانية) كان رجلاً خطير الشأن جداً ، جداً ، وانه كان يمشى واضعاً يديه فى جيبه ، وانه كان دائماً يزفر هكذا : بوف ••• بوف !••• ومن أجل أن تعطى عن أبيها صورة محسوسة أكثر من ذلك ، نهضت عن مكانها ودست يديها فى جيبها ونفخت خديها وأخذت تخرج من فمها أصواتاً مبهمة لكنها تشبه « بوف ، بوف » ، فكان جميع المستأجرين يضجون بضحك صاخب ، وكان يحلو لهم ، وقد أحسوا بأن معركة ستقع بين المرأتين ، أن يحرضوا آماليا ايفانوفنا باستحسانهم مزيداً من التحريض •

طفح الكيل بالنسبة الى كاترين ايفانوفنا ، فسرعان ما أعلنت بصوت قوى يسمعه الجميع « أن آماليا ايفانوفنا قد لا يكون لها « أب » أصلاً ، وأنها ليست الا سكيرة فنلندية من بطرسبرج ، وأنها لا بد أن تكون قد عملت طباخة أو ما هو أسوأ من ذلك أيضاً .

احمرت آماليا ايفانوفنا احمراراً شديداً وصاحت تقول : « ان كاترين ايفانوفنا هى التى قد لا يكون لها أب ، أما أبوها هى فقد كان يعيش ببرلين ، وكان يرتدى ردنجوتاً طويلاً ، وكان ينفخ دائماً : « بوف ، بوف » .

قالت كاترين ايفانوفنا باحتقار « ان أصلها هى يعرفه الجميع وأن الشهادة التى قرأها الحضور منذ لحظة تذكر هى نفسها بكلام مطبوع ان أباها كان كولونيلاً . أما أبو آماليا ايفانوفنا (اذا صح أن لها أباً) فلا بد أنه فنلندى من بطرسبرج كان بائع حليب ، ولكن أغلب الظن أنها لم يكن لها أب أصلاً ، والدليل على ذلك أننا لا ندرى حتى الآن هل الاسم الذى ينسبها الى أبيها هو ايفانوفنا أو لودفيجوفنا » .

هنا بلغ حنق آماليا ايفانوفنا ذروته ، فضربت المائدة بقبضة يدها وأعولت تقول : « ان اسمها هو آماليا ايفانوفنا وليس آماليا لودفيجوفنا ، وان أباها كان اسمه يوحنا ، وانه كان عمدة مدينة ، وذلك منصب لم يشغله أبو كاترين ايفانوفنا فى يوم من الأيام » .

اصفر وجه كاترين ايفانوفنا اصفراراً شديداً ، واهتز صدرها اهتزازاً عميقاً ، ونهضت عن مكانها وقالت بصوت قاس ظاهره الهدوء : اذا تجرأت آماليا ايفانوفنا ولو مرةً واحدة أخرى « فقارنت بين أبيها التافه الذى لا قيمة له ، وبين أبيها هى ، فلتنزعنّ عنها قبعتها ولتدوسنّها بقدميها » . فلما سمعت آماليا ايفانوفنا هذه الكلمات أخذت تركض فى



آماليا ايفانوفنا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

الغرفة طولاً وعرضاً ، وهى تصرخ بكل ما أوتيت من قوة أنها صاحبة البيت ، وأن على كاترين ايفانوفنا أن « تخلى المسكن فوراً » • ثم أسرعت تجمع ملاعقها الفضية من على المائدة • وأعقبت ذلك جلبة لا توصف ، فالأصوات تنفجر من هنا ومن هناك ، والأولاد أخذوا يبكون ؛ واندفعت صونيا تريد أن تصد كاترين ايفانوفنا ولكن آماليا ايفانوفنا أشارت الى البطاقة الصفراء ، فما كان من كاترين ايفانوفنا الا أن دفعت عنها صونيا وهجمت على آماليا ايفانوفنا لانفاذ التهديد الذى أعلنته بصدد القبعة •

وفى تلك اللحظة فُتح الباب ، وظهر فى العتبة بطرس بتروفتش لوجين فجأة •

توقف لوجين لحظة ، وألقى على الحضور جميعهم نظرة قاسية فاحصة ، فهرعت كاترين ايفانوفنا نحوه •

الفصل الثالث

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ بطرس بتروفتش ! أنت على الأقل ، أنجدني، أغثني ! أفهمْ هذه المخلوقة الغبية أنها لا يحق لها أن تعامل بمثل هذه المعاملة سيدةً من أسرة كريمة أخنى عليها الدهر ، وأن هناك محاكم لهذا الأمر ... سوف أشتكي الى الحاكم العام بشخصه ... يجب أن تُسأل هذه المخلوقة عما فعلت !.. تكريماً لذكرى الاستقبال الذى استقبلك به أبى ... كن حامياً لليتامى ...

قال بطرس بتروفتش مردداً مكرراً وهو يبعد كاترين ايفانوفنا بحركة من يده :

ـ اسمحى لى يا سيدتى ، اسمحى لى ، اسمحى لى يا سيدتى . أنا لم أشرف بمعرفة أبيك فى يوم من الأيام ، وأنت تعلمين هذا حق العلم ... اسمحى لى يا سيدتى ! (أخذ أحدهم يضحك ضحكاً صاخباً) . ولست أنوى أن أشارك فى مشاجراتك المتصلة مع آماليا ايفانوفنا ... انا انما جئت لأمر ... شخصى ، أنا انما جئت أطلب على الفور ايضاحاً من ابنة زوجك صوفيا ايفانوفنا .. هذا هو اسمها ، أليس كذلك ؟ فاسمحى لى أن آمر ...

قال بطرس بتروفتش ذلك وترك كاترين ايفانوفنا واتجه الى الركن المقابل من الغرفة ، حيث كانت صونيا •

تجمدت كاترين ايفانوفنا كأنما نزلت عليها صاعقة • لم تستطع أن تفهم كيف أمكن أن ينكر بطرس بتروفتش أن أباها قبد أكرم ضيافته • انها وقد تخيلت تلك الضيافة أصبحت تصدقها وتؤمن بها هى نفسها • وهذه اللهجة التى تكلم بها بطرس بتروفتش ، هذه اللهجة الخشنة ، الرسمية ، التى فيها احتقار وتهديد ، قد أدهشتها أيضاً • على أن الجميع قد صمتوا منذ دخل بطرس بتروفتش • ان « رجل الأعمال الجاد » هذا يفوق سائر الحضور شأناً ، ولقد كان واضحاً عدا ذلك أنه انما جاء لأمر خطير ، فلا بد أن يكون هناك سبب خارق دفعه الى أن يغشى هذه البيئة ، ولا بد اذن أن يقع حادث ما بعد قليل • وكان راسكولنيكوف الى جانب صونيا فتنحى حتى يدع له أن يمر • وبدا على بطرس بتروفتش أنه لم يلاحظه • وبعد دقيقة ظهر ليبزياتنيكوف فى عتبة الباب هو أيضاً• لم يدخل الغرفة ، غير أنه وقف مستطلعاً كذلك ، حتى ليكاد يكون مدهوشاً • وقد أصاخ بسمعه مصغياً ، لكنه ظل مدة طويلة يبدو عليه أنه لا يفهم الأمر الذى يدور عليه الكلام •

قال بطرس بتروفتش يخاطب الجمع :

ــ اغفروا لى ازعاجكم ، غير أن القضية هامة خطيرة ؛ بل اننى يهمنى أن تنجلى الأمور على رءوس الأشهاد • يا آماليا ايفانوفنا ، أرجوك وألح فى الرجاء أن تستمعى الى الحديث الذى سأجريه مع صوفيا ايفانوفنا ، بصفتك صاحبة البيت •

وتابع كلامه يقول مخاطباً صونيا التى كانت مذهولة وكانت مروعة مذعورة سلفاً :

ـ يا صوفيا ايفانوفنا ، بعد زيارتك فوراً افتقدت ورقة نقدية قيمتها مائة روبل كانت موجودة على المائدة عند صديقي آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف • فاذا كنت تعرفين بطريقة أو بأخرى أين توجد هذه الورقة المالية الآن ، فقلت لنا أين توجد ، فان لك عليّ عهد الشرف ـ وهؤلاء جميعاً شهود على ما أقول ـ أن تقف القضية عند هذا الحد ؟ والا كنت مضطراً أن ألجأ الى اجراءات أخطر ••• وليس لك عندئذ أن تلومى الا نفسك !•••

خيّم على الغرفة صمت مطلق • حتى الأطفال الذين كانوا يبكون سكتوا • وكانت صونيا واقفة ، شاحبة كأنها ميتة ، تنظر الى لوجين ولا تجد كلاماً تجيبه به • كان يبدو عليها أنها لا تفهم • وانقضت بضع ثوان •

سألها لوجين وهو يحدق اليها :

ـ هيه ؟ ما قولك ؟

فقالت صونيا أخيراً بصوت واهن :

ـ لا أعلم •••

ـ حقاً ؟ لا تعلمين ؟ لا تعلمين شيئاً ؟

كذلك سألها لوجين مكرراً ، ولزم الصمت بضع ثوانٍ أخرى ، ثم استأنف كلامه فقال بجفاء وخشونة :

ـ فكرى يا آنسة ، فكّرى فى الأمر • أحب أن أمهلك بعض الوقت لتفكرى • اسمعى : لولا اننى واثق بما أقول ، موقن منه ، فاننى بحكم تجربتى ما كنت لأجازف فأوجه اليه اتهاماً مباشراً الى هذا الحد ، لأننى سأُحاسب أنا نفسى عن توجيه مثل هذا الاتهام المباشر على رءوس

الأشهاد اذا ظهر أنه خطأ فحسب • ذلك أمر أعرفه • اننى فى هذا الصباح قد بعت ، لقضاء حاجات شخصية ، بضعة سندات ذات ريع ، قيمتها الاسمية ثلاثة آلاف روبل • ذلك هو الرقم المسجل فى دفترى • فلما عدت الى مسكنى — وان آندره سيميونوفتش شاهد على ذلك — أخذت أعدُّ المال من باب التثبت والتحقق ، حتى اذا عددت ألفين وثلاثمائة روبل ، رتبتها فى محفظتى ووضعت المحفظة فى الجيب الداخلى من ريدنجوتى • وبقى على المائدة نحو خمسمائة روبل أوراقاً نقدية ، منها ثلاثٌ قيمةُ الواحدة مائة روبل • وفى تلك اللحظة دخلت أنت (تلبيةً لدعوتى) ، وطوال المدة التى قضيتها عندى ، كان يبدو عليك اضطراب شديد ، حتى انك قد نهضت أثناء الحديث ثلاث مرات • كنت تريدين أن تخرجى — لا أدرى لماذا ! — رغم أن محادثتى معك لم تكن قد انتهت • ان آندره سيميونوفتش يستطيع أن يؤكد هذا كله • وأغلب الظن أنك لن ترفضى أنت نفسك ، يا آنسة ، أن تعترفى بأننى أرسلت آندره سيميونوفتش فى طلبك لهدفٍ واحد هو أن أتكلم معك فى الوضع المحزن الذى آلت اليه قريبتك كاترين ايفانوفنا (التى لم أستطع أن أشارك فى مأدبتها) ، وفى وسائل مساعدتها بتنظيم اكتتاب تبرعات أو اقامة يانصيب أو شىء من هذا القبيل • وقد شكرتنى ، حتى ان الدموع ترقرقت من عينيك (اننى أروى الأشياء كما وقعت ، أولاً لأذكّرك بها ، وثانياً لأبيّن لك أنه ما من تفصيل من التفاصيل قد امحّى من ذاكرتى) • ثم تناولت من على المائدة ورقة بعشرة روبلات وأعطيتك اياها ، دليلاً على اهتمامى بقريبتك ، ومشاركةً أولى منى فى مساعدتها • وهذا أيضاً قد رآه سيميونوفتش • وخلوت بعد ذلك الى آندره سيميونوفتش • وتحدث معه قرابة عشر دقائق • حتى اذا خرج عدت الى المائدة أنوى أن أرتب ،

على حدة ، المال الذى كان موضوعاً عليها ، وذلك بعد أن أعدّه مرة أخرى (كنت قد قررت ذلك من قبل) • فما كان أشد دهشتى حين وجدت أن ورقة مالية بمائة روبل قد فُقدت • افصلى فى الأمر بنفسك : لا يمكننى بأية حال من الأحوال أن أشك فى آندره سيميونوفتش، حتى ان هذه الفكرة وحدها تُشعرنى بالخجل والعار • لا ولا يمكن أن أكون قد أخطأت فى حساباتى ، لأننى قبل وصولك بدقيقة واحدة كنت قد تثبت من صحة المجموع • لذلك ، ونظراً لاضطرابك الشديد أثناء المقابلة، ونظراً لاستعجالك الخروج ، ونظراً لكونك قد ظللت واضعةً يديك على المائدة بضع لحظات ، ونظراً لوضعك الاجتماعى وما يتخلقه من عادات ، فقد « أُكرهت » ان صح التعبير ، أُكرهت مرتاعاً مشمئزاً على أن أتوقف عند شبهة لا شك أنها قاسية لكنها فى محلّها ولها ما يسوّغها • اضيف وأكرر أننى رغم يقينى « البديهى » الكامل أدرك أن القاء هذه التهمة لا يخلو من مخاطر أتعرض لها • ولكننى لم أتردد دقيقة واحدة ، كما ترين ، بل ثارت ثائرتى واستعر حنقى ، وسأقول لك الآن لماذا ثارت ثائرتى واستعر حنقى : ان سبب ذلك هو عقوقك الأسود يا آنسة ؟ كيف ؟ أأدعوك الى مسكنى ، وأهتم بقريبتك المسكينة ، وأعطيك عشرة روبلات مساهمةً منى فى مساعدتها ، فتكافئينى هذه المكافأة فى تلك الدقيقة نفسها ؟ لا ، حقاً ليس هذا حسناً ! ولا بد من أن تُلقَّنى درساً ! فكّرى فى الأمر ! ثم اننى أطلب منك ذلك كصديق مخلص (وليس يمكن أن يكون لك فى هذه اللحظة صديق خير منى) : تذكرى هذا ، والا أصبحتُ بغير رحمة أو شفقة • هل تعترفين بأنك •••

دمدمت صونيا تقول مذعورة :

ــ أنا لم أسلبك شيئاً • أنت أعطيتنى عشرة روبلات • ها هى ذى• اننى أردها اليك •

واستلت صونيا من جيبها منديلاً ، واهتدت الى العقدة التى عقدتها فيه ففضتها وسحبت منها ورقة العشرة روبلات ومدتها الى لوجين •

قال لوجين ملحاً ، بلهجة اللوم والتقريع ، دون أن يتناول الورقة المالية :

ـ ألا تعترفين اذن بالمائة روبل ؟

أجالت صونيا بصرها فيما حولها • كان الجميع ينظرون اليها بعيون قاسية ، ساخرة ، مبغضة !••• وألقت نظرة على راسكولنيكوف •

كان راسكولنيكوف واقفاً ، مسنداً ظهره الى الجدار ، عاقداً ذراعيه على صدره ، يحدّق اليها بعينين ملتمعتين •

وأفلتت من صونيا هذه الاستغاثة :

ـ يا رب !

قال لوجين فى رفق ، بل بصوت عذب :

ـ يا آماليا ايفانوفنا ، سيكون علينا أن نبلغ الشرطة ، فأرجوك بانتظار ذلك أن ترسلى أحداً ينادى البواب •••

قالت آماليا ايفانوفنا وهى تضرب كفاً بكف :

ـ يا اله الرحمة * ! كنت أعرف أنها لصة !

قال لوجين :

ـ ها ••• كنت تعرفين ذلك ؟ لا بد أن يكون هنالك اذن سبب دعاك الى استخلاص هذه النتيجة ، واستخراج هذا الرأى فى الماضى ! فأرجوك يا آماليا ايفانوفنا ، المحترمة جداً ، أن تتذكرى هذه الكلمات التى قلتها الآن ، وقد قلتها أمام شهود على كل حال •

أخذ الحضور يتكلمون بأصوات قوية في كل جهة من الجهات ، وشمل الحفلَ كلَّه اضطرابٌ كبير •

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول فجأةً وقد ثابت الى رشدها :

ــ كيف ؟

واندفعت مسرعةً نحو لوجين مرددة :

ــ كيف ؟ أتتهمها بالسرقة ؟ أتتهمها هي ؟ هي ، صونيا ؟ آه ••• يا للحقيرين ! يا للحقيرين !

وارتمت على صونيا ، فاحتضنتها بذراعيها المعروقتين الهزيلتين ككُلابة • وتابعت كلامها تقول :

ــ صونيا ! كيف تجرأت أن تقبلي عشرة روبلات من هذا الرجل؟ يا لك من حمقاء ! يا لك من حمقاء ! ردِّيها اليه حالاً ، رديها اليه حالاً ، روبلاته العشرة ! خذ •••

انتزعت كاترين ايفانوفنا الورقة النقدية من يد صونيا ، فدعكتها بيديها ، ورمتها في وجه لوجين ، فأصابت كرتها عينه ثم تدحرجت على أرض الغرفة • فأسرعت آماليا ايفانوفنا تشيلها ، وغضب بطرس بتروفتش ، وصرخ قائلاً :

ــ أمسكوا هذه المجنونة !

وفي تلك الدقيقة ظهر عدة أشخاص آخرين يمكن أن نرى بينهم، عدا ليبزياتنيكوف ، السيدتين القادمتين من الأقاليم ، اللتين تسكنان هنا منذ مدة قصيرة •

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ كيف ؟ المجنـونة ؟ أأنا المجنونة ؟ يا للأبله ! يا للوغد الشـقي ! يا للرجل الدنيء ! صونيا ، صونيا ، تسرق منه مالاً ؟ صونيا ، سارقة ؟ ولكنها قادرة على أن تعطيك مالاً يا أبله !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وانفجرت تضحك ضحكة هسترية ، وهتفت تقول وهي تركض الى اليمين والى اليسار مشيرة لجميع الناس الى لوجين :

ـ أرأيتم الى هذا الأبله ؟

ولمحت صاحبة البيت فجأة فقالت :

ـ كيف ؟ أفأنت أيضاً تدّعين أنها سارقة ؟ يا للدجاجة الألمانية ! انظروا أيها الناس ، انظروا !

وعادت تخاطب بطرس بتروفتش فقالت :

ـ آه ••• أنت ••• أنت ••• أجهلت أنها لم تترك هذه الغرفة لحظة واحدة أيها النذل ، فما ان خرجت من عندك حتى جاءت تجلس الى جانبي ؟ لقــد رآهـا الجميع • جلست هنـا ، الى جـانب روديون رومانوفتش ! فتشها اذن ! فما دامت لم تذهب الى أي مكان ، فلا بد أن يكون المال معها • ابحث اذن ! ابحث اذن ! ابحث ! ابحث ! ولكن اذا لم تجد شـيئاً يا عـزيزي فلتحاسـبنّ على افترائك ! الى الامبـراطور سأشكوك ، الى الامبراطور ، الى القيصر الرحيم ! لأرتمينّ على قدميــه حالاً ، في هذا اليوم نفسه ! أنا يتيمة ! سيسمحون لي بالدخول ! ماذا ؟ أتظن أنهم لن يسمحوا لي بالدخول ؟ أنت اذن مخطىء ! لسوف أصل اليه ، لسوف أصل اليه ! آ ••• كنت تعوّل على خجلها وحيائها ، على

رقتها وخفرها ، أليس كذلك ؟ على هذا انما كنت تبنى أملك ! ولكننى ، أنا ، لا أستحي يا عزيزى ! أنا عيناى ماء ! هيَّا فتش ! فتش !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك خارجةً عن طورها وقد أخذت تهز لوجين بكل قواها وتجره نحو صونيا .

قال لوجين :

ـ أنا مستعد .. أنا مستعد لأن أحاسَب ... ولكن هدئى روعك يا سيدتى ، هدئى روعك ! انى لألاحظ حقاً أنك لا تستحين ... (هنا أصبح كلام لوجين دمدمة) ... أمام الشرطة انما يحسن فى الواقع أن ... رغم أن ههنا شهوداً يكفى عددهم ويزيد ... أنا مستعد .. ولكن هذه مهمة محرجة بالنسبة الى رجل ... وذلك بسبب .. بسبب الجنس طبعاً .. ليتنى أستطيع أن أطلب الى آماليا ايفانوفنا أن تساعدنى ... رغم أن الطريقة الواجبة ليست هذه الطريقة ... ليست هذه الطريقة.. ما العمل ؟

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ اختر من تشاء ! فليفتشها من يريد أن يفتشها ! صونيا ! اقلبى جيوبك أمامهم ! انظر ، انظر أيها الشيطان ! هأنت ذا ترى أن جيبها خال . أرأيت ؟ واقلبى الجيب الآخر الآن ! انظر ! انظر ! أرأيت ؟ أرأيت ؟

ولم تكتف كاترين ايفانوفنا بقلب جيبى صونيا ، بل شدتهما شداً عنيفاً لتظهرهما اظهاراً أوضح . فاذا بورقة صغيرة تثب عندئذ من الجيب الثانى ، وهو الجيب الأيمن ، فترسم فى الهواء قوس دائرة ثم تسقط عند قدمى لوجين .

جميع الحضور رأوا الورقة ، وكثيرون منهم أطلقوا صرخات • ومال بطرس بتروفتش على الأرض ، فتناول الورقة باصبعين ، وفضّها على مرأى من الشهود كافة • انها ورقة مائة روبل قد طُويت ثماني طيّات • أجال بطرس بتروفتش يده فى جميع الاتجاهات حتى يتمكن الحضور جميعاً من رؤية الورقة رؤية واضحة •

أعولت آماليا ايفانوفنا تقول :

ــ سارقة ! لصة ! اخرجى من هنا ! نادوا الشرطة ، نادوا الشرطة ! يجب ارسالهم الى سيبيريا ! اخرجوا من هنا !

وارتفعت صيحات من كل صوب • وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يحوّل بصره عن صونيا ، مع القائه نظرةً سريعة على لوجين من حين الى حين • وما تزال صونيا واقفةً فى مكانها كأنها أصيبت بخبال ، حتى انها لا تبدو عليها دهشة • وفجأة احمر خداها احمراراً شديداً ، وأطلقت صرخة خفيفة ، وأخفت وجهها فى يديها • ثم صرخت بصوت ممزّق يقطعه نشيج البكاء ، وهى تهرع نحو كاترين ايفانوفنا ، صرخت تقول :

ــ لا ، لست أنا !••• أنا لم آخذها !• لا أعلم !

فاحتضنتها كاترين ايفانوفنا بذراعيها ، وضمتها اليها بقوة كأنها تريد أن تجعل من صدرها متراساً يحميها •

وصرخت كاترين ايفانوفنا تقول على خلاف الدليل القاطع ، وهى تهدهدها فى ذراعيها كما يُهدهَد طفل صغير ، وتقبّلها طائشة العقل ، وتمسك يديها فتغرقهما لثماً :

ــ صونيا ! صونيا ! لست أصدق ! هأنت ذى ترين أننى لا أصدق! أأنت تسرقين ؟ أهم أغبياء حتى يصدقوا أنك تسرقين ؟ يا رب !•••

ثم صرخت تخاطبهم جميعاً :

ـ أنتم بلهاء ! أنتم بلهاء ! أنتم اذن لا تعرفون حتى الآن مدى ما تتمتع به من طيب القلب ونبل النفس ! أنتم اذن لا تعرفون أية فتاة هي ! آهي تسرق ؟ هي ؟ ألا انها لمستعدة أن تهب للناس آخر قميص تملكه ، ألا أنها لمستعدة أن تسير حافية القدمين لتبيع آخر قميص تملكه ، ألا انها لمستعدة أن تهب لكم أنتم آخر قميص تملكه اذا كنتم في حاجة اليه ! نعم ، هذه هي طبيعتها ! ولئن تطوعت فأصبحت ذات بطاقة ، فلأن أولادي كانوا يتضورون جوعاً ! لقد باعت نفسها في سبيلنا ! آه ... يا زوجي الراحل ... يا زوجي المسكين الراحل ، هل ترى هذا ؟ هل ترى ؟ انظر الى مأدبة الجنازة هذه التي تقام لك ! رباه ! ولكن ما بالكم لا تدافعون عنها أنتم ؟ ما بالكم تبقون جامدين كالمومياوات ؟ لماذا لا تدافع عنها أنت يا روديون رومانوفتش ؟ أتصدق أنت أيضاً أنها حقاً ...؟ انكم جميعاً لا تساوون خنصرها ، جميعاً ، جميعاً ، جميعاً ! هلاّ دافعتم عنها أخيراً ؟ رباه !...

كان لشهقات كاترين ايفانوفنا المسكينة ، المصدورة ، التي هجرها جميع الناس أثر قوي في الحضور . ان هذا الوجه الحزين المخرّب الضاوي من وجوه المصابين بداء السل ؛ وان هاتين الشفتين اليابستين المدماتين ؛ وأن هذا الصوت الأجش الصافر ؛ وان هذا النشيج المتشنج الذي يشبه نشيج الأطفال ؛ وان هذه الضراعة التي فيها ثقة كثقة الأطفال رغم ما فيها من يأس ؛ ان ذلك كله كان يبلغ من اثارة الشفقة وايلام النفس أن الجميع أصبحوا كمن يرثي لحال المرأة الشقية من أعماق نفسه . وسرعان ما « رثى لحالها » بطرس بتروفتش على كل حال . قال يهتف بصوت يعبّر عن الحماية والرعاية :

ـ سيدتي ، سيدتي ! ان هذا الحادث لا يتناولك في شيء البتة ؛ مامن

أحد يخطر بباله أن يتهمك بسوء النية أو المشاركة والتواطؤ ، لا سيما وأنك توليت بنفسك قلبَ جيوبها ، فهذا دليل على أنك لم تراودك آية شبهة . اننى مستعد أتم الاستعداد ، نعم ، أتمَّ الاستعداد ، لأن أتسامح اذا كان البؤس هو الذى دفع صونيا سيميونوفنا ان صح التعبير . ولكن لماذا لم تشائى أن تعترفى يا آنسة ؟ لعلك كنت تخشين العار ؟ لعل تلك الخطوة كانت خطوتك الأولى فى هذا الطريق ؟ لعلك كنت قد فقدت صوابك ؟ ذلك أمر يُفهم تماماً . ولكن لماذا ، لماذا وضعت نفسك فى موقف كهذا الموقف ؟

وأردف بطرس بتروفتش يُشهد الحضور قائلاً :

ـ أيها السيدات والسادة ، اننى ، من باب الشفقة أو قولوا من باب الرأفة والرحمة ، ما أزال مستعداً لأن أغفر وأصفح ، رغم الشتائم الشخصية التى وُجِّهت الىَّ !

والتفت الى صونيا ، فقال لها :

ـ نعم يا آنسة ، ليكن الخزى الذى أصابك الآن درساً يفيدك فى المستقبل . لن أتابع هذه القضية . أريد أن تقف الأمور عند هذا الحد . يكفى هذا .

وبطرف العين أراد بطرس بتروفتش أن يلاحظ راسكولنيكوف ، فالتقت نظرتاهما . كانت نظرة راسكولنيكوف المشتعلة الملتهبة تهمُّ أن تسحق لوجين سحقاً .

ولم يبد على كاترين ايفانوفنا أنها سمعت شيئاً . كانت تعانق صونيا وتقبّلها كمجنونة . وكان الأطفال أيضاً يضمون صونيا بأذرعهم الصغيرة ؛ وقد أجهشت بوليتشكا باكية ، (رغم أنها لم تفهم الأمر الذى يدور عليه

المشهد فهماً واضحاً) ، وألقت وجهها الجميل المتفخ على كتف صونيا ، مهتزة الجسم من النشيج •

ــ ما أنذل هذا !

كذلك قال صوتٌ رصين على حين فجأة قرب الباب •

التفت بطرس بتروفتش • فكرر ليبزياتنيكوف قوله محدقاً اليه متفرساً فيه :

ــ يا للنذالة !

أصاب بطرس بتروفتش شيء يشبه أن يكون رعشة • لقد لاحظ الجميع هذه الرعشة (وتذكروها فيما بعد) • تقدم ليبزياتنيكوف بضع خطوات • وقال مخاطباً بطرس بتروفتش وهو يقترب منه :

ــ وتجرؤ أن تُشهدني أيضاً ؟

ــ ما معنى هذا ••• يا آندره سيميونوفتش ؟ عمَّ ••• تتكلم ؟

كذلك دمدم لوجين متعثر اللسان •

أجابه ليبزياتنيكوف بعنف ، وهو ما يزال يحدّق اليه تحديقاً قاسياً بعينين تشبهان أن تكونا عمياوين :

ــ معناه أنك كاذب مفتر ••• نعم ••• هذا ما يعنيه كلامي !

كان ليبزياتنيكوف في حالة غضب رهيب• ونظر اليه راسكولنيكوف هو أيضاً ، كأنما ليتلقف كلماته ويزنها وهي طائرة • وساد صمت جديد • كان بطرس بتروفتش قد فقد سيطرته على نفسه تقريباً ، ولا سيما في الوهلة الأولى •

وبدأ يتكلم فقال متلعثماً :

ـ اذا كنت تخاطبنى أنا ••• ولكن ماذا دهاك ؟ أأنت فى تمام عقلك ؟

ـ نعم •• أنا فى تمام عقلى ••• ولكنك أنت ••• نذل ! آه ••• ما أنذل هذا ! لقد سمعت كل شىء ، وتعمدت أن أنتظر لأفهم كل شىء ، ذلك أننى حتى هذه الساعة ••• كانت تبدو لى الأمور منطقية جداً ، اعترف بذلك !••• نعم ، لماذا فعلتَ هذا ؟••• اننى لا أفهم !

ـ ولكن ما الذى فعلتُه ؟ هلا كففت عن الكلام بألغاز غبية ؟ لعلك سكران ؟ لعلك شربت ؟

ـ بل لعلك أنت الذى شربت ، لا أنا ، أيها الرجل الدنىء ! ثم اننى لا أشرب فودكا أيضاً ، لأن هذا يخالف مبادئى • هل تتصورون أنه هو نفسه ، هو الذى أعطى صوفيا سيميونوفنا ، بيديه ، ورقة المائة روبل هذه ؟ لقد رأيته بعينى رأسى ، أنا شاهد ، وفى وسعى أن أحلف على ذلك بأغلظ الأيمان !

وردّد ليبزياتنيكوف يقول متجهاً الى الجميع والى كل واحد :

ـ هو ! هو ! هو !

أعول لوجين يقول :

ـ أأنت مجنون أيها الغر ؟ لقد أقرت هى نفسها ، هى الواقفة هناك ، بقربك ، أقرت أمام جميع الناس أنها لم تأخذ منى الا عشرة روبلات • وكيف كان يمكننى أن أعطيها تلك الورقة بعد ذلك ؟

ردّد ليبزياتنيكوف يقول صارخاً :

ـ رأيتُ ما فعلتَه ! رأيت ما فعلته ! وأنا مستعد ، رغم أن ذلك يخالف مبادئى ، مستعد لأن أحلف اليمين أمام المحاكم ••• لأننى

رأيتك تدس لها هذه الورقة خلسةً • ولكننى ، لغبائى ، اعتقدت أنك تفعل ذلك من باب البر والاحسان • قرب الباب ، لحظةَ كانت تودعك ، حين التفتْ ومددتَ لها يدك اليمنى ، دسستَ ورقة المائة روبل باليد اليسرى فى جيبها خلسةً • رأيت ذلك ! رأيت ذلك !

شحب لون لوجين • وصرخ يقول بوقاحة :

ـ ما هذه السخافات التى تقولها ؟ كيف كنت تستطيع ، وأنت واقف قرب النافذة ، أن تتعرف هذه الورقة ؟ ما هذا الا وهم !•• ما هذا الا وهم خلقته عيناك الضيقتان الحسيرتان ! أنت تهذى !

ـ لا ، ليس هذا وهماً ! ورغم أننى وقفت بعيداً ، والحق يقال ، فقد رأيت كل شيء ، رأيت كل شيء ! صحيح أن من الصعب على المرء أن يميِّز ورقة من بعيد وهو واقف قرب النافذة • ولكننى بفضل ظرف خاص جداً كنت أعلم أن تلك الورقة انما كانت ورقة مالية بمائة روبل ، اذ فى اللحظة التى أعطيتَ فيها صوفيا سيميونوفنا عشرة روبلات، رأيتك تتناول من على المائدة ورقة مائة روبل (وقد رأيت هذا لأننى كنت عندئذ بالقرب منك) ؛ ولأن فكرةً ما قد ومضت فى ذهنى حينذاك ، فاننى لم أنس أن هذه الورقة كانت بيدك • لقد طويتها واحتفظت بها فى يدك طول الوقت • ثم لم أفكر أنا بعد ذلك فى هذا الأمر التفصيلى ، ولكنك حين نهضت نقلت الورقة من يدك اليمنى الى يدك اليسرى ؛ وحين فعلتَ ذلك كدتَ تُسقطها على الأرض • فتذكرت ذلك الأمر التفصيلى من جديد ، لأن تلك الفكرة نفسها قد ومضت فى ذهنى مرة أخرى : وهى أنك تريد أن تمن على صوفيا سيميونوفنا دون أن أعلم أنا ذلك • لهذا أخذت أراقبك وأرصد حركاتك ، فرأيت أنك أفلحت فى أن تدس تلك الورقة فى جيبها ! رأيت ذلك ! رأيت ذلك ! وانى مستعد لأن أحلف يميناً !

كان ليبزياتنيكوف كمن يختنق . وأخذت الصيحات تنهمر من كل صوب ، وكان أكثرها يدل على الدهشة والاستغراب . غير أن بينها صيحات كان فيها شيء من تهديد أيضاً . واقترب الجميع من بطرس بتروفتش ، واندفعت كاترين ايفانوفنا نحو ليبزياتنيكوف .

ـ آندره سيميونوفتش ! لقد أخطأت الظن فيك ! دافع عنها ! أنت الوحيد الذي يدافع عنها ! هذه يتيمة ! ان الله هو الذي أرسلك لتساعدنا ! آندره سيميونوفتش ، يا عزيزي الطيب الشهم آندره سيميونوفتش !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك ، وارتمت تركع أمامه ، وهي لا تكاد تدرك ماذا تصنع !

زأر لوجين يقول وقد بلغ ذروة الغضب :

ـ سخافات ! هذا كل ما تستطيع أن تمضغه من كلام : « نسيت ، تذكرت ، تذكرت ، نسيت ! » . ما معنى هذا ؟ في زعمك اذن انني دسست لها الورقة عمداً ... ولكن لماذا ؟ ما عسى يكون هدفي من ذلك ؟ أي شي يجمع بيني وبين هذه ال ...

ـ لماذا ؟ ذلك بعينه هو ما لا أفهمه أنا نفسي ، ولكن هذا لا ينفي أنني أقول الحقيقة ! انني لم أخطيء في شيء أيها الحقير النذل ؟ انني أتذكر أن فكرة قد راودتني في تلك المناسبة ، حين كنت أشكرك مصافحاً . لقد قلت لنفسي عندئذ : « لماذا دس لها هذه الورقة خلسة ؟ أيمكن أن لا يكون غرضه من ذلك الا أن يخفي عني عمله ، لعلمه بأن مبادئي تتعارض مع فكرة الاحسان الفردي ، الاحسان الذي لن يخفف عن أحد تخفيفاً جذريا في يوم من الأيام ؟ » . ثم خطر ببالي أنك ربما كنت تشعر بحرج من اهداء مثل هذا المبلغ الكبير بحضوري ؟ ثم اعتقدت

أنك انما أردت أن تحدث لها دهشةً حين ستعثر فى جيبها على ورقة مالية بمائة روبل (أنا أعلم أن بعض المحسنين يحبون أن يتصرفوا على هذا النحو) . ولكنى قلت لنفسى بعد ذلك أيضاً انك تريد أن تختبرها وأن تمتحنها ، أى أن تعلم هل تجىء اليك شاكرة بعد أن تجد الورقة . وبعد ذلك أيضاً تخيلت أنك انما أردت أن تتجنب كل تعبير عن الشكر والامتنان ، عملاً بالمبدأ القائل ان اليد اليمنى يجب أن تجهل .. الخ.. آه ... ما أكثر الأفكار التى راودت ذهنى حينذاك !... وقد قررت أن أفكر فى هذه المسألة على مهل ، ورأيت أن من غير اللائق أن أظهر لك منذ ذلك الحين اننى عارف بسرّك . وقد راودتنى عندئذ فكرة أخرى. تساءلت : « ماذا لو أضاعت صوفيا سيميونوفنا هذا المال قبل أن تلاحظ وجوده ؟ » وذلك هو السبب الذى دفعنى أن أجىء الى هنا فأذكّرها أو أعلمها أنك وضعت مائة روبل فى جيبها . ولكننى ، أثناء الطريق ، دخلت على السيدتين كوبلياتنيكوف ، لأعطيهما كتاب « العرض العام للمنهج الوضعى » * ، ولأوصيهما خاصةً بقراءة مقالة بيدريت (ومقالة فاجنر أيضاً) ؛ ثم جئت الى هنا ، فانظرْ فى وسط أية قصة وقعت ! هل كان يمكن أن تخطر ببالى تلك الأفكار كلها ، وهل كان يمكن أن أجرى تلك الاستدلالات جميعها ، لولا أننى رأيتك تدس المائة روبل فى جيب صوفيا سيميونوفنا فعلاً ؟

حين أنهى آندره سيميونوفتش أقواله المفحمة وختمها بهذه النتيجة المنطقية شعر بتعب رهيب ، فكان العرق يقطر من جبينه . انه لا يجيد التعبير باللغة الروسية وا أسفاه (وان كان لا يعرف أية لغة أخرى) ، لذلك بدا عليه بعد مغامرته الخطابية ارهاق شديد ، حتى لكأنه أصيب بنحول وهزال . لكن حديثه أثّر تأثيراً خارقاً . لقد تكلم بدون تصنع

أو افتعال ، وكان كلامه مقنعاً مفحماً ، فصدقه الجميع . وشعر بطرس بتروفتش أن الأمور لا تجرى على ما يحب . فهتف يقول :

ـ أنا لا تهمنى المسائل السخيفة التى خطرت ببالك فى قليل ولا كثير ! ليس هذا ببرهان . من الجائز جداً أن تكون قد رأيت ذلك كله فى حلم . وأنا أقول لك انك تكذب يا سيد ! أنت تكذب ، وأنت تفترى علىّ ، يدفعك الى ذلك حقدٌ شخصى ، فأنت تضمر لى الضغينة لأننى لا أشاركك آراءك الاشتراكية الملحدة . ذلك كل شىء !

ولكن هذه الحركة الدائرة لم تعد على بطرس بتروفتش بأى نفع . بالعكس : ارتفعت الدمدمات من كل جهة .

وصاح ليزياتنيكوف يقول :

ـ آ .. هذا ما تريد أن تصل اليه ! أنت تكذب ! استدع الشرطة، وسأحلف اليمين . ليس هناك الا شىء واحد لا أستطيع أن أفهمه : ما الذى دفعه الى أن يتصرف هذا التصرف الدنىء ؟ يا للحقير ! يا للنذل !

قال راسكولنيكوف بصوت قاس وهو يتقدم الى أمها :

ـ أنا أستطيع أن أشرح السبب الذى دفعه الى التورط فى مثل هذا الفعل . وانى لمستعد أن أحلف اليمين أنا أيضاً اذا لزم ذلك .

كان راسكولنيكوف يبدو حازماً . وأدرك الجميع من نظرة واحدة ألقوها عليه أنه يعرف القضية كلها فعلاً ، وأن الخاتمة قد اقتربت .

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال متجهاً بالكلام الى ليزياتنيكوف رأساً :

ـ الآن فهمت كل شىء ! لقد أحسست منذ بداية هذه الحكاية ان فى الأمر مكيدة قذرة ما ، أحسست ذلك بسبب ظروف خاصة لا يعرفها

أحد غيري وسأكشف عنها لكم الآن ، لأنها أصل كل شيء . وأنت الذى أضأت لى الحقيقة نهائياً بشهادتك الثمينة يا آندره سيميونوفتش . أرجوكم جميعاً ، جميعاً ، أن تصغوا الىّ . ان هذا السيد (قال راسكولنيكوف ذلك مشيراً الى لوجين) قد خطب فى الآونة الأخيرة فتاةً .. فتاةً ... هى أختى آفدوتيا رومانوفنـا راسـكولنيكوفا . لكنه منذ وصـوله الى بطرسبرج أمس الأول قد حدث بينى وبينـه شجار أثنـاء أول لقاء بيننا فطردته من مسكنى ، وذلك بحضـور شـاهدين اثنين . ان هذا الرجل شرير جداً ... لم أكن أعرف أمس الأول أنه يسكن فى غرفة مفروشة عندك يا آندره سيميونوفتش ، ولم أكن أعرف اذن أنه فى يوم تشاجرنا نفسه ، أى أمس الأول بعينه ، قد رأى أننى بصفتى صـديقاً للمرحـوم السيد مارميلادوف قد أعطيت زوجته كاترين ايفانوفنـا مالاً تنفقه على الاحتفال بالجنازة . ولكنه قد رأى ذلك فسرعان ما كتب الى أمى رسالة يبلغها فيها أننى قد وهبت كل ما أملك من مال ، لا لكاترين ايفانوفنا بل لصوفيا سيميونوفنا ، واصفاً هذه الفتاة بأحط النعوت ... أقصـد ... واصفاً طبيعة علاقاتى بها بأحط النعوت . وهو يهدف من ذلك طبعاً الى أن يحدث شقاقاً بينى وبين أمى وأختى ، عن طريق اقناعهما بأننى أتلف فى وجوه غير شريفة آخر مال يحـرمان نفسيهما منه فى سـبيل سـدّ حاجاتى . وفى مساء أمس ، أثناء مقابلة تمت بينى وبين أمى وأختى ، وقد حضر هذه المقابلة ، أظهرت الحقيقة مبرهنـاً على أننى انمـا أعطيت المال لكاترين ايفانوفنا ، لانفاقه على الاحتفال بالجنازة ، ولم أعطه لصوفيا سيميونوفنا ، التى كنت منذ ثلاثة أيام لا أعرفها على كل حال .. ولكننى أضفت الى ذلك أنه ، هو بطرس بتروفتش ، بكل مزاياه ، لا يسـاوى خنصر صوفيا سيميونوفنا التى يقـول فى حقها ذلك الكلام الدنىء ! ثم سألنى هل أنا مستعد لأن أُجلس صـوفيا سيميونوفنا الى جانب أختى ،

فأجبته بأنني قد فعلت هذا في ذلك اليوم نفسه • وأغضبه أشدّ الغضب أن يلاحظ أن أمي وأختي لا تريدان أن تتشاجرا معي تصديقاً لنمائمه وافتراءاته ، فسرعان ما أخذ يتفوه بوقاحات لا تُغتفر • ونشأت عن ذلك قطيعة حاسمة بينه وبين اختي ، وطُرد شرّ طردة • ذلك كله حدث أمس • والآن انتبهوا : لو قد أفلح في أن يبرهن اليوم على أن صوفيا سيميونوفنا سارقة ، لاستطاع أن يظهر لأمي وأختي أولاً أنه كان على حق حين اشتبه في أمرها ، وثانياً أنه كان على حق حين غضب اذ علم أنني ساويت بينها وبين أختي ، خطيبته • جملة القول أنه بفضل ذلك كان يستطيع أن يظل يأمل في أن يحدث شقاقاً بيني وبين أسرتي وفي أن يسترد حظوته لديها • ناهيكم عن أنه بذلك ينتقم مني شخصياً ، لأن من حقه أن يفترض أن شرف وسعادة صوفيا سيميونوفنا يهمانني كثيراً • ذلكم هو حسابه كله ! هكذا أفهم أنا القضية ! هذا هو دافعه ولا دافع سواه !

بهذه الكلمات ، أو بهذه الكلمات تقريباً ، ختم راسكولنيكوف كلامه الذي كثيراً ما كانت تقطعه صيحات التعجب من المستمعين ، الذين تابعوا كلامه بكثير من الانتباه • ولكن راسكولنيكوف ، رغم المقاطعات ، تكلم بلهجة جازمة هادئة ثابتة ، وبوضوح كامل ودقة لا يشوشها شيء • وكان لصوته المختلج ونبرته المقنعة وهيئته القاسية أثر شديد في جميع الناس •

قال ليبزياتنيكوف مؤيداً بحماسة :

ــ هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر يقيناً ، لأنه سألني ، منذ دخلت صوفيا سيميونوفنا الغرفة ، هل « أنت موجود ، وهل رأيتُك في عداد الذين دعتهم كاترين ايفانوفنا » • لقد جذبني الى شق

النافذة ليلقى علىّ هذا السؤال همساً . معنى ذلك أنه كان يحرص حرصاً مطلقاً على أن تكون موجوداً ! هذا هو الأمر تماماً !

كان لوجين صامتاً يبتسم باحتقار . لكنه كان شديد الشحوب . كأنه يفكر فى الوسيلة التى يخرج بها من المأزق. لعله كان يتمنى لو يدع كل شيء ويخرج ، لكن ذلك لم يكن بالأمر الممكن كثيراً فى تلك اللحظة : فلو خرج لكان معنى خروجه صراحةً أنه يعترف بصحة الاتهامات الموّجهة اليه ، وأنه قد افترى على صوفيا سيميونوفنا فعلاً . ثم ان الحضور ، وقد سكروا ، أخذوا يتحمسون . وهذا موظف التموين يصرخ صراخاً أعلى من صراخ سائر الناس ، رغم أنه لم يفهم كل شيء ، مقترحاً اتخاذ اجراءات تسيء الى لوجين كثيراً. هذا الى أن هناك أشخاصاً لم يكونوا سكارى : لقد هرع أناس من جميع الغرف . البولنديون الثلاثة الصغار اهتاجوا اهتياجاً رهيباً فهم لا ينفكون يصرخون قائلين بالبولندية : « سيد حقير » ، ويجمجمون مرددين تهديدات بلغتهم أيضاً.

كانت صونيا تصغى فى جهد ، ولكن كان لا يبدو عليها أنها تفهم شيئاً هى الأخرى . لكأنها خارجة من غيبوبة . كانت لا تحوّل عينيها عن راسكولنيكوف ، شاعرةً أنه سندها الوحيد . وكانت كاترين ايفانوفنا تتنفس فى مشقة ، وكانت حنجرتها تصدر أصواتاً جشاء ، وكانت تبدو مرهقة الى أبعد حدود الارهاق . الا أن وضع آماليا ايفانوفنا كان أغبى الأوضاع ، فهى فاغرة الفهم يبدو عليها أنها لا تفهم شيئاً البتة . كل ما هنالك أنها كانت تحس أن بطرس بتروفتش فى مأزق . وأراد راسكولنيكوف مرةً أخرى أن يتكلم ، ولكنهم لم يدعوا له أن يفعل ، فالحضور جميعاً يصرخون فى آن واحد ويحتشدون حول لوجين بالشتائم والتهديدات . ومع ذلك لم يفتّ هذا فى عضد لوجين . واذ

رأى أن حملته على صوفيا سيميونوفنا خاسرة ، لجأ الى الوقاحة عامداً . قال وهو يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور :

ـ اسمحوا لى أيها السادة ، اسمحوا لى ! أرجوكم أن لا تهددونى! أؤكد لكم أن هذا لا يجدى ، وأنكم لن تبلغوا بهذه الطريقة شيئاً ! لست بالصبى الغر ... بالعكس : أنتم الذين ستحاسبون أمام العدالة عن أنكم استعملتم العنف لتغطية جرم . لقد انفضحت السارقة ، وسأشكوها الى القضاء . والقضاة ليسوا عمياً ، ولا هم سكارى !... القضاة لن يثقوا بأقوال ملحدين زنديقين يعاديان النظام ولا يؤمنان بالدين ، ويتهمانى حقداً وانتقاماً ، وذلك ما اعترفا به بلسانهما لغبائهما ! نعم ، اسمحوا لى !

قال آندره سيميونوفتش :

ـ ألا فليختف كل أثر لوجودك عندى على الفور ! هيّا غادر غرفتى حالاً ، ولينته كل شىء بيننا ... آه ... حين أتذكر كم أرهقت نفسى طوال خمسة عشر يوماً فى أن أشرح له ...

ـ ولكننى قلت لك أنا نفسى منذ قليل ، بينما كنت تلحّ أنت على بقائى عندك ، اننى مبارح غرفتك حتماً . هناك شىء واحد أضيفه الآن : هو أنك غبى أبله ! أتمنى لك أن يشفى عقلك وأن يتحسن بصرك الحسير . اسمحوا لى يا سادة !

واستطاع أن يشق لنفسه ممراً . لكن موظف التموين لم يكن يسمعه بهذه الأذن ، ولم يشأ أن يخلى سبيله بهذه السهولة ، فتناول كأساً عن المائدة فلوّح بها ثم قذفها الى جهة بطرس بتروفتش بكل ما أوتى من قوة . غير أن الكأس طارت نحو آماليا ايفانوفنا رأساً ، فأطلقت هذه صرخات حادة ، بينما أخذ موظف التموين يتدحرج تحت المائدة بعد أن أفقدته هذه الحركة توازنه .

انسحب بطرس بتروفتش الى غرفته ، وما انقضى على ذلك نصف ساعة حتى كان قد غادر المنزل .

كانت صونيا ، الوجلة بطبيعتها ، لا تجهل أن من السهل على أى انسان أن يسبِّب ضياعها وهلاكها . وكانت تعرف كذلك أن أى انسان يستطيع أن يهينها وأن يؤذيها دون أن تصيبه من ذلك أية اساءة تقريباً. ولكنها كانت ما تزال تعتقد حتى ذلك الحين أن فى وسعها ، بطريقة أو بأخرى ، أن تتجنب نمائم كبيرة وافتراءات ضخمة اذا هى عاملت جميع الناس وكلَّ انسان بالتأنى والحذر ، والتواضع والمذلة ، والرقة واللطف. فخاب الآن ظنها ، وكانت خيبة الظن هذه قاسية الوقع فى نفسها . صحيح أنها كانت تستطيع ، مذعنةً مستسلمة ، ودون دمدمة تقريباً ، أن تحتمل كل شيء ، وأن تحتمل حتى هذا . غير أن « هذا » قد بلغ من شدة الوطأة على نفسها ، فى الوهلة الأولى ، درجةً لا تطاق . فهى ، رغم انتصارها وتبرئتها ، ما ان زال رعبها الأول وما ان أفاقت من ذهولها وأصبحت قادرة على أن تدرك الأمور ادراكاً صحيحاً ، حتى كان شعورها بأنها مهجورة واحساسها بالاهانة التى أُلحقت بها يقبضان صدرها قبضاً أليماً ، فاذا هى تصاب بنوبة عصبية . ثم اذا هى تفقد صبرها فتولَّى هاربةً من الغرفة راكضةً الى مسكنها . حدث ذلك فور انصراف لوجين تقريباً.

وآماليا ايفانوفنا التى أصابتها الكأس لم تحتمل كذلك ضحكات الحضور ، فاستعر غضبها ، وأخذت تطلق صرخات مجنونة ، ثم اتجهت نحو كاترين ايفانوفنا تحمِّلها تبعة كل شيء ، وتقول لها :

ــ ارحلى من بيتى ! اخرجى حالاً ! الى الأمام ، سر !

كانت آماليا ايفانوفنـا تقـول ذلك وهى تقبض على كل ما يقع بين يديها من أمتعة كاترين ايفانوفنا فتلقيه على الأرض •

وكانت كاترين ايفانوفنا قد تهالكت على السرير مهـدودة القـوى مهدَّمة ، محطَّمة ، ، فلما رأت صاحبةَ البيت تفعل ذلك بأمتعتها وثبت عن السرير وهجمت عليهـا • ولكن الصراع لم يكن فيـه أى تكافؤ ، فكانت الألمانية تهزُّ كاترين وترجِّحها كأنها ريشة طائر •

ــ ماذا ؟ ألم يكف هذه المخلوقة أنها افترت على صـونيا افتراءات شيطانية ، فهى تهجم علىَّ أنا أيضاً ؟ كيف ؟ هل أُرمى الى الشارع فى يوم وفاة زوجى ؟ أبعد أن تُقبل ضيافتى أُلقىَ الى الشارع مع اليتامى؟ فالى أين يمكننى أن أذهب ؟

بهذا كانت تعول كاترين ايفانوفنـا مختنقةً من خـلال النشيج • وصرخت تقول على حين فجأة وقد اشتعلت عيناها :

ــ هل يمكن أن لا يكون هناك عدالة يا اله السماء ؟ عمَّن عساك تدافع ومن عساك تحمى اذا لم تدافع عنـا نحن اليتامى ، واذا لم تحمنا نحن اليتامى ؟ طيب ••• لسوف نرى ! ان على الأرض قضاءً ومحاكم ! نعم ، هناك قضاء ومحاكم ! سأتجه الى المحاكم ، سأجد المحاكم ! حالاً ! فوراً ! انتظرى قليلاً أيتها المخلوقة الدنيئـة ! يا بوليتشـكا ، ابقى مع الأولاد ! سأعود ! انتظرى فى الشـارع اذا لزم الأمر ! سوف نرى هل فى هذا العالم حقيقة !

وألقيت كاترين ايفانوفنا على رأسها ذلك الشال المصنوع من جوخ السيدات ، الذى تحدث عنه المرحوم مارميلادوف ، وشقت لنفسها طريقاً بين جمهرة السكان السكارى المبعثرين فوضى ، الذين كانوا لا يزالون

محتشدين فى الغرفة . واندفعت فى الشارع باكية ناشجة ، وهى تنوى على نحو غامض أن تمضى باحثةً عن العدالة فوراً مهما كلف الأمر .

واستولى الرعب على بوليا ، فلطت فى ركن من الأركان قربَ الصندوق ، مع الصغار المرتجفين المرتعدين ، وقد أحاطتهم بذراعيها منتظرةً عودة أمها .

وكانت آماليا ايفانوفنا تضطرب فى الغرفة ، وتطلق الصراخ بعد الصراخ ، وترعد ، وتلقى على الأرض كل ما تجده ثم تدوسه . وكان المستأجرون يصرخون كلٌّ من جهته . فبعضهم يعلقونَ على الأحداث بطريقتهم ، وبعضهم يتشاجرون ويتشاتمون ، وبعضهم يغنون .

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « والآن حان حينى أنا أيضاً . سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن ! » .

واتجه نحو مسكن صونيا .

الفصل الرابع

دافع راسكولنيكوف عن صونيا دفاعاً متحمساً قوياً ضدّ لوجين رغم أن نفسه كانت تفيض هولاً شديداً وعذاباً أليماً . ولكنه شعر بعد تباريح الصباح برضى صادق وارتياح حقيقى لتغير مشاعره التى كان قد أصبح لا يطيق احتمالها ، بصرف النظر عن العاطفة التى دفعته الى التدخل مدافعاً عن صونيا . ثم انه لم ينس أنه على موعد وشيك مع الفتاة ، وهو موعد كانت فكرته تحدث له فى بعض الأحيان أشد أنواع القلق . كان «عليه» أن يبلغها أنه قتل اليزابت ، وكان يحس منذ الآن أنه سيشعر بعذاب شديد وألم ممض . وبحركة من يده ، أبعد هذه الفكرة عن ذهنه . لذلك فانه حين هتف يقول لحظةَ خروجه من عند كاترين ايفانوفنا : « سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن » كان ما يزال خاضعاً للأثر الذى أحدثه فيه انتصاره منذ هنيهة على لوجين . غير أن شيئاً غريباً قد حدث حينذاك : فانه حين وصل الى مسكن كابرناؤموف شعر بقواه تبارحه على حين فجأة ، وشعر بخوف يستولى عليه ، فاحتار واضطرب ، ووقف أمام الباب وألقى على نفسه هذا السؤال العجيب : « هل يجب أن يقول لها من الذى قتل اليزابت ؟ » . وانما كان هذا السؤال عجيباً لأن راسكولنيكوف كان يشعر فى الوقت نفسه أنه

عاجز عن كتمان هذا الأمر بل يشعر أيضاً أنه يستحيل عليه أن يؤخر اعترافه هذا أي تأخير • كان لا يعرف ، بعد ، لماذا يستحيل عليه ذلك• وانما هو « يحس » تلك الاستحالة احساساً فحسب ، وكان هذا الاحساس الموجع الأليم بعجزه يثقل على نفسه ويرهقه من أمره حتى ليسحقه سحقاً • ومن أجل أن يضع حداً لخواطره وتأملاته ، وهمه وقلقه ، فتح الباب بغتة ولاحظ صونيا من مكانه في العتبة •

كانت صونيا جالسة ، واضعة كوعيها على مائدتها الصغيرة ، دافنة وجهها في يديها • فلما رأت راسكولنيكوف نهضت بسرعة شديدة وهبّت الى لقائه كأنها كانت تنتظره •

اقترب راسكولنيكوف من المائدة وجلس على الكرسي الذي تركته صونيا • كانت صونيا واقفة على بعد خطوتين منه ، كالبارحة تماماً •

قال راسكولنيكوف وهو يشعر فجأة بأن صوته يرتجف :

ــ هيه صونيا ! أرأيت ؟ ان أساس الأمر كله انما « وضعك الاجتماعي والعادات التي يخلقها » • هل فهمت ؟

ارتسم الألم على وجه صونيا • وقاطعته تقول :

ــ لا تكلمني خاصة كما كلمتني أمس • أرجوك ، لا تفعل مافعلته أمس • كفى تعذيباً !

وأسرعت تبتسم ، مخافة أن يسوءه هذا اللوم •

وأردفت تقول :

ــ كانت حماقة مني أن انصرفت • فما الذي يجري الآن هناك ؟ لقد أردت أن أعود ، لكنني كنت أقدّر طوال الوقت أنك •• قد تجيء•

روى لها راسكولنيكوف أن آماليا ايفانوفنا قد طردتهم من البيت وأن كاترين ايفانوفنا مضت « تبحث عن الحقيقة » فى مكان ما •

هتفت صونيا تقول :

ـ آه ! رباه ! هيًّا بنا حالاً ، فوراً !

وتناولت خمارها •

صاح راسكولنيكوف يقول بلهجة حانقة :

ـ ما زلت كما كنت ! لا تفكرين الا فيهم ! هلاَّ بقيت معى قليلاً !

ـ لكن ••• وكاترين ايفانوفنا ؟

ـ كاترين ايفانوفنا ستعرف كيف تهتدى اليك •

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم أضاف يقول بحزن :

ـ ستجيئك بنفسها ما دامت قد خرجت • فان لم تجدك هنا كنت أنت المذنبة •

جلست صونيا وهى فريسة تردد أليم • وصمت راسكولنيكوف مطرقاً الى الأرض يجتر فكرة ثابتة •

ثم بدأ يتكلم فقال دون أن ينظر الى صونيا :

ـ لنسلِّم بأن لوجين لم يشأ أن يتابع الأمر ••• ولكن لو شاء ذلك ، لو كان ذلك داخلاً فى حساباته ، لاستطاع أن يرسلك الى السجن لولا وجودى ووجود ليبزياتنيكوف ، أليس كذلك ؟

أجابت صونيا تقول بصوت ضعيف :

ـ نعم !

ثم كررت تقول قلقة وكأنها غائبة عن نفسها :

ـ نعم !

قال راسكولنيكوف :

ـ ولكن كان من الجائز جداً أن لا أكون أنا موجوداً هناك . أما ليبزياتنيكوف فانه لم يكن قد رجع الا مصادفة .

صمت صونيا ولم تجب بشيء .

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال :

ـ فماذا لو أودعت في السجن ؟ ما عسى يحدث حينذاك ؟ هل تتذكرين ما قلته لك أمس ؟

ظلت صونيا صامتة . وانتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قال وهو يحمل نفسه على الابتسام :

ـ كنت أتصور أنك سوف تصرخين قائلة مرة أخرى : « آه ... لا تقل هذا الكلام ! اسكت ! » .

ولم تجب صونيا أيضاً ، فسألها راسكولنيكوف بعد دقيقة :

ـ هيه ! أتعودين الى الصمت ؟ ولكن لا بد أن نتحدث عن شيء ما على كل حال ! انني ليهمني كثيراً أن أعرف كيف يمكن أن تحلي « مسألة » من المسائل ... على حد تعبير ليبزياتنيكوف (لكأن راسكولنيكوف كان يوشك أن يرتبك ، وتابع كلامه ...) . لا ، لا ، انا لا أتكلم جاداً . تخيلي يا صونيا أنك كنت تعلمين سلفاً جميع نيات لوجين ، وأنك كنت تعرفين معرفة اليقين الكامل أن كاترين ايفانوفنا سوف تضيع بسبب هذه النيات ضياعاً تاماً ، هي والأولاد أيضاً ، وأنك

ستتعرضين أنت نفسك للانحدار (رغم أن هذا الأمر لا يهمك) ، وكذلك بوليا ... من جهة أخرى ... لأن هذا الطريق هو الطريق الذى ينفتح أمامها فعلاً . تخيلى هذا كله ثم تخيلى أنه يتوقف عليك أنت أن يبقى على قيد الحياة اما هذا واما أولئك ، أى اما لوجين مع كل الدناءات التى يرتكبها واما كاترين ايفانوفنا ، فماذا تقررين ؟ أتختارين موته أم تختارين موتها ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال .

نظرت اليه صونيا فى قلق . انها تحزر وراء هذه الكلمات الملتبسة فكرة مخبأة تذكرها بشىء ما .

قالت وهى تثبت عليه نظرة فاحصة :

ــ كنت أوجس أنك ستلقى على سؤالاً من هذا النوع .

قال راسكولنيكوف :

ــ ليكن ذلك . فماذا تختارين ؟

سألته صونيا بنفور :

ــ لماذا تسألنى عن شىء لا يمكن أن يحدث ؟

ــ الأفضل اذن أن يبقى رجل مثل لوجين حياً وأن يستمر فى ارتكاب حقاراته . هذا مع ذلك رأى لا تجسرين أيضاً أن ترتئيه .

ــ ليس يخصنى أنا أن أنفذ الى أغراض « العناية الالهية » ... ولماذا تسأل عما لا نملك حق السؤال عنه ؟ ما جدوى هذه الأسئلة الباطلة ؟ كيف يمكن أن يتوقف أمر كهذا الأمر على قرارى أنا ؟ من الذى نصبنى قاضياً فأعلم من ذا يجب أن يحيا ومن ذا يجب أن لا يحيا ؟

جمجم راسكولنيكوف يقول بلهجة كئيبة :

ـ متى تدخلت « العناية الالهية » فى الأمر ، لم يبق ما نقوله !

فهتفت صونيا تقول فى ألم :

ـ الأولى أن تقول لى ما تريد أن تقوله ، بغير لف ولا دوران ! انك ما تزال تجتر شيئاً ما . هل من الممكن أن لا تكون قد جئت الا لتعذبنى ؟

ولم تطق صونيا صبراً ، فأخذت تبكى بكاءً مراً . فكان ينظر اليها مكفهر الوجه حزيناً . وانقضت على ذلك خمس دقائق .

وتكلم أخيراً فقال بصوت رقيق عذب :

ـ نعم ، أنت على حق .

لقد تبدل راسكولنيكوف فجأة . ان لهجته التى كان فيها وقاحة مقصودة وتحد متعمد قد اختفت . حتى لقد ضعف صوته . وتابع كلامه فقال :

ـ لقد قلت لك أمس اننى لن أجيئك اليوم مستغفراً ، ومع ذلك فاننى بدأت كلامى بالاستغفار تقريباً . فحين تكلمت عن لوجين وعن العناية الالهية كنت لا أتكلم الا عن نفسى ، وكنت استغفر يا صونيا .

وأراد راسكولنيكوف أن يبتسم ، لكن تعبيراً عن العجز والتعب تجلى فى تلك الابتسامة الصفراء . وخفض رأسه وغطى وجهه بيديه .

وفجأةً ، اجتاح قلبه احساسٌ غريب غير متوقع ، احساس بكره عنيف نحو صونيا . فاستغرب راسكولنيكوف هذا الاكتشاف بل روعه هذا الاكتشاف ، فرفع رأسه بغتةً ونظر اليها محدقاً . ولكن نظرته لم تلتق الا بنظرة الفتاة التى كانت نظرة قلقة زاخرة بضراعة أليمة . لقد

كان في تلك النظرة حب • وتبدد من نفس راسكولنيكوف كل احساس بالكره ، كما يتبدد حلم • لا ، لم يكن الأمر كما تصور ، لقد أخطأ في فهم طبيعة العاطفة التي شعر بها • ذلك يعني أن اللحظة الحاسمة قد وافت •

ومرةً أخرى دفن وجهه في يديه ، وخفض رأسه • واصفر وجهه على حين بغتة ، ونهض عن كرسيه ونظر الى صونيا ؛ ثم مضى يجلس على السرير بخطى آلية ، دون أن يقول كلمة واحدة •

كانت هذه الدقيقة تشبه كثيراً ، من ناحية الاحساس الذي شعر به ، تشبه كثيراً تلك الدقيقة التي كان فيها واقفاً وراء العجوز ، بعد أن أخرج الساطور من الابزيم ، وأحس أنه « لم يبق ثمة لحظة يضيعها »•

سألته صونيا مروَّعةً :

ـ ماذا بك ؟

فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة • انه لم يكن يقدّر أنه على هذا النحو « سينبئها » بالأمر • ولم يتمكن راسكولنيكوف من أن يفهم مايحدث في نفسه في تلك اللحظة •

اقتربت صونيا منه برفق ، وجلست على السرير بقربه ، وانتظرت دون أن تحوّل عينيها عنه • وكان قلب صونيا يخفق خفقاناً قوياً حتى ليكاد ينفجر •

أصبح الموقف لا يُحتمل • أدار راسكولنيكوف نحوها وجهه المصطبغ بصفرة كصفرة الموت • وتقبضت شفتاه فلم يستطع أن ينطق آية كلمة • استولى الرعب على صونيا • فقالت مردّدة وهي تبتعد عنه قليلاً :

ـ ماذا بك ؟

فدمدم يقول كانسان استولى عيله الهذيان وأصبح لا يدرى ماذا يقول :

ــ لا شيء يا صونيا . لا تخافى . حقاً ، متى فكّر المرء فى هذه الأمور أدرك أنها سفاسف وترهات وحماقات !

وأضاف يقول فجأة وهو ينظر اليها :

ــ لماذا جئت أعذبك أنت ؟ حقاً ، لماذا ؟ اننى لا أنفك ألقى على نفسى هذا السؤال يا صونيا .

لعله كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال منذ ربع ساعة ، ولكنه يعبّر عنه الآن وهو فى حالة ضعف كامل ، فما يكاد يشعر بنفسه ، وما برح جسمه يرتجف بارتعاش متصل .

قالت صونيا متألمةً وهى تتفحصه بنظرها :

ــ آه ... لشد ما تعذب نفسك !

ــ ما هذه كلها الا سخافات ! اسمعى يا صونيا : (ان فكرةً من الأفكار قد جعلت شفتيه تلم بهما ابتسامة صفراء) هل تتذكرين ما كنت أريد أن أقوله لك أمس ؟

انتظرت صونيا قلقة .

ــ لقد قلت لك عند انصرافى اننى ربما كنت أودّعك الى الأبد ، ولكننى ان جئت ... فسأقول لك من الذى قتل اليزابت .

أخذت صونيا ترتعش من الرأس الى القدمين .

ــ فهأناذا أجيء لأقول لك من الذى قتل اليزابت .

تمتمت تقول فى جهد ومشقة :

ـ كنت تتكلم جاداً اذن حين قلت لى أمس ...

لكنها أسرعت تسأله كأنها ثابت الى رشدها فجأة :

ـ فكيف عرفت من الذى قتلها ؟

كانت صونيا تتنفس تنفساً شاقاً . وكان وجهها يزداد شحوباً . قال راسكولنيكوف :

ـ أنا أعرف من هو القاتل .

فلزمت صونيا الصمت مدة دقيقة . ثم سألته خائفة :

ـ وهل وجدوه ؟

ـ لا ، لم يجدوه .

ـ اذن كيف عرفت من هو ؟

قالت ذلك بصوت مختنق ، بعد صمت جديد .

التفت راسكولنيكوف اليها ، وأمعن فى النظر اليها . ثم قال لها وهو يرسم على شفتيه تلك الابتسامة المصنوعة نفسها :

ـ احزرى !

وكأن تشنجات عنيفة كانت تهز جسم صونيا كله .

قالت صونيا وهى تبتسم كطفلة :

ـ ولكنك .. ولكنك تخيف ... تخيفنى بهذا الكلام !

تابع راسكولنيكوف كلامه وهو ما يزال ينظر اليها ويتفرس فيها كأن عينيه مشدودتان اليها شداً لا فكاك منه ، وكأنه لا يستطيع أن يحوّل بصره عنها :

ـ هذا يبرهن على أن بينى وبينه « هو » صداقة حميمة . ولقد كان لا يريد قتل اليزابت تلك ، وانما هو قتلها ... مصادفةً ... لقد كان يريد قتل العجوز حين كانت وحيدة فى البيت ... وجاء ... وعندئذ ... قتلها هى أيضاً .

وانقضت دقيقة أخرى مروّعة . كان كل منهما ينظر فى الآخر.

سألها بغتةً وهو يحس أنه يهوى من برج ناقوس :

ـ ألم تحزرى اذن ؟

همست صونيا تقول بصوت لا يكاد يُدرك :

ـ لا ... لا ...

ـ فكّرى !

فما كاد راسكولنيكوف يقول ذلك حتى غزاه احساس مألوف جمّد قلبه . نظر اليها فكأنما هو يرى فى وجهها ملامح وجه اليزابت . وتذكر تذكراً واضحاً متميزاً تعبير وجه اليزابت فى اللحظة التى اقترب فيها منها مشهراً ساطوره ، فتراجعت نحو الحائط واضعةً يديها أمامها ، كالأطفال الصغار حين يخافون فيثبتون على ما يخيفهم نظرة جامدة قلقة ويتراجعون ويمدون أيديهم الصغيرة ويوشكون أن يبكوا . كذلك كان شأن صونيا فى تلك اللحظة . لقد تأملته بعض الوقت بتلك الحيرة نفسها ، وبذلك الاضطراب نفسه ، وبذلك الارتياع ذاته ، ثم رفعت يدها اليسرى فجأة فلمست صدره بأطراف أصابعها فى رفق ، ونهضت عن السرير ببطء ، وابتعدت عنه رويداً رويداً ، وهى تحدّق اليه مزيداً من التحديق . وارتسم هذا الرعب نفسه على وجه راسكولنيكوف ، ارتسم هو نفسه تماماً . ونهض راسكولنيكوف مثلما

نهضت ، وأخذ ينظر اليها وهو يبتسم ابتسامة « الاطفال » تلك نفسها تقريباً .

وهمس يسألها أخيراً :

ـ هل حزنت ؟

قال صونيا مرتاعةً وهي تشهق شهقة رهيبة :

ـ يا رب !

وخارت قواها ، فسقطت على السرير دافنةً وجهها في الوسادة . ولكنها عادت تنهض بعد لحظة ، واقتربت منه ، وتناولت يديه ، وضغطتهما بأصابعها النحيلة ضغطاً كلاَّباً . ثم استأنفت التحديق اليه . كانت تريد بهذه النظرة المكروبة أن تلتقط شيئاً من أمل . ولكن توقعها كان باطلاً . لم يبق أي شك . نعم ، ذلك هو الأمر ! وحتى في المستقبل ، حين ستستحضر صونيا بخيالها تلك اللحظة ، سيبدو لها غريباً عجيباً أنها رأت على هذا النحو ، دفعةً واحدة ، أنه لم يبق مجال لأي شك . ما كان لها أن تجرؤ على الادعاء أنها كانت قد أوجست شيئاً من هذا النوع من قبل، ومع ذلك فانها ما ان قال لها هذا حتى بدا لها أنها كانت قد أوجست « هذا الأمر نفسه » حقاً .

قال لها راسكولنيكوف متوسلاً في ألم :

ـ كفى يا صونيا ، كفى !

لم يكن قد قدَّر أنه على هذا النحو سوف يعترف لها ، ولكن « على هذا النحو » انما تمَّ الاعتراف .

خرجت صونيا عن طورها ، ووثبت ، ولوت يديها ، ومضت الى وسط الغرفة . ولكنها سرعان ما عادت الى قربه ، فجلست بجانبه حتى

ليكاد كتفها يلتصق بكتفه • وكأن فكرة مباغتة قد ومضت في ذهنها ، فاذا هي ترتعش فجأة ، وتطلق صرخة ، وترتمي راكعة أمام راسكولنيكوف ، لا تدري هي نفسها لماذا !

قالت :

ـ ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت بنفسك ؟

وارتمت على عنقه وضمته اليها ضماً قوياً •

بدرت من راسكولنيكوف حـركة تقهقر ، ونظر اليها وهو يبتسم ابتسامة حزينة •

ـ ما أغربك يا صونيا ! أتعانقينني بعد أن قلت لك « ذلك » الأمر ؟ أنت لا تعرفين ماذا تفعلين !

صاحت صونيا تقول حتى دون أن تسمع ملاحظته :

ـ لا ، لا ، ليس في العالم كله الآن رجل أشقى منك •

وأجهشت تبكي فجأة ، كأنما ألمت بها نوبة عصبيّة •

ان عاطفة تجهلها صونيا منذ مدة طويلة تغرقها الآن كموجة غامرة ، وتملأ قلبها رقة وحناناً• لم تحاول صونيا أن تقاوم هذه العاطفة • وانبجست من عينيها دمعتان ظلتا معلقتين بأهدابها •

سألها وهو ينظر اليها في أمل تقريباً :

ـ ألن تتركيني اذن يا صونيا ؟

فصاحت صونيا تجيبه :

ـ لا ، لن ، لن أتركك أينما تذهب ! سأتبعك ، سأتبعك الى أي

مكان ! آه ••• يا رب ! ••• آه ••• ما أشقانى !••• لماذا ، لماذا لم أعرفك من قبل ؟ لماذا لم تأت قبل هذا الأوان ؟ آه ••• يا رب !•••

ـ لكننى أتيت مع ذلك •

ـ الآن أتيت ! ولكن ما العمل الآن ؟

ثم ردت تقول طائشة العقل وهى تعانقه من جديد :

ـ معاً ، معاً ! سوف أذهب معك الى المعتقل !

أصابت هذه الكلمات قلبه ، وعادت تظهر على شفتيه تلك الابتسامة نفسها التى تشتمل على كره وتكاد تشتمل على تعالٍ وكبرياء •

ـ ربما كنت يا صونيا لا أحب أن أذهب الى المعتقل •

ألقت عليه صونيا نظرة سريعة • وبعد العاطفة الأولى التى غزت نفسها وهى عاطفة شفقة حارة أليمة نحو الانسان الشقى المعذب ، عادت تستولى عليها فكرة القاتل الرهيبة المروّعة • ان لهجة كلماته الأخيرة ، وهى لهجة تبدلت على حين فجأة ، قد أرتها فيه صورة القاتل السفاح • ونظرت اليه مشدوهة • كانت لا تعرف ، بعدُ ، شيئاً • كانت لا تعرف لماذا حدث هذا أو كيف حدث • والآن تنبجس هذه الأسئلة جميعها فى شعورها دفعةً واحدة • ومرةً أخرى عادت تشك : « أيكون هو قاتلاً ؟ مستحيل ••• مستحيل ! » • ثم قالت وقد بلغت ذروة الدهشة والذهول :

ـ ولكن ما هذا ؟ أين أنا ؟ كيف ، كيف أمكنك و « أنت ما أنت » أن تعزم أمرك على تلك الفعلة ؟ لماذا ؟

أجاب بلهجة مرهقة ، وكأنها ملتاعة :

ـ لأسرق • كفى يا صونيا !

لبثت صونيا متجمدة خلال لحظة ، ولكنها هتفت تقول فجأة :

ـ كنت جائعاً ! فعلت ذلك لتساعد أمك ، أليس كذلك ؟

تمتم يقول وهو يشيح وجهه ويخفض رأسه :

ـ لا يا صونيا ، لا ••• لم أكن جائعاً الى ذلك الحد • الواقع أننى كنت أريد أن أساعد أمى ••• ولكن هذا أيضاً ليس صحيحاً كل الصحة ••• لا تعذبينى يا صونيا •

ضمت صونيا يديها احداهما الى الأخرى • وقالت :

ـ ولكن هل يمكن ، هل يمكن أن يكون هذا كله صحيحاً ؟ رباه ! أهذه هى الحقيقة ؟ من ذا الذى يمكن أن يصدقها ؟ وكيف ، كيف يُعقل أن تقتل لتسرق ، أنت الذى تعطى آخر ما تملك ؟

ثم صاحت تقول فجأة :

ـ وذلك المال الذى قدمته الى كاترين ايفانوفنا •• وذلك المال •• يا رب ! هل يمكن أن يكون ذلك المال أيضاً •••

قاطعها راسكولنيكوف يقول مسرعاً :

ـ لا يا صونيا ••• ذلك المال ليس مصدره هذا •• اطمئنى ! ذلك المال انما أرسلته الىّ أمى بواسطة تاجر ، وقد تلقيته أثناء مرضى ، فى ذلك اليوم نفسه الذى أعطيتُه أمّك ••• رازوميخين يعرف هذا ••• هو الذى قبضه نيابةً عنى ••• كان ذلك المال مالى أنا ، مالى أنا حقاً •

كانت صونيا تصغى اليه جامدةً ، جاهدةً بكل قواها أن تفهم • وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال بصوت خافت وهيئة حالمة :

ـ أما المال الآخر ••• فاننى لا أعلم هل له وجود • لقد انتزعت

من عنقها ••• محفظة نقود من جلد ••• محفظة نقود ملأى ، محشوة ، لكننى لم أفتحها ••• لعل وقتى لم يتسع لفتحها ••• أما الأشياء الأخرى ••• أزرار الأكمام وسلاسل الذهب فقد أخذتها مع محفظة النقود فى آن واحد ، ومضيت أدفن ذلك كله فى فناء منزل بشارع ف •• ومايزال كل شيء هناك •••

كانت صونيا تصغى باتباه •

ـ ولكن كيف تقول انك قتلت « لتسرق » ، فى حين أنك لم تستول على شيء ؟

كذلك سألته صونيا بسرعة شديدة ، محاولةً أنْ تتشبث بهذه القشة •

قال راسكولنيكوف شارد الذهن :

ـ لا أدرى ••• انتى لم أقرر بعدُ أأستولى على ذلك المال أم لا ••

ثم أضاف فجأة وقد عاد الى وعيه :

ـ يا له من سخف ، هذا الكلام الذى قلته الآن ، هه ؟

وومضت فى ذهن صونيا فكرة : « ألا يمكن أن يكون مجنوناً » ، ولكنها أسرعت تنبذ تلك الفكرة • لا ، ان فى الأمر شيئاً آخر ، ولكنها لا تفهمه ، لا تفهمه البتة •

قال راسكولنيكوف فجأة بما يشبه الالهام :

ـ هل تعلمين يا صونيا ماذا سأقول لك الآن ؟

وأردف يقول مشدِّداً على كل كلمة من كلماته ، ملقياً نظرات ملغزة رغم أنها صادقة :

ـ لو أننى لم أقتلها الا بدافع الجوع ، فلربما كنت الآن «سعيداً» ! اعلمى هذا !

وهتف يقول بعد لحظة :

ـ ولكن فيم يعنيك أن أعترف بأننى أخطأت؟ فيم يفيدك أن تنتصرى علىّ هذا الانتصار الأبله ؟ آه يا صونيا ... أمن أجل هذا سعيت اليك ؟

أرادت صونيا مرةً أخرى أن تقول شيئاً ، ولكنها لزمت الصمت . قال راسكولنيكوف :

ـ اذا كنت قد ناديتك أمس ، فلأننى كنت لا أستطيع أن أنادى أحداً غيرك .

سألته صونيا :

ـ ناديتنى الى أين ؟

ـ ما ناديتك لتقتلى أو لتسرقى . اطمئنى . ما ناديتك من أجل هذا (كذلك ردّد وهو يبتسم ابتسامة مرة) ، فنحن مختلفان أحدنا عن الآخر اختلافاً كبيراً . هل تعلمين يا صونيا أننى لم أدرك الا الآن الى أين ناديتك أمس . حين ناديتك أمس ، لم أكن أعرف الى أين أناديك. والحقيقة أننى ناديتك لتحقيق هدف واحد ، الحقيقة أننى سعيت اليك لغرض واحد : هو أن لا تتركينى . قولى : أترضين أن لا تتركينى يا صونيا ؟

شدت صونيا على يديه .

وهتف راسكولنيكوف يقول بعد دقيقة وقد بلغ غاية الكمد والحزن:

ـ لماذا ، لماذا ذكرت لها الأمر ؟ لماذا كشفت لها عن الحقيقة ؟

قال ذلك ونظر اليها شاعراً بعذاب لا نهاية له • وتابع كلامه فقال:

ـ هأنت ذى تنتظرين منى شروحاً وتفسيرات يا صونيا • أنت هنا تنتظرين هذه الشروح والتفسيرات • انني أرى ذلك • ولكن ما عساني قائلاً لك ؟ انك لن تفهمي من الأمر شيئاً • ولن تزيدى على أن تتألمى بسببي ! وأنت الآن تبكين ، وتقبّلينني من جديد • لماذا تقبلينني ؟ ألأنني لم أستطع أن أحتمل العبء ، فجئت أتخفف منه بالقائه على غيرى ؟ « تألمى ، تألمى أنت أيضاً ، فذلك يخفف عنى أنا » • ذلك هو لسان حالى • أفتستطيعين أن تحبى جباناً كهذا الجبان ؟

هتفت صونيا تسأله :

ـ ولكن ألست تتألم أنت أيضاً ؟

ومرةً أخرى غمرته تلك العاطفة نفسها فرقّ قلبه لحظة • قال :

ـ صونيا ، ان لى قلباً شريراً ، انتبهي الى هذا ، فيضيء لك أموراً كثيرة • ولأنني شرير انما جئت أيضاً • هناك أشخاص كان يمكن أن لا يجيئوا • أما أنا فجبان ••• جبان !••• ولكن ••• لا ضير !•• ليس هذا هو الأمر الهام • وانما علىّ الآن أن أتكلم ، ولست أدرى بمَ أبدأ •

قال راسكولنيكوف ذلك وصمت مفكراً • ثم هتف يقول من جديد :

ـ هيه ! نحن مختلفان أحدنا عن الآخر اختلافاً كبيراً ! مستحيل أن نتفاهم ! لماذا ، لماذا جئت ؟ لن أغفر هذا لنفسى فى يوم من الأيام !

صاحت صونيا تقول :

ـ بل انك قد أحسنت اذ جئت ! الأفضل أن أعرف ! ذلك أفضل كثيراً .

نظر اليها راسكولنيكوف بألم . ثم قال كمن يتابع فكرة :

ـ نعم ، هكذا جرت الأمور ، هكذا جرت حقاً . اسمعى كيف جرت : لقد أردت أن أصبح نابوليون ، ومن أجل ذلك انما قتلت . فهل فهمت الآن ؟...

دمدمت صونيا تقول بصوت خجول وسذاجة واضحة :

ـ لـ ... لا ... ولكن تكلم ، تكلم ، فسوف أفهم ، سوف أفهم كل شيء « في أعماق نفسي » ...

بذلك طالبته صونيا ضارعةً متوسّلة .

قال راسكولنيكوف :

ـ سوف تفهمين ؟ طيب ... سنرى .

وصمت ، وفكّر ملياً . ثم قال :

ـ اليك الأمر ! لقد ألقيت على نفسى في ذات يوم هذا السؤال : ما عسى كان يحدث لو أن نابوليون مثلاً قد وُجد في مكانى ، ولم يكن أمامه في بداية حياة المجد الذى حققه لا تولون ولا مصر ولا ممر مونبلان ، وانما كان أمامه ، بدلاً من جميع هذه الأشياء العظيمة الفخمة الضخمة عجوزٌ حقيرة شريرة تافهة مرابية يجب أن يقتلها ليستولى على المال الذى تخبئه في صندوقها (في سبيل تحقيق رسالته طبعاً ، هل تفهمين ؟) ؟ نعم ، أكان يعزم أمره على أن يفعل ذلك اذا لم يعرض له أى مخرج آخر ؟ أما كان سيشعر بشيء من الحياء والخجل لأن فعلاً كهذا الفعل خالٍ حقاً من الفخامة والضخامة ... ناهيك عن الخطيئة ؟

أؤكد لك أن هـذا « السؤال » قد أقضّ مضجعي مدة طويلة ، الى أن أدركت أخيراً على حين فجأة (وقد أشعرني هذا الادراك بالخزى) أن نابوليون ما كان له أن يحس بأيسر خجل من هذا الفعل ، بل وما كان ليخطر بباله في أية لحظة من اللحظات أن هذا الفعل قد تعوزه العظمـة والرفعة ، بل وما كان له أن يرى ما نوع العار الذى يمكن أن يشتمل عليه هذا الفعل ... ولا شك فى أنه ، اذا لم يعرض له أى حل آخر ، كان سيقتل العجوز دون تردد ودون تفكير. هكذا خرجتُ أنا من التردد بين الاقدام والاحجام ، فقتلت ... مقتـدياً بذلك الرجـل الذى هـو «حجة» . نعم ، على ذلك النحو انما جـرت الأمور . أيبـدو لك هذا سخيفاً مضحكاً ؟ نعم يا صونيا ، لعل أسخف ما فى القضية أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً !

ولكن صونيا لم تر فى هذا كله شيئاً سخيفاً مضحكاً . وها هى ذى تسأله بصوت فيه مزيد من الخجل والوجل ، بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ بل حدثنى ... رأساً ... مباشرة ... دون أن تضرب أمثلة !

فالتفت راسكولنيكوف نحوها ، ونظر اليها بحزن ، وتناول يديها ، ثم قال لها :

ـ أنت على حق يا صونيا . ما ذلك كله الا غباء ! ما ذلك كله الا ثرثرة ! فاسمعى : أنت تعرفين أن أمى كانت قد أصبحت بلا مورد تقريباً، وأختى التى نالت قسطاً حسناً من التعليم بالمصادفة اضطرت أن تعيش حياة خاملة كمربية . وكنت أنا أتمم دراستى ، لكننى وقد أصبحت لا أستطيع سدّ حاجاتى اضطررت ان أترك الجامعة . وهبينى كنت سأستطيع متابعتها بعد عشر سنين أو بعد اثنتى عشرة سنة (فى أحسن الظنون) فكل ما كان يجـوز لى أن آمله هو أن أصبح أسـتاذاً أو موظفـاً من المـوظفين

يتقاضى راتباً سنوياً قدره ألف روبل (كان راسكولنيكوف كمن يلقي درساً محفوظاً) • وفي أثناء ذلك تكون أمي قد أذابتها الهموم والأحزان، ولا أكون قد ظفرت حتى بتأمين الطمأنينة لها• أما أختي فيكون قد جرى لها ما هو أسوأ من ذلك أيضاً • ولماذا أخفق في حياتي هذا الاخفاق ، وأمرُّ بكل شيء مروراً عابراً ، وأنسى أمي ، واحتمل الاهانات التي تنزل بأختي ؟ لماذا ؟ في سبيل ماذا ؟ في سبيل أن أبني أسرة جديدةً بعد أن أدفن أمي وأختي ، فتكون لي زوجة ويكون لي أولاد ، ثم أتركهم هم أيضاً بلا مال ، بلا لقمة خبز ؟ لذلك قررت أن أقف المال الذي سأستولي عليه من العجوز ، قررت أن أقفه على دراستي ، وعلى خطواتي الأولى في الحياة عند التخرج من الجامعة (دون أن أعذّب أمي) • وكنت أريد أن أفعل كل شيء بمقياس ضخم ، أن أفعل كل شيء بطريقة جذرية ، فأدخل حياة جديدة ، وأضمن لنفسي وضعاً مستقلاً كل الاستقلال ••• هذا كل شيء !••• ولقد أسأت صنعاً اذ قتلت العجوز طبعاً • ولكن هيًّا ، كفى هذا !

أتمّ راسكولنيكوف شروحه هذه بمشقة كبيرة وعناء شديد • كان يبدو مرهقاً ، وكان خافضاً رأسه •

صاحت صونيا تقول حزينة :

ــ لا ، ليس هذا هو الأمر ، ليس هذا هو الأمر ، لا ، ليس هذا ، ليس هذا •••

ــ أرأيت ؟ تقولين بنفسك ان الأمر ليس هو هذا • ومع ذلك فقد قلت لك كل شيء ، وحدثتك صادقاً مخلصاً • تلك هي الحقيقة !

ــ ولكن أية حقيقة هنا ؟

ـ انني لم أقتل الا قملة يا صـونيا ، قملة قذرة ، لا فائدة منها ، ضارة ، مسيئة !

ـ أتقول قملة وهي مخلوقة انسانية ؟

أجاب راسكولنيكوف وهو يلقي على صونيا نظرة غريبة :

ـ ولكنني أعرف أنها ليست قملة !

ثم أضاف :

ـ ثم انني أكذب يا صونيا ، انني أكذب منذ زمن طويل . أيضاً ليس هـذا هو الأمر ! أنت على حق ! لقد كان لفعلي بواعث غير هـذه البواعث ، غيرها تماماً . انني لم أكلم أحداً منذ عهد بعيد يا صونيا ... أنا أشعر الآن بصداع شديد في رأسي .

كانت عينا راسكولنيكوف تحترقان بحرارة محمومة . كان كمن يهذي . وكانت تطوف بشفتيه ابتسامة قلقة . ومن خلال اهتياجه ، كان يلوح اعياء رهيب . أدركت صونيا مدى ما كان يقاسي من عذاب . وأخذ الدوار يستولي عليها هي أيضاً . ثم انه كان يتكلم بطريقة غريبة جداً . صحيح أن المرء يستطيع أن يستخرج من كلامه بعض الأشـياء ، ولكن : « كيف ؟ كيف ؟ يا رب ! » ولوت صونيا يديها حزناً ويأساً » .

واستأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يرفع رأسه فجأة كأن أفكاره قد جرت في مجرى آخر على حين بغتة فصدمته وأيقظت نشاطه . فقال :

ـ لا يا صونيا ، ليس هذا هو الأمر . ليس هو هذا .. وانما عليك أن تفترضي (نعم افترضي هذا ، فهو أصح) أنني انسان شديد التأذي ، حسود ، منحط ، شرير ، حقود ، يحب الانتقام ، مهيأ .. للجنون (أقول

كل شىء دفعة واحدة ما دمت قد بدأت ؟ وفيما يتعلق بالجنون فقد سبق أن لاحظت •••) لقد ذكرت لك منذ هنيهة أن مواردى كانت لا تتيح لى البقاء بالجامعة • ولكن هل تعلمين أننى ربما كان يمكننى مع ذلك أن أتابع دراستى ؟ كان يمكن أن ترسل الى أمى ما أنا فى حاجة اليه ، وكان يمكننى أيضاً أن أجنى بالعمل ما يكفينى طعاماً وكساءً وحذاءً • لا شك فى أننى كنت أستطيع ذلك • كان يمكننى أن أعطى دروساً ، فأتقاضى خمسين كوبكاً أجراً عن كل درس• وهذا رازوميخين ! لقد كان يجنى من العمل رزقاً طيباً ! ولكننى شعرت بسخط ورفضت أن اعمل• نعم شعرت بسخط (هذه هى الكلمة الصحيحة) • فلبدت فى ركنى كما يلبد عنكبوت • لقد جئت الى مسكنى الحقير فرأيته • ولكن هل تعلمين يا صونيا أن السقوف الواطئة والغرف المتلاصقة تخنق النفس والفكر ؟ آه ••• لشد ما كنت أكره ذلك المسكن الحقير ! ومع ذلك كنت لا أريد أن أتركه • عن عمد انما كنت لا أريد أن أتركه • كنت أقضى فيه أياماً بكاملها ، لا أريد أن أعمل ، بل ولا أريد أن آكل • كنت أظل راقداً طوال الوقت • فان جاءتنى ناستاسيا بطعام أكلته ، وان لم تجئنى بشىء بقيت صائماً لا أطالب بطعام ، غضباً وحنقاً ! حتى اذا هبط الليل بقيت فى ظلام دامس لأننى لا أملك ما استضىء به • كنت أوثر أن أبقى فى ذلك الظلام الحالك على أن أعمل فى سبيل أن أتمكن من شراء شموع • وبعت كتبى بدلاً من أن أدرس • ودفاترى على المائدة غطتها طبقة من الغبار سمكها سمك اصبع • وما يزال هذا الغبار موجوداً الى الآن • كنت أوثر أن أبقى راقداً أفكر وأتأمل • كنت لا أزيد على أن أفكر وأن استرسل فى الأحلام • لا داعى الى القول ان تلك الأحلام كانت غريبة عجيبة ، وكانت متغيرة متقلبة متحولة ! ولكن بدأ يبدو لى عندئذ أن ••• لا ، لا ، ليس هذا هو الأمر ! اننى لا أحكى الأشياء كما

حدثت . الواقع أنني كنت لا أنفك أتساءل حينذاك ، لعلمي بأن الناس أغبياء ، لماذا أنا غبي مثلهم لا أحاول أن أكون أذكى منهم ؟ وادركت بعد ذلك ، يا صونيا ، أنه اذا وجب انتظار اللحظة التي يصبح فيها الناس أذكياء ، فلا بد من اضاعة وقت طويل . ثم رأيت أن هذا لن يكون أبداً ، فالناس لن يتغيروا في يوم من الأيام ، وما من أحد يملك أن يغيّرهم ، فلا داعي الى اضاعة الوقت في محاولة ذلك . نعم ، تلك هي حالهم ، وذلك هو قانونهم ... نعم ... القانون يا صونيا ، القانون ... واني لأعلم الآن يا صونيا أن من كان قوي النفس والعقل ، فذلك هو سيّدهم ، ذلك هو مولاهم ! من كان يملك جرأة كبيرة ، فذلك هو الذي له الغلبة عليهم ! من كان يبصق على الأشياء أكثر من غيره ، فذلك هو عندهم المشرّع ! من كان يتمتع بأكبر جسارة ، فذلك هو الذي يهبون له جميع الحقوق ! هذا ما كان من قديم الزمان ، وهذا ما سيبقى الى آخر الدهر ! الأعمى وحده لا يبصر هذه الحقيقة !

لم يهتم راسكولنيكوف بأن يعرف أكانت صونيا تفهمه أم لا ، رغم أنه كان لا ينفك ينظر اليها أثناء كلامه . لقد استولت عليه الحمى . وكان يجتاحه نوع من اهتياج مظلم قاتم (حقاً ، انه لم يتحدث الى اى انسان منذ مدة طويلة) . وأدركت صونيا أن هذه التعاليم الكالحة كانت ايمانه وكانت قانونه .

وتابع راسكولنيكوف يقول بحماسة :

ـ لقد أحسست يا صونيا أن السلطة لا توهب الا لمن يجرؤ أن يطاطيء ليتناولها . تكفي الجرأة : الجرأة كل شيء ! ووافتني عندئذ ، لأول مرة في حياتي ، فكرة لا شك أنها لم تخطر ببال أحد حتى الآن في يوم من الأيام ! لقد بدا لي واضحاً وضوح النهار ، على حين فجأة ، أنه ما من أحد قد تجرأ ، حين رأى بطلان العالم ، أن يمسك الشيطان

من ذيله ببساطة ، فيرسله الى جهنم ! أما أنا ، أما أنا ••• فقد أردت أن أجرؤ ، فقتلت ! اننى حين قتلت لم أرد يا صونيا الا أن أجرؤ ! ذلك هو السبب الذى جعلنى أقتل !

صاحت صونيا تقول له متوسلة وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ اسكت ، اسكت ! لقد ابتعدت عن الله ، فضربك الله ، وأسلمك لابليس •••

ـ قولى لى يا صونيا : حين كنت أبقى راقداً فى ظلام غرفتى اجتر أنواع الخواطر والأفكار ، فهل كان ابليس هو الذى يغوينى حينذاك ! قولى !

ـ اسكت ! لا تضحك أيها المجدف ! انك لا تفهم شيئاً ، لا تفهم شيئاً ! رباه ! انه لا يفهم شيئاً !

ـ اسكتى يا صونيا ، أنا لا أضحك البتة • أنا نفسى اعلم ان ابليس هو الذى كان يجرنى •••

كذلك قال راسكولنيكوف ثم عاد يردد بالحاح حزين :

ـ اسكتى يا صونيا ، اسكتى ! أنا أعلم كل شىء ! لقد همست لنفسى بهذا كله أثناء اضطجاعى فى الظلام ••• لقد ناقشت هذا كله فى قرارة نفسى قبل الآن بأدق التفاصيل ! أنا أعلم كل شىء ، كل شىء ! وهذه الثرثرة قد بلغت من اتراع نفسى بالسأم والضجر أننى أردت أن أنسى ، وأن استأنف حياة جديدة يا صونيا ، وأن أكف عن الثرثرة • هل تظنين حقاً أننى قد اندفعت الى ذلك الأمر منكس الرأس كانسان أبله ؟ ان العقل هو الذى كان يقودنى ، وذلك بعينه هو ما ضيعنى ! هل يمكن حقاً أن تظنى أننى كنت أجهل مثلاً أن مجرد القائى هذا

السؤال : « هل لى حق فى السلطة أم لا ؟ » كان يبرهن على أننى لا أملك ذلك الحق ؟ أو هل تظنين أننى كنت أجهل أن القائى هذا السؤال : « هل الانسان قملة ؟ » انما يعنى فى الواقع أن الانسان ليس قملة فى نظرى ، وأنه ليس قملة الا فى نظر من لم يخطر بباله يوماً أن يلقى على نفسه ذلك السؤال ، وانما هو يمضى الى هدفه قُدُماً لا يلوى على شىء ؟ لئن ظللت أعذّب نفسى طوال تلك الأيام كلها بالتساؤل عن نابوليون أكان يقتل العجوز أم لا ، فان معنى ذلك اننى كنت أشعر شعوراً واضحاً بأننى لست نابوليون . ذلك هو العذاب الذى عانيته يا صونيا ، والذى أردت أن أتخلص منه دفعةً واحدة . لقد أردت يا صونيا أن أقتل بدون مناقشة منطقية سفسطائية ، أردت أن أقتل لنفسى ، لنفسى أنا وحدى ! اننى حين فعلت ما فعلت لم أشأ حتى أن أكذب على نفسى : اننى لم أقتل فى سبيل أن أساعد أمى ! لا ! لا ولا فى سبيل أن أصبح محسناً الى الانسانية بعد أن أملك وسائل الاحسان اليها . لا ، وانما أنا قتلت لنفسى ، لنفسى وحدى ! وفى تلك اللحظة لم يكن يعنينى كثيراً أن أعرف هل سأصبح واحداً من المحسنين الى الانسانية ، أم اننى سوف أقضى حياتى كالعنكبوت أصطاد غيرى فى نسيج خيوطى وامتص قواه الحية ! لا ولا كان المال هو ما أحتاج اليه ذلك الاحتياج كله ... وانما كان احتياجى الى شىء آخر ... أنا أعرف هذا الآن ! افهمى عنى يا صونيا : لو كان علىّ أن أعيد السير فى هذا الطريق نفسه ، فقد لا أقتل . غير أن هناك شيئاً كان يغرينى بمعرفته . كان هناك شىء يرفع ذراعى . كان علىّ أن أعرف عندئذ ، بأقصى سرعة ممكنة ، أأنا قملة كسائر الناس ، أم أنا رجل ؟ أأنا أستطيع أتخطى الحاجز ، أم أنا لن أستطيع ذلك ؟ أأنا أجرؤ أن أطاطىء فأتناول هذه القدرة ، أم أنا لن أجرؤ ؟ أأنا مخلوق مرتعش أم أنا أملك « الحق » ...

ـ الحق فى القتل ؟ تملك الحق فى القتل ؟

كذلك قالت صونيا وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى .

صاح راسكولنيكوف مهتاجاً يريد أن يجيب :

ـ هيه ! صونيا ...

ولكنه عدل عن ذلك ، ولزم صمتاً فيه احتقار . ثم أردف يقول :

ـ لا تقاطعينى يا صونيا ! لقد أردت أن أبرهن لك على شىء واحد : هو أن ابليس قد جرّنى فى أول الأمر ، ثم لم يُفهمنى الا بعد ذلك أننى لم يكن من حقى أن اقترف الفعل الذى اقترفته ، لأننى أنا نفسى قملة كسائر الناس . لقد سخر منى واستهزأ بى ، ولهذا السبب انما جئت اليك الآن ، فأحسنى وفادة ضيفك يا صونيا ! أكنت أجىء اليك لولا أننى قملة ؟ اسمعى : اننى حين ذهبت الى العجوز لم أكن أريد الا أن « أحاول تجربة » ... فاعلمى هذا !

ـ وقتلت !

ـ لكن كيف قتلت ؟ أهكذا يتدبر المرء الأمور من أجل أن يقتل ؟ سأروى لك فى ذات يوم كيف ذهبت الى هناك . هل العجوزَ قتلت ؟ لا بل أنا قتلت نفسى ! لقد أجهزت على نفسى ، دفعةً واحدة ، والى الأبد ! أما العجوز فان ابليس هو الذى قتلها لا أنا !

كذلك قال راسكولنيكوف ثم صاح فجأةً وقد أصبح فريسة قلق لا يغالب :

ـ كفى كفى يا صونيا ، دعينى ! دعينى !

ووضع كوعيه على ركبتيه ، وشدّ رأسه بين يديه ككماشة .

بلغت صونيا ذروة الاضطراب والألم ، فأفلت من لسانها قولها :

ـ ما أشدّ ألمك وعذابك !

فسألها فجأة وهو يرفع رأسه منقلب الهيئة من شدة الكرب واليأس:

ـ وما العمل الآن ؟ قولى ...

صاحت وهى تندفع من مكانها وقد سطعت عيناها فجأةً بعد أن كانتا حتى ذلك الحين ممتلئتين بالدموع :

ـ ما العمل ؟

ثم أضافت وهى تمسكة من كتفه ، فينهض هو من مكانه وينظر اليها بما يشبه الذهول دهشةً :

ـ اذهب فوراً ، فى هذه اللحظة نفسها ، اذهب الى مفرق طرق ، فاسجد على الأرض من جديد ، واتجه الى جهات العالم الأربع جهةً بعد جهة ، ثم ارفع صوتك عالياً قوياً أمام جميع الناس بقولك : « لقد قتلت ! » . عندئذ سيردُّ اليك الاله الحياة . أتذهب ؟ أتذهب ؟

كذلك سألته مرتعشةً من رأسها الى قدميها ، كأن نوبةً عصبية قد ألمّت بها . وأمسكت يديه ، فضغطتهما بيديها ضغطاً قوياً ، وتأملته بنظرة حارة .

ذُهل راسكولنيكوف ذهولاً شديداً حتى كاد يصعق من هذه الحماسة المفاجئة . وسألها مكفهر الوجه :

ـ أتريدين اذن أن أذهب الى المعتقل يا صونيا ؟ يجب أن أشى بنفسى ، أليس كذلك ؟

ـ الشيء الذي يجب أن تفعله هو أن تقبل الألم فتكفر عن خطيئتك وتفدي نفسك • ذلك هو ما يجب !

ـ لا ، لن اذهب اليهم يا صونيا !

صاحت صونيا تسأله :

ـ فكيف يكون في وسعك أن تحيا اذن ؟ كيف يكون في وسعك أن تحيا ؟ أما يزال هذا ممكناً ؟ عجيب ! كيف يكون في امكانك أن تظل تكلم أمك ؟ آه ••• ما عسى تصيران اليه ؟ ما عسى تصيران اليه كلتاهما ؟ ولكن ماذا أقول ؟ لقد تركت أمك وأختك وانتهى الأمر ! لقد تركتَهما ، تركتَهما ! آه ••• يا رب ! اذن أنت تدرك هذا كله بنفسك ! كيف ، نعم ، كيف يمكن أن تعيش بعيداً عن البشر ؟ ما عسى تصير اليه الآن ؟

قال راسكولنيكوف بهدوء ورفق :

ـ لا تكوني طفلةً يا صونيا ! ما ذنبي في حقهم ؟ لماذا أشي بنفسي اليهم ؟ ما عساني قائلاً لهم ؟ ليس هذا كله الا سراباً ••• هم أنفسهم يقتلون ملايين البشر ، ثم يستمدون من ذلك مجداً ! هم أوغاد وجبناء يا صونيا ! لا ، لن أذهب ! ثم ماذا أقول لهم ؟ أأقول لهم انني قتلت لكنني لم أجرؤ أن آخذ المال وانما خبأته تحت صخرة ؟ (كذلك أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة ساخرة) • ولكنهم سيضحكون عندئذ عليّ ، وسيعدونني رجلاً أبله ، لأنني لم أجنِ من فعلتي نفعاً ••• سيعدونني أبله وجباناً ! لن يفهموا شيئاً يا صونيا ، لن يفهموا شيئاً ، انهم غير جديرين بأن يفهموا شيئاً ••• فلماذا أذهب اليهم فأسلمهم نفسي ؟ لا ، لن أذهب ! لا تكوني طفلة يا صونيا !

قالت صونيا مردِّدةً متوسلةً مادةً نحوه يديها :



صونيا

بريشة الفنانة السوفياتية ألكسندرا كورساكوفا

ـ لن تكون حياتك بعد الآن الا عذاباً متصلاً طويلاً ، عذاباً متصلاً طويلاً !

قال راسكولنيكوف قاتم الوجه شارد الذهن :

ـ لعلنى اتهمت نفسى بما ليس فيها . لعلنى ما زلت رجلاً لا قملة. لعلنى تسرعت فى اتهام نفسى .. سوف أكافح « مزيداً » من الكفاح...

وظهرت على شفتيه ابتسامة فيها تعالٍ وكبرياء .

قالت صونيا :

ـ أتحمل ثقلاً كهذا الثقل ؟ طوال حياتك ، طوال حياتك ؟

فأجابها راسكولنيكوف كالح الهيئة شارد اللب :

ـ سوف أعتاد ذلك !

ثم أضاف يقول بعد دقيقة :

ـ اسمعى ! كفى بكاءً ! آن لى أن أصل من هذا كله الى أن أذكر لك الواقع . لقد جئت أقول لك الواقع . لقد جئت لأقول لك اننى ملاحق ، اننى مطارَد !

صرخت صونيا مروَّعة :

ـ آه ...

فقال لها راسكولنيكوف :

ـ لماذا تصرخين ؟ ألم تريدى أنت نفسك أن أذهب الى المعتقل ؟ فما بالك تخافين الآن ؟ على أننى لن استسلم لهم ، لن أدع لهم أن يقبضوا علىّ ! سأظل أقارعهم ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا بى شيئاً ! انهم

لا يملكون قرائن واقعية . لقد تعرضت أمس لخطر كبير ، فحسبت أنني هلكت . ولكن يبدو أن الأمور قد سُوِّيت اليوم . ان كل دليل من أدلتهم ذو حدَّين . أعني أن في وسعي أن أقلب كل دليل من تلك الأدلة فاجعله لي لا عليَّ ، هل تفهمين ؟ وسأفعل ذلك ... لأنني أصبحت الآن خبيراً بمهنتهم ! لكنهم سيسجنونني حتماً ! ولولا أن حادثاً قد وقع بمصادفة فلربما كانوا أودعوني في السجن منذ اليوم ؟ وما يزال من الجائز جداً أن أُسجن بسرعة . ولكن لا ضير يا صونيا ! سأقضي في السجن بعض الوقت ثم يُطلق سراحي ... لأنهم لا يملكون ولن يملكوا دليلاً حقيقياً واحداً ، أؤكد لك ذلك ! ان الأدلة التي يملكونها لا تكفي لأن « تلطخ » انساناً ! ولكن كفى كلاماً الآن ! انا انما قلت لك هذا كله لا لشيء الا أن تعلمي ... أما أمي وأختي فسأحاول بطريقة أو بأخرى أن أهدىء روعيهما وأن أطمئنهما . ان اختي تبدو الآن في منجى من الفاقة والعوز ، وكذلك أمي اذن ... هذا كل ما كنت أريد أن أقوله لك . ثم عليك بالحذر ! هل تزورينني حين أودع في السجن ؟

ـ سوف أزورك ، سوف أزورك !

كانا جالسين احدهما الى جانب الآخر، حزينين مهدَّمين ، كغريقين وجد كل منهما صاحبه على شاطىء مقفر بعد عاصفة . كان راسكولنيكوف ينظر الى صونيا وهو يشعر شعوراً واضحاً بالحب الذي تغمره به . ومن الغريب أنه شقَّ على نفسه بل آلم نفسه فجأةً أن يحس بأنه محبوب الى هذا الحد .

حين ذهب الى صونيا كان قد شعر بأنها أمله الوحيد ، وبانها ملاذه الوحيد . وكان يأمل أن يتخفف عندها من جزء من حمله على الأقل . ولكن ها هو ذا الآن يحس أنه أشقى مما كان من قبل . قال :

ــ صونيا ، الأفضل أن لا تجيئى الىّ فى السجن .

لم تجب صونيا ، وكانت تبكى . وانقضت بضع دقائق . فاذا هى تسأله على غير توقع ، كأنها تذكرت شيئاً ما على حين بغتة :

ــ هل معك صليب ؟

فلم يفهم السؤال فى أول الأمر .

قالت :

ــ لا ، ليس معك صليب ، أليس كذلك ؟ خذ ، اليك هذا الصليب ، انه من خشب السرو . معى صليب آخر ، صليب من نحاس ، بقى لى من اليزابت . لقد قمنا بمبادلة ، أنا واليزابت : أعطتنى صليبها ، وأعطيتها أنا مداليتى الصغيرة . سأحمل الآن صليب اليزابت ، وستحمل أنت هذا الصليب . خذه .. انه صليبى أنا ! صليبى أنا ! سنتألم معاً ، فلنحمل اذن صليبنا معاً !

قال راسكولنيكوف :

ــ هاتى !

ولكنه لم يلبث أن سحب يده .

ثم أضاف يقول ليهدئها :

ــ لا الآن يا صونيا ! فيما بعد ! ذلك أفضل !

فقالت صونيا تردد بحماسة :

ــ نعم ، نعم ، ذلك أفضل ، ذلك أفضل ! سوف تحمل الصليب حين تسافر للتكفير . تجىء الىّ ، فأضع الصليب فى عنقك ، ونصلى معاً ، ونسافر معاً ...

في تلك اللحظة نقر الباب ثلاث نقرات . ونادى صوت مهذّب مألوف يسأل :

ـ هل أستطيع أن أدخل يا صوفيا سيميونوفنا ؟

فاندفعت صونيا نحو الباب مذعورة . وظهر في فرجة الباب وجه ليبزياتنيكوف المضحك .

الفصل الخامس

كان ليبزياتنيكوف مضطرب الهيئة منقلب السحنة .

قال يكلم صونيا :

ـ جئت لأراك يا صوفيا سيميونوفنا .

ثم قال يخاطب راسكولنيكوف فجأة :

ـ معذرةً . كنتُ أتوقع أن أجدك هنا . أقصد لم يخطر ببالى شىء ... مما قد تظن ، وانما أنا قدّرت أن ...

وعاد يكلم صونيا فقال دفعة واحدة :

ـ جُنّت كاترين ايفانوفنا !

اطلقت صونيا صرخة . وتابع ليبزياتنيكوف كلامه :

ـ أو على الأقل ذلك ما يبدو . أصبحنا هناك لا ندرى ماذا يجب أن نعمل . أغلب الظن أنهم طردوها من المكان الذى ذهبت اليه ، ولعلهم ضربوها أيضاً ... أو على الأقل ذلك ما يبدو ... لقد ركضت تسعى الى رئيس سيميون زاخارتش * ، فلم تجده فى بيته : كان يتغدى عند جنرال آخر ما . فذهبت الى هناك ، الى حيث كان يتغدى .. تصوروا!.. ذهبت الى بيت ذلك الجنرال الآخر ... هل تصدقون هذا ؟ واستطاعت أن تستدعى رئيس سيميون زاخارتش . نعم ، اضطرته أن ينهض عن

المائدة ، أو على الأقل ذلك ما يبدو • وفي وسعكم أن تتخيلوا التتمة !. لقد طُردت طبعاً ، لكنها تروى أنهـا شـتمته وأنها رشـقته بشيء على رأسه • ذلك جائز جداً • حتى انني استغرب أنهم لم يقتلوها • وهى الآن تروى هذه القصة لكل من يريدون أن يسـمعوها ، ومنهم آماليـا ايفانوفنـا • غير أن من الصـعب أن يفهم المرء عنها ، من فرط صراخها وتخبطها !•• آه •• نعم •• هى تقول •• هى تصيح قائلةً انها ما دامت قد هجرها جميع الناس ، فستأخذ أولادها ، وستمضى فى الشارع تعزف على أرغن باربار يا ، وان أولادهـا سيغنـون ويرقصـون ، وانها ستغنى وترقص هى أيضاً ، وانهم سيستعطون الصدقات من المارّة ، وانها ستقود الأولاد كل يوم الى منزل الجنرال فتقف بهم تحت نوافذ غرفته ، وهكذا: « سيعرف الجنرال ، على حد تعبيرها ، كيف أن أولاداً نبلاء أبوهم موظف محترم يستجدون أكف النـاس فى الشـوارع » • وهى تضرب جميع أولادها ، والأولاد يبكون • انها تعلم لينيا أغنيـة « القرية الصغيرة » ، وتعلم الصبى الصغير الرقص ، وكذلك تعلم الرقص باولين ميخائيلوفنا *• ولقد مزقت جميع ملابسـهم ، وأخذت تخيط لهم طاقيـات من طاقيـات المهـرّجين • انها تريد أن تحمل طشـتاً تنقر عليـه كما تنقر على آلة موسـيقية • وهى ترفض أن تسمع شيئاً ••• تصـوروا ! هل يمكن أن نتركها تفعل هذا !

كان يمكن أن يستمر ليبزياتنيكوف فى الكلام ، ولكن صونيا التى أصغت اليه وهى تتنفس بمشقة كبيرة قد تناولت خمارها وقبعتها فجأة ، واندفعت الى خارج الغـرفة تنهى ارتداء ثيابهـا فى الطريق • وخـرج راسكولنيكوف وراءها ، وخرج ليبزياتنيكوف وراء راسكولنيكوف •

قال ليبزياتنيكوف لراسكولنيكوف منذ أصبحا فى الشارع :

ــ لا شك فى أنهــا فقــدت عقلها • لم أشــأ أن أروّع صــوفيــا سيميونوفنا ، لذلك قلت : « ذلك ما يبدو » ، ولكن الواقع أنه لا يمكن أن يساورنا أى شك فى أنها فقدت عقلها • يقال ان هناك درنات تنشــأ فى أدمغة المصابين بمرض السل ، فتورثهم هذا الجنون ! خســارة أننى لا أعرف الطب • على أننى حاولت اقناعهــا ، لكنها لا تريد أن تســـمع شيئاً !

ــ كلمتها عن الدرنات ؟

ــ لا عن الدرنات تماماً ، خصوصاً وأنها ما كان لها أن تفهم شيئاً عن الدرنات لو كلمتها فيها • لكننى أقول اننا اذا استطعنا بواسطة المنطق أن نقنع شخصاً بأنه لا داعى الى البكاء ، فان هذا الشخص سيكف عن البكاء فوراً • هذا واضح• ماذا ؟ أليس من رأيك أنه سيكف عن البكاء؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

ــ ما أسهل الحياة اذا صدق قولك !

ــ اسمح لى ، اسمح لى ! صحيح أن كاترين ايفانوفنا يصعب عليها أن تفهم هذا • ولكن هل تعلم أن هناك تجــارب جديدة قد أجريت فى باريس عن امكان شفاء المجانين بواســطة الاقنــاع المنطقى وحــده ؟ ان أستاذاً من الأساتذة هناك ، وقد مات منذ مدة قصيرة ، وهو عالم من اكبر العلماء * ، قد رأى ان فى الامكان شفاء المجانين بهذه الطريقة • والفكرة الأساسية التى جاء بها هى أن المجانين ليس فيهم أية آفة عضوية ، فانما الجنون ضلال منطقى ان صح التعبير ، أى خطأ فى الحكم أو فساد فى الرأى • لذلك أخــذ العالم يدحض أقوال المريض بالتدريج ، فاذا هو ينجح فى شفائه شيئاً بعد شيء • ولكن لا بد لنا أن نعترف بأن نتائج المعالجة

يمكن أن تكون موضع أخذ ورد ، ما دام الطبيب قد استعمل فى الوقت نفسه حمامات « دوش » ، أو ذلك ما يبدو على الأقل ...

كان راسكولنيكوف قد انقطع عن الاصغاء منذ مدة . فلما وصل أمام المنزل الذى فيه بيته ، حيًّا ليبزياتنيكوف باشارة من رأسه ، وانعطف يدخل بوابة المنزل . فتحيَّر ليبزياتنيكوف ، ونظر حواليه ، ثم تابع طريقه .

دخل راسكولنيكوف مسكنه الحقير ، وهناك وقف يتساءل : « لماذا جئت ؟ » . وألقى نظرة على الورق الأصفر الباهت الذى يغطى الجدران ، وعلى الغبار الذى يغشى كل مكان ، وعلى سريره . وكان يصل من فناء المنزل صوت جاف متصل ، كأن أحداً كان يغرس مسامير .

مضى راسكولنيكوف الى النافذة ، وارتفع على رءوس أصابع قدميه ، وظل يفتش فناء المنزل بانتباه شديد مدة طويلة . ولكن الفناء كان خالياً مقفراً ، وليس يرى المرء أحداً يغرس مسامير . وعلى اليسار ، فى جناح آخر ، كان ثمة نوافذ مفتوحة ، ترى على أفاريزها أصص أزهار ، ويرى من خلالها غسيل منشور فى الداخل على حبال ... لقد كان راسكولنيكوف يعرف هذا كله حفظاً على ظهر القلب . فأشاح عنه ، وعاد يجلس على سريره .

انه لم يشعر فى يوم من الأيام ، فى يوم من الأيام ، بأنه وحيد الى هذا الحد من الوحدة . نعم ، لقد أحس من جديد أنه قد يعود يكره صونيا ، لا لشىء الا لأنه قد أشقاها الآن مزيداً من الشقاء . تساءل : « لماذا ذهبت أستجديها صدقةً من دموعها ؟ ما كانت حاجتى الى تسميم حياتها ؟ يا للجبن ! يا للحقارة ! » .

وقال فجأة بلهجة جازمة : « سأبقى وحيداً . ولن تأتى لترانى فى السجن ! » .

وبعد خمس دقائق عاد يرفع رأسه ، وابتسم ابتسامة غريبة . لقد وافته فكرة لم تكن فى الحسبان . قال يسأل نفسه : « أليس من الجائز أن تكون حالى فى المعتقل أفضل حقاً ؟ » .

لم يستطع راسكولنيكوف فى يوم من الأيام أن يعرف المدة التى قضاها فى مسكنه يدير فى رأسه هذا الطوفان من الأفكار المبهمة والخواطر الغامضة . ولكنه يعرف أن الباب فُتح فجأةً ، فدخلت آفدوتيا رومانوفنا .

توقفت آفدوتيا رومانوفنا فى أول الأمر وتأملته واقفةً فى العتبة ، كما تأمل هو صونيا منذ قليل . ثم تقدمت وجلست على كرسى أمامه فى مكان الأمس نفسه ؛ وأخذ يتأملها صامتاً بنظرة شرهة تلتهمها التهاماً . قالت دونيا :

ـ لا تزعل يا أخى ، أنا ما جئت الا لدقيقة !

كان فى وجهها وقار ورصانة ، ولكن بغير تجهم أو قسوة . وكانت نظرتها رائقة صافية ، وادعة هادئة . فأدرك راسكولنيكوف أنها قد جاءت اليه هى أيضاً بحب .

وتابعت الأخت كلامها فقالت :

ـ روديا ، أنا أعلم الآن كل شيء ، كل شيء ، كل شيء ! لقد روى لى دمترى بروكوفتش كل شيء ، وشرح لى كل شيء ! انهم يضطهدونك ويعذبونك بسبب شبهة غبية كريهة . لقد قال لى دمترى بروكوفتش انك غير معرَّض لأى خطر ، وقال انك تخطىء اذ تضخم الأمور وتأخذها مأخذ الفاجعة . ولست أشاطره رأيه ، فأنا أفهم حق الفهم أن يثير هذا تمردك ، وأن يخلّف هذا التمرد آثاراً فى حياتك

كلها . وذلك ما أخشاه حقاً . ولست أحكم على أنك تركتنا ، ولا أجرؤ أن أحكم ، فأرجوك أن تغفر لى ما وجهته اليك من لوم . أنا أشعر بأننى لو أصابنى حزن كحزنك لابتعدت عن جميع الناس كما تبتعد عنهم أنت . لن أقصّ « هذا الأمر » على أمنا ، لكننى لن أنفك أحدثها عنك، وسأقول لها على لسانك انك لن تتأخر عن العودة الينا . لا تقلق عليها ، سوف أتولى أنا تهدئتها وطمأنتها . ولكن عليك من جهتك أن لا تعذبها : زرها ولو مرةً واحدة ، تذكر أنها أمك . ولقد جئت الآن لأقول لك (هنا نهضت دونيا) : اذا احتجت الىّ فى أى أمر من الأمور ، فتصرّف فى حياتى ... نادنى فأجىء ! استودعك الله !

قالت دونيا ذلك ، ثم استدارت واتجهت نحو الباب .

قال راسكولنيكوف وقد نهض واتجه نحوها :

ــ دونيا ! ان رازوميخين هذا ، ان دمترى بروكوفتش رازوميخين شاب ممتاز !

احمر وجه دونيا قليلاً . وسألته بعد دقيقة :

ــ وبعد ؟

ــ وبعد ، هو فتى نشيط مجتهد شريف ، قادر على أن يحب حباً قوياً ، حباً صادقاً ... استودعك الله يا دونيا !

احمر وجه دونيا احمراراً شديداً ، ثم قالت وقد تنبهت الى الخطر فجأة :

ــ ولكن لماذا توصى به هذه التوصيات كلها ؟ أترانا نفترق الى الأبد ؟

ــ لا قيمة لهذا ... استودعك الله !...

قال ذلك ، وابتعد عنها ، ومضى الى النافذة . فانتظرت لحظة ، ونظرت اليه قلقةً ، ثم خرجت وقد استولى عليها همٌ وخوف .

لا ، انه لم يشعر نحوها ببرودة فى العاطفة ، حتى انه فى لحظة من اللحظات (هى اللحظة الأخيرة) قد استبدت به رغبة قوية فى أن يحتضنها بذراعيه وأن يقول لها « كل شيء » ، مودعاً اياها ، لكنه لم يستطع أن يعزم أمره على أن يمدَّ اليها يده ، وأضاف يحدث نفسه قائلاً : « فى المستقبل ، قد ترتعش حين تتذكر اننى احتضنتها بذراعى ، وقد تقول لنفسها اننى سرقت منها قبلتها » وأضاف يتساءل بعد بضع لحظات : « ثم هل يمكنها أن تحتمل اعترافاً كهذا الاعتراف ؟ لا ، لن تستطيع أن تحتمله . هى من أولئك اللواتى لا يمكنهن أن يحتملن مثل هذه الأشياء » .

وفكّر فى صونيا .

وكان هواء طري يهب من النافذة . وفى الخارج كان الضياء قد خبا سطوعه . فتناول راسكولنيكوف قبعته فجأة وخرج .

كان لا يستطيع أن يعبأ بحالته الصحية ، لا ولا يريد أن يعبأ بها . ولكن جميع تلك الانذارات المتصلة وجميع تلك الأهوال النفسية ، كان لا بد أن يكون لها آثار . ولئن لم تصرعه الحمى حتى الآن ، فلعل مردَّ ذلك أن القلق المستمر كان يجعله فى حالة تنبه وتيقظ ، ولو على نحو مصطنع مؤقت جداً .

لبث يضرب فى الأرض على غير هدى . أخذت الشمس تغرب . انه يحس منذ بعض الوقت بحزن خاص جداً . لم يكن فى ذلك الحزن شيء من حدة ، وانما كان فيه نوع من ثبات وبقاء أبدى ، نوع من تنبؤ بجميع السنين التى سوف يقضيها فى غمٍ بارد كالصقيع ، غمٍ قاتل هو

شيء كالأبدية على مساحة من الأرض ليست اكبر من « موطىء قدم » . كان راسكولنيكوف يشعر بهذا الاحساس أقوى ما يكون عند هبوط الليل خاصة .

دمدم يقول متذمراً : « هيَّا امتنع عن ارتكاب حماقة من الحماقات ان استطعت وأنت تعاني من هذه الاضطرابات الجسمية السخيفة لدى غروب شمس ! ان في الامكان أن تقودك هذه الحالة لا الى الاعتراف لصونيا فقط ، بل الاعتراف لدونيا أيضاً ! » .

وسمع أحداً يناديه ، فالتفت ، فاذا ليبزياتنيكوف يهرع اليه . قال ليبزياتنيكوف :

ـ انني آتٍ من عندك ! لقد كنت أبحث عنك ! تخيَّل أنها وضعت مشروعها موضع التنفيذ مقتادةً أولادها ! وقد لقينا أنا وصوفيا سيميونوفنا كثيراً من العناء والمشقة حتى وجدناهم ! انها تنقر على مقلاة ، وتجبر الأولاد أن يغنوا ويرقصوا . والأولاد يبكون . انهم يتوقفون عند مفارق الطرق وأمام الدكاكين ، ووراءهم يجري جمهور كبير غبي . تعال !

سأله راسكولنيكوف قلقاً وهو يجري وراءه :

ـ وصونيا ؟

ـ فقدت عقلها . لا أقصد أن صوفيا سيميونوفنا هي التي فقدت عقلها بل كاترين ايفانوفنا . وصوفيا سيميونوفنا أيضاً على كل حال . ولكن كاترين ايفانوفنا فقدت عقلها تماماً . نعم ، لقد جُنَّت جنوناً كاملاً نهائياً . ستُقاد مع الأولاد الى الشرطة . هأنت ذا ترى الأثر الذي سوف يحدثه هذا . هم الآن على رصيف النهر ، قرب جسر س ... ، غيرَ بعيد عن مسكن صوفيا سيميونوفنا ، على مسافة خطوتين من هنا .

على الرصيف ، غير بعيد عن الجسر ، قبل منزل صونيا بعمارتين ، كانت تحتشد جمهرة من الناس فعلاً ، يرى المرء بينها على وجه الخصوص صبياناً وبنات يقفزون ويثبون .

ان صوت كاترين ايفانوفنا الأبح يُسمع حتى من الجسر . مشهد غريب فعلاً ، لا بد أن يشوق المستطلعين المتسكعين الذين يحبون أن يروا كل شيء وأن يسمعوا كل شيء !

كانت كاترين ايفانوفنا ترتدي ثوبها العتيق وشالها المصنوع من الجوخ ، وتضع على رأسها قبعة من قش تسطحت وتشوهت . وكانت في حالة جنون مطلق حقاً ، وكانت تلهث منهوكة مهدودة القوى . وكان وجهها ، الشاحب الهزيل من مرض السل ، يعبّر عن ألم أقوى من الألم الذي يعبّر عنه هذا الوجه عادةً (ان المصدورين يبدون في ضوء الشارع أشد مرضاً مما يبدون مرضى في منازلهم) . وكان اهتياجها لا يهدأ ، بل يقوى ويستعر مزيداً من الاستعار لحظة بعد لحظة . فهي تندفع نحو أولادها ، فتصفعهم وتقرّعهم وتعلّمهم على مرأى من جميع الناس كيف ينبغي لهم أن يرقصوا وأن يغنوا وتشرح لهم ضرورة ذلك ، حتى اذا لاحظت أنهم لا يفهمون أخذت تضربهم ؛ ثم هي تهرع الى الجمهور لتكلمه قبل أن تفرغ مما تكون قد شرعت فيه . فاذا لمحت بين أفراد الجمهور شخصاً يرتدي ثياباً لائقة بعض الشيء ، أسرعت تشرح له الحالة التي آل اليها « أولاد أسرة نبيلة ، بل أسرة ارستقراطية » . واذا سمعت انطلاق ضحكة أو مجرد كلمة ساخرة هجمت على الوقحين فوراً وأخذت تشاجرهم . وكان بعض الناس يضحكون وكان بعضهم الآخر يهزون رءوسهم ، ولكنهم كانوا جميعاً ينظرون بكثير من الاستطلاع والفضول الى المرأة المجنونة وأولادها المروّعين . والمقلاة التي تكلم عنها ليبزياتنيكوف لم تكن موجودة ، أو ان راسكولنيكوف لم يرها على الأقل ،

لكن كاترين ايفانوفنا كانت ترافق الغناء والرقص بضبط الوزن صفقاً بيديها اليابستين ، مجبرة كوليا ولينيا على الرقص بينما تغني باولين . وكانت تحاول في الوقت نفسه أن تغني هي أيضاً ، ولكن نوبة رهيبة من السعال ما تلبث أن تقطع غناءها ، فتحزن عندئذ حزناً شديداً ، وتأخذ تشتم المرض وتلعنه ، حتى لتبكي حسرة ولوعة . والشيء الذي كان يثير حنقها خاصة انما هو بكاء كوليا ولينيا وذعرهما . وكانت كاترين ايفانوفنا قد حاولت حقاً أن تلبس أولادها على طريقة مغنّي الشوارع . فأما الصبي الصغير فقد وضعت على رأسه لفة بيضاء مخيطة مع قطعة من قماش أحمر فكأنها طربوش وعمامة مما يضعه على رءوسهم الأتراك . وأما لينيا فان كاترين ايفانوفنا لأنها لم تجد قماشاً تصنع لها به ثوباً حقيقياً من ثياب مغنّي الشوارع ، قد اقتصرت على أن ألبست رأسها قلنسوة منسوجة بالابرة من صوف أحمر (بل قل طاقية المرحوم سيميون زاخارتش نفسها) ، وغرست في القلنسوة بقية ريشة من ريش النعام الأبيض كانت تملكها في الماضي جدة كاترين ايفانوفنا ، وكانت كاترين ايفانوفنا قد حفظتها حتى ذلك الحين في صندوق أثراً من تراث الأسرة . وأما بوليا فهي ترتدي ثوبها الذي كانت ترتديه كل يوم ، وتدرك أن أمها قد جنّت فتنظر اليها نظرة فيها خجل وخوف وحزن ، ولا تبتعد عنها شبراً واحداً ، مخفية دموعها ، ملقية على ما حولها نظرات قلقة . كان الشارع والجمهور يبثان في نفسها رعباً هائلاً .

كانت صونيا تسير وراء كاترين ايفانوفنا باكية ، وما تنفك تضرع اليها في كل دقيقة أن ترجع الى البيت . ولكن كاترين ايفانوفنا لا تنثني عن عزمها ، ولا تلين قناتها ، فهي تقول لصونيا صارخة بصوت متعجل وهي تسعل وتلهث :

ـ اتركيني يا صونيا ، اتركيني ! أنت نفسك لا تدرين ماذا تطلبين

منى ! أنت طفلة ، أنت طفلة ! قلت لك اننى لن أرجع الى تلك الألمانيــة السكّيرة ! ألا فليعلم جميع الناس ببطرســبرج كيف صار الى استجداء الأكف أولادُ أبٍ نبيل ظل طوال حياته يخدم الدولة باستقامة وشرف ، حتى ليمكن أن يقــال انه مات أثنــاء أداء واجب وظيفتــه (لقد أفلحت كاترين ايفانوفنــا فى أن تخلق لنفســها هذا الوهم وأن تؤمن به ايمانا أعمى) ! ألا فلَيرَ ذلك الجنرال التافه كلَّ هذا ، ألا فليرَه ! أنت حمقاء يا صونيا ! ما عســانا نفعــل الآن من أجــل أن نأكل ؟ لقد اســتغللناك واســتثمرناك بما فيه الكفــاية ! لا أريد هــذا بعد الآن !••• روديون رومانوفتش ؟ أهــذا أنت ؟ (كذلك هتفت وقد لمحت راسكولنيكوف ، فهرعت اليه) أرجوك أن تُفهم هذه الحمقاء الصغيرة أننا لم يبق لنا أن نفعل شــيئاً غير هذا ! ان العازفين على أرغن بارباريا يتوصلون الى جنى رزقهم ، ونحن سوف يتعرفنا جميع الناس ، وسوف يرى جميع الناس أننا أسرة نبيلة مهجورة بائسة ، وسوف يفقد ذلك الجنرال التافه منصبه ، لترينَّ هــذا ! ســــنذهب كل يوم الى تحت نوافــذه ، حتى اذا مــرَّ الامبراطور جثوت عند قدميــه ، ودفعت هؤلاء الى أمام ليراهم ، وهتفت أقول له : « احمهم يا أبانا ! » . انه أبو اليتامى ، انه رحيم ••• سوف يحميهم ، لترينَّ أنه سوف يحميهم ! أما ذلك الجنرال التافه فسوف ••• « لينيا ، انصبى قامتك » * ! وأنت يا كوليا ! ارقص من جديد ! ما لك تبكى ! انه ما يزال يبكى ! عجيب ! ممَّ أنت خائف أيها الأحمق الصغير؟ ماذا يجب أن أصنع بهم يا روديون رومانوفتش ؟ ليتك تعلم مدى غباوتهم وبلاهتهم ! ما عسانى صانعةً بأولاد كهؤلاء الأولاد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك لراسكولنيكوف وأوشكت أن تبكى هى نفسها (دون أن يوقف هذا سيلَ كلامها المتدفق الذى لا ينضب) وهى تريه الأولاد الذين كانوا يبكون .

حاول راسكولنيكوف أن يقنعها بأن عليها أن ترجع الى البيت ، وقدَّر أنه يستطيع بكلامه أن يوقظ حبَّها لذاتها وشعورها بكرامتها فقال لها انها لا يليق بها أن تتجول فى الشوارع تجول العازفين على أرغن باربازيا على حين أنها تتوق الى انشاء مدرسة داخلية للفتيات النبيلات !

فصاحت كاترين ايفانوفنا تقول ضاحكة مقهقهة :

ـ مدرسة داخلية ! هأ هأ هأ !... اسمعوا هذا الكلام !...

وأعقبت ضحكتها نوبةُ سعال . ثم تابعت كلامها فقالت :

ـ لا يا روديون رومانوفتش ! هذا الحلم قد تبدد ! لقد هجرنا جميع الناس ! وهذا الجنرال التافه ... هل تعلم يا روديون رومانوفتش أننى رميته بمحبرة على وجهه ، هى المحبرة التى كانت توجد فى حجرة المدخل على المنضدة قرب الورقة التى يسجِّل فيها الزوار أسماءهم ؟ لقد سجلت اسمى انا أيضاً ، ثم رميته بالمحبرة ووليت هاربة ! آه ! يا للجبناء! يا للحقراء ! ولكننى أصبحت الآن لا أهتم ... فسوف أجنى لهم رزقهم بنفسى ، سوف أجنى للأولاد رزقهم بنفسى . لن أطاطىء رأسى لأحد ! لقد عذبناها بما فيه الكفاية (كانت كاترين ايفانوفنا تقصد صونيا) . يا بوليتشكا ، كم جمعنا الى الآن ؟ أرينى ! كيف ؟ ألم نجمع الا كوبكين فقط ؟ آه ... يا للأوغاد ! انهم لا يعطوننا شيئاً ! انهم لا يزيدون على أن يركضوا وراءنا مادِّين لنا ألسنتهم استهزاءً ! انظر الى هذا المعتوه مثلاً : ممَّ تراه يضحك ؟ (وأومأت الى واحد فى الجمهور) ذلك كله سببه كوليا ! فلأن كوليا غبى هذا الغباء كله انما يسخر منا الناس جميعاً ! مالك يا بوليتشكا ؟ كلمينى بالفرنسية ! « كلمينى بالفرنسية ! » * ! عجيب ! ألم أعلِّمك الفرنسية ؟... انك تعرفين بضع جمل ... أنَّى لهم أن يعرفوا أنكم تنتمون الى أسرة نبيلة وأنكم قد نُشِّئتم تنشئة طيبة فلا شأن

لكم بغيركم من العازفين على أرغن باربار يا ، أنى لهم أن يعرفوا ذلك اذا لم تكلميني باللغة الفرنسية يا بوليتشكا ؟ نحن لا ننشد في الشوارع أغاني مبتذلة ، وانما نحن نغني أغنيات راقية ! ها ... نعم ... ما الذى سوف نغنيه الآن ؟ أنت لا تزيد على أن تقاطعنا ، ونحن ... اسمع يا روديون رومانوفتش ، لقد توقفنا هنا قليلاً لنقرر ما الذى سنغنيه : يجب أن نغني شيئاً يكون في وسع كوليا أن يرافقه برقصة ، ذلك أننا ، كما تستطيع أن تقدّر ، قد أُخذنا على غير تهيؤ أو استعداد . ولا بد لنا من توزيع أعمالنا والتوفيق بين أعبائنا حتى نرتب الأمور . وبعد ذلك سوف نذهب الى شارع نفسكي ، حيث يكثر الناس الذين ينتمون الى المجتمع الراقي فسرعان ما يلاحظوننا . ان لينيا لا تعرف الا أغنية « القرية الصغيرة » ، لا تعرف الا أغنية « القرية الصغيرة » وحدها ! وجميع الناس يغنون هذه الأغنية حتى أصبحت كالمنشار ! يجب علينا أن نختار شيئاً أرقى . فماذا يا بوليا ؟ هل عندك فكرة ؟ ليتك تستطيعين ، أنت على الأقل ، أن تساعدى أمك ! آه من الذاكرة ! ان الذاكرة هي التي تعوزني ، ولولا ذلك لجرت الأمور من تلقاء ذاتها ، لولا ذلك لتذكرت ! لن نغني مع ذلك أغنية « الفارس المتكيء على سيفه » ! * الأَوْلى أن نغني بالفرنسية أغنية « خمسة قروش » . لقد علمتكم اياها ، تلك الأغنية ! ثم ان الناس سرعان ما يدركون ، لأننا سوف نغني بالفرنسية ، أنكم أولاد أسرة كريمة الأصل ، فيؤثر ذلك في نفوسهم تأثيراً أكبر ! حتى ان في وسعنا أن نغني أغنية « مالبرو مسافر الى الحرب » ، لا سيما وأنها أغنية صغيرة للأطفال وحدهم ، نعم للأطفال وحدهم ، تُستعمل في جميع البيوت الارستقراطية لنوم الأطفال .

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وأخذت تغني :

مالبرو مسافر للحرب
لا يدرى متى يعود ...

ثم استدركت تقول : بل الأفضل أن نغنى « خمســة قروش » . يا كوليا ، ضع يديك على خصريك ! أسرع ! وأنت يا لينيا ، استديرى فى اتجاه معاكس ! وسوف أرافقكما أنا وبوليا يصفق الأيدى :

خمسة قروش ، خمسة قروش
لانشاء أسرتنا ...

واجتاحتها نوبة سعال أخذت تهزها هزاً : كح كح كح !..
وقالت تخاطب بوليا من خلال السعال :

ــ اعدلى ثوبك يا بوليتشكا ! انه ينزلق عن كتفيك ! علينا الآن أن نحـافظ على أحسن مظهر ، حتى يرى جميع النـاس أنكم أولاد أسرة نبيلة ! آه ... ما أكثر ما قلت ان صـدر هذا الفسـتان ينبغى أن يكون أطول ... ولكن نصائحك أنت يا صونيا هى التى أفسدت كل شىء : « قصّروا ! قصّروا ! » فانظرى الآن ماذا كانت النتيجة : لقد تشوهت هذه الطفلة ! ماذا ؟ هأنتم أولاء تسـتأنفون البكاء ؟ ما بالكم تعودون الى البكاء أيها الأغبياء ؟ هيّا يا كوليا ! غنّ ! بسرعة أكبر ! أكبر ! أكبر ! أوه ! يا لك من ولد لا يطاق !

خمسة قروش ، خمسة قروش

ــ ماذا ؟ أجندىٌّ أيضاً ؟ ماذا تريد أيها الجندى ؟

كان شرطى من شرطة المدينة يشق لنفســه طريقــاً بين الجمهور بالفعل ! ولكن سيداً يرتدى بزة رسمية ومعطف ضابط ، سيداً هو موظف كبير فى نحو الخمسين من عمره ، وقور المظهر مهيب الطلعة ، يحمـل

عدا ذلك وساماً فى عنقه (وهذا الامر التفصيلى الاخير قد أبهج كاترين ايفانوفنا كثيراً وأحدث فى شرطى المدينة تأثيراً كبيراً) ، قد ظهر فى تلك اللحظة نفسها فاقترب من كاترين ايفانوفنا مادا اليها ورقة نقدية قيمتها ثلاثة روبلات . وكان وجهه يعبّر عن شفقة صادقة . فتناولت كاترين ايفانوفنا الورقة ، وانحنت أمام الرجل بشىء من الأدب ، بل وبشىء من الاحتفال . وبدأت تتكلم فقالت متعالية :

ـ أشكرك يا سيدى . ان الأسباب التى أهابت بنا الى ... خذى المال يا بوليتشكا . هأنت ذى ترين أن هناك أناساً كراماً عظاماً مستعدين لمساعدة سيدة نبيلة بائسة أناخ عليها الدهر ... ان أمامك يا سيدى يتامى نبلاء ، بل يتامى يمكن أن تقول ان لهم قربى بأعلى الأسر الارستقراطية . ولكن ذلك الجنرال التافه الذى كان بسبيل التهام دراريج ... آه ... لقد ضرب الأرض بقدمه لأننى أزعجته ! قلت له : « يا صاحب السعادة ، كن حامياً لأيتام المرحوم سيميون زاخارتش ، أنت يا من عرفته حق معرفته ، فان انساناً حقيراً بين الحقراء قد افترى على بنته فى يوم موته نفسه . » . أما يزال هذا الجندى هنا ؟ كن حامياً لنا يا سيدى (كذلك صاحت كاترين ايفانوفنا مخاطبةً الموظف الذى اعطاها الروبلات الثلاثة) . لماذا يلاحقنى هذا الجندى ؟ ما باله يطاردنى دائماً ؟ لقد سبق أن هربنا من جندى غيره فى شارع مشتيانسكايا ... ماذا تريد أيها الغبى ؟

ـ لا يجوز لكم أن تفعلوا هذا فى الشوارع ! يجب عليكم أن تلتزموا حدود اللياقة !

ـ أنت الذى لا تلتزم حدود اللياقة ! أنا أفعل ما يفعله العازفون على أرغن بارباريا ! فما شأنك أنت ؟

ـ من أجل العزف على الأرغن ، لا بد من ترخيص ... أما أنت

فقد قررت أن تفعلى ما تفعلينــه دون الحصــول على ترخيص ••• فأنت تزعجين الناس وتعكرين صفوهم ! أين تسكنين ؟

أعولت كاترين ايفانوفنا تقول :

ــ ماذا ؟ ترخيص ؟ لقد دفنت زوجى فى هذا اليوم نفســه ! أى ترخيص تريد ؟

تدخل الموظف فقال :

ــ سيدتى ، سيدتى ، هدئى نفسك • تعالى • سأوصلك الى بيتك ! ليس هذا لائقاً هنا ، أمام الناس ! أنت مريضة !

فصاحت كاترين ايفانوفنا تقول :

ــ يا سيد ، يا سيد ، أنت لا تعرف شيئاً ! سوف نذهب الى شارع نفسكى ! يا صونيا ، يا صونيا ! ولكن أين ذهبت صونيا ؟ انها تبكى هى أيضاً ! ولكن ماذا دهاكم جميعاً ؟

وصرخت فجأة تسأل :

ــ كوليا ، لينيا ، الى أين تذهبان ؟ الى أين أنتما ذاهبان ؟

كان كوليا ولينيا ، وقد رأيا الجندى الذى يريد أن يقبض عليهما وأن يقتادهما الى مكان ما ، votروعتهما هذه الجمهرة المحتشــدة من النــاس وهذه الحـالات الجنــونية فى أمهمــا ، كانا قد تماســكت يداها وأخــذا يركضان كأنما على سابق اتفاق وتواطؤ • فلما رأتهما المسكينة كاترين ايفانوفنا على هذه الحال أخذت تئن وتنشج ، واندفعت تطاردهما • انه منظر عجيب محزن أن يراها المرء تركض هذا الركض غارقة بدموعها منقطعةً أنفاسها • وأسرعت صونيا وبوليا تركضان وراءهما •

ــ أرجعيهما يا صونيا ، أرجعيهما ! آه !••• يا للأولاد الأغبياء !

يا للأولاد العاقّين !... يا بوليا ! أدركيهما ! اقبضي عليهما ! من أجلك انما أنا ...

وترنحت كاترين ايفانوفنا في ركضها وسقطت .

صاحت صونيا قائلةً وهي تميل عليها :

ـ انها مغطاة بالدم ! رباه !...

هُرع الجميع ، وتحلقوا حول كاترين ايفانوفنا . وكان راسكولنيكوف وليبزياتنيكوف أول المسرعين . وقد أسرع الموظف أيضاً . ووراءه وصل شرطي المدينة قائلاً في تذمر : « أقصة جديدة ؟ »، ثم حرّك يده باشارة انزعاج ، شاعراً أن هذه القضية ستحدث كثيراً من المتاعب .

قال الشرطي وهو يصرف المستطلعين الذين تجمعوا ينظرون :

ـ انصرفوا ! انصرفوا !

قال أحدهم :

ـ انها تموت .

وقال آخر :

ـ لقد فقدت عقلها .

وقالت امرأة وهي ترسم على نفسها اشارة الصليب :

ـ رأف الله بها . هل أُعيد الأولاد على الأقل ؟ ها هم أولاء يرجعون ! ان الكبرى هي التي أدركتهم . يا للعفاريت !...

ولكن حين أُنعم النظر في كاترين ايفانوفنا عُرف أنها لم تُجرح لاصطدامها بحجر كما قدّرت صونيا ، فان الدم الذي صبغ بالحمرة أرض الشارع انما تدفق من حلقها .

دمدم الموظف يقول لراسكولنيكوف وليبزياتنيكوف :

ـ أنا أعرف ، أنا أعرف ، هذا مرض السل ! هكذا ينبجس الدم من فم المريض ثم يخنقه . شهدت هذه الحادثة نفسها منذ مدة غير طويلة : احدى قريباتى سكبت من صدرها على هذا النحو كأساً من دم على حين فجأة . ما العمل ؟ سوف تموت ...

تضرعت صونيا قائلة :

ـ هنا ! هنا ! الى بيتى ! أنا أسكن هنا ، هنا ، فى هذا المنزل ، العمارة الثانية ... فلتُنقل الى بيتى ، بسرعة ، بسرعة !... استقدموا طبيباً ... آه ... يا رب !..

كذلك كانت تقول صونيا متجهة بكلامها الى الحضور واحداً بعد واحد .

ودُبّرت الأمور بفضل جهود الموظف . حتى لقد ساعد الشرطى نفسه فى نقل كاترين ايفانوفنا . صعدوا بها الى مسكن صونيا وهى شبه ميتة ، واضجعوها على السرير . كان الدم ما يزال ينزف ، ولكن كان يبدو على المريضة أنها تثوب الى شعورها شيئاً بعد شىء . ولقد دخل الى الغرفة ، عدا راسكولنيكوف وليبزياتنيكوف ، دخل الموظف والشرطى . وكان الشرطى قد صرف الجمهور فلم يفلت منه الا بضعة فضوليين صاحبوا كاترين ايفانوفنا وموكبها ودخلوا الغرفة هم أيضاً . ووصلت بوليا ممسكةً كوليا ولينيا اللذين كانا يرتجفان ويبكيان . وهُرع من بيت كابرناؤموف أيضاً عدة أشخاص : كابرناؤموف نفسه ، وهو رجل أعرج أعور يضفى عليه شعر رأسه ولحيته المجعّد تجعّدَ شعر الخنزير مظهراً غريباً جداً ؛ وامرأته التى يعبّر وجهها عن ذعر مستمر متصل ؛ وعددٌ من أولادهما فغرت أفواههم وجمدتهم الدهشة ؛ وظهر

بين المشاهدين أخيراً سفدريجايلوف • فنظر اليه راسكولنيكوف في أول الأمر مذهولاً لا يفهم من أين عساه طلع ، فهو لا يتذكر أنه رآه بين الجمهور المحتشد في الشارع •

وتكلم الحضـور عن استقدام طبيب وكاهن • وهذا هو الموظف يصدر أمره باستقدام طبيب ، رغم أنه كان قد همس يقول لراسكولنيكوف ان مساعدات الطبيب أصبحت غير مجدية • وتعهّد كابرناؤموف أن يسعى الى الطبيب لاحضاره •

وتحسنت حالة كاترين ايفـانوفنا قليلاً أثنـاء ذلك ، فالنزيف قد انقطع موقتـاً • وألقت كاترين ايفانوفنا نظرة موجعـة ، وان تكن ثابتة نافذة ، على صونيا التي كانت تجفف قطرات العـرق عن جبينها شـاحبة الوجه مرتعشة اليدين • وطلبت كاترين أخيراً انهاضها ، فأُجلست على السرير مسنودةً من الجهتين •

دمدمت تقول بصوت ضعيف :

ـ أين الأولاد ؟ هل أرجعتهم يا صونيا ؟ آه ••• يا لهم من بلهاء ! لماذا هربتم ؟ آه •••

وغطى الدم شـفتيها المصـوّحتين من جـديد • فأجالت عينيها على ما حولها • وقالت :

ـ آ ••• أهكذا تعشين اذن يا صونيا ! لم يتح لى أن آتى اليك قبل الآن مرةً واحدة !

ونظرت اليها بألم •

ـ ماذا ؟ كاهن ؟ لا أريد !••• هـل معـكم روبل تضيعونه ؟ أنا لا ذنوب لى ! لا بد أن يغفـر الله لى • ان الله يعلم كم تألمت ! فـاذا لم يغفر لى ، فلا يغفرْ !

واستولى على كاترين ايفانوفنا هذيان ما فتىء يزداد اضطراباً . كانت في بعض اللحظات ترتعش ، وتنظر حواليها ، فتتعرف جميع الأشخاص الذين يحيطون بها ، تتعرّفهم خلال دقيقة واحدة ، ثم ما تلبث أن تفقد صحوها وترتد الى هذيانها من جديد . وكان تنفسها أبحّ أجشّ ، وكان شاقاً أليماً ، وكان يُسمع نوع من القرقرة يخرج من حلقها .

وهتفت تقول وهي تختنق لدى كل كلمة تنطق بها :

ــ قلت له : « يا صاحب السعادة ... » آه ... سحقاً لآماليا لودفيجوفنا هذه !... لينيا ، كوليا ، ضعا يديكما على الخصرين ، واجعلا رقصكما أسرع ، أسرع ... انزلقا ... انزلقا !... عليكما بخطوة « البسك » ... اقرع كعبيك ! كن ولداً رشيقاً !

لك ماس ولآلى .

ــ ماذا بعد ؟ ها ... نعم ... يجب الغناء كما يلي :

لك أجمل عينين

فماذا تريدين أكثر من ذلك يا فتاة !

ــ نعم ، ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ يا للغبي ما أسخف قوله ! ها ... نعم ... وهذا شعر آخر :

تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادي داغستان

ــ آه ... لشد ما أحببت هذه الأغنية ! أحببتها حتى العبادة ، هذه الأغنية ! هل تعلمين يا بوليتشكا ؟ كان أبوك يغنيها أيام كنا خطيبين !.. ذلك ما يجب أن نغنيه اذا أردنا الغناء ! ولكن ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ لقد نسيت ! هلاّ ذكّرتموني ! ذكّروني !



كاترين ايفانوفنا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورسناكوفا

كانت كاترين ايفانوفنا في حالة اضطراب شديد ، وكانت تحاول أن تنهض • وأخذت أخيراً تغني بصوت رهيب أبحّ مكسّر ، صارخةً مختنقةً عند كل كلمة تنطق بها • وكان وجهها يعبّر عن رعب ما ينفك يزداد :

تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادي داغستان •••

وفي صدري رصاصة

وأعولت تقول فجأة بصياح ممزّق وهي تجهش باكية :

ـ يا صاحب السعادة ، كن حامياً لليتامى ••• تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلك به سيميون زاخارتش ••• والذي يمكن أن يوصف بانه ارستقراطي •••

وانتفضت كاترين ايفانوفنا فجأة وقد ثاب اليها شعورها وأخذت تتفرس في الحضور مذعورة • لكنها لم تلبث أن تعرفت صونيا ، فنطقت تقول في رقة وحنان وكأنها تستغرب أن تراها أمامها :

ـ صونيا ! صونيا ! أنت أيضاً هنا ؟

أنهضت كاترين ايفانوفنا من جديد •

صرخت تقول في يأس وكره :

ـ كفى ! آن الأوان ! وداعاً ! لقد أجهزوا على الحصان القديم ! انه يفطس !

وتركت رأسها يتهاوى على الوسادة •

وعاد اليها شعورها مرةً ثانية ، لكن ذلك لم يدم الا مدة قصيرة • انقلب وجهها المصفرّ الى وراء ، وانفتح فمها ، وامتدت ساقاها في تشنج، وزفرت زفرة عميقة وماتت •

أسرعت صونيا الى جثمانها ، فطوقتها بذراعيها متألمة ، وشدّت رأسها الى صدرها الناحل . وجثت بوليا عند قدمي أمها فقبّلتهما باكية ناشجة . ولم يدرك كوليا ولينيا ادراكاً واضحاً ما الذي حدث ، لكنهما أوجسا أن ثمة شيئاً رهيباً قد وقع ، فارتمى كل منهما بين ذراعي الآخر ، وفغر فماهما وأخذا يصرخان . كانا ما يزالان يرتديان ثياب المهرّجين ، فأحدهما على رأسه عمامة ، والأخرى على رأسها طاقية تزينها ريشة نعامة .

لا ندري كيف وُجد « الدبلوم » موضوعاً على الوسادة قرب كاترين ايفانوفنا ، غير أن راسكولنيكوف قد رآه على كل حال .

ابتعد راسكولنيكوف نحو النافذة ، وأسرع ليبزياتنيكوف يلحق به . قال :

ــ ماتت !

قال سفدريجايلوف وهو يتقدم نحو راسكولنيكوف :

ــ روديون رومانوفتش ، عندي كلمة أريد أن أقولها لك . أمر مستعجل !

فسرعان ما تنحى له ليبزياتنيكوف عن مكانه وامحّى مستخفياً ، غيرَ أن سفدريجايلوف ابتعد براسكولنيكوف مزيداً من الابتعاد يريد أن يخلو اليه وأن يكلمه على انفراد . كان راسكولنيكوف متحيراً . قال سفدريجايلوف :

ــ سوف أتولى جميع هذه الأمور ، أقصد نفقات الدفن وكل ما عداه . هذا يقتضي مالاً مهماً ... هذان العصفوران الصغيران وهذه البنت بوليتشكا سوف أدخلهم مأوى للأيتام ، فتكون العناية بهم أحسن

ما تكون العناية ، وسأودع باسم كل منهم مبلغ ألف وخمسمائة روبل ، الى أن يبلغوا سن الرشد ، وذلك حتى يطمئن بال صوفيا سيميونوفنا كل الاطمئنان . وسوف أخرجها هي أيضاً من الحمأة التي تعيش فيها ، لأنها فتاة طيبة ، أليس كذلك ؟ فتستطيع أن تقول لآدفوتيا رومانوفنا في أى وجه من الوجوه استعملت العشرة آلاف روبل .

سأله راسكولنيكوف :

ـ لأى هدف من الأهداف تظهر هذا الكرم كله ؟

فأجابه سفدريجايلوف يقول ضاحكاً ضحكة صغيرة :

ـ هيه ! هيه ! يا لك من رجل قليل الثقة سيء الظن ! لقد قلت لك انني في غير حاجة الى هذا المال ! لماذا ترفض أن تصدق أنني لا أتصرف الا بدافع الأنانية ؟ وكيف دار الأمر فان هذه (قال ذلك وهو يشير باصبعه الى الركن الذى ترقد فيه المتوفاة) لم تكن قملة ، لم تكن عجوزاً مرابية ما ... هيا قل لى : « هل الأفضل أن يبقى رجل مثل لوجين حياً يرتكب دناءاته وحقاراته ، أم الأفضل أن تموت هي ؟ » ... وبدون مساعدتي ، فان بوليتشكا مثلاً « ستكون مضطرة أن تسير في هذه الطريق نفسها » ..

قال تلك الكلمات بلهجة فيها شيء من « المكر » ، دون أن يحول بصره عن راسكولنيكوف .

اصفر راسكولنيكوف وتجمد رعباً حين سمع تلك العبارات نفسها التي قالها هو نفسه في حديثه مع صونيا . وتقهقر فجأة وألقى على سفدريجايلوف نظرة ضارية .

ودمدم يسأل بصوت مختنق :

ـ كيف ... عرفت ... هذا ؟

ـ أنا أقطن هنا ، فى الجهة الأخرى من هذا الحاجز ، عند السيدة ريسليش . هنا شقة كابرناؤموف ، وهناك شقة السيدة ريسليش ، وهى صديقة لى منذ عهد طويل ، صديقة من أخلص الصديقات . أنا جار من الجيران . هذا هو الأمر !.

ـ أنت ؟

فضحك سفدريجايلوف وتابع كلامه فقال :

ـ أنا ، وأستطيع أن أؤكد لك صادقاً يا روديون رومانوفتش العزيز أن أمرك قد شاقنى كثيراً . ألم أقل لك اننا سنكون متفاهمين ! لقد تنبأت لك بذلك ! نعم ، لقد تفاهمنا ! لسوف ترى أننى رجل موادع مجارٍ مريح ! لسوف ترى أننى أمرؤ ما تزال الحياة معى ممكنة .

الجزء السادس

الفصل الأول

بدأ عندئذ عهدٌ جديد غريب فى حياة راسكولنيكوف. لكأن ضباباً قد سقط أمامه فجأةً ، فحبسه فى عزلة ثقيلة كثيفة . حين تذكر راسكولنيكوف هذه الفترة ، بعد زمن ، بعد زمن طويل ، قدَّر أن أن صحو ذهنه كان يغور فى الظلام أحياناً ، وأنه استمر على هذه الحال الى أن نزلت النازلة النهائية ، الا فى لحظات قليلة . وقد اقتنع اقتناعاً تاماً بأنه قد ضلَّ حينذاك فى أمور كثيرة ، ولا سيما فى مواقيت بعض الأحداث وفى مدتها. على أنه حين استحضر هذه الذكريات وحاول أن يجمع شتاتها وأن يوضحها ، استعان بشهادة أشخاص آخرين ، فعلم بذلك أموراً كثيرة عن نفسه . علم مثلاً أنه كان يخلط بين حادث وآخر ، أو كان يظن هذا الحادث نتيجةً لحادث ثالث لا وجود له فى الواقع ، وانما أنشأه له خياله . وكان ينتابه فى بعض الأحيان قلق أو خوف سرعان ما يستحيل الى رعب هائل . ولكن راسكولنيكوف تذكر أيضاً أنه كانت تمر به دقائق بل ساعات وربما أيام يعيش خلالها حالات نفسية تناقض مخاوفه السابقة، فهو غارق فى خدر يشبه عدم الاكتراث الذى يعانيه بعض المحتضرين. ويمكن أن نقول على وجه العموم انه يكون فى مثل تلك الأيام كمن يتحاشى هو نفسه أن يشعر بوضعه وأن يدرك موقفه وأن يعى حالته . وهناك وقائع أساسية معينة كانت تثقل على نفسه خاصة مع أنها تتطلب

توضيحاً مباشراً . ولكن ما كان أعظم سعادته بأن ينسى بعض الظروف ، رغم أن هذا النسيان قد استطاع أن يؤدى فى حالته الى نازلة رهيبة لم يمكن تحاشيها .

وكان يقلقه سفدريجايلوف خاصةً ، حتى ليمكن القول ان انتباهه كله قد تركز على سفدريجايلوف . فمنذ اليوم الذى نطق فيه سفدريجايلوف بتلك الكلمات الصريحة الرهيبة التى لا بد أن ترعب راسكولنيكوف ، وذلك فى غرفة صونيا ، لحظةَ وفاة كاترين ايفانوفنا ، منذ ذلك اليوم انقطع الجريان الطبيعى لأفكار راسكولنيكوف . ولكن راسكولنيكوف لم يسارع الى توضيح الأمور لنفسه ، رغم القلق الشديد الذى أخذ يعانيه . كان يتفق له فى بعض الأحيان ، اذ يجد نفسه فجأة فى حى ناءٍ مقفرٍ من أحياء المدينة ، جالساً وحده الى مائدة منعزلة فى أعماق حانة حقيرة ، غارقاً فى أفكاره ، لا يكاد يتذكر ما الذى قاد خطاه الى هذا المكان ، كان يتفق له على حين بغتة أن يخطر بباله سفدريجايلوف ، فاذا هو تتجلى له حقيقةٌ واضحة صارخة ، هى أن عليه أن يجرى حديثاً مع هذا الرجل بأقصى سرعة ممكنة ، وأن يفرغ من هذا الأمر مرةً واحدة . حتى لقد خيّل اليه ذات يوم ، فى مكان وراء الأسوار ، أنه ينتظر سفدريجايلوف ، وأنه قد ضرب له موعداً للقاء فى هذا المكان . وفى يوم آخر ، استيقظ عند الفجر فرأى نفسه راقداً على الأرض لا يدرى أين ، فلم يفهم ما الذى جاء به الى هنا ، ولا عرفَ كيفَ وصل الى هذا الموضع . ثم انه خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التى أعقبت وفاة كاترين ايفانوفنا قد أُتيح له أن يلقى سفدريجايلوف مرتين ، وذلك فى غرفة صونيا التى ذهب اليها لا لهدفَ الا أن يراها لحظة . وقد تبادل الرجلان بضع كلمات مقتضبة جداً ، ولكن تجنبا أن يمسّا النقطة الأساسية ، فكأن بينهما اتفاقاً مضمراً على أن يلزما الصمت

في هذا الموضوع الى حين . كان تابوت كاترين ايفانوفنا عندئذ ما يزال في غرفة صونيا . وكان سفدريجايلوف ينشط في سبيل اتمام الدفن . وفي اللقــاء الأخير الذي تمَّ بين الرجلين شرح ســـفدريجايلوف لراسكولنيكوف أن المســاعي التي شرع في القيـام بها من أجـل أولاد المتوفاة قد أثمرت ، فبفضل بعض العلاقات التي له ، استطاع أن يُدخل الأيتام الثلاثة في مؤسسات مناسبة ، وكان للمال الذي أودعه لهم فضل كبير في ذلك ، لأن الأولاد الذين يملكون مالاً يســهل قبولهم في هذه المؤسسات أكثر مما يسهل قبول الأولاد الذين لا يملكون شيئاً . وتكلم سفدريجايلوف قليلاً عن صونيا كذلك ، ووعد بأن يزور راسكولنيكوف في بيته قريباً ، وأســمعه أنه يتمنى لو يطلب منه النصح « فهو في حاجة ملحة الى أن يكلمه في بعض الأمور ... » ؛ وقد جرى هذا الحديث بين الرجلين في حجـرة المـدخل ، فكان ســـفدريجايلوف يحـدّق الى راسكولنيكوف بنظرة ثابتة ثم خفض صوته بعد فترة من صمت يسأله :

ـ ولكن مالك يا روديون رومانوفتش ؟ يبدو لي أنك لست في حالة طبيعية . صحيح أنك تصغي وتنظر ، ولكن لا يلوح عليك أنك تفهم ! هيَّا ، ينبغي أن نتحادث معاً بعض الشيء ! يؤسفني أنني مشغول بشــئون غيري وشئوني أنا الى هذا الحد !

ثم أضاف يقول فجأة :

ـ هيه ! جميع البشر محتاجون الى هواء ، الى هواء ، الى هواء قبل كل شيء !

وتنحَّى بغتةً حتى يفسح مجال المرور للكاهن والقندلفت اللذين كانا يصعدان السلَّم . انهما آتيـان لاقامة صـلاة الميت . لقـد اتخـذ سفدريجايلوف الاسـتعدادات اللازمة لاقامة صـلاة الميت هذه مرتين في اليوم بغير انقطاع .

تردد راسكولنيكوف لحظةً ثم تبع الكاهن الى عند صونيا • وكان سفدريجايلوف قد غاب •

وقف راسكولنيكوف على العتبة • وابتدأ القداس هادئاً مهيباً حزيناً • كان الفتى يشعر بالموت منذ نعومة أظفاره • وكان احساسه بحضور الموت يصطبغ عنده دائماً بنوع من رعب صوفى • وهو منذ مدة طويلة لم يشهد قداس جنازة • والى هذا كله يُضاف الآن احساسٌ بالاضطراب والرعب أشد ايلاماً •

نظر الى الأولاد • كانوا جميعاً راكعين قرب التابوت • وكانت بوليتشكا تبكى • ووراءهم كانت صونيا تصلى وتبكى برفق • قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انها لم تنظر الىَّ مرةً واحدة فى هذه الأيام الأخيرة • انها لم تخاطبنى بكلمة واحدة » • كانت الشمس تغمر الغرفة بضياء قوى ، ودخان البخور يتصاعد الى السقف ، والكاهن يرتّل أدعيته • بقى راسكولنيكوف الى آخر الاحتفال فلما بارك الكاهن وودّع منصرفاً ، ألقى على ما حوله نظرة غريبة • واقترب راسكولنيكوف من صونيا بعد انتهاء القداس • فاذا هى تتناول يديه فجأةً وتميل برأسها على كتفه • دُهش راسكولنيكوف من بادرة الصداقة والمودة هذه • بدت له هذه البادرة غريبة • تساءل : كيف لا تنفر منه صونيا أقل نفور ، كيف لا تشمئز منه أى اشمئزاز ؟ وكانت يدها لا ترتعش فى يده ! يا للتضحية ! هكذا فهم راسكولنيكوف الأمر على الأقل • لم تقل صونيا كلمة واحدة • صافحها راسكولنيكوف وخرج • كان يشعر بارهاق فظيع يجتاحه • فلو كان يستطيع فى تلك اللحظة أن يذهب الى مكانٍ ما ، الى أى مكان يشعر فيه بوحدة مطلقة ، بعزلة مطلقة ، ولو دامت مدى الحياة ، اذن لعدّ نفسه سعيداً• ولكن راسكولنيكوف كان فى هذه الآونة الآخيرة، رغم بقائه وحيداً فى جميع الأحيان تقريباً ، لا يفلح فى الوصول الى

الشعور بالوحدة • كان يتفق له أن يخرج من المدينة ، وأن يسير فى الطريق الكبير • حتى لقد توغّل ذات مرة فى غابة • ولكن كلما كانت الأماكن أشد عزلة وأكثر خلواً شعر راسكولنيكوف بحضور عميق مستتر مقلق يرعبه ، ويضايقه خاصةً • فكان يسرع عندئذ عائداً الى المدينة ، فيختلط بالجمهور ، ويذهب الى « سوق العلف » ، فيشعر هنالك بشىء من الارتياح •

وكان ذاتَ مساء فى مطعم حقير فيه غناء ، فبقى يصغى الى الغناء ساعةً كاملة ، وقال لنفسه انه مبتهج به ، ولكن قلقه عاد يجتاحه آخر الأمر ، فان شيئاً يشبه عذاب الضمير قد أخذ ينهش قلبه ، وقال لنفسه فجأة : « هأنا ذا جالس أستمع لغناء ، فهل هذا هو ما يليق بى أن أفعله ؟ » • على أنه لم يلبث أن أدرك أن مدار قلقه ليس على هذا ، وأن هناك مسألة يجب حلُّها بغير ابطاء ، لكنه لا يستطيع أن يعبِّر عن هذه المسألة بكلام ، أو أن يترجمها بأقوال • كان كل شىء تتشابك خيوطه كبةَ غزل : « لا •• الصراع أوْلى ! بورفير ••• أو سفدريجايلوف ••• لأن أقوم بتحد آخر وهجوم جديد فذلك خير من هذا ••• نعم، نعم ! »• قال راسكولنيكوف ذلك لنفسه ثم خرج من المطعم وهو يكاد يركض ركضاً • وخطرت بباله دونيا وأمه ، فاذا هو يشعر برعب هائل ، لا تدرى لماذا ! وفى تلك الليلة استيقظ قبل الفجر فى غابة بجزيرة كرستوفسكى* مرتعداً من الحمَّى • فعاد الى بيته قبل طلوع الشمس • وزايلته الحمى بعد نوم بضع ساعات ، ولكنه استيقظ متأخراً • كانت الساعة حين استيقظ هى الثانية والنصف بعد الظهر •

فتذكر عندئذ أن دفن كاترين ايفانوفنا كان موعده ذلك اليوم ، فسرَّه أنه لم يشهد الدفن • وجاءته ناستاسيا بغدائه ، فأكل وشرب بشهوة كبيرة توشك أن تكون شراهة • وكان ذهنه أنضر ، وكان يحس

أنه أهدأ مما كان فى الأيام السابقة ، وأدهشه أنه عانى ما عانى من رعب شديد مستمر .

وفُتح الباب فى تلك اللحظة ، ودخل رازوميخين .

قال رازوميخين وهو يتناول كرسياً ويجلس عليه قبالة راسكولنيكوف :

ـ هه ! انه يأكل . ما هو اذن بالمريض !

كان رازوميخين فى حالة اهتياج شديد لا يحاول أن يخفيه . كان يتكلم بلهجة فيها غيظ واضح ، ولكنه لا يتعجل ولا يرفع صوته . لكأنه بيّت نيةً لها صفة استثنائية جداً . وبدأ يتكلم بلهجة جازمة فقال :

ـ اسمع ! لقد أسأمتمونى فاذهبوا جميعاً الى جهنم ! ذلك اننى أرى الآن رؤية واضحة وضوح النهار أننى لا أفهم من الأمر شيئاً البتة! ولا يذهبنْ بك الخيال الى أننى سأحاصرك بالأسئلة . فلقد أصبحت لا أعبأ بهذه الأمور كلها !... ولست أريد قطُ أن ... قد تكشف لى بنفسك عن جميع أسرارك ، فاذا أنا لا أصغى اليها . نعم ، لسوف أبصق استخفافاً ثم أمضى لشأنى ! وانما جئت الآن لهدف واحد هو أن أعرف أولاً بنفسى ، معرفةً حاسمة ، أأنت مجنون أم لا . ذلك أن هناك أناساً ـ ليس أمراً هاماً أن نسميهم ـ مقتنعون بأنك مجنون أو على الأقل بأنك مؤهب لأن تصبح مجنوناً . وانى لأعترف لك بأننى كنت أنا نفسى مستعداً أتم الاستعداد لأن أرى هذا الرأى ، أولاً بسبب أفعالك السخيفة بل الخسيسة (لا سيما وأنها لا تعليل لها) ، وثانياً بسبب سلوكك الأخير مع أمك وأختك ، فهو سلوك لا يمكن أن يسلكه الا انسان شاذ أو دنىء أو مجنون . فأنت اذن مجنون .

ـ هل رأيتهما منذ مدة طويلة ؟

ـ منذ لحظة . وأنت ؟ أنت لم ترهما مرةً أخرى منذ ذلك اليوم ، أليس كذلك ؟ فأين كنت تتسكع طوال هذا الوقت ؟ هلاَّ قلت لى ، أرجوك ! لقد جئت الى بيتك ثلاث مرات . وأمك مريضة منذ الأمس مرضاً شديداً . قررت أن تجيء اليك ، فحاولت آفدوتيا رومانوفنا أن تمنعها من ذلك ، لكنها لم تفلح . قالت : « اذا كان مريضاً ، اذا كان قد أصاب عقله اختلال ، فمن ذا يتجده اذا لم تنجده أمه ؟ » . عندئذ جئنا معاً ، لأننا لم نشأ أن نتركها وحدها . وفى الطريق ، فعلنا كل شيء فى سبيل أن نهدئها . ولكننا دخلنا فلم نجدك ! جلستْ هناك ، ولبثت جالسةً عشر دقائق ، وكنا نحن أثناء ذلك الوقت نقف الى جانبها لا ننطق بكلمة واحدة . بعدئذ نهضت وقالت : « ما دام يخرج فمعنى ذلك أن صحته حسنة ، وأنه نسى أمه . يترتب على هذا أنه لا يليق بأمه بل عارٌ عليها أن تقف فى عتبة بابه تستجدى ملاطفاته استجداء الصدقات » . وعادت الى بيتها ، ثم لم تلبث أن اضطرت الى ملازمة الفراش . وهى الآن تعانى من الحمى ، وتقول : « فهمت ! ان وقته لا يتسع لغير حبيبته ... » . انها تعتقد أن صوفيا سيميونوفنا حبيبتك أو خطيبتك أو خليلتك ، لا أدرى ! فسرعان ما ذهبت الى بيت صوفيا سيميونوفنا ، لأننى كنت أريد أن أقف على حقيقة الحال يا صديقى . دخلت على صوفيا سيميونوفنا ، فماذا رأيت ؟ تابوتاً وأولاداً يبكون ، وصوفيا تجرّب على الأولاد ملابس الحداد . أما روديا فلا وجود له ! عندئذ نظرت ، واعتذرت ، وخرجت ، ومضيت الى آفدوتيا رومانوفنا أروى لها ما شاهدت ! القصة اذن باطلة : لا حبيبة هنالك ولا شيء من ذلك ، ولعل كل ما فى الأمر أنك مجنون ! ولكن هأنا ذا أراك تلتهم لحم بقر مسلوقاً فكأنك لم تذق طعاماً منذ يومين ! صحيح أن المجانين يأكلون هم أيضاً ... ولكن لا ... ما أنت بمجنون ... رغم أنك لم تقل لى

كلمة واحدة ! ما أنت بمجنون قط ! اذن ••• شيطان يأخذكم جميعاً • فلا بد أن فى الأمر سراً ، لا بد أن فى الأمر سراً ••• وأنا لا أريد أن اصدِّع رأسى بأسراركم ! اننى لم أجىء الا لأزعجك تخفيفاً عن نفسى • وأنا أعلم ماذا بقى علىَّ أن أفعل !

بهذا ختم رازوميخين كلامه وهو ينهض •

سأله راسكولنيكوف :

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـ أأصبح يهمك الآن أن تعرف ما الذى سأفعله ؟

ـ حذار ! انك تريد أن تقبل على شرب الخمر !

ـ كيف ••• كيف حزرت هذا ؟

ـ لا يحتاج الأمر الى كبير ذكاء !

بقى رازوميخين صامتاً بعض الوقت ، ثم قال فجأة بحماسة :

ـ لقد كنتَ فتى ذكياً حصيف العقل على الدوام • لم تكن مجنوناً فى يوم من الأيام ! نعم ، كلامك صحيح • سأقبل على شرب الخمر ! استودعك الله !

قال رازوميخين ذلك واتجه نحو الباب • فقال له راسكولنيكوف :

ـ كلمت اختى عنك يا رازوميخين ، أمس الأول ، فيما أذكر •

فتوقف رازوميخين فجأة ، حتى لقد اصفر وجهه قليلاً وهو يسأله :

ـ عنى أنا ؟••• ولكن أين عساك رأيتها ، أمس الأول ؟

يستطيع المرء أن يدرك أن قلبه قد أخذ يخفق خفقاناً قوياً •

قال راسكولنيكوف :

ــ جاءت الى هنا ! وجلستْ في هذا المكان ! وتكلمنا !

ــ هي ؟

ــ نعم ، هي !

ــ ماذا قلت لها ؟ أقصد ماذا قلت لها عني ؟

ــ قلت لها انك شاب ممتاز ، شريف ، مجتهد . لم أذكر لها أنك تحبها ، فذلك أمر تعرفه هي .

ــ تعرفه ... هي ؟

ــ طبعاً ... وعليك أن تكون لهما سنداً وحامياً ونصيراً ، أينما حطّت رحالي وكيفما كان حالي ! أقول لك هذا لأنني أعرف مدى ما تحمله لها من حب ، ولأنني مقتنع بطهارة عواطفك ونقاء مشاعرك . واني لأعلم أيضاً أنها ، من جهتها ، يمكن أن تحبك ، هذا اذا لم تكن قد أحبتك وانتهى الأمر ! والآن قرّر : هل عليك أن تقبل على شرب الخمر !

ــ روديا ... اسمع ... طيب ... آه ... وأنت ، الى أين تريد أن تذهب ؟ اذا كان ذلك سراً ، فاكتمه ان شئت . ولكنني سأطلع على السر آخر الأمر ! آ ... اني لعلى يقين من أن المسألة لا تعدو أن تكون سخافةً من السخافات لا تُصدَّق ! وأنك قد اخترعت هذا كله ! مهما يكن من أمر ، فأنت فتى رائع ، أنت أروع الفتيان !

قال راسكولنيكوف :

ــ ولقد أردت أن أقول لك أيضاً ــ لولا أنك قاطعتني ــ انك كنت على حق تماماً حين ذهبت الى أنه لا داعي الى محاولة اكتشاف تلك الأسرار . دع هذا الأمر الآن . بالأمس قال لي أحدهم : ان المرء في

حاجة الى هـواء ، الى هـواء ! وأريد الآن أن أذهب الى ذلك الرجـل لأعرف ما الذى كان يعنيه بذلك الكلام !

كان رازوميخين واقفاً يفكّر ، وقد عاد يستولى عليه القلق • ثم قال يحـدث نفسه فجأة : « هو متآمر سـياسى • لا شـك فى ذلك وهو يوشك أن يقوم بعمل حاسم • نعم ، هذا هو الأمر • لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا • ودونيا تعلم ذلك • • » •

وقال وهو يقطّع كلماته :

ـ اذن تجيء اليك آفدوتيا رومانوفنا ، وأنت تريد أن ترى ذلك الرجل الذى قال لك ان المرء فى حاجة الى هواء ، الى مزيد من الهواء دائماً ••• معنى ذلك أن لتلك الرسالة علاقة بهذا الأمر •••

بهذه الجملة الأخيرة ختم رازوميخين كلامه على حدة •

سأله راسكولنيكوف :

ـ أية رسالة ؟

ـ لقد تلقت اليوم رسالة أقلقتها كثيراً ، كثيراً جداً • أخذت أتكلم عنك ، فرجتنى أن أسكت • ثم ••• ثم قالت ان من الجائز أن نفترق قريباً جداً ••• ثم شكرتنى بكثير من الحـرارة على أننى ••• لا أدرى ماذا ، وأخيراً مضت الى غرفتها فحبست نفسها فيها •

سأله راسكولنيكوف شارد الذهن :

ـ تلقت رسالة ؟

ـ نعم ، رسالة • ألم تكن تعرف ذلك ؟

وصمت الشابان كلاهما •

ـ أسـتودعك الله يا روديون • أنا يا صاحبى ••• فى وقت من

الأوقات ••• ثم ••• استودعك الله ! نعم ، في وقت من الأوقات ••• دعنا من هذا ••• استودعك الله ! آن لى أنا أيضاً أن ••• لن أشرب• ما الداعى الآن ؟

كان متعجلاً ، لكنه ما كاد يترك الغرفة ويغلق وراءه الباب حتى فتحه فجأة من جديد ، وقال وهو يلقى نظرة متهربة الى جانب :

ــ بالمناسبة ••• فيما يتعلق بتلك الجريمة ••• أنت تعلم حكاية بورفير ••• ومقتل المرأة العجوز ••• ألا تتذكر ؟••• لقد اكتشفوا القاتل ••• اعترف القاتل وقدم جميع الأدلة • تصور أنه واحد من أولئك الدهانين الذين انبريت أنا من تلقاء نفسى أدافع عنهم ••• هل تتذكر ؟ وهناك شيء تفصيلي آخر : ان مشهد المشاجرة مع الرفيق ، والقهقهات على السلم بينما كان الآخرون يصعدون ، ان ذلك كله انما ابتكره القاتل ابتكاراً ليدفع عنه الشبهة ! يا للمكر ! يا للبديهة الحاضرة والحيلة البارعة ! لا يكاد المرء يصدق ، ولكن الرجل أوضح هو نفسه كل شيء ! لقد خدعنى فى أول الأمر عن نفسى ! انه يملك عبقرية المكر والحيلة • على كل حال ، هذه أشياء موجودة ، فلا داعى الى الاسراف فى الدهشة ! هل مستحيل أن يوجد أفراد من هذا النوع ؟ وأما أنه لم يطق صبراً فاعترف أخيراً ، فذلك أمر أصدقه مزيداً من التصديق • لقد خدعنى على كل حال ! تصور كم تحمست لهم ودافعت عنهم !

سأله راسكولنيكوف وقد ظهر عليه اضطراب واضح :

ــ كيف علمت بذلك ؟ ولماذا يهمك هذا الأمر الى هذا الحد ؟

ــ لماذا يهمنى هذا الأمر ؟ يا له من سؤال !••• ان بورفير هو الذى أمدنى بهذه المعلومات ! ثم انه هو الذى أطلعنى على كل شيء تقريباً •

ـ بورفير ؟

ـ نعم ، بورفير .

سأله راسكولنيكوف مرتاعاً :

ـ ماذا ... ماذا قال لك ؟

ـ شرح لى الأمر شرحاً رائعاً ، شرحاً « سيكولوجياً » ، على نهجه فى الشرح .

ـ هو نفسه ... شرح لك ؟

ـ نعم ... هو نفسه . استودعك الله ! سأقصُّ عليك شيئاً فيما بعد ، أما الآن فثمة عمل يجب أن أقوم به ، هناك . جاء وقت تصورت فيه أن ... ولكن ما الداعى الى هذا الكلام ؟ سأقول لك فيما بعد !... ما حاجتى الى السكر الآن ؟ لقد أسكرتنى أنت بغير خمر ! نعم ، أنا سكران يا روديا ، سكران من غير أن أشرب خمراً . هيًّا ، استودعك الله . سأعود اليك بعد مدة قصيرة .

قال رازوميخين ذلك وخرج. وفيما كان يهبط السلَّم بخطى بطيئة كان يحدث نفسه بقوله : « هو متآمر سياسى ، حتماً ، حتماً . ولقد أقحم أخته فى الأمر . ذلك جائز ، بل جائز جداً ، اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى طبع آفدوتيا رومانوفنا . هما الآن يلتقيان فى مواعيد يضربانها ! ألم تُفهمنى هى نفسها شيئاً من ذلك تلميحاً بكثير من الكلمات الصغيرة والاشارات والملاحظات . نعم هذا كله يدل على أن تقديرى صحيح . والا فكيف نعلّل هذا التعقيد كله ؟ هه ... وأنا ظننت أن ... آه ... يا رب ! ما أكثر ما تخيلت أيضاً ! نعم ، كان ذلك ضلالاً ، ولقد أثمت فى حقه ! غير أن ذلك خطؤه هو أيضاً . لماذا شوَّش فكرى ، ذلك المساء ، فى الدهليز ، تحت المصباح ؟ ها ... يا لها من فكرة دنيئة ،

خسيسة ، تلك الفكرة التي راودتني ! وما أعظم شهامة ذلك الفتى نيقولا حين اعترف بكل شيء ! هكذا يتضح الماضي كله دفعةً واحدة : مرض روديا ، وأطواره الغريبة ، وحتى ما سبق هذه الفترة ، حين كان روديا ما يزال في الجامعة فكان مظلم النفس ، مكتئب المزاج . ولكن ماذا تعني الآن هذه الرسالة ؟ لا بد أن وراءها شيئاً ! من هو مرسلها ؟ أظن أنها ... هِمْ ... سأخرج هذا كله الى النور ! » .

ثم تذكر كل ما يتعلق بدونيا ، فأصبح قلبه كالجليد حين تذكّر ذلك . وتخلص من جموده ، وأخذ يمشي مشياً سريعاً يوشك أن يكون ركضاً .

ما ان خرج رازوميخين حتى نهض راسكولنيكوف ، فاقترب من النافذة ، ومشى في الغرفة منتقلاً من ركن الى ركن ، كأنما هو قد نسي أبعادها ... ثم عاد يجلس على السرير . لكأنه قد تبدل تبدلاً تاماً : عاد الصراع ... ما يزال هناك اذن مخرج . « نعم ، هذا مخرج يظهر أخيراً ! » . حقاً لقد كان راسكولنيكوف حتى ذلك الحين محصوراً ، مخنوقاً ، كأن قدراً قد جثم عليه منذ المشهد الأخير مع نيقولا عند بورفير، حتى ان مشهداً آخر قد وقع غداة ذلك المشهد الأول نفسه ، وقع عند صونيا ولم ينته ، لم ينته البتة ، كما لعله تخيّل . ولقد ظهر ضعف راسكولنيكوف فانهار انهياراً تاماً ، دفعةً واحدة . ألم يعترف عندئذ ، مع صونيا ، من أعماق قلبه ، أنه أصبح لا يستطيع أن يحيا حاملاً وحده عبئاً كهذا العبء ؟... وسفدريجايلوف ؟ ان سفدريجايلوف لغز . ان سفدريجايلوف يقلقه أيضاً ، رغم أنه يقلقه من وجهة نظر أخرى تماماً . لعل هناك صراعاً لا بد من خوضه مع سفدريجايلوف يمكن أن يكون مخرجاً كذلك ؟ ولكن بورفير ؟ ذلك شيء آخر !...

« ها ... هكذا اذن ... بورفير نفسه هو الذي شرح لرازوميخين

اذن كل شيء ! شرح له كل شيء شرحاً « سيكولوجيا » . انه لا يتخلى عن هذه السيكولوجيا اللعينة التي يتسلح بها !.. ولكن كيف أمكنه ، هو بورفير ، أن يصدّق ، ولو دقيقةً واحـدة ، أن نيقولا هو الجاني ، بعد المشهد الذي قام بيننا قبل وصول نيقولا هذا نفسه ، وهو مشهد لا يمكن أن يكون له الا تفسير واحد ؟ » .

كانت ذكرى هذا المشـهد الذي وقع بينه وبين بورفير قد عاودته مراراً كثيرة في هذه الأيام الأخيرة ، ولكنها كانت تعاوده نتفاً صغيرة ، فلو رآها كاملةً في جملتها لما استطاع أن يحتملها .

« ان ما قام بينا من أحاديث ، وما جرى من حركات واشـارات ، وما تبادلناه من نظرات ، وما قلناه من أشياء بلهجة معينة ، ان ذلك كله قد تمّ على نحو لا يمكن معه أن يكون نيقولا (الذي كشف بورفير عن حقيقته منذ تصريحاته الأولى على كل حال) هو الذي استطاع أن يردّه عن اقتناعه . أضف الى ذلك أن رازوميخين قد أخذت تراوده الشكوك والشبهات ... معنى ذلك أن مشهد الدهليز تحت المصباح لم يفته تماماً ! وها هو ذا يهرع عندئذ الى منزل بورفير ! ولكن لماذا ضلّله بورفير على ذلك النحو ؟ ماذا كانت غايته من ذلك ؟ ماذا كان هدفه ؟ لا شك في أنه كان له هـدف ، ولكن ماذا كان ذلك الهـدف ؟ أية مصلحة له في أن يحـوّل شـبهات رازوميخين نحو نيقولا ؟ لا شـك في أنه كانت لـه مصلحة ، ولكن ماذا كانت تلك المصلحة ؟ ان زماناً طويلاً قد انقضى بعد ذلك الصباح ، زماناً طويلاً مسرفاً في الطول ، لم نعرف خلاله أيّ أنباء عن بورفير . ان ذلك لا ينبيء بخير ... » .

تناول راسكولنيكوف قبعته ، وخرج من غرفته غارقاً في أفكاره . هذه أول مرة يشعر فيها بأنه في حالة طبيعية ، طوال ذلك الزمان .

وقال يحدث نفسه : « يجب الانتهاء من سفدريجايلوف ، مهما كلف الأمر ، وبأقصى سرعة ممكنة • أظن أنه ، هو أيضاً ، يتوقع أن أذهب اليه بنفسى » • وفى تلك اللحظة ، انبجس فى قلبه المعذب كره بلغ من القوة أن راسكولنيكوف كان يمكن فى تلك اللحظة أن يقتل أحد اثنين : سفدريجايلوف أو بورفير • ولقد شعر على كل حال بأنه قادر على أن يفعل ذلك ، ان لم يكن فوراً فبعد حين • فكان يردد قائلاً لنفسه : « سوف نرى ، سوف نرى » •

ولكن ما ان اجتاز الباب المفضى الى فسحة السلم حتى اصطدم ببورفير نفسه • كان بورفير يهمُّ أن يدخل عليه • دُهش دهشة شديدة ، ولكن دهشته لم تدم الا لحظة قصيرة • أمر غريب : انه سرعان ما رأى أن مجىء بورفير اليه أمر طبيعى لا غرابة فيه ، فلم تثر فيه رؤيته أى خوف تقريباً • ارتعش فى البداية رعشة خفيفة ، لكنه لم يلبث أن عاد يسيطر على نفسه • « لعل هذه هى الخاتمة ؟ ولكن لماذا كان يسير بخطى محاذرة كهرة ، ولماذا لم أسمع وقع أقدامه ؟ هل يمكن أن يكون قد تنصّت على الباب ؟

صاح بورفير يقول له ضاحكاً :

ــ لم تكن تتوقع زيارتى يا روديون رومانوفتش ! لقد كنت أنوى أن أجىء اليك منذ مدة طويلة • فلما مررت الآن عرضاً قلت لنفسى : « لماذا لا أصعد اليه ، فأزوره زيارة قصيرة ، مدة خمس دقائق ؟ هل كنتَ خارجاً ، لا أريد أن أؤخرك عن الخروج • هل لك بسيجارة ؟

قال راسكولنيكوف وهو يقدم لزائره كرسياً ويظهر له من المودة والبشاشة والارتياح ما لو رآه هو نفسه لاستغربه حقاً :

ـ اجلس يا بورفير بتروفتش !

امّحت مشاعره السابقة دون أن تخلّف وراءها أي ظل . انه ليحدث أن يظل أحد الناس فريسة ذعر رهيب ورعب قاتل أمام مجرم من المجرمين قطاع الطرق ، خلال نصف ساعة ، حتى اذا وضع المجرم سكينه على عنقه تبدد خوفه كله دفعةً واحدة .

جلس راسكولنيكوف قبالة بورفير تماماً ، ونظر اليه محدقاً . فطرفت عين بورفير ، وأشعل سيجارة .

ودّ راسكولنيكوف من أعماق قلبه لو يصرخ قائلاً : « هيّا ، تكلم ، تكلم ! ما بالك لا تتكلم ؟ » .

الفصل الثاني

أخيراً بدأ بورفير كلامه بعد أن أشعل سيجارة ونفخ من دخانها نَفَساً ، فقال :

ـ تباً للسجائر ، انها سم ، سم حقيقي ، ولكنني لا أستطيع تركها • انني أسعل ، وأشعر بحكاك في حلقي ، وألهث ، واختنق • واذ أنني جبان فقد ذهبت منذ أيام وستشير الدكتور ب *** الذي يظل يفحص المريض مدة نصف ساعة على الأقل • فماذا قال الطبيب ؟ سخر مني في أول الأمر ثم أخذ يمعن فيَّ جساً وتسمعاً وتنصتاً ، ثم قال : « أنت يؤذيك التدخين • رئتان متوسعتان » • كلام جميل ! ولكن كيف يمكنني أن أستغني عن التدخين؟ وبماذا استعيض عنه ؟ انني لا أشرب خمراً ، وذلك مصدر البلاء كله • ان مصدر البلاء كله هو أنني لا أشرب خمراً • كل شيء نسبي كما ترى يا روديون رومانوفتش •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه مشمئزاً : « أتراه يريد أن يستأنف شطارته ؟ » • وعادت الى خياله ذكرى لقائهما الأخير فجأة ، فازدحمت في قلبه العواطف التي كان قد شعر بها أثناء ذلك اللقاء •

وتابع بورفير بتروفتش حديثه وهو ما يزال يفتش بنظراته الغرفة:

ـ ثم انني قد سبق أن جئت اليك مساء أمس الأول • كيف ؟ أكنت لا تعرف ذلك ؟ نعم ، جئت الى غرفتك ، الى هنا • فكما حدث لي اليوم ،

كنت ماراً أمام المنزل ، فقلت لنفسى : « ماذا لو زرته زيارة قصيرة ؟ » ثم صعدت ، فرأيت الباب مفتوحاً على سعته كلها . ونظرت ، وانتظرت برهة ، ثم انصرفت دون أن أترك للخادمة اسمى . ألست تغلق بابك بالمفتاح أبداً ؟

اكفهر وجه راسكولنيكوف مزيداً من الاكفهرار . وبدا على بورفير أنه حزر ما يجول فى فكره . وتابع كلامه فقال :

ـ أنا انما جئت لأبرر لك سلوكى يا عزيزى روديون رومانوفتش ، لأبرر لك سلوكى ! نعم ، ينبغى لى أن أبرر لك سلوكى وأن أعتذر عنه!

وتابع يقول وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ ذلك واجب يقع على عاتقى ، ولا بد لى من الوفاء به .

قال ذلك وهو يضرب ركبة راسكولنيكوف بيده ضربة تعبّر عن الألفة والمودة . ولكنه اتخذ هيئة الجد والهم فى تلك اللحظة نفسها تقريباً ، وخالط نظرته شىء من الحزن ، وذلك أمر استغربه راسكولنيكوف كثيراً ، فانه لم يسبق له فى يوم من الأيام أن لاحظ أو تصور أن يكون لبورفير بتروفتش وجه كهذا الوجه .

وتابع بورفير كلامه :

ـ لقد وقع بيننا فى المرة الأخيرة مشهد غريب يا روديون رومانوفتش ! صحيح أن مشهداً غريباً قد وقع بيننا فى المرة الأولى أيضاً ، ولكن فى ذلك الوقت ... على كل حال ، لا ضير !. المهم أنك تعدنى فى أغلب الظن آثماً جانياً فى حقك . هل تتذكر كيف افترقنا ؟ كانت أعصابك ثائرة جداً وكانت ساقاك تصطكان ... وأنا أيضاً كانت أعصابى ثائرة جداً وكانت ساقاى تصطكان . الخلاصة أن الأمور جرت بيننا على نحو يكاد يوصف بقلة الأدب ، وكانت تعوزه اللباقة والكياسة على الأقل.

ونحن مع ذلك من الناس المهذَّبين (الجنتلمان) ، حتى ليمكن أن أقول انـا من هؤلاء النـاس قبل كل شيء ، وذلك أمر ما ينبغي أن ننســاه ! نذكر المدى الذي بلغته الأمور ... لقد كان ذلك أمراً غير لائق البتة.. يجب أن نعترف بهذه الحقيقة .

تساءل راسكولنيكوف مدهوشاً وهو يرفع رأسه وينظر الى بورفير محملقاً : « ماذا يريد مني ؟ ماذا يظنني ؟ » .

وتابع بورفير كلامه فقال وهو يحوّل رأســه ويغض بصره ، كأنه لا يريد أن يدخل الاضطراب الى نفس ضحيته القديمة ، وكأنه يكره أن يستعمل أساليبه العتيقة وشباكه المألوفة :

ـ أرى أن الأصلح لنا بعد الآن أن نعمد الى الصراحة . نعم ، ان امثال تلك الشبهات وتلك المشاهد لن يمكن أن تتكرر . لقد جاء نيقولا منذ أيام فوفّق بيننا ، ولولا ذلك لمضت الأمور الى حدود لا أدري مداها ! وما قولك في ذلك البائع الصغير اللعين الذي قبع وراء الحاجز يتنصت ؟ هل تتصور ذلك ؟ لا شك أنك تعرف هذا الأمر التفصيلي ، فأنا أعلم أن الرجل قد جاء بعدئذ اليك أيضاً . غير أن الشبهات والشكوك التي قامت في نفسك كانت خطأ في الواقع . فأنا لم استدع أحداً ، ولا اتخذت أي اجراء . تسألني لماذا لم أتخذ أي اجراء؟ فماذا أقول لك ؟ ان الأمر كله كان قد قلب عقلي رأساً على عقب . كل مافعلته هو أنني استدعيت البوابين (لا شك أنك رأيتهم عابراً) . انفكرة سريعة كالبرق كانت قد ومضت في ذهني . ذلك أن اقتناعي يا روديون رومانوفتش كان قد تمّ . وكنت أقول لنفسي : « اذا فاتني أمر فمن الممكن في مقابل ذلك أن أقبض على أمر آخر قبضاً كاملاً » . أنت يا روديون رومانوفتش شديد الاهتياج ، بل أنت مفرط في شدة الاهتياج . تلك سمة من سمات خلقك وقلبك أعتز بأنني أعرفها بعض المعرفة على الأقل . ولقد كنت أدرك طبعـاً أن

المرء لا يرى في كل يوم شخصاً يأتي فيفضي اليه بما نفسه دفعة واحدة • صحيح أن هذا يحدث ، ولا سيما حين يكون ذلك الشخص مرهقاً مهدود القوى ، ولكن هذه الحالة نادرة • لا ، لم تفتني هــذه الحقيقــة • لكنني كنت أقول لنفسي : « لسوف يكفيني مع ذلك أن أعرف واقعة صغيرة ، صغيرة الى أبعد حدود الصغر ، صغيرة كل الصغر ، على شرط أن تكون واقعة محسوسة ملموســة تختلف عن تلك الاستنتاجات الســيكولوجية ! ذلك أنه اذا كان هذا الرجل جانيــاً فلا شك أن في امكاننا أن ننتظر منه شيئاً محسوساً ملموساً • فمن حقنا اذن أن نأمل في الحصول على نتائج هي أبعــد ما تكون عن التنبؤ ! » • كنت أعــوّل على طبعك يا روديون رومانوفتش ، على طبعك خاصةً • وكنت أعقد عليك آمالاً كباراً !

تمتم راســكولنيكوف أخيراً يســأله حتى دون أن يدرك أنه يلقي سؤالاً :

ـ فلماذا تقول لي هذا الكلام كله الآن ؟

ثم تساءل تائهاً في ظنون وتخمينات : « عمَّ يتكلم ؟ هل يمكن أن يقع في اعتقاده حقاً أنني بريء ؟ » •

قال بورفير يجيبه عن سؤاله :

ـ لماذا أقول لك هذا الكلام ؟ انا انما جئت لأبرر لك ســلوكي ، لأقوم بواجب مقدس • سوف أبسط لك جميع تفاصيل ما حدث ، أي كل قصة الخــلاف بيننا جمــلةً • انك قد قاسيت بسببي أشــياء كثيرة يا روديون رومانوفتش • ولكني لست شيطاناً رجيماً ، واني لأدرك حق الادراك مدى الألم الذي لا بد أن يكون قد أحــدثه هذا كله في نفس انسان مثلك ، انسان ترهقه الحياة ولكنه شديد الكبرياء ، محب للسيطرة ، نافد الصبر ••• نعم ••• لا سيما نافد الصبر ! مهما يكن من أمر ، فلنا

أعدك أعظم انسان ، رغم أنني لا أشاطرك جميع آرائك ، وهذا ما أحرص على أن أقوله لك بصراحة تامة ، دون لف أو دوران ، لأنني يهمني كثيراً أن لا أخدعك وأن لا أغشّك . انني ما ان عرفتك حتى شُغفت بك . لعلك ستضحك مما أقوله لك ، ومن حقك أن تضحك . أنا أعلم أنك كرهتني منذ أول نظرة ألقيتها عليّ ، بدون حق في الواقع . مهما يكن من أمر ، فانني أريد الآن بجميع الوسائل أن أمحو الأثر الأول الذي تركته في نفسك ، وأن أبرهن لك على أنني ، أنا أيضاً ، انسان يفيض وجداناً وعاطفة . أقول لك هذا بصراحة تامة .

توقف بورفير عن الكلام برهةً في وقار . وشعر راسكولنيكوف بموجة جديدة من الخوف تجتاح نفسه . فهو حين يتصور أن بورفير يظنه الآن بريئاً ، يحس فجأة برعب .

وتابع بورفير كلامه فقال :

ـ ربما لم يكن ثمة داعٍ الى أن أحكي لك كلّ ما جرى ، بالترتيب ؛ حتى انني أعتقد أن هذا غير مفيد ، وأنا أعتقد على الأقل أنني لن أفلح في ذلك . فكيف أشرح لك الأمور شرحاً يبرز ظروف المسألة ؟ في الأصل سرت شائعات . من أين جاءت تلك الشائعات ؟ ماذا كانت تلك الشائعات ؟ من أي ناحية كانت تعنيك ؟ انني أعتقد أنه لا داعي أيضاً الى أن أذكر لك ذلك . أما أنا شخصياً فان صدفة هي التي نبّهتني ، صدفة طارئة عارضة كان يمكن أن لا تحدث . ما هي تلك الصدفة ؟ أظن أن الأفضل ، هنا أيضاً ، أن ألزم الصمت . ان ذلك كله (أعني تلك الشائعات ، وتلك المصادفات) قد ساهمت في تكوين فكرة في رأسي . أعترف لك صراحةً ـ وعلى الانسان أن يكون صريحاً كل الصراحة متى كان يعترف ، أليس كذلك ؟ ـ أعترف لك صراحةً بأنني كنت أنا أول

من وضعك موضع الاتهام. ان كتابات العجوز على الأشياء المرهونة وسائر تلك الأمور التي من هذا النوع ، لا قيمة لها البتة وليست تدل على شيء !

وقد أتيح لي أيضاً أن أسمع تفاصيل المشهد الذي وقع في قسم الشرطة ، وكان هذا أيضاً بفضل مصادفة من المصادفات . والشخص الذي روى لي ذلك المشهد لم يكن أيّ شخص ، وانما كان شاهداً رئيسياً فهم المشهد كله فهماً ممتازاً ، من جهة أخرى . وكان ذلك كله يشبه بعضه بعضاً ويؤيد بعضه بعضاً يا عزيزي روديون رومانوفتش . فكيف لا تقوم في ذهني فكرة ما ، وكيف لا أسير في اتجاه ما ؟ يقول مثل انجليزي : مائة أرنب لا تصنع حصاناً ، ومائة شبهة لا تصنع برهاناً . هذه هي الحكمة بعينها طبعاً ! ولكن أنى للمرء أن يقاوم الأهواء ! ذلك أن قاضي التحقيق ليس الا انساناً !... وقد تذكرت أيضاً مقالتك الصغيرة تلك التي كنتَ قد نشرتها في مجلة ، والتي حدثتني عنها تفصيلاً حين زرتني أول مرة . لقد سخرت منك عندئذ ، لكنني فعلت ذلك لأحثك على الادلاء بمزيد من الاعترافات . أعود فأقول انك قليل الصبر شديد الاهتياج يا روديون رومانوفتش . وأنت عدا ذلك كبير الجرأة جامح الاندفاع كثير الجد . لقد شعرتَ أنت بأشياء كثيرة ، نعم شعرت بأشياء كثيرة ... وكنت أنا أقدّر ذلك منذ مدة طويلة . انني أعرف جيداً أمثال هذه الاحساسات ، فحين قرأت مقالتك خيّل اليّ أنني سبق لي أن قرأتها . لا شك عندي في أنك في ليالي أرقٍ وحمى ، في ليالٍ كان قلبك فيها يخفق خفقاناً قوياً عنيفاً ويزخر بحماسة كان ينبغي لك مع ذلك أن تلجمها ، انما تصورت تلك المقالة ، أليس كذلك ؟ ولكن من الصعب على المرء أن يلجم حماسة الشباب في نفسه ... ولئن سخرت من مقالتك عندئذ ، فانني أستطيع أن أقول لك الآن انني أحببت كثيراً ، (حبّ هواية والحق يقال) تلك المقالة الأولى النضرة المتأججة التي جرى بها قلمك .

صحيح أنها كانت ملأى بدخان ، بضباب ، غير ان وترا كان يهتز فى ذلك الضباب وفى ذلك الدخان • وصحيح أنها كانت ملأى بنزوات خيال وتناقضات منطق ، ولكن المرء يحس فيها نبرة الصدق ! صحيح ان فيها نوعا من صلف لا مسوغ له ، ومن تهور يائس مستميت ، وصحيح انها قاتمة ، قاتمة جداً ، ولكن ذلك كله حسن ••• كنت قد قرأت اذن مقالتك ، ثم وضعتها جانباً ؛ لكنني حين وضعتها جانباً قلت لنفسي : « ان رجلاً كهذا الرجل لن يكتفي بهذا » • فقل لي من فضلك : كيف كان يمكنني بعد تلك المقدمات أن لا أندفع الى تلك النتائج ؟ أتراني في هذه اللحظة أقول شيئاً يمكن أن ••• ؟ ••• أتراني أؤكد شيئاً ؟••• انني لم أزد حينذاك على أن سجّلت ملاحظات • ما الذي كان يضمه ذلك كله ؟ لا شيء ، لا شيء البتة ، ربما لا شيء قطعاً ! معنى هذا أنني لا أستطيع أن أتباهى باندفاعاتي وحماساتي تلك ! وهذا نيقولا على ذراعيّ ، وهذه وقائع ملموسة تتناوله ••• انها وقائع رغم كل شيء ، هي وقائع شئت أم أبيت ! وعندئذ كان لا بد لي من العودة الى السيكولوجيا • ذلك انني لا بد لي من الاهتمام به • ان القضية بالنسبة اليه قضية حياة أو موت ، أليس كذلك ؟ ربما سألتني لماذا أشرح لك هذا كله ؟ فاعلم اذن انني انما أشرحه لك من أجل أن تعرف حقيقة الأمر ، ومن أجل أن تبرئني في قرارة نفسك وضميرك فما تحكم عليّ أو تدينني اذ تتذكر ما بدر مني في ذلك اليوم من خبث وشر • هذا عدا أن ما بدر مني لم يكن خبثاً أو شراً ، أؤكد لك ذلك • هيء هيء هيء !••• وأنت تقول لنفسك : « لماذا لم يجيء الى مسكني يفتشه حينذاك ؟ » ، فاعلم أنني جئت ! هيء هيء !••• جئت بينما كنت أنت مريضاً راقداً • ولم أجيء بصفة رسمية ، ولكني جئت • وفُتّش بيتك تفتيشاً دقيقاً لم تنج منه أخفى زواياه وأركانه • حدث هذا منذ أولى الشبهات ••• ولكن « دون

جدوى » * عندئذ قلت لنفسى : « الآن ، سيجيء هذا الرجل ، سيجيء من تلقاء نفسه ، وسيجيء فى وقت قريب جداً . اذا كان هو الجانى فلا يمكن أن يجيء . لو كان الجانى شخصاً آخر غيره ، فإن ذلك الشخص الآخر قد لا يجيء ، أما هو فلا بد أن يجيء اذا كان جانياً . »، هل تتذكر كيف أخذ السيد رازوميخين يطلعك على الأمر ؟ نحن الذين دبَّرنا هذا لنبث فى نفسك الاضطراب ، ونحن الذين رتبنا الأمور ترتيباً يجعل رازوميخين عاجزاً عن كظم غضبه وكبت استيائه . ذلك أن السيد رازوميخين واحد من أولئك الناس الذين لايستطيعون أن يكتموا غيظهم. أما زاميوتوف فان الشيء الذى فجأه خاصة انما هو غضبك وتهورك . عجيب أمرك : كيف يستطيع انسان أن يعول قائلاً فى حانة على حين فجاة : « لقد قتلت ! » ؟ حقاً ان فى ذلك لاسرافاً . هذا تهور غريب !... وعندئذ قلت لنفسى : « اذا كان مثل هذا الرجل جانياً فلا بد أن يكون خصماً صعب المراس على كل حال » . نعم ، ذلك ما قلته لنفسى حينذاك. وانتظرت . انتظرتك بكل ما أملك من قوى ، بينما أنت قد جندلت ذلك المسكين زاميوتوف ... والمصيبة كلها انما هى السيكولوجيا اللعينة ذات الحدين . كنت اذن أنتظرك ، فأرسلك الله الىَّ فى ذات يوم ! لقد جئت! لشد ما خفق قلبى فى ذلك اليوم ؟ ما كانت حاجتك الى المجيء ؟ وذلك الضحك المجلجل الذى كنت تطلقه حين دخلت ، هل تتذكره ؟

ذلك كله كان فى نظرى واضحاً وضوح الماء النابع من الصخر . لقد حزرتُ كل شيء ! ولكن لولا أننى انتظرتك وأنا فى حالة نفسية خاصة ، لما كان لضحكك فى نظرى عندئذ أى دلالة . فانظر الى قيمة أن يتوقع المرء شيئاً ! والسيد رازوميخين ، فى ذلك اليوم ... آ ... والصخرة التى خُبِّئت تحتها الأشياء ! يخيَّل الىَّ أننى أرى تلك الصخرة ، أراها فى مكان ما ، فى بستان من البساتين ... أليس عن

بستان انما تحدثت الى زاميوتوف أولاً ، وعندى بعد ذلك ؟ وحين اخذنا تحلل مقالتك ، حين قمت انت بعرض ما تضمنته تلك المقالة من اراء ، فان كل قول من أقوالك كان له معنى مزدوج : فوراء كل قول من تلك الأقوال كان يختبىء فى نظرى معنى مضمر . نعم ، يارودیون رومانوفتش ، بهذه الطريقة انما وصلت الى تلك النقطة القصوى ، ولكننى حين وصلت الى تلك النقطة القصوى فاصطدم بها رأسى ، كان لا بد أن أثوب الى رشدى . قلت لنفسى : « الى أين أنا ذاهب ؟ » . ذلك أننا نستطيع ، اذا نحن شئنا ، أن نفسر جميع تلك الأشياء تفسيراً مخالفاً لهذا التفسير كل المخالفة ، بل مناقضاً له تمام المناقضة ، ولعل التفسير الجديد أن يكون أقرب الى الاحتمال . نعم ، قد يكون أقرب الى الاحتمال ، اننى أعترف بذلك . لشد ما تعذبت ! قلت لنفسى : « لا ، لا ، ان أية واقعة تفصيلية صغيرة تنفعنى أكثر مما تنفعنى هذه الاستنتاجات كلها ! » . لذلك حين سمعت عن تلك القصة ، قصة جرس الباب ، رأيتنى أوشك أن أسقط ، وسرت فى جسمى رعشة . آ ... هأناذا أقع أخيراً على الواقعة التفصيلية المنشودة ! لم يبق الآن شك فى أنه هو الجانى . ولم أحاول عندئذ أن أعمل عقلى وأن أفكر . كنت لا أرغب فى ذلك أية رغبة . وكنت مستعداً لأن أدفع فى تلك اللحظة ألف روبل فى سبيل أن أراك «بعينى» تسير مائة خطوة ، جنباً الى جنب ، مع ذلك البائع الصغير الذى قذف وجهك بذلك اللقب ، لقب القاتل ، فلم تجرؤ طوال تلك الخطوات المائة أن تسأله عن أى شىء ! وتلك الرعدات التى كانت تسرى فى ظهرك ، وذلك الجرس الذى كنت تتكلم عنه أثناء هذيانك ؟ فلماذا تستغرب منى بعد هذا ، يا روديون رومانوفتش ، أننى لجأت الى تلك الطريقة التى تعرفها ؟ ثم لماذا جئت الىّ فى ذلك الأوان نفسه ؟ يميناً ان هناك شيئاً كان يدفعك المجىء الىّ دفعاً ... ولولا أن نيقولا قد قطع حديثنا ...

هل تتذكر وصول نيقولا ؟ آه ••• كان ذلك أشبه برعد مفاجيء ! نعم ، كأن الصاعقة قد نزلت عند قدمي • ولكن كيف استقبلت أنا ذلك ؟ لم يهزني الرعد ••• لم تهزني الصاعقة ••• لا بد أنك لاحظت ذلك • وبعد انصرافك ، حين أخذ يجيب عن أسئلتي حول عدد من النقاط اجابات محكمة متوافقة تبلغ من الاحكام والتوافق أنها أدهشتني حقاً ، لم أشأ أن أصدّق أقواله حينذاك • انظر الى مدى تأثير الفكرة التي تقوم في الذهن وتستقر فيه راسخة ! قلت لنفسي : « لا ، لا ، الى صباح غد ! * ان نيقولا لا شأن له في هذا الأمر كله ! » •

قال راسكولنيكوف :

ـ قال لي رازوميخين منذ قليل ان اتهامك ينصب الآن على نيقولا ، وانك اقنعت رازوميخين بأن •••

ولكن راسكولنيكوف لم يستطع أن يتم كلامه ، فان انفاسه قد اختنقت • كان يشعر بانفعال شديد واضطرات لا يغالَب ، أثناء اصغائه الى حديث هذا الرجل الذي ينفذ الى سريرته • وكان يخاف أن يصدّق ما كان يقوله له هذا الرجل ، بل كان يرفض أن يصدقه ، ويحاول بشراهة قوية ونهم شديد أن يدرك في كلماته معاني محدّدة دقيقة •

وكأنما أفرح بورفير بتروفتش أن يرى راسكولنيكوف يلقي عليه سؤالاً بعد أن ظل صامتاً طوال ذلك الوقت ، فصاح يقول :

ـ السيد رازوميخين ! هيء هيء !•• ذلك أن المسألة كانت هي التخلص من رازوميخين : حيثما يتسع المكان لاثنين ، يكن الثالث زائداً ! رازوميخين شيء آخر ، هو غريب عن هذا كله ! ثم انه قد جاء اليّ شاحب الوجه شحوباً ••• ولكن دع السيد رازوميخين جانباً الآن ، كان الله معه ! أما عن نيقولا فهل يهمك أن تعرف أي نوع من الناس هو ،

أو كيف أتصوره أنا على الأقل ؟ هو قبل كل شيء طفل . انه لمّا يبلغ سن الرشد . ولست أدعى أنه خوّاف جبان على وجه الدقة ، ولكن فى وسعى أن أشبهه ... بفنان ! هو ساذج . أى شىء يؤثر فيه . له قلب رقيق ، وله خيال أيضاً . ولقد تعلم فى المدرسة . وهو يحسن الغناء والرقص . ويظهر أنه يجيد رواية قصص يسعى الناس اليه من بعيد ليسمعوها . وهو يضحك فى كل مناسبة ، ويظل يشرب حتى يسقط كالميت من فرط السكر . ولكنه لا يشرب لأنه ميال الى السكر ، وانما هو يشرب ليفعل كما يفعل الآخرون الذين يغررون به كما يغررون بطفل، فهم لا يبرحون يصبون له خمراً ! لقد سرق منذ مدة ، ولكنه لم يدرك أنه سرق . قال فى تفسير فعله : « تناولت ما كان ملقى على الأرض ، فأنا اذن لم أسرق ». هل تعرف معنى « راسكولنيك » ؟ ان نيقولا فتى من هذا القبيل . على كل حال ، كان عدد من أفراد أسرته قد انتموا الى ملة « الجوّالين » ؛ وهو نفسه كان منذ زمن قصير خاضعاً لسلطان شيخ من المشايخ النسّاك فى الأقاليم مدة سنتين . ذلك كله قد عرفته من نيقولا نفسه ومن أهل بلدته زارايسك . أكثر من ذلك أنه كان يريد أن يفرّ الى الصحراء مصراً اصراراً شديداً . لقد كان متحمساً للتقى حماسةً لا تصدّق ، فكان يقضى لياليه مصلياً متهجداً ، ويقرأ الكتب المقدسة ويعيد قراءتها ... الكتب القديمة ... الكتب الحقيقية ! ... ثم أحدثت فيه بطرسبرج تأثيراً رهيباً . أصبح يحب الجنس الضعيف ، بل وأصبح يحب الخمرة بعض الحب أيضاً . واذ أنه شديد التأثر بالبيئة التى تحيط به ، فسرعان ما نسى شيخه . وأنا أعلم أن فناناً رساماً قد أخذ يهتم به ، ويعطيه دروساً . ولكن فى تلك الآونة ، وقع ذلك الحادث المؤسف. استولى الخوف على الفتى فى أول الأمر ، فأراد أن يشنق نفسه أو أن يهرب . ما حيلتنا اذا كان الشعب قد كوّن لنفسه مثل هذه الأفكار عن

قضائنا ؟ ان كلمة « المحكمة » وحدها ترهب وتلقى الذعر فى النفوس . ذنب من هذا ؟ آمل أن تستطيع المحاكم الجديدة ردّ الأمور الى نصابها . نعم ، أسأل الله أن ... على كل حال ، فقد وُضع نيقولا فى السجن . ولا شك أن ذكرى شيخه المحترم المقدس قد عادت الى خياله هناك ، ولا شك أن التوراة رجعت تفعل فعلها فى نفسه ! هل تعرف يا روديون رومانوفتش مدى ما لفكرة « الألم » من تأثير فى بعض الناس ؟ ان هناك أناساً يحبون أن يتألموا لا فى سبيل شخص من الأشخاص فحسب ، وانما هم يحبون أن يتألموا وكفى ، لأن على المرء أن يتألم ، وأن يقبل الألم ويرتضيه ، لا سيما حين تفرض هذا الألمَ سلطات . لقد عرفتُ فى الماضى سجيناً موادعاً مسالماً الى أبعد الحدود ، لبث فى السجن سنةً بكاملها يتربع فوق المدفأة ليقرأ التوراة فى كل ليلة من الليالى ، حتى بلغ من ذلك أنه فى ذات يوم من الأيام خلع آجرة على حين فجأة بغير سبب فرمى بها مدير السجن دون أن يكون مدير السجن قد استفزَّه أيَّ استفزاز . ولكن كيف رمى السجين آجرته ؟ لقد رماها بحيث تسقط بعيدة عن هدفها مسافة متر على الأقل ، فلا تستطيع أن تجرح الشخص الذى كان يجب أن تتجه اليه . وأنت تتخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدير السجن ! لقد ارتضى الرجل أن « يتحمل الألم » ! لذلك أرانى أميل الى الاعتقاد بأن نيقولا يستهدف شيئاً من هذا النوع ! بل اننى من ذلك لعلى يقين . يكفى أن ندقق فى الوقائع ! ولكن نيقولا لا يعرف أننى أعرف . ماذا ؟ أتراك لا تصدق أن من الممكن أن يخرج من شعب كشعبنا أفراد خارقون الى هذه الدرجة ؟ أؤكد لك مع ذلك أن أمثال هؤلاء الأفراد كثيرون . ان تأثير الشيخ فى نيقولا قد عاد يظهر الآن من جديد ، لا سيما فى اللحظات التى يتذكر فيها أنه أراد أن يشنق نفسه . على كل حال ، سيجىء فيقص علىَّ كل شىء هو نفسه ! هل تظن أنه سيصمد على

أقـواله ؟ لترينَّ أنه متـراجع عنهـا ! نعم ، انني انتظر ، من لحظة الى أخـرى ، أن يتراجع عن اعترافاته الأولى • لقـد أخـذتني بنيقولا هذا عاطفة ، فعكفت على التعمق في دراسته • لقد اسـتطاع في بعض النقاط أن يضفي على أقواله مظهر المعقولية • واضح أنه كان قد فكر في الأمر • ولكنه في نقاط أخرى كان يتناقض • انه لا يعرف شيئاً البتة ، بل ولا يدرك أنه لا يعرف !••• لا يا روديون رومانوفتش ، ليس نيقولا هو الجاني ! نحن ازاء قضية غامضة عجيبة كالخيال • ان هذه الجريمة تحمل طابع الزمان الذي نعيش فيه ، انها تحمل طابع عصرٍ اضطرب فيه القلب الانساني ، عصرٍ يقول فيه بعضهم ، مستشهداً بأقوال كتاب ومؤلفين ، ان الدم « يطهِّـر » ، عصرٍ لا شأن فيه ولا وزن فيه لغير البحث عن الدعة والسعي الى الرخاء • نحن ازاء حلم يطوف برأس شاب أسكرته الأوهام والأخيلة ، وسمَّمته الآراء والنظريات ! ان الجـاني قد استجمع للقيـام بتجربته قدراً كبيراً من الجسارة ، ولكن جسارته هذه ذات طابع خاص ، حتى لكأنه جاء يرتكب الجريمة لا سائراً على ساقيه • لقد نسي أن يغلق الباب وراءه ، ولكنه قتل ، قتل شخصين ، انقياداً لنظريته • وقد قتل ، لكنه لم يعرف كيف يستولي على المال ؟ وما استطاع أن يحمله معه ، انما مضى بعد ذلك يدفنـه تحت صخرة • ولم يكتف بأنواع القلق والخوف التي كان قد عاناها في حجـرة المدخل بينما كان يسـمع قرعاً قوياً على الباب ، وبينما كان الجرس يرن بل تذكر ذلك الجرس بعد ذلك وهو في حالة تشبه الهذيان ، فرجع الى البيت الخالي ليشـعر مرة أخـرى بتلك الرعدة الباردة نفسها التي سرت بين كتفيه أول مرة ••• لنسلِّم بان ذلك نتيجة من نتائج المرض ، غير أن هناك شيئاً آخر : لقد قتل ، ولكنه يعتقد أنه انسان شريف ، وهو يحتقر الناس ، ويصطنع دور ملاك من الملائكة!

لا يا روديون رومانوفتش ، ليس نيقولا هو الجانى ، لا يا عزيزى ، ليس هو نيقولا أبداً !

تمتم راسكولنيكوف يسأل بصوت مختنق وقد نفدت قدرته على الاحتمال :

ـ من ... الذى ... قتل ... اذن ؟..

فارتد بطرس بتروفتش الى وراء مستنداً على ظهر كرسيه كأن هذا السؤال قد أذهله ، وقال متظاهراً بأنه لا يصدق أذنيه :

ـ من قتل ؟ سؤال عجيب ... الذى قتل هو « أنت » يا روديون رومانوفتش ...

ثم كرر يقول بما يشبه الهمس ، ولكن لهجته لهجة المقتنع كل الاقتناع :

ـ أنت الذى قتلت !

نهض راسكولنيكوف عن الديوان واثباً ، ولبث واقفاً بضع ثوان ، ثم عاد يجلس دون أن يقول كلمة واحدة . وطافت بوجهه حركات تشنجية .

دمدم بورفير بتروفتش يقول بنوع من العطف :

ـ ها هى ذى شفتك ترتجف كما ارتجفت فى المرة السابقة .

ثم أضاف بعد صمت قصير :

ـ أحسب أنك لم تفهمنى جيداً يا روديون رومانوفتش ، وذلك هو السبب فى أنك مدهوش الى هذه الدرجة من الدهشة . أنا انما جئت اليك لأقول لك كل شىء ، ولأوضح الأمور توضيحاً كاملاً .

ثأثأ راسكولنيكوف يقول كطفل ضُبط متلبساً بالجرم :

ـ ما أنا الذى قتل !

فأجابه بورفير بلهجة رصينة فيها اقتناع :

ـ بل أنت الذى قتلت !

وسكت الاثنان . وأعقب ذلك صمت ، صمت غريب طويل ، دام عشر دقائق على الأقل . كان راسكولنيكوف قد وضع كوعيه على المائدة ، وأخذ يبعثر شعره بأصابعه . وقد ظل بورفير بتروفتش جالساً ، هادئاً ، ينتظر . وفجأة نظر اليه راسكولنيكوف باحتقار .

قال راسكولنيكوف :

ـ تستأنف أساليبك يا بورفير بتروفتش ؟ أتظل تستعمل أساليبك الأبدية هذه ؟ ألا تشعر بملل وسأم من هذا آخر الأمر ؟

أجابه بورفير :

ـ أوه ! لست الآن فى حاجة كبيرة الى أساليب ! لو كان ههنا شهود ، لاختلف الأمر طبعاً ، ولكننا نتحادث على انفراد فى خلوة ! أنت نفسك ترى أننى لم أجىء اليك لأنصب لك شباكاً واصطادك كأرنب ! انه ليستوى عندى الآن أن تعترف وأن لا تعترف ! فاقتناعى قائم على كل حال !

سأله راسكولنيكوف غاضباً :

ـ فلماذا جئت اذا كان الأمر كذلك ؟ اننى أطرح عليك هذا السؤال من جديد : اذا كنت ترى أننى أنا الجانى ، فلماذا لا تسجننى ؟

ـ هذا سؤال معقول فعلاً ، وسوف أجيبك عنه نقطة نقطة ، فأقول أولاً : انه ليس من مصلحتي أن أعتقلك منذ الآن ...

ـ كيف لا يكون هذا في مصلحتك ؟ اذا كنت مقتنعاً فيجب عليك أن ...

ـ ما قيمة اقتناعي ؟ انه لا يقوم حتى الآن الا على افتراضاتي . ثم فيم أضعك هنالك « فترتاح » ؟ لو سجنتك لأرحتك . انك تعـرف الجواب ما دمت قد ألقيت السؤال . ولنفرض مثلاً أنني واجهتك بالبائع الصغير فقلت له : « أتراك ما تزال سـكران ؟ من ذا الذي رآني معك ؟ أنا لم أزد على أن عددتك سكّيراً لأنك كنت سكران ! » ، فبماذا يمكنني عندئذ أن أعترض ؟ لا سيما وأن روايتك ستكون أقرب الى العقل من روايته هو ، لأن أقواله لن تكون قائمة الا على السيكولوجيا وسـتكون أنت قد ضربت على وتر حساس لأن هذا الأبله سكّير مدمن حقاً ، فما من أحد يجهل ذلك . ومن جهة أخرى ، ألم أعترف لك أنا نفسي ، مراراً ، بأن هذه السيكولوجيا ذات حدين ، وبأن الحد الثاني أهم من الحد الأول شأناً وأبلغ خطراً . هذا عدا أنني لا أملك حتى الآن أي دليل وضعي عليك. طبعاً ، سـآمر باعتقالك ؟ ورغم انني ، على خـلاف السنن والأصول ، أعلن لك ذلك ، فانني على خلاف السنن والأصول أيضاً ، أصرّح لك بأن اعتقالك ليس في مصلحتي . ذلك أولاً ، وأما ثانياً ، فانني قد جئت من أجل أن ...

ـ من أجل ماذا ، ثانياً ؟

كان راسكولنيكوف يلهث . فأجابه بورفير :

ـ سبق أن قلت لك ! لقد جئت اليك من أجل أن أبرر سلوكي وأعتذر عنه ! ذلك حق لك عليّ . لا أريد أن تعدني شيطاناً رجيماً ،

لا سيما وأنني أضمر لك عاطفة طيبة صادقة ، صدّقتَ أم لم تصدق ! ينتج عن ذلك ـ وهذه هي النقطة الثالثة ـ انني جئت اليك لأقترح عليك اقتراحاً صريحاً بدون أية فكرة مبيّتة : انني أشجعك على أن تفقأ هذه الدمّل ، فتمضي تعترف بأنك أنت الجاني • ذلك أنفع لك ، وأجدى عليك ، وهو أنفع لي أنا أيضاً ، لأنه يخلصني من هذا العبء ! ما قولك ؟ أليس هذا الاقتراح صراحةً مني ؟

فكّر راسكولنيكوف دقيقة ، ثم قال :

ـ اسمع يا بورفير بتروفتش • لقد قلت أنت نفسك ان كل ما تملكه من قرائن ضدّي لا يعدو أن يكون استنتاجاً سيكولوجياً ، وأنت مع ذلك تتوق الى دليل رياضي • فما الذي يضمن لك أنك لست على خطأ ؟

ـ لا يا روديون رومانوفتش ، لست على خطأ • أنا أملك الآن دليلاً ، دليلاً اهتديت اليه منذ مدة • ان الله هو الذي أرسل اليّ هذا الدليل •

ـ أي دليل ؟

ـ لن أقوله لك يا روديون رومانوفتش • ثم انني أصبحت لا أملك حق التأجيل ، فسوف أعتقلك ، ولكن احكم على الأمر بنفسك : أنا الآن لا يهمني القرار الذي قد تتخذه ، ومعنى هذا انني انما أكلمك في سبيل مصلحتك وحدها • شهد الله يا روديون رومانوفتش أن ذهابك الى السلطات للاعتراف بفعلتك خير لك •

ضحك راسكولنيكوف ساخراً ، ثم قال :

ـ كلامك ليس مضحكاً فحسب ، بل هو أحمق أيضاً • هبني أنا

الجاني (وذلك ما لا أعلنه قط) ففيم أمضي أشي بنفسي لكم وقد قلت لي أنت نفسك ان الاقامة هناك في السجن هي « الراحة » ؟

ـ يا روديون رومانوفتش ، لا تسرف في فهم ما أقوله لك فهماً حرفياً . من الجائز جداً أن لا تكون هي « الراحة » تماماً ! وما هذا الا نظرية خاصة بي ، وهل أنا في نظرك حجة ؟... ولعلني أنا نفسي أخفي عنك في هذه اللحظة شيئاً ما . انك لا تستطيع أن تطمع في أن تتلقى مني جميع مساراتي وأن تستعملها على هواك ! أما النقطة الثانية ، أعني الفوائد التي ستجنيها من الاعتراف ، فهي واضحة وضوحاً تاماً فيما أظن . فكّر في تخفيف العقوبة التي يمكن أن تناله ، فكّر في هذا التخفيف وحده ! « مع أن شخصاً آخر قد نسب الى نفسه جريمة القتل ، وبلبل القضية كلها ... » . على كل حال ، فان لك عليّ عهداً أمام الله أنني سوف أعرف كيف ألف وأدور وأحتال على الأمر بحيث تخرج منه على خير وجه ، حتى دون أن يخطر ببالك ذلك . سوف نخرّب كل ذلك الصرح السيكولوجي ، سوف أبدّد جميع الشبهات التي قامت ضدك بحيث تبدو جريمتك نوعاً من الانقياد والغواية ، وهي في الحق كذلك . أنا رجل شريف يا روديون رومانوفتش ، وسأحقق وعدي وأفي بعهدي .

خفض راسكولنيكوف رأسه . وبعد صمت طويل ، ابتسم من جديد ، ولكن ابتسامته كانت في هذه المرة رقيقة أسيانة .

قال كمن أصبح لا يحاول أن يخفي شيئاً أمام بورفير :

ـ لست في حاجة الى تسامحكم !

فهتف بورفير يقول مندفعاً كأنما على غير علم منه :

ـ ذلك بعينه هو ما كنت أخشاه ! نعم ، أنا انما كنت أخشى أن لا تكون في حاجة الى تسامحنا !

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة حزينة نافذة مؤثرة ؛ وتابع بورفير كلامه فقال :

ـ لا تحتقر الحياة هذا الاحتقار ! ان الحياة ما تزال طويلة أمامك. كيف لا تحتاج الى التسامح ؟ كيف لا تحتاج الى التسامح ؟ الا انك لصعب المراس حقاً !

ـ ما عسى يكون أمامي بعد الآن ؟

ـ أمامك الحياة ! أأنت نبي ؟ ما أدراك ؟ ابحث تجد ! لعل الله ينتظرك هناك . ولن يكون السجن أبدياً !.

قال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ سوف يخففون عقوبتي !

ـ لعل خجلاً بورجوازياً هو الذي يمنعك ، على غير علم منك ، من أن تعترف بأنك أنت الفاعل ؛ ولكن عليك أن ترتفع فوق هذا .

دمدم الفتى يقول بلهجة احتقار :

ـ لست أبالي بهذا كله !

ثم بدا عليه أنه يهمُّ أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس ، وهو ينوء تحت عبء ألمٍ كبير لا يستطيع اخفاءه ! قال بورفير :

ـ لست تبالي ؟ انك انسان كثير الشك والارتياب ، فأنت تظن أنني أحاول أن أتملقك تملقاً فظاً ؟ ولكن هل أنت خبرت الحياة هذه الخبرة الواسعة العميقة كلها ؟ أأنت تفهم هذا القدر كله من شئون الحياة ؟ لقد تخيَّل نظرية وهو يستحي أن يراها تخفق وتسقط ، أو أن يلاحظ على الأقل أن ما خرج منها وترتب عليها ليس فيه كثير من جدة وأصالة ؟

ألا ان ما خرج من نظريتك لهو أقرب الى السوء فعلاً ! ولكنك لست امرءاً سافلاً ضاع الى الأبد ! أنت لست ذلك السافل ، لا ! ولكنك تطرفت فمضيت الى الحد الأقصى على كل حال ! هل تعرف ماذا أعدُّك ؟ أنا أعدُّك واحداً من أولئك الناس الذين يؤثرون أن تثخنهم الجراح على أن يتحملوا الهوان ، والذين يمكن أن ينظروا الى جلاّديهم مبتسمين اذا كانوا قد اهتدوا الى ايمان أو اله ! فاهتد الى ايمان واله فتحيا ! أنت أولاً في حاجة الى تبديل الهواء منذ زمن طويل . ان الألم شيء حسن هو أيضاً . فعليك بالألم ! تألم ! من يدرينا أن ميقولا ليس على حق اذ هو ينشد الألم ويبحث عنه ويسعى اليه ؟ انك ريبى — أنا أعرف ذلك — ولكن لا تحاول أن تسرف في التحليل ، بل استسلم لتيار الحياة دون تفكير ، ودع عنك القلق ، فاذا بتيار الحياة يضعك على الشاطىء ، فتقف على قدميك . لا أدرى ما هو الشاطىء الذى سيوصلك اليه التيار ، ولكننى مقتنع بأن أمامك حياة طويلة ستحياها . أنا أعرف أنك تعدُّ أقوالى هذه خطبةً محفوظة على ظهر القلب ، ولكن لعل هذه الأقوال ستنفعك حين ستتذكرها في المستقبل ، وذلك أيضاً سبب من الأسباب التى تحضنى على مخاطبتك . من حسن الحظ على كل حال أنك لم تقتل الا عجوزاً شمطاء شريرة . فلو أنك وضعت نظرية أخرى لكان يمكن أن ترتكب عملاً أسوأ من هذا مائة مليون مرة . لذلك ربما كان عليك أن تحمد الله وأن تشكره ! وربما كان الله ، على كل حال ، يدّخرك لشيء ما ، من يدريك ! فارتفع بقلبك ، وارتق بعواطفك ، ولا تكن صغيراً جباناً ! هل العمل العظيم الذى يجب القيام به هو الذى يخيفك حقاً ! لا ، لا ! عارٌ أن تخاف من هذا ! لقد خطوت ، فحذار أن تتراجع ! لا تعدو المسألة هنا أن تكون مسألة عدل . فافعل ما يوجبه العدل . أنا أعلم أنك لا تصدّقنى ، ولكن شهد الله أن الحياة هى التى

ستنتصر ، وأنك سوف تعود تحب الحياة أنت نفسك بعد ذلك . اما الآن فأنت لست في حاجة الا الى هواء ، الا الى هواء !...

سرت في جسم راسكولنيكوف رعدة . وهتف يقول :

ــ ولكن من أنت ، من أنت حتى تتخذ هذه الأوضاع التي هي أوضاع نبي ! من علياء أية ذرى هادئة تلقي الي بهذه المواعظ والحكم والعبر المزعومة ؟

ــ من أنا ؟ أنا انسان محدود ، لا أكثر من ذلك . انسان لعله حساس ولعله قادر على أن يتعاطف مع الآخرين ، ولعله يعرف بعض الأشياء ، ولكن ذلك كله لا يمنع أنه محدود . أما أنت فشأنك شأن آخر : ان الله قد هيأك لحياة حقة (ولكن من يدري ؟ لعل ذلك أن لا يكون الا ناراً كنار الهشيم ما تلبث أن تنطفيء !) فما خوفك من التغير الذي سيطرأ على حياتك ؟ هل يأسف على حياة الدعة والرخاء انسان له قلب كقلبك ؟ ماذا ؟ هل يضجرك كثيراً أن تظل مدة طويلة لا يراك أحد ؟ ان الأمر ليس مرهوناً بالزمان ، بل هو مرهون بك . كن شمساً فيراك جميع الناس . ليس على الشمس الا أن توجد ، الا أن تكون عين ذاتها ! ما الذي يجعلك تبتسم ؟ هل الذي يحملك على الابتسام أنك تجدني شاعراً ؟ يميناً انك لتظن أنني أمكر وأراوغ وأنني أريد استدراج ثقتك ! وربما كنت على حق ، هيء هيء ! أنا لا أسألك أن تصدق كلامي يا روديون رومانوفتش ! ولعلك تحسن صنعاً اذا أنت لم تصدق كلامي تصديقاً كاملاً في يوم من الأيام . ان من عادتي أن لا أكون صادقاً صدقاً تاماً ، أعترف بهذا ! ومع ذلك ، اليك ما أريد أن أضيفه : سوف تريك الأحداث أأنا انسان شرير أم أنا انسان مستقيم شريف .

ــ في نيتك أن تعتقلني متى ؟

ـ أستطيع أن أدعك طليقاً مدة يوم آخر أو يومين آخرين . ففكّر يا صديقى ، وادع الله . هذا من مصلحتك . أقسم لك على انه من مصلحتك ...

سأله راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامةً غريبة :

ـ فماذا لو هربت ؟

ـ ، لن تهرب ! قد يهرب فلاح ، وقد يهرب واحد من اشياع النظريات الرائجة فى هذا الزمان ، لأنه امرؤ يمكن أن يغرسوا فيه عقيدتهم الى الأبد ؛ أما أنت فلا ، لأنك أصبحت لا تؤمن بنظريتك . فعلام عساك تهرب ؟ ما هى الفائدة التى يمكن أن تجنيها من الهرب ؟ ما أفظع وما آلم الحياة التى يحياها هارب ! فالمرء اذا أراد أن يحيا ، لا بد له من وضع مستقر ، ومركز محدَّد ، ولا بد له من هواء يستطيع أن يستنشقه ! لتعودنَّ ثانية اذا أنت هربت ! « انك لا تستطيع أن تستغنى عنا » . اذا أودعتك فى السجن مدة شهر أو شهرين مثلاً ، فلسوف تجىء فى ذات يوم فجأة فتعترف . لسوف تندفع الى هذا على غير علم منك تقريباً . تذكر هذا الكلام الذى أقوله لك . بل اننى لعلى يقين من أنك سوف تعزم أمرك على التكفير . أنت لا تصدقنى الآن . ولكنك سوف تجىء ، لأن الألم شىء عظيم يا روديون رومانوفتش . لا يُدهشنْك أن تسمعنى أتكلم هذه اللغة أنا الرجل الذى أسمنته دعة العيش . اننى أقول الحق فلا تسخر ! هذه فكرة عميقة أقولها الآن ! ان نيقولا على حق . لا ، لن تهرب يا روديون رومانوفتش !

نهض راسكولنيكوف وتناول قبعته . ففعل بورفير بتروفتش مثل ذلك .

ـ هل تريد أن تقوم بجولة ؟ ان المساء يبشر بليلة جميلة ، اذا لم

تهب عاصفة ••• على كل حال ربما كان ذلك أفضل ، فان الهواء سيزداد بهذا طراوة •••

قال راسكولنيكوف بلهجة جافة متعجلة :

ــ لا يذهبن بك الظن الى أنني أدليت لك اليوم باعترافات • أنت انسان غريب ، وأنا لم أصغ اليك الا من باب الفضول ، لكنني لم أعترف لك بشيء • تذكّر هذا !

ــ طيب طيب ••• دعك من هذا الكلام ••• هذه أمور معروفة•• لا ، لن أنسى ! انظروا كم يرتعش ! لا تقلق يا عـزيزي • سـنلتزم رغبتك • تنزه قليلاً ، ولكن دون أن تتخطى بعض الحدود •

قال بورفير ذلك ثم أضاف خافضاً صوته :

ــ بالمناسبة : هناك رجاء أخير أود أن أتوجّه به اليك • هو رجاء حرج بعض الشيء ، ولكن لا بأس : اذا اتفق (وهذا احتمال ضعيف ، لأنني لا أصدّق أنك قد تعمد الى ذلك المخـرج) ، أقول اذا اتفق في غضون الساعات الثماني والأربعين أو الخمسين أن تختم الأمر على نحو آخر ، أقصد على نحو خارق ، أقصد أن تحاول الانتحار (لا تؤاخذني على هذا الافتراض السخيف) فأرجوك أن تترك لنا كلمة موجزة ، لكنها واضحة : سطرين ، لا أكثر من سطرين ، لا أكثر من سطرين ، تقول لنا فيهما أين توجد الصخرة • ذلك أنبل ••• هيّا ••• الى اللقاء ••• أسأل الله أن يلهمك الصواب !

قال بورفير ذلك وانسحب حانيـاً رأسـه ، متحاشـياً أن ينظر الى الفتى • فاقترب راسكولنيكوف من النافذة وانتظر ، بصبر نافد ، اللحظة التي يقدّر أن قاضي التحقيق يكون قد ابتعد فيها عن المنزل ابتعاداً كافياً ، ثم غادر الغرفة مسرعاً •

الفصل الثالث

أخذ يبحث عن سـفدريجايلوف متعجلاً . انه يجهل هو نفسه ماذا كان ينتظر من هذا الرجل . غير أن هذا الرجل كان له عليـه نوع من سلطان . ومنذ أدرك راسـكولنيكوف ذلك أصبح لا يجد الى الهدوء سبيلا ، وقد آن له أن يخرج كل شيء الى الضوء !

وفيما كان يسير ، كان يعـذّبه خاصـة هذا السـؤال : هل ذهب سفدريجايلوف الى بورفير ؟

ولكن راسكولنيكوف كان يجيب عن هذا السؤال بقوله : اذا صدق ظني ، فان سفدريجايلوف لم يذهب الى بورفير بل انني لمستعد أن أقطع يدي اذا كان سفدريجايلوف قد ذهب الى بورفير . وفكّر راسكولنيكوف مزيداً من التفكير ، واستعرض بخياله زيارة بورفير من جديد ، فانتهى الى هذه النتيجة : لا ، لم يذهب اليه ، لم يذهب اليه قطعاً !

ولـكن اذا كان سـفدريجايلوف لم يذهب الى بورفير حتى الآن ، فهل سيذهب اليه ، أم هو لن يذهب ؟

وبدا لراسكولنيكوف أن سفدريجايلوف لن يقوم بهذه الزيارة ، في هذه الفترة على الأقل . لماذا ؟ ما كان لراسـكولنيكوف أن يسـتطيع معرفة الأسباب التي تحمله على هذا الظن ، وهبه استطاع معرفتها ، هبه

قادراً على تفسير كل شيء ، فما كان له أن يصدّع رأسه منقباً عنها . صحيح أن ذلك كان يعذبه ، ولكن ذلك كان في الوقت نفسه ايسر همومه . شيء غريب ، لا يكاد يصدّق : ان مصيره الراهن ، المباشر ، كان لا يهمه الا قليلاً ، وكان هو لا يفكر فيه الا ذاهلاً . أمّا ما كان يعذّبه حقاً فهو شيء آخر ، شيء أخطر شأناً ، شيء خارق ، يخصه هو ولا يخص أحداً سواه . وكان الى ذلك يحس بتعب روحي لا نهاية له ، رغم أن دماغه كان في ذلك الصباح يعمل خيراً مما كان يعمل في الأيام السابقة .

ثم هل يستحق الأمر ، بعد كل ما حدث ، عناء السعي الى التغلب على المصاعب السخيفة وتذليل العقبات الكثيرة التي لن تلبث أن تظهر في طريقه من جديد ؟ هل من اللازم مثلاً أن يحتال في سبيل أن لا يذهب سفدريجايلوف الى بورفير ؟ هل من الضروري أخيراً أن يضيع وقته في دراسة رجل اسمه سفدريجايلوف والمداورة والمخاتلة معه ؟

آه ... ما كان أشد سأمه وضجره ومللة من هذا كله !...

ومع ذلك كان يحث الخطى سعياً الى سفدريجايلوف . أليس معنى هذا أنه كان ينتظر منه شيئاً جديداً ، أنه كان ينتظر منه توجيهات ، أنه كان ينتظر منه مخرجاً ؟ ان الغريق يتشبث أحياناً بقشة ! ألم يكن القدر هو الذي يجمع بينهما ؟ أم أن غريزةً خفية هي التي تقرّب أحدهما من الآخر ؟ أم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون اعياءً وسأماً ويأساً ؟ أم لعله كان في حاجة لا الى سفدريجايلوف ، بل الى شخص آخر ؟ الى صونيا ؟ ولكن لماذا عساه يذهب في هذه اللحظة الى صونيا ؟ ليستدر دموعها ؟ ثم ان صونيا ترعبه : ان صونيا تمثل الحكم المبرم الذي لا رادّ له ، والقرار الحاسم الذي لا رجعة عنه . لقد كان على راسكولنيكوف أن يختار : فاما

أن يتبع طريقه هو واما أن يتبع الطريق الذى دلته عليـه صونيا . لا ، لا ، لا ، انه فى هـذه اللحظة خاصـةً لا يحس انه قادر على أن يرى صونيا . أفليس الأفضل أن يجرِّب حظه مع سفدريجايلوف ؟ ولم لا ؟ ثم انه لا يسـتطيع أن يمتنع عن الاعتراف ، فى قـرارة نفســه ، أن سـفدريجايلوف قد أصبح ، منذ مدة طويلة ، ضرورةً له ، بمعنى من المعانى .

ولكن الأمر غريب حقاً : ماذا يجمع بين الرجلين ؟ ماذا فيهما من شبه ؟ حتى دناءتهما ليست من طبيعة واحـدة . ثم ان فى ذلك الرجل شيئاً كريهاً منفراً الى أبعد الحـدود : لا شـك أبداً فى أنه فاجر عاهر فاسق ، ولا شك أبداً فى أنه مراوغ مخاتل ماكر ، بل ربما كان كذلك شريراً الى أبعد حدود الشر !... صحيح أنه يعتنى الآن اعتناء نشيطاً بأولاد كاترين ايفانوفنا ، ولكن من ذا الذى يعرف الأغراض التى يهدف اليها من وراء ذلك ؟ ان لهذا الرجل دائماً نيات خفيةً !

هناك فكرة أخرى كانت ما تنفك تعذب راسكولنيكوف وتحاصره منذ بضعة أيام ، رغم أنه حاول أن يطردها من شـدة ما كانت تؤلمه . كان يقول لنفسه : « ان سفدريجايلوف لا يبرح يدور حولى ، وهو يدور حولى حتى فى هذه اللحظة . لقد اكتشف سفدريجايلوف سرى . وانه يبيِّت نيات لدونيا . ألا يزال يبيِّت لها هذه النيات ؟ ان المرء ليكاد يجيب عن هذا السـؤال بكلمـة « نعم » على وجـه اليقين . فمـاذا لو أراد سفدريجايلوف ، بعد أن عرف سرِّى وأصبح له سلطان علىّ ، ماذا لو أراد أن يستعمل هذا سلاحاً ضد دونيا ؟

كانت هذه الفكرة تعذبه حتى فى نومه ، ولكنها لم تعرض له بهذا الوضوح الصارخ فى يوم من الأيام مثلما تعرض له الآن أثناء ذهابه الى

سفدريجايلوف ، فتثير فيه غضباً شديداً قاتماً . هي أولاً تغيّر وضعه : ان عليه الآن أن يكشف عن سرّه لدونيا ؟ وربما كان عليه أن يبادر الى تسليم نفسه ليمنع دونيا من القيام بأي خطوة ليس فيها تعقل ! الرسالة ! ان دونيا قد تلقت رسالةً في هذا الصباح نفسه . فمن ذا الذي يمكن أن يكتب اليها من بطرسبرج ؟ (أهو لوجين حقاً ؟) . صحيح أن رازوميخين يحرسها ، ولكن رازوميخين لا يعرف من الأمر شيئاً . فهل يجب عليه أن يفضي بالحقيقة الى رازوميخين أيضاً ؟ ربما كان يجب عليه أن يفعل ! وشعر راسكولنيكوف باشمئزاز حين خطرت بباله هذه الفكرة . وقال يحدث نفسه جازماً : « على كل حال ، يجب أن أرى سفدريجايلوف بأقصى سرعة ممكنة . الحمد لله على أن التفاصيل هنا أقل شأناً وأهون خطراً من جوهر القضية . ولكن ماذا لو كان في وسع سفدريجايلوف أن يفعل شيئاً ، أن يتآمر على دونيا ؟ في هذه الحالة ... » .

كان راسكولنيكوف قد بلغ من التعب في أعقاب ذلك الشهر الطويل من المعارك والانفعالات أنه أصبح لا يشعر بالقدرة على حل مثل هذه المشكلات ، والاجابة عن مثل هذه الاسئلة ، اللهم الا بكلمات باردة يائسة كهذه : « في هذه الحالة ، سأقتله ! » .

ان شعوراً ثقيلاً كان يجثم على صدره ويرهقه من أمره . وقف في وسط الشارع ، وأجال بصره فيما حوله . أيّ طريق سلك ؟ أين هو الآن ؟ كان في شارع س ... على مسافة ثلاثين أو أربعين خطوة من « سوق العلف » التي تجاوزها منذ قليل . ان الطابق الأول من مبنى يقع على يساره ، هو حانة كله . جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها . ومن كثرة الوجوه التي تُرى عند النوافذ ، يقدّر المرء أن الحانة ملأى بالناس . وهذه أصوات أغانٍ تصل من القاعة ، وأصوات زمارة وكمان وطبل ، وصرخاتٌ حادة تنطلق من حناجر نساء .

همَّ راسكولنيكوف أن يعود أدراجه وهو يتساءل ما الذي جاء به الى هذا المكان ، ما الذي اوصله الى شارع س ••• ! ولكنه ما ان همَّ أن يقفل راجعا حتى لمح سفدريجايلوف عند احدى نوافذ الحانة ، جالساً الى مائدة صغيرة وغليونه بين اسنانه • ان الدهشة التي احسها راسكولنيكوف عندئذ لا تخلو من نوع من الرعب • كان سفدريجايلوف يراقبه ويتفحصه صامتاً ، وكان يبدو عليه انه يريد أن ينهض ، كأنه يحاول أن يتوارى قبل أن يُرى ، وذلك أمر فجأ راسكولنيكوف ايضاً• وسرعان ما تظاهر راسكولنيكوف بأنه لا يراه ، وأخذ ينظر الى الجهة الأخرى واجماً مفكراً ، مع استمراره في النظر اليه ، بطرف عينه طبعاً• كان قلبه يخفق قلقاً واضطراباً • الأمر كذلك حقاً : واضح أن سفدريجايلوف لا يريد أن يُرى • لقد نزع غليونه من فمه ، وحاول أن يختبيء ، ولكنه حين أبعد كرسيه لينهض قد أدرك ولا شك أن راسكولنيكوف رآه ، وأنه يرقبه ويرصده • عندئذ جرى بين الرجلين مشهد يشبه كثيراً المشهد الذي جرى بينهما عند أول لقاء لهما في بيت راسكولنيكوف ، حين تظاهر راسكولنيكوف بأنه نائم• هذه ابتسامة ماكرة تظهر على شفتي سفدريجايلوف وما تنفك تتضح • ان كلاً منهما يعرف أن الآخر يتجسس عليه • وانطلق سفدريجايلوف يضحك ضحكة صاخبة آخر الأمر ، ثم يقول له من على نافذته :

ـ هيّا ادخل ، ادخل اذا شئت ! أنا هنا !

صعد راسكولنيكوف الى الحانة • فوجد سفدريجايلوف في حجرة ضيقة جداً ، عند احدى النوافذ ، قرب قاعة كبرى يتحلق فيها حول مايقرب من عشرين مائدة ، باعةٌ وموظفون وأناس من كل نوع يحتسون الشاي وسط صخب رهيب يحدثه المغنون الزاعقون بصوت واحد • وعلى مائدة سفدريجايلوف كانت توجد زجاجة شمبانيا وكأس نصف

ملأى . وكان في هذه الحجرة الصغيرة صبي يحمل آلة موسيقية هي أرغن بارباريا ، وفتاة سمينة في نحو الثانية عشرة من عمرها حمراء الخدين ريلة الوجنتين ترتدى تنورة مخططة مشمورة ، وتضع على راسها قبعةً تيرولية (نسبةً الى جبال التيرول) مزدانةً بأشرطة ، ويصدح صوتها الأبح بأغنية عامية مبتذلة ، رغم صخب غناء الجوقة في القاعة المجاورة . وكان الصبي يرافق غناءها بالعزف على أرغن بارباريا ....

قال سفدريجايلوف يقاطع العزف والغناء منذ دخل راسكولنيكوف:

ـ هيا ... كفى !...

فتوقفت الفتاة عن الغناء فوراً ، واتخذت وضع الاحترام ؛ وكان وجهها ، منذ قليل ، حين كانت تغنى سخافاتها المسجوعة ، يعبر عن هذا الاحترام نفسه على كل حال .

نادى سفدريجايلوف :

ـ هيه ! فيليب ! هات كأساً !

فقال راسكولنيكوف :

ـ لن أشرب خمراً .

ـ كما تشاء . ولست أنادى فيليب من أجلك أنت . اشربى يا كاتيا . لم أعد في حاجة اليك اليوم . تستطيعين أن تنصرفى .

قال لها ذلك وقد صبَّ لها كأساً من خمر ووضع على المائدة ورقة نقدية بروبل . فأفرغت كاتيا الكأس بعشرين جرعة صغيرة متتالية دون أن تفصل شفتيها عن الكأس ، كما تشرب النساء . ثم تناولت الورقة النقدية ، وقبَّلت يد سفدريجايلوف الذى سمح لها أن تقبِّل يده

وهو يُظهر أكبر الجد ، وخرجت يتبعها الصبى جاراً أرغنه. كان الصبى والفتاة قد جيء بهما كليهما من الشـارع • ان سـفدريجايلوف ما كاد يقضى فى بطرسبرج هذه الأيام الثمانية حتى كان قد أحاط نفسـه بهذا الجو من الصحبة والألفة والسيطرة • ان فيلب خادمَ القـاعة هو أيضـاً « صديق » حميم ، يُظهر لصاحبه أكبر الطاعة وأعظم المذلة • وباب الحجرة يُقفل بالمفتاح ، فاذا كان سـفدريجايلوف فيها فكأنه فى بيته • ولعله كان يقضى فى هذه الحجرة أياماً بكاملها • أما الحانة القذرة الرثة فلا يمكن أن توصف حتى بأنها حانة من الدرجة الثانية •

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

ـ كنت ذاهباً اليك ، كنت أبحث عنك • ولكنى لا أدرى ما الذى جعلنى أدور فجأة الى شارع س ••• قادماً من « سوق العلف » • اننى لا أمر أبداً من هنا • وانما أنا انعطف دائماً الى يمين « السوق » • فما ان درت الى هذه الجهة حتى لمحتك ! شيء غريب !

ـ لماذا لا تقول انها معجزة ؟

ـ لأن من الجائز أن لا تكون الا مصادفة !

قال سفدريجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

ـ غريب تفكير هؤلاء الناس ! مهما يكونوا مقتنعين بوجود المعجزات فانهم لا يعترفون بذلك ! أنت نفسك تقول ان « من الجائز » أن لا تكون الا مصادفة ! آه ••• ما أجبنهم جميعاً ازاء اعتقاداتهم نفسها ! لا تستطيع أن تتخيل يا روديون رومانوفتش ••• لست أقصدك أنت ••• فأنت لك آراؤك الشخصية ، وأنت لا تهاب أن يكون لك آراء شخصية • حتى انك بهذا نفسه انما أثرت اهتمامى وأيقظت فضولى •

ـ بهذا وحده ؟

ـ هو كافٍ جداً !

كان واضحاً ان سفدريجايلوف مهتاج بعض الاهتياج ، ولكن اهتياجه لم يكن شديداً جداً : انه لم يشرب الا نصف كأس من خمر.

قال راسكولنيكوف :

ـ يخيَّل اليَّ أنك جئت تزورني حتى قبل أن تعرف هل يمكن أن يكون لي ما تسميه رأياً شخصياً .

ـ آ ... نعم ... حينذاك كان الأمر غيرَ هذا تماماً ! لكل امرىء طريقته في التصرف . أما عن المعجزة فأقول لك : لا بد أنك كنت نائماً في هذين اليومين أو في هذه الأيام الثلاثة ! لقد حدَّدت لك أنا نفسي هذه الحانة ، فاذا جئتَ اليها الآن رأساً فليس في الأمر اذن أية معجزة . لقد وصفت لك الطريق الذي يجب أن تسلكه ، وذكرت لك الساعات التي تستطيع أن تجدني فيها . ألا تتذكر ؟

أجاب راسكولنيكوف مدهوشاً :

ـ نسيت !

ـ أصدِّقك . ولكنني ذكرت لك ذلك مرتين . فلا بد أن العنوان قد انطبع في ذاكرتك على نحو آلي ، فاذا أنت تدور سالكاً هذا الطريق على نحو آلي أيضاً ، دون علمٍ منك . مهما يكن من أمر ، فانني حين كنت أكلمك في ذلك اليوم ، لم أعتقد أبداً أنك كنت تفهم عني . انك لا تراقب نفسك مراقبة كافية يا روديون رومانوفتش . على انني أعرف أن كثيراً من الناس يكلمون أنفسهم بصوت عالٍ أثناء سيرهم . هذه مدينةٌ سكانها أنصاف مجانين . لو كان عندنا معارف علمية لاستطاع

الأطباء ورجال القضاء والفلاسفة أن يجمعوا عن بطرسبرج ملاحظات ثمينة ، كل فى ميدان اختصاصه . يصعب أن يجد المرء مدينة أخرى تضاهيها فيما نلاحظ فيها من تأثر النفس الانسانية بمؤثرات غامضة مظلمة حادة غريبة الى هذا الحد . أيكون مرد هذا الى مناخها ؟ ولكن لما كانت هى المركز الادارى فلا بد أن ينعكس طابعها على مجموع البلاد . على أن هذا ليس ما يهمنى الآن . وانما أردت أن أقول لك اننى قد سبق أن راقبتك أكثر من مرة . فأنت حين تخرج من بيتك تخرج عالى الرأس فما ان تسر عشرين خطوة حتى تخفض رأسك وتعقد ذراعيك وراء ظهرك ؛ وأنت حينئذ تنظر ، لكنك لا ترى ما أمامك ولا ما حولك ، ثم تأخذ تحرّك شفتيك وتكلم نفسك ؛ بل يتفق لك أحياناً أن تحرّك يديك باشارات شتى أثناء حديثك مع نفسك ؛ ثم اذا أنت تقف فجأة فى وسط الشارع ، وتلبث هنالك مدة طويلة . هذا غير مستحسن أبداً . فربما كان هنالك أناس غيرى يلاحظونك ويراقبونك ، وأنت بهذا تسىء الى نفسك وتتعرض للخطر . أقول لك ذلك بصراحة . صحيح أن الأمر لا يهمنى ، واننى لست من سيشفيك ، ولكن لعلك تفهم عنى ..

سأله راسكولنيكوف وهو ينظر اليه مستطلعاً :

ــ أتعرف أنهم يلاحقوننى ؟

قال راسكولنيكوف مدهوشاً :

ــ لا ، لم أكن أعرف ذلك !

دمدم راسكولنيكوف مقطباً حاجبيه :

ــ فلا تتحدثنْ بعد الآن عنى !

ــ طيب ! لا نتحدثنْ بعد الآن عنك !

ـ قل لى : اذا كنت تجيء الى هنا لتشرب ، واذا كنتَ قد حددت لى هذا المكان مرتين لأوافيك فيه ، فلماذا اختبأت عنى منذ قليل حين نظرتُ اليك من الشارع حتى لقد أردتَ أن تنصرف ؟ لقد لاحظت أنا ذلك واضحاً كل الوضوح .

ـ هيء هي ! بل قل لى أنت : لماذا ، فى ذلك اليوم ، بينما كنت أنا واقفاً على عتبة الباب ، ظللت أنت راقداً على سريرك ، مغمضاً عينيك ، متظاهراً بالنوم ، مع أنك لم تكن نائماً البتة ؟ لقد لاحظت أنا ذلك واضحاً كل الوضوح !

ـ لعل هناك أسباباً ... تدعونى الى ذلك ، وأنت نفسك تعرف هذا .

ـ ولعل هناك أسباباً تدعونى أنا أيضاً ، رغم أنك لا تعرف ما هى تلك الأسباب .

وضع راسكولنيكوف كوعه الأيمن على المائدة ، وأسند ذقنه الى يده اليمنى ، وحدّق الى سفدريجايلوف ، وظل دقيقةً طويلة يتأمل هذا الوجه الذى ما انفك يحيّره . انه وجه غريب يشبه أن يكون قناعاً : هو وجه أبيض ، أحمر ، له شفتان قرمزيتان ولحية حمراء وشعر أشقر غزير ؛ والعينان زرقاوان جداً ، والنظرة ثقيلة مسرفة فى الثقل ، ثابتة مسرفة فى الثبات . ان فى هذا الوجه الوسيم الذى ظل شاباً نضراً رغم السنين ، شيئاً منفّراً الى أبعد الحدود . وكان سفدريجايلوف يرتدى بدلة صيفية أنيقة من نسيج خفيف ، ويتميز خاصةً بقميصه الناصع البياض . وكانت احدى اصابعه يتلألأ فيها خاتم كبير مرصّع بحجر ثمين .

قال راسكولنيكوف فجأة يمضى الى هدفه رأساً وقد نفد صبره :

ـ هل علىّ حقاً أن أتحملك أنت أيضاً ؟ لعلك أنت أخطر البشر

حين تقــرر أن تلحق بأحــد ضرراً أو أذى ، ولكنني مع ذلك لا أريد أن أحاول الاحتماء منك . سوف أظهر لك على الفور أنني لا أقيم وزناً لشخصي الى الحد الذي تتصوره . اعلم أولاً انني انما جئت لأقول لك بوضوح كامل وصراحة قاطعة انك اذا كنت ما تزال تضمر لأختي تلك النيات نفسها ، وكنت تعوّل على استخدام السر الذي اكتشفته مؤخرا ، فسوف أقتلك قبل أن يتسع وقتك لأن تودعني في السجن . انني اذا قلت فعلت . هذا واذا كان هنالك شيء تريد أن تفضي به الي ّ ـ انني لأحس منذ مدة أنك تريد أن تقول لي شيئاً ما ـ فأسْـرع اذ قد يفوت الأوان بعد قليل !

سأله سفدريجايلوف وهو يتفرس فيه مستطلعاً مستغرباً :

ـ ولكن ما الذي يحملك على هذا الاسراع كله ؟

فأجاب راسكولنيكوف نافد الصبر مظلم الوجه :

ـ كل امرىء يعمل بطريقته الخاصة .

قال سفدريجايلوف مبتسماً :

ـ أنت نفسك تدعوني الى الصراحة ، ثم اذا بك ترفض أن تجيبني منذ أول سؤال ألقيه عليك . انك ما تزال تتصور أنني أبيّت مشاريع ، وأضمر نيات ، وهذا هو السبب في أنك تنظر الي ّ نظرة ريبة واشتباه . على أن هذا أمر يفهمه المرء فهماً تاماً فيمن كانت حالته كحالتك . ولكن مهما تكن رغبتي في أن أحيا على تفــاهم ووفاق معك ، فانني لن أكلف نفسي عناء ازالة الغشاوة عن بصرك وتبديد أوهامك . ذلك أن هذه اللعبة لا تستحق هذا العناء وأيم الحق . ثم انني لا أنتوي البتة أن أتحدث معك في أمور خاصة جداً .

ــ فلماذا تحتاج الىّ هذا الاحتياج كله اذا كان الأمر كما تقول ؟ ذلك أنك ما تنفك تحوم حولى ...

ــ لا لشيء الا لأنك امرؤ تشوق ملاحظته ، وتحلو مراقبته . لقد فتنتنى بوضعك الغريب وحالتك الشاذة وأمرك العجيب . هذا كل شيء ! ثم انك أخو انسانة شاقتنى كثيراً ؛ وطالما حدثتنى عنك تلك الانسانة ، فاستنتجت من ذلك أن لك عليها نفوذاً كبيراً وسلطاناً عظيماً ، فهل هذا قليل ؟ هيء هيء هيء ! على أننى أعترف لك بأن سؤالك يبدو لى معقداً تعقيداً شديداً ، فيصعب علىّ أن أجيب عنه . اليك هذا المثال : ألم تأت أنت الى هنا من أجل أن تعلم شيئاً جديداً لا من أجل أن تتكلم فى أعمال؟ أليس هذا صحيحاً ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

كذلك ألحّ سفدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامة ماكرة خبيثة . ثم تابع كلامه :

ــ ألا فاعلم اذن أننى ، أنا أيضاً ، منذ كنت فى القطار الذى أقلنى الى بطرسبرج ، كنت أعوّل عليك أنت نفسك ، وآمل أن تقول لى شيئاً « جديداً » ... الخلاصة : كنت آمل أن أقترض منك شيئاً . نعم ! أنظر الى أى حد نحن أثرياء !

ــ أن تقترض منى ماذا ؟

ــ ماذا أقول لك ؟ أأنا أعلم ؟ انك لترى فى أية حانة حقيرة موبوءة أقضى وقتى . اننى أجد فى هذا لذة . لذة ؟ لا ... هذه مبالغة . ولكن لا بد للمرء من أن يقضى وقته فى مكان ما ... حتى تلك المسكينة كاتيا ... هل رأيتها ؟ ويا ليتنى كنت على الأقل رجلاً شديد النهم والشراهة أو رجلاً محباً لأطايب الطعام ! ولكن انظر قليلاً ... هذا كل ما أستطيع أن ألتهمه ...

قال ذلك وهو يشير باصبعه الى ركن المائدة التى تستلقى عليها ، فى طبق من معدن ، بقايا شريحة كريهة من لحم البقر مع البطاطس • وتابع كلامه يسأل :

ـ بالمناسبة ، هل تغـديت ؟ أما أنا فاننى ما كدت آكل قطعـة حتى اكتفيت • وأنا لا أشرب الخمر أيضاً • لست أشرب الا شمبانيا ، ولست أشرب من الشمبانيا الا كأساً واحداً تكفينى السهرة كلها ، عدا أن هذه الكأس الواحدة تصدّع رأسى • ولئن طلبت اليوم شمبانيا ، فلكى أنتعش قليلاً ، لأن علىّ أن أذهب الى مكان ما بعد برهة ؛ وهذا هو السبب فى أنك تجدنى على حالة نفسية خاصة جـداً • منذ لحظة ، اختبـأت كتلميذ صغير ، لأننى تخيلت أنك سوف تزعجنى ، ولكن أعتقد أن فى وسـعى (هنا أخرج ساعته) أن أبقى معك قرابة ساعة • الساعة الآن هى الرابعة والنصف • هل يمكنك أن تصدّق ؟ يا ليتنى كنت شيئاً ما على الأقل •• ليتنى كنت مالك أرض مثلاً أو ربّ أسرة أو حتى جندياً ، أو مصوراً ، أو صحفياً ، ولكن لا ••• لست شيئاً ••• لست شيئاً البتة ••• ليس لى أى اختصاص ! حتى اننى أضجر بعض الأحيان • حقاً لقد كنت أتصور أنك ستقول لى شيئاً جديداً •

ـ ولكن من أنت ، ولماذا جئت ؟

ـ من أنا ؟ انك تعلم من أنا : أنا رجل من وجوه القـوم ، قضيت سنتين فى سلاح الفرسان ، ثم تسكعت هنا ببطرسبرج ، ثم تزوجت مارتا بتروفنا وعشت فى الريف • تلك سيرة حياتى !

ـ أنت ، فيما أظن ، مقامر • أليس كذلك ؟

ـ مقامر ؟ لا ••• أنا غشاش لا مقامر •

ـ كيف ؟ هل غششت ؟

ـ نعم ، فعلت هذا أيضاً •

ـ فلا بد أنهم ضربوك عندئذ ضرباً مبرحاً ، أليس كذلك ؟

ـ حدث هذا • وبعد ؟

ـ كان في امكانك على الأقل أن تقتتل في مبـارزة ••• ذلك أمر يفور له الدم •

ـ لن أعارضك ، لا سيما وأن الفلسـفة ليست ما أتميز به وأجلّي فيه • أعترف لك بأنني انما جئت الى هنا من أجل النساء خاصة •

ـ أبعد دفن مارتا بتروفنا فوراً ؟

ـ نعم • ثم ماذا ؟ أي ضير تراه في أن أتكلم عن النساء هكذا ؟

بذلك أجاب سفدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامةً صراحةٍ مفحمة• فقال راسكولنيكوف :

ـ تسألني أي ضير أراه في أن يعيش المرء حياة دعارة ؟

ـ حياة دعارة ! آ ••• ذلك هو ما يحنقك• ولكن فلنمض في مناقشة الأمر على منهج سليم : سأجيبك أولاً عن موضوع النساء عامة • انى امرؤ أحب الثرثرة كما ترى • قل لي : لماذا يجب عليّ أن ألجم اندفاعاتي وأكبت رغباتي ؟ لماذا أعدل عن النساء وأنا أهواهن ؟ انهن شاغل على الأقل •••

ـ فليست آمالك كلها اذن الا آمالاً قائمة على الدعارة أو الفسق ؟

ـ لنسلّم بأنها الدعارة أو الفسق ، ما دمتَ حريصاً على ذلك • انني أحب الأسئلة المباشرة على كل حال • ان للفسق شيئاً ثابتاً يقوم على الطبيعة الانسانية ولا يخضع لنزوات الخيال ، شيئاً باقياً مستمراً في الدم ، كجذوة متوهجة ، مستعدة في كل لحظة لأن تلتهب ، لا تنطفىء في وقت مبكّر ، بل لا تقضي عليها السنون • ثم ان عليك أن تعترف أن الفسق شاغل من الشواغل •••

ــ ليس في هذا ما يستحق أن تغبط نفسك عليه أو أن تهنىء نفسك به . هذا مرض ، بل هو مرض خطر .

ــ آ ... هذا ما تريد أن تنتهي اليه ! انني أوافقك على أنه مرض، كسائر الأشياء التي تتجاوز حدود الاعتدال . وحدود الاعتدال يتجاوزها الناس ، فبعضهم يتجاوزها بطريقة ، وبعضهم يتجاوزها بطريقة أخرى. وينبغي للمرء طبعاً أن يعتدل ، رغم أن هذا حساب دنيء. ولكن ما العمل؟ ما الحيلة ؟ ذلك أن الانسان اذا لم يتهيأ له هذا الشاغل فقد يكون عليه أن ينتحر . انني أعرف أن الرجل الشريف لا بد أن يشعر بالسأم والضجر حتماً ، هذا عدا أن ...

ــ هل أنت قادر على أن تنتحر ؟

أجاب سفدريجايلوف متأففاً :

ــ يا له من سؤال !

ثم أضاف يقول متعجلاً ، دون أن يصطنع مظهر التفاخر والادعاء ذاك الذي كان قد اصطنعه الى ذلك الحين ، حتى أن وجهه قد تغير :

ــ أرجوك لا تكلمني في هذا الموضوع ! ... انني أعترف بأن هذا ضعف لا يغتفر ، ولكن ما حيلتي ؟ انني أخاف من الموت ، ولا أحب أن يتكلم عن الموت أحد . هل تعلم انني أؤمن قليلاً بالغيبيات ؟

ــ آه ... هو شبح مارتا بتروفنا ! أما يزال يظهر لك اذن ؟

قال سفدريجايلوف :

ــ لندع هذا الأمر ! في بطرسبرج ، لم يحدث هذا حتى الآن !

ثم هتف يقول حانقاً :

ــ على كل حال ، شيطان يأخذه ... لا ، لا ، فلندع هذا الأمر ،

ولنتكلم فى ... هم ... نعم ... لم يبق لى الا قليل من الوقت ... لا أستطيع أن أمكث معك مدة أطول من ذلك كثيراً . خسارة ! ذلك أن هناك أموراً كثيرة كان يمكننى أن أنقلها اليك .

ـ أهى أمور تتعلق بامرأة أيضاً ؟

ـ نعم ، بامرأة !... حالة لا يتوقعها المرء أبداً ... حالة ليست ما تظن ...

ـ أأنت لا تشعر اذن بثقل هذا الجو الذى تعيش فيه ؟ أليس يؤثر فيك ؟ هل فقدت القوة على ... على أن تتوقف ؟

ـ ماذا ؟ أأنت تكلمنى عن القوة ؟ هه ... انك تذهلنى دهشة يا روديون رومانتش ، رغم اننى كنت أعرف سلفاً أن الأمر سيكون هكذا ! أأنت من يكلمنى عن الفسق وعن جمال الفضيلة ؟ أأنت انسان من نوع شيللر ، انسان مثالى ؟ صحيح أن هذا كله طبيعى ، حتى أن نقيضه هو ما يمكن أن يثير الدهشة ... ولكنه مع ذلك يبعث على الاستغراب .. آه .. خسارة أننى لا أملك الا وقتاً قصيراً ! ذلك أنك من أكثر الناس ايقاظاً للاهتمام ، واثارة لحب الاطلاع . بالمناسبة : أأنت تحب شيللر ، أليس كذلك ؟ أما أنا فأحبه حباً عظيماً .

قال راسكولنيكوف بشىء من الاشمئزاز :

ـ يا لك من مدع متفاخر !

فأجاب سفدريجايلوف وهو يضحك مقهقهاً :

ـ لا ، أقسم لك ! ... على أننى لا أنفى أقوالك . صحيح ... أنا مدع متفاخر !... لماذا لا أدعى وأتفاخر ما دام هذا لا يؤذى أحداً ؟ لقد قضيت سبع سنين فى الريف ، عند مارتا بتروفنا . لذلك فاننى ما ان

التق برجل ذكى مثلك حتى أرتمى عليـه • نعم •• برجل ذكى ، بل برجل يثير الاهتمـام كثيراً كذلك • نعم ، اننى أسـعد أكبر السـعادة بالتحدث معك قليلاً ، ناهيك عن أن نصف الكأس الذى شربته من الخمرة قد صعد الى رأسى ، غير أن هناك أمراً كان له كثير من ••• ولكننى أوثر أن أسكت عن ذلك الأمر فلا أتحدث عنه • الى أين أنت ذاهب ؟

كذلك قال سفدريجايلوف يسـأل راسـكولنيكوف على حين فجـأة مرتاعاً •

كان راسكولنيكوف قد نهض • لقد أزعجه أنه جاء الى هذا المكان ، وأحس باختناق فى صدره • انه مقتنع الآن أتم الاقتناع بأنه أمام أحقر وأدنأ وغد حملته الأرض على ظهرها فى يوم من الأيام •

قال سفدريجايلوف ملحاً :

ـ ابق قليلاً ! لا تتصرف هكذا ! انتظر ! اطلب لنفسك ولو فنجان شاى ! هيا اجلس ! أعدك بأن لا أكلمك فى ترهات ، أقصد فى ترهات عنى أنا ! اسـمع ، هل تريد أن أروى لك كيف انقـذتنى امرأة ، كما تقولون أنتم بلغتكم ؟ وسوف يكون هذا جواباً عن سؤالك الأول ، ذلك لأن تلك المرأة هى أختك • هل أستطيع أن أروى لك ••• ثم ان هذا سيتيح لنا أن نزجى الوقت •••

ـ قل ما تشاء ، ولكن آمل أن •••

ـ لا تقلق ••• اطمئن ••• ثم أن آفدوتيا رومانوفنـا لا يمكن أن توحى الا بأعمق الاحترام حتى لرجل يبلغ ما أبلغه أنا من الحطة والدناءة والتفاهة !

الفصل الرابع

بدأ سفدريجايلوف كلامه فقال :

ـ لعلك تعلم (ولقد ذكرتُ لك ذلك أنا نفسي على كل حال) انني قد أودعت في السجن لديون كانت عليّ . وكان المبلغ ضخماً لم يكن في وسعي أن أحاول سداده اطلاقاً . لا داعي الى الافاضة الآن في الكلام على الطريقة التي اشترت بها مارتا بتروفنا حريتي . هل تعرف مدى السحر الذي يمكن أن تستسلم له امرأة تحب ؟ ... لقد كانت مارتا بتروفنا امرأة شريفة مستقيمة ، ولم تكن بالغبية الحمقاء ، رغم أنها محرومة من أية ثقافة . فتصور أن هذه المرأة ، الشريفة الغيور ، قد ارتضت أخيراً ، بعد مشاجرات وملامات كثيرة كريهة ، أن تعقد معي نوعاً من ميثاق ظلت متقيدة به طوال مدة حياتنا المشتركة . يحسن أن أذكر أنها كانت أكبر سناً مني بكثير . وقد بلغت أنا من قلة الذوق ومن الصدق في الوقت نفسه انني أعلنت لها بوضوح قاطع أنه سيستحيل عليّ أن أظل وفياً لها وفاءً مطلقاً . فأغضبها هذا الاعتراف وأخرجها عن طورها ، رغم أن صراحتي قد أعجبتها بمعنى من المعاني فيما أعتقد . لقد قالت لنفسها : « معنى هذا أنه لا ينوي أن يخونني ما دام ينذرني سلفاً » . وذلك هو الأمر الأساسي في نظر امرأة غيور . وبعد دموع كثيرة قام بيننا ما يشبه التعاقد الشفهي : أولاً على أنني لن أترك مارتا بتروفنا قط ، بل أظل زوجها ؛ وثانياً على انني لن أتغيب أبداً الا باذنها ؛ وثالثاً على انني لن أتخذ خليلة ثابتة لها

صفة الخليلة ؟ ورابعاً على أن تسمح مارتا بتروفنا ، مكافأة لى على ذلك ، بأن أغازل الخادمات ، ولكن بشرط الحصول على موافقتها المضمرة ، وخامساً أن اتحاشى ، بمعونة الله ، أن أتعلق بحب امرأة من مستوانا ، وسادساً أن أكاشف مارتا بتروفنا بالحقيقة اذا حدث ، لا سمح الله ، أن استولى على حب قوى . على أن مارتا بتروفنا سرعان ما اطمأنت فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة . انها امرأة ذكية ، فلم تستطع أن ترى فى الا رجلاً فاسقاً ماجناً ، عاجزاً عن أى حب صادق وهوى قوى . لكن الذكاء والغيرة شيئان اثنان لا يتعارضان ، ومن هنا يأتى البلاء . ثم انك من أجل أن تحكم على أحد الناس حكماً حيادياً ، يحسن بك أن تتخلص من بعض الآراء السابقة والعادات اليومية ازاء البشر والأشياء التى تحيط بك . انى أعتمد على حسك السليم أكثر مما اعتمد على أية ملكة أخرى . لعلك سمعت عن مارتا بتروفنا سخافات كثيرة . والحق أنها كانت تتصف بكثير من العيوب الصغيرة المضحكة جداً . ومع ذلك لا أهاب أن أعترف لك باننى آسف أسفاً صادقاً على الأحزان الكثيرة التى سببتها لها . ولكن يكفى هذا ، فيما أعتقد ، « تأبيناً » للزوجة الرقيقة جداً من زوج هو أرق الأزواج طراً . لقد كنت أثناء مشاجراتنا أصمت فى أغلب الأحيان وأكظم كل غضب ، وكان هذا الوضع المهذب يبلغ هدفه ويحقق الغاية منه فى جميع الأحيان تقريباً . كان هذا الوضع يفرض مهابته على مارتا بتروفنا ، بل لقد كان يحظى برضاها واعجابها ، حتى أنها شعرت أحياناً باعتزاز بى . لكنها لم تستطع مع ذلك أن تحتمل تلك القصة التى جرت لى مع أختك . كيف رضيت أن تجازف فتدخل الى منزلها فتاة جميلة هذا الجمال الرائع لتكون معلمة ؟ اننى لا أفسر هذا لنفسى الا بأن مارتا بتروفنا امرأة سريعة التأثر والانفعال ، وأنها افتتنت بأختك . نعم ، لقد افتتنت بها حقاً . ولقد أدركت أنا منذ النظرة الأولى أن الأمور ستجرى مجرى سيئاً بالنسبة

الى ، حتى اننى قررت ـ هل تصدق ذلك ؟ ـ أن لا أرفع عينى نحو أختك . ولكن أختك ، آفدوتيا رومانوفنا ، قامت هى نفسها بالخطوة الأولى ، هل تصدق هذا ؟ وهل تصدقنى أيضاً اذا قلت لك ان مارتا بتروفنا قد مضت الى حد الغضب حين لاحظت أننى لا أكلمها عن أختك أبداً ، وأننى استقبل بغير اكتراث أو اهتمام الأحاديث المشبوبة التى كانت تسوقها لى عنها بغير انقطاع . لم أستطع أن أفهم حتى الآن ما الذى كانت تريد أن تصل اليه . وقد قصت على أختك ، طبعاً ، كل ما أمكنها أن تعرفه عنى . لقد كانت لها هذه العادة السيئة ، وهى أن تروى أسرارنا العائلية لجميع الناس وأن تشكونى للملأ كافة ، فكيف يمكن أن لا تفعل ذلك مع صديقة جديدة فتاة كأختك ؟ أغلب ظنى أنهما كانتا لا تتحدثان الا عنى ؛ ولا شك فى أن آفدوتيا رومانوفنا قد اطلعت على جميع الحكايات القذرة السرية التى كان الناس يتناقلونها عنى ... بل اننى لأراهن على أن شيئاً من هذا قد بلغ مسامعك أنت !

ـ فعلاً ! حتى ان لوجين اتهمك بأنك كنت السبب فى موت طفل. هل هذا صحيح ؟

أسرع سفدريجايلوف يجيب ممتعضاً :

ـ لا تحرك هذا الوحل كله ، أرجوك !... اذا كنت حريصاً حرصاً شديداً على أن تعرف كل هذه الحقارات ، فسأقص عليك خبرها يوماً فى الوقت المناسب ، أما الآن ...

ـ وقد حدثونى أيضاً عن خادم لا أدرى ما هو ، كان عندك فى الريف ، وقالوا انك كنت أنت السبب أيضاً ...

قاطعه سفدريجايلوف وقد فقد صبره فقداناً واضحاً :

ـ أرجوك !

وتابع راسكولنيكوف كلامه يقول بحنق متزايد :

ــ أتراه هو بعينه ذلك الخادم الذى كان بعد موته يعود يملأ غليونك ؟ لقد قصصت علىّ أنت نفسك ...

نظر اليه سفدريجايلوف بانتباه ، وخيّل الى راسكولنيكوف أنه يرى ابتسامة خبيثة تلم بتلك النظرة سريعة كالبرق. ولكن سفدريجايلوف سيطر على نفسه وأجاب بلهجة فيها أكبر التهذيب :

ــ نعم ، هو بعينه . أرى أنت أيضاً تهتم أشد الاهتمام بهذا كله ؟ فلك علىّ ، عند أول فرصة ، أن أرضى فضولك وأشبع حب الاطلاع لديك فى جميع النقاط . شيطان يأخذنى ! أرى أننى سأنتهى الى أن يعدنى جميع الناس شخصاً رومانسياً خيالياً . فاحكم ، بعد هذا ، مدى ما أدين به لمارثا بتروفنا من شكر وامتنان لأنها قصّت على أختك جميع هذه الأشياء السرية الشائقة ! لا أستطيع أن أتنبأ قطعاً بالأثر الذى شعرت به آفدوتيا رومانوفنا نحوى ، وكل ما أعلمه هو أننى سأستفيد .. فرغم الكره الذى أحسّت آفدوتيا رومانوفنا ازائى ، وهو كره طبيعى جداً على كل حال ، ورغم هيئتى المظلمة المتجهمة الكالحة عامةً ، فقد أشفقت علىّ أخيراً كما تشفق المرأة على انسان ضائع ! وحين يمتلىء قلب فتاة « بالشفقة » ، انما تتعرض لأكبر خطر . فهى تريد حتماً أن « تنقذ » ، أن ترد الى الصواب ، أن تحيى ، أن تبعث ... أن تفعل كل ما يمكن تخيله على هذا النمط من المعانى . وسرعان ما أدركت أنا أن الطائر الصغير قد يطير الى الشبكة من تلقاء نفسه ، وسرعان ما بادرت من جهتى الى اتخاذ احتياطاتى . يخيّل اليك أنك تقطب حاجبيك يا روديون رومانتش . أنت مخطىء : ان القصة كما تعلم ، قد اقتصرت على سفاسف (أوه ! اننى أسرف فى شرب الخمرة !) هل تعلم ؟ لقد أسفت دائماً على أن الأقدار لم تجعل ميلاد أختك فى القرن الثانى أو القرن الثالث ، بمكان من الأمكنة يمكن أن

تكون فيه بنت أمير أو حاكم أو وال في آسيا الصغرى فلو قد حدث ذلك اذن لكانت واحدة من أولئك النساء شهيدات التعذيب اللواتي كن يبتسمن حين كانت قضبان الحديد المحمى بالنار تمزق أثداءهن ، ولكانت مضت تواجه التعذيب مواجهة من تلقاء نفسها . ولو قد وُلدت في القرن الرابع أو في القرن الخامس لاعتزلت الناس ومضت الى صحارى مصر ثلاثين عاماً لا تغتذى الا بجذور النبات والرؤى ونشوة الوجد . انها لا تنتظر الا اللحظة التى ستتمكن فيها أخيراً من التضحية بنفسها في سبيل شخص ما ؟ بل انها لقادرة على أن تلقى بنفسها من النافذة اذا منعت من تلك التضحية بنفسها . لقد سمعت عن شخص اسمه السيد رازوميخين . انه فيما يبدو ، وكما يدل على ذلك اسمه * ، فتى ذكى عاقل لعله ابن أسرة من رجال الدين . فليسهر على أختك ، ليحطها برعايته ! الخلاصة : أحسب أننى فهمت آفدوتيا رومانوفنا ، وانى بذلك لفخور . ولكن المرء ، عند تعرفه الى شخص من الأشخاص ، يكون طائشاً بعض الطيش ، غبياً بعض الغباوة ، كما تعلم ... فهو يرى الأشياء في ضوء .. شخصى ، ولا يراها كما هي . ولكن لماذا هي جميلة ذلك الجمال كله ؟ ليس الذنب في هذا ذنبى ! الخلاصة ... اننى سرعان ما افتتنت بها افتتاناً شهوانياً لم يكن لى حيلة في دفعه . ان آفدوتيا رومانوفنا ذات خفر رهيب ، خفر لا عهد للمرء بمثله ، خفر لا يكاد يصدّق العقل وجوده (لئن كنت أقول لك هذا عن أختك فلأنه « واقع » . نعم ، انها رغم ذكائها ، ورغم فكرها المنفتح جداً ، فتاة ذات خفر شديد ... وهذا أمر قد يسيء اليها ويلحق بها أذى) . كان عندنا حينذاك خادمة فتاة اسمها باراشا * ، هي باراشا السمراء ذات العينين السوداوين الجميلتين التى جيء بها من قرية أخرى منذ برهة قصيرة ، والتى لم يسبق لى أن رأيتها في يوم من الأيام قبل ذلك . كانت حلوة جذابة حقاً ، ولكنها كانت على جانب من الغباء

لا يصدّق • فما أقبلتُ عليها حتى أجهشت باكية وملأت فناء المنزل بصرخات حادة فسرعان ما كان ذلك فضيحة وجرسة • وفى ذات مساء ، بعد العشاء ، دبّرت أفدوتيا رومانوفنا الأمور بحيث تلقانى وحيدةً فى ممر بين الأشجار بالحديقة فاذا هى « تطالبنى جازمةً » بأن أدع الفتاة المسكينة مرتاحة وأن لا أضايقها • ولعل ذلك كان أول حديث يجرى بينى وبينها فى خلوة • وقد أسرعت أقطع على نفسى عهد الشرف بأن ألبى رغبتها وأنفذ ارادتها ، وحاولت أن أظهر بمظهر المضطرب المستحى الخجل ، أى عرفت كيف أمثّل الدور فأحسن التمثيل • ومنذ تلك اللحظة تمت بيننا لقاءات كثيرة فى السر ، وحدثت مشاهد متكررة كانت فى أثنائها تمطرنى بالمواعظ والنصائح والملامات ، وتضرع الىّ أن أغيّر حياتى ، باكيةً ، نعم باكية ••• تصور ! هل تصدق هذا ؟ انظر الى أى مدىً يمكن أن يمضى حب الوعظ والنصح ! وطبيعى أننى حمّلت القدر تبعة جميع أخطائى ، وصوّرت نفسى فى صورة رجل ظامىء الى الضياء ، ثم لجأت أخيراً الى الوسيلة القصوى التى لا تخطىء هدفها من قلب المرأة قط ، ولا تخيب الظن فيها أبداً ، بل تحقق غايتها وتؤثر فى جميع النساء ، أعنى التملق بالمديح • لئن لم يكن فى العالم شىء أصعب من الصدق ، فلا شىء فى العالم أسهل من التملق • فالصدق اذا اندس فيه عشر معشار من كذب ، سرعان ما يخالطه نشاز فتقع فضيحة • أما التملق فانه اذا كان كذباً من أوله الى آخره ، يظل ساراً وممتعاً ، فالشخص يصغى اليه شاعراً بلذة ان لم تكن لذة سامية فهى لذة على كل حال • ومهما يكن التملق مفضوحاً فان نصف المديح على الأقل ينطلى على الممدوح • يصدق هذا على جميع طبقات الناس فى المجتمع • ان فى وسعك أن تغوى بالمديح أطهر فتاة فما بالك بغيرها ! لا أستطيع أن أتذكر ــ الا ويغلبنى الضحك ــ كيف أغويت فى ذات يوم من الأيام امرأة مخلصة كل الاخلاص

لزوجهـا وأولادها وفضـائلها ••• لكم كان ذلك مسـلياً ، ولكم كان سهلاً ! ومع ذلك كانت المرأة من أكثر النسـاء تمسـكاً بالفضيلة على طريقتها • وكان كل الأسلوب الذى اتبعته معها هو أننى أظهرت لها دائماً انبهارى بفضـائلها وعبـادتى لعفتها ! كنت أتملقها بالمديح دون تحفظ ، وكنت اذا اتفق لى أن أحصل منها على مصافحة باليد أو نظرة من العين ، ألوم نفسى أمامها على اننى انتزعت ذلك منها انتزاعاً بالقوة ، حتى لأتظاهر بأننى أعتقد أنها عارضت فى ذلك ، واننى ما كنت لأحصل منها على شىء اطلاقاً لولا أننى فاسد الأخلاق ، ولولا أنها فى براءتها وعفتها لم تستطع أن تكتشف فساد خلقى فانقـادت ببساطة وسـذاجة دون أن تشـتبه أو ترتاب ، الخ الخ • الخلاصة اننى وصلت الى تحقيق غاياتى وتنفيذ مآربى، وظلت السيدة مقتنعة بأنها عفـة طاهرة ، وأنهـا تقـوم بجميع واجباتهـا والتزاماتها وأنها لم تخطىء الا عرضاً : لذلك غضبت غضباً شديداً حين أعلنت لها بعد ذلك ـ وكنت على اقتناع تام بما أقول ـ أنها كانت تنشد اللذة مثلما كنت أنشدها أنا سواء بسواء • ولقد كانت المسكينة مارتا بتروفنا شديدة التأثر بالمديح ، عاجزة عن مقاومة سـلطانه عليها ، ولو قد شئت لجعلتها تورثنى جميع أموالها وأملاكها ، حتى أثناء حياتها (اننى أشرب كما تشرب بالوعة وأتيـه فى ثرثرات) • آمل أن لا تؤاخـذنى أو أن تحقـد علىّ اذا قلت لك الآن ان تلك الآثار نفسـها قد بدأت تظهر على آفدوتيا رومانوفنا • ولكننى أفسدت الأمر كله بحماقتى وقلة صبرى • لقد اتفق عدة مرات ، أثناء أحاديثى مع آفدوتيـا رومانوفنا (واتفق هذا فى احدى المرات خاصة) أن نفرت نفوراً رهيباً من تعبير عينىّ ، واشمأزت اشمئزازاً شديداً • الخلاصة أن لهيب الشهوة الذى كان يتوقد فى عينىّ بمزيد من القوة يوماً بعد يوم ، مع مزيد من الوقاحة فى الوقت ذاته ، قد أصبح كريهاً فى نفسها آخر الأمر • لا داعى الى أن أقصّ عليك

الأمر تفصيلاً . فالمهم أننا كففنا عن اللقاء . وارتكبت عندئذ غلطة جديدة . فقد طفقت أسخر أغلظ السخر من جميع تصرفاتها ومواعظها ، وعادت باراشا تنال الحظوة ، ولم تكن باراشا فى هذه المرة وحيدة . الخلاصة أن المنزل أصبح أشبه بمدينة سدوم . آ ... لو أنك رأيت ، مرةً واحدة ، يا روديون رومانتش ، كيف كانت تسطع عينا أختك حينذاك لعرفت مدى قدرتهما على الاشتعال والالتهاب ! صحيح أننى الآن سكران ، وأننى قد أفرغت منذ لحظة كأساً أخرى من الخمر ، ولكن ما أقوله لك انما هو الحقيقة . أؤكد لك أن تلك النظرات كانت تلاحقنى فى نومى . وأخيراً أصبحت لا أطيق حتى سماع حفيف ثوبها ، وصرت أتوقع حقاً أن توافينى نوبة صرع من لحظة الى أخرى . ما كان لى أن أصدق فى يوم من الأيام ، نعم ما كان لى أن أصدق فى يوم من الأيام قط أن من الممكن أن أصير الى مثل تلك الحالة من الخروج عن طوري. وأصبحت المصالحة أمراً لا بد منه . فهل تتصور ماذا فعلت حينذاك ؟ هل تتخيل مدى السخف الذى يمكن أن يقود اليه الحنق ! اياك أن تتسرع فى عمل شيء حين تكون حانقاً يا روديون رومانوفتش ! اننى وقد لاحظت أن أفدوتيا رومانوفنا فتاة فقيرة معدمة (لا تؤاخذنى اذا أنا استعملت هذا التعبير ...) ، وأنها تعيش من عرق جبينها وكدّ يمينها ، وأنها تقوم باعالة أمها واعالتك أنت (ما بالك تقطب حاجبيك من جديد ؟) ، قررت أن أقدم اليها كل ما أملك من مال ، وكان فى وسعى عندئذ أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، على شرط أن تقبل الهروب معى ، ولو الى هنا ، الى بطرسبرج . فلو قد رضيت أن تهرب لعاهدتها على أن أحبها ما حييت ، متى وصلنا ، ولوعدتها بالسعادة والهناء وهلم جرا أبد الدهر ، فلقد بلغت من التحمس ــ صدّقنى ان شئت ! ــ اننى لو أمرتنى أن أذبح أو أن أسمم مارتا بتروفنا من أجل أن أصبح زوجها هى ، لفعلت ذلك على الفور .

ولكن الأمر كله قد انتهى بالكارثة التى تعرف . ففى وسعك أن تفهم الغضب الشديد الذى شعرتُ به حين علمت أن مارتا بتروفنا قد جاءت بذلك الدعىّ الحقير لوجين تريد أن تزوجه أختك ، وذلك مشروع لا يختلف كثيراً عن مشروعى أنا فى الواقع . أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ أنت توافقنى على هذا الرأى ؟ أليس كذلك ؟ اننى ألاحظ على كل حال أنك أصغيت الىّ باتنباه شديد ... أيها الشاب الشائق ...

قال سفدريجايلوف هذا ثم ضرب المائدة بقبضة يده وقد نفد صبره. فأدرك راسكولنيكوف أن كأس الشمبانيا (أو الكأس ونصف الكأس) التى شربها جرعات صغيرة قد أحدثت فيه أثراً سيئاً ، لذلك قرر أن ينتهز هذه الفرصة وأن يستفيد من هذا الظرف . لقد كان شديد الريب فى سفدريجايلوف كثير الحذر منه .

قال فجأة ليحنقة مزيداً من الاحناق :

ـ فأستطيع أن استنتج مما أفضيت به الىّ أنك بمجيئك الى بطرسبرج انما كنت تطمع فى أختى وتبيّت لها شيئاً .

أجابه سفدريجايلوف قائلاً :

ـ دعنا من هذا ، أرجوك ... قلت لك ... ثم ان أختك لا تستطيع أن تطيقنى ، فهى تكرهنى كرهاً شديداً .

ـ أما أنها تكرهك فأنا واثق بهذا . ولكن من الممكن أن لا تكون هذه هى المسألة .

ـ أنت واثق بهذا ؟

قال سفدريجايلوف ذلك وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة سخرية. ثم تابع كلامه :

ـ انك على حق . انها لا تحبنى ، ولكنك لا تستطيع أن تضمن ما يجرى بين رجل وامرأته ، أو بين خليل وخليلته . هناك دائماً ركن صغير يغيب عن جميع الناس ولا يعرفه أحد غير الشخصين المعنيين . هل في وسعك أن تحلف أن آفدوتيا رومانوفنا كانت تنظر الى باشمئزاز ؟

ـ استنتج من بعض كلمات حديثك وتلميحاته أنك ما زلت تضمر، ازاء دونيا ، أهدافاً لست أصفها الا بأنها دنيئة !

ـ كيف ؟ أأنا أفلتت مني كلمات وتلميحات من هذا النوع ؟

كذلك سأله سفدريجايلوف وقد ارتاع ارتياعاً ساذجاً جداً ، ولكن دون أن يهتم أقل اهتمام بالنعت الذى نعت به راسكولنيكوف أهدافه .

قال راسكولنيكوف :

ـ بل انها ماتزال تفلت منك ! فلماذا ارتعت هذا الارتياع كله مثلاً ؟ نعم ، ما الذى يخيفك الى هذا الحد ؟

ـ أنا مرتاع ؟ أنا خائف ؟ خائف منك أنت ؟ ألا ان الأَوْلى أن تخاف أنت منى « أيها الصديق العزيز » ؟ ما هذا الكلام الصبيانى ؟ على اننى سكران ... أنا أدرك ذلك . اننى أسرف في الكلام ، أسرف في الكلام كثيراً ... لعن الله الخمرة ! هيه ! أنت ! اعطنى ماء !

قال سفدريجايلوف هذا ، وتناول الزجاجة فرماها من النافذة بغير تحرج . وجاءه فيليب بابريق ماء .

واستأنف سفدريجايلوف كلامه فقال وهو يبل منشفة ويضعها على رأسه :

ـ وهذه سخافات على كل حال .. اننى أستطيع أن أسقط شكوكك كلها بكلمة واحدة . هل تعلم مثلاً أننى سأتزوج ؟

ـ سبق أن قلت لي هذا ؟

ـ سبق أن قلت لك هذا ؟ حقاً ؟ لست أتذكر . على كل حال ، لا شك أنني لم أقله جازماً ، لأنني لم أكن قد رأيت خطيبتي . وما كان الأمر حتى ذلك الحين الا فكرة أو مشروعاً . أما الآن فان لي خطيبة وقد أصبح الأمر واقعاً . ولولا شئون مستعجلة لدعوتك أن تصحبني اليها ، لأنني أريد أن أطلب منك بعض النصائح . آ ... لم يبق لي الا عشر دقائق ! خذ ... انظر في ساعتي . ولكن يجب أن أحكي لك .. ذلك أن زواجي حادثة شائقة فريدة في نوعها . الى أين تمضي ؟ أما تزال تريد الانصراف ؟

ـ لا ... الآن لن أنصرف .

ـ لن تنصرف ؟ سوف نرى ! نعم ، سأصطحبك الى هناك لأعرّفك بخطيبتي ، ولكن لا الآن ، فالآن لا بد أن نفترق ، تمضي أنت يمنةً وأمضي أنا يسرة . ان تلك المرأة التي تسمى ريسليش والتي أقيم عندها في هذه الفترة ، لا شك أنك سمعت عنها ، أليس كذلك ؟ عجيب ... ألم تسمع عنها ؟ تلك المرأة التي يقال انها هي السبب في أن فتاة صغيرة انتحرت غرقاً في وسط الشتاء . آ ... ان تلك المرأة هي التي دبّرت الأمر كله . قالت لي : « لا شك أنك تضجر وتسأم وأنت وحيد على هذه الحال ، فيجب أن تسرّي عن نفسك قليلاً » . والحق أنني امرؤ قاتم المزاج مكتئب الطبع حزين النفس . هل تظنني مرحاً ؟ أبداً ... أنا سوداوي . لست أؤذي أحداً ، وأظل قابعاً في ركني ، ولكن يتفق لي أن أبقى ثلاثة أشهر صامتاً لا أفتح فمي بكلمة . ولقد كانت تلك القوادة ريسليش تخفي خطة وتبيت فكرة : كانت تقول لنفسها ان امرأتي القادمة سوف تضجرني آخر الأمر ، وانني سوف أهجرها ، فتقع عندئذ بين يديها هي ريسليش ، فتجول بها هنا وهناك في بيئتنا أو في بيئة أرفع . قالت لي

ان للفتاة أباً عجوزاً خرفاً هو موظف محال على التقاعد أصبح لا يبارح مقعده منذ ثلاث سنين لأنه لا يستطيع أن يحرك ساقيه . وأضافت الى ذلك أن أمها امرأة راجحة العقل متسامحة ، وأن أخاها يشغل وظيفة من الوظائف فى الاقاليم ولكنه لا يساعد ذويه ؛ وأن لها أختاً متزوجة لا توافيهم بشىء من أخبارها ، وكأن الأسرة ليس عندها عدد كاف من الأفواه تطعمه ، فكفلت طفلين صغيرين من أقربائها ؛ وعلى أثر ذلك أُخرجت الفتاة من الكوليج قبل أن تتمّ دراستها . وستبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد شهر ، فيمكن عندئذ تزويجها ، أى يمكن أن أتزوجها أنا . وقد ذهبنا أنا وريسليش الى أهل الفتاة . مشهد مضحك. عرفتهم بنفسى : ملاّك ، أرمل ، أسرة نبيلة ، علاقات عالية ، ثروة طائلة. فما قيمة أن يكون عمرى خمسين عاماً ، وأن يكون عمر الفتاة ست عشرة سنة ؟ من ذا الذى يمكن أن يتوقف عند أمر تفصيلى هو هذا الفرق فى السن ؟ ألست زوجاً مناسباً ؟ بل ألست زوجاً ممتازاً ؟ هأ هأ هاَ !... ليتك رأيتنى وأنا أتحدث مع أبيها وأمها ! ان المرء ليدفع مالاً كثيراً ثمن رؤيته لهذا المشهد ! وظهرت الطفلة فجأة ، فانحنت تحيى الضيوف كما يفعل الأطفال ... تصور أنها ما تزال ترتدى الثوب القصير ! انها برعم ورد حقاً ، يصطبغ خداها بحمرة قانية كلون الشفق عند الفجر (كانت قد أُطلعت على الأمر طبعاً) . لا أدرى ما رأيك فى الفتيات الصغيرات. أما أنا فرأيى أن هذه السنين الست عشرة ، وتلك العيون الصغيرة التى ما تزال عيون أطفال ، وذلك الخجل ، وهذه الدموع التى تسكب حياء وخفراً ، أن هذا كله أجمل جمالاً من كل جمال . ناهيك عن أن الفتاة كانت جميلة كجمال صورة . شعر أشقر خفيف متموج ، شفتان مكتنزتان قرمزيتان ، قدمان صغيرتان . عجيبة من العجائب !... ولقد تعارفنا . ثم أعلنت أننى فى عجلة من أمرى ، لأسباب عائلية . لذلك تمت الخطبة

في غداة ذلك اليوم ، اي امس الاول • ومنذئذ أصبحت أجلسها على ركبتي متى وصلت اليهم ، ثم لا اتركها ••• فيحمر خداها من جديد حتى لتصبح بلون الشفق عند الفجر ، وآخذ ألتهمها بالقبل التهاما ! وأمها تقنعها طبعا بان الأمور يجب أن تجري على هذا النحو ، لانني ساصبح زوجها • الخلاصة : لذة ما بعدها لذة ! ربما كانت حالة الخطيب هذه احلى وأمتع من الحالة التي ستتلوها ، أعني حالة الزوج • فها هنا نجد « الطبيعة والحقيقة » * كما يقال ! هأ هأ !••• لقد تحدثت معها مرة أو مرتين • ان الصبية ليست بالغبية البتة ، وانها في بعض الأحيان لتنظر الي نظرة تشعل حريقاً في كياني كله • هل تعلم ؟ ان لها وجهاً من نوع وجه « المادونا » التي صورها رافائيل • ان « مادونا سكستين » لها وجه عجيب تماماً ، وجه يعبر عن حزن يلم به جنون غيبي ، ألم يخطف هذا بصرك ؟ فاعلم اذن أن وجه خطيبتي فيه شيء من هذا النوع • وما ان تمت خطبتنا حتى حملت اليها هدايا بألف وخمسمائة روبل : حلية من الماس ، وحلية أخرى من لؤلؤ ، ومجموعة فضية من أدوات الزينة ، كبيرة بهذا الحجم ، مع جميع لوازمها ••• فاذا بوجه « المادونا » الصغير يشرق ويزدهر • ثم أجلستها على ركبتي ، ولعلني بلغت في ذلك من قلة التحرج أنها احمرت احمراراً شديداً وطفرت الدموع من عينيها • ولكنها لم تشأ أن تفضح نفسها رغم أن نفسها كانت مشتعلة كل الاشتعال • وخرج الجميع لحظة ، فاصبحنا وحيدين ، أنا وهي ، فاذا هي تبادر فجأة فتحيط عنقي بذراعيها الصغيرتين وتقبلني (من تلقاء نفسها هذه المرة) ، وتحلف لتكونن لي زوجة مطيعة طيبة وفية ، ولتسعدنني ، ولتقفن على هذا حياتها كلها ، كل لحظة من حياتها ؛ ولن تطالبني في مقابل ذلك الا بشيء واحد : « هو أن أحترمها ، أن احترمها فقط ، فهي لا تريد الا هذا ، ولا تريد هدايا ! » • لا شك في أنك توافقني على أن سماع اعتراف كهذا

الاعتراف ، فى خلوة ، من ملاك صغيرة فى السادسة عشرة من عمرها ، ترتدى ثوباً رقيقاً من قماش شفاف ، لها شعر مضفور متدلٍ على جبينها ، وقد احمرت وجنتاها من حياء العذارى وخفرهن ، وأخذت دموع الحماسة تتلألأ فى عينيها ، أقول لا شك فى أنك توافقنى على أن ذلك كله جذاب مغرٍ ! جذاب مغـرٍ ، هذا هو الوصف الصحيح ، أليس كذلك ؟ شيء يستحق أن يدفع المرء ثمنه ، هه ؟ ... اسمع ... سنذهب الى خطيبتى ، ولكن لا الآن !

ـ الخلاصة أن هذا الفرق الرهيب فى السن وفى الثقافة يثير رغبتك الشهوانية مزيداً من الاثارة ! هل من الممكن أن تفكر فعلاً فى الاقدام على زواج كهذا الزواج ؟

ـ لم لا ؟ طبعاً أفكر فى ذلك ! لكل امرىء أن يفكر لنفسه ، وأقدر الناس على خداع نفسه أنجحهم فى قضاء أيام سعيدة ! هأ هأ ! ولكن مابالك قد أصبحت رجلاً فاضلاً على حين فجـأة ؟ رأفة بى يا عزيزى ، لأننى امرؤ خاطىء مذنب ! هىء هىء هىء !...

ـ ولكنك عنيت بأولاد كاترين ايفانوفنا على كل حال ... كانت هناك بواعث تدفعك الى ذلك ... الآن فهمت كل شيء !.

قال سفدريجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً :

ـ أنا أحب الأطفال كثيراً ويمكننى بالمناسـبة أن أروى لك حادثة غريبة ما تزال تجرى حتى هذه السـاعة . لقـد طفت بمختلف الملاهى الموبوءة فى العاصمة منذ وصولى أول يوم ... أسرعت أطوف بها بعـد فراق سبع سنين ! لعلك لاحظت قلة حرصى على اعادة الصلة بينى وبين أصحـابى وأصـدقائى القـدماء . حتى ليمكننى أن أقول اننى أفر منهم

فرارى من الطاعون . يجب أن أقول لك اننى حين كنت عيش فى الريف عند مارتا بتروفنا كان ينتابنى ضيق شديد كلما تذكرت هذه الأماكن السرية التى يستطيع الانسان الخبير أن يجد فيها أشياء كثيرة ! تباً لى ! الشعب ههنا يسترسل فى السكر ، والشبيبة المثقفة تذوب وتضيع فى أحلام خيالية ونظريات عجيبة ، واليهود يهرعون من كل مكان ينهبون كل ما تصل اليه أيديهم من مال ، وسائر الناس يستسلمون فى أثناء ذلك للفسق والمجون . اذن لقد أرسلت الىّ هذه المدينة منذ الساعات الأولى رائحة مألوفة جداً . وسرعان ما وقعت فيما يسمى سهرة راقصة : هو ملهى موبوء فظيع ، ولكننى أحب هذه الأماكن حين تكون باعثة على الاشمئزاز . كان الراقصون مندفعين فى رقص « الكانكان » اندفاعاً محموماً مسعوراً قلما يرى المرء مثله فى هذه الأيام ، ولم نكن نرى مثله فى أيامنا أبداً . لقد تحقق تقدم فى هذا المجال أيضاً . وفجأة لمحت صبية لعلها فى الثالثة عشرة من عمرها ، ترتدى ثياباً لطيفة وتراقص سيداً جميلاً ، وأمامهما شاب آخر . وكانت أمها جالسة قرب الحائط تنظر اليها . هل تتخيل كيف كان الرقص ؟ لقد كانت الفتاة تشعر بخجل شديد . وهاهى ذى تحمر ، ثم يزداد حرجها وانزعاجها أخيراً فتأخذ تبكى . فيمسكها الراقص الجميل ، ويأخذ يدور بها ، ويقوم بألف حركة وحركة بذيئة ، والناس من حوله تضج بضحك صاخب . اننى فى مثل هذه اللحظات انما أحب جمهورنا خاصة ، حتى جمهور هذا النوع من ملاهى الليل . كان الحضور يضحكون ويصيحون قائلين : « مرحى ! مرحى ! لم يكن عليها الا أن ترفض المجىء الى هنا ! ليس هذا مكاناً للأطفال ! » . أما أنا فلم اكترث طبعاً . وسرعان ما حددت المكان الذى يناسبنى ، ومضيت أجلس قرب الأم . وبدأت أكلمها فقلت لها اننى انا أيضاً مارّ ببطرسبورج مروراً . وأضفت الى ذلك أن هؤلاء الناس جفاة غلاظ ليس لهم

فراسة تعرّفهم بمن يستحقون الرعاية والمداراة • وبعد أن أسمعتها أنني أملك مالاً كثيراً عرضت عليها أن أوصلهما هي وابنتها بعربة ، فقبلت وأوصلتهما ، فرأيت مسكنهما (انه غرفة مؤثثة حقيرة كانتا قد نزلتاها منذ وقت قصير حين وفدتا من الأقاليم) • وقالتا لي انهما تعدان زيارتي لهما شرفاً عظيماً • وعلمت بعد ذلك انهما لا تملكان قرشاً ، وانهما جاءتا الى بطرسبرج للقيام بمسساع لدى ادارة من الادارات • فعرضت عليهما خدماتي ، وقدمت اليهما مالاً • وعلمت عدا ذلك انهما بالمصادفة انما وقعتا في ذلك الملهى تلك الليلة ، فقد ظنتا أنه مكان لتعليم الرقص • وعرضت أن أساهم في اتمام ثقافة الفتاة بتعليمها اللغة الفرنسية ، وبتعليمها الرقص خاصة • فسرعان ما قُبل هذا العرض بفرح شديد ، وسرعان ما قيل لي ان هذا شرف كبير ••• وما تزال علاقتنا قائمة ، وما تزال زياراتي متتالية ••• سنذهب اليها معاً لتراها ان شئت ••• ولكن لا الآن !

ـ كفاك ! كفاك حكايات حقيرة دنيئة تبعث على الاشمئزاز ، ايها الانسان الفاسق ، المنحل ، المنحط !

ـ يا لك من شاعر ! يا لك من شيللر ! انظروا أين تختبيء الفضيلة ! هل تعلم أن صرخاتك هذه تغريني بأن أقصّ عليك المزيد من أمثال هذه الحكايات لأسمعك تطلق المزيد من هذه الصرخات ؟ هذه لذة حقيقية !

دمدم راسكولنيكوف يقول مبغضاً حاقداً :

ـ نعم ، لا شك أنني أبدو سخيفاً مضحكاً ، فأنا كذلك في نظر نفسي !

ضحك سفدريجايلوف ملء حلقه ، ثم نادى فيليب ، فدفع الحساب، ونهض لينصرف وهو يقول :

ــ نعم ... أنا سكران ... كفى حديثاً !... انها لذة حقيقية !..

صاح راسكولنيكوف يقول وهو ينهض أيضاً :

ــ كيف لا تشعر بلذة ... كيف لا تكون لذةً لرجل فاسق داعر من طينتك أن يقصّ مغامرات كهذه المغامرات وهو يحلم بمشاريع شيطانية أخرى من هذا النوع ، وأن يقصّ ذلك على انسان مثلى ؟... هذا يؤجج رغبتك ، ويهيج نفسك ، أليس كذلك ؟

قال سفدريجايلوف بشيء من الدهشة وهو يتفرس فى راسكولنيكوف:

ــ اذا كنت ترى هذا الرأى ، فانك اذن لمستهتر عظيم ... أو أن فيك لاستعداداً لهذا . انك تستطيع أن تدرك كثيراً من الأشياء ... وأن تصنع بها كذلك كثيراً من ... ولكن كفى ! يؤسفنى حقاً أن حديثنا كان قصيراً هذا القصر كله ، ولكنك لن تفلت منى هكذا ... اصبر قليلاً ...

خرج سفدريجايلوف من الحانة ، وتبعه راسكولنيكوف .

الحق أن سفدريجايلوف لم ينل منه السكر كثيراً . ان الشراب لم لم يصعد الى رأسه الا لحظة قصيرة ، وكان ثمله يتبدد مزيداً من التبدد شيئاً بعد شيء . كان هناك أمر هام جداً يشغل باله ، يشغل باله كثيراً ، فكان يقطب حاجبيه ، وكان انتظار هذا الشيء يقلقه اقلاقاً واضحاً ، ويثير أعصابه . ولم يفت راسكولنيكوف أن يلاحظ أن سفدريجايلوف قد غيّر

لهجته فى مخاطبته منذ لحظات ، وأنه أصبح يكلمه بمزيد من الفظاظة والسخرية .

واشتبه راسكولنيكوف فى أمر سفدريجايلوف ، فقرر أن يتبعه .

وصلا الى الرصيف .

ــ أنت تذهب يمنة وأنا أذهب يسرة ، اللهم الا أن يكون العكس ! المهم أن نفترق . الى اللقاء ، الى اللقاء ، سيسرنى أن أراك مرة أخرى.

قال سفدريجايلوف ذلك وسار يمنة فى اتجاه « سوق العلف ».

الفصل الخامس

سار راسكولنيكوف وراءه ، فصاح سفدريجايلوف يقول ملتفتاً اليه :

ـ ما معنى هذا ؟ أظن اننى قلت لك •••

ـ معنى هذا اننى لن أتركك قيد أنملة •••

ـ ماذا ؟ ماذا ؟

وتوقف الاثنان ، وأخذ كل منهما يروز صاحبه بنظرة خلال دقيقة •

وقال راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

ـ بعد جميع الحكايات التى رويتها لى وأنت فى شبه سكر ، يحق لى أن أتصور أنك لم تهجر مشاريعك الدنيئة فيما يتعلق بأختى ، بل وأن هذه المشاريع تشغلك الآن أكثر مما كانت تشغلك فى أى وقت مضى • أنا أعلم أن أختى تلقت فى هذا الصباح رسالة • ولقد كنت أنت قلقاً لا تستقر على حال • ومن الجائز جداً أن تكون قد عثرت على خطيبة جديدة ، ولكن هذا لا يبرهن على شىء ، فأنا أريد أن أتحقق من الأمر بنفسى •

لو سئل راسكولنيكوف أن يقول ما هو الأمر الذى يريد أن يتحقق منه بنفسه لارتبك أشد الارتباك •

قال سفدريجايلوف :

ـ ها ... هكذا ؟ أتريد أن أنادي الشرطة ؟

ـ نادها !

وتوقفا من جديد ، ومن جديد أخذ كل منهما يتفرس فى الآخر. وأخيراً تغَيّر تعبير وجه سفدريجايلوف ، فانه حين رأى أن راسكولنيكوف لم يخفف تهديده ، أسرع يصطنع هيئة تنم عن مرح ومودة وصداقة ، وقال :

ـ ما أغرب أمرك ! لقد تعمدت أن لا أكلمك فى قضيتك ، رغم أن الفضول ينهش قلبى نهشاً ... انها لقضية هائلة ! لقد آثرت أن أرجىء الكلام فيها الى مرة أخرى ... ولكنك قادر على أن تجعل الميت نفسه يفقد صبره وتثور أعصابه . تعال معى ان شئت ، ولكننى أنبّهك : ان علىّ أن أرجع الى البيت لحظةً لآخذ شيئاً من المال ، ثم أغلق الباب بالمفتاح ، ثم أقفز راكباً عربة من العربات لأمضى الى قضاء السهرة فى «الجزر» . فكيف تستطيع أن تتبعنى والحالة هذه ؟

ـ ان علىّ أن أذهب الى عمارتك أنا أيضاً ، لا الى بيتك أنت ، بل الى بيت صوفيا سيميونوفنا ، لأعتذر لها عن تخلفى عن حضور الجنازة .

ـ لك ما تشاء . ولكن صوفيا سيميونوفنا ليست فى بيتها . فقد ذهبت بالأولاد الى بيت سيدة هى صديقة قديمة لى تدير ملجأً للأيتام . لقد فتنت تلك السيدة بأن دفعت لها مبلغاً من المال لصغار كاترين ايفانوفنا الثلاثة ، كما وهبت مبلغاً آخر للملجأ الذى تديره . وقد قصصت عليها كذلك قصة صوفيا سيميونوفنا بنصها الكامل دون أن أخفى شيئاً . فكان الأثر الذى أحدثته فى نفسها هذه القصة أثراً عميقاً لا يوصف . وذلك هو السبب فى أن صوفيا سيميونوفنا قد دُعيت الى أن تذهب فى هذا اليوم

نفسه الى البيت الذى نزلته تلك السيدة مؤقتاً حين عادت من اجازتها منذ برهة .

ـ سأذهب مع ذلك الى صوفيا سيميونوفنا .

ـ افعل ما تشاء ، لكننى لن أصحبك . ما ذهابى الى هناك ؟ ثم ها نحن قد أوشكنا أن نصل . قل لى : يخيّل الىّ أنك انما تنظر الىّ نظرة الريبة هذه لأننى كنت مؤدباً مهذباً فلم أزعجك بأسئلة كان يمكن أن ... أنت تفهم عنى ! لقد بدا لك ذلك أمراً خارقاً ، أليس كذلك ؟ فهلاّ أظهرت أنت أيضاً شيئاً من الأدب والتهذيب !

ـ وهل كان أدباً وتهذيباً أن تتنصت على الأبواب ؟

قال سفدريجايلوف وهو يضحك :

ـ ها ... اذن ما زلت تتذكر هذا وتفكر فيه ! على كل حال ، كان سيدهشنى أن لا تثير هذا الموضوع ! هأ هأ هأ ! ولكن الواقع أننى لم أسمع الا بضع شذرات من جميع تلك المهازل التى كنت تقصها على صوفيا سيميونوفنا ... وقد فاتتنى خاتمة ذلك كله . قد أكون شخصاً متخلف الذكاء محدود العقل عاجزاً عن فهم أى شىء . ولهذا نفسه انما أناشدك الله يا صديقى أن تشرح لى ... أرجوك أن تنير عقلى على هدى مبادىء العصر ...

ـ أنت تكذب ! لا يمكن أن تكون قد سمعت شيئاً !

ـ عجيب ! أنا لا أتكلم عن هذا (رغم أننى سمعت بعض الأشياء). لا ، ان كل ما أريد أن أقوله هو أنك لا تنفك تئن وتتوجع . ان شيللر الذى يثوى فى نفسك يسبب لك اضطرابا فى كل لحظة . ثم أنت تريد الآن أن لا يتنصت أحد على الأبواب ! فاذا كنت قاسياً الى هذا الحد ، فهلمّ اعترف للسلطات وقل لها : « لقد ألمّت بى مصيبة ، لقد وقع خطأ

صغير فى تظرياتى الفلسفية » . أما اذا كنت مقتنعاً بأنه لا يجوز للمرء أن أن يتنصت على الأبواب، وأنه يجوز له أن يهشم رءوس العجائز الصغيرات اللواتى تقع عليهن يده ، فما عليك فى هذه الحالة الا أن تبادر فتهاجر الى مكان ما ، الى أمريكا مثلاً ... لا أدرى ... وانما يجب أن تفعل ذلك بأكبر سرعة . اهرب أيها الفتى ! لعله لم يفت الأوان بعد . اننى أكلمك صادقاً وأخلص لك النصح . ماذا ؟ هل يعوزك المال اللازم للسفر ؟ سأعطيك ما أنت فى حاجة اليه .

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً باشمئزاز :

ـ لا يخطر هذا ببالى على الاطلاق .

ـ أفهم ذلك . ولا تكلف نفسك عناء الكلام ، فان لك أن لا تقول شيئاً البتة . اننى أفهم المسائل التى تدور فى رأسك ... هى مسائل .. من نوع أخلاقى ، أليس كذلك ؟ أنت تتساءل هل تصرفت التصرف الذى يليق بانسان ، بمواطن ؟ ولكن دع هذه المسائل ، انبذها ! فيم يمكن أن تفيدك الآن ؟ هىء هىء هىء ! والا ، ما كان عليك أن تزج نفسك فى هذا الأمر وأن تشرع فى عمل لست قادراً على المضى فيه الى النهاية . هيَّا هشِّم دماغك ! لا تحب ذلك ؟

ـ لكأنك تحاول احناقى عامداً لأنصرف .

ـ غريب أمرك ! لقد وصلنا ، فما عليك الا أن تكلف نفسك عناء صعود السلم ! ها هو ذا باب صوفيا سيميونوفنا . انظر . ليس فى بيتها أحد . ألا تصدقنى ؟ اسأل اذن آل كابرناؤموف . انها تترك لهم المفتاح دائماً . وهذه هى « السيدة » كابرناؤموف بنفسها على كل حال . ماذا ؟ (انها صماء قليلاً) . هل خرجت صوفيا سيميونوفنا ؟ فالى أين ذهبت ؟ ها قد سمعت أنها ليست فى بيتها وأنها لن ترجع الا فى ساعة متأخرة من

الليل . تعال اذن معي ، الى بيتي . كنتَ تريد أن تجيء اليَّ فعلاً ، أليس كذلك ؟ فها نحن في بيتي ! ليست السيدة ريسليش هنا . انها لا تنقطع عن الحركة ، لكنها امرأة طيبة ، أؤكد لك ؛ وفي وسعها أن تفيدك كثيراً اذا أنت أظهرت شيئاً من التعقل . انظر : هأنا ذا آخذ من مكتبي سنداً مالياً (وأنت ترى أنني أملك سندات كثيرة أخرى) ، غير أن السند سيبدَّل منذ هذا المساء نقوداً رنانة . هل رأيت ؟ لم يبق لدي وقت أضيعه . هأنا ذا أغلق مكتبي ، وأغلق باب الشقة ، وها نحن نهبط السلَّم . هل تريد أن نركب عربة ؟ انني ذاهب الى « الجزر » كما تعلم. هل يسرك أن تقوم بجولة صغيرة بالعربة . انظر : هأناذا آخذ هذه العربة ، وأطلب من الحوذي أن يقودني الى جزيرة ايلاجين . ماذا ؟ أترفض ؟ أنت منهوك القوى ؟ هيَّا ... لنقم بجولة صغيرة معاً ! أحسب أن المطر سيهطل ، ولكن لا ضير ، سنرفع غطاء العربة .

كان سفدريجايلوف قد استقر في العربة . واعتقد راسكولنيكوف، في تلك اللحظة على الأقل ، أن شبهاته ليس لها ما يسوِّغها . فاستدار دون أن يجيب بشيء ، وسار في اتجاه « سوق العلف » . ولو قد التفت الى وراء لرأى سفدريجايلوف ينقد الحوذي أجره بعد مائة خطوة ، ويعود يمشي على الرصيف . ولكن راسكولنيكوف لم يكن قادراً على أن يرى شيئاً ، وكان قد انعطف يقطع ناصية الشارع . ان اشمئزازاً كان يدفعه بعيداً عن سفدريجايلوف . هتف يتساءل رغم ارادته : « كيف أمكنني ، ولو خلال لحظة قصيرة ، أن انتظر شيئاً من هذا الانسان الدنيء الحقير ! من هذا الوغد السافل المنحط ! » . ولكن الحقيقة هي أن حكم راسكولنيكوف على سفدريجايلوف كان فيه شيء من تسرع وتعجل. ومهما يكن من أمر فان الجو الذي خلقه سفدريجايلوف كان يضفي على سفدريجايلوف شيئاً من شذوذ ، بل ويُحيطه بشيء من السر . وظل

راسكولنيوف مقتنعاً بأن سفدريجايلوف لن يدع أخته في سلام • ولكن التفكير واعادة التفكير في هذا الأمر كانا قد أصبحا يشقان كثيراً على نفس راسكولنيكوف •

فلما أصبح وحيداً لم يلبث بعد عشرين خطوة أن استرسل فيأحلام عميقة على عادته • حتى اذا وصل الى الجسر توقف قرب الافريز وأخذ يتأمل الماء ، بينما كانت آفدوتيا رومانوفنا تتأمله هو • كان قد قاطعها عند أول الجسر تماماً ، ولكن دون أن يلاحظها • وهذه أول مرة تلتقي فيها دونيا بأخيها في الشارع على هذا النحو ، وقد انقبض صدرها رعباً وذعراً حين رأته ، وتوقفت لا تدرى أتناديه أم لا • ثم لم تلبث أن لمحت سفدريجايلوف على حين فجأة ، متجهاً نحو « سوق العلف » بخطى سريعة ، وكأنه يسير محاذراً متخفياً ؛ ولم يدخل الجسر ، بل توقف على الرصيف ، متنحياً بعض التنحي ، حتى لا يراه راسكولنيكوف • كان قد لاحظ دونيا منذ برهة طويلة ، وهو يحرك لها يديه باشارات فهمت دونيا منها أنه يحضها على أن لا تنادي أخاها ، وأن تتركه وشأنه ، وأن تلحق به هو •

وذلك ما فعلته دونيا : فها هي ذا تتجاوز أخاها ، دون أن تقول كلمة ، وها هي ذي تقترب من سفدريجايلوف •

دمدم سفدريجايلوف قائلاً لها :

ــ تعالي بسرعة ! لا أريد أن يعلم روديون رومانتش بموعدنا • اعلمي انني خارج من حانة قريبة وافاني فيها ثم لم أعرف كيف أتخلص منه الا بكثير من المشقة والعناء ! لا أدري كيف سمع بأمر الرسالة التي بعثت بها اليك ، وهو الآن يشتبه في أن هناك شيئاً ما • أرجو أن لا تكوني أنت التي بحت له ببعض الأسرار • ولكن اذا لم تكوني أنت ، فمن عسى يكون ؟•••

قاطعته دونيا تقول :

ـ لقد انعطفنا وقطعنا ناصية الشارع ، فأصبح أخى لا يستطيع أن يرانا . لن أتبعك الى أبعد من هذا المكان . فقل لى كل شيء هنا . اننا نستطيع أن نتكلم فى الشارع .

ـ أولاً : لا يمكن أن يقال هذا فى عرض الشارع . ثانياً : ينبغى أن تسمعى أيضاً صوفيا سيميونوفنا . ثالثاً : هناك وثائق يجب أن أظهرك عليها . أخيراً : اذا كنت ترفضين أن تجيئى الى بيتى فسوف أمتنع عن كل شرح ، وسوف أنصرف فوراً . هذا وأرجوك أن لا تنسى أن سراً شائقاً جداً ، متعلقاً بأخيك الحبيب ، يوجد بين يدى .

توقفت دونيا مترددة ، ورشقت سفدريجايلوف بنظرة نافذة ، فسألها سفدريجايلوف هادئاً :

ـ ممّ تخافين ؟ ليست المدينة كالريف . ثم انك فى الريف قد أسأت الىّ أكثر مما أسأت اليك . لذلك ...

ـ هل أطلعت صوفيا سيميونوفنا ؟

ـ لا ، لم أقل لها كلمة واحدة ، حتى اننى لست واثقاً كل الثقة بأنها الآن فى بيتها . ولكن أغلب الظن أنها هناك . لقد دفنت اليوم قريبتها ، فما هذا يوم زيارات تقوم بها . على كل حال ، لن أحدث أحداً فى هذا الأمر الآن ، حتى ليؤسفنى أننى أطلعتك عليه ، فان أقل طيش يساوى هنا وشاية . انظرى : هذا هو المنزل الذى أقطن فيه ، أمامنا . والبواب يعرفنى جيداً . هذا هو يحيينى كما ترين . انه يلاحظ أن معى سيدة . وطبيعى أن صورة وجهك قد نقشت الآن فى ذاكرته . وينبغى لهذا أن يطمئنك اذا كنت تخافين منى وتشكين فىّ . اغفرى لك هذه

الفظاظة فى مخاطبتك . أنا هنا مستأجر عند مستأجرين ، وليس يفصلنى عن صوفيا سيميونوفنا الا حائط ، فهى أيضاً مستأجرة عند مستأجرين . الطابق كله مسكون ، فممّ خوفك ؟ ألا أن هذا الخوف لخوف طفلة صغيرة ! أأنا مخيف الى هذه الدرجة ؟

قال سفدريجايلوف ذلك وهو يصطنع ابتسامة أراد لها أن تعبّر عن الطيبة والسماحة ، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب حداً لا يستطيع معه أن يحسن التمثيل . كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً ، وكانت أنفاسه مختنقة. وكان يتعمد أن يتكلم بصوت قوى ليخفى اضطرابه المتزايد ، ولكن دونيا لم تلاحظ هذا الاضطراب . لقد ساءها كثيراً ما قاله عن خوفها الذى يشبه خوف الأطفال وعن هيئته المخيفة فى نظرها .

قالت بلهجة ظاهرها هادىء ، وكان وجهها شاحباً شحوباً شديداً :

ـ رغم اننى أعدك رجلاً لا شرف له ... فاننى لا أخاف منك البتة . تقدمنى !

توقف سفدريجايلوف أمام باب صونيا .

ـ اسمحى لى أن أسأل هل هى فى بيتها . لا ، ليست فى بيتها . يا لسوء الحظ ! لكننى أعلم أنها قد تعود بين لحظة ولحظة . لئن تغيبت ، فما ذلك إلا لأنها ذهبت تزور سيدة لتبحث معها أمر الأيتام . فاذا لم ترجع خلال عشر دقائق فسوف أرسلها اليك فى هذا اليوم ان رغبت فى ذلك . هذا مسكنى ، وهاتان هما الحجرتان اللتان أحتلهما . وراء هذا الحاجز تسكن صاحبة البيت السيدة ريسليش . والآن أنظرى هنا ، سوف أظهرك على وثائقى الأساسية . من غرفة نومى يفضى هذا الباب الذى ترين الى غرفتين خاليتين كل الخلو ، معدّتين للتأجير . انظرى .. يجب أن تنتبهى اليهما أكبر الانتباه .

كان سفدريجايلوف يشغل غرفتين مؤثثتين واسعتين . أجالت دونيا بصرها فيما حولها مرتابة ، لكنها لم تلاحظ شيئاً خاصاً يلفت النظر ، لا في أثاث الغرفتين ولا في ترتيبهما ، رغم أنها كان يمكن أن تنتبه الى أن شقة سفدريجايلوف تقع بين بيتين غير مسكونين تقريباً ، يصل المرء اليهما لا من الممر رأساً ، بل باجتياز غرفتين خاليتين لصاحبة البيت . وفتح سفدريجايلوف باباً مقفلاً بالمفتاح ، يقع في آخر غرفة نومه ، فأرى دونيا المسكن الحالي المعدّ للتأجير .

وقفت دونيا عند العتبة لا تدرى لماذا يدعوها سفدريجايلوف الى أن تنظر ، ولكن سفدريجايلوف أسرع يمدها بالشروح فقال لها :

ـ انظرى هنا ، الى هذه الغرفة الثانية . لاحظى هذا الباب . انه مغلق بالمفتاح . وقرب هذا الباب يوجد كرسى . انه الكرسى الوحيد الذى يمكن العثور عليه فى هاتين الغرفتين . أنا الذى جئت به الى هنا لأحسن التنصت بغير عناء ولا تعب . ووراء هذا الباب مباشرة ، توجد مائدة صوفيا سيميونوفنا . لقد كانت جالسةً الى هذه المائدة تتحدث مع روديون رومانتش . فمن موضع جلوسى على هذا الكرسى ، فى هذا المكان نفسه ، ظللت أنا أتنصت الى حديثهما مساءين متتاليين ، خلال ساعتين فى كل مرة . فعرفت بعض الأمور طبعاً . ما رأيك ؟

ـ تنصت على الباب ؟

ـ نعم ، تنصت على الباب. والآن فلنذهب الى غرفتى. هنا لا نستطيع أن نجلس .

قال سفدريجايلوف هذا وقاد آفدوتيا رومانوفنا الى الغرفة الأولى التى يتخذها صالوناً ، ودعاها الى الجلوس . وجلس هو الى الطرف الآخر من المائدة ، ولكن عينيه كانتا تسطعان بذلك اللهيب نفسه الذى كان قد

روّع دونيا ترويعاً شديداً في ذات يوم • ارتعشت دونيا ؟ ومرةً أخرى نظرت فيما حولها مرتابة • كانت لا تريد أن تظهر ارتيابها ، غير أن حالة العزلة في شقة سفدريجايلوف أثارت دهشتها وقلقها أخيراً ، فأرادت أن تسأله هل صاحبة الدار موجودة في الدار على الأقل ، ولكن كبرياءها صدّتها عن هذا السؤال • وكان قلبها على كل حال يعاني ألماً أشد كثيراً من كل ألم يمكن أن تعانيه في سبيل نفسها • وكان هذا الألم يعذبها عذاباً شديداً •

بدأت تتكلم فقالت وهي تضع رسالته على المائدة :

ـ هذه رسالتك • هل ما أوردته فيها ممكن ؟ انك تلمع الى جريمة ارتكبها أخي • لا تحاول أن تتهرب وأن تتملص الآن • ان الماعك أوضح من أن تنكره • واعلمْ أنني حتى قبل أن أتلقى رسالتك كنت سمعت عن هذه الحكاية الدنيئة التي لا أصدق منها حرفاً واحداً • ان افتراضاً كهذا الافتراض منحط وسخيف في آن واحد • انني أعلم كيف لُفّقت هذه الخرافة • لا تستطيع أن تقدم أي برهان على ••• لقد وعدتني بأن تبرهن : فتكلم اذن ! ولكن عليك أن تعلم سلفاً انني لن أصدّقك • لا ، لن أصدقك ! لا ، لن أصدّقك !

قالت دونيا هذه الكلمات متدفقة ، واحمر وجهها احمراراً شديداً من فرط الانفعال في لحظة •

قال سفدريجايلوف :

ـ ولكن اذا كنت لا تصدقينني فلماذا جئت الى بيتي وحيدة ؟ نعم ، لماذا جئت الى بيتي ؟ هل بدافع الفضول وحده ؟

ـ لا تعذبني ! تكلم ! تكلم !

ــ لا شك فى أنك فتاة شجاعة . لقد ظننت أنك ستطلبين من السيد رازوميخين أن يصحبك الى هنا . لكنه لم يظهر لا معك ، ولا حولك . لقد نظرت ملياً فلم أره . هذه شجاعة منك . أنت تريدين اذن أن تنقذى أخاك روديون رومانتش ! على كل حال ، فان كل ما فيك عظيم ، رائع ! ... أما أخوك ، فماذا أقول لك عنه ؟ لقد رأيته بنفسك ، فما رأيك فى حالته ؟

ــ أرجو أن لا تكون حالتـه هذه هى الأسـاس الذى بنيت عليك اتهامك اياه !

ــ لا ، لا ، لم أبن اتهامى على حالته فحسب ، بل على أقواله أيضاً. على كل حال ، لقد جاء الى صوفيا سيميونوفنا مساءين متتالين ، فجلسا فى المكان الذى أريتك اياه . وهناك اعترف لها بكل شىء ، اعترافاً تاماً . انه قاتل . قتل العجوز المرابية التى كان قد رهن عندها أشياء ، وقتل اختها المتـاجرة التى تسـمى اليزابت والتى دخلت مصـادفةً بينما كان يقتـل العجوز . قتلهما كلتيهما بساطور جاء به لانفاذ جريمته . قتلهما ليسرق ، وقد سرق . أخذ مالاً ، وأخذ أشـياء صـغيرة !... أنا انما أروى لك ما رواه هو نفسه ، كلمةً كلمةً ، لصوفيا سيمونوفنا التى تعرف وحدها السر والتى لم تشـارك فى جريمـة القتـل أية مشـاركة ، لا بالقـول ولا بالفعـل ، حتى لقـد روعتهـا هذه القصـة كما تروّعك أنت الآن . لا تخافى ! لن تشى به !

تمتمت دونيا تقول وقد ابيضت شفتاها ، واختنق صدرها :

ــ هذا مستحيل ! مستحيل ! ليس هناك أى سبب يدفعه الى ذلك ! ليس هناك أى باعث يحضه على ذلك ! ... هذا كذب ! كذب فظيع !..

ــ لقد سرق . هذا هو الدافع الوحيد . أخذ مالاً ومجوهرات .

صحيح أنه ، كما قال ، لم ينتفع بذلك المال ولا بتلك المجوهرات ، بل مضى يخبيء كل شيء تحت صخرة ما تزال تدفن تحتها المال والمجوهرات جميعاً . ولكن السبب في ذلك هو أنه لم يجرؤ ...

صاحت دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها واثبة :

ــ ولكن هل يُعقل أن يكون قد سرق ؟ هل يمكن أن يكون قد راودته هذه الفكرة حقاً ؟ انك تعرفه ، انك رأيته ، فهل يمكن أن يكون لصاً سارقاً ؟

لكأنها كانت تتضرع الى سفدريجايلوف . كان يبدو أنها نسيت خوفها وذعرها .

ــ هناك يا آفدوتيا رومانوفنا ألوف وملايين من أصناف السارقين : رب رجل يسرق وهو يدرك في قرارة نفسه أنه يرتكب عملاً سيئاً . وقد سمعت مرةً عن رجل نبيل المحتد كريم النفس أنه سلب عربة بريد ، فمن يدري ؟ لعله حين فعل ذلك كان يظن أنه يقوم بعمل محمود ؟ لو كنت في مكانك لدُهشت دهشتك هذه نفسها ، ولو روى لي هذه القصة شخص آخر لما صدَّقته . ولكني لا أستطيع أن أكذِّب أذنيَّ . ان أخاك قد بسط لصوفيا سيميونوفنا كافة الدوافع الذي حضته على ارتكاب فعلته، فأبت هي نفسها أول الأمر أن تصدّق ، ولكنها لم تملك أخيراً الا أن تصدِّق ، حين رأت هيئته ... فهناك الآذان ، وهناك الأعين أيضاً .

ــ وما هي تلك الدوافع ؟

ــ تلك حكاية طويلة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا . كيف أشرح لك؟ لقد اعتمد على نظريته تلك المعروفة التي تجيز الجريمة على شرط أن تكون تلك الجريمة ذات هدف عادل نبيل ... فعلة شر واحدة في مقابل مائة

فعل من أفعال الخير ! ثم ... أليس يشق على نفس فتى موهوب جداً ، زاخر بكبرياء لا حدود لها ، أن يحس أنه لو ملك ثلاثة آلاف روبل فقط لتغير مستقبله كله ، وأن لا يستطيع الحصول على ذلك المبلغ ؟ أضيفي الى ذلك حالة الحنق المرضي الناشيء عن جوعه المزمن ، وعن سكناه في حجرة ضيقة مسرفة في الضيق ، وعن ارتدائه اسمالاً بالية وخرقاً ممزقة ، وعن شعوره بكل ما في وضعه الاجتماعي من بؤس وشقاء ، بالاضافة الى وضع أمه وأخته. وهناك ، فوق ذلك كله ، الطموح ، والأنفة، والغرور، وربما عواطف طيبة أيضاً ... الله أعلم ! صدقي أنني لا أتهمه . ثم ان اتهامه ليس شأني أنا. وهناك أيضاً نظريته الصغيرة تلك ـ هي نظرية كأية نظرية أخرى * ـ تلك التي تذهب الى أن الانسانية تنقسم الى فئتين ، فئة الأفراد المواد وفئة الأفراد الأفذاذ الخارقين أي الأفراد الذين يجيز لهم مستواهم العقلي أن لا يصدّهم أي قانون من القوانين ، فهم الذين يفرضون القوانين على غيرهم ، أي على أولئك الذين تتألف منهم فئة الأفراد المواد ، الذين يتألف منهم القطيع ، الذين هم الغبار ! نظرية لطيفة كأية نظرية أخرى ، أليس كذلك ؟ لقد فتنه نابوليون كثيراً ، أو قولي انه انقاد لاغراء ذلك الرأي الذي يرى أن العباقرة لا يكترثون لحالات الظلم الفردية ، بل يتخطونها فلا يرتبكون بأمور هينة يسيرة . ولقد تخيل ، فيما يبدو ، أنه هو نفسه عبقري ؟ أو قولي على الأقل انه كان مقتنعاً بهذا خلال مدة من الزمن . وقد تعذب كثيراً كذلك ، وما يزال يتعذب ، فهو يدرك الآن أنه ان استطاع أن يضع نظرية ، فلقد عجز عن المضي قُدُماً بلا تردد ؛ أي لقد أدرك أنه ليس عبقرياً . وهذا الادراك أمر يشعر منه الفتى ، اذا كانت نفسه زاخرة بالكبرياء ، يشعر منه بمذلة كبيرة واهانة عظيمة ، ولا سيما في عصرنا هذا ...

ـ وعذاب الضمير ؟ أأنت تنكر عليه اذن أى حس أخلاقى ؟ أهو ... حقاً ... كما تصف ؟

ـ آه يا آفدوتيا رومانوفنا ! ان كل شيء قد اضطرب الآن واختل.. ناهيك عن أن النظام الكامل لم يوجد فى هذا العالم يوماً . ثم ان الروس على وجه العموم أصحاب نفوس واسعة رحيبة كأراضيهم ، وهم ميالون كثيراً الى الخيال والنزوة والفوضى . ولكن النفس الواسعة الرحيبة تكون خطرة اذا لم يوهب لها شيء من عبقرية . تذكرى مناقشاتنا القديمة فى هذا الموضوع هناك ، فى الشرفة المطلة على الحديقة ... لقد كنت تعيبين علىّ سعة النظر هذه منذ ذلك الأوان . من يدرى مع هذا ؟ لعله ، حينما كنا نحن نتكلم ، كان هو مستلقياً على فراشه يجتر مشروعه . ان مجتمعنا المثقف لا يلمع بتقاليده يا آفدوتيا رومانوفنا . بعض الناس يصنعون لأنفسهم تقليداً من التقاليد كيفما اتفق ، من كتب قرأوها ، وبعضهم يستمدون أصباغ تقليد من بعض حكايات الماضى . ولكن هذا انما يصدق على العلماء ، وأكثرهم يبلغ من الحماقة أن رجلاً من رجال المجتمع الراقى يخجل من اقتفاء أثرهم واتخاذهم قدوةً له . على أنك تعرفين آرائى : أنا لا ألوم أحداً . كل ما هنالك اننى أتحاشى أن أقحم نفسى فى شيء . لقد سبق أن تحدثنا فى هذا مراراً . حتى ان آرائى قد شرّفها أن حظيت باهتمامك ... انك شاحبة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا .

ـ أنا أعرف نظرية أخى هذه . قرأت فى مجلة من المجلات مقالته عن الرجال الذين يباح لهم كل شيء . ان رازوميخين هو الذى جاءنى بتلك المجلة .

ـ السيد رازوميخين ؟ مقالة أخيك ؟ ولكننى كنت أجهل وجود مقالة كهذه المقالة . لا بد انها شائقة جداً !... الى أين أنت ذاهبة يا آفدوتيا رومانوفنا ؟

ـ أريد أن أرى صوفيا سيميونوفنا • من أين يجب المرور للذهاب اليها ؟ لعلها عادت ! أريد أن أراها على الفور حتماً • يجب أن •••

لم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تتم كلامها ، فقد انقطع تنفسها فعلاً •

ـ لن تعود صوفيا سيميونوفنا قبل هبوط الليل • هذا ما افترضه على الأقل • كان يجب أن تعود اما في وقت مبكّر جداً واما في وقت متأخر جداً •••

ـ آ ••• الآن أرى أنك تكذب ! الآن أرى أنك تكذب ! أنت لم تزد على أن كذبت ! انني لا أصدّق كلمة واحدة مما ذكرت ••• لا أصدّق منه كلمة واحدة !

بهذا صاحت دونيا وقد خرجت عن طورها وفقدت صوابها •

ثم تهالكت على كرسي أسرع يقدمه اليها سفدريجايلوف وقد أوشكت أن تسقط مغشياً عليها •

ـ ماذا بك يا آفدوتيا رومانوفنا ؟ عودي الى نفسك ! اليك ماءً ! اشربي جرعة ماء !

قال سفدريجايلوف لها ذلك ، ورشّ وجهها بالماء ، فارتعشت وأفاقت •

فدمدم يقول بينه وبين نفسه مقطّب الوجه :

ـ ما أبلغ تأثير هذا الأمر في نفسها •

ثم قال لها :

ـ هدئى روعك يا آفدوتيا رومانوفنا ! أنت تعرفين أن له أصدقاء . سوف ننقذه ، سوف نخرجه من المأزق ! هل تريدين ان أساعده على أن يجتاز الحدود ؟ انني أملك مالاً . وبعد ثلاثة أيام سأكون قد استخرجت له جواز سفر . لقد قتل ، نعم ، ولكن هدئى نفسك . ما يزال فى وقته متسع لأن يقوم بأعمال خيّرة كثيرة . ما يزال يستطيع أن يصبح رجلاً عظيماً . ما بك ؟ ألا تشعرين الآن بتحسن ؟

ـ رجل شرير ... ما يزال يستطيع أن يسخر ويستهزىء ! دعنى ...

ـ الى أين أنت ذاهبة ؟ الى أين ؟

ـ اليه ! أين هو ؟ هل تعلم أين هو ؟ لماذا هذا الباب مغلق ؟ من هذا الباب دخلنا ، فمالى أراه الآن مقفلاً بالمفتاح ؟ متى أتيح لك أن تقفله ؟

ـ لم يكن فى الامكان أن نُسمع جميع الغرف ما قلناه ! وأنا لا أسخر ولا استهزىء البتة ، حتى اننى سئمت من الحديث فى هذا الأمر كله . غريب ! الى أين تريدين أن تذهبى ؟ أتراك تريدين أن تزجيه فى السجن ؟ لو ذهبت اليه لاشتعل غضباً وحنقاً ، ولمضى يشى بنفسه ! اعلمى أنه مراقب منذ الآن ، وأنهم يتتبعونه . لسوف تكشفين أمره مزيداً من الكشف ! انتظرى ... لقد رأيته منذ قليل وكلمته . ما يزال فى الامكان انقاذه . انتظرى . اجلسى . سنفكر معاً . من أجل هذا انما دعوتك ، من أجل أن نتحدث فى خلوة وأن نتعمق درس المشكلة . ولكن هلاّ جلست !

ـ بأية طريقة تستطيع أن تنقذه ؟ وهل يمكن انقاذه ؟

قالت دونيا ذلك وجلست ، فجلس سفدريجايلوف الى جانبها ، وبدأ

يتكلم فقال وقد اشتعلت عيناه ، قال بما يشبه الدمدمة وهو لا يكاد يستطيع أن ينطق بالكلمات :

ـ كل شيء متوقف عليك ...

فتراجعت دونيا بضع خطوات ، مذعورة مرتجفة . وكان سفدريجايلوف يرتجف هو أيضاً من قمة الرأس الى أخمص القدمين .

ـ أنت ... كلمة منك أنت ويُنْقَذ ! أنا ... أنا سوف أنقذه ! عندي مال ، ولي أصدقاء ! سأرحّله فوراً ، وسأحصل أنا نفسي على جواز سفر .. سأحصل على جوازي سفر ، واحد له وواحد لي . لي أصدقاء ... رجال قانون ... هل تريدين ؟ وسأحصل أيضاً على جواز سفر لك أنت ، ولأمك ... ما حاجتك الى رازوميخين ؟ انني أحبك مثلما يحبك . أحبك حباً لا نهاية له . دعيني أقبل حافة ثوبك ! دعيني أفعل هذا ، دعيني أفعل هذا ! أصبحت لا أطيق سماع حفيف ثوبك ! مريني بما يجب أن أفعل فأفعل . سأفعل كل شيء ، سأفعل المستحيل ! أصدّق كل ما تصدقينه وأومن بكل ما تؤمنين به ! أفعل كل شيء ، كل شيء ! لا تنظري اليّ هكذا ، لا تنظري اليّ هكذا ! هل تعلمين أنك تقتلينني..

أخذ سفدريجايلوف يهذي . ان شيئاً ما قد مسّه فجأة ، كأنه تلقى ضربة على رأسه . ونهضت دونيا بوثبة . واندفعت نحو الباب ، وصاحت تقول وهي تهز الباب بكلتا يديها :

ـ افتحوا ! افتحوا ! ألا فتحتم الباب ؟ هل يمكن أن لا يكون ثمة أحد ؟

كان سفدريجايلوف قد جلس ، وها هو ذا ينهض الآن وقد ألمت ابتسامةٌ خبيثة ساخرة بشفتيه اللتين كانتا ما تزالان ترتعشان .

قال بصوت خافت متقطع :

ـ ليس ثمة أحد . صاحبة الدار خرجت . تضيّعين وقتك سُدى بهذا الصراخ . تثيرين أعصابك في غير طائل .

ـ أين المفتاح ؟ افتح الباب ! افتح الباب فوراً ! فوراً ! يا لك من جبان حقير !

ـ أضعت المفتاح ، ولا أعثر عليه !

صاحت دونيا تقول وقد اصفر وجهها حتى لكأنها ميتة :

ـ آ ... هذا اغتصاب اذن !

وهرعت الى ركن من الغرفة ، وأسرعت تتحصن فيه وراء منضدة صغيرة كانت في متناولها .

أصبحت الآن لا تصيح ، لكنها كانت مثبتة بصرها في عدوها ترصد بنظرة يقظة أيسر حركة من حركاته . وقد أصبح سفدريجايلوف لا يتحرك هو أيضاً ، ولبث واقفاً أمامها في الطرف الآخر من الغرفة . كان قد استطاع أن يسيطر على نفسه ، في الظاهر على الأقل . لكن وجهه ظل أصفر كما كان قبل ذلك ، وما تزال ابتسامته الساخرة مرتسمة على شفتيه . وقال أخيراً :

ـ لقد نطقت أنت بكلمة « الاغتصاب » يا آفدوتيا رومانوفنا . ولكن اذا كان في نيتي أن أغتصبك، فلا بد أنني اتخذت احتياطاتي كما تقدرين. ان صوفيا سيميونوفنا ليست في بيتها . ولكي تصلي الى أسرة كابرناؤموف، يجب أن تجتازي خمس غرف هي الآن جميعاً مقفلة بالمفتاح . ثم انني أقوى منك مرتين على الأقل ، هذا عدا انني لست أخشى على شيء البتة ، فلن يكون في وسعك أن تذهبي لتشتكيني . لن تريدي أن تفضحي

أخاك ، أليس هذا صحيحاً ؟ ثم ان أحداً لن يصدقك على كل حال ، فلماذا تذهب فتاة منفردة الى بيت رجل وحيد ؟ فحتى لو ارتضيت ان تضحي بأخيك ، فلن تستطيعي أن تبرهني على شيء • نعم ، انه لمن الصعب جداً أن تثبتي أن « اغتصاباً » قد حدث يا آفدوتيا رومانوفنا •

دمدمت دونيا تقول حانقة :

ــ جبان !

ــ قولي ما تشائين ، ولكن لاحظي انني لم أقدم الا افتراضات • وأنا شخصياً أوافقك في رأيك كل الموافقة : ان الاغتصاب دناءة وحطة• لكنني أردت أن أفهمك أن ضميرك لن يعذبك أي تعذيب اذا ••• اذا أنت ارتضيت ، بمحض ارادتك ، أن تنقذي أخاك ، كما اقترح عليك • فانما أنت تخضعين عندئذ للظروف ، أو تخضعين للقوة اذا لم يكن بد من استعمال هذه الكلمة • فكري : ان مصير أخيك ومصير أمك بين يديك• أما أنا فسأظل عبدك المطيع ••• ما حييت ••• وسأظل أنتظرك هنا •••

جلس سفدريجايلوف على الأريكة ، على مسافة ثماني خطوات من دونيا • لكن دونيا أصبحت لا يساورها أي شك في أن ما عقد العزم عليه ثابت لا يتزعزع • لقد كانت تعرفه حق المعرفة •

فها هي ذي تسل من جيبها مسدساً على حين فجأة ، فتحشوه بالرصاص بسرعة ، وتضع يدها على المنضدة دون أن ترخي المسدس ، فينتفض سفدريجايلوف وينهض عن مجلسه ، ويصيح مدهوشاً ، وهو يضحك مع ذلك ضحكاً ساخراً شريراً :

ــ آ ••• هكذا اذن ! لا ، لا ، ان هذا يغير الموقف تغييراً تاماً ، ويقلبه رأساً على عقب • أنت بهذا تيسّرين عليّ الأمور كثيراً يا آفدوتيا

رومانوفنا ! ولكن أين وجدت هذا المسدس ؟ هل السيد رازوميخين هو الذى ... ولكن ... عجيب ... هذا مسدسى أنا ! لطالما بحثت عنه ! ان دروس الرماية التى تشرفت باعطائك اياها فى الريف لم تذهب اذن سدى !

ـ ليس هذا مسدسك أنت أيها الوغد ، بل مسدس مارتا بتروفنا التى قتلتها ! لا شىء فى ذلك المنزل كان ملكك أنت ! لقد أخذتُ المسدس حين أخذت أشتبه فى نياتك وأدرك سفالتك . يميناً لو تجرأت فتقدمت خطوةً واحدة لقتلتك فوراً !

كانت دونيا خارجة عن طورها فاقدةً صوابها ، وهى ممسكة بالمسدس متأهبة لاطلاق الرصاص .

قال سفدريجايلوف وهو ما يزال واقفاً فى مكانه نفسه :

ـ وأخوك ؟ على اننى انما ألقى عليك هذا السؤال من باب الفضول لا أكثر !

ـ أخى ؟ أبلغ عنه السلطات ان شئت ! لا تتحرك ، والا أطلقت الرصاص . لقد دسست لزوجتك السمّ فى الطعام ، أنا أعرف ذلك ، أنت نفسك قاتل !

ـ هل أنت على يقين من أننى دسست السم لمارتا بتروفنا ؟

ـ نعم ، أنت ! حتى لقد ألمعت الى هذا السمّ أمامى . وانى لأعلم أنك انما سافرت لتجىء به ... هيأت كل شىء ... أنت القاتل ! ... لا يمكن أن يكون القاتل أحداً غيرك أيها الشقى !

ـ حتى اذا صح هذا ، فانك تكونين أنت السبب .

ـ كاذب ! أنا أبغضتك دائماً ، دائماً !

ــ مهلاً مهلاً يا آفدوتيا رومانوفنا ... أرى أنك نسيت كيف كنت ، أثناء تمثيلك دور الواعظ ، تميلين عليّ متلهفة النظرات . لقد قرأت الحب في عينيك ... ألا تتذكرين ذلك العندليب الذى كان يغنى فى ضوء القمر ذات مساء ؟

ــ كاذب ! كاذب ! مفترٍ نمّام !

كان الحنق يشتعل فى عينى دونيا .

قال سفدريجايلوف :

ــ كاذب ... لنسلّم باننى كاذب ! على كل حال ، ما ينبغى للمرء أن يذكّر النساء بمثل هذه التفاصيل الصغيرة ...

وابتسم ، ثم أردف قائلاً :

ــ أنا أعلم أنك ستطلقين النار أيتها المتوحشة الصغيرة ... فماذا تنتظرين ؟ أطلقى !

شهرت دونيا مسدسها على سفدريجايلوف وقد اصفر لون وجهها حتى لكأنه وجه ميت ، وابيضت شفتاها وأخذتا تختلجان اختلاجاً قوياً . كانت تنظر اليه بعينيها اللتين ترشقان شرراً ، وقد عزمت أمرها فهى ترصد أيسر حركات الرجل .

لم يرها جميلةً هذا الجمال كله فى يوم من الأيام . ان اللهب الذى كان ينبجس من عينى الفتاة حين شهرت عليه المسدس قد أحرقه احراقاً، وتشنج قلبه ألماً .

وتقدم سفدريجايلوف خطوة ، فانطلقت الرصاصة ، فلامست شعره ومضت تضرب الحائط وراءه . فتوقف ، وأخذ يضحك فى رفق وهدوء.

ـ وخزتني النحلة ! انها تسدد الى الرأس ... ما هذا ؟ دم ؟

وأخرج منديله ليمسح خيطاً دقيقاً من دم كان يسيل على صدغه الأيسر : لعل الرصاصة قد خدشت الجلد المغطى بالشعر .

خفضت دونيا المسدس ونظرت الى سفدريجايلوف . ان نظرتها لا تعبر عن الذعر بقدر ما تعبر عن الانشداه . لكأنها لم تدرك ماذا فعلت ولا ماذا ما حدث !

قال سفدريجايلوف بصوت خافت ، مع ابتسامة حزينة :

ـ طاشت الضربة . هلاّ أطلقت مرةً أخرى ! اني أنتظر ! والا كان في وقتي متسع لأن أقبض عليك قبل أن تشدّي الزناد مرة أخرى .

ارتعشت دونيا ، وأسرعت تحشو المسدس برصاصة ثانية ، وشهرته على سفدريجايلوف من جديد . وقالت يائسة :

ـ دعني ! يميناً لأطلقن مرة أخرى اذا لم تتركني ! يميناً ... لأقتلنك ...

ـ وبعد ذلك ؟ صحيح أنه يستحيل أن تطيش الضربة من على بعد ثلاث خطوات ... ولكن ماذا لو أخطأتني مرة ثانية ، ما عساك فاعلة حينذاك ؟...

قال ذلك وسطعت عيناه ، وتقدم خطوتين أخريين ، فضغطت دونيا على الزناد ، ولكن الطلقة لم تخرج .

ـ لم تحسنِي حشو المسدس ! لا بأس ! ما يزال عندك رصاصة . أحكمي وضعها ! سوف أنتظر .

كان واقفاً أمامها على بعد خطوتين منها ينتظر ، وينظر اليها بعينين

يتوهج فيهما لهيب ثقيل شهوانى ، وتعبران عن عزيمة وحشية وتصميم جنونى •

أدركت دونيا أنه يؤثر أن يموت على أن يدعها تتصرف • « طيب ، طيب ، فى هذه المرة ، وهو منها على بعد خطوتين فقط ، ستقتله فعلاً » • بهذا حدثت دونيا نفسها ، ولكن ها هى ذى ترمى المسدس فجأة •

قال سفدريجايلوف مدهوشاً وقد استرد أنفاسه :

ـ رميته ؟

وأحس كأن قلبه قد تخلص فجأة من حمل كبير ثقيل ، حمل ليس مردُّه الى ما عاناه من قلق الشعور بخطر الموت فحسب ، فضلاً عن أن ذلك الشعور كان قد زايله منذ برهة، وانما هو أحس أنه تخلص من شيء آخر ، من شعور أشد ايلاماً وأحلك ظلاماً ، شعور لا يستطيع هو نفسه أن يحدِّده •

واقترب من دونيا ، وضمَّ اليه قامتها فى رفق وهدوء ، فلم تقاوم ، ولكنها نظرت اليه بعينين ضارعتين وهى ترتعش كورقة فى مهب الريح• ودَّ لو يقول شيئاً ولكن شفتيه تقلصتا ، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة •

قالت له متوسلة بصيغة المخاطب المفرد :

ـ اتركنى !

فاختلج سفدريجايلوف• ان استعمالها لصيغة المخاطب المفرد تختلف لهجتها الآن عن لهجة استعمالها لهذه الصيغة منذ قليل •

سألها بصوت خافت :

ـ أأنت لا تحبيننى اذن ؟

فحركت دونيا رأسها باشارة النفى • فهمس يسألها يائساً :

ـ ولن ••• تستطيعى ••• أن تحبينى فى يوم من الأيام ؟

فأجابته هامسة :

ـ لا ، لن أستطيع ذلك فى يوم من الأيام !

نشبت فى نفس سفدريجايلوف ، خلال لحظة من الزمن ، معركة خرساء رهيبة • كان يتأمل دونيا بنظرة لا سبيل الى وصفها • وفجأة سحب يده ، واستدار ، وأسرع يبتعد نحو النافذة ، ولبث هنالك جامداً لا يتحرك •

انقضت برهة أخرى •

وها هو ذا يخرج مفتاح الباب من جيب معطفه ، فيضعه على المنضدة وراءه دون أن يلتفت نحو دونيا ، بل ودون أن يلقى عليها نظرة واحدة، قائلاً لها :

ـ اليك المفتاح ! خذيه وانصرفى بسرعة !

كان ينظر الى النافذة فى عناد ، لا يحول بصره عنها يمنة ولا يسرة•

اقتربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح • فقال سفدريجايلوف مكرراً ، دون أن يتحرك أو أن يلتفت :

ـ بسرعة ، بسرعة •

ولكن كلمة « بسرعة » هذه كان لها جرس رهيب !

لاحظت دونيا ذلك • وتناولت المفتاح ، واندفعت نحو الباب ففتحته،

وهرعت تخرج من الغرفة • فما هى الا دقيقة واحدة حتى كانت تجرى كالمجنونة على طول القناة فى اتجاه جسر س •••

لبث سفدريجايلوف أمام النافذة ثلاث دقائق • ثم التفت ببطء ، ونظر حواليه ، ومرّ بيده على جبينه في رفق • ان ابتسامة غريبة تعقف الآن شفتيه ، ابتسامة أسيانة حزينة ضعيفة ، ابتسامة هى ابتسامة ألم كبير ويأس شديد • وكان الدم قد جف على يده ، فنظر اليه نظرة تفيض بغضاً ، ثم بلل خرقةً بالماء فمسح بها صدغه • ووقع بصره على المسدس الذى كانت قد رمته دونيا فتدحرج على الأرض • انه مسدس صغير للجيب ، من طراز قديم ذى ثلاث طلقات • ان فيه الآن طلقتين وكبسولة• ما يزال يمكن استعماله مرة • فكّر سفدريجايلوف لحظة ، ودسّ المسدس فى جيبه ، ثم تناول قبعته وخرج •

الفصل السادس

قضى السهرة حتى الساعة العاشرة فى الحانات والمحلات المشبوهة متنقلاً بينها . وعثر فى مكان ما على كاتيا . كانت كاتيا ما تزال تغنى أغنيتها المألوفة التى تتحدث عن « الطاغية الحقير »

الذى أخذ يقبل كاتيا

فسقاها سفدريجايلوف وسقى صاحبها الصغير ، العازف على أرغن باربار يا ، وسقى الخدم والمغنين ، واثنين من صغار الموظفين جذبه اليهما أن أنفيهما معوّجين ، فأحد الرجلين كان أنفه منحرفاً الى اليمين ، وثانيهما كان أنفه منحرفاً الى الشمال ، فلفت هذا الأمر انتباه سفدريجايلوف وخطف بصره . وقاده الموظفان أخيراً الى حديقة ملاهٍ ، فدفع عنهما رسم الدخول وثمن الشراب .

كان فى الحديقة شجرة نحيلة من أشجار الصنوبر لم يبق لها الا ثلاثة أفرع ، وكان فى الحديقة كذلك مبنى أُطلق عليه اسم «فوكسهول»* من باب التفخيم وما هو فى حقيقته الا خمارة صغيرة يُشرب فيها الشاى أيضاً . ان فى الخمارة عدة موائد صغيرة ، وكراسى خضراء ؛ وفيها جوقة هزيلة من المغنين ، وألمانى بلغ السكر منه كل مبلغ (هو نوع من ممثل مهرّج أحمر الأنف ، لكن وجهه يظل كالحاً الى أقصى حد ،

لا يدرى المرء كثيراً لماذا) ، وكانت مهمة الجوقة والألمانى تسلية الزبائن •

تشاجر الموظفان الصغيران مع موظفين آخرين كانوا هناك ، حتى أوشك التشاجر أن يصير الى تماسك بالأيدى • واحتكم المتشاجرون الى سفدريجايلوف ، فلبث يحكم بينهم مدة ربع ساعة محاولاً أن يفهم موضوع التشاجر ، ولكنه لم يفلح فى ذلك من شدة صراخ هؤلاء وأولئك • أغلب الظن فيما أشارت اليه الدلائل أن واحداً منهم كان قد سرق شيئاً من الأشياء واستطاع أن يجد يهودياً اشتراه منه فوراً ، ولكن السارق بعد أن باع الشىء المسروق رفض أن يقاسم رفيقه ثمنه • واتضح أخيراً أن الشىء المسروق كان ملعقة شاى من محل «فوكسهول». وقد تمّ تعرفها ، وبدأت القضية تتخذ أبعاداً مقلقة • فما كان من سفدريجايلوف الا أن دفع ثمن الملعقة ، ونهض ، وغادر حديقة الملاهى •

كانت الساعة تقترب من العاشرة • لم يشرب سفدريجايلوف خمرة طوال تلك السهرة ، وانما كان يكتفى بطلب كأس من الشاى ؛ وحتى هذا انما كان يفعله من باب التقيد بالشكل • وكان الحر أثناء ذلك ثقيلاً وكانت السماء مكفهرة • وفى نحو الساعة العاشرة تقدمت غيوم كبيرة من جميع أطراف الأفق ، وأرعدت السماء وأخذ المطر يهطل غزيراً كأنه السيول • كان الماء لا يتساقط قطرات ، وانما هو شلالات تضرب الأرض • وكان ومض البرق يتعاقب سريعاً ، فلا يكاد يستطيع المرء أن يعد أكثر من خمسة بين كل ومضة وومضة • وابتل سفدريجايلوف بالماء حتى العظام ، ووصل أخيراً الى بيته ، فأغلق على نفسه الباب ، ثم فتح درج مكتبه فأخرج منه أمواله وسنداته ، ومزّق بعض الأوراق ، حتى اذا فرغ من دسّ أمواله كلها فى جيبه ، بدا له

أن يبدل ملابسه ، لكنه بعد أن ألقى نظرة الى النافذة وأصاخ بسمعه الى هزيم الرعد وتساقط المطر ، حرك يده باشارة تنم على عدم الاكتراث ، وتناول قبعته ، وخرج دون أن يغلق الباب وراءه ، ومضى الى صونيا رأساً ، فوجدها في غرفتها •

لم تكن صونيا وحدها ، وانما كان يحيط بها أولاد كابرناؤموف الأربعة • كانت صوفيا سيميونوفنا تسقيهم شاياً • واستقبلت سفدريجايلوف بصمت واحترام ، ونظرت مدهوشة الى ثيابه المبتلة ، لكنها لم تقل كلمة واحدة • أما الأولاد فسرعان ما هربوا وقد استولى عليهم ذعر لا يغالَب •

جلس سفدريجايلوف الى المائدة ، ورجا صونيا أن تجلس قربه ففعلت ، وتهيأت لأن تصغي اليه خجلة وجلة •

قال سفدريجايلوف :

ـ صوفيا سيمونوفنا ، ربما سافرتُ الى أمريكا ، وربما كان هذا آخر لقاء بيننا ، لذلك جئت أتخذ بعض الاجراءات • لقد رأيت اليوم تلك السيدة ، أليس كذلك ؟ أنا أعرف ما قالته لك ، فلا حاجة الى أن ترويه لي (هنا حرّكت صونيا يدها باشارة واحمر وجهها) • ان لهؤلاء الناس تفكيراً خاصاً معروفاً • على كل حال ، فيما يتعلق بأختيك الصغيرتين وأخيك الصغير ، فان مستقبلهما مؤمن ؟ لقد توليت بنفسي دفع المال الذي يجب أن يئول اليهم ، وأخذت به ايصالات • خذي ، اليك الايصالات • بهذا تُسوّى المسألة • واليك ثلاثة سندات قيمتها ثلاثة آلاف روبل • هذه لك أنت • أرجو أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا لا يعلم به أحد ، مهما تسمعي من كلام • سوف تحتاجين الى هذا المال ياصوفيا

سيميونوفنا ، فان الحياة التي عشتها حتى الآن سيئة ، فلن تضطري اليها بعد اليوم .

تمتمت صونيا تقول :

ـ غمرتني بنعم وآلاء كثيرة ... أنا ... والأيتام ... والمرحومة أيضاً ... وحتى الآن لم أشكر لك جميلك . لا يذهبنّ بك الظن خاصةً الى أن ...

ـ رحماكِ ! رحماكِ !

وتابعت صونيا كلامها فقالت :

ـ أما هذا المال يا أركادي ايفانوفتش ، فانني أشكره لك أجزل الشكر ... لكنني لست في حاجة اليه . انني وقد أصبحت وحدي أستطيع أن أجني رزقي . لا تحسبن هذا عقوقاً . وما دمت انساناً محسناً الى هذا الحد ، فان هذا المال يمكن دائماً أن ...

ـ بل هذا المال لك أنت يا صوفيا سيميونوفنا ، وكفى كلاماً ، أرجوك ! ليس في وقتي متسع . لك أنت ، سيكون هذا المال مفيداً . لا يملك روديون رومانتش الا أن يختار أحد أمرين : فاما رصاصة في رأسه ، واما طريق فلاديمير * .

نظرت اليه صونيا مروَّعة وأخذت ترتجف . وتابع هو كلامه يقول :

ـ لا تقلقي ! لئن كنت أعرف كل شيء ، فلأنه هو الذي روى لي كل شيء !... واذ كنت امرءاً قليل الثرثرة ، فلن أذكر لأحد شيئاً . أنت أسديت له في ذلك اليوم نصيحة طيبة جداً ، هي أن يشي بنفسه ويعترف بجريمته . وذلك هو خير ما يمكن أن يفعله . ومتى حانت ساعة الرحيل الى سيبيريا ، فسيرحل اليها ، وستتبعينه أنت ، أليس

كذلك ؟ فأنت اذن فى حاجة الى مال . سوف تحتاجين الى هذا المال من أجله هو ، هل تفهمين ؟ وأنا حين أعطيك هذا المال فكأننى أعطيه هو اياه . ثم انك قد تعهدت لآماليا ايفانوفنا بأن تدفعى الديون التى لها على أسرتك . هذا سمعته بنفسى . ولكن لماذا يا صوفيا سيميونوفنا تقطعين على نفسك مثل هذه العهود بمثل هذا التسرع والطيش دون تأن أو ترو ؟ ان كاترين ايفانوفنا هى المدينة للألمانية ، لا أنت . فكان ينبغى لك أن لا تحفلى بهذه الألمانية وأن لا تكترثى لها . ما هذا أسلوب سليم فى الحياة ! على كل حال ، اذا استجوبوك فى يوم من الأيام ـ غداً أو بعد غد مثلاً ـ اذا استجوبوك عنى، أقصد عن أمرى (وسيستجوبونك عن أمرى حتماً) ، فاياك أن تذكرى شيئاً عن زيارتى هذه خاصة ، واياك أن تبحى لأحد أن يفترض أننى أعطيتك مالاً . والآن ، الى اللقاء !

قال سفدريجايلوف ذلك ونهض وهو يتابع كلامه قائلاً :

ـ تحياتى لروديون رومانتش ... بالمناسبة : اخزنى المال عند السيد رازوميخين الى حين الحاجة اليه . تعرفين السيد رازوميخين ، أليس كذلك ؟ تعرفينه حتماً ! انه فتى طيب شهم ! فاحملى اليه المال غداً ، أو ... حين يأزف الوقت ! والى أن يأزف الوقت ، خبئيه عن الأنظار .

كانت صونيا قد نهضت هى أيضاً وشخصت ببصرها اليه مذعورة. ودّت لو تقول شيئاً ما ، ودّت لو تطرح سؤالاً ، لكنها لم تجرؤ فى البداية ، وكانت عدا ذلك لا تعرف كيف تتدبر أمر القاء السؤال . وقالت أخيراً :

ـ لكن .. لكن ... هكذا .. هكذا .. تخرج ... تحت هذا المطر ؟

ـ هه ! هل يخشى المرء المطر اذا كان يتهيأ للسفر الى أمريكا ؟ استودعك الله يا صوفيا سيميونوفنا العزيزة . أتمنى لك أن تعيشي طويلاً ، فلسوف تكونين مفيدة نافعة للآخرين . بالمناسبة : أبلغي السيد رازوميخين تقديري . قولي له بالنص : ان أركادى ايفانوفتش سفدريجايلوف يبلغك تقديره . لا تنسي .

قال ذلك وخرج تاركاً صونيا في جمود وذعر ، وقد استولى عليها شعور غامض ثقيل بأن شيئاً سيحدث .

وقد عُرف فيما بعد أن سفدريجايلوف ، في ذلك المساء نفسه ، بعد الساعة الحادية عشرة ، قد قام بزيارة أخرى ، زيارة بعيدة جداً ، غير متوقعة أبداً . كان المطر ما يزال يهطل غزيراً . وها هو ذا ، في في الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين ، يدخل البيت الصغير الذي يقطنه أهل خطيبته بالزقاق الثالث من فاسيلفسكي اوستروف عند ناصية شارع نفسكي . كان مبتلاً بالماء ابتلالاً شديداً . لقد طرق الباب مدة طويلة ، ففتحوا له آخر الأمر ، فأحدث ظهوره في البداية اضطراباً كبيراً ؛ لكن أركادى ايفانوفتش قد أوتي موهبة حسن الحيلة ولباقة السلوك وجمال التصرف متى شاء ، لذلك فان الظن الأول الذي قام في وهم أهل خطيبته (وهو ظن لطيف ، فقد اعتقدوا أنه سكر في مكان ما فأصبح لا يدري ماذا يفعل) ، لم يلبث أن سقط من تلقاء نفسه . وبادرت أم الخطيبة ، المرأة الحنون الشفوق العاقلة ، فجرّت مقعد الأب الهرم الخرف العاجز حتى صار قرب أركادى ايفانوفتش ، وسرعان ما أخذت تتحدث على عادتها بالقاء أسئلة ملتوية غير مباشرة (ان هذه المرأة لا تلقي في يوم من الأيام

أسئلة مباشرة : انها تبدأ بأن تبتسم وتأخذ تفرك يديها ، فاذا رغبت مثلاً في أن تعرف ما ينتويه أركادى ايفانوفتش فيما يتعلق بالتاريخ الذى ينوى تحديده للاحتفال بزواجه ، طفقت تسأل الرجل بكثير من الشوق والشراهة عن باريس ، وعن حياة المجتمع الراقى هناك ، ثم لا تصل الى فاسيلفسكى أوستروف والى ما يجب أن يحدث فيها الا رويداً رويداً)• ولقد كان يمكن ، فى ظروف غير هذه الظروف ، أن يصغى سفدريجايلوف الى كلامها باحترام شديد واهتمام عظيم ، لكنه بدا فى هذه المرة نافد الصبر جداً ، وأسرع يقاطعها بأن طلب رؤية خطيبته فوراً (رغم أنه كان قد أُعلم ، منذ أولى الكلمات التى جرى بها الحديث ، أنها قد نامت) • فقال لها أركادى ايفانوفتش بدون لف أو دوران ان عليه ، بسبب ظروف طارئة استثنائية ، أن يغادر بطرسبرج الى حين، وانه اذ يغادر بطرسبرج قد جاءها بخمسة عشر ألف روبل ، أوراقاً مالية وسندات ، راجياً أن تقبلها هدية منه اليها ، وانه على كل حال كان ينوى منذ مدة طويلة أن يقدم اليها هذه الهدية التافهة قبل الزواج •

صحيح أن هذه الشروح لم تظهر الصلة المنطقية بين الهدية والسفر المباشر ، لا ولا أوضحت ضرورة المجىء فى منتصف الليل تحت وابل المطر • ومع ذلك لم يعترض أحد أىَّ اعتراض• وحتى الأسئلة وصيحات التعجب المعهودة كانت فى هذه المرة معتدلة جداً ، على خلاف العادة• وتدفق الشكر فى مقابل ذلك حاراً عنيفاً ، حتى أن الأم العاقلة ذرفت فى سبيل الشكر دموعاً • ونهض أركادى ايفانوفتش ، وابتسم وقبَّل خطيبته ، وربت على خدها فى رفق ولين ، وأكدَّ مرة أخرى أن غيابه لن يطول : واذ لاحظ فى عينى الخطيبة الصغيرة استطلاعاً طفلياً جدياً فى آن واحد ، وتساؤلاً أبكم ، فكَّر لحظةً ، وقبَّلها مرة أخرى ، وشعر فى الوقت نفسه بحسرة حقيقية لأنه قدَّر أن الأم العاقلة ستخبىء الهدية مقفلةً عليها

بالمفتاح • وخـرج آخـر الأمر ، تاركاً جميع من بالبيت فى حالة اهتياج شديد خارق • وسرعان ما أخـذت الأم العـاقلة الواسـعة الأفق تقـرر بوشوشات صغيرة وكلمات قليلة سريعة عدداً من الحقائق الخطيرة جداً ، مؤكدة على وجه التخصيص أن سفدريجايلوف رجل ذو سلطان ، رجل له أعمال وصلات ، وأنه على جانب عظيم من الثـراء الطائل ، والله يعلم ما الذى خطر بباله لكنه قد عنّ له أن يسافر فسافر ، ثم عنّ له أن يهب مالاً فوهب ، فلا داعى الى التعجب والدهشـة والحـالة هذه • صحيح أن وصوله مبتلاً على هذه الحـال أمر غريب ، ولكن أغلب الظن أن هـذه خصلة من خصال الانجليز وعـادة من عاداتهم • انها الشذوذ والتفرد ، أليس كذلك ؟ ثم ان أبناء المجتمع الراقى لا يحفلون كثيراً بما قد يقال عنهم ، فهم لذلك لا يتحرجون • حتى ان من الممكن أن يكون أركادى ايفانوفتش قد تعمد المجىء تحت وابل المطر ليظهر أنه لا يخاف من أحد ولا يهاب أحداً • ولكن ينبغى خاصةً أن لا تقال كلمة واحدة لأى انسان عن هذه « المغامرة » ، فالله وحده يعلم ما هو المجرى الذى قد تنقلب اليه هذه الأمور كلها • ويجب اخفاء المال والاقفال عليه بالمفتاح بأقصى سرعة ، والحمد لله على أن فيدوسيا قد بقيت فى المطبخ • نعم ، يجب خاصـةً أن لا يقال لأحد شىء ••• هست ••• هست ! •• ما من كلمة اذن ، لا لتلك الذبابة الصغيرة ريسليش ، ولا للآخرين ، وهلمّ جراً ، وهلمّ جراً ••

وظلوا يثرثرون ويتهامسون على هذا النحو حتى الساعة الثانية من الصباح • لكن الخطيبة مضت تنام قبل ذلك بكثير ، وهى تشعر بشىء من الدهشة وكثير من الحزن •

وفى أثنـاء ذلك ، عنـدما دقت السـاعة منتصف الليـل ، كان سفدريجايلوف يجتاز جسر « ••• كوف » فى اتجاه « حى بطرسبرج »• كان المطر قد انقطع عن الهطول ، لكن الريح ما تزال تزمجر • أخـذ

سفدريجايلوف يرتعد من البرد ، ونظر خلال دقيقة من الزمن ، بنوع من الاستطلاع الخاص ، بنوع من الاستطلاع السائل المستفهم ، نظر الى المياه السوداء ، مياه نهر « نيفا الصغير » . لكنه سرعان ما وجد أن البرد أشد من أن يستطيع المكث فوق الماء على هذا النحو . فاستدار ، واتجه نحو شارع « س ... » .

ظل سفدريجايلوف يسير مدة طويلة لعلها بلغت نصف ساعة ، في ذلك الشارع الذى لا نهاية له ، وتعثرت قدماه بالرصيف الخشبى مراراً فى الظلام ، ولكنه ظل مصراً على أن يبحث عن شىء ما كان يجب أن يوجد فى الجهة اليمنى من الشارع . انه حين مرَّ هنا منذ مدة بالعربة قد لمح فى مكان ما ، على اليمين ، فندقاً لا بد أن اسمه « فندق آندرينوبل » اذا صدقت ذاكرته . ان هذا الفندق هو فى هذا الحى التائه علامة بارزة يستحيل أن يخطئها المرء حتى فى الظلام الدامس . هو مبنى طويل من خشب ، اسودَّ من كثرة السنين التى تعاقبت عليه ، كانت تسطع فيه أضواء رغم تقدم الليل ، وكانت تلاحَظ فيه حركة وجلبة .

دخل سفدريجايلوف الفندق ، فالتقى فى الدهليز بخادم بائس المظهر خلق الثياب ، فطلب منه غرفة . فبعد أن ألقى عليه الخادم نظرة ، هزَّ جسمه ، وقاده فوراً الى حجرة صغيرة لا هواء فيها تقع فى ركن تحت السلَّم عند آخر الممر . لم يكن بالفندق غرفة أخرى خالية ، فجميع الغرف مشغولة .

نظر الخادم الى سفدريجايلوف بهيئة مستطلعة مستفهمة . فسأله سفدريجايلوف :

ــ هل عندكم شاى ؟

ــ يمكن أن نهيىء لك شاياً .

ـ ماذا عندكم أيضاً ؟

ـ لحم عجل ، فودكا ، مقبّلات .

ـ جئنى بلحم عجل وشاى .

سأل الخادم متردداً بعض التردد :

ـ ولست فى حاجة الى أى شىء آخر ؟

ـ لست فى حاجة الى أى شىء آخر ؟

فانصرف الخادم وقد خاب فأله .

حدّث سفدريجايلوف نفسه قائلاً : « لا بد أنه محل مريب . كيف لم يخطر هذا بالى ؟ آ ... لا شك أن هيئتى أنا أيضاً هيئة رجل عاد من قصف وحدثت له مغامرة فى الطريق . ليتنى أعرف نوع الناس الذين يتلبثون هنا لقضاء الليل ! » .

وأشعل سفدريجايلوف شمعة وفتش الغرفة تفتيشاً دقيقاً . هى حجرة صغيرة تضيئها نافذة واحدة ، وتبلغ من الضيق أن رجلاً له قامة كقامة سفدريجايلوف لا يكاد يستطيع أن يقف فيها ، وقد امتلأت مساحتها كلها بسرير قذر ومنضدة مدهونة وكرسى عتيق . أما الجدران فكأنها من ألواح خشبية انفكت المسامير التى تربط بعضها ببعض ؟ وهى مغطاة بورق ملطخ مهترىء ممزق يملؤه الغبار فلا يكاد يستطيع البصر أن يميّز فيه أى رسم ، ولا يكاد يرى منه الا لون أرضيته (الصفراء) . وكان جزء من الجدار يؤلف مع السقف زاوية مقطوعة ، شأنَ جميع الحجرات التى تقع تحت الأسطح ، غير أن السلّم يمرُّ هنا فوق الزاوية المقطوعة .

وضع سفدريجايلوف الشمعة على السرير ، وغرق فى أفكاره وخواطره . غير أن دمدمة غريبة متصلة كانت تعلو فى الغرفة المجاورة

وتصل الى حد الصراخ أحياناً ، فما لبث أن استرعت انتباهه . ان هذه الأصوات لم تنقطع في الواقع منذ دخل . أصاخ سفدريجايلوف بسمعه : كان هناك شخص يقرّع شخصاً آخر ويصب عليه أنواع اللوم ، ولكنه يفعل ذلك وهو يكاد يبكي . ليس يميّز المرء الا صوتاً واحداً .

نهض سفدريجايلوف ، ووضع يده حاجزاً أمام لهب الشمعة ، فسرعان ما أضاء شق صغير في الجدار ، فاقترب سفدريجايلوف من الشق ونظر . الغرفة أوسع قليلاً من غرفته ، وفيها رجلان أحدهما أجعد الشعر محمر الوجه قد وقف متخذاً وضع الخطيب ، مباعداً ساقيه للمحافظة على توازنه ، وأخذ يلطم صدره لائماً صاحبه بلهجة عاطفية مؤثرة على أنه رجل شقي تافه ليس له أي رتبة ، وليس له أي كرامة اجتماعية ، مذكّراً اياه بأنه هو الذي أخرجه من الماء ، ففي وسعه أن يعود فيغطسه في الماء متى شاء ، وان عين الله وحدها ترى حقيقة الأمر كله . وكان الرجل الثاني الذي ينصب عليه هذا التقريع وهذا التأنيب جالساً على كرسي ، وهيئته هيئة رجل يودُّ لو يعطس لكنه لا يفلح في ذلك على أي نحو من الأنحاء ، وهو يلقي على الخطيب من حين الى حين نظرة مضطربة بلهاء . كان واضحاً أنه لا يفهم من الأمر كله شيئاً على الاطلاق .

وعلى المائدة ، حيث كانت توجد شمعة ذائبة توشك أن تنطفيء ، كان يوجد أيضاً ابريق فودكا يكاد يكون فارغاً ، وأقداح كبيرة وأقداح صغيرة ، وخبز ، وخيار مخلل ؛ ورغم أن الشاي قد شُرب منذ مدة طويلة حتماً ، فان الفناجين والأطباق والملاعق ما تزال ملقاة كذلك على المائدة .

تأمل سفدريجايلوف هذه اللوحة بانتباه ، ثم ابتعد عن الجدار بدون اكتراث ، وعاد يجلس على السرير .

وحين عاد الخادم يحمل لحم العجل والشاي ، لم يستطع أن يمتنع

عن سؤال سفدريجايلوف مرة أخرى أليس فى حاجة الى شىء آخر ، فلما سمع جواب النفى من جديد انصرف أخيراً الى غير رجعة . وأقبل سفدريجايلوف على الشاى التماساً للدفء ، فاحتسى منه كأساً ، لكنه لم يستطيع أن يذوق اللحم ، فقد كان لا يشتهى أن يتناول أى طعام .

واضح أن الحمى كانت قد ألمت به . وخلع معطفه وسترته ، واضطجع على السرير ، ومدّ على نفسه الغطاء . كان مستاءً ممتعضاً . « ان من الأفضل على كل حال أن أكون سليم العافية لهذا الظرف » ، كذلك قال يحدث نفسه ، وضحك ساخراً .

كان جو الغرفة خانقاً ، وكانت الشمعة ترسل ضياء مضطرباً ، وكانت الريح فى الخارج تزمجر ، وكانت فأرة تخدش شيئاً من الأشياء فى مكان بأحد أركان الغرفة ، وكانت الغرفة كلها تشيع فيها رائحة فئران وجلد على كل حال .

لبث مضطجعاً غارقاً فى أحلامه . كانت الخواطر تتعاقب فى خياله ، يطرد بعضها بعضاً . كان كمن يريد أن يتشبث بشىء ما فى الخيال بكل ما أوتى من قوة . قال يحدث نفسه : « لا شك أن تحت النافذة حديقة تهز الريح أشجارها فتهمهم ! آه ... لشد ما أكره همهمة الأشجار أثناء العاصفة فى الظلام ! يا له من احساس كريه ! » . وفى هذه المناسبة تذكر مروره بحديقة بتروفسكى ، مشمئزاً . وتذكر عندئذ مروره بجسر « ... كوف » على نهر « نيفا الصغير » أيضاً ، فأحس بتلك البرودة نفسها التى أحسها منذ قليل حين توقف فوق النهر . « أنا لم أحب الماء يوماً ، ولا فى مناظر الطبيعة » ، بهذا حدث نفسه ، ثم اذا بفكرة غريبة توافيه فتجعله يضحك ضحك سخرية . قال يخاطب نفسه : « يخيّل الىّ مع ذلك أن قضايا الجمال والارتياح هذه كان ينبغى أن لا تثير اهتمامى اليوم وأن تدعنى غير مكترث بها أى اكتراث ، فما بالى

أعنى بها أشد العناية ؟ ألا اننى لأشبه الحيوان الذى يهمه اشد الاهتمام أن يختار لنفسه مكاناً مناسباً .. فى حالة كهذه الحالة ! لقد كان الأفضل أن أستمر فى السير حتى أصل الى جزيرة بتروفسكى ! لكننى وجدت الليل حالك الظلمة والجو شديد البرودة ! هىء هىء هىء ! انى لأكاد أنشد الاحاسيس اللذيذة والمشاعر الممتعة ! بالمناسبة : لماذا لا أطفىء الشمعة ؟ »

قال لنفسه ذلك ونفخ على الشمعة فأطفأها ، واذ لم ير ضوءاً فى شق الجدار تابع حديثه لنفسه فقال : « نام جيرانى ! هلمّى يا مارتا بتروفنا ! الآن ، الآن انما ينبغى لك أن تجيئى شاكية ، فالظلام دامس ، والمكان مناسب ، واللحظة فريدة . ومع ذلك لا تجيئين اليوم ! » .

وتذكّر فجأة ، دون سبب ظاهر ، أنه قبل وضع خططه المتعلقة بدونيا موضع التنفيذ ، تذكر أنه قبل ذلك بساعة قد نصح لراسكولنيكوف أن يجعل دونيا فى حماية رازوميخين . قال يحدث نفسه : « حقاً ... لا بد أننى قلت ذلك من باب التبجح ، كما أدرك راسكولنيكوف ذلك فعلاً ! انه لماكر ، هذا الفتى راسكولنيكوف ! لكنه لعب لعبة كبيرة فوق طاقته . ولكى يصبح المرء ماكراً كبيراً لا بد له من وقت ، لا بد له من أن ينتظر انقضاء عهد السخافات . وهو الآن « مسرف » فى حب الحياة . من هذه الناحية يتصف جميع هؤلاء الناس بأنهم جبناء . ولكن ما بالى أهتم بهم ! ليذهبوا الى الشيطان ! ألا فليفعلوا ما يشاءون ، فذلك لا يعنينى ! » .

وظل سفدريجايلوف عاجزاً عن النوم . وشيئاً فشيئاً انبجست أمامه صورة دونيا كما رآها منذ قليل ، فسرت فى جسمه كله رعدة قوية على حين فجأة . قال يخاطب نفسه وقد ثاب الى صوابه : « لا ، يجب علىّ الآن أن أتخلص من هذا كله . يجب أن أفكر فى شىء آخر . مضحك أمرى .. مضحك : اننى لم أكره أحداً فى يوم من الأيام ، بل اننى لم تراودنى

رغبة قوية في الانتقام قط . هذه علامة سيئة ! لا ولا أحببت يوماً أن أتشاجر ، وأن أندفع وأتحمس ! هذه أيضاً علامة سيئة ... ولكن ماأكثر الوعود التي بذلتها لها منذ قليل ! مع ذلك ، كان يمكنها أن تصنع مني رجلاً آخر » .

وصمت سفدريجايلوف وكزّ أسنانه . وعرضت له صورة دونيا من جديد ، تماماً كما رآها حين أطلقت طلقة أولى فاستولى عليها رعب رهيب فأرخت المسدس وهي تنظر اليه بعينها الواسعتين ... حتى لكان يمكنه أن يمسكها مرتين لا مرةً واحدة دون أن تستطيع اظهار أية مقاومة . لقد عني هو نفسه بأن يردّها الى ادراك الواقع ! وتذكر أيضاً أنه شعر في تلك اللحظة بنوع من الشفقة عليها والرأفة بها ، وأن قلبه قد انقبض انقباضاً شديداً . « سحقاً لهذه الخواطر !... يجب التخلص من هذا كله ! يجب التخلص من هذا كله !... » .

وأخذ النعاس يدب الى جفنيه ، وأخذت رعدة الحمى تهدأ . وتراءى له فجأة أن تحت الغطاء شيئاً يركض على طول ذراعه وساقه . فارتعش ، وقال : « آ ... لكأنها فأرة ! طبعاً ... لأنني تركت اللحم على المائدة ! » كره كرهاً فظيعاً أن يكون عليه أن يكشف الغطاء عن جسمه ، وأن ينهض ، وأن يتعرض للبرد . لكن شيئاً لامس قدمه مرةً أخرى ملامسة كريهة مزعجة ، فرمى عنه الغطاء وأشعل شمعة . ثم مال يتفحص السرير وهو يرتجف من الحمى ، فلم يجد شيئاً . حتى اذا نفض الغطاء قفزت الى السرير فأرة على حين بغتة ، فأسرع يريد القبض عليها ، ولكن الفأرة أخذت ، دون أن تغادر السرير ، ترسم خطوطاً متعرجة في كل اتجاه ، وتتملص من بين أصابعه ، وتركض على ذراعه ، ثم اندست تحت المخدة . فرمى المخدة على الأرض ، ولكنه شعر في تلك اللحظة نفسها بشيء يثب

عليه ، ويتمطط على طول قامته ، ويصبح فوق ظهره ، تحت قميصه . فارتعش سفدريجايلوف ارتعاشة عصبية واستيقظ من نومه .

كان لا يزال راقداً على السرير ، متكوماً تحت الغطاء . وكانت الريح ما تزال تهمهم تحت النافذة .

قال لنفسه غاضباً : « يا له من حلم وسخ ! » .

ونهض فجلس على حافة السرير مديراً ظهره الى النافذة « الأفضل أن لا أنام البتة » . على هذا حزم أمره . وكان يهب من النافذة هواء رطب بارد ، فشد سفدريجايلوف الغطاء وتدثر به دون أن يبارح مكانه . ولم يشعل الشمعة . كان لا يفكر في شيء ، ولا يريد أن يفكر فى شيء على كل حال . لكن الصور كانت تلاحق الصور في خياله ، وكانت شزرات أفكار تتابع في ذهنه فوضى لا تحكمها رابطة ولا ينظمها تسلسل. لقد أصبح فيما يشبه النوم . هل يرجع هذا الى البرد والظلمات والرطوبة والريح التي تزمجر تحت النافذة وتهز الأشجار ؟ المهم أن أحلامه أخذت تتخذ أشكالاً غريبة ، وأخذت توقظ فى نفسه رغبة ، وكانت أزهار تتراءى له بغير انقطاع . هذا منظر رائع يتفتح أمام بصره . نهار مضيء ، دافيء ، يكاد يكون حاراً . هو يوم عيد العنصرة . منزل ريفي أنيق ثرى ، على الطراز الانجليزى ، ينتصب فى وسط مروج مزهرة ، وتحيط به أحواض موقوفة على زراعة الأزهار . نباتات متسلقة تتلفف فوق درجات مدخل المنزل غارقة تحت الورود . وعلى طول سلم كبير ، مضيء نضير ، مغطى بسجادة فخمة ، تترتب أواني خزف صيني تضم أزهاراً نادرة . ولاحظ سفدريجايلوف بوجه خاص ، على حواف النوافذ ، فى أوان ملأى بالماء ، باقات نرجسات بيض تميل على سيقانها الخضر وتنشر عبقاً نافذاً . كان سفدريجايلوف يود أن لا يبتعد عن هذه الأزهار ، ولكنه صعد السلم ودخل قاعة كبيرة عالية السقف . هناك أيضاً كانت الأزهار

منتشرة فى كل مكان : على النوافذ ، قرب البـاب الكبير الذى يطل على الشرفة ، وفى الشرفة نفسها . أرض القاعة مفروشة بعشب فوّاح أخضر نضر . مصاريع النـوافذ مفتوحة تدخل منها الى القـاعة أنسـام لطيفة . العصافير تغرّد تحت النوافذ . ولكن فى وسط الغـرفة ، فوق منضـدة فرشت بغطاء من قماش الساتان الأبيض الذى يُستعمل للموتى ، كان هناك تابوت . ان التابوت متجّد بنسيج من ساتان تابولى السـميك ، ومحفوف بابزيم سميك ، أبيض اللون أيضاً . ان حبالاً من أزهار تطوّق التابوت من جميع الجهات . وبين الأزهار يرقد جثمان صبية ترتدى ثوباً من نسيج التول الأبيض، قد عقدت ذراعيها على صدرها وشدت احداهما الى الأخرى حتى لكأنهما منحوتتان فى المرمر . غير أن شعرها المبعثر ، الأشقر ، رطب مخضل . وعلى جبينها اكليل من الزهر يطوّقه . ان وجهها الذى يظهر من جانب ، ويعبّر عن قسوة ، ويبدو متجمداً منذ الآن يشـبه أن يكون مقدوداً فى مرمر أيضاً ، ولكن ابتسامة شفتيها الشاحبتين مصطبغة بحزن لا نهاية له ، حزن ليس من الطفولة ، حزن كبير . ان سـفدريجايلوف يعرف هذه البنية . لم يكن الى جانب التابوت لا صورة من صور العذراء ، ولاشموع مشتعلة ، وليست تُتلى عليها صلوات. ان هذه البنية قد انتحرت غرقاً . عمرها لا يتجاوز أربعة عشر عاماً ، لكن قلبها قد تحطم وهى فى تلك السن : لقد سعت الى الموت ، لأنهـا وقعت ضحيـة اهـانة روّعت ضميرها الى الأبد ، وملأت نفسـها بعـار لا يستحقه وجـدان الطفلة ، وانتزعت منها صرخة يأس هـائلة اختنقت فى الظلمـات والبرد والجليـد الذائب وزمجرات الريح ...

استيقظ سفدريجايلوف من نومه ، فترك سريره واتجه نحو النافذة، واهتدى الى المزلاج ففتحها ، فاندفعت الى الحجرة الصغيرة هبة ريح صفعت خدّه وصدره الذى لا يغطيه الا القميص ، صفقهما بما يشبه رذاذ ثلج .

وكان تحت النافذة شيء يشبه أن يكون حديقة لعل روّاد الفندق يقضون فيها أوقات بهجة ومسرة أحياناً ، فتُغنّى فيها الأغاني ويُقدّم فيها الشاى على موائد صغيرة نهاراً . أما الآن فان قطرات ماء تسيل على النافذة آتيةً من الشجيرات المحيطة ، وان الظلام يبلغ من الحلكة أن المرء لا يميّز الا بقعاً سوداء غامضة تدل على الأشياء دلالة مبهمة .

لبث سفدريجايلوف خمس دقائق ، مائلاً الى أمام ، متكئاً بكوعيه على حافة النافذة ، محدقاً الى الظلام لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره . وفجأة ، في وسط الظلمات ، دوّت طلقة مدفع أولى فثانية .

قال سفدريجايلوف يحدث نفسه : « هذا هو الانذار ! المياه تعلو ، فما ان يطلع الصبح حتى تتدفق في الشوارع فيضانات تغرق الأقبية . الفئران ستطفو على سطح الماء ميتة . وتحت المطر والريح سيأخذ الناس ينقلون متاعهم الى الطوابق العليا ، وقد تبللت أجسامهم وانهدت قواهم وأخذوا يشتمون ويلعنون ... لكن كم الساعة الآن ؟ » .

وفيما كان سفدريجايلوف يفكّر في هذا ، اذا بساعة جدارٍ في مكان بعيد تدق الثالثة بصوت عميق .

قال سفدريجايلوف لنفسه : « آ .. بعد ساعة يطلع الصبح. فلماذا انتظر مزيداً من الانتظار ؟ سأنصرف حالاً . سأمضى قُدُماً الى جزيرة بتروفسكى ، فأختار دغلاً يبلغ من التبلل بالماء أنه يكفيك أن تلمسه بكتفك حتى تهطل عليك ملايين القطرات ... » وابتعد عن النافذة قليلاً ، فأغلقها ، ثم أشعل شمعة ، فارتدى صدرته ومعطفه ووضع على رأسه قبعته ، ومضى الى الممر حاملاً شمعته ، محاولاً أن يبحث عن الخادم الذى لا بد أنه نائم في ركن من الأركان التى تودع فيها الأشياء البالية . كان سفدريجايلوف يريد أن يدفع الحساب وأن يغادر الفندق . وقال يحدث نفسه : « هذه خير لحظة . لا يمكن اختيار لحظة أفضل » .

لبث يطوف في الدهليز الضيق الطويل مدة طويلة دون أن يلتقي بأحد . فلما همَّ أن ينادي اكتشف على حين فجأة ، في ركن مظلم ، بين خزانة قديمة وباب ، شيئاً غريباً ، شيئاً بدا له حياً . فمال على الشيء والشمعة بيده ، فرأى طفلة عمرها خمس سنين في أكثر تقدير ، ترتدي ثوباً خلقاً مبتلاً بالماء كابتلال خرقة من الخرق التي تغسل بها الصحون ، وهي ترتجف من البرد وتبكي . لم يظهر عليها ذعر حين رأت سفدريجايلوف ، ولكنها حدّقت اليه بعينيها السوداوين الكبيرتين مبهوتة. وكانت تشهق من حين الى حين ، كما يشهق طفل لبث يبكي مدة طويلة ثم انقطع عن البكاء ، لكنه ما يزال يشهق بين الفينة والفينة . كانت الطفلة شاحبة الوجه مشعثة الهيئة ، وكان واضحاً أن البرد قد بلغ منها العظام . ولكن كيف أمكن أن تقع في هذا المكان ؟ أغلب الظن أنها قد اختبأت في ركن ولم تنم طوال الليل !

أخذ سفدريجايلوف يستجوبها . فانتعشت الطفلة فجأة ، وأسرعت تتدفق في الكلام فتروي بلغتها الطفولية قصةً فحواها أن أمها كانت ستضربها لأنها كسرت فنجاناً .

كانت الطفلة تتكلم بغير توقف ؛ وفي وسع المرء أن يحزر مما روته وقصته أنها ليست محبوبة ، وأن أمها (وهي طباخة تظل دائماً سكرى ، ولعلها طباخة هذا المحل) تروّعها وتضربها ، وأن البنت حين كسرت الفنجان قد بلغ خوفها من الشدة أنها هربت منذ الليلة البارحة ؛ وأنها اضطرت أن تختبيء مدة طويلة في مكان ما من الحوش ، تحت المطر ، ثم استطاعت أن تتسلل الى هذا المكان خلسةً ، فاختبأت وراء الخزانة ، وقضت الليلة هنالك مرتعدةً من البرد مرتجفة باكية .

تناول سفدريجايلوف الطفلة بذراعيه ، وعاد الى غرفته فوضعها على سريره وأخذ يخلع لها ملابسها . كان حذاءاها مقطّعين ، مبتلين بالماء

ابتلالاً شـديداً لكأنهما قد نُقعا فى غـدير ليلةً كاملة • ولم يكن لهـا جوربان •

فلما فرغ سفدريجايلوف من خلع ملابسها عنها ، أرقدها ودثّرها بالغطاء حتى العنق ، فما لبثت أن نامت فوراً • وما ان انتهى من هذا حتى عاد يغرق فى أحلامه المظلمة وخواطره القاتمة •

قال يحدث نفسه : « هذا ما كنت فى حاجة اليه أيضـاً ! أن أقحم نفسى فى مثل هذه القصة ! يا للحماقة ! » • وتناول الشمعة مغتاظاً ليمضى باحثاً عن الخادم من أجل أن ينصرف بأقصى سرعة • فلما همّ أن يفتح الباب أفلتت من لسانه شتيمة للطفلة الصغيرة ، ومع ذلك عاد يلقى عليها نظرة ليرى هل نامت وكيف كان نومها • رفع الغطاء محاذراً • كانت البنية تنام نوماً عميقاً هادئاً سـعيداً • لقـد دفّأها الغطاء ، حتى ان خديهـا قد استردتا لونهما منذ الآن • ولكن الشىء الغريب أن هذا اللون كان أسطع اتقاداً مما يلاحَظ فى الأطفال الآخرين • فقال سفدريجايلوف لنفسه : « ان بها حمّى » • لكأنها قد شربت ، لكأنها قد سُقيت كأساً من الخمر كبيرة مترعة • ان شـفتيها الحمـراوين تبـدوان كالمحترقتين • « ماذا ؟ ما هذا ؟ » • لقد رأى سفدريجايلوف فجأة أن أهداب الصبية ، الطويلة السوداء ، تختلج وترتعش كأنها تنفتح ، ورأى من تحت الأهداب نظرةً ماكرة حادة ليست نظرة أطفال ، تتسلل اليه ، فكأن الطفلة غير نائمة لكنها تتظاهر بالنـوم • نعم ، ذلك ما كان ••• وانفرجت شـفتا الصـبية عن ابتسامة ، وكانت أطراف الشفتين تختلج كأنها تحاولان كظم ضحكة • ولكن محاولة الكظم تنتهى ، فتنطلق الضحكة • انها ضحكة صريحة ، وقحة ، فيها تحدٍ واستفزاز ، تنفجر فى وجه لم يبق فيه الآن شىء من طفولة • هو الآن وجه العهر والانحلال ، وجه وقح زايله الحياء ، وجه امرأة مثل « كاميليا » * مثل « غادة الكاميليا » ، وجه مومس تتعاطى البغاء

فى سبيل المال ، مومس فرنسية • وها هى ذى البنت ، بعد أن لم يبق لها ما تخفيه ، ها هى ذى تفتح عينيها ، وتلفه بنظرة عنيفة محـرقة ، فى غير تحفظ أو احتشام • ان عينيها تناديانه ، وتضحكان ••• وان هناك شـيئاً دنساً مسـيئاً مهيناً فى هذه الضحكة ، وفى هـاتين العينين ، وفى كل هذا الوجه الذى أصبح لا يعبر الا عن الرجس والعار • « وكيف ؟ أفى هذه السن ؟ أفى الخامسة من العمر ؟ » ، بهذا تمتم سفدريجايلوف مذعوراً • ولكن ها هى ذى تدير نحوه وجهها المتقـد ، وتمد اليه ذراعيها ، فيقول مروّعاً : « آه ••• يا للمعـونة ! » ، ويشـهر عليها ذراعه ••• ولكنـه استيقظ من نومه فى تلك اللحظة •

كان لا يزال راقداً على سريره متدثراً بالغطاء • ولم تكن الشـمعة مشتعلة ، غير أن بياض الفجر كان يلوح من وراء النوافذ •

« كوابيس طوال الليل ! » • كذلك قال سفدريجايلوف ، ثم نهض منتصباً على سريره فى غيظ وحنق • كان يحس بأنه محطّم • انه يشعر بوجع فى جميع عظامه • وفى الخـارج كان ينتشر ضباب كثيف يحجب الرؤية • لا بد أن الساعة قريبة من الخامسة • لقد نام مدة طويلة جداً •

وقام سفدريجايلوف ، فارتدى سـترته ومعطفـه اللذين ما يزالان مبتلين ؛ وبعد أن تلـّمس مسدسه فى جيبه ، أخرجه فتثبت من الكبسولة ، ثم جلس ، وتناول دفتراً صغيراً فكتب على الورقة الأولى منه بضعة أسطر بأحرف كبيرة • حتى اذا أعاد قراءة الأسطر التى كتبها ، رجع يسترسل فى أحلامه من جـديد ، متكئـاً بكوعيـه على المائدة • المسـدس والدفتر ما يزالان على المائدة قرب كوعـه • وقد استيقظ الذباب فهو يتهافت على قطعة لحم العجل التى لم يمسسها • ظل سفدريجايلوف ينظر الى الذباب برهة طويلة ، وحاول أخيراً أن يلتقط ذبابة من الذبابات بيده اليمنى التى كانت طليقة • ولكنه لم يفلح فى ذلك رغم الجهود الكثيرة التى بذلها •

وفاجأ نفسه آخر الأمر مستغرقاً فى هذا العمل ، فثاب اليه صوابه ، وارتجف ، ونهض فخرج من الغرفة بخطى حازمة ثابتة . فما هى الا لحظة حتى كان فى الشارع .

ان ضباباً بلون اللبن كان يغمر المدينة . وسار سفدريجايلوف على أرض الشارع الخشبية الموحلة الزلقة ، فى اتجاه نهر « نيفا الصغير » . كان لا يكف عن تخيل مياه النهر التى ارتفعت أثناء الليل ، وعن تخيل جزيرة بتروفسكى ، والطرق المنقوعة والعشب الغارق والأشجار والأدغال التى يتقاطر منها الماء ، ثم الدغل المقصود !... واغتاظ من ذلك فأخذ يتفحص المنازل من حوله ليصرف تفكيره الى شىء آخر . لم يكن فى الشارع أحد من المارة ، ولم يكن فيه أية عربة . والمنازل الخشبية الصغيرة ، الصفراء الفاقع لونها، كانت بنوافذها المغلقة ومصاريعها الموصدة، قذرة المظهر كالحة الهيئة .

أخذ سفدريجايلوف يرتجف من البرد والرطوبة اللذين نفذا فيه. فاذا وقع بصره على لافتة دكان من الدكاكين بين الحين والحين ، أخذ يقرأ الكلمات مدققاً متفحصاً .

ها قد انتهى الشارع المبلطة أرضه بالخشب . لقد وصل سفدريجايلوف الى مبنى كبير من حجر . وهذا كلب صغير بشع يمر أمامه قاطعاً الشارع ، واضعاً ذيله بين قائمتيه . وهذا رجل سكران حتى لكأنه ميت من فرط السكر ، قد رقد على الرصيف عرضاً ، لابساً معطفاً سميكاً ، واضعاً وجهه على الأرض .

نظر سفدريجايلوف اليه ثم تابع طريقه . وظهر له برج كبير على شماله فجأة . فهتف يقول لنفسه : « آ ... وجدت المكان المناسب . علام الذهاب الى جزيرة بتروفسكى ؟ فى هذا المكان يمكن على الأقل أن يوجد

شاهد رسمى » • وكاد يبتسم حين خطرت بباله هذه الفكرة ، ثم انعطف يدخل شارع « س ••• » • هناك كان ينتصب المبنى الذى يعلوه برج* • وعلى باب الفناء من هذا المبنى كان يستند بظهره رجلٌ قصير القامة متدثر بمعطف رمادى اللون من معاطف الجنود ، وعلى رأسه خوذة من نحاس كخوذة آخيل • رشق الرجل سفدريجايلوف بنظرة باردة تعبر عن النعاس • ان فى وجهه تلك الكآبة الحاقدة الساخطة التى عمرها مئات السنين ، تلك الكآبة التى تطبع فى كثير من المرارة قسمات وجوه جميع الناس الذين ينتمون الى ملة اليهود • وتفحص كل من سفدريجايلوف وآخيل صاحبه مدة من الوقت فى صمت • ورأى آخيل أخيراً أن من غير الطبيعى أن يقف رجل ليس بالسكران حتماً ، أن يقف على بعد ثلاث خطوات منه ، ويأخذ يحدق اليه ويتفرس فيه دون أن ينطق بكلمة • فقال يسأله ، وهو ما يزال جامداً لا يتحرك :

ــ هيه ! عمَّ تبحث ؟

فأجابه سفدريجايلوف :

ــ لا أبحث عن شيء أيها الأخ • صباح الخير •

ــ امض فى طريقك !

ــ هل تعرف أيها الأخ ؟ أنا مسافر الى الخارج ؟

ــ الى الخارج ؟

ــ الى أمريكا •

ــ الى أمريكا ؟

تناول سفدريجايلوف مسدسه وحشاه • فرفع آخيل حاجبيه • وصاح يقول :

ـ ما هذا المزاح ؟ ليس هذا هو المكان ...

ـ ولماذا لا يكون هو المكان ...

ـ لأنه ليس هو المكان ...

ـ دعك يا صاحبي ، لا ضير ... هذا المكان مناسب مع ذلك . فاذا سئلت فقل انى سافرت الى أمريكا .

قال سفدريجايلوف ذلك ووضع المسدس على صدغه الأيمن . فانبرى أخيل يقول له مندفعاً محملقاً مزيداً من الحملقة :

ـ ممنوع هنا . ليس هذا هو المكان .

وضغط سفدريجايلوف على الزناد .

الفصل السابع

في ذلك اليوم نفسه ، عند المساء ، بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، ذهب راسكولنيكوف الى مسكن أمه وأخته ، ذلك المسكن الذي أسكنهما فيه رازوميخين في عمارة باكالايف. ان مدخل السلم يطل على الشارع . كان راسكولنيكوف يتقدم متردداً ، متباطىء الخطو . ولكن ماكان له أن يقفل راجعاً بحال من الأحوال ، فقد اتخذ قراره وعزم أمره . كان يقول لنفسه : « انهما ، على كل حال ، لا تعرفان شيئاً حتى الآن ، وقد ألفتا أن تعداني شاذاً ... » . كانت ثيابه في حالة رهيبة ، فانه بعد ليلة كاملة من المطر قد تبللت ملابسه وتلطخت بالوحل . وكان منقلب الوجه من التعب والقلق والاجهاد الجسمي والصراع الروحي الذي ظل ناشباً في نفسه منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة . كان قد قضى الليل وحيداً ، لا يعلم الا الله أين ، ولكنه كان قد عقد العزم على انفاذ الأمر .

طرق الباب ، ففتحت له أمه . كانت دونيا قد خرجت . وكانت الخادمة نفسها غائبة في هذه الساعة . خرست بولشيريا الكسندروفنا من الدهشة والفرح في أول الأمر ، ثم أمسكت يده وقادته الى الغرفة. وبدأت تتكلم متلعثمة من فرط السعادة فقالت :

ـ آ ... هأنت ذا أخيراً ! لا تزعل يا روديا اذا أنا استقبلتك هذا الاستقبال الأبله باكية . انني أضحك . انني لا أبكي . أتظن أنني

أبكي ؟ لا ، أنا سعيدة . ولكن هذه عادة سخيفة من عاداتي . دموعي تنسكب لغير سبب ... منذ مات أبوك أصبحت أبكي لأتفه أمر من الأمور . اجلس يا حبيبي ، لا بد أنك متعب ، أنا أرى هذا واضحاً ! آه ... ثيابك متسخة جداً !...

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

ـ كنت أمس خارج البيت تحت المطر يا أماه !

فاندفعت بولشيريا ألكسندروفنا تقاطعه بقوة قائلة :

ـ لا ، لا ، لا يذهبن بك الظن الى أنني استجوبك ، على عادتي القديمة المتعبة . اهدأ بالاً ، فانني أفهم الآن كل شيء . لقد تعلمت عادات الناس هنا ، وأدركت أنها خير من عاداتنا نحن هناك . وأيقنت أنه ليس من حقي أن أحاول معرفة أفكارك ، وأن أحاسبك. الله يعلم ما هي الخطط والشئون التي تملأ رأسك ، وما هي الخواطر التي ترهقك ، فهل يجوز لي أن أشدك من ذراعك وأسألك : « هيَّا ، هيَّا قل لي ، قل لي فيم تفكر ؟ » ما حاجتي الى هذه الثرثرة أخبط فيها خبط عشواء ! هل تعلم يا روديا ؟ أنا الآن أقرأ ، للمرة الثالثة ، المقالة التي نشرتها في ... في تلك المجلة . لقد جاءني بها دمتري بروكوفتش . فما ان رأيتها هي صحت أقول : آه ... من فرط دهشتي ! قلت لنفسي : « ما كان أغباني وأشد حماقتي . هذا هو اذن ما يشغل باله . هذا يفسر كل شيء . كذلك هو شأن جميع العلماء . انه يدير في رأسه أفكاراً يتأملها وينضجها ، وأجيء أنا فأزعجه وأعذّبه ... » . انني أقرأ مقالتك يا بني ؟ فيها أشياء لا أفهمها طبعاً . ولكن لا غرابة في ذلك ، فما أنا الا امرأة بسيطة .

ـ أريني تلك المقالة يا أمي .

تناول راسكولنيكوف المجلة ، وألقى على مقالته نظرة عجلى .

فشعر ، رغم أن هذه الصفحات متعارضة أشد التعارض مع وضعه القائم وحالته النفسية الراهنة ، شعر بتلك العاطفة الغريبة ، بتلك العذوبة الحادة ، بتلك الحلاوة الكاوية التي يشعر بها الكتاب حين يرون انتاجهم مطبوعاً لأول مرة (ولا سيما حين لا يكون عمرهم قد تجاوز الثالثة والعشرين) . ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . فبعد أن قرأ الأسطر الأولى ، تقطب حاجباه ، وانقبض صدره ، واختنق قلبه بحزن رهيب. ان جميع أنواع الصراع والكفاح التي خاضها في هذه الأشهر الأخيرة قد عادت الآن الى ذاكرته دفعةً واحدة . فها هو ذا يرمي المجلة على المائدة بحركة اشمئزاز ولوعة .

ـ مهما أكن غبية يا روديا فانني أستطيع أن أدرك أنك ستصبح في المستقبل القريب واحداً من أعظم رجال عالمنا المثقف ، ان لم تصبح أعظمهم جميعاً بغير استثناء !... هه !... ومع ذلك تجاسروا فزعموا أنك مجنون ! هأ هأ هأ !... لعلك لا تعرف هذا ، ولكنهم زعموه ، ودار في خلدهم ! ما أحقرهم دوداً من دود الأرض ! مساكين ! أنّى لهم أن يفهموا ما هو الذكاء ! ولكن ما بال دونيا ، نعم ما بال دونيا قد أوشكت أن تصدّق ذلك هي أيضاً ؟... أهذا ممكن ؟ ان المرحوم أباك قد أرسل.. انتاجه مرتين الى احدى المجلات ، مرةً شعراً (ما زلت أحتفظ بالدفتر ، وسأريك اياه يوماً) ومرة قصةً (وقد رجوته أن يسمح لي بنسخها) ، وما أكثر ما دعونا الله أن ينشروا له انتاجه ذاك . ولكنهم لم ينشروه ! هل تعلم يا روديا ؟ انني منذ خمسة أيام أو ستة قد حزنت حين رأيت كيف تعيش وماذا تأكل وماذا تلبس وأين تسكن ؟ ولكنني أدرك الآن أنني كنت غبية في هذه المرة أيضاً ، فلو قد شئتَ لنلت كل شيء دفعةً واحدة بفضل ذكائك وموهبتك . ولكنك في أغلب الظن لا تشاء ذلك الآن ، لأنك مشغول عنه بأمور أهمّ شأناً .

ـ أليست دونيا فى البيت يا أمى ؟

ـ لا يا روديا ، انها تخرج فى أكثر الأحيان وتدعنى وحدى • لقد تلطف دمترى بروكوفتش فجاء يزورنى ويقضى بعض الوقت فى صحبتى• انه يكلمنى دائماً عنك • انه يحبك ، ويقدرك حق قدرك يا بنى • لا أزعم بهذا أن أختك لا تحفل بأمرى وأنها مقصرة فى حقى ، فلست ألومها ، ولكن لها طبعها ولى طبعى • وهى تخفى أسراراً صغيرة لا حصر لها ، تخفيها عنى ولا تطلعنى عليها • أما أنا فلست أخفى عنكما أى سر • أنا أعرف طبعاً أن دونيا ذكية جداً ، وأنها كذلك تضمر لى ، وتضمر لك أنت أيضاً ، كثيراً من العاطفة والحنان • ولكنى لا أدرى كيف ستكون خاتمة هذه الأمور كلها • لقد أسعدتنى بمجيئك كثيراً يا روديا ، ولكن ها هى ذى قد خرجت فى الوقت الذى جئت أنت فيه ! سأقول لها حين تعود : « جاء أخوك فى غيابك ، فأين كنت خلال ذلك الوقت ؟ » • ولكن لا تدللنى كثيراً يا روديا : تعال الىّ ان استطعت ، فان لم تستطع أن تجىء فلا ضير ، وسأنتظرك على كل حال ، وسأعرف دائماً أنك تحبنى ، وهذا يكفينى • سوف أقرأ مؤلفاتك ، وسوف أسمع الناس جميعاً يتحدثون عنك ، وسوف تجىء أنت الىّ من حين الى حين • ما عساى أتمنى أكثر من ذلك ؟ هأنت ذا قد جئت اليوم لتواسى أمك ، اننى أرى هذا واضحاً ، فهل يمكن أن أطلب المزيد ؟

هنا أخذت بولشيريا الكسندروفنا تبكى فجأة •

ـ آه ••• هأنا ذا أعود الى البكاء ! لا تنظر الىّ يا بنى ! ما أنا الا حمقاء !

ثم هتفت تقول وهى تنهض واثبة :

ـ آ ••• ما بالى أظل جالسة هذا الجلوس ! عندنا قهوة ولا أقدم لك منها ••• هذه أنانية المسنين ! حالاً ! حالاً !•••

ـ أماه ! دعي هذا ! أنا ذاهب بعد لحظة ! ما من أجل ذلك جئت . أرجوك ، أصغي الي ّ !

اقتربت منه بولشيريا الكسندروفنا وجلة . فقال يسألها طافح القلب، دون أن يفكر ودون أن يزن كلامه :

ـ أتظلين تحبينني ، يا أماه ، كما تحبينني الآن ، مهما تسمعي عني، ومهما تعلمي من أمري.؟

فأجابت الأم :

ـ روديا ، روديا ، ماذا بك ؟ كيف يمكنك أن تلقي سؤالاً كهذا السؤال ؟ من ذا الذي يجرؤ أن يقول فيك سوءاً ؟ وهبْ أحداً قال فيك سوءاً ، فانني لن أصدقه ؟ لن أصدّق أحداً يجرؤ أن ... سوف أطرد من يجرؤ ... سوف أطرده ...

تابع راسكولنيكوف كلامه يقول :

ـ جئتُ لأؤكد لك أنني أحبيتك دائماً ؟ وانه ليسرني أن نكون الآن وحيدين ، وأن لا تكون دونيا هنا . لقد جئت لأقول لك بصراحة ان عليك ، مهما يصبك من شقاء ، أن تعلمي أن ابنك يحبك أكثر مما يحب نفسه ، وان كل ما يمكن أن يخطر ببالك من ظنون عن قسوتي وقلة عاطفتي انما هو باطل . وانني لن أكفّ عن حبك يوماً ... كفى هذا الآن ، وانما أنا قدّرت أن عليّ أن أبدأ به ...

ضمّت بولشيريا ألكسندروفنا ابنها صامتة ، وشدته الى صدرها ، وبكت في رفق . وقالت أخيراً :

ـ لا أدري ماذا بك يا روديا . كنت أقدّر حتى هذه اللحظة أن كل ما في الأمر هو أنك قد ضقت بنا . ولكنني أدرك الآن أدراكاً واضحاً أن

آلاماً كبيرة تنتظرك ، وأن هذا هو السبب في حزنك . لقد أحسست بشيء من هذا احساساً غامضاً منذ مدة يا روديا . سامحني اذا أنا حدثتك في ذلك ، ولكنني دائمة التفكير فيه ، حتى أنه يؤرقني ويحرمني من النوم. كانت أختك في هذه الليلة تهذي ، وتكلمت أثناء هذيانها عنك . ميّزت بعض الكلمات ، لكنني لم أفهم شيئاً . وظللت طوال الصباح كمن ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه ؛ نعم ، أصبحت أتوقع شيئاً ما سيحدث ، وها هو ذا الشيء الذي توقعته يحدث فعلاً ! روديا ! روديا ! الى أين أنت ذاهب ؟ ستسافر ، ستسافر ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، سأسافر .

ـ ذلك ما كنت أقدّره ! ولكن في وسعي أن أسافر معك ، اذا كان ذلك ينفعك . ودونيا أيضاً تحبك ، تحبك كثيراً ؛ ولتأت معنا صوفيا سيميونوفنا أيضاً اذا وجب ذلك ! انني مستعدة لأن أقبلها بنتاً لي . وسيساعدنا دمتري بروكوفتش في الاستعداد للسفر . ولكن الى أين تريد أن تسافر ؟

ـ استودعك الله يا أماه !

هتفت الأم تقول وكأنها تفقد ابنها الى الأبد :

ـ كيف ؟ أفي هذا اليوم نفسه ؟

ـ لا أستطيع التأخر ... آن الأوان ... يجب حتماً أن ...

ـ وأنا ؟ ألا أستطيع أن ... أذهب معك ؟

ـ لا . ولكن اركعي وصلي لي ، فلعل الله يستجيب لصلاتك !

ـ دعني أرسم عليك اشارة الصليب ، دعني أباركك . نعم ، هكذا ، هكذا ! رباه ... ماذا نفعل ؟

نعم ، لقد كان راسكولنيكوف سعيداً بأن البيت خال ليس فيه أحد، كان سعيداً بأن يخلو الى أمه ، حتى لكأنه بعد جميع العذابات الرهيبة التى عاناها قد ذاب قلبه حناناً على حين فجأة دفعةً واحدة ؛ فها هو يرتمى على قدمى أمه فيقبّلهما ، وها هما يبكيـان كلاهما ويتعانقان . والأم فى هذه المرة لا تشعر بدهشة ولا تلقى سؤالاً . لقد أدركت أن ابنها يعانى أموراً فظيعة ، وأن لحظة رهيبة سوف تأزف بعد قليل ، فتحدد مصيره تحديداً حاسماً .

قالت ناشجةً :

ـ روديا ، يا بنى الحبيب ، يا أول ولد لى ، هأنا ذى أراك الآن كما كنت فى صغرك تماماً . كنت تجىء الىّ على هذا النحو نفسه ، فتطوقنى، وتقبّلنى ، بهذه الطريقة نفسها . وحين كان أبوك ما يزال معنا ، وحين كانت حياتنا قاسية قسوة شديدة ، كنت أنت تعزينا كلينا بوجودك . وبعد أن دفنت أباك ، كم من مرة بكينا على قبره ، أنا وأنت ، متعانقين كتعانقنا الآن ! لئن كنت أبكى منذ مدة ، فلأن قلبى ـ قلبَ الأم ـ قد أوجس أن شراً سيقع ، أن مصيبة ستنزل . حين رأيتك أول مرة مساءَ يوم وصولنا الى هنا حزرت كل شىء من رؤية نظرتك وحدها ، فسرعان ما ارتعش قلبى ؛ واليـوم ، حين فتحت لك الباب ، نظرت اليك فلم ألبث أن قلت لنفسى : لا شك أن الساعة المشئومة قد حانت . روديا ، روديا ، أأنت مسافر فوراً ؟

ـ لا .

ـ هل ستعود ؟

ـ نعم ... سأعود .

ــ روديا ، لا تزعل ، أنا لا أجرؤ أن أسألك ، أنا أعرف أنني لن أجرؤ ، ولكن قل لي كلمة واحدة فقط : هل المكان الذي ستسافر اليه بعيد ؟

ــ بعيد جداً .

ــ ما الذي يدعوك الى هناك ؟ وظيفة ، عمل ؟

ــ ما يرسله اليَّ الله ... ولكن صلّي من أجلي !

واتجه راسكولنيكوف نحو الباب ، غير أن أمه تشبثت به ، ونظرت اليه محدقةً في عينيه وقد عبّر وجهها عن يأس شديد ، وانقلبت سحنتها خوفاً وذعراً .

قال راسكولنيكوف نادماً أعمق الندم على أنه جاء :

ــ كفى يا أماه !

ــ لست تسافر الى الأبد ، ليس كذلك ؟ لست تسافر الى الأبد بعدُ ، أليس كذلك ؟ وسترجع غداً ، ألن ترجع غداً ؟

ــ سأرجع ، سأرجع ، أستودعك الله !

وانتزع نفسه منها أخيراً .

كان المساء ناعماً طرياً صافياً . لقد صحا الجو منذ الصباح . وعاد راسكولنيكوف الى بيته . كان مسرعاً . كان يريد أن يفرغ من الأمر قبل غياب الشمس . وكان حتى هذه اللحظة يتمنى أن لا يصادف أحداً. فلما كان صاعداً الى غرفته لاحظ أن ناستاسيا تركت سماورها وأخذت تتابعه بنظراتها . قال يسأل نفسه : « أيكون أحد عندي ؟ » . وتذكر بورفير مشمئزاً ممتعضاً . لكنه حين وصل الى غرفته وفتح الباب ، رأى دونيا . كانت جالسةً على الديوان ، غارقة في تأمل عميق. وكان واضحاً

أنها قد انتظرته مدة طويلة . وقف على العتبة . ان نظرتها المحدقة اليه الثابتة عليه تعبّر عن ذعر هائل وحزن لا نهاية له . أدرك من هذه النظرة وحدها أنها تعرف كل شيء .

سألها حائراً :

ـ أأدخل أم أنصرف ؟

فقالت :

ـ قضيت النهار كله عند صوفيا سيميونوفنا . كنا ننتظرك كلتانا . وكنا نظن أنك لا بد أن تأتي .

دخل راسكولنيكوف ، وتهاوى على كرسي ، مهدود القوى ، وقال :

ـ أشعر بضعف ووهن يا دونيا ، انني متعب جداً ، وأنا في هذه اللحظة خاصة انما احتاج الى قواي كلها .

ونظر اليها نظرة ارتياب .

ـ أين كنت طوال الليل ؟

ـ لا أتذكر جيداً . لقد أردت يا أختي أن اتخذ قراراً حاسماً ، ومضيت عدة مرات الى قرب نهر نيفا . هذا أتذكره . أردت أن أنهي الأمر هنالك ...

وأضاف راسكولنيكوف يقول متمتماً وهو يلقي على دونيا تلك النظرة المرتابة نفسها :

ـ ولكنني ... لم أعزم أمري ...

ـ الحمد لله !.. ليتك تعلم كم كنا خائفتين ، أنا وصوفيا سيميونوفنا ، من أن تفعل ذلك ! اذن ما زلت تؤمن بالحياة ! الحمد لله ! الحمد لله !

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة مرة . وقال :

ـ كنت لا أؤمن بها ، ولكنني آمنت منذ قليل ، حين تعانقنا أنا وأمي، وبكينا . أنا لست مؤمناً ، ومع ذلك طلبت من أمي أن تصلي من اجلي وأن تدعو الله لي . الله يعلم كيف يحدث هذا يا دونيتشكا ! على كل حال، لست أفهم من الأمر شيئاً !...

هتفت دونيا تقول مذعورة :

ـ كنت عند أمنا ؟ وقلت لها ؟.. هل جرؤت حقاً أن تقول لها ..

ـ لا ، لم أقل شيئاً ... لكنها فهمت أشياء . لقد سمعتك تهذين في الليل . واني لواثق أنها تعرف الحقيقة منذ الآن . لا أدري لماذا ذهبت اليها . أنا انسان سيء يا دونيا !

ـ أأنت انسان سيء ، أنت الذي ترضى أن تقبل الألم ؟ ذلك أنك تقبل الألم ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، الآن أقبله . انني من أجل أن اتحاشى هذا العار ، اردت أن أغرق نفسي يا دونيا . ولكني حين ملت فوق مياه النهر ، قلت : ما دمت أعد نفسي رجلاً قوياً فما ينبغي أن أتراجع أمام العار . هذه كبرياء يا دونيا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، هي كبرياء يا روديا !

لكأن شعلة قد عادت تتقد في عيني راسكولنيكوف المنطفئتين : كان ما يزال يسره أن يكون ذا كبرياء !

وسأل أخته وهو يبتسم ابتسامة رهيبة ويحدّق الى عينيها بنظرة ثابتة :

ـ قولى يا أختى ، هل تعتقدين أن الخوف من الماء وحده هو الذى صدّني عن الانتحار غرقاً ؟

فهتفت دونيا تقول بمرارة :

ـ كفى يا روديا !

وساد الصمت دقيقتين .

كان راسكولنيكوف جالساً خافض العينين . وكانت دونيا واقفة عند الركن الآخر من المائدة تتأمله وقد عبّر وجهها عن ألم شديد . ونهض راسكولنيكوف فجأة . وقال :

ـ تأخرت . حانت الساعة . سأمضى أشى بنفسى . ولكنى لا أدرى لماذا أشى بنفسى !

فانحدرت على خدى الفتاة دموع كبيرة .

قال راسكولنيكوف :

ـ تبكين يا أختي ؟ ولكن هل تقبلين أن تمدى الىّ يدك ؟

قالت :

ـ هل يساورك شك فى هذا ؟

ثم ضمته بين ذراعيها ضماً قوياً . وهتفت تقول وهى ما تزال تعانقه وتقبّله :

ـ ألست تمحو نصف جريمتك حين تقبل الألم ؟

فصاح يسألها فى سورة من غضب شديد :

ـ جريمة ؟ أية جريمة ؟ أيكون جريمة" قتلُ قملة قذرة ضارة ، قتلُ مرابية عجوز لا يحتاج اليها أحد ، مرابية تمتص دماء الفقراء ؟ الا ان قتلها ليمحو أربعين خطيئة ! لا أظن أن هذا الفعل جريمة ، ولا اريد أن أتطهر منه وأكفر عنه . ما بالكم جميعاً تكررون على مسامعى : « جريمة ، جريمة » ؟ نعم ، انني وقد قررت أن أتحمل هذا العار الذى لا طائل تحته ، أدرك الآن مدى ما يشتمل عليه جبنى من سخف . ان الصغار والعجز وحدهما هما اللذان يدفعانى الى أن ... وربما أضيفت اليهما المنفعة ... كما ... كما كان يقترح علىّ ذلك ... بورفير !

صاحت دونيا تقول وقد استولى عليها كرب شديد :

ـ أخى ، أخى ، ما هذا الذى تقوله ؟

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه يقول خارجاً عن طوره :

ـ دم يسفحه جميع الناس ، يجرى وسيظل يجرى على الأرض أنهاراً ... نعم ... يسكبه جميع الناس كالشمبانيا ، ومن أجله يتوّج بعضهم فى « الكابيتول » ، ويسمى بطلاً من الأبطال الذى أحسنوا الى الانسانية ! أنعمى النظر قليلاً واحكمى فى الأمر ! أنا قد أردت أن أصنع للبشر خيراً ، وكنت مستعداً لأن أقوم بمئات الحسنات بل بألوف الحسنات تعويضاً عن تلك الحماقة البسيطة ... بل قولى عن تلك الخرافة البسيطة، لأن الفكرة فى ذاتها لم تكن حمقاء الى الحد الذى يبدو الآن ، بعد ان أخفقت (نعم ان كل من يخفق يبدو غبياً أحمق) . الخلاصة انني رجوت بهذه الحماقة ـ ولنسلّم بأنها حماقة ـ أن أخلق لنفسى وضعاً مستقلاً ، أن أخطو خطوة أولى ، أن أحصل على موارد ، فاذا جميع الأمور تتدبر بعد ذلك على نحو مفيد ، عادل ، مرض ... كل ما هنالك اننى منذ الخطوة الأولى قد ترنحت لأننى جبان . تلك هى الحقيقة ! وذلك هو السبب فى

أننى شقى : فلو قد نجحت لوضعوا على رأسى أكاليل الغـار ، أما الآن فانهم يلقوننى الى الكلاب •••

ـ ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً ! ما هـذا الذى تقـوله يا أخى ؟

ـ صحيح أننى لم أراع الأشكال ، لم أراع الأشكال البديعة التى توجبها قواعد الجمال • ولكن هل تعتقدين حقاً أن قذف القنابل على سكان آمنين ، أثناء حصار ، أكثر مراعاة للأشكال البديعة وأكثر تقيداً بقواعد الجمال ؟ ثم ان الاهتمام بقواعد الجمـال أول علائم العجز ••• اننى لم أحسَّ هذه الحقيقة فى يوم من الأيام كما أحسها الآن ، ولا عجزت فى يوم من الأيام عن أن أفهم ما هى جريمتى كما أعجز عن هذا الآن ! لم أكن فى يوم من الأيام أشد اقتناعاً وأرسخ يقيناً منى فى هذه اللحظة !•••

قال راسكولنيكوف هذا واحمر وجهه المخرَّب الشاحب احمراراً قانياً على حين فجأة • لكنه حين نطق بهذه الصيحة الأخـيرة التقت عيناه مصـادفةً بنظرة دونيـا ، فقرأ فى هذه النظرة ألماً يبلغ من الشـدة أن راسكولنيكوف لم يلبث أن ثاب الى رشده فجأة وسيطر على اندفاعه رغم ارادته تقريباً • لقد شعر أنه على كل حال قد أشقى امرأتين مسكينتين • انه هو السبب مهما يكن من أمر !••• قال :

ـ دونيا العزيزة ! اذا كنت مذنباً فاغفـرى لى (رغم أن الغفران مستحيل اذا كنت مذنباً) • أستودعك الله ! كفى مناقشة ! لقد آن الأوان حتى لقد تأخرت ! لا تتبعينى ، أرجوك ! هنـاك زيارة أخـرى يجب أن أقوم بها ••• وانصرفى حالاً وابقى الى جانب أمنا ، أرجـوك ، أضرع اليك ! هذا آخر وأكبر رجاء أتوجه به اليك •• لا تتركيها لحظة واحدة• لقد ودَّعتها وهى على حال من القلق لا تستطيع أن تطيقها ••• فاما أن

تمـوت واما أن تُجنّ . فابقى اذن بقـربها ! وسـيكون رازوميخين الى جانبكما ، لقد كلمته فى الأمر ... لا تبكى علىّ ... سأحاول أن أكون طوال حياتى شريفاً وشجاعاً ، رغم أننى قاتل . وقد تسمعين باسمى فى يوم من الأيام . لن ألطخ شرفكم بالعار . سوف ترين . سوف أبرهن..

وأسرع راسكولنيكوف يقـول وقد لاحظ حين نطق هذه الكلمات الأخيرة وبذل تلك الوعود أن عينى دونيا قد التمع فيهما تعبير غريب :

ــ والآن ، الى اللقاء . لماذا تبكين هكذا ؟ لا تبكى ! لا تبكى ! اننـا لا نفترق الى الأبد ! ها ... نعم ... انتظرى ... نسيت !...

واقترب من المائدة ، فتناول منها كتاباً ضخماً غشّاه الغبار ، ففتحه ، فسحب منه صورة صغيرة لوجه مرسوم بالألوان المائية على عاج ، كانت موجودة بين أوراق الكتاب . انها صورة بنت صاحبة البيت ، الفتاة التى ماتت من الحمى وكانت فى الماضى خطيبته وكانت تريد أن تدخل الدير . تأمل راسكولنيكوف هذا الوجه الصغير المعبّر المتألم ، ثم قبّل الصـورة ومدّها الى دونيا وهو يدمدم شارد الذهن :

ــ كثيراً ما كلمتها هى أيضاً عن « ذلك الأمر » . لقد بحت لقلبها بكثير مما تحقق بعد ذلك تحققاً جهنمياً !

وأردف يقول لدونيا :

ــ لا تقلقى يا دونيـا ! كانت لا تؤيد آرائى أو تحبّذها أكثر ممـا تؤيدينها أو تحبذينها أنت ! وانى لأحمد الله على أنها بارحت هذا العالم !

ثم هتف يقول فجأة وقد عاد اليه عذابه :

ــ المهم ، المهم أن كل شىء سيتغير ، وأن الانفصال عن الماضى سيكون تاماً . نعم ، كل شىء ، كل شىء سيتغير ! ولكن هل أعددت نفسى لهذا ؟

وهل أنا أريده حقاً ؟ يقال ان هذه المحنة لازمة لى ، ولكن فيم هذه المحن السخيفة كلها ؟ ما فائدتها ؟ ما جدواها ؟ هل سأكون أقدر على الفهم ، حين أصبح ، بعد عشرين سنة من الاعتقال ، شيخاً مرهقاً هدّه الألم ودمّره العذاب وصار أبله معتوهاً ؟ وما فائدة أن أبقى على قيد الحياة بعد ذلك ؟ لماذا قبلت حياة كهذه الحياة ؟ آه ... لقد أدركت حقاً أننى جبان رعديد حين ملت على مياه نهر نيفا فى هذا الصباح عند الفجر !

وخرج الاثنان أخيراً . كانت دونيا تتألم كثيراً ، ولكنها كانت تحب أخاها . وابتعدت . غير انها ما ان سارت خمسين خطوة حتى التفت الى وراء لتنظر اليه . كان راسكولنيكوف ما يزال يُرى . وحين وصل الى ناصية الشارع التفت هو أيضاً ، فالتقت نظرتاهما آخر مرة . لكنه حين لمح أن أخته تنظر اليه حرّك يده باشارة تململ بل باشارة غضب ، ليومىء لها بأن عليها أن تتابع السير فى طريقها . وأسرع يغيب هو أيضاً عند منعطف الشارع .

وحدث نفسه يقول آسفاً على حركة التململ أو الغضب التى بدرت منه : « أنا شرير ! واضح أننى شرير !... ولكن لماذا تحبنى أختى كل هذا الحب ما دمت لا أستحقه ؟ آه ... لو كنت وحيداً ، لو لم يكن هناك أحد يحبنى ، « اذن لما حدث شىء من ذلك كله » ! والآن أود لو اعرف هل سأصبح بعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة من الاعتقال فى السجن ، هل سأصبح ذليلاً مذعناً صاغراً الى الحد الكافى الذى يجعلنى أمضى الى جميع الناس أذرف أمامهم الدموع ، وأعلن لهم أننى وغد ؟ طبعاً ، هذا هو السبب الذى يحضهم على ارسالى الى السجن ؟ ذلك هو ما يريدون.. آه ... اننى أراهم جميعاً يذهبون ويجيئون فى الشوارع . انهم جميعا جبناء حقيرون أوغاد ، والأنكى من ذلك أنهم جميعاً بلهاء معتوهون ! ومع

ذلك يكفى أن أحاول تحاشى السجن حتى تثور مشاعرهم النبيلة فاذا هم مستاءون ساخطون ! آه ... اننى أكرههم ! أمقتهم !...

وغرق راسكولنيكوف فى خواطره وتأملاته ، فكان يتساءل : « كيف سأنتهى شيئاً فشيئاً الى الشعور بالمذلة أمامهم جميعاً على اقتناع منى بذلك؟ ولكن لم لا ؟ لا شك أن الأمر سيجرى هذا المجرى . ألا تستطيع عشرون سنة من العبودية المتصلة الى بلوغ هذا الهدف ؟ الماء يأكل الصخر . ولكن اذا صحّ هذا ، فعلام أحيا ، علام أحيا ؟ نعم ، علام أذهب الى هناك مع اننى أعلم منذ الآن أن كل شىء سيجرى على نحو ما أتنبأ ، لا على أى نحو آخر ؟ » .

لعله حين ألقى هذا السؤال على نفسه الآن قد ألقاه للمرة المائة منذ البارحة . لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار فى السير .

الفصل الثامن

حين دخل راسكولنيكوف على صونيا كان الغسق قد أخذ يهبط . لقد انتظرته صونيا طوال النهار وهى فى حالة قلق رهيب . انتظرته مع دونيا . ان دونيا قد جاءت الى صونيا فى الصباح اذ تذكرت أن سفدريجايلوف قال لها ان صونيا « تعرف » . لن نروى تفاصيل الحديث الذى جرى بين دونيا وصونيا ، ولن نتحدث عن الدموع التى ذرفتاها ، وعن التفاهم الذى نشأ بينهما . وحسبنا أن نقول ان دونيا قد خرجت من هذا اللقاء بعزاء كبير : ان أخاها لن يكون وحيداً . فلها ، لصونيا ، انما أفضى بسره وباح بجريمته قبل أى شخص آخر ؟ وفيها ، فى صونيا ، انما التمس انساناً يركن اليه حين أحس أنه فى حاجة الى انسان يركن اليه . فهى التى ستتبعه اذن أينما ترسله الأقدار . لم تلق دونيا أى سؤال عن هذا الأمر ، ولكنها كانت تعلم أن ذلك هو ما سيحدث. حتى لقد كانت تنظر الى صونيا بنوع من التقديس اضطربت له صونيا فى أول الأمر ، وخجلت منه ، وكاد يبكيها ، من فرط قوة اعتقادها بأنها أهون شأناً وأحقر قيمة من أن ترفع عينيها الى دونيا . ان صورة دونيا الرائعة الفاتنة ، حين حيتها بكثير من الاهتمام والاحترام يوم لقائهما فى بيت راسكولنيكوف ، قد انحفرت فى نفسها الى الأبد صورةً من أجمل وأروع ما رأت فى حياتها من صور جميلة رائعة .

ونفد صبر دونيا أخيراً فتركت صونيا لتنتظر أخاها فى بيته . لقد بدا لها أنه سيذهب الى هناك أولاً . فلما خلت صونيا الى نفسها عاودها

الخوف الرهيب من أن يكون راسكولنيكوف قد ينتحر • وكانت دونيا ، هي أيضاً ، تخشى ذلك • ولكن كلاً منهما كانت قد ظلت تقنع الأخرى بأن هذا التصور ليس له مايسوّغه وأن الأمر يستحيل أن يقع ، مستندتين في ذلك الى جميع الأدلة والحجج التي يمكن تخيلها • لهذا كانتا هادئتين بعض الهدوء طوال مدة اجتماعهما • ولكن ما ان افترقتا حتى أصبحتا كلتاهما لا تفكران الا في هذا • تذكّرت صونيا أن سفدريجايلوف قال لها أمس ان أمام راسكولنيكوف مخرجين لا ثالث لهما : فاما سيبيريا واما ••• وكانت تعرف من جهة أخرى كبرياء الشاب واعتزازه بنفسه وقلة عاطفته الدينية ، فكانت تتساءل قلقةً أشد القلق : « هل يمكن أن يكون الخوف من الموت كافياً وحده لصدّه عن الانتحار وجعله يتشبث بالحياة ؟ »

وكانت الشمس تميل الى الغروب في أثناء ذلك • وكانت صونيا واقفة قرب النافذة تحدّق الى الخارج حزينةً ملتاعة • ولكن جداراً مسوداً من جدران منزل مجاور كان هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن تراه العين من هناك • وأخيراً ، حين أصبحت على مثل اليقين بأن المسكين قد مات ، دخل عليها راسكولنيكوف •

فانطلقت من صدر صونيا صرخة فرح ، ولكنها حين تفرست في وجهه ملياً اصفر وجهها فجأة •

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

ـ هيه صونيا ! لقد جئت آخذ صلبانك ! ألم تأمريني أنت نفسك بأن أمضي أعترف على رءوس الأشهاد ؟ فما بالك تخافين الآن وقد قررت أن أضع ذلك موضع التنفيذ ؟

كانت صونيا تنظر اليه مذهولة مبهوتة • لقد بدت لها هذه اللهجة غريبة • وسرت في جسمها رعدة باردة ، لكنها أدركت بعد دقيقة واحدة

أن كل شيء ـ اللهجة والكلمات ـ لم يكن الا تظاهراً وتصنعاً . لقد كان يكلمها متهرباً من نظراتها . وأردف يقول :

ـ اسمعى يا صونيا ، لقد وجدت أن من مصلحتى أن أتصرف هذا التصرف ، فإن هناك ظرفاً خاصاً يجعلنى ... ولكن الامر يطول شرحه ... ثم لا قيمة لهذا ... ولكن هل تعلمين ما الذى يغيظنى ويحنقنى ؟ اننى أُجنُّ غضباً حين أتصور جميع أولئك الجفاة الأغبياء الوحوش يزدحمون حولى ويحيطون بى ويحملقون فىَّ ، وحين أتصور جميع الأسئلة البلهاء التى سيلقونها علىَّ والتى سيكون من واجبى أن اجيب عنها ؛ حين أتصور جميع هؤلاء الناس الذين سيشيرون الىَّ بأصابعهم ... هه !... هل تعلمين ؟ لن أذهب الى بورفير . لقد أزعجنى كثيراً . وانما سأذهب الى صديقى « بارود » . وبذلك أدهشه أشد دهشة . لا شك اننى سأثير فى نفسه دهشة كبيرة ! ولكن ينبغى أن أكون أكثر هدوءاً ، وقد أصبحت فى الآونة الأخيرة ثائر الأعصاب ! هل تصدقين ؟ لقد أوشكت منذ قليل أن ألوح لأختى بيدى مهدِّداً متوعداً ، لا لشيء الا لأنها التفتت تلقى علىَّ نظرة أخيرة ! آه ... انه لعار أن أكون فى مثل هذه الحالة العصبية ! اترانى هبطت الى مثل هذا الدرك الأسفل ؟ والآن ، أين الصلبان ؟

كان راسكولنيكوف لا يبدو فى حالة سوية . كان لا يستطيع أن يستقر فى مكانه دقيقة واحدة ، ولا أن يركز انتباهه على أى شيء . كانت أفكاره تختلط فى أحاديثه وتتشابك وتضطرب . وكانت يداه ترتجفان قليلاً .

سلَّت صونيا صليبيها من علبة صغيرة دون أن تقول شيئاً : الصليب الخشبى المصنوع من خشب السرو ، والصليب النحاسى . ورسمت على

نفسها اشارة الصليب ثم رسمت اشارة الصليب على راسكولنيكوف ، ثم علقت صليب خشب السرو في عنقه .

ـ يرمز هذا اجمالاً الى انني أحمل صليبي ... ها ها ها !... كأنني ما تألمت ألماً كافياً حتى الآن ! ان الصليب الخشبي هو صليب ابناء الشعب ! أما الصليب النحاسي ، أي صليب اليزابت ، فأنت تحتفظين به لنفسك . أرينيه ! اذن كانت اليزابت تحمله في ذلك الأوان ! ... انا أيضاً أعرف صليبين من هذا النوع ، بل صليباً من فضة ووساماً . رميتهما في ذلك اليوم على صدر العجوز . فانظرى ماذا يجب عليّ أن أضع في عنقي اليوم ! على كل حال ... أنا أقول سخافات ، وأنسى الأمر الأساسي ... انني ذاهل ... اسمعي يا صونيا : لقد جئت لأبلغك ... نعم ، يجب أن تعلمي ... أنا لم أجيء الا لهذا (ولقد كنت مع ذلك أقدّر ان أقول أكثر مما سأقول) ... اسمعي : أنت التي حضضتني على أن افعل ما سأفعل .. سوف أنفذ ارادتك فأدخل السجن . ولكن ما بالك تبكين أنت أيضاً ؟ كفى كفى ! كفى بكاءً ! آه ... لشد ما يؤلمني هذا كله !

تأثر راسكولنيكوف تأثراً شديداً ، وانقبض صدره حين رأى صونيا تبكي . وتساءل : « وهذه ، لماذا تتألم هذه ؟ ماذا أنا عندها ؟ ما بالها تبكي؟ ما الذي يجعلها تهتم بي كأنها أمي أو أختي ؟ ما الذي يحملها على ان تصاحبني الى نهاية الشوط ؟ آه ... سوف تكون لى بمثابة المربية للطفل » .

تضرعت اليه صونيا قائلة بصوت خائف مرتعش :

ـ ارسم اشارة الصليب ! صلّ مرة واحدة على الأقل !

ـ اذا كان ذلك يرضيك فسأفعله ما شئت من مرات ! سأفعله راضياً كل الرضى يا صونيا !

والحق أن راسكولنيكوف كان يتمنى لو يقول شيئاً آخر تماماً •

وها هو ذا يرسم اشارة الصليب عدة مرات • وتناولت صونيا شالها فغطت به رأس راسكولنيكوف • هو خمار أخضر من جوخ السيدات ، لعله « شال الأسرة » الذي تكلم عنه مارميلادوف • ومضت هذه الفكرة في ذهن راسكولنيكوف خلسة ، ولكنه لم يلق أي سؤال • لقد بدا يلاحظ أنه أصبح ذاهلاً ذهولاً فظيعاً ، وأنه أصبح قلقاً قلقاً رهيباً • خاف • وسرعان ما أدهشه أشد الدهشة على حين فجأة أن يرى صونيا تتهيأ لصاحبته •

صاح يقول لها غاضباً :

ـ ماذا تفعلين ؟ الى أين أنت ذاهبة ؟ ابقي ! ابقي ! سأذهب وحدي•

واتجه نحو الباب شبه زعلان ، وتمتم يقول وهو يخرج :

ـ أأنا في حاجة الى خفير ؟

بقيت صونيا في وسط الغرفة • لقد أهمل حتى توديعها • نسيها منذ الآن • هنالك فكرة واحدة تثيره وترهقه • تساءل وهو يهبط السلم : « هل هذا ما يجب أن أفعله حقاً ؟ أليس من الممكن أن أتوقف ، أن أنكص على عقبي ، أن أدبر الأمور ••• أن لا أذهب الى هناك ؟ » •

ومع ذلك واصل سيره • لقد شعر شعوراً حاسماً بأنه لا جدوى من التساؤل وأن ساعة التردد قد مضت • حتى اذا صار في الشارع تذكر انه لم يودّع صونيا ، وأنها بقيت في وسط الغرفة مع شالها الأخضر لا تجرؤ أن تتحرك مخافة أن تغضبه • فتوقف لحظة • ولكن فكرة مباغتة وافته في تلك اللحظة نفسها ، كأنها انتظرت هذه اللحظة نفسها لتوافيه • تساءل قائلاً : « لماذا ذهبت اليها ؟ لقد قلت لها انني انما جئت لها تنفيذاً

لمهمة يجب على أن أقوم بها ؟ ما هى تلك المهمة ؟ ليس هناك أية مهمـة تدفعنى الى زيارتها ! ألأبلغها أننى «ذاهب الى هناك» ؟ أكان هذا ضروريا ؟ أترانى أحبها ؟ لا ، لا ، غير معقول !... ألم أدفعها عنى منـذ لحظة كما يُدفع كلب ؟ هل صليبها اذن هو ما كنت فى حاجة اليه ؟ آه ... لقـد هبطت الى الدرك الأسفل ! لا ، لا ، وانما أنا كنت فى حاجة الى دموعها. كنت فى حاجة الى أن أرى رعبها وذعرها ، كنت فى حاجة الى أن أرى قلبها يتلوى ويتمـزق . كنت فى حاجة الى أن أتشبث بشىء ما ، الى أن أكسب وقتاً ، الى ان أتأمل انساناً ! هذا ما كنت فى حاجة اليه ، ومع ذلك تجرأت فى يوم من الأيام فتخيلت أن مصيراً عظيماً ينادينى اليه ، واعتمدت على نفسى فأقدمت على أمور كتلك الأمور ، أنا الذى لست الا انساناً حقيراً تافهاً جباناً ، جباناً ! » .

كان يسير على طول رصيف القناة . لم يبق بينه وبين الوصول الا مسافة قصيرة . لكنه حين وصل الى الجسر توقف لحظة ، ثم لم يلبث ان مضى يعبر الجسر ، فنأى بذلك عن طريقه ، واتجه نحو « سوق العلف ».

كان ينظر يمنة ويسرة بشراهة ، ويحاول أن يتفحص كل شىء من الأشياء متمعناً ، لكن انتباهه لم يستطع أن يتركز على أى شىء من هذه الأشياء . فكل شىء يتهرب منه ويغيب عنـه . وخطرت ببـاله خاطرة : حدث نفسه قائلاً : « بعد شهر ، بعد أسبوع ، سيعبرون بى هذا الجسر ماضين بى الى مكان ما على عربة سجناء ، فأية نظرة سألقى على هذه القناة نفسها يومذاك ؟ هل سأتذكر أننى رأيتها على نحو ما أراها الآن ؟ وهذه اللافتة ؟ كيف سـأقرأ عندئذ أحـرفها ؟ هذه كلمـة « شركة » . فهل سأتذكر هذه « الشين » ، هل سأتذكر حرف « الشين » هذا ؟ واذا تلبثت عيناى بعد شهر على هذا الحرف نفسه فهل سـأنظر اليه كما أنظر اليه

الآن ؟ نعم ، ما عسى تكون احساساتي وأفكاري حينذاك ؟ أوه ... ما اتفه وما أسخف هذه ... المشاغل !... لا شك أن هذا أمر غريب ... (هأ هأ هأ ... ماذا أيضاً ؟). انني أرتد الى الطفولة ، فاصطنع أوضاعاً أنظر اليها وأعتز بها . ولكن لا ، لماذا أخجل من نفسي ؟ أوه ... ماأكثر التزاحم والتصادم في هذا المكان ! هذا هو ، الرجل السمين ذاك ... لا شك أنه ألماني ... هو الذي صدمني ودفعني . فهل يعلم أنه صدمني؟ وهذه المرأة العجوز التي تجر طفلاً وتستجديني صدقة ، هل تظن انني أسعد منها ؟ طيب ... على كل حال ... عليّ أن أنفحها صدقة ، هكذا، من باب اللعب ، على سبيل العبث ... حسن ، بقي لي خمسة كوبكات ! ترى من أين هما آتيان ؟ »

وقال راسكولنيكوف يخاطب المتسوّلة :

ـ خذي ، خذي ، أيتها الأم الطيبة !

فقالت المتسوّلة بصوت فيه بكاء :

ـ الله يحميك !

ودخل راسكولنيكوف « سوق العلف » . كان يشعر من ملامسة كوعيه لذلك العدد الكبير من الناس ، كان يشعر باحساس مزعج كريه أليم ، ولكن هذا لم يمنعه من الاتجاه الى حيث يحتشد الناس أكثف احتشاد . كان مستعداً لأن يضحي بكل شيء في سبيل أن يخلو الى نفسه، ولكنه كان يحس احساساً واضحاً بأنه لن يستطيع احتمال العزلة ولو دقيقة واحدة . هذا رجل سكران يصخب ويعربد : انه يحاول أن يرقص، ولكنه كلما أجرى حركة سقط منبطحاً على بطنه . واجتمعت حوله جمهرة من الناس . شقّ راسكولنيكوف لنفسه طريقاً بين الحشد ، ونظر الى السكران بضع لحظات ، فاذا هو ينطلق ضاحكاً ضحكة قصيرة متقطعة .

ثم ما ان مضت دقيقة حتى كان قد نسى الرجل ، وحتى أصبح لا يراه ، رغم أن عينيه كانتا ما تزالان مثبتتين عليه • وانصرف أخيراً عن المكان الذى كان فيه ، حتى دون أن يشعر بأنه ينصرف • ولكنه حين وصل الى وسط الميدان حدث فى فكره شىء ، وسرت فى جسمه رعدة •

لقد عاودته أقوال صونيا فجأة : « اذهب الى ميـدان من الميادين ، فسلّم على الشعب ، وقبّل الأرض لأنك أثمت فى حقهـا أيضـاً ، وقل بصوت عالٍ حتى يسمعك جميع الناس : اننى قاتل » •

فما ان دارت فى ذهنه هذه العبارات حتى أخذ يرتجف من الراس الى القدمين • ان الآلام الرهيبة والتباريح الفظيعـة التى عاناها فى الايام السابقة ، ولا سيما فى الساعات الأخيرة ، قد بلغت من ارهاقه أنه استسلم استسـلاماً كاملا لهذا الاحساس الجـديد الشـامل • اعتراه نوع من نوبة عصبية • ان شرارة قد انبعثت فى نفسه فأشعلتها دفعة واحدة • ثم استولى عليه حنان واسع فسالت دموعه على خديه • وتهالك على الأرض حيث كان •••

ركع فى وسط الميدان ، ثم سجد ، فقبّل الأرض الموحلة منتشـياً نملاً سعيداً • ونهض ثم سجد مرة أخرى •

قال فتى على مقربة منه :

ــ هيه ! على أى شىء يقبض هذا ؟

وضجّ الناس من حوله بضحك صاخب • وأضاف بائع صغير ثمل بعض الثمل :

ــ لا شك أنه مسافر الى القدس يا أصحابى ، فهو يودع أولاده ، ووطنه ، ويسلّم على الناس جميعاً ، ويهب قبلة أخيرة للعاصمة الكبرى سان بطرسبرج ، ولأرضها •

وقال ثالث :

ـ ما يزال في ريعان الشباب !

وعقب رابع بصوت جازم :

ـ وهو من أسرة الكريمة .

وأضاف خامس :

ـ أصبح المرء لا يميِّز بين أبناء الأسر الكريمة وبين من ليسوا ابناء أسر كريمة !

هذه التعليقات المتفكهة كلها أوقفت على شفتي راسكولنيكوف كلمتي: « أنا قاتل » اللتين لعلهما كانتا توشكان أن تخرجا من فمه . ومع ذلك تحمل هذا الصخب كله بكثير من الهدوء ، ومضى يسير في شارع صغير يؤدي الى قسم الشرطة ، دون أن يلتفت الى وراء . وفيما كان يمشي عرضت لعينيه صورة ، ولكنه لم يُدهَش ، فانه كان قد تنبأ بأن هذا هو ما سيحدث . انه حين سجد في « سوق العلف » سجدة ثانية ، قد التفت يسرةً فلمح صونيا على مسافة خمسين خطوة . كانت لحرصها على ان لا يراها قد اختبأت وراء كوخ خشبي كان قائماً في الميدان ، ولكنها كانت قد تبعته في صعوده على « الرابية التي يعلوها صليبه » .

في تلك اللحظة أحس راسكولنيكوف وأدرك أن صونيا سوف تكون معه الى الأبد ، وأنها ستتبعه ولو الى آخر العالم ، ستتبعه الى أي مكان يقوده اليه قدره . فاضطرب من ذلك قلبه ... ولكن ها هو ذا يصل الى المكان المحتوم .

دخل فناء المبنى بخطى جازمة ثابتة . كان عليه أن يصعد الى الطابق الثاني . قال لنفسه : « من هنا الى أن أصير فوق ... » . وبدا له أن هناك

زمناً طويلاً سينقضى قبل أن يصل الى فوق ، وأن أفكاراً كثيرة ما يزال يمكن أن توافيه ، وأن اللحظة الحاسمة ما تزال بعيدة .

السلم مملوء بالأقذار نفسها والقشور ذاتها ؛ والأبواب مفتوحة على مصاريعها كما كانت فى المرة الماضية ؛ وما تزال المطابخ تفوح منها رائحة العفونة والنتن . ان راسكولنيكوف لم يرجع الى هذا المكان بعد زيارته الأولى له .

كانت ساقاه متخدرتين وكانتا تترنحان ، ولكنه ظل يتقدم . وتوقف لحظة ليسترد أنفاسه ، وليسترجع رباطة جأشه ، من أجل أن يظهر بالمظهر الذى يجب أن يظهر به « رجل » . ولكنه لم يلبث أن أدرك ما يقوم به من جهد فتساءل : « ولكن لماذا ؟ ما فائدة هذا ؟ ما دام يجب علىّ أن أشرب الكأس حتى آخر قطرة منها فما قيمة أن أشربها بهذه الطريقة أو بتلك ؟ بالعكس ... فكلما كنت منفراً باعثاً على الاشمئزاز كان ذلك أفضل ! » . وفى تلك اللحظة تراءت لعينيه صورة ايليا بتروفتش ، الليوتنان « بارود » . فتساءل : هل يجب حقاً أن أذهب اليه هو ؟ الا يمكن أن أتجه الى شخص آخر ؟ ولماذا لا أتجه الى نيكوديم فومتش ؟ وماذا لو عدت أدراجى فذهبت الى مفوض الشرطة ألقاه فى بيته ؟ ميزة هذه الطريقة ، على الأقل ، أن الأمور تجرى عندئذ فى جو كأنه جو أسرة !... لا ، لا ، بل اتجه الى « بارود » الى الليوتنان « بارود » ! ما دام يجب علىّ أن أشرب الكأس فلأشربها دفعةً واحدة !

فتح باب المكتب متجمداً لا يكاد يعى ما يفعل . فى هذه المرة لم يكن هناك الا قليل جداً من الناس . لا أحد الا بواب ورجل من الشعب ينتظران . شرطى الحرس وراء شباكه لم يحرك ساكناً بل لم يرفع عينيه. مرّ راسكولنيكوف الى الغرفة المجاورة . وحدث نفسه قائلاً : « لعلنى

ما زلت أستطيع أن لا أقول شيئاً . » . هذا كاتب من القسم يرتدى ردنجوتاً قد مال على مكتبة يكتب شيئاً ما . وهذا كاتب آخر مستقر في ركن . ليس زاميوتوف هناك ، ولا نيكوديم فومتش طبعاً .

قال راسكولنيكوف يسأل الشخص المائل على مكتبه :

ـ ألا يوجد أحد ؟

ـ من تريد ؟

هنا انفجر صوت معروف يقول صائحاً :

ـ آ ... آ ... آ ... لا حاجة الى أذنين ، ولا حاجة الى عينين ... غريزتى أنبأتني بوجود رجل « روسى » ... كما تقول الحكاية . تحياتي واحترامى .

أخذ راسكولنيكوف يرتجف . ان الليوتنان « بارود » الذى انبجس من غرفة ثالثة يقف الآن أمامه . حدث راسكولنيكوف نفسه قائلاً : « هذه هى الأقدار . لماذا هو هنا ؟ » .

وعاد ايليا بتروفتش يصيح ، وكان واضحاً أنه مشرق المزاج بل ومهتاج الأعصاب قليلاً :

ـ أأنت عندنا ؟ اذا كنت آتياً لعمل ، فالوقت مبكر جداً . أنا نفسى انما ... بمصادفة محضة !... على كل حال ، اذا كنت أستطيع ... أعترف لك ... نعم ... كيف .. كيف أنت .. معذرة ...

ـ أنا راسكولنيكوف .

ـ طبعاً ، طبعاً راسكولنيكوف ! هل تخيلت ، ولو لحظة واحدة ، أننى نسيت .. أرجوك ، لا تصدقنى اذا .. يا روديون رو .. رو ... روديونتش ، أليس كذلك ؟

ـ روديون رومانتش .

ـ نعم نعم نعم ، روديون رومانتش ! روديون رومانتش ! ذلك هو الاسم الذى كنت أحاول تذكره ! لقد سألت عن أخبارك مراراً ! اننى آسف حقاً ـ اعترف لك بذلك ـ للطريقة التى تصرفنا بها معك فى ذلك اليوم . وقد ذكروا لى فيما بعد ... لقد علمت فيما بعد أنك شاب اديب، بل وعالم ... وأنك تخطو خطواتك الأولى ان صحّ التعبير . أى اديب وأى عالم لا يقوم بأمور فيها شيء من الشذوذ والتفرد فى بداية حياته الأدبية أو العلمية ؟ انا ، أنا وزوجتى ، نعشق الأدب ، حتى أن امرأتى تبلغ فى ذلك حد الوله والتدله !... الأدب والفن ! قد يكون المرء نبيل المحتد كريم المنبت ، ولكن الشيء الهام هو ما يناله بالموهبة ، بالعلم ، بالعقل ، بالعبقرية ! ما قيمة قبعة مثلاً ؟ القبعة قرص أستطيع أن اشتريه من محل تسيمرمان، أما ما هو تحت القبعة ، أما ما تغطيه القبعة ، فذلك لا أستطيع أن أشتريه !... أعترف لك بأننى قد تمنيت أن أذهب اليك ، لأعتذر لك ، ولكننى قدّرت أنك قد ... بالمناسبة : أنا لم أسألك ما هو الغرض من زيارتك الآن ! وصلت أسرتك ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، أمى وأختى .

ـ لقد شرفت وسعدت بلقاء أختك . انها فتاة مثقفة رائعة . اعترف لك بأننى آسف لاندفاعنا أنا وأنت ... كانت قصة مؤسفة ! ولكن لئن نظرت اليك نظرة اشتباه عند اغمائك ، فان أسباب هذا الاغماء قد ظهرت بعد ذلك ظهوراً واضحاً ! لقد كان ذلك منى نزقاً وتعصباً لا أكثر ! اننى أفهم استياءك ! لعلك ستغير مسكنك بمناسبة وصول أهلك ، أليس كذلك؟

ـ لا ... لا ... وانما جئت ... لأسألك ... لقد كنت اتصور أننى سأجد زاميوتوف .

ــ ها .. نعم ... أصبحتما صديقين ... سمعتُ عن هذا ! ولكن زاميوتوف تركنا ، فلن تجده بعد اليوم هنا ! نعم ، لقد فقدنا آلكسندر جريجوريفتش ... منذ أمس ! قدّم استقالته ، حتى انه عند انصرافه قد بادلنا جميعاً كلمات خشنة . نعم ... مضى فى قلة التهذيب الى ذلك الحد ... انه صبى ، انه صبى ، انه طائش ! صحيح أن آمالاً كانت تعقد عليه ، ولكن كيف السبيل الى الاتكال على شبابنا اللامع هذا ؟ انه يريد ، فيما يبدو ، أن يتقدم الى امتحان مسابقة ، ولكنه لا يحاول أن يزيد على الثرثرة والمفاخرة ! ذلك هو امتحان المسابقة الذى يريد أن يدخله ! ليس هو مثلك ، أو مثل صديقك رازوميخين ... فانك أنت قد اعتنقت رسالة العلم ، وما من اخفاق يمكن أن يحرفك عنها . جميع مباهج الحياة هى فى نظرك أنت باطل ... « عدم » * ، أليس كذلك ؟ أنت ، أنت رجل زاهد متقشف ، أنت راهب ، أنت ناسك . المهم فى نظرك أنت انما هو القلم وراء الأذن ، وانما هو البحث العلمى . نعم ، ذلك هو فى نظرك الشىء الـ .. وأنا أيضاً ، الى حدٍ ما .. هل قرأت « مذكرات » ليفنجستون ؟ *

ــ لا !

ــ أما أنا فقد قرأتها . ثم ان عدد الذين يعتنقون المذهب العدمى قد ازداد فى هذه الايام ازدياداً كبيراً ، وذلك أمر يفهمه المرء حقاً . فى اى عصر نعيش نحن ؟ اننى ألقى عليك ذلك السؤال ! ولكن ما بالى أحدثك أنت ... أنت لست من معتنقى المذهب العدمى ، أليس كذلك ؟ أجبنى بصراحة ، بصراحة .

ــ لـ ... لا .

ــ لا ؟ ولكن فى وسعك أن تعلن رأيك صريحاً كل الصراحة . نعم ، لا تتحرج ، كلمنى كما لو كنت تكلم نفسك . العمل شىء والـ ...

شيء آخر . كنت تظن أنني سأقول : « الصداقة » ، أليس كذلك ؟ اذن لقد أخطأ ظنك . ليست الصداقة هي ما أردت أن أشير اليه ، وانما اردت أن أشير الى عاطفة الانسان والمواطن ، الى العاطفة الانسانية ، وكذلك الى الحب الذي يحمله المرء للعلي القدير . صحيح أنني موظف حكومة ، صحيح أنني شخص رسمي ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أشعر دائماً بأنني مواطن ، بأنني انسان ، وأن أحسب حساب ذلك . اليك هذا المثال : لقد تكلمت أنت عن زاميوتوف . ولكن زاميوتوف شخص يحدث صخباً وجلبة وضوضاء على الطريقة الفرنسية في أسوأ المحال سمعة لا لشيء الا لأنه شرب كأس شمبانيا أو حتى كأساً من نبيذ الدون ... نعم ، ذلك هو صاحبك زاميوتوف ! أما أنا فانني احترق نشاطاً وحماسة ان صح التعبير. العواطف الكبيرة تلهبني ، ثم انني أملك رتبة وأشغل منصباً . وأنا متزوج، ولي أولاد ! انني أقوم بالواجب الذي يقع على عاتق انسان ومواطن، أما هو فهلا قلت لي ما الذي يعمله ؟ انني أحدثك حديثي الى رجل صقلته الثقافة وسمت به . اليك هذا المثال أيضاً : لقد تكاثرت القابلات في أيامنا هذه تكاثراً تجاوز الحدود ...

نظر اليه راسكولنيكوف مبهوتاً . ان جميع الكلمات التي قالها ايليا بتروفتش ـ واضح أنه كان قد نهض عن المائدة منذ قليل ـ قد رنّت في أذنيه رنين كلمات لا معنى لها . ومع ذلك فهم جزءاً منها على نحو ما استطاع . وألقى على ايليا بتروفتش نظرة مستفهمة وهو لا يدري كيف سينتهي هذا كله .

تابع ايليا بتروفتش الذي لا ينضب لكلامه معين ، تابع كلامه فقال :

ـ انني أطلق هذا اللقب على هاته الفتيات ذوات الشعر المقصوص لأنه يبدو لي موفقاً جداً .. هيء هيء !... انهن يدخلن مدرسة الطب*،

ويتعلمن التشريح ، ولكن قل لى : أترانى اذا مرضت أدعو احدى هذه الآنسات لمعالجتى ؟ هئ هئ !...

انفجز ايليا بتروفتش ضاحكاً ، وقد رضى عن أقواله الحسنة وكلماته الجميلة كل الرضى !

ثم تابع كلامه فقال :

ـ لنسلّم بأن الدافع الى ذلك ظمأ الى التعلم والتثقف لا يرتوى ، ولكن يخيّل الىّ أن على الانسان ، متى تعلم ، أن يتوقف ، أن يكف .. فلماذا الاسراف والافراط ؟ لماذا تُهان شخصيات نبيلة ، كما يفعل ذلك الرجل التافه زاميوتوف ؟ أشخصٌ مثل زاميوتوف يهيننى أنا ؟ .. ثم تلك الانتحارات التى تتكاثر ؟... يأكل أحدهم آخر قرش ثم ينتحر ! بنات ، شباب ، شيوخ !... اليك هذا المثال : فى هذا الصباح نفسه ، أُبلغنا أن أن سيداً كان قد وصل الى هذه المدينة منذ مدة قصيرة ... هيه !... نيل بافلتش ... يا نيل بافلتش ... ما اسم ذلك السيد الذى أطلق على رأسه رصاصة عند ضفة النهر ... أقصد عند الضفة الأخرى من نهر نيفا ؟

أجاب صوت أبح غير مكترث ، صوت رجل فى الغرفة الأخرى ، أجاب يقول :

ـ اسمه سفدريجايلوف .

فارتجف راسكولنيكوف ، وصاح يسأل :

ـ سفدريجايلوف ؟ سفدريجايلوف أطلق على رأسه رصاصة ؟

ـ هل تعرف أنت سفدريجايلوف ؟

ـ نعم ... أ ... أعرفه ... لقد وصل فى الآونة الأخيرة فعلاً !...

— نعم ، في الآونة الأخيرة ... كانت زوجته قد ماتت منذ حين .. ثم ان هذا الرجل الذي كان ماجناً فاسقاً قد أطلق على رأسه رصاصة من مسدس فجأة ... وقد فعل ذلك في ظروف فاضحة يستحي المرء حتى أن ... لقد ترك بضع كلمات في دفتره قائلاً انه يموت مالكاً كل عقله فما ينبغي اتهام أحد بقتله . يقال انه كان يملك ثروة طائلة . ولكن كيف عرفته ؟

— تعرفت ... تعرفت عليه ... لأن أختي كانت تعمل معلمة في منزلهم ...

— هه ... هه ... اذن تستطيع امدادنا بمعلومات عنه . ألست تشتبه في أحد ؟

— رأيته أمس ... وكان ... يشرب خمراً ... ولم أطلع على شيء ...

كان راسكولنيكوف يحس أن حملاً ثقيلاً قد جثم على صدره يسحقه سحقاً .

— لكأنك تصفر من جديد . لا شك أن الجو هنا خانق ...

تمتم راسكولنيكوف يقول :

— آن لي أن أنصرف . اغفر لي ازعاجك ...

— ولكنك لم تزعجني البتة ! أنا في خدمتك ! ثم انك قد سررتني ؟ ويسعدني جداً أن أقول لك ...

ومد ايليا بتروفتش اليه يده .

جمجم راسكولنيكوف يقول :

ـ كنت أريد ... فقط ... أن ... أن أرى زاميوتوف ...

ـ فهمت ، فهمت ، ولكنك مع ذلك قد سررتنى بلقائك ...

قال راسكولنيكوف محاولاً أن يبتسم :

ـ أنا سعدت بلقائك ... استودعك الله ...

وخرج مترنحاً . كان يشعر بدوار فلا يكاد يدرى أهو ما يزال منتصباً على ساقيه . وأخذ يهبط السلم ، متكئاً بيده اليمنى على الحائط . تراءى له أن بواباً فى يده سجل قد صدمه ليدخل الى قسم الشرطة ، وان كلباً كان ينبح فى مكان ما ، وأن امرأة كانت ترمى للكلب فطيرة لتسكته. فلما بلغ أسفل السلم دخل الفناء .

كانت صونيا واقفةً فى الخارج ، غير بعيد عن الباب ، صفراء كصفرة الموتى ، تنظر اليه مروّعة منقلبة السحنة . وقف أمامها ، فتشنجت قسمات وجهها على ألم شديد وعذاب فظيع ؛ وباعدت بين ذراعيها بحركة تعبر عن يأس وارتسمت على شفتيها ابتسامة تيه وشرود .

توقف راسكولنيكوف لحظة ، فابتسم ، ثم قفل راجعاً الى المكتب الذى بارحه منذ قليل .

كان ايليا بتروفتش جالساً ينقّب بين أوراقه ، وقد وقف أمامه ذلك الشخص نفسه الذى صدم راسكولنيكوف منذ برهة أثناء صعوده السلم.

فما ان رآه ايليا بتروفتش حتى صاح يسأله :

ـ أهذا أنت أيضاً ؟ هل نسيت شيئاً ما ؟ ولكن ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟

مضى راسكولنيكوف نحوه بطيئاً ، أبيض الشفتين جامد النظرة ،

واقترب من المائدة فأسند اليها احدى يديه ، وأراد أن يقول شيئاً ما ، ولكنه لم يستطع ذلك . لم تُسمع منه الا جمجمات لا تبين عن شيء . هتف ايليا بتروفتش :

ـ بماذا تحس ؟ هل تشعر بمرض ؟ هاتوا كرسياً ، بسرعة ! خذ ، اجلس ، اجلس هنا ، هاتوا ماءً !

تهالك راسكولنيكوف على الكرسي الذي قُدِّم اليه ، ولكنه لم يحوّل بصره عن وجه ايليا بتروفتش الذي دُهش من ذلك أشدّ الدهشة. وظل الاثنان خلال دقيقة ينظر كل منهما الى الآخر وينتظر . وجيء بماء.

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

ـ أنا الذي ...

ـ اشرب جرعة ماء !

أبعد راسكولنيكوف الكأس عنه باحدى يديه ، وقال بصوت خافت لكنه واضح متميز ، مع وقفات بين الكلمات :

ـ أنا الذي قتلت ، بضربات ساطور ، العجوز التي تقرض على رهن، واختها اليزابت ، وأنا الذي سرقتهما .

لبث ايليا بتروفتش فاغر الفم ، وهُرِع ناس من كل جهة . واعاد راسكولنيكوف الادلاء بافادته

خاتمة

الفصل الأول

سيبيريا ١

على الشاطئين المقفرين من نهر عريض ، تقوم مدينة هى أحد المراكز الحكومية بروسيا . ان فى المدينة قلعة ، وان فى القلعة سجناً . وفى هذا السجن حُبس ، منذ تسعة أشهر ، السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية ، روديون رومانوفتش ، الذى انقضت سنة ونصف سنة على ارتكابه جريمته .

لقد سارت اجراءات المحاكمة بدون مصاعب . كرر المجرم افادته بثبات ووضوح ودقة ، لم تتداخل الظروف فى أقواله ، ولا حاول ان يخفف من شأن جرمه ، ولا هو شوَّه الوقائع ، أو أسقط منها شيئاً . حكى بأدق التفاصيل نشأة وتطور جرمه ، وأوضح سر «الرهن» — اللوح الصغير والصفيحة المعدنية — ؛ وروى بدقة تامة كيف أخذ من العجوز مفاتيحها ، ووصف هذه المفاتيح، ووصف الصندوق ؛ وعدَّد بعض الأشياء التى كان يضمها الصندوق ؛ وأوضح أيضاً سرَّ مقتل اليزابت ؛ وروى كيف جاء كوخ فقرع الباب ، وكيف جاء بعده الطالب ؛ وذكر الأقوال التى تبادلاها كلاهما ؛ وقصَّ كيف أنه ، هو القاتل ، قد هرب راكضاً على السلم فسمع هنالك صرخات نيقولا ودمترى ، فاختبأ فى الشقة الخالية ، ثم عاد الى بيته . وختم ذلك كله بأن عيَّن صخرة موجودة فى فناء أحد المنازل بشارع « ف ... » ، قرب باب الفناء ، حيث عُثر على الأشياء والمحفظة المسروقة . الخلاصة أن جميع الأمور قد اتضحت فلم يبق منها فى الظل

شيء . وقد دُهش المحققون والقضاة دهشةً خاصة اذ علموا أن الجاني قد أخفى الأشياء والمحفظة تحت صخرة دون أن يحاول الاستفادة منها ، وأنه لا يتذكر جميع الأشياء التي سرقها تذكراً صحيحاً ، حتى لقد اخطا في عددها . أما قوله انه لم يفتح المحفظة مرةً واحدة بل وانه يجهل المبلغ الذي تحتويه فقد لم بدا لهم أمراً غير معقول (وقد تبيَّن أن المحفظة كانت تضم ثلاثمائة وسبعة عشر روبلاً وثلاث قطع من فئة العشرين كوبكاً ؛ كما أن الأوراق المالية التي كانت فوق ، وهي أكبرها ، قد ساءت حالها من طول اقامتها تحت الصخرة .) . وقد أنفق المحققون والقضاة وقتاً طويلاً من أجل أن يعرفوا لماذا كان المتهم يكذب في هذه النقطة ، مع أنه فيما يتعلق بسائر النقاط قد اعترف بالحقائق من تلقاء نفسه . ولكن بعضهم (ولا سيما علماء النفس) سلَّموا بأن من الممكن أن لا يكون قد نظر في المحفظة فعلاً ، وأن يكون قد أخفاها تحت الصخرة دون ان يعرف ما تحتويه . غير أن هؤلاء أسرعوا يستنتجون من ذلك أن الجريمة لا يمكن أن تكون قد أُرتكبت الا في نوبة جنون طارئة ، أي في لحظة « مونومانيا » القتل والسرقة ، دون أهداف بعيدة ودون حسابات منفعة ؛ واستشهدوا على ذلك بالنظرية الرائجة عن الجنون الموقت ، وهي النظرية التي يحاول بعضهم في كثير من الأحيان أن يطبقها على بعض الجرائم في هذه الأيام . ثم أن حالة الوسواس (الهيبوكوندريا) المزمن التي كان عليها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة قد شهد بها عدة شهود ، جازمين قاطعين ؛ فمن هؤلاء : الدكتور زوسيموف صديقه القديم ، ورفاقه القدامى ، وصاحبة البيت الذي كان يقطنه ، والخدم . ذلك كله ساهم كثيراً في تعزيز الفكرة القائلة بأن راسكولنيكوف ليس بينه وبين مجرم عادي ، قاتل أو سارق ، أي شبه على الاطلاق ، وأن شأنه شأن آخر ، يختلف عن شأن المجرمين العاديين كل الاختلاف . ولكن الجاني نفسه

لم يحاول أن يدافع عن نفسه ، وذلك ما أسف له القائلون بتلك النظرية أشد الأسف . حتى اذا أُلقى عليه السؤال عن السبب الذى دفعه الى القتل والسرقة ، أعلن بوضوح تام ودقة كاملة أن فقره ، وعجزه عن الخروج منه ، ورغبته فى تأمين خطواته الأولى فى الحياة ، بمعونة ثلاثة آلاف روبل كان يأمل أن يجدها عند العجوز ، أن ذلك كان فى الأصل سبب كل شىء . ولما سئل عن الدافع الذى حدا به الى الوشاية بنفسه والاعتراف بجريمته من تلقاء نفسه أجاب قاطعاً بأن ذلك ندم صادق وتوبة مخلصة .

وكان كلامه لا يشتمل على كثير من الرهافة ، بل كان فيه غلظة وفظاظة !...

ومع هذا جاء الحكم أرحم مما كان يمكن توقعه فى جريمة كهذه الجريمة ، وربما كان مرد ذلك الى أن الجانى لم يحاول أن يسوّغ نفسه ، حتى لقد أظهر رغبةً فى اتهام نفسه مزيداً من الاتهام . ولقد نُظر بعين الاعتبار الى جميع الظروف العجيبة الخاصة التى لابست القضية . من ذلك أن حالة المرض والعوز التى كان عليها المتهم قبل انفاذه جريمته لم توضع موضع الشك . كما أن عدم استفادة الجانى من المسروقات قد نُسب الى الندامة وعذاب الضمير تارة ، ونسب تارة أخرى الى حالة قواه العقلية التى لم تكن سليمة البتة عند ارتكاب الجريمة . وكان مقتل اليزابت ، دون عمد ، مثالاً على هذا الافتراض ودليلاً يدعمه ويؤيده : نحن ههنا ازاء رجل يرتكب جريمتى قتل ، ثم ينسى أن الباب قد ظل مفتوحاً ! ذلك كله بالاضافة الى أن الجانى قد جاء يعترف بجريمته من تلقاء نفسه فى اللحظة التى اختلطت فيها الأمور اختلاطاً شديداً بسبب الافادة الكاذبة التى أدلى بها شخص مهووس مختل العقل (نيقولا) ، بل وفى اللحظة التى لم يكن فيها أى دليل واضح يدين القاتل الحقيقى ، بل ولم تبق فيها

أية شبهة تحـوم حوله • (لقـد حافظ بورفير بتروفتش على وعده وبرّ بعهده تماماً) • ذلك كله قد أسهم في حمل المحكمة على أن تسلّم للجاني بظروف مخفّفة •

يضاف الى ذلك أن وقائع في مصلحة راسكولنيكوف قد انبجست فجأة على نحو لم يكن في الحسبان البتة • فان الطالب السابق رازوميخين قد استطاع أن يعثر ـ لا يدري أحد من أين ـ على شهادات ثبت صدقها ، بأن القاتل راسكولنيكوف قد أنفق آخر ما كان يملك من موارد ، اثناء دراسته بالجامعة ، على رفيق فقير مصاب بداء السل ، فقام بأوده وسدّ حاجاته وخفّف عنه خلال ستة أشهر كاملة • حتى اذا مات رفيقه ذاك ، اهتم راسكولنيكوف بأبيه ، وهو شيخ عاجز بقي وحيداً في هذه الحيـاة (بعد أن كان ابنه منذ السنة الثالثة عشرة من عمره سنده الوحيد) ، ثم أدخله مأوى للشيوخ ، حتى اذا مات الشيخ هو أيضاً بعد مدة ، تكفل راسكولنيكوف بنفقات دفنه •

هذه المعلومات كلها كان لها أثر في مصير راسـكولنيكوف • وقد شهدت صاحبة البيت الذي كان يقطنه راسكولنيكوف (وهي أم خطيبة المتوفاة) ، شهدت من جهتها أن راسـكولنيكوف ، حين كانوا ما يزالون يسكنون في شارع « الأركان الأربعة » ، قد أنقذ ، أثناء حريق ، في ذات ليلة ، طفلين صغيرين من مسكن شبّت فيه ألسنة النيران واشتعل ، حتى أن راسكولنيكوف قد أصيب أثناء ذلك بعدة حروق • وقد جرى تحقيق دقيق في هذه الواقعة ، فشهد بصدقها شهود كثيرون • الخلاصة أن كل شيء قد ساهم في حمل المحكمة على أن تصدر حكمها بحبس المتهم ثماني سنين مع الأشغال الشاقة (من الفئة الثانية) فقط ، لأنه اعترف بجريمته من تلقاء نفسه ولأن هناك ظروفاً مخففة •

وقد مرضت أم راسكولنيكوف منذ بدء النظر في الدعوى • واستطاع

رازوميخين ودونيا مع ذلك أن ينقلاها الى خارج بطرسبرج طوال مدة المحاكمة . لقد اختار رازوميخين مدينة قرب بطرسبرج يصل اليها القطار، فكان يستطيع بهذه الطريقة أن يشهد جميع مراحل الدعوى وأن يرى أفدوتيا رومانوفنا مع ذلك أحياناً كثيرة .

وكان مرض بولشيريا الكسندروفنا اصابة عصبية غريبة بعض الغرابة، يرافقها نوع من الاضطراب الدماغي ان لم يكن كاملاً فهو يدعو رغم ذلك الى القلق . ان دونيا ، حين عادت الى البيت بعد لقاء أخيها آخر مرة ، قد وجدت أمها في حالة حمى بالغة وهذيان شديد . فاتفقت مع رازوميخين في ذلك المساء نفسه على الأجوبة التي ينبغي أن يجيبا بها بولشيريا الكسندروفنا متى سألتهما عن ابنها ، حتى لقد اخترعا لهذا الغرض قصة سفر ، سفر بعيد ، سفر الى مكان على حدود روسيا ، فقد كلف راسكولنيكوف بالقيام بمهمة خاصة ، وسوف تجلب له هذه الرحلة مالاً وشهرة . فما كان اشد دهشتهما حين لم تطرح عليهما بولشيريا ألكسندروفنا أي سؤال ، لا في ذلك الحين ولا بعده ؛ حتى انها ، على خلاف ذلك ، قد تخيلت هي نفسها قصة طويلة لتعلل سفر ابنها هذا على حين بغتة ؛ وقد قصت عليهما ، وهي تبكي زيارة ابنها لها مودعاً ، وألمعت في هذه المناسبة ، ببعض الاشارات والتلميحات ، الى أنها وحدها على علم بظروف كثيرة خطيرة سرية ، قائلة : ان لابنها روديا خصوماً أشداء عتاة ، فهو لذلك قد اضطر أن يغيب عن الأنظار . أما عن مستقبل ابنها ، فانها لا تشك في أنه سيكون مستقبلاً لامعاً متى أمكن التغلب على بعض الظروف المعادية ؛ حتى لقد أكدت لرازوميخين أن روديا سيصبح في المستقبل « رجل دولة » ؛ فان مقالته وموهبته الأدبية دليل كاف وبرهان قوي على ذلك . وكانت الأم تقرأ المقالة وتعيد قراءتها بغير انقطاع ، حتى لقد كانت تقرؤها في بعض الأحيان بصوت عال ، وتوشك أن تنام معها

فى الليل • ومع ذلك لم تحاول قط أن تعرف أين يوجد روديا فى ذلك الأوان ، لا ولم تتساءل لماذا يبدو أن من حولها يتحاشون أى حديث عنه (وكان حرياً بهذا أن يثير شبهاتها طبعاً) • وأصبح رازوميخين ودونيا يخشيان هذا الصمت الغريب من جانب بولشيريا ألكسندروفنا آخر الامر • حتى لقد كانت لا تشكو من أنها لا تتلقى أية رسالة من ابنها ، مع انها كانت قبل ذلك ، فى مدينتها الصغيرة ، لا تحيا الا على الأمل فى تلقى انباء ابنها الحبيب روديون • ولقد قلقت دونيا قلقاً خاصاً من هذا الأمر التفصيلى الأخير ، وكان لها بمثابة انذار ، فقد تراءى لها أن أمها كانت توجس منذ الآن البلاء الرهيب الذى حلّ بابنها ، وأنها لا تريد أن تسألهما ، لخشيتها من أن تعرف شيئاً أفظع • ومهما يكن من أمر ، فقد كانت دونيا ترى رؤية واضحة أن بولشيريا ألكسندروفنا لا تملك قواها العقلية كاملة •

وقد حدث للأم مع ذلك مرتين أن وجّهت الحديث توجيها ما كان للشابين أن يجيبا معه عن أسئلتها اجابة تامة دون أن يشيرا لها الى المكان الذى يوجد فيها روديا • حتى اذا جاءت الاجابات متحفظة مشتبهة وقعت الأم فى حالة حزن رهيب • وأدركت دونيا عندئذ أن من الصعب أن يستمر الكذب والتلفيق ، وانتهت الى هذه النتيجة ، وهى أن التزام الصمت التام فى النقاط الحسّاسة أفضل وأسلم • ولكن أخذ يتضح مزيداً من الاتضاح شيئاً بعد شيء أن الأم المسكينة تشتبه فى شيء ما ، فى شيء مروّع فظيع • وتذكرت دونيا ، فيما تذكرت ، بعض أقوال أخيها • ألم يقل لها ان بولشيريا ألكسندروفنا سمعتها تهذى ، فى الليلة التى سبقت اللحظة الحاسمة من لقائهما الأخير ، بُعيد المشهد الذى حدث مع سفدريجايلوف؟ ألم تسمع بولشيريا ألكسندروفنا عندئذ بعض الأشياء ، ففهمت شبه فهم ؟ وكثيراً ما أصبح يحدث ، بعد بضعة أيام بل وبضعة أشهر من صمت حزين ودموع خرساء ، أن ينتاب المريضة انتعاش مرضى ونشاط هسترى ، فتأخذ

تتكلم عن ابنها ، وعن آمالها ، وعن المستقبل ، متدفقة تدفقاً سريعاً ، بغير توقف تقريباً !... وكانت أخيلتها فى بعض الأحيان عجيبة حقاً ! فكان الشابان يتظاهران بمشاركتها آراءها مواساةً لها ، وتسريةً عنها ، (ولعل موافقتهما هذه على آرائها لم تكن تنطلى عليها) ولكن ذلك كان لا يمنعها من متابعة كلامها المنطلق ومواصلة حديثها الثرّ الذى لا ينضب له معين..

وقد صدر الحكم بعد خمسة أشهر من اعتراف القاتل بجريمته . وأخذ رازوميخين يزور راسكولنيكوف فى السجن كلما تمكن من ذلك. وكذلك كانت تفعل صونيا . وأزفت أخيراً ساعة الفراق . فحلفت دونيا لأخيها على أن الفراق لن يكون ابدياً . وحلف رازوميخين أيضاً على ذلك . وقد ترسخت فى دماغ رازوميخين ، فى دماغه الفتى الفائر المتحمس المندفع ، ترسَّخت ترسخاً قوياً ، فكرة المشروع الذى قام فى ذهنه ، وهو أن يرسى قواعد مصيره المقبل ، خلال السنين الثلاث أو الأربع التالية ، فيدّخر مبلغاً كافياً من المال ليمضى يقيم فى سيبيريا ، حيث الأرض غنية ، وحيث الأيدى العاملة ورءوس الأموال قليلة . فهناك سيستقرون ، بالمدينة نفسها التى سيكون فيها روديا ، وهناك .. سيبدأون جميعاً حياة جديدة !

وبكى الجميع فى ساعة الفراق . كان راسكولنيكوف ، خلال الأيام الأخيرة مغموماً جداً ، فكان يلقى أسئلة كثيرة عن أمه ، ويظهر قلقاً شديداً عليها . وكان يتعذب عذاباً قوياً يخيف دونيا وينذرها بأسوأ العواقب . ومنذ عرف راسكولنيكوف حالة بولشيريا ألكسندروفنا معرفة دقيقة ، أصبح قاتم النفس مظلم المزاج . ولقد كان قليل الكلام مع صونيا خاصة ، فهو لا يبوح لها بما فى نفسه . وكانت صونيا ، بفضل المال الذى تركه لها سفدريجايلوف ، قد تهيأت منذ مدة طويلة لأن تتبع قافلة السجناء التى ستضم راسكولنيكوف . انهما لم يبحثا هذا الأمر معاً فى يوم من

الأيام ، ولكنهما يعرفان كلاهما أن الأمر سيكون كذلك . وفي اللحظة الأخيرة ، ابتسم راسكولنيكوف ابتسامةً غريبة حين سمع التأكيدات الحارة من أخته ومن رازوميخين عن المستقبل الجميل الذي ينتظرهم جميعا عند خروجه من السجن . لقد كان يوجس أن أمه ستموت قريباً .

وسلك أخيراً طريق المنفى تصحبه صونيا .

بعد شهرين تزوجت دونيتشكا رازوميخين. وكان الاحتفال بالعرس متحفظاً ، وكان يرين عليه جو الحزن . وكان بين المدعوين بورفير بتروفتش وزوسيموف . وقد اكتسى رازوميخين في الآونة الأخيرة مظهر رجل قوي العزيمة ثابت الرأي . وكانت دونيا تؤمن ايماناً أعمى بانه سيحقق جميع مشاريعه . وكان لا يمكنها ، على كل حال ، الا أن تؤمن بذلك : فان ارادة حديدية كانت تتجلى في هذا الرجل . ولقد استانف ، خاصةً ، متابعة دروس الجامعة لينهي دراسته . وكانا كلاهما لا ينفكان يبنيان خططاً للمستقبل ، وكانا كلاهما ينتويان حقاً أن يرحلا الى سيبيريا بعد خمس سنين . والى أن يحين ذلك الحين ، كانا يتكلان على صونيا .

وقد باركت بولشيريا ألكسندروفنا زواج ابنتها ورازوميخين وفرحت به ، لكنها سرعان ما سقطت في حزن أشد وأسى أعمق وأكبر . ومن اجل أن يهيىء لها رازوميخين بضع لحظات من فرح قصّ عليها قصة الطالب وأبيه العاجز ، وحكى لها حكاية الحريق الذي برز فيه روديا بطلاً ينتزع الطفلين الصغيرين من بين ألسنة اللهب . فكانت القصص تلقى بولشيريا ألكسندروفنا التي كان عقلها قد اهتز وأصابه اختلال ، كانت هذه القصص تلقيها في نشوة تشبه أن تكون وجداً ، حتى أصبحت لا تتكلم الا عن هذا، وحتى مضت في ذلك الى حدّ استيقاف الناس في الشارع لتقص عليهم هي أيضاً ... (هذا رغم أن دونيا ترافقها حيثما تذهب) . أصبحت بولشيريا ألكسندروفنا تتجه الى أول انسان تلقاه ، في الشارع ، في الدكاكين ،

فى أى مكان ، فتأخذ تكلمه عن ابنها ، وعن مقالتــه ، وتأخـذ تشرح له مسهبة مفيضة كيف أن ابنها بذل لأحد الطلاب أكبر العون وكيف انه اقتحم ألسنة اللهب أثناء حريق ، وهلم جرا • وكانت دونيا لا تعرف ماذا يجب عليها أن تعمل لتهدئها • كانت تخشى خطر مثل هذه الحماسة وهذا الاندفاع على صحة أمها المريضة ، وكانت تخشى أيضاً حين يسمع احد أسم راسكولنيكوف أن يتذكر الدعوى وأن يتحدث عنها •

وقد اكتشفت بولشيريا ألكسندروفنا عنوان أم الطفلين اللذين انقذهما روديا ، وأرادت أن تزورها مهما كلف الأمر • وبلغ قلقها ابعاداً خطيرة فى النهاية • فهى تارة تنفجر باكيــة ناشجة ، وهى تارة أخـــرى تتكلم هارقة هاذية • وفى ذات صباح أعلنت فجأة أن روديا — وفقاً لحساباتها — عائد فى القريب ، فقد وعـدها — وهى تتذكر وعده — أنه سـيرجع بعد تسعة أشهر •

وسرعان ما شرعت ترتب الشقة استعداداً لعودته ؟ فهيأت له غرفتها هى ، ودلكت الأثاث ، وغسلت ، ومسحت ، وعلقت ستائر جديدة ، الخ• ولم تقل دونيا شيئاً ، رغم جزعها ، بل ساعدتها فى هذه الاستعدادات • وبعد أن قضت بولشيريا ألكسندروفنا ذلك النهـار كله فى تخيل اشياء تبلغ غاية الجنون ، وفى البكاء والانقياد للأحلام ، مرضت فى تلك الليلة نفسها ، فما طلع الصباح حتى كانت فى حالة هذيان ، فقد اعترتها حمى حارة ، ثم ماتت بعد أسبوعين •

وقد أفلتت من لسانها أثناء الهذيان أقوال يفهم المرء منها أنها كانت تعلم من أمر المصـــير الرهيب الذى آل اليها ابنهـا أكثر كثيراً مما كان يفترض صهرها ، وتفترض ابنتها •

ظل راسكولنيكوف مدة طويلة يجهل أن أمه ماتت رغم أنه استطاع بفضل صونيا أن يتلقى أنباء من بطرسبرج منذ وصوله الى سيبيريا• كانت

صونيا تكتب الى رازوميخين كلَّ شهر دون تخلف ، وكلَّ شهر ايضاً كانت تتلقى رسالة من بطرسبرج • وفى أول الأمر رأت دونيا وراى رازوميخين أن رسائل صونيا جافة وأنها لا تبعث على كثير من الرضى • ولكنهما اعترفا كلاهما أخيراً أن صونيا لا تستطيع أن تفعل خيراً من ذلك ؛ وأن من السهل عليهما أن يكوّنا من خلال هذه الرسائل فكرة دقيقة واضحة عن الظروف التى يعيش فيها أخوهما البائس • كانت رسائل صونيا زاخرة بتفاصيل يومية ، وكانت تشتمل على أوصاف واضحة بسيطة عن نوع الحياة التى يحياها راسكولنيكوف فى المعتقل • كانت لا تقول شيئاً عن آماله ، وعن أحلامه المتصلة بالمستقبل ، لا ولا عن عواطفه الشخصية• كانت صونيا فى هذه الرسائل ، بدلاً من أن تحاول تصوير حالة راسكولنيكوف النفسية ، تذكر وقائع جرت له ، وتنقل أقوالاً قالها ، وتقدم تفاصيل عن صحته ، ولا تغفل مع ذلك عن ذكر الرغبات التى عبّر عنها أثناء هذا اللقاء أو ذاك ، وما كلّفها بأن تنقله اليهما ، الخ • وكانت هذه الأخبار كلها مفصّلة ، فاستطاعت دونيا أن ترسم صورة واضحة عن أخيها ، ولم يكن من الممكن أن يحدث أى خطأ ، لأن جميع الوقائع كانت صادقة •

غير أن جميع هذه الأنباء ، ولا سيما فى البداية ، لم تحمل الى دونيا وزوجها كثيراً من العزاء أو الطمأنينة • كانت صونيا تبلغهما أن راسكولنيكوف لا يبرح قاتم المزاج مظلم النفس صموتاً قليل الكلام ؛ وأنه لا يكاد يهتم بالأخبار التى تنقلها اليه كلما تلقت رسالةً منهما ؛ وأنه يسأل أحياناً عن أمه فلما رأت أنه أوجس الحقيقة فأبلغته النبأ الرهيب ، أدهشها أنه لم يبد عليه أن ذلك أثّر فى نفسه تأثيراً كبيراً ، فيما تدل عليه المظاهر الخارجية على الأقل •

وكانت صونيا تقول لهما يضاً انه رغم انطوائه على نفسه دائماً ، يبدو

راضياً بحياته الجديدة بصدق واستقامة وبساطة ، وانه يدرك الوضع الذى هو فيه ، ولا يتوقع أن يتحسن مصيره فى مستقبل قريب ، وانه لا يراوده أى أمل فى غير محله (كما يحدث عادة للسجناء) ، وانه لا يدهش من شىء ، رغم ما هناك من تعارض وتناقض بين حياته الراهنة وحياته السابقة.

وكانت تقول لهم ان صحته حسنة ، وانه يمضى الى الشغل دون تهرب أو تملص ، ودون نشاط كاذب أو حماسة زائفة . وانه لا يكاد يهتم بأمر الطعام ، ولكن هذا الطعام ، فى غير أيام الأحاد وأيام الأعياد ، يبلغ من السوء أن راسكولنيكوف أصبح أخيراً يقبل بعض المال منها هى صونيا ، ليستطيع أن يحصل لنفسه على شىء من الشاى (أما فيما عدا ذلك ، فقد رجاها أن لا تقلق عليه وأن لا تهتم به ، وقال لها ان عنايتها به تثقل على نفسه وتضايقه) .

وكتبت لهما صونيا كذلك أنه فى السجن يسكن مع السجناء الآخرين فى مهجع مشترك ، وأنها لم تدخل المبانى ، ولكن ظاهر المبانى يدل على أن المكان ضيق قذر غير صحى ؛ وأن راسكولنيكوف يرقد على لوح من الخشب مغطى بلباد ، فهو لا يريد أن يصنع لنفسه سريراً آخر ؛ وانه على كل حال ، اذا كان يعيش حياة خشنة قاسية فقيرة الى هذا الحد ، لا يفعل ذلك التزاما بفكرة سابقة أو تقيداً بمبدأ معيَّن ، بل لأنه لا يكترث للظروف المادية ولا يحفل بها .

وكتبت صونيا بصراحة أنه ، فى أول الأمر خاصةً ، لم يكن يعبأ بزياراتها ، حتى لقد كان يظهر لها شيئاً من الاستياء ، ولا يفتح فمه بكلمة ، ويعاملها معاملة أميل الى الفظاظة . غير أن لقاءاتها أصبحت عادةً له بعد ذلك ، وأوشكت أن تصير حاجة ، حتى ان الزمن بدا له طويلاً أثناء الأيام القليلة التى لم تستطع أن تزوره خلالها بسبب مرض ألمَّ بها . انها فى أيام الأعياد تراه من وراء القضبان الحديدية ، أو تراه فى غرفة هيئة

الحرس التى يؤتى به اليها بضع دقائق . وأما فى الأيام الأخرى فانها تراه أثناء الشغل ، فى ورشات العمل ، أو فى مصانع الآجر ، أو فى المستودعات القائمة على ضفاف نهر ايريتش * . أما عنها هى فلم تزد على أن أشارت الى أنها استطاعت أن تخلق لنفسها فى المدينة علاقات تسندها وتشد أزرها ؛ وأنها تعمل فى الخياطة ، وأنها لقلة الخياطات فى المدينة أصبحت بيوت كثيرة لا تستغنى عنها . ولكن صونيا أسقطت أن تذكر أن راسكولنيكوف قد أمكنه ، بفضلها هى ، أن يحظى بشىء من العطف عليه ، فكانت سلطات السجن تراعيه بعض المراعاة ، وكانت الأشغال التى يُعهد بها اليه غير شاقة كثيراً ، الخ ...

ثم وصل النبأ الذى يقول (وقد استطاعت دونيا أن تستشعر شيئاً من القلق ومن العصبية فى الرسائل الأخيرة التى بعثت بها صونيا) وصل النبأ الذى يقول ان راسكولنيكوف يتحاشى جميع السجناء الآخرين ، وان هؤلاء لا يحبونه كثيراً ، وانه يظل صامتاً ساعات بكاملها ، وان شحوبه يزداد شيئاً بعد شىء .

وكتبت صونيا أخيراً فى ذات يوم أن راسكولنيكوف مريض جداً ، وانه يعالج الآن فى مستشفى المعتقل ...

الفصل الثاني

لقد كان مريضاً منذ مدة طويلة ، ولكن لا الأهوال التي تشتمل عليها حياة السجين ، ولا الأشغال الاجبارية الشاقة ، ولا الطعام الرديء ، ولا حلق شعر الرأس ، ولا الأسمال البالية ، لا شيء من هذا كله هو الذي حطّمه ! لا ، لا ، ان جميع هذه الأنواع من البؤس والعذاب لا تعنيه في شيء ! بالعكس : لقد كان يرضيه أن يكون عليه ان يعمل عملاً مضنياً . انه حين يرهقه العمل الجسمي يستطيع على الأقل أن يتمتع ببضع ساعات من نوم هادىء مريح . أما الطعام الرديء ، أما حساء الكرنب ذاك المليء بالصراصير ، فانه لا يهمه البتة . ألم يتفق له ، حين كان طالباً ، في أول عهده بالحياة ، أن لا ينعم حتى بمثل هذا الطعام ؟ واما ملابسه فقد كانت تكفل له الدفء ، وهي تلائم طراز الحياة الجديدة التي يحياها ، فماذا يريد أكثر من ذلك ؟ وأما الأغلال الحديدية ، فقد كان لا يكاد يحسها ... وهل يخجل من أن يكون شعر رأسه محلوقاً ؟ يخجل ؟ يخجل أمام من ؟ أمام صونيا ؟ ان صونيا تخاف منه وتخشاه ، فكيف يمكن أن يشعر أمامها بخجل ؟

ومع ذلك كان يشعر بخجل حتى أمام صونيا (صونيا التي ينتقم منها فيعاملها باحتقار وفظاظة) . ولكن هذا الخجل أو هذا الشعور بالخزي والعار لا يرجع لا الى أن شعر رأسه محلوق ، ولا الى أنه مكبّل بالسلاسل ! ان ما كان يشعره بالخزي والعار ، وما كان يؤلمه ايلاماً شديداً

حتى جعله مريضا ، انما هو الجراح التى أصيبت بها كبرياؤه ! اه ...
لقد كان يمكن أن يسعد أشد السعادة لو كان فى وسعه أن يتهم نفسه وان يدين نفسه ! لو استطاع ذلك اذن لكان يمكن أن يحتمل الخزى وان يحتمل العار ! ولكنه مهما تشتد قسوته فى الحكم على نفسه ، فان ضميره المتصلب كان لا يجد فى ماضيه أية خطيئة فظيعة ، اللهم الا أن تكون هذه الخطيئة هى أن « ضربته قد أخفقت » . صحيح أن هذا يمكن ان يقع لجميع الناس ، ولكنه كان يشعر بالخزى من أنه ضاع بمثل هذه العماوة ، بمثل هذه الحماقة ، بمثل هذا الانهيار ، ومن أنه خاصة مضطر ، هو راسكولنيكوف ، أن ينصاع لحكم هذا القدر الأعمى ، وأن يخضع امام « سخافة » هذا الحكم ، اذا هو أراد أن يسترد الهدوء والسكينة .

ان قلقاً لا موضوع له ولا غاية له فى الحاضر ، وان تضحية متصلة غير منقطعة فى المستقبل ، ذلك هو كل ما ينتظره هنا على هذه الأرض ! فأية فائدة اذن فى أن يقول لنفسه انه بعد ثمانى سنين لن يكون عمره قد تجاوز اثنتين وثلاثين سنة ، وانه ما يزال يستطيع أن يستأنف حياته ؟ علام يحيا ؟ ما هى الغاية التى ما يزال يستطيع أن يلاحقها ؟ ما هو الهدف الذى ما يزال يمكنه أن يسعى اليه ؟ ماذا يفيده وماذا يجديه أن يستمر فى الصراع والكفاح ؟ أيحيا من أجل أن يوجد ؟ ألا انه كان طوال حياته مستعداً لأن يضحى بوجوده ألف مرة فى سبيل فكرة ، فى سبيل امل ، بل وفى سبيل تحقيق نزوة ! ان الوجود فى حد ذاته لم يكن كافياً له فى يوم من الأيام ، وانما هو كان يطمع دائماً فى أكثر من ذلك ! ولعل عنف رغباته كان وحده السبب فى أنه ظن نفسه انساناً يجوز له ما لا يجوز لغيره .

ولو أن القدر قد اختار له الندامة ـ الندامة المحرقة التى تحطم القلب وتطرد النوم ـ الندامة التى تجعل صاحبها يفكر فى الانتحار شنقاً

أو غرقاً ، اذن لكان سعيداً كل السعادة ! ان ألم الدموع حياة ! ولكن راسكولنيكوف لم يكن نادماً على اقترافه جريمته •

لو كان نادماً لاستطاع أن يغضب من حماقته ، كما غضب فى الماضى من أفعاله الشاذة الغبية التى قادته الى المعتقل • أما وقد أصبح الآن فى المعتقل ، وأصبح يستطيع أن يفكر فى تلك الأفعال « بحرية تامة » ، فانه لا يراها شاذة ولا سخيفة الى الحد الذى تراءى له قبل ذلك فى اللحظة المحتومة المشئومة •

انه الآن يقول لنفسه : « هل فكرتى أغبى من تلك الأفكار والنظريات التى تجرى فى هذا العالم وتتصادم منذ أن وُجد العالم ؟ يكفى أن نواجه الأمور بنظرة موضوعية واسعة متحررة من الأحكام السابقة اليومية حتى ندرك أن فكرتى ليست غريبة الى ذلك الحد من الغرابة الذى قد يتوهمه بعضهم ••• ايه ايها الجاحدون ، أيها الفلاسفة التافهون ، لماذا تتوقفون فى منتصف الطريق ؟ غريب ! لماذا تبدو لهم فعلتى شاذة الى هذا الحد ؟ ألأنها جريمة ؟ ماذا تعنى كلمة : جريمة ؟ ماذا تعنى كلمة : جريمة ؟ ان ضميرى مرتاح • صحيح أن جريمة قد وقعت • صحيح أن نص القانون قد اختُرق وأن دماً قد سُفك • فاذا كان الأمر أمر تقيد بنص القانون ، فاقطعوا رأسى ، ولنسكت ! ولكن يجب أن نذكر فى هذه الحالة أن كثيراً من العظماء الذين أحسنوا الى الانسانية ولم يكونوا قد ورثوا السلطة وراثة وانما استولوا عليها استيلاءً ، كان ينبغى أن تقطع رءوسهم منذ خطوا خطواتهم الأولى • ان الفرق الوحيد بين هؤلاء وبينى هو أنهم قد احتملوا ثقل أفعالهم ، فكان ذلك « مبرراً » لهم ، أما أنا فلم أقدر على الصمود • اذن كان لا يحق لى أن أجيز لنفسى القيام بتلك المحاولة » •

تلك هى الخطيئة الوحيدة التى كان راسكولنيكوف يؤاخذ نفسه عليها : وهى أنه لم يستطع أن يصمد ، بل مضى يشى بنفسه ويعترف بجريمته .

وكان يتألم أيضاً حين يخطر بباله هذا السؤال : لماذا لم ينتحر حينذاك ؟ لماذا ، حين مال على ماء النهر ، آثر أن يشى بنفسه ؟ هل يمكن أن يكون حب البقاء قوياً هذه القوة ، يصعب التغلب عليه الى هذه الدرجة من الصعوبة ؟ ان سفدريجايلوف الذى كان يخشى الموت مع ذلك ، قد استطاع أن ينتصر على حب الحياة هذا !

كان راسكولنيكوف يعانى من القاء هذه الأسئلة عذاباً شديداً ، ولا يستطيع أن يدرك أنه حين مال على ماء النهر فلعله أوجس فى نفسه وفى اقتناعاته كذباً . انه لم يدرك أن هذا التوجس يمكن ان يكون علامة انعطاف مقبل فى حياته ، وبشارة انبعاث جديد ، واستباقاً لتصوره الحياة فى المستقبل تصوراً آخر . وانما كان يتوهم أن هذا من ثقل الغريزة ، وعطالة الحركة ، وأنه من عجزه وجبنه لم يستطع التغلب على تلك العطالة . وكان اذ يلاحظ رفاقه فى الأسر يدهشه ما يراه من أنهم جميعاً يحبون الحياة حباً قوياً ، ويظلون متعلقين بها تعلقاً شديداً . حتى لقد كان يبدو له أنهم يحبونها ويظلون متعلقين بها أكثر مما يمكن أن يحبوها وأن يتعلقوا بها لو كانوا أحراراً طلقاء . ومع ذلك ما أقسى انواع العذاب ، وما أشد ضروب الآلام التى كان يعانيها بعضهم ! المتشردون مثلاً .. هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشأن الكبير كله وأن تكون تلك القيمة العظيمة كلها ، فى نظرهم ، لشعاع من شمس ، لغابة متوحشة ، لنبع ماء بارد فى قرارة الأحراج (نبع رآه أحدهم منذ ثلاث سنين ، فأصبحت صورته تلازمه حتى لكأنها صورة لقاء حب) ، لنبتة عشب خضراء طالعة حول ذلك النبع ، لطير يغرد فى الأدغال ؟

وأمعن راسكولنيكوف في الملاحظة مزيداً من الامعان ، فكانت تفجأ بصره ، وتثير دهشته أمثلةٌ أعسر فهماً من مثال المتشردين أيضاً . ان في المعتقل أموراً كثيرة كانت تفوته ، وكان هو لا يريد أن يراها على كل حال . لقد كان يعيش غاضاً بصره خافضاً عينيه ان صح التعبير . كان النظر الى ما حوله يثير اشمئزازه . غير أن أشياء كثيرة أخذت تفاجئه ، فاذا هو ، على غير علم منه تقريباً ، قد بدأ يرى ما لم يكن يدور فى خلده أو يخطر بباله قبل ذلك . ولعل ما أدهشه أكثر من أى شيء آخر هو الهوّة الرهيبة ، هذه الهوّة التى لا يمكن اجتيازها ، أعنى الهوّة التى تفصله عن هؤلاء الناس . لكأنهم ينتمون الى أجناس مختلفة . انهم ينظرون بعضُهم الى بعض نظرة شك وعداوة . وكان راسكولنيكوف يعرف ويفهم الأسباب العامة لهذا التنافر ، ولكنه لم يتصور فى يوم من الأيام أن هذه الأسباب يمكن أن تبلغ هذا المبلغ من العمق والقوة .

وكان فى السجن أيضاً سجناء بولنديون نُفوا الى سيبيريا لجرائم سياسية . فكان هؤلاء ينظرون الى الآخرين نظرتهم الى رعاع ، ويعاملونهم معاملة احتقار * ، غير أن راسكولنيكوف كان لا يستطيع أن يشارك فى هذا الرأى . ذلك أنه كان يدرك بوضوح أن هؤلاء الرعاع كانوا من نواحٍ كثيرة أذكى من أولئك البولنديين أنفسهم . وكان بين الروس أيضاً اناس يزدرون رفاقهم ، ولا سيما ضابط سابق ، ورجلان مثقفان . وقد ادرك راسكولنيكوف خطأ هؤلاء أيضاً .

ومع ذلك لم يكن يحبه أحد ، وكان الجميع يتحاشونه ويتجنبون صحبته . حتى لقد انتهى بهم الأمر الى كرهه . لماذا ؟ ليس يدرى ! كان بعضهم ، وهم أشد اجراماً منه ، يحتقرونه ويستهزئون به ، ويجعلون جريمته محل سخرية وتفكه وضحك ! كان هؤلاء يقولون له :

ـ أنت سيد ! فهل شأنك أنت أن تقتل بضربات ساطور ؟ ليس هذا شأن سيد من السادة !

وفى الأسبوع الثانى من « الصوم الكبير » ، جاء دوره للاعتراف والتناول مع سائر أفراد قسمه . فعل كما فعل الآخرون ، فذهب الى الكنيسة وصلّى . ولكن مشاجرة شبّت فى ذات يوم دون أن يعرف لماذا. لقد هجم عليه الجميع باندفاع شديد ، وأخذوا يصيحون قائلين له :

ـ أنت ملحد ! أنت لا تؤمن بالله ! يجب قتلك !

انه لم يكلمهم فى يوم من الأيام عن الله ، ولا عن الدين ؟ ولكنهم يريدون قتله بحجة انه ملحد لا يؤمن بالله . لم يعترض بشىء ، وصمت. ووثب أحد السجناء نحوه مهتاجاً مسعوراً . فانتظره راسكولنيكوف هادئاً صامتاً . لم يحرك ساكناً ، لم يتزحزح من مكانه ، ولا اختلجت قسمة من قسمات وجهه . واستطاع أحد الحراس أن يبادر فيحول بين المهاجم وبين راسكولنيكوف فى اللحظة التى همّ فيها الرجل أن يفتك بالضحية ، فلو تأخر الحارس لحظة واحدة لسال الدم .

هناك مسألة أخرى لم يستطع راسكولنيكوف أن يجد لها حلاً : لماذا عطفوا جميعاً على صونيا وأحبوها ؟ كانت صونيا لا تحاول أن تحظى بمودتهم . وكانوا لا يلقونها الا فى مناسبات نادرة ، أثناء العمل ، حين تجىء لتراه دقيقة واحدة . ومع ذلك عرفوها جميعاً ، وعرفوا جميعاً أنها تبعته « هو » ، وعرفوا جميعاً كيف تعيش وأين تسكن . وهى لا تهب لهم مالاً ، ولا تقدم اليهم خدمات خاصة . مرةً واحدة ، فى عيد الميلاد، حملت هديةً الى السجن كله : فطائر صغيرة وخبزاً أبيض. غير أن علاقات قوية قد انعقدت بينهم وبين صونيا شيئاً بعد شىء : أصبحت تتولى . عنهم كتابة رسائل الى أسرهم ، وتضع الرسائل فى البريد. والى صونيا انما كان أقرباء السجناء من الرجال والنساء الآتين من المدينة ، يعهدون بالأشياء أو

حتى بالأموال التي يريدون ارسالها اليهم ، باشارة من السجناء أنفسهم . كانت نساء السجناء وخليلاتهم يعرفن صونيا ويسعين اليها في بيتها ، وكان السجناء ، اذا هي ظهرت في ورشات العمل لترى راسكولنيكوف ، أو صادفت فريقا منهم ذاهباً الى العمل ، يرفعون لها طاقياتهم احتراماً ويحيونها جميعا . كان هؤلاء الجفاة الغلاظ الذين دُمغوا بالدناءة يقولون للفتاة الهزيلة النحيلة الضعيفة : « ماتوتشكا » * ، صوفيا سيميونوفنا ، أنت أمنا الحنون الشفوق » . وكانت صونيا ترد على تحيتهم ، وتبتسم لهم ، وكانوا جميعاً يحبون أن يروها تبتسم . كانوا يحبون حتى طريقتها في المشي ، فاذا مرت التفتوا يتابعونها بنظراتهم . كانوا لا يقولون فيها الا مدحاً ، كانوا يمدحون حتى ضآلتها . أصبحوا لا يعرفون كيف يمدحونها مزيداً من المدح . واذا مرضوا ذهبوا يلتمسون عندها علاجاً .

قضى راسكولنيكوف في مستشفى السجن نهاية الصوم الكبير كلها وأسبوعاً آخر . فلما أصبح في دور النقاهة تذكر الأحلام التي راها حين كان راقداً يعاني سكرات الحمى والهذيان . لقد حلم ، طوال مدة مرضه ، بأن العالم كله قد كتب عليه أن تلم به مصيبة رهيبة لا عهد بمثلها من قبل ، مصيبة وفدت من آخر آسيا ونزلت بأوروبا ؛ وأن جميع الناس سيهلكون الا قلة قليلة مختارة . ان طفيليات من نوع جديد قد ظهرت ، واختارت أجسام البشر مسكناً لها . غير أن هذه المخلوقات المكروسكوبية كائنات مزودة بعقل وارادة ؛ والبشر الذين تدخل أجسامهم يصبحون على الفور مجانين مسعورين ، ولكنهم يعدون أنفسهم على ذكاء عظيم لم يزعمه البشر لأنفسهم في يوم من الأيام قط ؛ فهم يعتقدون بأنهم معصومون من الزلل مبرأون من الخطأ ، في أحكامهم ، في نتائجهم العلمية ، في مبادئهم الأخلاقية والدينية . ان قرى ومدناً وأمماً بكاملها قد سرت اليها هذه العدوى ، وفقدت العقل . أصبح أفرادها يعيشون في حالة جنون ، لا يفهم

بعضهم عن بعض شيئاً ، لا يفهم أحد منهم عن أحد شيئاً ؛ كل واحد يؤمن بأنه الانسان الوحيد الذي يمتلك الحقيقة ، فاذا نظر الى الآخرين تألم وبكى ولطم صدره وعقف يديه لوعةً وحسرة . أصبح الناس لا يستطيعون أن يتفاهموا على ما ينبغي أن يعد شراً وما ينبغي ان يعد خيراً . أصبحوا لا يستطيعون لا أن يدينوا ولا أن يبرّئوا . أصبح البشر يقتل بعضهم بعضاً تحت سيطرة بغض لا معنى له وكره لا يُفهم . هم يجتمعون ليؤلفوا جيوشاً كبيرة ، فما ان يدخلوا معركة حتى يندلع الشقاق في جميع الصفوف فتنحل الجيوش ، ويأخذ الجنود يهجم بعضهم على بعض ، فيعض بعضهم بعضاً ، ويذبح بعضهم بعضاً ، ويلتهم بعضهم بعضاً . في المدن يدق ناقوس الخطر طوال النهار ، ويُستنفر الشعب . ولكن من الذي يستنفره ؟ ولماذا يستنفره ؟ ذلك أمر لا يعرف أحد عنه شيئاً . الرعب يستبد بجميع الخلق . المهن العادية هجرها أصحابها ، لأن كل واحد يعرض آراءه واصلاحاته ، وما من أحد يستطيع أن يتفق مع أحد . الزراعة أُهملت اهمالاً تاماً . هنا وهناك يجتمع أناس فيشكلون جماعات ويتفاهمون على القيام بعمل مشترك ، متعاهدين بأغلظ الأيمان على ان لا يفترقوا قط ، ولكنهم ما يلبثون أن يشرعوا في شيء لا يمت بأية صلة الى ما عقدوا النية على القيام به ، ثم ما يلبثون أن يأخذوا في التراشق بالتهم ، ثم ما يلبثون أن يقتتلوا فيذبح بعضهم بعضاً . وتشتعل الحرائق ، وتظهر المجاعة . كل شيء يصيبه الدمار ، وجميع الناس تقريباً يهلكون . البلاء ماينفك يشتد قوة ويتسع مدى . ولا ينجو من البلاء الا عدد قليل من الناس : هم الأنقياء الأطهار ، المصطفون الأخيار ، الذين كتب عليهم ان ينشئوا جنساً جديداً وأن يقيموا حياة جديدة ، أن يجددوا الأرض ويطهّروها . غير أن أحداً لم ير أولئك الأفراد في مكان ، ولا سمع أقوالهم ولا سمع أصواتهم .

ان الشيء الذي كان يعذب راسكولنيكوف هو أن ذلك الهذيان السخيف يترجّع في ذاكرته ترجعاً أليماً ، وأن الانطباع الذي خلفته تلك الأحلام لا يمّحي الا ببطء .

وجاء الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح . أصبحت الأيام دافئة مضيئة . هي أيام ربيع حقاً . فُتحت نوافذ المستشفى لأول مرة (هي نوافذ ذات قضبان حديدية يحرسها خفير) .

طوال مدة مرض راسكولنيكوف لم يُسمح لصونيا أن تزوره الا مرتين ، وقد اضطرت في المرتين كلتيهما أن تطلب اذناً بذلك ، فكان يقتضيها هذا أن تقوم بمساعٍ معقدة جداً . لكنها كثيراً ما كانت تأتي الى فناء المستشفى ، ولا سيما عند هبوط الليل لتنظر الى النوافذ من بعيد ، ولتمكث في الفناء بضع دقائق أحياناً .

ففي مساء من الأماسي ، وكان راسكولنيكوف قد أبلّ من مرضه تقريباً وكان نائماً ، صحا من نومه واقترب من النافذة مصادفة ، فاذا هو يلمح صونيا تحت ، قرب الباب . كانت واقفة وكأنها تنتظر شيئاً . فشعر راسكولنيكوف بما يشبه أن يكون طعنةً نفذت في قلبه . فارتعش واسرع يبتعد عن النافذة .

ولم تجيء صونيا في غد ، ولا جاءت بعد غد . فأدرك راسكولنيكوف عندئذ أنه ينتظرها فارغ الصبر . وأُخرج أخيراً من المستشفى ، فلما عاد الى السجن علم من السجناء أن صوفيا سيميونوفنا مريضة ، وأنها ملازمة غرفتها لا تبرحها .

قلق راسكولنيكوف قلقاً شديداً ، وأرسل يسأل عنها . فلم يلبث أن عرف أن مرضها ليس خطيراً . وحين علمت صونيا من جهتها أنه يتألم من غيابها عنه وأنه قلق عليها بعثت اليه برسالة كتبتها بالقلم الرصاص، وفيها تنبئه بأن صحتها تحسنت كثيراً ، وأن مرضها لم يكن الا برداً بسيطاً ،

وأنها ستمضي تراه أثناء العمل في أقرب فرصة. فكان قلب راسكولنيكوف يخفق خفقاناً موجعاً أثناء قراءته هذه الرسالة .

كان النهار في هذه المرة كذلك مضيئاً دافئاً . ومضى راسكولنيكوف الى العمل على ضفاف النهر في ساعة مبكرة من الصباح هي الساعة السادسة ، وذلك تحت سقيفة أعدّ عندها فرن لطبخ الرخام . لم يرسل الى هذا المكان الا ثلاثة عمال من السجناء . فأما الأول فقد عاد مع المراقب الى السجن ليجيء بالأدوات ، وأما الثاني فكان يهيىء الحطب للفرن . وخرج راسكولنيكوف من تحت السقيفة واقترب من الشاطىء وجلس على احدى عوارض الخشب المصطفة قرب المبنى وأخذ يتأمل النهر العريض المقفر . ان المرء يرى ، من على هذه الضفة العالية ، مساحةً واسعة . ووصل من الضفة الأخرى غناء لا تكاد تسمعه الأذن . ان هناك في المرج الذي تغمره الشمس ، والذي يمتد على مدى البصر ، خيام ، بدوٍ رحّل تبدو للناظر اليها نقاطاً صغيرة سوداء . هناك الحرية . هناك يعيش بشر آخرون ، يختلفون كل الاختلاف عن البشر الذين يعيشون هنا . هناك يبدو الزمان متوقفاً كأن عصر ابراهيم وقطعانه لمّا ينصرم بعد . كان راسكولنيكوف ينظر الى ذلك المشهد جالساً في مكانه جامداً على وضعه ، لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره . لقد انزلق فكره نحو الاسترسال في الأحلام والاستغراق في التأمل دون أن يحس. أصبح لا يفكر في شيء ، واجتاح نفسه حزنٌ كبير .

وفجأة وقفت صونيا أمامه . كانت قد دنت منه دون ضجة ، وهاهي ذي تجلس الى جانبه . ان برودة الصباح لم تكن قد خفّت بعد . وكانت صونيا ترتدي معطفاً فقيراً ، وتضع الشال الأخضر . وكان وجهها الناحل المصفر ما يزال يحمل آثار مرضها الأخير . ابتسمت له في رقة ولطف ، مرحة الهيئة ، ولكنها على عادتها لم تمدد اليه يدها الا خجلة وجلة .

كانت دائماً تمد اليه يدها على خجل ووجل ، وكانت فى بعض الأحيان لا تمدها اليه البتة ، كأنما هى تخشى أن يدفعها عنه . كان يبدو عليه دائماً أنه يتناول يدها بنفور وامتعاض ، وكان يبدو عليه دائما انه يستقبل الفتاة باستياء ومضض . وفى بعض الأحيان كان يصرّ على الصمت فى عناد طوال مدة الزيارة . وكانت صونيا فى بعض الأيام ترتعش امامه، ثم تنصرف وفى نفسها حزن عظيم ولوعة شديدة . أما فى هذه المرة فان يديهما لم تحاولا أن تنفصلا . ألقى راسكولنيكوف عليها نظرة سريعة خاطفة ، ولم يقل شيئاً ، وخفض عينيه . كانا وحيدين . لم يكن يراهما أحد . كان الحارس قد ابتعد لحظة .

لا يدرى راسكولنيكوف نفسه كيف حدث ما حدث ، ولكنه يعرف أنه شعر فجأة بشىء يستبد به ويلقيه على قدمى صونيا . لقد ارتمى راسكولنيكوف على قدمى صونيا ، وبكى ، وضمّ ركبتيها الى صدره . ذُعرت فى أول الأمر ذعراً شديداً ، وغشيت وجهها صفرة كصفرة الموتى . ثم نهضت فجأة ، ونظرت اليه مرتجفة مرتعشة . ولكنها سرعان ما أدركت كل شىء بنظرة واحدة . أخذت عيناها تشعان بسعادة لا حدود لها . لقد فهمت ـ وليس يخالجها الآن فى ذلك أى شك ـ فهمت انه يحبها ، وأنه يحبها حباً ليس له نهاية ، وأن تلك الدقيقة قد آن اوانها أخيراً ...

أرادا أن يتكلما ، ولكنهما لم يستطيعا . امتلأت عيناهما دموعاً . كانا كلاهما أصفرى الوجه هزيلى الجسم ؟ ولكن هاهو ذا فجر مستقبل جديد يسطع فى وجهيهما منذ الآن شوقاً كاملاً الى حياة جديدة . لقد بعثهما الحب بعثاً جديداً ، ان قلب كل منهما يفجّر فى قلب الآخر ينابيع حياة لا تنضب .

قررا أن ينتظرا وأن يذعنا . ما يزال عليهما أن يقضيا سبع سنين

أخرى في سيبيريا • صحيح أنهما سيتحملان أثناء هذه المدة آلاماً لا تطاق، ولكنهما سيسعدان أيضاً سعادة ليس لها حدود ! لقد انبعث راسكولنيكوف بعثاً جديداً • هو يعرف ذلك • هو يحس ذلك بكيانه كله• وهي، أليست تحيا بحياته ، أليست حياتها من حياته ؟

في ذلك المساء ، في القاعة المقفلة ، فكّر راسكولنيكوف في صونيا وهو راقد على مضجعه • وبدا له ، في ذلك المساء أيضاً ، أن جميع السجناء ، جميع أعدائه القدامى ، نظروا اليه نظرة جديدة ، ورأوه باعين أخرى • لقد خاطبهم ، فأجابوه برقة ونعومة • هو يتذكر ذلك الآن ، ولكن أليس هذا هو ما يجب أن يكون : أليس يجب أن يتغير كل شيء بعد اليوم ؟

فكّر في صونيا • فتذكر أنه قد عذّبها دائماً ، وأنه كان يمزق قلبها تمزيقاً • تذكر وجهها الصغير الشاحب الذي تحل تحولاً شديداً ، ولكن هذه الذكريات أصبحت لا تكاد تعذبه • فهو يعرف أنه سيكفر الآن عن جميع تلك الآلام بحب لا نهاية له •

ثم ، ما قيمة تلك الآلام الماضية « كلها » الآن ؟ ان كل شيء ، حتى الجريمة التي ارتكبها ، وحتى الحكم الذي صدر عليه ، وحتى النفي الذي يقاسي منه ، ان كل هذا هو الآن أثناء هذه الاندفاعة الأولى ، يبدو له نسيجاً من وقائع خارجية غريبة عنه لا تتعلق بشخصه ولا تتناوله هو • ثم ان راسكولنيكوف كان في ذلك المساء عاجزاً عن أن يفكر تفكيراً طويلاً متصلاً ، وعن أن يركّز فكره على نقطة بعينها ، وعن أن يحل مشكلة من المشكلات على هدى وبصيرة : فانما هو يشعر باحساسات ، ولا شيء غير الاحساسات • لقد حلت الحياة محل الجدل ؛ وفي أعماق نفسه أصبح ينضج شيء آخر تماماً •

وكان تحت وسادته انجيل ، فتناوله بحركة آلية • كان هذا الكتاب

لصونيا ، وهو بعينه الكتاب الذى قرأت له فيه فى الماضى قصة انبعاث لعازر. كان راسكولنيكوف يقدّر فى أول عهده بالسجن أن صونيا ستصدّع رأسه بالكلام على الدين ، وأنها ستحدثه عن الانجيل بغير انقطاع ، وأنها ستحاول أن تفرض عليه كتباً دينيــة . فما كان أشد دهشــته حين لم تطرق هذا الموضوع فى يوم من الآيام ، لا ولا عرضت عليه أن تجيئه بالانجيل قط. انه هو الذى طلب منها ذلك بعد مرضه ، فحملت اليه الكتاب دون ان تقول كلمة واحدة .

وهو لم يفتحه فى تلك المرة ، لكن فكرة قد اجتازت رأســه الآن بسرعة كوميض البرق : « هل يمكن أن لا يكون ايمانها الآن هو ايمانى ؟ أو هل يمكن على الأقل أن لا تكون عواطفهــا وأشــواقها هى عــواطفى وأشواقى ؟ ... » .

وقد اضطربت صونيا اضطراباً شديداً طوال ذلك اليوم هى أيضاً ، وألمّ بها المرض مرة أخرى فى تلك الليلة . ولكن سعادتها كانت تبلغ من القوة ، وكانت تبلغ من المباغتة ، أنها تكاد ترعبها ! سبع سنين ، سبع سنين « فقط » !

ومرّت بهما فى البداية ساعات نشــوة كانا فيهــا كمن يعد الســنين السبع أياماً سبعة . كان راســكولنيكوف ما يزال يجهل أن هذه الحيــاة الجديدة لن توهب له بغير تضحية ، وأن عليه أن يدفع ثمنها غالياً ، وأن يحصل عليها بجهود شاقة قاسية مضنية ...

ولكن هنا تبدأ قصة أخرى ، قصة تجدد انسان شيئاً بعد شيء ، قصة انبعاثه رويداً رويداً ، قصة انتقاله من عالم الى عالم آخر متدرجاً ، قصة معرفته بواقع جديد كان يجهله حتى ذلك الحين كل الجهل .

هذا يصلح أن يكون موضوع قصة جديدة ، أما قصتنا التى نرويها الآن فهى تنتهى هنا .

حواش

الصفحة

١٤ ★ « وأنه ما من انســـان ··· » : وردت في النص بالـلاتينية Nihil humanum ، وهي اشارة الى جملة تيرانس المشهورة: «انا انسان ، فلا شيء مما هو انساني بغريب عني» ·

١٩ ★ عهد « النقد المفيد » : الاشارة هنا الى مطلع الستينات من القرن التاسع عشر بروسيا ، حين أخذت الجرائد تهـاجم العادات الاجتماعية وتندد ببعض عيوب النظام السياسي ، في جو يسوده شيء من الحرية · ففي شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٦١ ، نددت عدة صحف ، ومنها جريدة «الزمان» التي كان يصدرها دوستويفسكي ، نددت بسيد اسـمه كوزليانينوف ضرب بالسوط امرأة ألمانية في القطار ·

١٩ ★ « الفاحشة التي تحدثت عنهـا مجلة العصر » : في عام ١٨٦١ نددت المجلة الأسبوعية «العصر» ، (في رســالة من مراسلها بمدينة برم) ، بالتمثيلية الايمائية الخليعة التي قدمتها سيدة قرأت قصة بوشكين « ليالي مصر » التي يصف فيهـا غراميات كليوباتره · وقد انبرت مجلة أخرى ترد على مجلة « العصر » وتسفه تدخلهـا هذا · وقـد شارك دوستويفسكي في تلك المساجلات (في مجلته «الزمان») ، متهكما على الصحفيين الذين يأخذون مأخذ الجد أمرا تافها لا قيمة له ·

٢٢ ★ « أنت تعلم أن قوانين الاصلاح الزراعي لم تمسسنا بسوء » : ان قانون الاصلاح الزراعي الذي صدر في ١٩ نيسان (أبريل) سنة ١٨١٦ ، لم يهب للأقنان الذين أعتقهم الا الاراضي الصالحة للزراعة التي كانوا يزرعونها هم ، أما الغـابات والمراعي فقد ظلت ملكا للسادة ·

٢٢ ★ « مطاعم دوسو » : هو فندق ومطعم فرنسي كان له صيت ذائع حينذاك ، وقد أقام فيه دوستويفسكي زمنا · والحـديث عن

« الحلقات » اشارة الى مكان بجزيرة ايلاجين اسمه «الحلقة» ، وهو محل ملاه ومباهج وملذات شعبية ٠

٢٣ ★ « يونانى صغير من نييجين » : فى عام ١٧٧٩ نزح عدد كبير من يونان القرم فى عهد كاترين الثانية ، الى مدينة نييجين ، وهى مدينة صغيرة من مدن أكرانيا لا تبعد كثيرا عن مدينة كييف ٠ وقد أصبح كثير من هؤلاء اليونان تجارا أغنياء ٠

٢٤ ★ « لأن خمرتى فسدت » : بالفرنسية فى الأصل ، والمقصود بالعبارة أن الرجل أصبح لا يميل الى الشراب ٠

٢٤ ★ « بيرج » : ألمانى كان يعلم رقص الباليه ويتعاطى الطيران بالمنطاد ، وقد نظم فى بطرسبرج نزهات طيران بالمنطاد ٠

٢٥ ★ « محطة مالايا ــ فيشيرا » : محطة تقع على خط موسكو ــ سان بطرسبرج ، وتبعد عن العاصمة مسافة ١٥٠ كيلومترا ٠

٢٧ ★ « آنيسكا » : تصغير تحقيرى لاسم آنيسيا ٠

٢٨ ★ « فيلكا » : تصغير تحقيرى لاسم فيليب ٠

٣٦ ★ من المعروف أن دوستويفسكى كان معجبا أشد الاعجاب بلوحة رافائيل « مادونا سيكستين » التى تأملها كثيرا بمدينة درسدن، وكان يحتفظ فى حجرة مكتبه بصورة منسوخة منها ٠

٣٦ ★ « عمارة فيازمسكى » : عمارة كبيرة بمدينة سان بطرسبرج كانت فيما مضى ملكا لأسرة الأمراء فيازمسكى ٠ وهى فى العهد الذى تجرى فيه أحداث الرواية يسكنها أناس فقراء جدا ، وتضم بيوتا مشبوهة ومأوى ليليا ٠

٥٥ ★ ان اسم رازوميخين مشتق من كلمة رازوم الروسية ومعناها «العقل» ٠ وهنا يتظاهر لوجين بنسيان الاسم ، ويحل محله اسم رازودكين ، المشتق من كلمة رازودوك الروسية ومعناها « الذكاء » ٠

٧٢ ★ « ضعيف » : وردت الكلمة بالالمانية فى الأصل Schwach ويجب أن يشار هنا الى أن مشروع رازوميخين الذى يدور عليه

الكلام في هذه المحادثة يعبر عن المتاعب التي لقيها دوستويفسكي نفسه من الناشرين ، وعن الحلم الذي كان يحلمه دائما وهو أن يتولى نشر مؤلفاته بنفسه ٠

١٠٠ ★ « أين الحديث عن قيام لعازر ؟ » : يجب أن نتذكر أن قاضي التحقيق كان قد سأل راسكولينكوف هل هو يؤمن بقيام لعازر (الجزء الثالث ، الفصل الخامس) ٠

١٠٠ ★ « الفرسخ السابع » : كان يوجد ، في أوديدلنايا ، على مسافة سبعة فراسخ من سان بطرسبرج ، مستشفى للمجانين ؛ فكان يطلق اسم «الفرسخ السابع» على ذلك المستشفى ، كما يطلق اسم «العباسية» في القـــاهرة على مستشفى الامراض العقلية الموجود في حي العباسية بها ٠

١٠١ ★ « سترى الله » : اشــــارة الى الآية الواردة في انجيل متى : «طوبى للأطهار ، لأنهم سيرون الله» (الاصحاح الخامس ، ٨) ٠

١٠٢ ★ انجيل يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر ٠

١٠٨ ★ انجيل مرقص (الاصحاح العاشر ، ١٤)

١١١ ★ كان مفوضو التحقيق جزءاً من الشرطة ، فلمـــا صدرت قوانين الاصلاح القضائي في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر ١٨٦٤) ، حل محلهم قضاة التحقيق التابعون لوزارة العدل ٠

١٢٠ ★ « ذلك واجب لا مفر منه » : بالفرنسية في الأصل ٠

١٢١ ★ « فستتغير أسماؤنا على الأقل » : اشــارة الى قوانين الاصلاح القضائي المرتقب (راجع حاشية الصفحة ١١١) ، وهذا يحدد لأحداث الرواية تاريخا هو تموز (يوليو) ١٨٦٤ ٠

١٢٤ ★ « بعد معركة ألما رأســا » : هي معركة ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١٨٥٤ التي خسرها الجيش الروسي فانــكفأ الى سيباستوبول أثناء حملة القرم ٠

١٢٧ ★ اشارة الى بداية حملة ١٨٠٥ حين أفسد نابوليون خطط «المجلس الحربي الأعلى (هوفكريسجرات) بالنمسا ، وأسر في أولما الجنرال النمسوي ماك هو وجيشه ٠ ان تلك الاحــــداث قـــد وصفها

تولستوى فى روايته الكبرى «الحرب والسلم» (الجزء الاول) الذى بدأ نشره فى مجلة « الرسول الروسى » (كانون الثانى وشباط ــ يناير وفبراير) عند بدء نشر الاجزاء الاولى من رواية الجريمة والعقاب هذه ·

١٤٤ ★ « بقســاوسة ونواب » : من الأنظمة المتبعة فى بداية تحقيق قضــائى أن يؤتى بقسيس يحلف المتهم أمامه اليمين ؛ ويؤتى أيضا بنائب من نواب طبقته الاجتماعية ليعرف بهويته ·

١٦٩ ★ « متجر كنوب أو المتجر الانجليزى » : متجران شهيران فى قلب سان بطرسبرج تباع فيهما أدوات الترف الراقية ·

١٧١ ★ « يسمون تقدميين أو عدميين أو مصلحين » : كانت هذه الأسماء الثلاثة تطلق على التيار الراديكالى السائد بين الشبيبة فى ذلك الأوان · ومن المعروف أن اسم «العدمى» انما أوجده تورجنيف وكان قد استعمله فى روايته « الآباء والابناء » ·

١٨٣ ★ «لقد مضينا فى اعتقاداتنا الى مدى أبعد ··» : ان ليبتزياتنيكوف يعرض هنا آراء بيزاريف (١٨٤٠ ــ ١٨٦٨) المتطرفة الموغلة فى الراديكالية ؛ وهو لهذا يهاجم الناقد دوبروليوبوف (١٨٣٦ ــ ١٨٦١) الذى كان كذلك راديكاليا جدا ، ويهاجم الناقد الكبير بيلنسكى (١٨١١ ــ ١٨٤٨) ·

١٨٥ ★ « بل انه لأكبر كثيرا من عمل رجل مثل رافائيل أو بوشكين» : ان ليبزياتنيكوف يبــالغ فى آراء بيزاريف وتلميذه زايتسيف اللذين كانا يدافعان عن مذهب المنفعة ، ويناديان بأن حذاء من الحذائين أنفع للمجتمع من شكسبير أو بوشكين ·

٢٠١ ★ « السيدة الليبوتنانة » : باللغة البولندية فى الأصل ·

٢٢٨ ★ بالألمانية فى الأصل ·

٢٣٩ ★ « العرض العام للمنهج الوضعى » : كتاب ظهر ببطرسبرج سنة ١٨٦٦ يضم ترجمات مقالات علمية مادية الاتجاه لعدد من المؤلفين: فيرشوف ، كلود برنار ، موليشوت ، تيودور بيدريت («الدماغ والفكر ») ، آدولف فاجنر (« ما يدل عليه الاحصاء من أن الافعال التي تبدو حرة في الظاهر انما هى حتمية فى الواقع ») ·

٢٨٣ ★ « سيميون زاخارتش » : هو مارميلادوف .

٢٨٤ ★ « باولين ميخائيلوفنا » : هي بوليتشكا .

٢٨٥ ★ لعل «الاستاذ العالم المقصود هنا هو الطبيب الفرنسي فرانسوا لوريه (١٧٩٥ ـ ١٨٥١) مؤلف كتاب «المعالجة النفسية للجنون» (١٨٣٨)

٢٩٣ ★ « ليتيا ، انضبي قامتك » : بالفرنسية في الأصل .

٢٩٥ ★ « الفارس المتــكىء على سيفه » : هذه هي الكلمات الاولى من قصيدة « فراق » للشاعر الرومانسي باتيوشكوف ؛ وقد لحنت القصيدة سنة ١٨١٤ ، وراجت رواجا كبيرا .

٣٠٤ ★ « لك ماس ولآلى » : مطلع أغنية عاطفية من شعر هايني .

٣٠٤ ★ « تحت أشعة الشمس الحــارة ، بوادي داغستان » : مطلع قصيدة للشاعر ليرمونتوف عنــوانها «الحلم» (١٨٤١) ، وفيها يرى الشاعر نفسه في واد بالقوقاز ، يحتضر وحيدا .

٣١٥ ★ « جزيرة كرستوفسكي » : جزيرة من أنأى جزر نهر نيفا .

٣٢٧ ★ «الدكتور ب ...» . اغلب الظن أنه الدكتور سرجي بتروفتش بوتكين (١٨٣٢ ـ ١٨٨٩) ، وهو طبيب شهير في ذلك الأوان .

٣٣٣ ★ « دون جدوى » : بالألمانية في الأصل .

٣٣٦ ★ « الى صباح غد » : بالألمانية في الأصل ، (Morgen früh) وهو تعبير ألماني يستعمل بمعنى قولنا : « دعك من هذا الكلام! لا أصدقك ! » .

٣٧١ ★ « كما يدل على ذلك اسمه ... » : كانت تطلق أسماء جديدة على أبناء رجال الدين حين دخولهم مدارس اللاهوت ، وكانت هذه الأسماء تستمد أحيانا من مزايا روحية ، فاسم دوبروليوبوف

يعنى « محب الخير » ، واسم زدرافوزميسلوف يعنى « السديد الرأى»، واسم رازوميخين مشتق من كلمة رازوم ومعناها العقل .

٣٧١ ★ « باراشا » : تصغير اسم براسكوفيا .

٣٧٩ ★ «الطبيعة والحقيقة» : بالفرنسية فى الأصل . ان سفدريجايلوف يحب استعمال عبارات فرنسية ويكثر منها فى حديثه .

٤١١ ★ « فوكسهول » : كانت هذه الكلمة الانجليزية فى أول الأمر اسما لضاحية من ضواحى لندن أصبحت حديقة ملاه شعبية فى القرن الثامن عشر . وقد أنشئت حدائق مشابهة لها فى القارة الاوربية أطلق عليها هذا الاسم نفسه ؛ ومنها حديقة فى روسيا قريبة جدا من محطة بافلوفسك ؛ وقد أصبحت الكلمة فى نطقها الروسى الآن (فوكسال) تعنى كل محطة من محطات السكة الحديدية .

٤١٤ ★ « فلاديمير » : العاصمة القديمة لروسيا فى القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر ، وهى تقع شمال شرق موسكو . وقد أصبحت الطريق الذى تسلكه قوافل السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، للوصول الى سيبيريا ؛ وهكذا فان « طريق فلاديمير» تعنى «المعتقل» .

٤٢٩ ★ ان رواية الكسندر دوما « غادة الكاميليا » (١٨٤٨) والمسرحية التى تحمل هذا الاسم نفسه قد راجتا رواجا كبيرا جدا فى روسيا . وأصبح اسم «كاميليا» يعنى البغى الراقية .

٤٣٢ ★ « المبنى الذى يعلوه برج » : هو ثكنة لرجال الاطفاء ؛ وخوذة آخيل هى الخوذة التى يحمون بها رءوسهم .

٤٦٢ ★ « عدم » : باللاتينية فى الأصل nihil est ، اشارة الى المذهب العدمى .

٤٦٣ ★ « مذكرات ليفنجستون » : ان كتاب ليفنجستون «استكشافات فى داخل أفريقيا الوسطى » قد ظهر بلندن سنة ١٨٦٥ . وقد ترجمه الى الروسية وأصدره سنة ١٨٦٧ ، نيقولا ستراخوف صديق دوستويفسكى .

٤٦٤ ★ لم تكن مدرسة الطب بمدينة بطرسبرج احدى كليات الجامعة ، كما فى المدن الاخرى ، وانما كانت «أكاديمية للطب والجراحة» مستقلة •

٤٨٢ ★ « على ضفاف نهر إيريتش » : ان هذا النهر الذى تقع على شاطئه مدينة أومسك ، قد سبق أن ذكره دوستويفسكى فى كتابه « ذكريات من منزل الأموات » •

٤٨٧ ★ الاشارة هنا الى السجناء البولنديين السياسيين الذين سبق أن تحدث عنهم دوستويفسكى فى كتابه « ذكريات من منزل الاموات» • ألم يقل أحدهم ، وهو ميريكى ، ألم يقل عن المجرمين العاديين : «اننى أكره قطاع الطرق هؤلاء !» •

فهـــــرس

أعمال دوستويفسكي الأدبية الكاملة

المجلد ١

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد ٢

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة في تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر ، ورجل تحت السرير

المجلد ٣

قرية ستيباتشيكوفو وسكانها
حلم العم

المجلد ٤

مذلون مهانون

المجلد ٥

ذكريات من منزل الأموات

المجلد ٦

في قبوى
قصة اليمة
ذكريات صيف عن مشاعر شتاء
التمساح

المجلد ٧

المقامر
الزوج الأبدي

المجلد ٨

الجريمة والعقاب ١

المجلد ٩

الجريمة والعقاب ٢

المجلد ١٠

الابله ١

المجلد ١١

الابله ٢

المجلد ١٢

الجن ١

المجلد ١٣

الجن ٢

المجلد ١٤

المراهق ١

المجلد ١٥

المراهق ٢

المجلد ١٦

الأخوة كارامازوف ١

المجلد ١٧

الأخوة كارامازوف ٢

المجلد ١٨

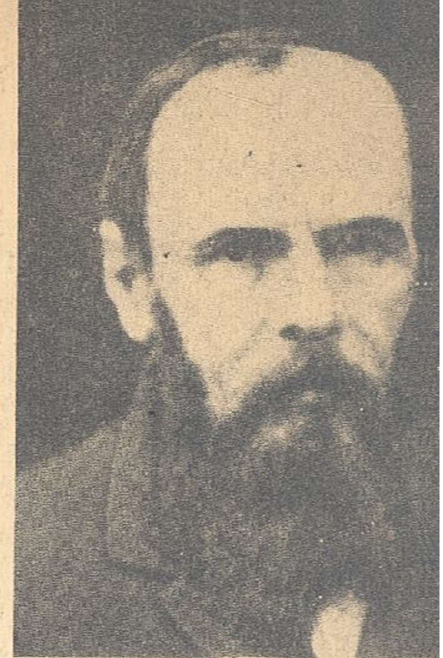
الاخوة كارامازوف ٢

المجلد ١٩

من « يوميات كاتب »
رسائل

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٣٤٠٨ / ١٩٧٠



الثمن ٦٠ قرشاً

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر